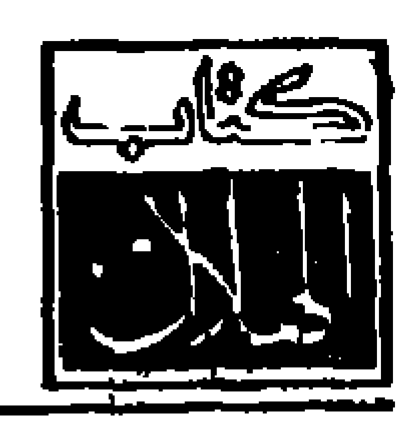

Bibliotheca Alexandrina
0136556


كتاب الهلال
يحيى حقي
خليها على الله



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٤٨١ ـ جمادى الثاني ـ يناير ١٩٩١

المكاتبات : ص . ب ٦١٠ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١

تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

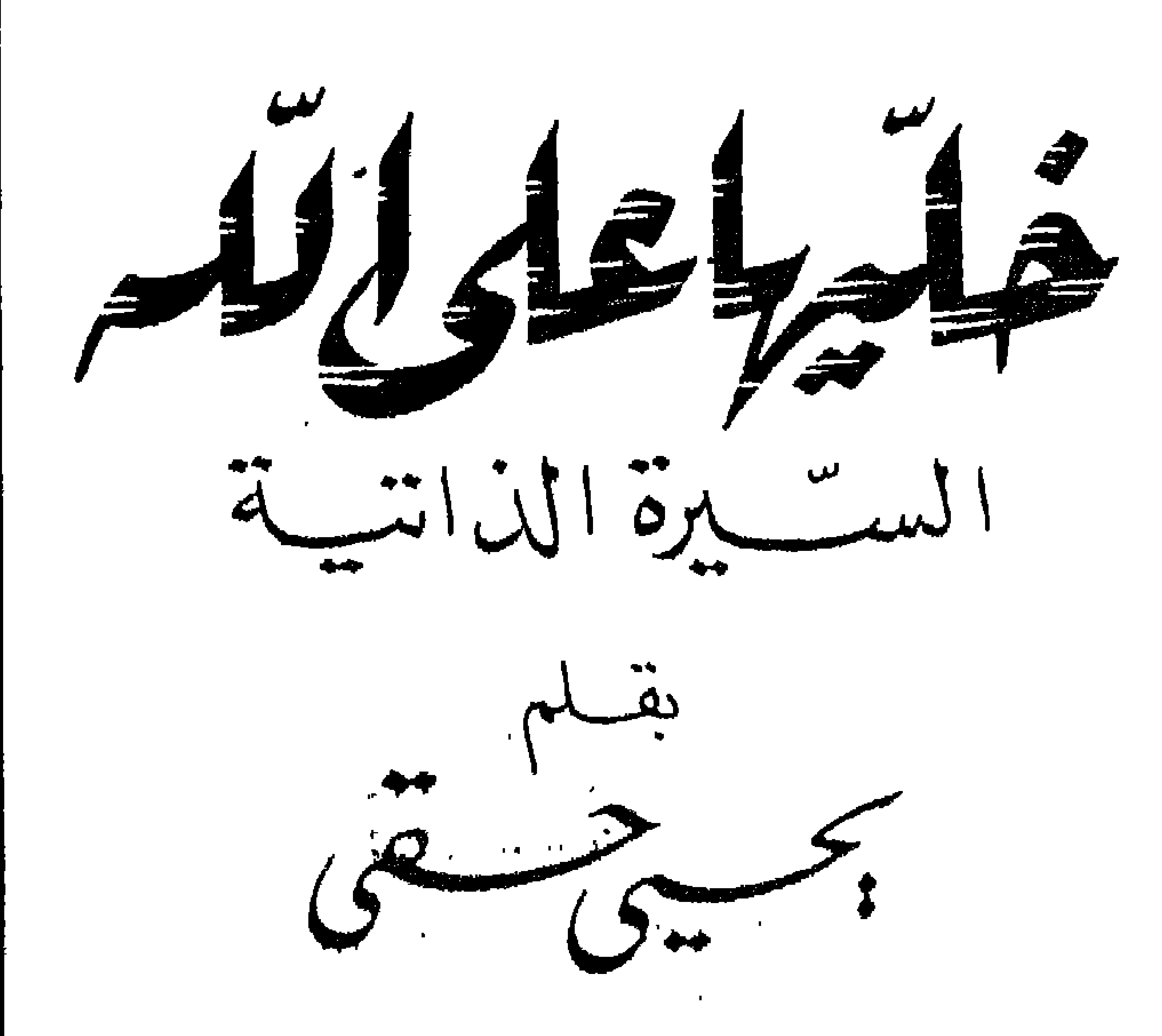
تلكس : TELEX 92703 HILAL U.N.

فاكس : FAX 3625469

مكتب الاسكندرية : ٢٥ شارع النبى دانيال ـ ت : ٤٩١٢٦٩٦ / ٢٤٧٢٠٠

أسعار البيع للعدد فئة ٢٥٠ قرشا

لبنان ٣٠٠٠ ليرة ، الأردن ١,٥ دينار ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريالات تونس ٢ دينار ، المغرب ٣٠ درهما ، الكويت ١,٥ دينار ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الأمارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١ ريال ، غزة والضفه والقدس ٥ دولار ، انجلترا ١,٥ جك .



مقدمة بقلم

محمد روميش

دار الهلال

الغلاف تصميم الفنان :
محمد أبو طالب

مقدمة

نعم ... خليها على الله

بقلم : محمد روميش

كتابات استاذنا الجليل « يحيى حقى » ليست في حاجة الى أحد لتقديمها ، فصاحب « مجموعة قصص « دماء وطين » وفيها قصة « البوسطجي » سنة ١٩٣٢ الرائدة في فن القصة المصرية القصيرة وتحقيق شكل « الفلاش باك » لاول مرة في أدبنا الحديث ، هي دراسة ، على مستوى الفن ، للغريزة ، تعمل في بيئة طليقة ، وصاحب رواية « قنديل أم هاشم » والتى واجهت ، على مستوى الفن ، العلاقة بين الشرق الذي ننتمي اليه ، والغرب الذى يربض الى جوارنا متربصا بنا للانقضاض ، وقد اقترح صاحبها أن تحمل فى ترجمتها الفرنسية الحديثة سنة ١٩٩٠ ، عنوان « الصدمة » صدمة « اسماعيل » ، بطلها ، فى تلقيه حضارة الغرب ؛ وصاحب مجموعة قصص « أم العواجز » فى تعاطفها — على مستوى الفن — مع الانسان البسيط ، وهمومه الثقال ، ولتمثل دلالة صادقة وعميقة ، على موقع صاحبها ، وأين يقف ، بالفن والفكر ، فى معترك المجتمع وصراعاته ، وصاحب رواية « صح النوم » التى قدمت — هى الأخرى — نماذج حية من النفس البشرية ، فى تعقدها وتخفيها وتمردها على النمزجة ، وهى الرواية التى قالت ، فى وقت مبكر « ١٩٥٤ » ، نصيحة لثورة ١٩٥٢ ، أن انتبهى الى أخطار طغيان أجهزة الأمن ،

وان دعي الانسان المصري ، الذي ، عاني ، تاريخا طويلا من الخوف ، أن يتخلص من الرقابة على الذات ، وان دعى الفن يزدهر ، وعن طريق الحث ، اتخذى من الديمقراطية الانتخاب الحر ، وسيلتك الى التغيير . وصاحب القصة الفريدة « الفراش الشاغر » ومجموعتها التى تحمل نفس الاسم ، والتي تزلزل سكينة القارىء وترجه بعنف ، ان استيقظ ، انتبه ، أفق ، عاين ما يجنبه ضعف الارادة من تدمير في الكيان البشرى ، لا ، لا تكن كالسائمة ، تسيرها الغريزة ، كن انسانا صاحب ارادة .

وقد نشرت هذه القصة ، اول مرة ، فى مجـــلة « الكاتب » العدد الأول ، أول ابريل ١٩٦١ ، وقد قدمتها المجلة بمقدمة قصيرة ، دالة ، عنوانها ، « الفن والسلبية » ونصها « السلبية أم الخبائث كلها ، هى التى تنحـــدر بضحيتها الى الحضيض ، انها عدو المجتمع ، قاتلة لكرامة الانسان ، وامالة رأس القارىء لحظة على الهوة ليــدرك بشاعتها ، وقاية له من الوقوع فيها وايقاظ لقدرته على المشاركة الانسانية ، وتبصير له بنعمة الجمال ، ما أحلى التنفس فى الهواء الطلق بعد الاختناق فى الجحور المسمومة، وخير أداة لبلوغ هذا الغرض هو الرمز ، والادب العربى فى تطوره الحديث ينبغى أن يألف كل الاساليب . التوقيع « لويس عوض » الا أن القارىء المدقق سيلاحظ ، ان لغة هذه السطور ليست لغة أستاذنا لويس عوض ، وان مســـار فكريتهـــا يخـــالف مســـار أفكـــاره ، ولم يكن الواقع ، الا أنها ، كلمات وأسلوب « يحيى حقى » نفسه ، رغم أنها تحمل اسم « لويس عوض » . ويحيى حقى ، صاحب مجموعة قصص « ســـارق الكحل » ـ

مختارات فصول ، خارج طبعة أعمـاله الـكاملة ، ومنها ، القصة الطويلة « كأن .. » وبها يحقق الكاتب ، عبور الهوة بين الواقع المضطرب المعاش ، وبين الفن المتخيل ، والواقع قاتل شاذ ، يقرأ عنه يحيى حقى فى الصحف ، ويلاحقه فى المحكمة ، وهو داخل قفص الاتهام ، يحاول أن يسبر غوره ، اثنتا عشرة جريمة قتل واعتداء ، كيف يتحول الانسان الى قاتل ، انه « المعمل » الذى يقيمه الفنان ، يستمد منه « ماعونة » الا أن يحيى حقى ، لا يدعـــو ولا يطبق « طبيعية » اميل زولا ، ان يحيى حقى ، يسمى القصة « كأن .. » متجاوزا بالكلمة ، أن تكون مجرد عنوان قصة ، الى نظريته فى الفن .. خلاصتها المركزة ، ان الفن ليس هو الواقع ، ان الفن « كأن » هو الواقـــع ، فبين الواقع ، والفن المعبر عن هذا الواقع ، مسافة .

ويحيى حقى يفضل أن يستعيض عن اصطلاح الادب ، اصطلاح « فن القول » ليشمل ، القصة والروايه واللوحة والنقد والمقال الأدبى .

واذا كنا قد أومأنا الى ريادة ، يحيى حقى ، لفن القصة القصيرة الحديثة منذ ١٩٢٦ ، فقد بقى أن نشير الى انه ، اثرى فن اللوحة الأدبية ، وعنده لا تخلو اللوحة الأدبيـة من عنصر قصـصى ، حادثه وحـوار سريع ذكى كاشف ، الا انها تضيق بملالة السرد والحيل، وتستجيب للتعبير عن عنصر المفارقة فى الحياة ، وتتيح له مســاحات واسعة للسخرية ، فنبتسم ونحن نتخفف من عقـــدنا الآسـنة ، ومن أطر تفـكيرنا الجـامدة المعـوقة ، ونفتح النوافذ ، نتنفس هواء طليقا ، فنستعيد آدميتنا ، وفوق البيعة ـ كما يمكن أن يقول هو ـ ســـنتأمل فى اللوحة الأدبية ، العبرة والعظة والحكمة ، متبدية واضحة ، دون

تخفى ، ودون أستار القصة القصيرة أنظر «عنتر وجولييت»
« فكرة فابتسامة »

والنقد الأدبى ، تزامن اهتمام يحيى حقى ، بالنقد الأدبى ، نقده ديوان « اغانى رامى » (١٩٢٥ ــ ١٩٢٨) والمنشور فى جريدة السياسة اليومية ٣٠ / ١٠ / ١٩٢٩ تزامن مع بدايات نشر ابداعه القصصى « قصة » « فلة .. ومشمش .. ولولو » والمنشورة فى مجلة الفجر بتاريخ ٨ / ٧ / ١٩٢٦ » وان دل هذا على شىء ، فانما يدل على أن النقد الأدبى ، ملمح أصيل فى شخصية يحيى حقى الابداعية ، ويحكم يحيى حقى ، فى ممارسته للابداع الفنى ، وللنقد الأدبى ، مبدأ واحد ، انظر اليه يقول « تجنبت ــ بالسليقة لا بنصح من أحد ــ جميع المؤلفات التى تعالج صنعة القصة ، وترسم لها حدودهاوأهدافها، وتضع القواعد والشروط ، وتستخدم مصطلحات كثيرة ، كأننا فى هيكل ماسونى .. الفن ، فوق ، ووراءه جميع الآراء والنظريات .. انه خارج عن جميع التعاريف المانعة .. لا فن بلا صنعة .. لكن الصنعة فى الفن ، فن أيضا .. » « فكرة .. فابتسامة ص ١٩٠ / ١٩١ » .

وانظر اليه ، يقول عن اتجاهه فى تناول النقد الأدبى « لا أنكر اننى لم أخرج عن دائرة النقد التأثرى (الذاتى) ، فليس فى كلامى ذكر للمذاهب .. لا ادرس النقد دراسة منهجية ، تاريخية ، لا يسعدنى شىء مثل أن يفسح هذا الكتاب « خطوات فى النقد » مجال القول فى قيمة هذا النوع من النقد .. وهل نجح .. ولو من بعيد ، الى انشاء مذهب فى النقد » « خطوات فى النقد ص ١٠ » فيحيى حقى ، سواء فى الابداع أو فى النقد الأدبى ، لا يتبع مذاهب جاهزة مسبقا ، وفى النقد الأدبى ، اخذ الدكتور محمد

مندور ، على كتاب « خطوات فى النقـد » « أن يحيى حقى قد قصر نقـده ، عامدا متعمـدا على علم الاسـلوب الجمالى فى اللغة » الا أن الدكتور مندور قد افلت منه مقال يحيى حقى « توفيق الحكيم بين الخشية والرجاء » ١٩٣٤ ، وموضوعه نقد مسرحية « أهل الكهف » ورواية « عودة الروح » .

وقد اخـــذ يحيى حقى على توفيق الحكيم انه فى المسرحية يدعو الى التصوف ، و « ليس لنزعات التصوف فى مصر محل ، لأنها فى ميدان قتال مادى يستلزم منهـا اقصى الجهاد وسلاحها فيه اعتداد بالنفس ، والتسـامى بها والشعور بقيمة هذا الشعب المظلوم المردوم فى الطين » ويطالب يحيى حقى ، فى نفس المقال « بكتاب اقوياء ، فيهم حرارة اليقين .. روحهم مزيج من الكبرياء والتواضع من الحـــلم بالآمال ، والشعور بالواقع الملموس ، ادبهم مزيج من تعـــاظم « هـــوجو » وصـــلابته ، واتضاع « دى بلزاك » الواقعى .. من تبشير «تولستوى» الرسول (لأن يده فى الماء) وألم « مكسيم جوركى » .. « ويده فى النار » « فجر القصة المصرية ص ١٣٠ / ١٣١ » وفى هذا المقال الفريد والهام والمبكر — والذى يحمل بقايا روح الثورة ، ثورة ١٩١٩ — فرق يحيى حقى ، فى عهد مبكر ، فى مجال النقد الأدبى ، بين مذهب الفن للفن ، والذى يهتم بجماليات الاسلوب واللغة والشكل ، وبين مذهب الفن من أجل الحياة ، حيث للفن رسالة اجتماعية، على قدم المساواة مع جمالياته ، وفى هذا المقـــال ، ومن واقع نقد يحيى حقى لمسرحية « أهـــل الكهف » ورواية « عودة الروح » فقد اخذ يحيى حقى وطبق الدعوة الى الفن من أجل الحياة ، ومع ذلك يبدو أن محمد منـــدور ،

علي حق ، فان ، يحيى حقى ، مال ، بعد ذلك ، فى مجال النقد الأدبي الى الاهتمام بالاسلوب واللغة والجماليـــات مركـــزا على انســــانية الفن ، دون أن يعطى للجانب الاجتماعى ، نفس الدرجة من الاهتمام ، ويبدو أن يحيى حقى ، كان ككل كتابنا الكبار ، بعد منتصف الثلاثينات، قد غادر الثـــورة الى الرشـــد ـ كمـا يمكن ان يقـول استاذنا لويس عوض ـ فى مجـال النقـد الأدبى ، أنظر « خطوات فى النقد » « فجر القصة المصرية » « عطـر الاحباب » « هذا الشعر » « انشودة البساطة » بقى من فنون القول ، فن المقال ، .وهو مقال ادبى .. لا صحفى ، يصر يحيى حقى ، على التفرقة بين الاثنين ، وقد اتخذ ، المقال ، وسيلة ، لاغراض عديدة ، عبـــر به عن همومه كمواطن واع مثقف بعانى مشاكل وطنه ، وهى ثقيلة ، يستشرف آمال مستقبله ، وهى متـأبية ، لا يـكاد يدع شيئا دون أن يسلط عليه ضوءه . الا أن أهم ما استخدم فيه المقال الأدبى ، هو الترجمة والسير ، لمن سمـــاهم ، « ناس فى الظل » ويحيى حقى ، قد مارس احساســـه الديمقراطى العميق ، للترجمة للانسان البسيط ، بحب وتعاطف وتواد ، واذا كانت الترجمة ، قديما ، كانت وقفا على الملوك والحكام والامراء وذوى الجاه والسطوة ، فقد غيرت النظرة الديمقراطية من هذا الرأى ، وأصبح نصيب المواطن العادى المكافح من الترجمة أو فى نصيب « التراجم والسير ، محمد عبد الغنى حسن ، ص ١٦ نشر دار المعارف » وهنا تتلاقى المقالة الأدبية مع ابداع القصة القصيرة ، فى ان الانسان البسيط المكافح ، عند يحيى حقى ، موضوعا لهما ـ القصة والمقالة ـ معاً .

وهنا يعبر يحيى حقى بلغته « عن هذا الشعب والى هذا الشعب كتبت المدرسة الحديثة » التى همس أحمد

أبنائها » وغنى سيد درويش ، ونظم بيرم ، ونحت مختار، وجدوا جميعا الأرض الصلبة التي يقفون عليها ... كلهم من دعاة التجديد المعبر في الوقت ذاته عن الأصالة » « صفحات من تاريخ مصر ص ٢١٧ »

وبالمقال الأدبي ، قدم يحيى حقى ، تراجم « للذين انسحبوا الى الظل » من كتاب وشعراء وفنانين ، رسامين وممثلين ، وملحنين ، « في الغربة » في الشيخوخة ، في قبضة الفقر ، في مكتب منزو كأنه اصطبل حمار شغل » « ناس في الظل ص ٧ » .

وامتد بالمقال الادبي، فيشارك به في احداث التغييرات الاجتماعية التي شهدتها مصر في الستينات « حقيقة معنى التشريعات الاشتراكية الأخيرة عندنا هي اننا لا نريد أن نتخلف في السباق مع الزمن .. » « .. ان الملكية عندنا اصبحت نظاما باليا ، عتيقا أفسح المجال للجمهورية ، هذا هو سير الزمن ، وان الشعب كله أصبح يؤمن بضرورة الاصلاح ، واول اصلاح هو اعادة النظر في توزيع الثروة العقارية - لأننا في بلد فلاحين - وان الشعب كله يؤمن ان أرض الفلاح قد سرقت منه ، وأن الاسرة المالكة هي رأس قائمة اللصوص .. ان الشعب كله ، أصبح لا يطيق السكوت على هذا الظلم ، وانه يؤمن أن «محضر التحقيق» في حادثة السرقة هذه ، لم يقفل بعد ، انه ينتظر قرار وكيل النيابة بوضع اللصوص في السجن ، ورد المال لأهله .. » « صفحات من تاريخ مصر ص ٤٠٣ / ٤٠٤ » لا غرابة في ذلك ، انه يحيى حقى ، ابن الحزب الوطني المصري ، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد ، ابن ثورة ١٩١٩ ، اشترك في مظاهراتها ، وقرأ منشوراتها ، وكان يصاحب المرحوم والده ، في الذهاب الى سماع خطباء

الثورة « وكان الانجليز يطلقـون علينا النار » ، مع جموع الوطنيين الذين كانوا يتحدون سلطة الاحتلال الانجليزى ؛ وهو ابن المدرسـة الحـديثة في الأدب ، التى تخلصت من الأساليب القديمة فى اللغة والفكر والفن « مجاوبة لتخلص مصر من ذاتها فى ثورة ١٩١٩ ، من عهد التبعية والاحتلال والحماية، الى عهد التحرر وتثبيت الشخصية والاستقلال» « فجر القصة المصرية ص ٢٥٠ » « وكان لابد أن يتحول الأدب ، ايضا ، من النزعة الرومانسية ، الى صراحة المذهب الواقعى ، وأن يتخذ رجل الشارع والفلاح ابطالا للقصص .. وهذا هو تفسير نشأة المدرسة الحديثة .. مدرسة المذهب الواقعى « المرجع السابق ص ٢٥١ » اكثر من هذا ، ان يحيى حقى ، يتخذ موقفـــا فى غاية الاهميه ، حين يسجل على تورة ١٩١٩ « ان ثورة ١٩١٩ فقدت سريعا قدرتها على التحول من الانقلاب السـياسى الى الانقلاب الاجتماعى » « المرجع السـابق ص ٢٥٣ / ١٩٦٤ » ارجوك ، لا تنسى ، دعوته الى اعادة النظر فى توزيع الثروة العقارية ، وانظر اليه ، وهو يتسـاءل بعد أن تحدث عن « زينب » لهيكل ، وآثار محمد تيمور الادبية « هل ولدت القصة اذن على يد فئة ارستقراطية مرهفة ، اعتنقت الديمقراطية ؟ وهل لنا أن نقول انهـا تخلصت بصعوبة من قبضة أبناء القصور ، ليتولاها ؛ أبناء الشعب ، للتعبير الصادق عن هذا الشعب » « المرجع السابق ص ٧٥ ، ٧٦ » وليس هذا الموقف ، بالطارىء، على يحيى حقى ، اصطنعه فى فترة الستينات ، مصـانعة للنظام السياسي الذى كان قائما آنذاك ، والذى كان يدعو ، ويحاول أن يحقق ، دعوته ، للعدالة الاجتماعية . تأمل الواقعة التالية ، ففي سنة ١٩٥٤ ، وبعد أن نشر يحيى

حقى ، رواية « قنديل أم هاشم » والقصص القصيرة التى كان ينشرها قبلها ، استدعاه ، أحمد حسانين « باشا » رئيس الديوان الملكى ، وظن يحيى حقى ، بطيب نيته ، انه سيستمع الى كلمة تحية وتقدير ، فتأنق ، وذهب ، وهناك ، كان احمد حسانين ، رئيس الديوان الملكى ، واقفا ، بقامته المديدة ، الى جوار مكتبه ، ولمح يحيى حقى على المكتب نسخة من رواية « قنديل أم هاشم » وتحدث احمد حسانين ـ غالبا فى ضيق

ـ ايه ده يا يحيى • مش لاقى غير الفقـــرا ، تـكتب عنهم •• يا أخى شوف نجيب الريحانى ، عنده ، الفقرا ، ياكلوا فجل ، يتكرعوا تفاح ••

وانتهت المقابلة ، لتقول أشياء كثيرة ، ان يحيى حقى يكتب عن الفقراء ، الا أن القضية ليست هنا ، فان نجيب الريحانى ـ ايضا ـ يقدم الفقراء على مسرحه ، الاختلاف أن يحيى حقى يكتب عن الفقراء ، بصدق، انه لا يدلس على الفقراء ، أن رؤيته للحياة من موقفهم ، من عيـــونهم ، فليست القضية أن تكتب عن الأغنياء أو عن الفقراء ، القضية ، هى ، كيف تكتب عن شخوص أعمالك الادبية القضية ، هى ، ما اذا كنت تكتب للتوعية ، أو للتعمية .
وما ازعج السلطات فى أعلى قمتها ، رئيس الديوان الملكى، ان يحيى حقى يقول ان للفقراء الحق فى حياة انسانية كريمة ، ولنقل أن للفقــراء حقــا فى ثروة بلدهم ، موقف يحيى حقى ـ وهو الموقف الذى سبب القلق ، مع الفقــراء والضعفاء والمساكين والمضطهدين ، وثقيلى الأحمال ، ليس موقفا طارئا فى حياته ، يرتبط بمناسبة ما ، ويعبره ناجيا بجلده ، لقد كتب يحيى حقى وعبر عن الانسان البسيط ، فى قصصه وفى رواياته ، وفى مقالاته الأدبية ، أيضا •

اللغة عند يحيى حقى ، لها موقع هـــام حتى وانه ليصارحنا : « لقد ارضى أن تغفل جميع قصصى وكتاباتى، ولكنى سأحزن أشد الحزن ، اذا لم يلتفت أحد الى دعوتى للتحديد اللغوى » « قنديل أم هاشم ص ٤٥ » الا ان اهتمام يحيى حقى بالتحديد اللغوى ، وان صاحبه منــذ كتاباته الباكرة ، بل منذ نشأته صبيا فى البيت « كان الجو الغالب على بيتنا يتلخص فى ثلاثة مظاهر ، الأول : شغف برشاقة اللفظ ، والابتهاج بالتوفيق فى العثور على الكلمة المناسبة .. الثانى : نوع من الحيــاء يتنبه لزلة اللســان مهما كانت طفيفة .. » « المرجع السابق ص ١٧ » هذا الاهتمــام اللغــوى طرأ عليه تغيير فبعــد أن كان ينــادى باستعمال اللغة العامية « نأمل أن يكون تصميم كتابنـــا وشعرائنا وقصاصينا الاقتصار على لغة الشعب الــذى يجــاهرون انهم يودون رقيه وخدمته .. » « خطــوات فى النقد ص ١٢ » ولعل هذا الموقف الداعى الى اســـتعمال اللغة العامية ، كان اثرا من آثـــار ثورة ١٩١٩ فى ابراز الشخصية المصرية وتثبيتها ، فى الأدب والفن والاقتصاد واللغة كذلك الا أنه قد اتخذ موقفـا ــ أخيرا ــ أساسه ، اللغة الفصحى ، ويقول فى محاضرته فى دمشق فى ٢٥ مايو ١٩٥٩ عن « حاجتنا الى أسلوب جديد » « آن الاوان لان يكون لنا فى الادب اسلوب أسميه الاسلوب العلمى ، يعتمد على تحديد المعانى ، وبالتالى اختيار الفاظ محددة ، بل اقول الفاظ حتمية ، بحيث لا يكون المكان صـــالحا الا للفظ واحد .. اننى أتكلم عن أسلوب أدبى .. الجمــال شرط من شروطه الاساسية .. » راجع نص المحاضرة فى « خطوات فى النقد ص ١٥٥ وما بعدها » لكن يحيى حقى ــ فى اللغة ــ لم يتخلص تماما من دعوته الأولى الىاستعمال لغة الشعب ، فمازال يرى جواز استعمال كلمات عامية

بشرط أن تحمل شحنة وجدانية ، والا توجد فى اللغـة الفصحى ، كلمة تؤدى نفس المعنى ، « أكره الأبواب الموصدة ، والنوافذ المغلقة ، والادراج المصلحجة والشفاه المطبقة .. » « ناس فى الظل ص ٥ » انه يستعمل كلمة « المصلحجة » لأنها تحمل من الظلال الايحائية ، ما لا تحمله كلمة فصيحة ، لذلك لا يتردد فى استعمالها ، وغيرها كثير ، هو نفسه يفسر تحوله فى موقفه من استعمال اللغة العامية « ان الفصحى لم تكن قد افلحت بعد فى أن تسمى لنـا أشياء نلمسها بأيدينا أو أفكار مجردة تطوف بعقولنا .. » « قنديل أم هاشم ص ١٧ » الا ان الحقيقة ان التحول من استعمال العامية الى الفصحى ، اثر من آثار عبوره الثورة الى الرشد . الأدلة كثيرة ، لنقرأ معا ، وهو أحد أبناء المدرسة الحديثة « كان أعضاء المدرسة الحديثة ـ فى أغلبهم ـ يعتنقون حرية الفكر ، المقدسات لا ترهبهم ، واحيانا لا تقنعهم .. » « فجر القصة المصرية ص ٢٥٤ » حقا لقد رشدوا وشبعوا رشدا .

أنت ترى ، أن يحيى حقى ، ليس فنانا بحتا ، انه فنان مفكر ، وهاتان صفتان أصليتان فى تركيبه ، مرة يغلب الفنان المفكر داخله ، فيقدم القصـة القصيرة ، والرواية وقصيدة النثر الرائدة « بينى وبينك » ومرة اخرى يغلب المفكر الفنان داخله ، فيقدم اللوحة / القصة ، واللوحة / المقال ، الا انه وهو فنان لا يستطيع أن يتخلص من المفكر داخله ، ولعل هذا يفسر قلة الأحداث فى ابداعاته القصصية والروائية ، ففى رواية ، مثل « صح النوم » كاد أن يتخلص من الأحداث الا تلك الضرورية لتبدى أفكاره ، والمؤكد انه صرح فى احد أحاديثه أو بعض كتاباته ، انه يضيق بسرد الأحداث ، ولعل هذا أيضا يفسر ، انه لم يقدم عمـلا

روائيا كثير الصفحات ، ان المفكر داخله يضع قيودا على الفنان ، ان المفكر يقف بالمرصاد للفنان ، على أن المفكر ، والحمد لله ، ليس طليقا ، فالفنان صاحب دار اصيل ، لذا ، فالمقال الأدبى واللوحة ، ليسا أفكارا مجردة ، انهما أفكار حية ، فيها نبض حى ، أفكار مشخصنة ، انالمقال لوحة ، وقد تكون لوحة قصصية ، وعندما يقدم يحيى حقى اطروحته « فجر القصة المصرية » وهو كتاب فى تاريخ الابداع الادبى ، قدمه فى شكل لوحات حية «زينب » هيكل، محمد تيمور ، شحاته وعيسى عبيد وأخيرا توفيق الحكيم ، بل أن موقعه من استعمال اللغه ، يشترك فى تحديده ، الفنان والمفكر ، فالدعوة الى حتمية استعمال اللفظ والكلمة والمفردة ، لم تصل بنا الى الدعوة الى استعمال الاسلوب التلغرافى ، والتى نادى بها استاذنا سلامة موسى ، ان لغة يحيى حقى ، شرطها الجمال ، والموسيقى الداخلية ، لا تحلو — فيها — فقرة ، من تشبيه ، وهى تشبيهات ، تقوم على علاقات بعيدة ، يعمل فيها بوضوح عمل المفكر وخيال الفنان . وقد اخذ يحيى حقى ، فى نقده ، للمجموعة القصصية « رسالة الى امراه » ليوسف الشارونى ، خلو لغتها من التشبيه ، « خطوات فى النقد ص ٢٢٢ ومابعدها» وهو يصرح انه من المغرمين بالتشبيه .. « قنديل ... ص ٢١ » .

وقد جاءت لغة يحيى حقى ، مزاج فريد من تشــدد النظرة العلمية ، ويقف وراءها المفكر،ومن رحابة الخيال، وهو من متطلبات الفنان ، لذا فهى لغة فى حاجة الى تنبه والى يقظة لاستكناه العلاقات بين الكلمات داخــل هذه اللغة ، فكما انها لغة لم تكتب عفو الخاطر ، فانها لا تقرا عفو الخاطر ، « قد اكتب الجملة الواحدة ، ثلاثين أو اربعين

مرة حتى أصل الى اللفظ المناسب الذى يتطلبه المعنى »
« قنديل ... ص ٤٦ »

بل انه يقف أمام الكلمـة أسـبوع ، ففى رواية « قنديل أم هاشم » بعد عودة اسماعيل من انجلترا ، وشاهد امه تعالج عيني ابنة عمه فاطمة النبوية ، بزيت قنديل أم هاشم ، حمل عصاه ، وعلى مرأى من الناس ، حطم القنديل ، وتكأكأت عليه الناس ، ضربا ، وسـقط على الارض ، ولما فاق كان عليه أن يقول كلمة ، ويحدثنا يحيى حقى ، فى حديث خاص،استغرقت أسبوعا للاهتداء الى كلمة تتضمن المعانى الآتية ! : البوح ، الاعتذار ، الاسترخاء ، الانين واخيرا اهتديت اليها ، انه يهتف : انا .

واذا كانت السطور السابقة ، قد أطلت على يحيى حقى الفنان / المفكر ، فى ايجاز مخل ، وفى قصور شديد، فان بعض السطور التالية ، تتفيا يحيى حقى ، الشخص، ولعل هذه التقسيمات من متطلبات الكتابة ، فالحق أن يحيى حقى ، هو الشخص والفنان والمفكر معا ، وهو قد حاول أن يجنبنا الاجتهاد فى سيرته ، اذ سار على الدرب ، الذى سار عليه ، عدد من كبار كتابنا ، فقدموا سيرهم الذاتية ، اما خالصة كسيرة وترجمة شخصية ، أو متلبسة بأعمال أدبية ، مثل « ليالى سطيح » لشـاعرنا حافظ ابراهيم ، الذى أخذ من التاريخ الفكرى ، شخصـية « سطيح » واقام معها حوارا عن هموم الشاعر ، وهموم الوطن ، وثقل وطء الاحتلال الانجليزى للبلاد ، « انظر دراسة عبد الرحمن صدقى / مقدمة الطبعة الجديدة من « ليالى سطيح » ومثل « يوميـات نائب فى الارياف » لاستاذنا توفيق الحكيم ، واذا كان هذا الرائد العظيم ـ

توفيق الحكيم ـ قدم عملا أدبيا جميلا من حياته الشخصية حيث اشتغل توفيق الحكيم فى بدء حياته وكيلا للنـــائب وهى ذاتها الوظيفة ، التى عمل بها بطل « يوميات نائب فى الارياف » الا انه قدم سيرته الذاتية ، صريحة فى كتبه « زهرة العمر » «من ذكريات الفن والقضاء» « عصفور من الشرق » ثم عرضها سيرة حياة « سـجن العمر » ولم يكن الحكيم بدعا فى ذلك ، فالأدب العـربى ، ولعـل الأصح ، أن تقـــول الفـــكر العـربى ، عرف ترجمـــات ذاتيـة عديدة ، عبـد الرحمـن بن خلـدون ، محمـد كرد على ، رفاعة رافع الطهطـاوى وسنشـــير فقط الى تراجم الأدباء الذاتيـة ، « أيام » طه حسين بأجزائهـا الثلاثة ، « تربيـة سـلامة موسى » لسـلامة موسى ، « حيـــاتى » لأحمـد أمين ، « الحـــوار النـــور » لعبـــد الرحمـن بدوى ، « أوراق العمر » للويس عوض « خط العتبة » لفتحى رضوان « أنا » للعقاد ، « معى » لشـوقى ضيف • وسـار يحيى حقى على الدرب ، فقدم « اشجان عضو منتسب » وهى سيره ذاتيه مختصره ، موجزة نشرت فى مايو ١٩٧٤ مع مجموعة الأعمال الكاملة ، كمقدمه لروايه « قنـــديل أم هاشم » والى « أشجان عضو منتسب » كنا نشير ، فى المرات التى رجعنا فيها الى « قنديل أم هاشم » وقد كتب يحيى حقى سيرته الذاتية ، عجولا ، متسرعا ، تحس انه لا يحب السرد ، حتى وهو يسرد سيرة حياته ، لاتزيدعلى ست وخمسين صفحة . هىكل ما « هان » على يحيى حقى أن يضع سيرته فيها . واذا كان قد دعا الى الاسلوب العلمى ، فانه قد طبق الاسلوب التلغرافى ـ ونجتزىء منها : ـ

ــ ولد فى ٧ يناير ١٩٠٥ فى بيت يقع فى حارة «الميضة» وراء مقام السيدة زينب « بيت من أملاك وزارة الاوقاف» وفى سنة ١٩٤٤ عندما كتب رواية « قنديل أم هاشم » قدم ميدان السيدة زينب فى ثلاث لوحات ، من وجهة نظر اسماعيل ، بطل الرواية ، مرة واسماعيل هادىء مستقر راض عن الحياة فى بلده ، ثم واسماعيل ساخط غاضب ثائر على الجمود والرتابة فى حياة مواطنيه ، بعد أن تلقى « الصدمة » وعاش الحركة واليقظة وديناميكية الحضارة الغربية ، واللوحة الثالثة ، بعد توازن ، واستقرار على ما يأخذه من حضارة الغرب اللدود وما يدعه منها ، وكيف يقدم ما يأخذه الى مواطنيه ، وكان « زيت القنديل » رمزا، للتوازن الذى انتهى اليه اسماعيل .

ــ البيت الذى نشأ فيه يحيى حقى ، كانت « الوالدة » شديدة التدين ، مغرمة بقراءة القرآن الكريم ، وكتب الحديث والسيرة النبوية ، وكان الوالد قارئا ، مغرما مفتونا بأبى الطيب المتنبى ، ولأخيه الاكبر ، ابراهيم ، مكتبة عربية وانجليزية ، وعمه ، محمود طاهر حقى ، كاتبا .

وقد صاحب يحيى حقى ، فى حياته ، عاطفة دينية حين واجه ، الحضارة الأوربية ، فى روما ، وفى باريس ، واخذ موقف التلميذ فى الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ، وحركة التجديد ، والنشاط ، والابتكار .

ــ كان يحيى حقى نفسه « يشعر دائما ان داخله شيئا صلبا ، لا يذوب بسهولة فى تيار حضارة الغرب » .

ــ حصل على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٧ ، من مدرسة والده عباس باشا الاول ، ويحرص

يحيى حقى ، أن يثبت فى سيرته ، انها مدرسة مجانية : كان يلتحق بها أبناء الفقراء ، أما أبناء الاغنياء ، فقد كانوا يدرسون فى مدرسة الناصرية ، ورغم أن جد يحيى «ابراهيم حقى الكبير» «استطاع أن يقتنى حوالى مائة فدان» فانها كانت غالبا قد توزعت بين الابناء والاحفاد ، وعندما كتب يحيى حقى فى سيرته الذاتية ، انه كان فقيرا ، عاتبته الأسرة ، غاضبة .

ـ ثم التحق بالمدرسة الالهامية الثانوية ، وكانت تتبع نفس « الوقف » الذى كانت تتبعه مدرسة أم عباس ، وانتقل الى المدرسة السعيدية ، فالخديوية ، حيث حصل على شهادة اتمام الدراسة الثانوية فى سنة ١٩٢١ ، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية (العليا) .

***

ـ كان متشبعا بمبادىء الحزب الوطنى المصرى « الذى انشأه مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) وهو التنظيم السياسى الثانى الذى يحمل نفس الاسم ، الأول أنشأه العرابيون ، وبعد الاحتلال الانجليزى ، تم قيام الحزب الوطنى المصرى ، للدفاع عن استقلال البلاد ، ومقاومة الاحتلال ، « ظل التنظيم السياسى للحركة الوطنية يتخذ شكل الجمعية السرية ، واذا كان التنظيم الذى أقامه القصر سنة ١٨٩٥ قد انهار نتيجة للانقسام بين المصريين والاوربيين فى اعضائه ، فان مصطفى كامل أعاد تشكيله سنة ١٨٩٦ ، من المصريين وحدهم ، وعلى رأسهم الخديوى ، كما كان من قبل ، وفى الوقت نفسه تقريبا تكونت جمعية أخرى ، أنشأها محام وكاتب شاب يدعى أحمد لطفى السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) .. واستطاع مصطفى كامل اقناع احمد لطفى السيد بادماج جمعيته ..

واصبحت الجمعية الموحدة ، هى الحزب الوطنى ، برئاسة الخديوى .. ومع ان مصطفى كامل كرس الجانب الأكبر من جهاده المبكر ، للحصول على تأييد أجنبي للخديوى ، فانه اهتم .. بنشر فكرة القوميـــة المصرية بين مختلف طبقات الشعب » راجع « الحزب الوطنى المصرى / ارثر ادوارد جولد شميث (الابن) / ترجمة فؤاد دوارة / ص ٨٩ / ٩٠ « سنة ١٨٨٩ اشترى مصطفى كامل آلة طباعة من أوربا ، وتعاقد مع عدد من المصريين ، واصدر العدد الاول من جريدة اللواء فى ٣ يناير ١٩٠٠ .. ولم يمض عليها وقت طويل الا واعترف بها كأقوى لسان معبر عن الوطنيين المصريين .. واخذ مصطفى كامل يتخلص تدريجيـــا من القيام بدور الداعية للقصر ، ليصبح ممثلا للطبقة المتوسطة المصرية .. فلما أنشأ « اللواء » اذ به يهاجم لا البريطانيين وحدهم .. بل الوزراء المصريين الخاضـــــعين لاوامر مستشاريهم البريطانيين .. وكتب مقالة عن « حقــوق الشعب وواجباته » .. وسطر دعوته الأولى لحكـــومة ذات نظام نيابى تستند الى دستور مكتوب .. وتبلورت فى ذهنه فكرة الدستورية .. وكان يقصد بها قيام حكومة دستورية .. « المرجع السابق ص ٩٩، ١٠٠ ، ١٠١ » .

ــ التحق يحيى حقى ، اذن بمدرسة الحقوق العليا ، وهو على المام وايمان بمبادىء الحزب الوطنى المصرى ، اذ كانت جريدة « اللواء » هى جريدة اسرة يحيى حقى ، المفضلة ، وقد تشكل وجدانه ، من النشأة فى أسرة ، اضاعت بضعة فدادين آلت اليها عن الجد ، ومن مولده فى منزل « ضئيل » المبنى يتبع وزارة الاوقاف ، وفى وسط عائلة متدينة مثقفة ، تداوم على قراءة جريدة « اللواء » المعبرة عن مبادىء الحزب الوطنى المصرى (الثانى) حزب

مصطفى كامل ، والطبقة المتوسطة المصرية ، وما أضافه محمد فريد الى مبادىء الحزب الوطنى ، من الاهتمام بنقابات العمال ، ولهذا لم يكن غريبا ، أن يشارك الشاب يحيى حقى (١٤ سنة) فى مظاهرات ثورة ١٩١٩ ، وتعيش فى مخيلته مشاهد حية لا ينساها ، وفى ٢٨ / ٤ / ١٩٦٩ يكتب عن جنازة « ابن القباقيبى » الولد الوحيد ، والذى سقط قتيلا برصاص الانجليز فى مظاهرات ثورة ١٩١٩ « كانت ثورة لأن الناس بدأت تألف لأول مرة كلمة الشعب .. لم تكن ثورة مثقفين وحدهم أو عمال وحدهم ، بل ثورة الشعب كله اتحد فى عجينة واحدة ، زالت الفروق .. » « صفحات من تاريخ مصر ص ٢٣٣ » ولاحظ انه وهو يكتب عن ثورة ١٩١٩ يستعمل مفردات ثورة / ١٩٥٢ ، والتى كان من أهم مقولاتها ، وقت ان كانت ثورة ، حية ، معاشة، تجاهد لتحقق ذاتها ، مقولة « وحدة قوى الشعب العاملة » ، على أن ، ولنستعمل هذا اللفظ تجاوزا ، انتماء يحيى حقى لمبادىء الحزب الوطنى المصرى ، والتى كانت تحملها الى بيته ، كل يوم ، جريدة « اللواء » ومشاركته فى ثورة / ١٩١٩ ، وما أخذه عليها من انها بقيت انقلابا سياسيا » ولم تتحول الى ثورة اجتماعية ، وانتمائه الفكرى ، الى المدرسة الحديثة فى الادب ، ستظل دائما عناصر أساسية فى بنائه الفني والفكرى ، ولا ننسى أن المدرسة الحديثة قد انتزعت ، بصعوبة ، راية القصة والرواية من أبناء القصور ، لتضعها بين يدى أبناء الشعب .

— يسجل يحيى حقى ، انه قرأ كل ما وقع تحت يده من كتابات عبد الله النديم، ولعل منها ما كتبه عن ذلك الولد المصرى ، الذى تعلم فى اوربا ، ورجع يخاطب امه واباه

بلسان ملتو ، الا ان هذه الحدوته ، لا علاقة لها ، بقنديل أم هاشم ، وفقط يدل الأمر ، على ان فكرة العلاقة ، بين ، من يتلقــون التعليم فى أوربا وبين وطنهــم ومواطنيهم ، فكرة قديمة ، منذ سافر رفاعة رافع الطهطاوى الى فرنســا وعاد منها ،ميدانا للصراع بين حضــارة بلاده باســتاتيكيتهــا ، وحضارة الغرب الديناميكية • ومازالت القضية ، قائمــة ، حية ، الموقف من حضارة الغرب • وقرأ أيضا ، كل ما نشر عن دنشواى •

ويحيى حقى يستعمل كلمتين دالتين ، فبالنســـبة لعبد الله النديم ، قرأ ماوقع تحت يده من كتــاباته ، وبالنسبة لدنشواى ، قرأ « كل » ما كتب عنها. والحقيقة، بعد ذلك ، ان يحيى حقى ، لم يحدثنا ، باستفاضة ، عن قراءاته وهى قراءات واسعة ، أعانه عليها ، شغف باللغة (فصحى وعامية) ومعرفة وثيقة بعدد من اللغات الأجنبية لعلها ، الانجليزية من مكتبة أخيه الأكبر ابراهيم ، والتركية حين عمل فى القنصلية المصرية باستامبول ، والايطالية ، حين نقل الى روما ، واجاده الفرنسية وهو سكرتير اول بسفارتنا بباريس ، وهو يسجل انه اســـتمع الى خطب مصطفى كمال اتاتورك ، وبندتو موسيلينى وادولف هتلر فى المانيا . وخطباء الجمعية الوطنية بباريس ـ تخـــرج يحيى حقى فى مدرسة الحقوق العليا فى سنة ١٩٢٥ وحاول السفر فى بعثة دراسية بالخارج ، وفشل ، وعمل ســنتين وكيلا للنائب العام من منازلهم ثم بالمحاماه ، فى الاسكندرية وفى دمنهور •

ـ فى اول يناير ١٩٢٧ ، تسلم عمله « معاونا للادارة » بمركز منفلوط ، (بمديرية) اسيوط ، وهى وظيفة تقع

بين وظيفة وكيل النائب العام ووظيفة ضابط الشرطة .
وقضى فى هذا العمل سنتين ، يصفهما « أهم سنتين فى حياتى على الاطلاق » « أشجان عضو منتسب ص ٣٤ / ٣٥ » وهما سنتا ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ .

ــ فى عامى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ عمل أمين محفوظـــات بقنصليتنا بجدة ، وأتاح له الفراغ ، أن يقـــرأ مكتبـة القنصلية ، واهم ما قرأه فى هــذه الفتــــرة ، « تاريخ الجبرتى »

وعلينا أن ننتبه الى ان عناصر جديدة ، ســـتقتحم شخصية يحيى حقى ، معايشة الحكم الأوتو قراطى .

ــ فى سنة ١٩٣٠ نقل من جدة الى استانبول . وقضى أربع سنوات ، « شهد تحول دولة شرقية اسلامية ، الى دوله علمانية » حديثة وشهد الحكم الفردى، الديكتاتورى، ولم يتعاطف مع التجربة ، لمشاعره الدينية العميقة ، التى اصطدمت بالغاء نظام الخلافة ، كوسيلة من وسائل الحكم، ومازال ــ حتى الآن ــ يتحدث بتعـــاطف ، وفى براءة ، « عندما حملوا وثيقة التنازل الى الخليفة ، كان سؤاله الوحيد : هل صدق المفتى على الوثيقة ؟ ولما أخبـــروه بتصديق المفتى ، سحب القلم ، ووقع وثيقة التنازل » ويحيى حقى ، يقصد ، ان السلطان العثمانى ، كان يتقيد بقواعد الشرع ، بقى انه ، هناك ، لقى بعض أقاربه ، فالجد ابراهيم حقى الكبير ، كان قد قدم الى مصر ، فى أوائل القرن التاسع عشر من بلاد المورة بتركيا .

ــ نقل من استانبول الى روما ، وبقى بهــــا خمس سنوات ، اتصل خلالها بالحضارة الغربية ، وشهد تجربة الحكم الفاشستى لايطاليا على يد موسولينى واذا كان يحيى حقى ، لم يذب فى الحضارة الجديدة ، وعصـــمته

حضارة بلاده وتاريخها ، وتجاربه ، وانتماءاته السياسية والفكرية والفنية التي كونت شخصيته قبل أن يصطدم بحضارة الغرب ، فلاشك أن حياته فى ايطاليا ، ثم فرنسا، بعد ذلك ، كان رافداً أساسيا فى تكوينه « كان يشعر أن لديه حضارة ان لم تفق حضارة الغرب ، فهى تماثلها ، فضلا عن لديه دينا متكاملا » « وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر .. » « أشجان .. ص ٣٣ » .

ـ عاد الى مصر سنة ١٩٣٩ وتنقل بين وظائف وزارة الخارجية ، وبذلك اكتملت تجربة « قنديل أم هاشم » انها ليست رواية مكتوبة ، انها واقع معاش ، فضلا عن انهـا واقع تاريخي ومعـاصر ـ في سـنة ١٩٤٩ ، عاد الى أوربا ، مرة ثانية ، هذه المرة ، الى فرنســا ، حيث « الاحســاس الغــامر بطعم الحــرية » بعـد أوتوقراطية جده ، وديكتاتورية مصـطفى كمـال ، وفاشسيته موسوليني ، عاد الى فرنسا ، حيث الحكم النيابى ، وحيث الحكومة الدستورية ، هذه المبادىء ، التى قرأ عنها شابا ، فى جريدة « اللواء » واســتمع اليها ، غالبا ، فى خطب مصطفى كامل .

ـ فى حياة يحيى حقى تجربة عاطفية عاصفة ، لا يفرد لها عملا أدبيا مستقلا ، كرواية « سارة » للعقاد مثـلا ، انه يشير اليها باقتضاب ، ليست اشارة صريحـة ، بل بمناسبة الحديث عن واحدة من رواياته « .. كتبتها فى حجرة صغيرة كنت استأجرها ، فى حى عابدين ، وعشت فيها لوثة عاطفية مثيرة ، عبرت عنها فى أناشـيد « بينى وبينك » « أشجان .. ص ٤٣ » .

واللوثة العاطفية التى يشير اليها ، عاشها سـنة

١٩٤٠ ، وسجلها ، فى قصيدة النثر ، ٣٢ مقطوعة ، وهو عدد حبات المسبحة الصغيرة « ٣٣ حبة » والحبة الناقصة ، هى فتاته ، التى « هجت » منه فى صبحية ، « ما قالت لى عواف » كما يقول بيرم التونسى .

وهذه ليست التجربة الأولى ، فى حياة يحيى حقى ، فانه يحدثنا ، فى اشجان عضو منتسب ، انه فى سنتى منفلوط ، «اتصل مباشرة ، وبحرية ، بالجنس الآخر . وقد عشت هناك ، تجربة حب خصبة عميقة » ص ٢٦ ، ويحيى حقى لم يسجل هذه التجارب فى اعمال روائية ، الا ان قصصه ، ومنها قصتا « أبو فوده ، وقصة فى سجن » لتشير الى معرفة وثيقة بطغيان الغريزة بل انه فى أكثر من موضع يشبه تقدم مياه فيضان النيل ، فى ارض الحياض بالصعيد ، كلقاء جنسى —

— لماذا لم تتزوجها ، ياأستاذ يحيى ؟ وهل هى الظروف الاجتماعية ؟

— قد لا أكون فى الأصل ، مؤمنا بفكرة الزواج ، وهذا بينى وبينك .

لكن يحيى حقى تزوج فى سنة ١٩٤٢ .. « وسرعان ما توفيت بعد أن انجبت وحيدتى « نهى » وتركت فى نفسى حسرة لا تنقضى » « اشجان .. ص ٤٤ » وفى سنه ١٩٥٤، وهو باريس ، التقى بفنانه ، وعبر حديثهما عن لوحاتها ، تلاقت العواطف ، وكان الزواج ، الذى من اجله ترك السلك الديبلوماسى،وعمل رئيسالمصلحه التجارةالداخلية ثم فى سنة ١٩٥٥ عمل اول وآخر مدير عام لمصلحة الفنون ، وقام بدور فى اكتشاف الفنون الشعبيه ، وعمل على احتضان الدولة لها ، بعد طول اهمال ، او ازدراء

كما يسميه ، وكانت فرق الرقص الشعبى ، والاغانى الشعبية ، واكتشاف الفنان الشعبى زكريا الحجاوى ، وقد واجه مقاومة من كمال الملاخ ، صاحب الصفحة الأخيرة فى جريدة الاهرام ، وحققت الفنون الشعبية ، مكانتها ، كنسيج حى فى الوجدان المصرى ، ويسجل يحيى حقى ، ان الفنون الشعبية ، حققت ، دون القصة القصيرة ، الهدف منها ، وهو أن تكون مصرية لحما ودما ، واذا كان لنا اليوم معاهد فنية ، ومسرح عرائس ، واوركسترا القاهرة السيمفونى وكورال أوبرا واكاديمية للفنون ، فالبذرة ، هناك ، فى دور مصلحة الفنون .. اننا ــ ومزة اخرى ــ أمام ، أين الشعب ، العاشق له، تاريخا، وفكرا ، وفنونا ، واحياء .

ــ فى ابريل ١٩٦٢ ، عين رئيسا لتحرير مجلة «المجلة» ويظل يتولى مسئوليتها حتى ديسمبر ١٩٧٠، حيث فوجىء بتركه لها ، ابان رئاسة الدكتورة سهير القلماوى للهيئة العامة للكتاب ، التى كانت تصدر عنها مجلة « المجلة » ــ وفى مجلة « المجلة » قدم يحيى حقى جيلا كاملا من القصاصين ونقاد الأدب ، قصاصين قادمين ، من العزب والدساكر والكفور ، فتح لهم صفحات مجلة « المجلة » والتى كانت تحمل على غلافها شعارا مهيبا ، يبعث الخوف والوجل فى القلوب الناشئة « سجل الثقافة الرفيعة » واذا كان تاريخ الأدب فى مصر ، يتحدث عن « جيل الستينات » فقد نشأ وتثبت هذا الجيل ، على صفحات « المجلة » باصرار ووعى من يحيى حقى ، وللامانة ، على الصفحة الأدبية لجريدة « المساء » أثناء ان كان يشرف عليها ، القاص والروائى « عبد الفتاح الجمل » .

ــ كان الظن ان يحيى حقى مقل ، وهو نفسه اشار

الى ذلك فى « اشجان عضو منتسب » ولكن بعد الجهد الصادق الذى بذله الاستاذ فؤاد دواره ، أصبح لدينا ثمانية وعشرون مجلدا ، جمعت فيها ، أغلب كتابات يحيى حقى ، وكم وددنا ، لو ان فؤاد دوارة ، اتيح له ان يحدثنا عن المنهج الذى اتبعه فى جمع أعمال يحيى حقى التى لم تكن قد جمعت بين ضفتى اغلفة ، وأن يتبعهـا بمجلد يلم الاحاديث التى أدلى بها يحيى حقي ، وهى بالضرورة ثرية ومتنوعة بقدر ثراء فكر يحيى حقى نفسه وتنوع اهتماماته وعمقها ، ولكي ندرك الجهد ، الذى بذله فؤاد دوارة ، فان دارسا جزائريا ، قدم اطروحه دكتوراه عن « يحيى حقى ناقدا » وكان المجلد الثانى ثبت بالمقالات التى رجع اليها الدارس ، وبفضل مجهود فؤاد دوارة أصبح متاحا لنا ، أن نفتح المجلد من أعمال يحيى حقى ، لنجد ضالتنا ، وفى نهايتها تاريخ ومكان النشر .

ــ ترجم يحيى حقى ، عددا من الأعمال الروائية والمسرحية ، « البلطة » تأليف ميخائيل سادوفيانو ، « لاعب الشطرنج » ستيفان زفايج ، « طونيو وكروجر » توماس مان ، « الأب الضليل » اديث سوندرز ، دراسة عن مدينة«القاهرة»تأليف ديذموند ستيوارت،ومسرحيتى « كنوك » لجون رومان،و «الطائر الازرق» لموريس‌مترلنك وهو يعتز بترجمة مجموعة قصائد « همس الملاك » لشاعر الهند العظيم ميرزا أسد الله خان غالب « هذا الشعر ص ١٨٧ / ٢٢٠ » وفى كل هذه الصفحات ، ستقابلك ، مع الأمانة ، لغة يحيى حقي واحساسه ، وجهده ، ومعاناته .

ــ ومازال يحيى حقى ، يشع فينا وفى حياتنا ، فكرا وفنا ونشاطا ، ورعاية ، تعبر عنها المقولة ، التى اوردها

اندريه مالرو ، فى رواية « قدر الانسان » ترجمة فؤاد كامل « استاذ بالمعنى الصينى للكلمة ، اى اقل من الأب قليلا ، واكثر من الأم »

سندلف ، الان ، والفعل « دلف » من الأفعال التى اخذ يحيى حقى ، على الكتاب الذين كانوا شبانا ، كثرة استعمالها ، سندلف الى واحد من كتب يحيى حقى الأثيرة « خليها على الله » اثيرة ، عنوانا ، ففى الحياة ، « يفرد زورقه ، والبحـــر المخـوف أمامه » ، ويقـول خليهـا على الله ، وهذا لا يعنى أن يحيى حقى درويش أو كالدرويش ، فهو صاحب الدعوة القويه ، الى تنمية الارادة الانسانية انما يقول لك ، ابذل جهدك ، أقصى جهـــدك ، اعرق ، وكافح ، وان عصتك المقادير ، والظروف والملابسات ، وآليات الحياة ، فلا تقف باكيا ، متحسرا ، قف ، واصلب عودك ، وابتسم ، لأن ، الابتسام قوة ، الانسان المتحسر ، المرور ، ضعيف ، ولعل يحيى حقى ، ينصحنا ، الانسان القوى ، خير من الانسان الضعيف ، وخذ بالك من عناوين يحيى حقى : « قنديل أم هاشم » ، « فكرة فابتسامة » ، « دمعة فابتسامة » ، « أم العواجز » ، « عطر الاحباب » ، « ياليل ياعين » ، « من فيض الكريم » ، « من باب العشم » هو يقول ، لا تعاند الاقدار ، لا تكن مثل « أوديب » فى الاسطورة اليونانية القديمة ، عاند الأقـــدار ، فكانت النتيجة ، وبالا ، قتل أباه ، وبنى بأمه ، وفقا عينيه • دمعة فابتسامة ، اى لا تجعل الهزيمة ، آخر مناك ، وآخـــر المطاف ، وكما ان يحيى حقى – فى حياته – يترك جانبـــا للمجهول ، فقد أخذ بنفس المبدأ فى كتابه .

والكتاب ليس أثيرا ، فى عنوانه ، وحده ، انه اثير فى موضوعه ، لقد سمى كتاب « خليها على الله » مذكرات ،

ولكنه سارع ، « مذكرات عابر سبيل » ، أي ليست مذكرات « مقيم » ، يذكر تاريخ الحدث بالساعه واليوم، ويوثقه في مصلحة الشهر العقاري ؛ ولا يكتفي بذلك ، انها ، « مذكرات عابر سبيل ، يرويها عفو الخـاطر ، تاركا نفسه على سجيتها ، والحبل على الغارب » أي انه لم يربط نفسه الى مكتب ، ليقدم للناس سيرة يحيى حقي ؛ بخطاياها ؛ بقصد التوبة ؛ كما فعل ، القديس « أوغسطين » « ٣٥٤ – ٤٣٠ م » وبعبلها ، بقصد الحكمة، كما فعل ، جان جاك روسو ، في اعترافاته ، أو بتخطيط فكري صارم ؛ كما فعل « جان بول سارتر » في«الكلمات» ان يحيى حقي ، عندما كتب « خليها على الله » في ثلاثةعشر مقالا ، نشرت بجريدة « الجمهورية » في الفترة من ٢٧ / ١٩٥٩/٣ حتى ٢٦ – ٦ – ١٩٥٩ ، وبناء على طلب من احمد رشدي صالح ، المسئول عن الجريدة ، آنذاك ، وهي الجريدة التي أنشأتها الثورة ، لتعبر عنهـا لدى جماهير القراء ، لم يكن قصده ، ان يقدم سيرته « هو » الذاتية بالدرجة الأولى ، كان هدفه ، أن يقدم ، من خلال معرفته الشخصية ، ومن خلال تجربته الشخصية ، صورة للمجتمع في مدينة منفلوط في أواخر العشرينات من هذا القـرن « حيث أتيـح لي أن أعـرف بلادي ، وأهلهـا ، واخالط الفلاحين عن قرب ، وأهمية هاتين السنتين ترجع الى .. اتصالي المباشر بالطبيعة المصرية ، والحيوان ، والنبات .. واتصالي المباشر بالفلاحين ، والتعرف على طباعهم ، وعاداتهم » ونحن هنا على خلاف « أيام » طه حسين ، و « حياتي » لاحمد أمين ، و « سجن العمر » لتوفيق الحكيم و « اوراق العمر » للويس عوض ، لا نرى صاحب السيرة ، بالدرجة الأولى و « على نمط » « خليهـا

على الله « جاءت سيرة فتحي رضوان صبيا « خط العتبة »
أننا نرى من خلالهما صورة المجتمع الذى عاشا فيه
الكاتبان ، صحيح ان أصحاب السير الذاتية ، التى سبق
أن ذكرناها طه حسين واحمد أمين والحكيم ولويس عوض
يقدمون الينا أيضا ، المجتمع الذى عاشوا وتحركوا ، فيه،
الا أن ذواتهم ، ماثلة ، موضع الاهتمام ، وتأتي صورة
المجتمع بمناسبة الحديث عن شخصياتهم ، وهذا ، خلاف
« خليها على الله » و « خط العتبة » ، خصوصا الجزء
الثانى من « خليها على الله » وهو الجزء الأكبر ، والخاص
بيحيى حقى فى مدينة ومركز منفلوط ، اذ يقدم المجتمع
فى مدينة منفلوط ، وفى القرى والعزب والعشش التابعة
لمركز منفلوط ، ان يحيى حقى ، حين ذهب الى منفلوط
فى سنتى ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، كان ، رغم حداثة سنه ـ
فقد كان فى الثانية وفى الثالثة والعشرين من عمره ، ورغم
حداثة السن هذه ، فان يحيى حقى ، كان متعطشا
الى المعرفة ، اقرأ معي « نخرج من المدينة ونسير قليلا
على جسر « الابراهيمية » ثم نعرج على سطح صليبة
حوض .. يكون الجبل أمامنا تارة ، أو عن يميننا أو
يسارنا تارة أخرى ، وكان راسى يصيبه الدوار أول
الأمر ، من حوالينا غيطان متشابهه تمتد الى مرمى البصر
.. كان صوتا خفيا مرهوبا أمر الدنيا بالصمت « ص/
١٠١ » « كان رأسه يصيبه الدوار » ، ان يحيى حقى الفنان
يكتشف الدنيا الجديدة ، يكتشفها بوجدانه ، وبحسه ،
وبمشاعره ، يكتشفها حية نابضة ، يكتشفها مجسمة ، الى
الحد الذى يصيب رأسه بالدوار . انه ليس سائحا يتفرج،
انه المواطن المحب الشغوف المهموم ببلده وبمواطنيه ، انه
ليس «هيرودوت» يجوس خلال بلاد غريبة عجيبة، رغم انى،

وانا اعيد قراءة « خليها على الله » سحبت كتاب «هيرودوت في مصر » وهو الاجزاء التي خصصها المؤرخ الكبير عن رحلته الى مصر ، واعدت قراءته .

ويحيى حقي ، المكتشف ، والمتعطش الى المعرفة ، يحمل معه شغفه باللوحات ، وكثيرا منها فيهـــا عنصر القصة ، وهي ـ كالعادة ـ لوحات ، ذات دلالات ، تقدم الانسان والبيئة ، مهما بدت شاذة مسيئة ، منهـــا ، مجموعة لوحات ، لطبيب مركز منفلوط ، وهو الطبيب الشرعي ، لوحة لفلاح يزحف وراء هذا الطبيب ، يرجوه، انزال الحصوات ، التي حجزت البول ، حتى ملأت مثانته، والطبيب يرفض ، لأن الفلاح ليس معـه ريال . ويقــدم لنا ، هذا الطبيب ، يجرى عملية جراحية ، تدليســا ، لمريض يموت ، ويتقاضى الاجر ، وقد جمعتـــه زوجة المريض من ايادي الجيران ، ونفس الطبيب ، يشرح جثمان الموتى ، دون مقتضى ، وامام الناس ، لا لشيء ، ســوى أن يقبض أجر التشريح الى آخر « حيوانيات » هــذا الطبيب ، والتناقض الغريب ، وهو تناقض دال ـ أيضا ـ ان يحيى حقي صحب هذا الطبيب ، الى منزله ، مرة وحيدة ، « دخلت مسكنا انيقا ، نظيفا ، ينم لأول وهلة، عن ثقافة أوربية ، ستائر ملونة ، أنوار خافتة .. أثاث مريح من الطراز الانجليزى .. مكتبة غربية عامرة .. وبيانو في ركن الصالون .. يسود الدار جو من السلام والدعة والنظافة والرقة والاطمئنان .. ومع ذلك لم إنعم بعشائى الفاخر ـ بين أطقم من الكريستال والفضة ـ وأنا احاول أن أطابق ما اشهد على سيرة الطبيب خارج داره» « ص ١٩٢ ، ١٩٣ » لقد عاش الطبيب داخل قلعة ..واقام حولها المتاريس .. ويتحدث يحيى حقى عن نفسه ، انه

يعيش دائما خارج المتاريس ، مع الناس ، لا ينفصل عنهم ، « ووقاني الله سبحانه وتعالى طول حياتي من شر هذا السياج » ص ١٩٣ السياج الذى يفصل بينه وبين الناس وهم يعانون ويكدحون ، انه يشـارك مواطنيه معاناتهم ، ـ فى سنة ١٩٥٩ ، حين اختار يحيى حقى أن يكتب ما تيسر من سيرته اختار فترة محددة ، لقد خطا على مرحلة التكوين الأولى ، وبدأ من سنة حصوله على ليسانس الحقوق فى يوليو ١٩٢٥ ثم سنتين ، عمل فيهما محاميا ، وسنتين عمل فيهما معاونا للادارة ، وهى وظيفة ، لم تعد قائمة حاليا ، كانت بين وظيفة وكيل النائب العام، ووظيفة ضابط الشرطة . ولما كانت المذكرات ، مذكرات عابر سبيل ، فهو لا يتقيد بالتسلسل الزمنى ، فليس ما يمنع أن يرجع الى ماوراء الفترة التى بدأ فيها ، سنة التخرج ، ويحدثنا عن مدرسة الحقوق بين النفوذ الفرنسى والاحتلال الانجليزى ، والمنافسة بينهما للسيطرة عليها ، وأساتذة الحقوق من انجلترا وفرنسيين ومصريين ، ثم وهو يحدثنا عن سحر الخطابة، ليس ما يمنع أن يخطو فى الزمن الى الامام ويحدثنا عن فترة لاحقة لعمله فى منفلوط ، عن استماعه لخطب مصطفى كمال أتاتورك ، وموسولينى وهتلر وجوبلز والى خطباء الجمعية الوطنية الفرنسية ، بل انه لا يتردد ، وهو يحدثنا عن السيرة الماضية ، ان يسحب الحديث الى اللحظة الأنية ، التى يخط فيها مذكراته ، ترك القاهرة الى الاسكندرية ، يعمل محاميا ، ووجد فى الاسكندرية محاميا يعمل معه فى مكتبه ، وكان المحامى ، يهوديا ، فيسجل ـ يحيى حقى ـ موقفه الآتى ،

الذى لم يكن موجودا ابان وقوع الحدث ، « كانت هــذه الكلمة ـ يهودى ـ لا ترن فى أذنى فى ذلك الوقت ، رنين اجراس عربة المطافىء أو الاسعاف .. كنا فى غفلة تامة .

ـ بفضل سذاجة زعمائنا السابقين ـ عن الخطـــر الداهم رغم النذر السافرة والطلائع البينة ، أكان هذا ايذانا من القدر بان خطوتى الأولى تجمعنى بهذا الجنس العجيب « الاسرائيليين » من الناس الذى ســـيقابلنى شبحه فى مستهل كهولتى ، فينكبنى ويؤذينى اشد الأذى .. ويقلب كل المبادىء الجميلة التى اعتنقها بحب وغرام بأضداد لها » « ص ٧٠ » ان المحــامى اليهــودى الذى عمل فى مكتبه سنة ١٩٢٦ جاء مناسبة ، ليحــــدد موقفه الجديد ، من « اسرائيل » ، ثم راجع مقال « نكبة روحية » كتاب « دمعة فابتسامة ، ص ٥٠ وما بعدها طبعة الكتــاب الذهبى ديسمبر ١٩٦٥ » ثم اغمضت عينى وفتحتها فاذا بى أرى العنصرية تعود فى أبشع صورها فتؤسس دولة اسرائيل .. « كان قد زال من قلبه كل أثر للتعصب ، وحلم باليوم الذى يسود فيه السلام والعدالة ، حتى جاءت اسرائيل ، فمثل قيامها له ، نكبة روحية ، قلبت كل المبادىء الجميلة ، التى سبق أن اعتنقها .

انه يقدم اللوحة / الحدث بامتدادها فى الزمن سواء سبق الفترة التى يتحدث اساسا عنها ، أو كان لاحقا لها . وبذلك ، لا تنفصل المذكرات عن الواقع الراهن الحى المعاش ، ولا يدع قارئه يعيش فى ماض عفى عليه الزمن . على ان القارىء ـ مطالب ـ أن يعمل فكره ، ويقيم الربط ، فحين يحدثنا عن المحاكم المختلطة ، وقد كانت

اثرا من آثار الامتيازات التى تمتع بها الاجانب فى بلادنا ، واتفق على الغائها فى معاهدة / ١٩٣٦ ، وكان آخر العهد بها ١٥ اكتوبر ١٩٤٩ .. فسنعرف ان الواقعة وضعت هنا كجزء من تاريخ بلدنا ، على أن الكثير مما كان يحيق باهلنا ، وسجلته المذكرات ، مازال قائما ، وان اختلف الشكل ، ولعل هذا بالتحديد ، هو ما يشغل بال يحيى حقى ، حاليا ، هذه الصورة التى قدمتها ، هل مازالت قائمة ، هل الهوة التى تفصل الفلاح عن الحكومة مازالت قائمة ، ، هل الجفوة بين موظفى الحكومة وبين الاهالى مازالت قائمة ، هل مازال بعض أهالينا يساكنون الحيوانات فى بيوت من أعواد الغاب وطعامهم العيش والبصل فى الوجبات الثلاث ، يحيى حقى عاش فى الصعيد وعينه وسمعه وحسه ومشاعره وأفكاره ، آلة فوتوغرافية عاقلة واعية تسجل ، وكان تأثير الصعيد على يحيى حقى عميقا « فى أول يناير ٢٧ تسلمت عملى الجديد معاونا للادارة بمركز منفلوط حيث قضيت أهم سنتين فى عملى على الاطلاق » « أشجان .. ص ٣٤ »

وقد تبدت هذه التجربة فى أعمال فنية ، قبل أن يسجلها كسيرة ذاتية ، من حياته فى الصعيد ، قدم ، قصة « البوسطجى » ومجموعة قصص « دماء وطين » وبعض قصص مجموعة « أم العواجز » وأعتقد أن رواية « صح النوم » رغم انها لا تفصح ، تجد مذكرتها الايضاحية فى كتاب « خليها على الله » فالقرية التى تقع على الجسر ، والحان ، والنماذج ، يفسرها كتاب « خليها على الله » .

واذا كنا قد عشنا مع يحيى حقى ، سنتيه الصعيديتين ، فان سنوات عديدة ، أفلتت منه ومنا ، تلك ،

سنوات عمله في السلك الديبلوماسي ، سواء في جدة ، أو استانبول أو روما او باريس او في وزارة الخارجية كمدير مكتب وزير الخارجيه ، واذ تسأله يجيب :

الحقيقة انه من الاشياء المؤلمة انني لم أكمل تاريخ حياتي بعد « خليها على الله » اذ كان ذلك يقتضى ان تكتب تاريخ الخارجية المصرية ، بما يقتضيه من الاطلاع على وثائق بالقلعة وغيرها ، مما لم تمكنني حياتي من انجازها ، وبالتالي عدلت عن أن أكتب عن هذه الفترة تفصيلا ، ثم استدرك، انني لست كاتبا سياسيا . . فالفكرةالمستغرقة لكل كتاباتي هي الانسان . . كانسان .

يقول يحيي حقى هذا ، وهو الذى عمل مديرا لمكتب وزير الخارجية ، قرابة عشر سنوات ، وفي ادراج مكتبه شفرات وزارة الخارجية .

لذلك ، فانا اعتقد ، الى جوار السبب ، الذى ذكره يحيى حقى ، من انه ليس كاتبا سياسيا ، يوجد سبب آخر ، اذ ان صاحب امتياز اصدار جريدة « الجمهورية » قال في لحظة ما ! يحيى حقى .. كفاية بقى !! وتوقفت المذكرات . . مذكرات عابر السبيل .

فما أشد خسارتنا

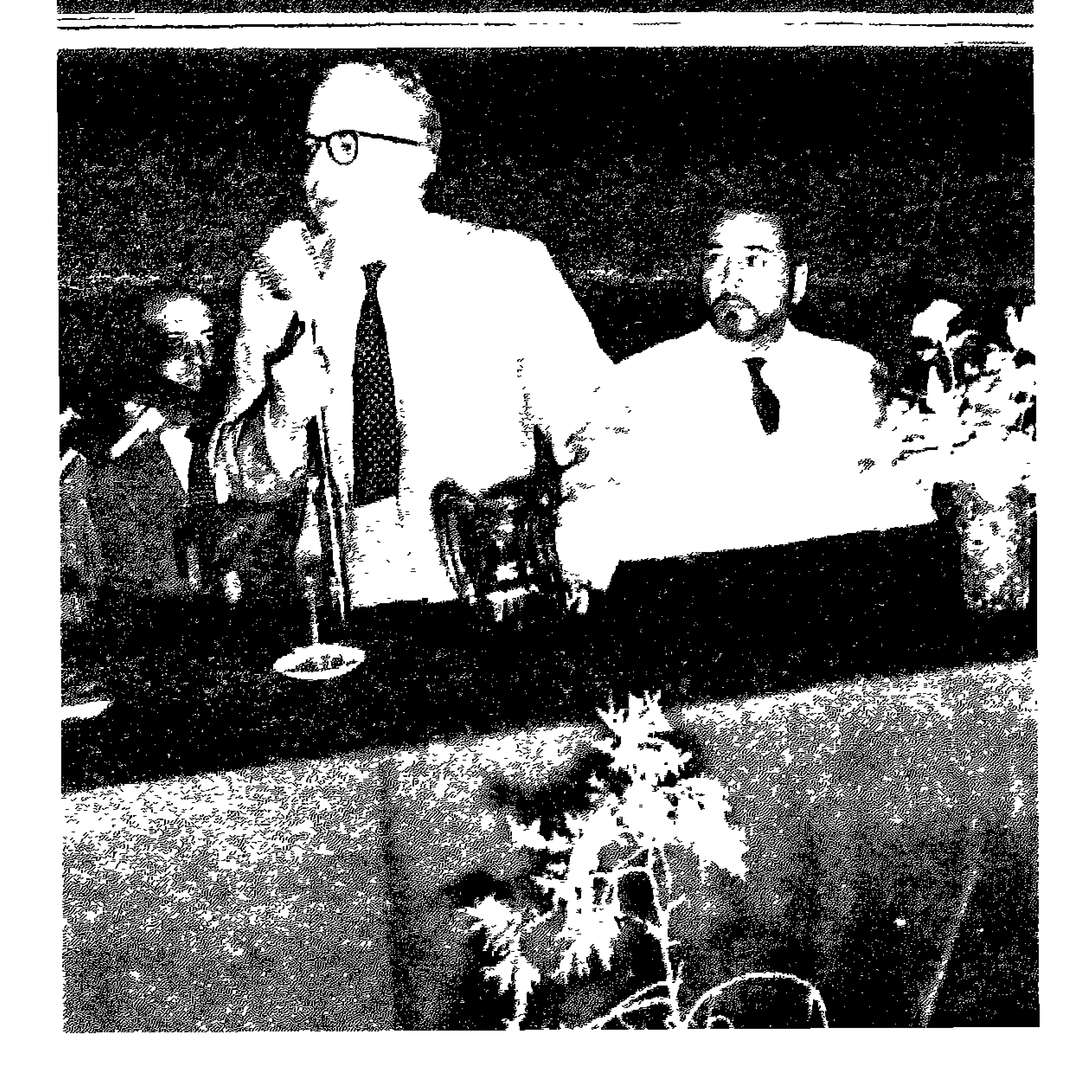
أستاذنا الجليل ! يحيى حقى

لقد هممت أن اعانق البحر . . فاغرقني البحر . فعذرا .

محمد روميش

الباب الأول

مدرسة الحقوق ..
ومضاعفاتها ..



يوم أديت الامتحان الشفوى لآخر مادة فى شهادة الليسانس (وقد دام الامتحان بين تحريرى وشفهى اكثر من خمسة وعشرين يوما) عدت من الجيزة الى شارع السيوفية تحت شمس محرقة ـ وان كادت تغيب ، فنحن فى عز الصيف ، يوليو سنة ١٩٢٥ ـ فاذا بى حين وصلت الدار اعجز عن صعود السلم .

لا اذكر كيف حملت الى مسكننا ، ولكنى اذكر بوضوح أننى ارتميت بملابسى وحذائى راقدا على الكنبة ، مسندا راسى الى ركبة أمى ، انفاسى متلاحقة تلهث ، فى جفاف ، كانما هرب ريقى كله الى عينى فهما مغرورقتان بالدموع . والتعب يبكى كالحزن .

فى جسمى اعياء شديد ، وفى روحى اعياء أشد .. كان ينبغى أن انجح ولو جاء اسمى فى الذيل ، لا اعتزازا بشهادة الليسانس وبلقب « متر » ـ وهو طولى ان زاد المتر « لكمية » ـ ولا طلبا للنجاة من المدرسة وقرفها ، او تلهفا على الاستقلال والقدرة على كسب الرزق ورد الجميل ،

ولا أملا فى مستقبل مرموق فى الوظيفة ، أو شهوة فى العمل الحر .. ليس لشيء من هذا كله .. بل كان ينبغى ان انجح لدافع واحد وحسب : هو الا اغضب امى ؛ او ان اجرعها خيبة الأمل .. يهون على كل شيء الا ان اقف امامها وقفة الخائب .

لو انها اكتفت بلومى وتقريعى لما باليت ، وانما خوفى أن تنعى كيف ضاع جهادها من اجلنا عبثا . وتندب سـوء حظها .. مع اولادها ايضا !.

هى عماد الأسرة .. ربتنا بيديها ، تخيط ثيابنا — ونحن ستة — ومن هذا الماضى تقفز الى ذهنى كلمات : التنبيت ، الحردة ، القبة ، السبكة) ، تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك اشد العناء ؛ متحايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ، اذا قدمت لنا فى بعض الأحيان طعاما نزرا لا يغنى ولا يسمن من جوع ضاحكتنا وصبت علينا ضجة مرحة كأنما اجتماعنا حول المائدة لعبة مسلية فكنا على ضحكها — ونحن نعلم انه تمثيل ! — نجد الطعام وفيرا مشبعا لذيذا . وهى التى ربتنا بلسانها ، تحثنا بغير الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة ، كسوط صاحب الجواد الأصيل ، له وقع وليس له لسع ..

وربتنا — فوق هذا وذاك — بنظراتها اذا كنا فى مجمع من الناس ، نظرات تحوط علينا ، وتعلمنا كيف ينبغى أن نجلس ، وكيف ينبغى أن يكون الكلام المهذب ، وتقيد علينا كل زلة لسان — وان كانت بريئة — وتنبهنا اليها اذا انفض الجمع .

ومما يؤكد لنفسى الآن ان لسانها هى لم يزل قط فى مثل

هذه المجتمعات ، أننى أذكر من بين صورها الباقية فى ذهنى صورة لها وهى مضطربة قلقة ، تكاد تعض بنان الندم لأنها هفت والحديث ثرثرة وذكرت من امرأة غائبة أنها بدينة كالبرميل .. وكان بين الحاضرات زائرة ينطبق عليها هذا الوصف ..

***

مسلق بيض ..

كنا نغبط المتقدمين لشهادة الليسانس فى البلاد الأوربية لسببين ، الأول : أنهم يمتحنون فى بعض المواد دون بعض ، أما نحن فى مصر فحتم علينا أن نجتاز امتحانا تحريريا وشفهيا فى جميع المواد وأن نحصل من أجل النجاح على نسبة ستين فى المائة من مجموع الدرجات ، وإذا سقطنا فى علم واحد أعدنا السنة كلها .

والسبب الثانى : أنهم يدرسون قانون بلادهم وحدها . أما نحن ، فبعد المامة سطحية بالقانون الرومانى ينبغى أن ندرس الشريعة الاسلامية ، والقانون الأهلى ، والقانون المختلط ، مع الرجوع فى أغلب المواضيع الى القانون الفرنسى ، حتى فى القانون المدنى الأهلى كان لا مفر من أن نعرف نصه الافرنسى المزعوم بانه ترجمة غير معتمدة للنص العربى ، وهو فى الحقيقة أصل التشريع والنص العربى ترجمة له ، فى اغلب الأمر فاسدة . يبلغ هذا العبء ذروته فى قانون المرافعات حيث تختلف المواعيد فى القانون الواحد ، وتتباين بين قانون وآخر ..

حفظت كل هذا عن ظهر قلب ضمانا للنجاح ، وكان حرص الطلبة الأوحد أن يأخذوا العهد والمواثيق على الأستاذ بالا يخرج الامتحان عن النص الموجود بين ايديهم ، اذا رأى حذف بعض التفاصيل فى أحد الابواب تشبثوا به حتى يبين لهم بنفسه من أية صفحة يبدأ الحذف وعند أية كلمة ينتهى ، ولو كانت وسط السطر .

— والهامش يا أستاذ ! محذوف أم غير محذوف ؟

تجرى أقلامهم فى لذة كبرى تشطب المحذوف « ياللا فى داهيه ! » .

لم أجد الا فى القلة النادرة أستاذا يرتفع عن هذا الارهاب ليشرح لنا العلة والسبب والمنطق وراء ما نحفظه من التفاصيل ، كنت أشعر وأنا ادرس الشريعة الاسلامية اننى أغوص فى بحر من الرمل لا أجد لقدمى مستقرا صلبا .. لم افهم فلسفة الدية ، لأن قانون العقوبات الاهلى علمنى شيئا مختلفا جدا .. كنت أود أن أعرف قانون الحجاز قبل الاسلام لافهم الشريعة فهما صحيحا .. ولكن هذا لم يحدث ..

ولم يفكر أستاذ أن يدلنا على كتاب نقرؤه خارج المقرر لننتفع به . كأنهم يقولون « التلميذ الكسول حمار بليد لا يأبه حتى لوقع العصا ، والتلميذ المجد حصان سباق يشق طريقه جريا بغير حاجة لمهماز .. »

وضعت انا — كالبغل ! — بين الاثنين .. كنا نحفظ الشيء الكثير عن « الفتاوى الهندية » ، بحثت عنه فى المكتبة حتى ظفرت به . ولكننى وجدتنى بازاء خضم واسع أحتاج

فيه الى مرشد فلم انتفع به الا قليلا ، والى الآن لم أفهم سر نسبة هذه الفتاوى للهند ..

تعليم كسلق البيض ، وتدافع كالقطيع الى المجزر ، وحشو للدماغ ، حتى تكاد تنفجر ، بالتفاصيل والقشور .. ان اردت أن تظفر بالجواهر فعلت ما تفعله فقيرات شعبنا الباحثات فى صفائح القمامة ، او فى أكوام الرماد بمخازن السكك الحديدية عن شظايا فحم لم تحترق .

عرفت زميلا لى كان يباهى بذاكرته الخارقة ، يكاد لا ينسى شيئا ، ولكنى بعد امتحان الليسانس كنت اذا حدثته عن شيء وقع بالأمس القريب اجابنى ببلاهة :

ــ آه ! حقا ؟ اننى لا اذكر ..

اننى عاتب اذن على مدرسة الحقوق للأسباب التى ذكرتها ــ وهى أسباب تتعلق بالمبادىء « فكاننى أقدمها لمحكمة النقض ! »

الى جانبها سبب آخر ، ان كان أهون شأنا الا انه أبقى أثرا لانه وليد الاوهام والغرور وحب استعراض النفس .

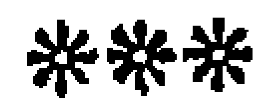
كان يقال فى المدرسة الثانوية للطامعين فى دخول مدرسة الحقوق :

ــ يا بختكم ! هذه مدرسة تقام فيها محكمة وهمية .. فيختار تلميذ لتمثيل دور رئيس المحكمة ، وآخر يتكلم باسم النيابة ، وثالث يتولى الدفاع ، ورابع يقف فى قفص الاتهام ، وقد تدوم المحاكمة أكثر من يوم .

اذا سمعت هذا الكلام أرى نفسى لا فى قفص الاتهام ، فهذا دور غير خطير ، وحتى لو حكم على بالاعدام فاننى

سأخرج لتناول الغداء فى دارى ، ولا على منصة الرياسة ، فهذا دور يصلح لأبكم متعنطز .. بل اراني امثل النيابة ، ظانا أن الشريط والوسام على صدرى ، أو أمثل الدفاع ــ اخب فى روب خيالي ــ وانطلق فى مرافعة طويلة مشوحا بيدى ، مشيرا بسبابتى ، مرة للسقف ــ حين أذكر العدالة ــ ومرة الى قفص الاتهام ــ مؤلبا أو مسترحما .. ادق المنضدة بقبضة يدى ــ ستضع مدرسة الحقوق منضدة امامى ؟ سأخلع الطربوش وامسح بين الحين والآخر عرقى ــ ارجو الا يكون منديلى ذلك اليوم مخروقا ! ــ سأرفع صوتى لأعلى الطبقات ، ثم أهبط به الى الهمس حانيا راسى على الأوراق اقلبها للبحث عن المستند القاطع الذى اخفى خبره ولا ابرزه الا فى تمام المفاجاة .. والمحكمة كلها تكتم انفاسها فى تلك اللحظة الرهيبة ..

ومرت السنوات الأربع ولم تعقد قط هذه المحكمة .. مدرسة تعد اغلبنا لصنعة الكلام ، تتركنا دون ان تتيح لطالب منا فرصة واحدة ليقف فيتكلم أمام جمع ، حاضر الذهن ، مالكا لشخصيته واعصابه ، غير متلعثم ، لا يتفصد وجهه عرقا وخجلا .. والخطابة موهبة ولكنها تكتسب ايضا بالمران .



سحر الخطابة

وكان لى شغف قديم بالخطباء ، دسست نفسى وانا تلميذ صغير اخاف الزحمة ــ فما بالك بالرصاص ــ وسط

المتظاهرين حتى بلغت بيت الأمة لاسمع سـعد زغلول . صورته الباقية عندى كخطيب تعود الى يوم فى سرادق كبير كأنه يوم الحشر .

وهاج الجمع حين علم أن سعد زغلول معتذر عن الخطابة لانه مريض ، وأنه سينتدب أحد اعضاء الوفد ليتحدث الينا بدله .. رايته يشير الى رقبته ، يلفها بكوفية .. ويهـز راسه كأنما يقول : لا .. لا .. وهجم عليه رجال يجذبونه جذبا الى المنصة ، وهو يدافعهم وتتشبث اقدامه بالارض ويثقل وزنه بين أيديهم ، ولكنه غلب على أمره (أو هذا — على الأقل — ما فهمناه نحن ، والله أعلم بصدق عزوفه) وبدأ كلامه بصوت خافت متقطع ، راسه كأنها مغروزة فى جسم بلا رقبة من أثر الانحناء .

وشيئا فشيئا دبت فيه حركة — يالهـا من حركة — وحماس أى حماس !.. انتصب الراس كأنه تمثال حى للنبل والجبروت والاعتداد بالنفس .. ذراعاه الطويلان — كذراعى الغوريلا — يضمان الى صـدره العـريض امانى الدنيا ، ويقصيان عنه فى حركة واحدة كل خبائثها .. ترتجف القلوب حين يشير بسبابته متوعدا.. رفعنا وهبط بنا .. أذاقنا السعادة والحسرة والأمل .. اربع ساعات كاملة لا ينقطع سحره .. وخرجت سعيدا مخدر الجسم متعبا ورأسى دايخة ..

وحرصت — وأنا صغير أيضا — على سماع أول خطبة يلقيها توفيق دياب ، بعد عودته من انجلترا ، وقيل لنا انه درس فيها فن الالقاء .. على أصوله .. لا عجب أن كان خطابه كهدير المانش .. وكانت « توبة من دى النوبة » .. ثم حين اشتغلت بالمحاماة سعيت الى سماع كل محام

مشهور بالخطابة ، ووصفتهم — بعد الانتفاع بكتاب ل « هنرى روبير » نقيب المحامين فى فرنسا — فى مقالات نشرت بصحيفة « وادى النيــل » التى كانت تصــــدر بالاسكندرية — ولنا عودة لها — أسماء غير قليلة لا فائدة الآن من ذكرها ، ولــكنى أحب أن أقف عنــد ابراهيم الهلباوى .

الهلباوى

سافرت معه فى القطار مرة من الاسكندرية الى دمنهور ، حيث كان عليه أن يترافع فى احدى القضايا بمحكمتها .. تخلص برقة حازمة لا تجرح من تجمعنا نحن صغار المحامين حوله وقال انه لا مفر له من أن يفرغ من قــراءة ملف القضية ، لأنه — والكلام بين محامين ، مع حفظ المقام ! — لم يفتحه بعد ، وتناول — بعد أن تركنا مزارع الموز عند محطة سيدى جابر — ملفا ضخما وأخــذ يقلب صفحاته، لا تكاد عينه تستقر على الصفحة الا قليلا .. وانا أقول فى سرى « ما شاء الله أهذا شأن كبار المحامين ، ومبلغ أمانتهم فى دراسة القضايا ؟ » .

جلست استمع الى مرافعته ، وقــد دامت اكثــر من ساعتين . نهب فيها ابصارنا وخلب البابنا ، من يسمعه يقسم بأغلظ الأيمان أن هذا الرجل « فلى » ملف القضية كلمة كلمة ، وحفظها عن ظهر قلب .. انه محام يعتمد على الجو وخلق الجو .

لو سطرت خطابه على ورقة ثم خلوت لنفسك بعيدا عن هذا الجو وقرأتها لقلت « هذا كلام محموم يهذى » فلا

رابطة قط بين الجملة والجملة .. واكثر الجملَ غير كاملة ، بل هى كلمات متفرقة .

مسكين ابراهيم الهلباوى ، هــذا الــرجل الذى كانت شهرته مضرب الأمثال .. يقول الفلاح عن غريمه « والله لأقتله واجيب الهلباوى ! » ضامنا بذلك البراءة .. لا اعرف احدا من ساسة مصر تجرع مثله العذاب علقمــا وصابا ، كأسا بعد كأس ، سنين طويلة تكاد تكون هى عمره كله ، لا ادرى أى شيطان خبيث أوقع فى ساعة نحس ربيب الثورة العرابية ، وتلميذ جمال الدين ، وزميل ســـعد المرفه الذى يحب أن يعيش فى ستر ــ مثل توفيق نسيم ــ وسط سرب من الجوارى البيض ، على حين أن المستقبل مبسوط أمام نفسه الهمام الذكية الطموح .. أوقعه فى نكبة لا براء منها ، وزلة لا غفران لها وان تاب الخــاطىء توبة نصوحا .. فنحن فى الارض لا فى السماء .. حين قبل أن يترافع ضد شهداء دنشواى ويجــرب فيهم فصاحته وبلاغته ، ويتجنى عليهم ويطلب الحــكم باعدامهم ليكونوا عبرة لغيرهم من ابناء شعبه .. أف ! أن نفسى تتعكر من جديد .. أن دنشواى جرح لا يندمل فى قلب مصر .. تتوارث حقده الأجيال .. فى ذلك اليوم حفر الهلبــاوى قبره بيده ونزله حيا .

بين المرات التى اذكر أننى بكيت فيها وانا صبى بحرقة ومرارة (الى جانب رثاء « شوقى » لمصطفى كامل) يوم أن فرغت من التهام العدد الخاص الذى اصدرته « مجلة المجلات » ــ ووجدته فى دارنا حين كبرت ــ عن نكبـــة دنشواى .. لا ازال اذكر صورة المشانق ، وصفوف جند الانجليز على هيئة مربع .. وبكيت أيضا حين قرات قصة جميلة ــ منسية مع الأسف ، وهى جديرة بالذكر ــ اسمها

« عذراء دنشواى » مؤلفها – وزيتنا فى دقيقنا – عمى محمود طاهر حقى ، كتبها وهو فتى لم يطر شاربه .

ولعل خير من سجل شعور مصر هو المرحوم قاسم أمين النابغة العزوف ، المتعدد المواهب ، حين قال : « رأيت قلب مصر يخفق مرتين ، يوم تنفيذ حكم دنشواى ويوم وفاة مصطفى كامل » .

نسى الشعب اناسا آخرين ، مسئوليتهم – ان لم تزد فلا تقل عن مسئولية الهلباوى .. القضاة الذين أصدروا حكم الاعدام ، والوزير الذى صدق على هذا الحكم ، ورئيس الوزراء الذى بارك هذا الجرم بسكوته عنه .. من هم ؟ لا أحد يذكرهم . ونسى الشعب أيضا كثيرين ممن اجرموا فى حق الوطن ، ولكنه لم ينس قط جريرة ابراهيم الهلباوى .. وجريرة لا تجىء آخر العمر ، فان لم يسهل نسيانها غيبها القبر ، ووارى سوءتها التراب واراح صاحبها من رؤية الناس ، واراح الناس من رؤيته .. بل تجىء فى أول العمر ..

حين عاد عرابى من منفاه فى شيخوخته .. قيل ان بعض الناس تلقوه على المحطة صائحين فى وجهه هاتفين ضده ذاكرين له هزيمته فى التل الكبير وانه سبب النكبة .. ربما كان ذلك بترتيب من الخديو عباس الثانى لحقده الدائم على عرابى الذى خلع أباه ، وللنكاية به لأنه لم يقدم عريضة الاسترحام بعودته للوطن الى ولى النعم ، بل جرأ على تقديمها من فوق راسه الى جورج الخامس – وهو اذ ذاك ولى عهد – حينما مر بسيلان فى طريقه الى الهند .

واعتكف عرابى فى داره لا يحس به أحد . لو سالت انسانا من الجيل اللاحق له أين يقع منزله لما عرف ..

وهذا اغرب مثل فى تاريخ مصر على قدرة الشعب على النسيان ..

حاول الهلباوى ان يشترى الغفران بدفاعه البارع عن الوردانى ولكن هيهات .. حاول أن يعود الى الحياة العامة والاشتغال بالسياسة فانضم الى حزب الأحرار الدستوريين .. ولكن ماذا حدث ؟ لقد شهدت بنفسى مصرعه ، من وقع لطمة أخرى ..

حضرته يخطب فى سرادق ضخم ازدحم فيه انصار الحزب المتحمسين ـ يكفرون بسعد ويؤلهون عبد العزيز فهمى .

واقاض الهلباوى فى الحديث عن الوطنية الحقة مشيدا بجهاد الحزب من أجل تخليص حقوق البلاد من المحتلين ، وقوطع خطابه بالتصفيق والهتاف .. وامتلأ الرجل ثقة وزهوا وظن أن الدنيا قد صالحته ولكنه لم يكد يفرغ من خطابه حتى ارتفع صوت فى آخر السرادق يهتف :

ـ ليسقط جلاد دنشواى .

كنا واثقين أنه دسيسة بعث بها حزب الوفد لافساد الحفل ، بدليل اتخاذ المبعوث مكانه بجانب الباب ليسهل عليه الهرب . ومع ذلك فكأنى بالحاضرين قد مستهم الكهرباء فجأة ، واذا بهم كلهم ـ وهم أنصار حزب الهلباوى واعوانه ومشايعوه ـ يقفون وقفة رجل واحد ويهتفون بصوت واحد يجلجل كالرعد :

ـ ليسقط جلاد دنشواى ..

انه كان صوت مصر ينطلق من حلوقهم رغم ارادتهم ..

هل هو انتقام جديد للقدر من وراء القبر ام مراضاة منه

مصافاة لا تخلوان من التهكم والسخرية ؟ .. ان الذكرى الوحيدة الباقية للهلباوى بعد وفاته تسمعها من كمسارى الأوتوبيس فى خط المنيل وهو يعدد المحطات :

ــ محطة الجراج .. محطة الهلباوى !

يرحمه الله ..

خطب لا خطيب

نوع آخر من الخطباء كنت أسعى اليه أيضا .. خطباء الجمعة فى المساجد (استمعت فى الأزهر ابان الثورة الى « أبو شادى » ، « أبو العيون » ، « شكرى كرشه » الخ الخ .. هذا شيء آخر ، فهى خطب سياسية) . وبعد جولة واسعة فى المساجد اكتشفت فيها الشيخ رفعت فى درب الجماميز ، والشيخ توفيق فى جامع ابن طولون ، عرفت الخطباء الذين يقراون من الكتب أو الورق ، والخطباء الذين يكرون الخطبة أداء لواجب ، بغير احساس ، فعزفت عنهم ، واصطفيت لنفسى خطيبا فى مسجد كبير يقع قريبا من دارنا ، أواظب على صلاة الجمعة فيه ولا أجرؤ على التخلف عنه للذهاب حيث تهفو نفسى .. الى الشيخ رفعت أو الشيخ توفيق ..

كان الخطيب رجلا ضخم الجثة ، مهيبا ، له لحية كثة بين الحمراء والصفراء اذا سقط عليها شعاع من الشمس تلألأت أنوارا .. نظيفا ، متأنقا ، متعطرا ، شاش العمامة أبيض كالثلج ، تقف فتله كأسنان المشط ، وطيلسانه يخرخش كأنه خارج لتوه من رجل ــ لابد ــ الكواء البلدى .

انه يرتجل خطبته ، لا شك عندى فى ذلك ، ولو انه لا

يتريث أو يتلجلج ولو فى كلمة واحدة .. ما يكاد يفرغ من البسملة والحمد حتى تنحدر رأسه للوراء وترتفع لحيته وكأنه يسبح فى بحور من الجلالة ، أو أنه يرى الغيب .. وقعنا كلنا أسرى فى قبضة سحره ، صوته يدوى فى أرجاء المسجد ، عذبا قويا ، يهز قلوبنا هزا .. الناس صامتون كأن على رءوسهم الطير .. يمصمصون بين الحين والآخر شفاههم تحسرا على انحدار المسلمين .. واذا ذكر اسم النبى صلى الله عليه وسلم ارتفعت موجة من الترجيع ، كأنها شهقة واحدة ، يخشع لها قلبى ويجف حلقى وتدمع عيناى ..

فاذا هبط الخطيب من المنبر تجمع حوله بعض المصلين يمسحون بيدهم على طيلسانه ، ثم يمسحون بها على وجوههم ، وهو مبتسم تواضعا لا كبرياء .. كنت أقلدهم وأحذو حذوهم ، كنت أكن لهذا الرجل محبة وإعزازا وفوقهما احتراما وتوقيرا .. كم تمنيت لو وقعت نظرته على وحدثنى ليعلم ما فى قلبى نحوه ..

ذهبت كعادتى للمسجد يوم الجمعة ونودى للصلاة وتعلقت أبصارنا بالباب المؤدى الى الميضة ، اذ عودنا الخطيب أن يهل علينا منه فى تلك اللحظة ، فلم نر شخصه. ولا أدرى من أين انفلت من بين الصفوف رجل قزم أجرد نحيل صعد المنبر وتلا علينا بصوت أخنف خطبة لم أع منها — لشدة خيبة الامل — كلمة واحدة .

وعدت الى الدار وذكرت الأمر لوالدى ، وكان موظفا بوزارة الاوقاف وعنده علم بكبار خطباء المساجد، فذكر لى — لا يعلم مبلغ وقع كلامه على — أن هذا الشيخ قد رفت من عمله لانه ضبط فى جريمة خلقية تزرى برجولته وكرامة

جنسه ، ليته قال لي انه ضبط مع امراة ، أو مع مخنث . فنحن في الشرق نفرق بين الاثنين ونغفر لواحد دون آخر ، نصب عليه احتقارنا ، أما في الغرب فالاثنان عندهم سواء ، تصفهما كلمة واحدة لا تعرف أيهما تعني ، وقع على هذا الخبر وقع الصاعقة وزلزلت له نفسي زلزالا شديدا .. وانقطعت عن صلاة الجمعة زمنا طويلا لا أذكره .. ولما عدت كنت غير الذي كان .. خط يسير حياتنا مرتبط بحوادث نقابلها قضاء وقدرا .

***

خطباء في المساجد

وما دمت اتحدث عن المساجد فينبغي أن اذكر أشياء باقية في نفسي . أولها ضيقي الشديد بصنوف الأحذية والشباشب والبلغ تصف حيث تقع جباهنا حين نسجد . على باب المسجد الذي كنت أصلي فيه خزانة لحفظ احذية الداخلين ، لقاء قرش ، لست مجبرا على دفعه ان شئت ، ومع ذلك فان عدد الراغبين في الدفع لم يزد على أصابع اليد الواحدة .. يدخل رجال متأنقون ، يلبسون شيئا يقال له « المز » وهو حذاء مركب في قالب يشبه الشبشب له في خلفه سن بارزة من المعدن كالمهماز لتضغط عليه القدم الاخرى لتخلعه بدون حاجة الى الانحناء ، (وقاك الله في شيخوختك من الروماتيزم وعرق النسا !) ويدخل صاحبه المسجد بالحذاء النظيف تاركا القالب بالباب .. لم أعد ارى هذا النوع من الاحذية .. ورايت بعض اهل الحجاز فيما بعد يصلون بأحذيتهم ويدور جدل طويل هل

هذا جائز شرعا أم لا . ويذكرون باب «المسح على الخفين» .. هذه مشكلة باقية لا تزال تحتاج الى حل .

والامر الثانى هو ضيقي الشديد أيضا بخطباء كانوا كأنما لا يحلو لهم الا تقريعنا وسبنا وشتمنا ، الكلام موجه الينا . لقد ضاع الاسلام لأنكم أهملتم الصلاة (ألم نأت للصلاة !) ونسيتم الزكاة (وأغلب الحاضرين من الفقراء المستحقين للزكاة !) لماذا انطوت قلوبكم على المعاصى والاثم ! ان جهنم لكم بالمرصاد .. يا أخى ! لقد جئنا للمسجد طاعة لله سبحانه وطمعا فى رحمته ورضوانه . أناس كثيرون غيرنا لم يأتوا للصلاة ، ولا نريد منك كلمة شكر ، بل ـ على الاقل ـ اعفنا من السب .

***

خطبة وفاء النيل

حضرت فيما بعد ، صلاة الجمعة فى مسجد باحدى قرى منفلوط . الخطيب يقرأ من كتاب به نص لاثنتين وخمسين خطبة منبرية موزعة على أسابيع السنة ، ومن بينها خطبة موضوعة لجمعة وفاء النيل .

وأخذ الخطيب يقرؤها علينا . وهى اشادة بالنيل ووفائه . ومجيئه لأرض مصر بالخير والخصب والبركات .. يصل الى أسماعنا صراخ النسوة فى القرية باكيات محاصيلهن التالفة ، وجاموسهن الفارق ، ونكبتهم الكبرى فيضان النيل ذلك العام ، اكتسح القرية وجسورها وأكل أرضها وأتلف محاصيلها وهدم بيوتها وزرائبها ..

والخطيب ماض فى خطبته والناس امامه مطأطئون الرءوس مدفوسة بين ركبهم .. ان كان قلبى قد رق لهم ، فقد رق رقة اشد لهذا الخطيب الساذج ..

***

تجربتى فى الخطابة

لم يتح لى أن أخطب فى حفل الا بعد أن جاوزت سن الخمسين . وقد رأيت دائما أن الارتجال خير من الحفظ .. وانما ينبغى للخطيب ان يعد ــ على الاقل ــ مدخل كلامه ، ولو جملة واحدة .. تفتح له الباب ، فلا يتلجلج أو يتريث طويلا عند بدء الحديث .

وخيل الى انى أروج فى مصر للمذهب الانجليزى فى الخطابة وانا أؤمن به .. وهو مذهب ينفر من المبالغة فى الحركة والاشارة ورفع الصوت وخفضه ..

ذلك اننى أعتقد أن منصة الخطابة فى مصر ، ومسرحها كذلك (منذ ايام جورج ابيض) منكوبة بالمذهب الفرنسى الذى يحب تلك المبالغة لقد استمعت فى الجمعية الوطنية الفرنسية الى « دلادييه » و « بول رينو » و «جول موك» اليهودى ، واستاذهم جميعا ، « ديكلو » الشيوعى ، كما سمعت قبلهم مصطفى كمال فى استانبول ، و « هتلر » و « جوبلز » فى « ميونخ » ، وجميع خطب موسولينى التى القاها من شرفة قصر « فينسيا » من سنة ١٩٣٤ الى ١٩٣٩) واذا كان قد خيل الى اننى أروج للمذهب الانجليزى فمما لا شك فيه عندى اننى لم انجح ، فلا يزال

جمهورنا لا يحب الالوان — ولا اقول الاصوات وحدها — الا اذا كانت صارخة ..

ولكن ما قولك فى أن هذا المروج للمذهب انجليزى لم يسمع قط خطيبا انجليزيا واحدا ..؟ الا يستحق الاخفاق جزاء وفاقا ؟.

***

قتيلة فى حارة السكر والليمون

عود لمدرسة الحقوق ، أو كما كان يقول اخواننا اللبنانيون فى مطلع هذا القرن :

« رجع ما انقطع ! .. »

لم تقم المحاكمة الوهمية — كما بينت — ولكن استاذ القانون الجنائى اصطحبنا الى محكمة الجنايات لنشهد قضية ونتعلم كيف تجرى المحاكمة ..

هى جريمة قتل — ولذلك فهى أشهى للنفس ! — ضحيتها امرأة من بائعات الهوى .. اننى لم أنس هذه الجريمة ، أفتش اليوم فى قلبى عن الاسباب فأتبينها بغير جهد ..

سائق ترام له عشيقة تسكن فى الدور الارضى بأحد المنازل الفقيرة (علشان الدفن مش ح نروح بره) .. وجاء اليوم — وهو يجىء دائما — حين ينقلب الحب الى ملال ، والملال الى كره وبغضاء .. ووثق الرجل أنهما ما داما على قيد الحياة فلا مهرب لاحدهما من الآخر ..

ولما كان عاجزا عن الانتحار ، لم يبق له الا أن يقتلها .. ولكنها كانت امرأة ضخمة الجثة ، جرمة عفية ، وكان هو رجلا قصيرا نحيفا .. فماذا يفعل ؟ .. ذهب الى صديق له وقال :

ـ انت صديقى ، قاصدك فى معروف ، والاصحاب لبعض ..

ـ انا تحت امرك !

ـ بس لازمنى مساعدة فى مسألة ..

ـ انا خدامك .. ايه هى ؟ .. قول ..

ـ بدى أخلص على واحدة اعرفها .. مش قادر اموتها لوحدى لازم أجيب خبرها قبل ما تجيب خبرى .. لازمنى زى ما انت شايف مساعدة .

ـ بسيطة ! ، انا تحت امرك .. فين هى ؟ .. ياللا بينا . *

وذهب الاثنان ، وشرب الثلاثة خمرا ، وامسك الصديق بذراعى المرأة وخنق السائق عشيقته ، فعضته فى اصبعه ..

وبعد ساعات قلائل من اكتشاف الجريمة ، بعد أن فاحت الرائحة ، ضبط البوليس القاتل وهو يسوق الترام بيده اصبع فيها ملفوف فى قطعة من قميص القتيلة .. ففرملوه قبل أن يفرمل هو ترامه .

لا انسى هذه القضية لانى حرت يومئذ ـ ولا ازال حائرا

* « جريدة الجمهورية » ١٩٥٩/٣/٢٧ ، ص ٥)

ـ فى تفسير فهم أولاد البلد لحقوق الصديق على الصديق
ـ هل تذهب الى حد المساعدة فى القتل ؟

هذه قضية فريدة فى تاريخ الاجرام ـ فقد أقدم انسان على قتل انسان لا يعرفه ، لا بدافع الانتقام أو الرغبة فى السرقة بل تطوعا محضا ـ لوجه الله ! ـ لمساعدة صديق واقع فى ورطة .. أعتقد انه مما دفع الرجل الصديق الى القتل هو علمه بأن المرأة من بائعات الهوى فقتلها عنده حلال وتطهير للأرض ، له أن يطلب الشكر عليه ، ومن الظلم أن يحل به عقاب ..

ولا أنسى كذلك صورة الجثة حين نشرتها الصحف وقتئذ .. محال أن تكون هذه الشلفطة واللخبطة : الشعر الأجعد الملتصق بالجمجمة بفراء من الدم ، والعينان الجاحظتان كعينى السمك المنتن ، الفم المشروم ، البطن المنتفخ ، الذراعان المتصلبتان على هيئة قوسين ، محال أن تكون هناك صلة ـ أقل صلة ـ بين هذا كله وبين الانسان الذى كان منذ قليل يغدو ويروح ، وينطلق لا بلسانه وحده بل بكل خلية وذرة فى جسده ، ان الحياة فى أبشع صور الدمامة جميلة ولكننا لا نراها .

***

وما تركت فرصة فى حديث الا انتهزتها (وان كنت لم أنجح الا قليلا فى استمالة السامعين الى حتى أحسب نفسى أنفخ فى قربة مقطوعة ، أو أننى من عجينة غير عجينتهم .. أو أننى ملتاث !) لأندد بالغلظة وفقدان الاحساس وانكار أبسط مبادىء الذوق والحياء حين يتجلى هذا كله فى صحفنا التى تنشر صور القتلى مكبرة فى صفحاتها الأولى ،

صور مشوهة بشعة ـ والعجيب أن هذه الصحف تعلم أنها هي وحدها دون سائر صحف العالم كله ترتكب هذه الجريمة .. فهل نحن اقل ذوقا من خلق الله جميعا ؟!

لا تزال فى ذهنى باقية ، صورة نشرتها احدى الصحف ذات يوم لمجرم عات فى الصعيد أرهب البلاد ودوخ رجال الامن والعباد حتى رتبوا له كمينا وقتلوه بعد معركة طويلة ، وها هى جثته ملقاة على الأرض .. وهاهو مراسلنا بناحية كذا يهرول لمكان الموقعة ليسجل لنفسه نصرا صحفيا .. ولم ينس أن يأتى بمصور ، فالصورة اهم ما فى الخبر .. لا أدرى من الذى أصدر التعليمات .. ولكن الجميع تهيأوا لاتخاذ اماكنهم .. والجثة فى المقدمة بالطول لا بالعرض . اصطف من ورائها فى حلقة : المعاون النشيط الذى صرعه ، والمأمور الهمام الذى ضيق عليه الخناق ، ومفتش الخفر الذى كاد يصاب برصاصة .. الخ الخ .. ومن ورائهم عدد كبير من الجنود مبرومى الشوارب ، وغفر قد هبطت اللبدة فوق الحواجب ، وحار المصور كيف يفعل من اجل أن « يبشرق » القارىء عينيه بصورة هؤلاء الأبطال جميعا وصورة القتيل معا .. فى (صعيد) واحد .. والمصيبة أن القتيل لا يمكنه الوقوف على قدميه ولا يتأتى للأبطال أن يرقدوا ـ أو يقرفصوا على الارض .. فما العمل ؟. استدعى المصور فتى وكلفه بأن ينحنى ويرفع راس القتيل وحدها ويثنيها الى الامام حتى يظهر وجهه فى الصورة ، (يا اخى ! . هل هى صورة بطاقة تحقيق شخصية ؟) والفتى ميت على روحه من الضحك ..

لم أر شيئا أبشع من راس هذا القتيل وهى تبحث عن مكانها فى الصورة .. انى اخجل من ان أطالب باصدار

قانون لمنع هذه الصور لئلا يقال عنا اننا لا نعرف الحياء الا بقوة البوليس !..

والسبب الثاني الذى من أجله اذكر هذه القضية انها وقعت فى حارة اسمها « حارة السكر والليمون » ، وكنت منذ صغرى مشوقا بتتبع الاسماء الغريبة أو ذات الدلالات لحارات مصر ، مثل « الزير المعلق » ، « بين النهدين » ، « درب الأغوات الخ الخ .. واشهرها عندى « حارة الوداع » ، نصفها فى المدينة مبلط ، ونصفها فى القرافة تراب .. اشد انواع التراب نعومة .. كأنه طحن عظام .. وكنت اتتبع أبحاث المرحوم الاستاذ رمزى عن أسباب هذه الاسماء ونشأتها ، ولكننى لم أكن وقتذاك قد سمعت ـ أو تصورت ـ أن القاهرة بها حارة تسمى « حارة السكر والليمون » ، وقد سحرنى هذا الاسم ـ ولا أدرى لماذا ؟ لعله كان بشيرا باتصال حياتى فيما بعد بالفنون الشعبية ! ـ ولكن هذا الاسم جعلنى ازداد حبا لأولاد البلد واستلطافا لروحهم المرحة وفكاهاتهم الرقيقة واعجابا بانسانيتهم ، لعل هذه الحارة كان يسكنها فى الأصل خدم القصور المكلفون باعداد الشربات فى الاعياد والمواسم .. من بقايا العهد الفاطمى الذى كانت فيه الدولة اكبر منتجة وموزعة للحلوى ولقمة القاضى ..

وقد سعيت بطبيعة الحال الى هذه الحارة بعد القضية فلم أجد بها لا سكرا ولا ليمونا ، بل ولا شربتلى واحدا .. حارة مقبضة رهيبة وهى ـ علم الله بريئة .. انما كنت اراها بعينى من حضر القضية ووقف على خبر الجريمة التى ارتكبت فى أحد منازلها ..

اسماء الحارات

ومن فكاهات أهل البلد ودعاباتهم — فى باب تسمية الحارات — ما فعلوه مع « مسيو كفاريللى » العالم الذى جاء مع نابليون فى حملته على مصر ، وسكن احدى حاراتها ..

— اسم الخواجه ايه ؟

— قال اسمه كفاريللى ..

— يعنى « اللى كفر » .

ابدال بسيط لنطق الكلمة فاصبحت اسما على مسمى.

وهكذا سميت الحارة « حارة اللى كفر » .

ولما بدات مصلحة التنظيم تضع لافتات باسماء الحوارى وقفت حائرة أمام هذا الاسم . واخيرا هداها الله أن تكتبه هكذا :

« حارة الذى كفر » ..

واضاع التفاصح نكتة العامة ..

وهذا القلب والابدال من عادات أهل مصر .. اذكر أن أهل القاهرة كانوا ينشدون فى أوائل الحرب العالمية الأولى اغنية غريبة مطلعها هكذا :

كنت فين امبارح

ايا .. شن .. ورن ..

كنت باسكر وباحشش

وباحمص بن ...

وظللت مدة لا افهم مطلع هذه الأغنية واخيرا أدركت انهـا تقطيع لاسم « كتشنر » العميـد البريطـانى وقائد الجيش .. « كت . شن . رن » وان الاغنيـة سـخرية منه .

***

مدرسة الحقوق فى عهدين

بقيت مدرسة الحقوق منذ انشـائها خاضـعة ـ رغم الاحتلال الانجليزى ـ للنفـوذ الفـرنسى ، منصب مدير المتحف المصرى وقف على فرنسى ، ومنصب مدير دار الكتب متروك لالمانى .. وهكذا فى تقارير اللورد كرومر كلام ملفوف عن براعته فى استرضاء دول الامتيازات الأجنبية بتوزيع مناصب مصر عليها ـ وعن سخريته من هذه الدول التى تتكالب فيما بينها لالتهام هـذا الفتات ، هـذا ومنصب النائب العام يحتله انجليزى ، فلم ينقطع الجذب والشد بين الانجليز والفرنسيين حول مدرسة الحقوق ، الى ان افلح الانجليز كخطوة أولى ـ فى شق المدرسة قسمين ـ انجليزى وفرنسى ـ ولعل مما آمال الطلبة حينذاك الى دخول القسم الانجليزى ـ وهو ثقيل الـدم عليهم ـ انهم يأملون بذلك استجلاب رضاء النائب من اجل الحاقهم بوظائف النيابة ، وفى الازهر الشريف شىء يشبه هذا : فان مصر ، واغلب أهلها شوافع ، تجرى القضاء الشرعى على مذهب ابى حنيفة ـ كأثر من آثار الاحتلال العثمانى ـ فكان الرواق الحنفى أعمر الأروقة بالطلبة دواما ، ثم أقدم الانجليز عن خطوتهم الثانية ، فالغوا القسم الفرنسى .

لم ينس الفرنسيون ما فعله الانجليز فوقف المحامون الفرنسيون فى المحاكم المختلطة ـ فيما بعد ـ وراء الحملة التى تزعمها سعد زغلول (سنة ١٩١٧ تقريبا) لوأد مشروع « برونيات » ـ المستشار الانجليزى لوزارة الحقانية ـ والذى رمى به الى صبغ التشريع المصرى بالصبغة الانجليزية ، وتأليف جمعية تشريعية يدخلها الاجانب المقيمون فى مصر . وكان واد هذا المشروع ارهاصا يقرب الثورة الوطنية . هل وقف هؤلاء المحامون أنفسهم وراء تأليف الوفد المصرى وحثه على معاداة انجلترا ومطالبتها برد حقوق مصر ؟ هذا جانب من تاريخ الحركة الوطنية لم يلق ما هو جدير به من عناية الباحثين .

وحين التحقت بمدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٢١) وجدت أسماء بعض أساتذتها الفرنسيين لا تزال مذكورة كأنها لصيقة بالجدران .. مثل الاستاذ « جرانمولان » والناظر السابق مسيو « تستو » .

ناظر المدرسة رجل انجليزى ، اسمه مستر « والتون » (ولعله من أصل كندى وهذا هو سر اختياره ـ فآثار احتلال فرنسا لكندا من ثقافة ولغة ـ وان اختلفت بعض الشىء عن لغة فرنسا ذاتها ـ لا تزال باقية فى كندا الى اليوم رغم الاحتلال الانجليزى) ووجدت لمستر « والتون » كتابا حسنا بالانجليزية عن الالتزامات فى جزءين ، يوزع علينا دون أن نمتحن فيه .. وكيل المدرسة الاستاذ « سيزوستريس سيداروس » أمد الله فى عمره وفى شاربه المعقوص بالكوزماتيك ، وياقته المنشية ، ونظارته المفروزة الاظافر على جانبى انفه كأنه هابط علينا لتوه بالباراشوت من السوربون .. مستر « ميلفل » ، استاذ القانون

الرومانى ، حبيب الينا لانه يدخل الفصل اغلب الايام مخمورا .. فيمضي درسه فكها سهلا ..

مستر « البوكيرك » العجوز ، مدرس المنطق ، متواضع يركب معنا الترام ــ سكوندو ــ أراه وهو يراقب الحقول الخضر بين الجسرين ــ يتمتم بأشياء كنت أحسبها شعرا .. كم تمنيت أن أعرف ما يقوله .

كل هؤلاء الاساتذة يتعمدون البساطة فى ملبسهم ومسكنهم ، حتى الناظر مستر « والتون » يأتينا راكبا « بسكليت » ووراءه الساعى على « بسكليت » مماثل فنظل حائرين فى فهم الخلق الانجليزى حين نعرضه على مافى طبع بعض أهلنا ــ فى خطئهم فى تفسير العيب ، (وما العيب الا العيب) فى التمسك بوجاهة كاذبة وتأنق مصطنع ــ علمونا أن الكرامة والمكانة فى المجتمع صفات أصيلة فى الخلق والنفس لا فى المظهر والملبس .. يشذ عنهم مستر « روبسون » ــ أستاذ مقدمة القوانين ــ شاب أنيق حليوة .. معجب بنفسه وبملبسه . لأول مرة ارى تناسقا بين القميص وربطة العنق والبدلة والجورب . ومع ذلك يأتينا هو أيضا راكبا « بسكليت » .

وغشى المدرسة كلها ذات يوم شعور عجيب ، خليط من الوجوم والخوف والأسف والاستعلاء وترقب تحقق سريع ظافر لأهدافنا .. حين بلغنا نبأ مصرع مستر « روبسون » ضربا بالرصاص بالقرب من الكوبرى الاعمى وهو عائد من المدرسة الى داره .. كان ممن اقتصت منهم تلك الجماعة السرية التي لم يكشف أمرها الا بخيانة شاهد ملك فى مقتل السردار « لى ستاك » .

وقيل لنا ان البوليس عثر على طبعة حذاء بالقرب من مكان الحادثة ، وقدمت الى المدرسة بعثة من البجانة وقصاصي الأثر — باحثين عن صاحب هذا الاثر بين طلبة المدرسة ، اذ حسب البوليس أن المتهم واحد منا ، ولم يسفر البحث عن نتيجة .. والواقع أن أحد أفراد هذه الجماعة واحد المشتركين فى مصرع « روبسون » كان تلميذا بالمدرسة ، هو الاستاذ عبد الحميد عنايت وكنت أعرفه واجلس اليه احيانا .. شاب صموت خجول يكاد وجهه يقطر حياء .

***

فهمى النجار

وقد حضرت — كمتفرج — وقت اشتغالى بالمحاماة فيما بعد ، فانا رجل — والحمد لله — خالى شغل ، كل جلسات الجولة الثانية لقضية مقتل السردار ، فاذا كان روب المحاماة لم ينفعنى بعد فى شىء فلا اقل من أن استغله لدخول محكمة الجنايات بدون عائق . وراسى شامخ امام الحاجب الذى يصد الجمهور بقوة البوليس . لم تكن العادة قد بدأت بعد بطبع تذاكر دعوة لحضور محاكمة !. وجعلت مقعدى الى جانب قفص الاتهام ، اذ من اجل شاغليه وحدهم قبلت التزاحم بالمناكب وجلوسى معظم النهار فى مكانى محشورا لا اتحرك .

يجلس المتهمون فى صفين : فى الصف الخلفى السياسيون المثقفون ، ماهر والنقراشى جنبا الى جنب، كأنما هما عاشقان فى خلوة لا يكفان عن التحدث والابتسام كأن الأمر لا يعنيهما

.. حسن كامل الشيشيني ، صامت صمت القبور لعله يتلو اورادا فى سره ، عبد الحليم البيلي منبوذ من الجميع ، لم يوجه اليه زملاؤه كلمة واحدة ولا ابتسامة ولو خاطفة ، وفى الصف الاول جلس المتهمون من غير الساسة المثقفين ، جماعة من أولاد البلد ، فى وسطهم النجار محمد فهمي (وذكراه وحدها هى التى تدفعني لكتابة هذه النبذة) محنى الراس يعتمدها على ذراعيه المسنودتين الى ركبتيه ، يتتبع باهتمام العامة ما يدور من كلام عويص بين القضاة والمحامين ، الشيخ جاد الله ، بلحيته السوداء الطويلة ، اكثرهم حركة وأخفهم دما ، الطالب الشاب مصطفى — وهذا كل ما اذكره من اسمه — وهو وحده يلبس بذلة افرنجية ، والغريب أنه قلما دار حديث بين الصف الأول والثاني ..

من حسن حظى ان هذه المحاكمة أتاحت لي الاستماع لاول مرة الي الاستاذ احمد لطفى فى دفاعه البارع عن المتهمين ، هو الذى اضطلع بالعبء الاكبر ، وكان أول المتكلمين ، وقيل لنا انه جاء متحاملا على نفسه لانه مريض، وكنا نجل اسم هذا المحامى لسبقه الزمن بتفكيره فى انشاء الجمعيات التعاونية وتشجيعها كدعامة لبناء الاقتصاد القومى ، وتلاه نخبة من أكبر المحامين فى مصر يا لها من وليمة دسمة ، وكنا نحس أن من ورائهم جميعا يربض سعد زغلول فى بيت الأمة لتوجيه خطة الدفاع ..

على المنصة مستر « كيرشو » رئيس الدائرة ، انتزعها — بضغط الانجليز — من المستشار على سالم ، خشوا أن يكون هذا الأخير مواليا للوفد (وهذا مثل من امثلة خرق الانجليز لحرمة القضاء فى مصر) ، ومستشار اليمين

الاستاذ كامل ابراهيم ، مكب على كراسة يختصر فيها كل ما يدور فى الجلسة ، ومستشار اليسار : على عزت لم يكن عضوا أصيلا بالدائرة ولكنهم جاءوا به لتكملتها بعد تنحى المستشار على سالم ، وكنا نعلم فى قلوبنا أن مفتاح القضية فى يده ، فاذا انضم لـ « كيرشو » ضمنا واذا انضم لكامل ابراهيم نجونا ..

كنت فى الجلسة ساعة أن نطق مستر « كيرشو » بالحكم : براءة جميع المتهمين ما عدا شخصا واحدا فقط هو النجار محمد فهمى ، اذ حكم عليه بالاعدام شنقا — ليس فى أحكام أمثال هذه القضايا وسط !.

القاعة تغص حتى تكاد تختنق — فى هذه الساعة الرهيبة — بالمثقفين أصدقاء الساسة المثقفين . يحتلون المقاعد والممرات .. فلم يكد « كيرشو » ينطق بالحكم حتى هبوا جميعا يصرخون ويهللون ويصفقون ويهتفون ، فرحا وضحكا ومرحا ، بعضهم يقبل بعضا ، غرقوا جميعا بعضهم فى أحضان بعض .. بل بدأ بعضهم يرقص رقصا بلديا مادا ذراعيه ، مطرقعا ، هازا كرشه المتدلى .. ونظرى مثبت على وجه محمد فهمى ، ابن البلد ، النجار الذى حكم عليه وحده بالاعدام من أجل القضية الوطنية ذاتها ، الموجهة لزملائه ؛ لا من أجل السرقة أو النهب .. لا أستطيع أن أقول أن وجهه شاحب أو مذهول ، بل من عينيه تنبعث نظرة بلهاء لرجل حائر لا يفهم ما يرى ولا يدرى كيف يفسره .. لم يكلمه واحد من زملائه أولاد البلد فى الصف الاول ، فهم مشغولون بأنفسهم ، ولا واحد من شركائه الساسة المثقفين الجالسين وراءه ، بل كفوفهم تمتد فوق راسه لمصافحة الأصدقاء .. المباركين .. لم يكلمه واحد من الجمهور لأنه منشغل بالرقص والضحك والهتاف ، وظللت

مسمرا نظراتى عليه الى أن امتدت الى كتفه يد رجل البوليس يدعوه للقيام ، وآخر ما اذكره منه ظهره وهو يغيب فى معطف أصفر ـ لعله من مخلفات السلطةالعسكرية الانجليزية ـ وراء الباب ..

رحمه الله رحمة واسعة .. ظللت أتتبع انباءه الى أن وافى يوم شنقه فجدد حزنى عليه ..

لما خرج مستر « كيرشو » من المحكمة حمله الجمهور على الأعناق وهم يهتفون :

ـ تحيا العدالة ! يحيا مستر « كيرشو » .. يحيا القاضى العادل !.

وعلمنا فيما بعد انه لم يقصد داره ، بل هب لفوره الى دار المندوب السامى ليعلنه ان القضاة المصريين أخلوا بالعدالة اخلالا شديدا ، وانه يقدم استقالته احتجاجا على ذلك أولا ، ولأنه يربأ بنفسه ـ ثانية ـ عن مزاملة هؤلاء القضاة ..

حار ونار فى جتتك يا « كيرشو » حملك على الأعناق والهتاف بعدالتك !..

***

نزع ملكية ..

وما دام ذكر المحاكم المختلطة قد جاء فى هذه المذكرات فلن أستطيع الا أن أروى منظرا شهدته ـ ولا انساه ـ هو يكفى وحده للدلالة على الدور الخطير الذى لعبته هذه المحاكم فى هدم الاقتصاد القومى وسلبه وتثبيته فى يد الاجانب ..

يوم كنت ـ وانا قد اصبحت « معاونا للادارة » كما ستعلم فيما بعد ـ اجوب الحقول على ظهر حمار بالقرب من التلال التى تحد الوادى من الفرب فى زمام « منفلوط » .. هدوء شامل ، تؤكده ولا تخل به زقزقة العصافير .. مشاكل محلية لا يزيد نطاقها على مدار الساقية .. تحتاج الى دلو .. طول حبله عرض السموات والارض ليخرجك من قاع هذه البئر لترى سطح الأرض ويعيد صلتك بالعالم والعمران .. فى الحقل امامى فلاح .. تحتاج الى نظر قوى لتتبينه وهو قريب منك .. جلبابه مصبوغ أيضا بلون الطين .. مكوم اعوادا عجافا انعقدت عليها الآمال للظفر بلقمة من خبز الأذرة أو الشعير ، ثم انتبه على صوت سيارة قادمة نحونا تكركر وتدخن وتتمايل كانها بهلوان على حبل .. ينزل منها شيخ البلد ومعه (خواجة) بدين ، يرتدى القبعة التى صنعتها اوربا من الفلين للمستعمرات فى بلاد الشمس المحرقة .. (حضرته محضر المحكمة المختلطة .. لا يليق به أن يركب الحمار مثلى !) ونودى على الفلاح فجاء ووقف بينهما وقفة الخوف والخشوع . جذب شيخ البلد ـ بدون سلام أو كلام ـ ابهامه وضغط به على ختامة ، وبصم على ورقة ، ثم قذف اليه المحضر بأوراق من عدة صفحات مكتوبة باللغة الفرنسية .. هذا هو حكم نزع ملكية الارض وبيعها بالمزاد العلنى فى القاهرة ..

ووقف الفلاح وحده يقلب الورق بين يديه كانما عثر على حيوان عجيب يتلوى فى خشخشة الورق انين خوفه .. ولكزت حمارى هاربا من منظر عينيه وهو (يبربش) بهما .

***

« ويلكوكس »

من العدل ان اذكر واحدا من الاجانب اعلم انه قد شذ عنهم هو مستر « ويلكوكس » الذى كان من أشهر مهندسى الرى فى العالم وعمل فى مصر .. فقد روى لى الشاهد الثبت انه حينما نزعت ملكية أراضى الدائرة السنية من يد اسماعيل وسلالته خرج هذا الرجل يطوف القرى على قدميه يحث الفلاحين على شراء هذه الأراضى ، لأنها حق لهم ، وملكهم ينبغى أن يعود اليهم ..

وقد رفض اغلب الفلاحين الاستماع لنصحه ، فلم يدخل فى روعهم قط ان الفلاح يضع يده على أملاك افندينا ، وان يوما ما سيأتى — وهو قريب — يثب عليهم الخديو لاسترجاع ارضه والانتقام منهم .. وهكذا نزعت الدائرة السنية من مالك واحد غنى ووزعت على عدة ملاك اغنياء ، اغلبهم من صنائع الانجليز .. وهذا باب فى تاريخ مصر ونشاة الأسر التى اعتمدت أرستقراطيتها على الأرض ، لم يلق هذا ايضا عناية من الباحثين فى تطور مصر الاجتماعى.

وقد فعل « ويلكوكس » هذا لأن روحه كانت روح « مبشر » .. والغريب انه كان من المدافعين عن اللغة العامية ، ونشر بها كتبا من تأليفه عن الايمان ، وطعام المؤمن ، كما نشر بها ترجمة للانجيل ..

كنت احار فى تفسير نهم سلالة اسماعيل وتكالبهم على الثراء — حتى بوسائل لم تقصر عن السرقة والنهب — الى

ان نشرت مذكرات الخديو عباس الثانى فكشفت لى عن السر * .

انه يقول فيها بصراحة ان سلالة اسماعيل قد وقع عليها وحدها ، دون سائر فروع اسرة محمد على ، ظلم صارخ بنزع ملكيتها للدائرة السنية ، وانه لم يفهم علة لهذا النظام ولماذا تبقى سلالة حليم وطوسون مثلا محتفظة بأراضيها ..

لذلك نهب عباس اراضى الأوقاف ، وضرب بالشلوت من اجل برتقالة ، كما نهب فؤاد اراضى الأوقاف ، وخطف فاروق ما وصلت اليه يداه .. من نفائس افراد اسرته قبل غيرهم .

***

اساتذة وزملاء ..

لا تقبل مدرسة الحقوق الا خمسين طالبا حسب ترتيب نجاحهم فى شهادة البكالوريا ، هذا عدد قليل كان ينبغى ان يتيح للقائمين عليها امتحان الطلبة المتقدمين لمعرفة مدى استعدادهم للانتفاع بدراسة الحقوق ، ولو فعلوا ما دريت هل كنت أصبح مقبولا عندهم ام مرفوضا .. على كل حال دخلت المدرسة لسبب واحد هو أننى كنت من بين الخمسين الاوائل وكنت أعد دخولها شرفا عظيما لا يناله من يدخل التجارة أو المعلمين ..

ما لبث أن ولى مستر « والتون » ، وفى غمضة عين راينا الأستاذ عبد الحميد أبو هيف أستاذ المرافعات يتولى

★ الجمهورية ، ١٩٥٩/٤/٣ ص ٣

نظارة المدرسة . كنت أجلس أمامه فى الدرس وأتطلع الى وجهه الوسيم وجبهته العريضة الذكيــة ، واشرب من منطقه الفصيح وأهتز لحججه السليمة القوية ، وبيــانه الناصع .. كنت احبه واجله ، واغض النظر عن ســاقه يمدها من تحت المكتب اذ كانت مبتورة من فوق الركبة ــ وأراه يضغط على ســاقه الصناعية ليضع قدمهــا على الأرض ، وكان يسير معتمدا على عصاه ، فلا عجب أن مال جســده الى البدانة . (وكان يقال : ثلاثة من نبغاء القانون فى مصر يحملون اسم عبد الحميد ، أستاذى أبو هيف ، وعبد الحميد بدوى ــ أمد الله فى عمــره ــ والمرحــوم عبد الحميد مصطفى) .

لم يكن أحد يحســب أن هذا الأستاذ الوديع يضم بين جوانحه قلبا كأنه شعلة من نار ، اعلن فى اول لحظة أعنف ثورة على الاحتكار الفاسد وسد أبواب العلم أمام أبنــاء الشعب ، حطم فى اول يوم كل القيود والسدود ، ووقف بيننا يعلن أن دراسة الحقوق متاحة لكل من يريد ، ارتفع عدد المقبولين الى مائة وخمسين ، ولمــا زاد العــدد امر بافتتاح قسم ليلى يتولاه اساتذة الصباح ، قيل له : ليس لدينا أماكن .. فأمر باقامة اكشــاك خشبية فى حديقــة المدرسة . ولم يكفه ذلك ، بل امر بفتح باب الانتســاب لكل من يشاء دون حاجة للحضور للمدرسة بل يكفى التقدم للامتحان .

اعتقد أنه أول من استحدث نظام الانتســاب لتلقى العلم فى معاهد مصر ، وقد قابلت فيما بعد اناسا من اكفــاء رجالات بلدنا ، يشغلون المناصب الرفيعة بجدارة وكفاية نالوا شهاداتهم بفضل نظــام الانتســاب الــذى استحدثه أبو هيف ، وكانوا من قبله من صغار الموظفين الــكتابيين

الضائعين فى دواوين الحكومة ، ففتح لهم هذا الرجل الكبير باب العلم وخدمة الوطن ، ان فضله على مصر لا ينسى ..
كنت أراه يأتي مبكرا قبل الطلبة ، فيصعد السلم على مهل خطوة خطوة .. يمرر يده على الدرابزين ليرى مقدار نظافته وينادى الفراش لينبهه الى التراب الذى يكسوه ، ولو كان قليلا لا يأبه له آخرون ، ثم يدخل الفصول فصلا فصلا ليشرف بنفسه على نظافتها .. كل هذا وهو لا ينقطع عن القاء درسه ..

وكان اذا رآنا نميل للتهريج .. فنهجر المدرسة متذرعين بحجة واهية للسير فى مظاهرة تؤدى الى نزهـة .. وقف بيننا شأن الأب العطوف ينصحنا الا ننقطع عن العلم لأنه أقوى سلاح .. ولا أنسى يوما من الايام وقف فيه زعيم من زعماء الطلبة فوق المنضدة الكبيرة التى تتوسط بهو الدور الاول يخطب فينا ، يحثنا على الخـروج .. هـو شاب نحيف عصبى المزاج جهورى الصوت ، تحسـبه سيفقد وعيه بين لحظة واخرى فى نوبة صرع .. وكان هو ايضا أعرج .. الأعرج الوحيد فى المدرسة .. وأقبـل عبد الحميد أبو هيف يسير على ساق وعصـا ، واراد ان يخطب فينا ، وابى الا أن يصعد هو الآخر فوق المنضدة ذاتها ـ كأنها أصبحت حلبة ملاكمة ـ وحملناه بجهد حتى اعتلاها .. وقف الاثنان معا يتجادلان أمامنا ، هذا يذرع المنضدة على صغر مساحتها الى اليمين ، وهذا يذرعهـا الى اليسار .. لا اظن كثيرا من الطلبة قد ابتسم لهـذا المنظر الفريد ، فان هيبة الاستاذ أبو هيف ومحبته تمتلىء بها قلوبنا جميعا .

أتدرى ماذا كان جزاؤه ؟ تألب عليه بعض زملائه من الاساتذة المصريين ، وسعوا بالدس والكيد والوقيعةوالكذب

والبهتان بخسة ودناءة حتى زحزحوه من مكانه ، وصدر الأمر بنقله مديرا لدار الكتب (من حسن الحظ أن على مبارك قد أنشأ هذه الدار لتضم الكتب والمغضوب عليهم) صورته معلقة فى اللوحة التى تضم صور مديرى الدار منذ انشائها .

لعلى كنت قد بلعت هذه الوضاعة من أناس ينبغى لى أن أجلهم وأسمو بهم لو وقف الأمر عند هذا الحد .. ولكنى خرجت عن حلمى حين دخل علينا واحد من هؤلاء الاساتذة الذين دسوا لعبد الحميد أبو هيف وقطع درسه ليقول لنا بأعلى صوته ، وهو يفرك كفيه ، فرحا وافتخارا :

— لا تتريث ان استطعت أن تصرع خصمك ولو طعنته فى ظهره ..

خرجت من المدرسة ذلك اليوم محنقا اكره الحياة ، وسعيت لدار الكتب لأزور عبد الحميد أبو هيف ، وانا مبتلى بالحياء ، وما أقدمت يوما على زيارة أستاذ لى .. فاستقبلنى ببشاشة ووجدته راضى النفس باسما ، وما أظنه علم سبب زيارتى ..

لا شيء يلقى حتفه لحظة مولده مثل الاعتراف بالجميل .. انه الموءودة التى يحمل الانسان عارها ، تؤكد الألسن العزم على حفظ الوفاء ، وتهمس القلوب فى وجلها وخجلها انه وهم وضرب من المحال ، فما يكاد ينقضى عند قبول المنة ولثم اليد طمع حتى يثب على الفور مكانه سلالة له من أطماع أخرى متباينة مختلفة عنه مترتبة عليه عند الغير شفاؤها ، تفعل فعل المخدر فى النفس فلا يتحرج النسيان من طعنها بخنجره .

ليت العطاش الذين اغترفوا من منهل عبد الحميد

ابو هيف ــ وهم كثرة ــ عرفوا كيف يذكرونه ، لا باقامة الحفلات ، والقاء الخطب .. بل بترقب عودة يوم وفاته ليقرا كل منهم فى خلوته الفاتحة على روحه او يذهب ــ ان كان من ابطال الأساطير ــ الى قبره ليغرز فوقه صبارة ، او يضع حزمة من الخوص والريحان .. والمصيبة اننى لم اعد اذكر متى مات . لقد نسيت انا ايضا ..

من زملائى فى الفصل منذ ان دخلنا مدرسة الحقوق الى ان خرجنا منها معا : الاستاذ عبد الحميد الرفاعى العصامى الجلد الصبور ، مثال يحتذى فى الاستقامة والجد ، نعم الأدب والحياء حياؤه .. يلتهم مكتبة المدرسة التهاما ، وما قرأ كتابا ــ ولو مرة واحدة ــ الا انطبعت صورته فى ذاكرته العجيبة الخارقة ..

والاستاذ المرحوم حلمى بهجت بدوى ، الشاب الوسيم الأنيق ذو الذكاء اللماح والشخصية الجذابة والبســـمة الحلوة والنفس الهادئة الطيبة الراضية ، قليل الكلام .. لا يخالط الا صفوته .. ولكنه يهش للجميع .. احسسنا أنه سيكون له شأن عظيم فى خدمة الوطن ..

على قيد ذراع منى يجلس تلميذ ، يلبس ــ دون سائر الطلبة ــ طربوشا قصيرا جدا ، غليظ الاسنان ، جاحظ العينين شيئا قليلا ، يجلس معتمدا ذقنه على قبضة يده ونظرته شاردة وذهنه سارح ، ملابسه نظيفة ، ياقته منشية .. قلما يكلم أحدا من زملائه .. كنت أقول لنفسى : هو ، ولا ريب ، أحد أبناء المرفهين يأتى للمدرسة لا للجهـــاد وفصد العرق بل للفرجة والترويح عن النفس : سواء لديه نجح أم لم ينجح .. ولذلك فبالرغم من طول تأملى له ــ كأن شيئا يجذبنى نحوه ــ لم أسع الى مخالطته او التعرف اليه ..

هذا هو الاستاذ توفيق الحكيم فى مدرسة الحقوق .
واذكر اننى ما سمعته قط يذكر لأحد مفاخرا انه يؤلف المسرحيات ، وكان قد فعل وهو لا يزال طالبا معنا ..

لقد خدعنى توفيق الحكيم عن نفسه بصمته وحيائه وعزوفه عن الناس وتهيبه من الغرباء ..

***

لا انسى كذلك عم فرجانى ، فراش المدرسة المعمم ، المكلف بتسليم بريد الطلبة وتوزيعه عليهم .. الأسئلة المتلهفة تنهال عليه اغلب الأمر من طلبة الأرياف .. مكانه فى البدروم .. بيننا وبينه عوارض نافذة .. كأنه مكتب بريد بحق وحقيق ، ونطل عليه من خلال شبك الحديد وهو أسفلنا ، نسأله :

— فيه بوستة يا عم فرجانى ؟.

فلا يرفع نظره حتى يرى وجوهنا ، بل يرد على كل سائل باسمه ، يعرفه من صوته وحده ، فى المدرسة اكثر من ستمائة تلميذ ، فيهم من دخل المدرسة منذ عهد قريب .. ولعله لم يكلمه من قبل سوى مرة واحدة .

أتأمل جبهته الوضاءة الذكية واتئاده واتزانه ، وعينيه الباسمتين الوديعتين وضبطه لنفسه ولعمله ، شيء خفى فيه يجعلنا نحترمه .. وأقول :

— لو أتيح لفرجانى أن يتلقى العلم ويدخل مدرسة الحقوق معنا اكنا جميعا نكون قادرين على اللحاق به ؟.

أراه بعين الحالم استاذا جليلا فى مدرسة الحقوق تنحنى له الجباه احتراما ..

اجيال عديدة ، جيل وراء جيل ، يمر بمدرسة الحقوق — فى دوران الساقية — يجتازها ويخرج للحياة ، فيهم من ينطلق ويلمع نجمه ، وفيهم من تبتلعه الأرض فيندفن مكفنا فى النسيان .. وعم فرجانى قابع فى مكانه ، العجينة بين يديه واحدة والأرغفة متباينة ، كأنه يوزع — كالقدر — مع بريد الطلبة حظوظهم ايضا ..

لعل فى هذا سر ابتسامته ..

***

سعدت بتلقى العلم على يد اساتذة اجلاء افاضل لا انسى جميلهم .. منهم الاستاذ الشيخ ابو زيد ، مدرس الشريعة ، رجل دائم الابتسام ، يعالج الشريعة حتى يحيلها شرابا مساغا لو استطاع لصبه فى حلوقنا صبا .. والأستاذ احمد امين ، العالم الثبت فى قانون العقوبات ، لو وضعت كل كراكيب العالم شذر مذر فى زكيبة وسلمتها له لهزها هزة واحدة وصبها فخرجت لك محتوياتها فى نظام بديع منسقة خير تنسيق .. الاستاذ المرحوم احمد نجيب الهلالى .. دخل علينا الفصل فحسبناه لنحافته وصغر سنه تلميذا مثلنا ، ان زاد علينا بشيء فبهذه النظارة السميكة التى تدل على افناء بصره فى القراءة .. فما كاد يتكلم حتى انعقدت السنتنا وفغرت افواهنا اعجابا به ، لقد هدم فى درسه الأول كل ما بين ايدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة ..

ولكن الى جانبهم عرفت مع الأسف — وهذا شأن الحياة — اساتذة يجاملون رياء ونفاقا وظلما ابناء الوزراء وكبار

موظفي وزارة الحقانية ــ وكانت المدرسة تتبعها ــ وأساتذة هم أقرب الى التجار الجشعين منهم الى حملة العلم ، وأساتذة جهلة فارغين يسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة .

هذا كلام ثقيل الوقع على نفسي ، أخرج به عن حد الأدب الذي هو في طبعنا منذ حفظنا « من علمني حرفا صرت له عبدا » . ولكني اعتزمت في هذه المذكرات الادلاء بشهادتي صادقة ، لا أكتم شيئا ولو بدا للناس أنني قليل الادب ، ناكر للجميل .

وبعد ، فهذه شهادة رجل واحد لا تصلح نصابا للشهادة ، وقد تهدمها شهادة أخرى ، قد يكون العيب في انا لا فيمن وصفت .

أضم الى هؤلاء الأساتذة من ذكرت من الدساسين الذين هدموا عبد الحميد ابو هيف لتعلم سبب قولي السابق : انني عاتب على مدرسة الحقوق .. كنت أحسب أنها ستغسل أرواحنا وتبعثنا خلقا جديدا وتضرب لنا الأمثلة الباقية في توقير العلم وخدمته لوجه الله ، وأن منصب أستاذ المدرسة لا يعلوه منصب آخر ، وأن العلاقة بين الأساتذة والطلبة تراحم ، وانصاف ، ومساواة . ولكن كل هذا ضاع في انهاء المقرر ، وزحمة الامتحانات واعلان السباق المروع من اجل الظفر بالأولوية .

ولماذا أخص مدرسة الحقوق وحدها بالعتب ؟ انها اكملت ما فعلته المدرسة الابتدائية والثانوية في عهدنا ، من اهمال تربية الخلق وانماء الشخصية ، وكشف المواهب ، وحرصها ــ فهذا اسهل ــ على حشد الراس

بالقشور والعلم النظرى مدرجا فى اكفان .. اننى لا اغفر للمدرسة الابتدائية انها اماتت يدى فلم تكن تصلح لشيء الا ان أضرب عليها بحد المسطرة فى عز الشتاء .. ليس فى كتبنا شيء يمت بصلة قريبة أو بعيدة الى الموسيقى وهى غذاء الروح ، أو الفنون الجميلة ، وهى مهذبة للحس والذوق .

لم يحدثنا احد عن اشجار مصر وطيورها وحيواتهـا كانما طلب منا ان نسير فى مناكبها كالعمى ، درسنا رى الحياض على الورق فكان لغزا لم نفهمه ، ولو ذهب بنا المعلم الى الاهرام – وهى قريبة – لرايناها راى العين .. بقيت زمنا طويلا اجاهد لأتخلص من الشعور بأن المسافة بين انف سيبريا والاسكا هى عرض الارض كلهـا لأننـا درسنا الجغرافيا على خريطة مبسوطة .. وبقيت الى ان ذهبت للصعيد فى سن الثانية والعشرين لا أفرق بين القمح والذرة فى الحقل .. ماتت الطبيعة من حولنا ودفنت بين اكداس الكتب .. كانت القسوة هى القانون والفلظة هى العملة الدارجة والدمامة هى محيطنا ..

وظللت أحلم وأتمنى أن يكون فى ريف مصر ضيعة نظيفة خالية من القمل والبق والبعوض ، براغيثها قليلة .. ماؤها غير عكر ، فلو كان بها مثل هذه الضيعة وكان لى ولـد لفضلت الف مرة أن أدفعه اليها وهو فى سن الثامنة ليعيش بها الى ان يكتمل شبابه ، فهذا افضل من أن اسلمه لمدرسة يلقى فيها ما لقيته .. ومما يشجعنى على هذه الاحـلام والامانى أن المولى سبحانه لم يرزقنى ولدا .. حمدا لله وشكرا ..



الباب الثانى

خبط عشواء



يوليو سنة ١٩٢٥ ـ شهادة الليسانس هى اليد التى دفعتنى فى ظهرى وأنا واقف ـ كمتفرج ـ على سلم القفز فوقعت بملابسى فى حوض السباحة وسط متسابقين أشداء ـ وكنت لا اعرف العوم ! ـ فيهم من يشق الماء بذراع قوى ، وفيهم من يتمنطق بقرعة استامبولى مكتوب عليها « المحسوبية » أو « الوساطة » وفوزهم لا يخلو مع ذلك من عامل غريب خفى مجهول اسمه « الحظ » .

كيف احصل على عمل التحق به وارتزق منه ؟ ليس امامى الا أن اطرق باب الحكومة . اننى لم أحن رأسى صاغرا للمثل الذى كان سائدا حينئذ « من فاته الميرى يتمرغ فى ترابه » اعتقد أن هذا المثل قد اختفى الآن ، ولم تعد الألسن تردده ، والأمثال ـ كالناس والاغانى ـ يجرى عليها قضاء الموت ، لا لأن أحدا من اسرتى لم يصل الى المناصب الرفيعة فى الحكومة التى تحف بهاالأبهة والكبرياء، فاننى لم يفتنى أن الحظ فى ذلك العهد أن صغار الموظفين اشد من كبارهم خيلاء بمناصبهم وفخرا بها .. بل لأن اسرتى كان يشملها منذ وعيت روح من الديمقراطية والشعبية لا ادرى من أين جاءتها . هى طبع وخلق ، لاثمرة علم واقتناع ، فما دخل بيتنا خادم الا خالطنا مخالطة الأهل ، لم ننظر قط بانفة الى القصاب والبقال وبائعة الجبن والصابون ، ولكنى اظنها ديمقراطية معاملة فحسب،

فلو جاء لأمي خاطب يطلب يد ابنتها لقدمت الموظف الصغير على التاجر الميسور ، لا تفضيلا لطبقة على طبقـة ، بل بحثا عن الاطمئنان باتصال الرزق على نمط مضمون ، وفى موعد محدد ـ ولفضلت أيضا المطربش على المعمم، والمصرى على الأجنبى أيا كان .. سبحان مغير الاحوال !

فلم يكن وقوفى بباب الحكومة طلبا للابهة والخيلاء . انما كان مرجعه لسببين :

الأول : أن جميع افراد أسرتى من الموظفين ، فليس فينا أحد من أصحاب المهن الحرة حتى أقتدى به أو أسير فى شق محراثه ـ والسبب الثانى أن ترتيبى جاء بين أوائل المتقدمين فكان من الطبيعى والمنتظر الا أجد صعوبة فى الالتحاق بوظائف النيابة العامة ، وكانت تعتبر حينئذ هى ووظائف قلم قضايا الحكومة أقصى ما يصبو اليه حامل الليسانس .

اما وظائف النيابة المختلطة فكانت وقفا على أولاد الذوات ومن ساعدتهم ظروفهم على جرى لسـانهم باللغة الفرنسية وكان هذا يكفى بالنسبة للمصريين . وبين جرى اللسان واجادة اللغة بون شاسع ، وكان القضاة الأجانب لا يحترمون الا من يعرفون هذه اللغة كأحد أبنائها، وينظرون شزرا لمن هم دون ذلك .

وحين طالب احد القضاة المصريين فيما بعد برد اعتبار اللغة العربية فى هذه المحاكم للمرافعة وكتابة الأحكام اتهموه بأنه يفعل ذلك لعجزه عن اتقان اللغة الفرنسية . . فالمسألة فى نظرهم ليست حمية وطنية بل قصر ديل .. وكان لم يتح لى اتقان اللغة الفرنسية لأنى لم أدخـل المدارس الاجنبية فى مصر ولم أرحل الى فرنسا لطلب العلم . وكنا

لا ندرسها الا دراسة سطحية فى السـنتين الأخيرتين من المدرسة الثانوية واول سنة فى مدرسة الحقوق ..

لم يبق امامى الا النيابة الاهلية .

وكان لى شغف عظيم ان التحق بها . فاكذب اذا قلت اننى لم اكن مسحورا بالوسام يعلق على صدرى ، وبوقوفى مترافعا ـ هل تذكر كلامى عن الخطابة فى الباب الأول ؟ ـ امام محكمة تحف بها الرهبة .. ياحضرات القضـاة ! ياحضرات المستشارين ! ..

***

احتضار ..

ينبغى ان اتريث هنا برهة ، لا احفل بنظام الكـلام ولا ارهب اللوم ان هذه العبارة ـ ياحضرات القضـاة ! ياحضرات المستشارين ! حين كتبتها احسست على الفور بهزة فى قلبى ، انها تخرج الى النور ذكرى كنت قدنسيتها وهى من خزائن نفسى ، ذكرى صراع بين الوجود والعدم والطمع والفناء فى لحظة ليس فى العمر كله لحظة اخـرى تساويها رهبة وعبرة ، هى وحدها الحق وكل ما سواها زائل ..

لحظة طلوع الروح ، هى ذكرى احتضار رجل كان من اذكى أبناء مصر واشدهم طموحا، عصامى، نفسه سودته، لمع اسمه وهو شاب صغير (بذكائه وفصـاحته ودهائه ومضيه الى غايته فى عناد لا يعرف الوهن ولا اليأس ولا الاعياء) ، ثم بلغ من المناصب أرفعها ولعب فى سياسـتها دورا خطيرا ، عبد الملك كما يعبد الوثنى الصنم وقدم على

لمذبحه قرابين لا يجهل انها غير حلال .. كان فى وقت من الأوقات يحكم البلد من وراء ستار .. رئيس الوزراء يتلقى صاغرا اوامره الجافة القاطعة . لم يكن يعجبه احد ولا يرى انسانا اكفأ منه ـ ولعله كان محقا ـ ولكن أضواء المجد تحيد عنه وتتركه فى الظلام وتسلط على دمى تقف على المسرح بفضل خيوط خفيفة تحركها من عل . فوق صدر هذا الرجل ارفع أوسمة الدولة ولكنها عنده من صفيح لا يبرق معدنها ما لم يعلها وسام فى حجم الرحى لا يكون الا من ذهب مرصع بالماس : وسام الرياسة تصحبه قلادة اذا لبسها صاحبها ردته الى بهجة بدواته الأصلية وهمجيته الاولى .

ان الفرق بين منصب الوزارة وبقية مناصب الدولة فرق شاسع . ولكن الفرق بين منصب رياسة الوزارة والوزارة هوة سحيقة ، فهو القمة التى تتلألأ عندها الانوار ، فاليها ترفع الأبصار ، وعندها يسجل التاريخ .. اصبح المنصب اقرب من حبل الوريد يكاد يلمسه بيده لو مدها .. ولكنه فضل أن يقف أمام العرش ـ ولو كان خاليا ! ـ وقفة الخشوع ، ضاما يديه فوق بطنه ، محنى الراس ، لا يريد أن تأتيه الرياسة الا باحسان من ولى النعم .. لم يرفع عينيه ولا نطق فمه ، ولم يفتر اخلاصه، لعل هذه الوقفة هى سبب مرور الأزمات الوزارية واحدة بعد اخرى دون ان يذكر احد اسمه .. وتمضى الايام وما عرف انسان دخيلة نفسه .

وجاءه الموت ، وبلغت الروح التراقى ، وزاغ البصر ، هزات فى صدره هى اواخر نبض قلب فى الدنيا واوائل دق على باب الاخرة .. لم ينطق لسانه بالشهادتين أو ان تلجلج لسانه رفع اصبعه دلالة عليها ، ولا سال عن ابن

ولا أوصى بوصية ، بل أخذ يتقلب في الفـراش ، مشوحا بذراعيه ، مشيرا بيديه ، يدير وجهه يمنة ويسرة ، وهو يصرخ بصوت مبحوح تقطعه الحشرجة. حضرات الشيوخ! حضرات النواب ،أحييكم أطيب تحيـــــة .. حضرات الشيوخ ! حضرات النواب ! .. أن حكومتى تعتـــزم .. حضرات الشيوخ .. حضرات النواب .. حضرات .. حضر .. حضر .. حضر .. حـ .. حـ ..

ما أفضى الى انسان وهو حى بدخيلة نفسه أو بمطمعه .. لله ما كان أشد عذابه فى مماته ، وأبلغ عذابه فى حياته .. رب أنت الرحيم الرحمن .. فاغفر له .. انه انسان !

***

شغف بالمجرمين

كان طموحى أن التحق بوظائف النيابة العامة ، لسحر الوسام كما رأيت ــ ولسبب آخر ، ذلك لأننى لا أدرى لماذا شغفت أثناء دراستى بتتبع الابحاث التى تعالج الجريمة فى المجتمع وتصف المجرمين وأحوالهم ونفسيتهم . المؤلف الايطالى « لمبروزو » يزعم أن هناك صفات جسدية وخاصة فى الجمجمة تلازم المجرمين ــ ولن أخبرك بهذه الاوصاف حتى لا أثير الشك فى نفسك ! ــ ولما أتيح لى فيما بعــــد ــ حين اشتغلت معاونا للادارة ــ أن أخالط المجـــرمين كنت موضع دهشة زملائى ــ ولا أقول سخريتهم ــ حين يروننى أترك التحقيق جانبا لأسأل المتهم عن أصله وفصله وأمراضه وعلله ، وكان لى دفتر جعلت كل من يعـــرف منهم القراءة والكتابة يسطر لى فيه شيئا بخطه ، كأننى

« لمبروزو ! » مصر يريد ان يحقق القول بأن خط المجرمين يختلف عن خط بقية الناس ، فأي شيء يستهوى النفوس أكثر من أن تطل على نفسية هذا المخلوق المجبب الذى يعطى لنفسه حق الحكم على مخلوق آخر بالاعـــدام ، ثم ينفذ هذا الحكم بيده ؟

دع عنك جرائم الغيرة والدفاع عن العرض أو الجرائم التى تنبعث من الغضب والاستفزاز ، ليســـت هذه هى الجرائم التى تستهوى النفوس انها مآس ، المجرم فيهـا أسوأ حظا من المجنى عليه .. انما تستهويها جرائم ترتكب بعد اصرار طويل ، يضع فيها المجرم خطته وينفـــذها بمكر ودهاء . القتيل ـ فى غالب الأمر ـ ضحية بريئة تثق فى قاتلها ..

لذلك كانت جرائم القتل بالسم ابلغها سحرا واشدها بغضا فى نظر القانون لانها أكثر خسة ولؤما . تتبعت أخبار المحاكمات الجنائية فى مصر وأوربا ، قديمها وحديثها ، اصبحت أعرف أشهر مجرمى أوربا معرفة وثيقة ، كما عرفت بفضلهم بعض كبار المحامين وقرأت تاريخ حياتهم ـ فى مقدمتهم عندى السير « مارشال هول » الذى دافع عن مرجريت فهمى قاتلة على كامل فهمى ـ وقد أروى لك قصتها اذا فتح الله على ..

وكنت اتامل الفرق بين طبيعة الشـــعب الفرنسى والشعب الانجليزى ازاء هذه المحاكمات .

فى فرنسا تندلق أخبار الجرائم والمحاكمات على الصحف وتفور كما يفور اللبن ، وقد تزدحم قاعة الجلسة بعدد من نساء متأنقات يأكلن الشـــقانق والمقـانق وهن يشـــهدن المحاكمة ، ثم تنسى هذه المحاكمات سريعا .. الصحفيون

الفرنسيون ــ وفى مقدمتهم اليهــودى « البيرلوندر » ــ متخصصون فى رواية المحاكمات بأســلوب كله فكـــاهة وسخرية لا تجده فى انجلترا الا فى النادر القليل . اما فى انجلترا فانهم يؤكدون أن الاهتمام بهذه المحاكمات مرض نفسي خبيث يدل على فساد فى الطبع ويزعمون أنهم أرفع من أن يصيبهم هذا المرض ، ولكن الاخبار تكتب مع ذلك بتفاصيل لا تقل عن مثيلاتها فى فرنسا .. اللبن عندهم فى اناء مغلق ، تحسبه خامدا وهو يفور .. يحدث كل هذا الاهتمام فى تستر وحياء وتظاهر بعدم المبالاة .. لا اعرف شعبا كالانجليز يعكف على الجرائم وتسجيلها وتحليلها .. ان هذا من اثر السادية التى يعانيها بسبب كبته لعواطفــه وافتخاره ببروده وهو مع ذلك من أكثر الشعوب اهتزازا للعاطفة * .

***

ســلام للعريس

وقادنى هذا الشغف الى رغبة أن أتخصص فى دراسة الاحداث (المجرمين) ، وكنت أحسب اننى اول من يشق هذا الطريق ، ولكنى وجدت بحثا فيما كتبه الاستاذ حسن نشأت باللغة الفرنسية ونال من أجله لقب دكتور من احدى جامعات فرنســا ــ فقلت لأقتفين اثره واكتب باللغــة العربية ..

وكان اكبر آمالى واشـــدها ارهاقا لنفسى أملى اذا ما دخلت النيابة أن أرقى فيما بعد قاضيا للأحداث ، فلا

* (« الجمهورية » ، ١٩٥٩/٤/١٠ ، ص ٣)

اعرف انسانا أدعى للعطف والرثاء وأحوج للرعاية والعناية من صبى برىء ، اما يتيم او لطيم ، او مطرود من بيت أب متزوج من غير امه ، او مطـرود مرة اخـرى من بيت ام متزوجة من غير ابيه .. تطحنه رحى الحياة فينصرع ويضيع ولا يجد ملاذا ، ثم يسقط فريسة فى قبضة مجرم لا يعرف الرحمة ولا الشفقة ، فيدربه على الاجرام بقسوة تصهر جسده وروحه .

للصحافة المصرية ، منذ وعيت قراءتها مواظبة لا تخل ـ كأنها تتابع فصول السنة ـ فى فتح أعيننا للمآسى التى تحدث ـ ونحن غافلون ـ بين ظهرانينا حين تنشر بين الحين والحين نبأ اكتشاف عصابة تدرب على الجرائم جمعا من صبية قد يرتفع عددهم الى الستين والسبعين ، تحشرهم فى الكهوف والمغارات ، وتهتك ـ فوق البيعة ـ أعراضهم ، لا أبالغ اذا قلت ان كل قصة صورة طبق الاصل لسابقتها ، ومع ذلك تنشرها الصحف كأنها مفاجأة لم يحدث لها مثيل من قبل !.

قد تختلف المستويات فزعيم العصابة تارة مجرم خطير ، تلامذته من الفقراء ، وتارة صاحب دكان بسـكليتات ، يجمع فى يديه أبناء الفقراء والموسرين ..

فى نفسى الآن هزة قديمة لا انساها لانها ترتبط بذكرى الافراح والليالى الملاح ، حين يفرش الرمل الاصفر وتصف الكراسى ويعلق البطيخ الوردى والاحمـر والاخضر ، وترفرف الرايات المثلثة ، (لا تسأل عن معنى رسومها) وتلعلع الزغاريد ..

ما أشد فرحة الصبى فى قلبى حين تأتى موسيقى حسب الله لا تهمنى ثيابهم المهلهلة ، واحذيتهم المخروقة ، ولحاهم

النابتة ،ولا هزال بطونهم الخاوية .. سلام للعريس ، سلام للماذون ، طالع السعد ، أفراح القبة ، عصفورى يامة ، اولا أكواب الشربات الى حين موعد الاكل .. ثم الحلوى .

هذه الفرحة تخالطها عاطفة لا اتبينها ولكنها تجعل نفسى تغيم .. حين تكون الموسيقى القادمة ــ موسيقى الاحداث ــ ارى من بعيد يصطف جمع من صبية خائفين ذليلى العيون ، صامتين كأنما يسوقهم معلمهم بكرباج خفى ، سترتهم لها باقة غليظة غالية تخنق رقابهم ، وتخالطها الوان صفر وخضر كأنهم قطع الجاتو .. يشقون الحارة جيئة وذهابا وجيئة ، فى مشية الجند ، ثم يجلسون على الكراسى فى ادب وحياء ، وعيونهم تنظر خلسة : اى شيء سيشربون وياكلون ؟ عجبا ، ايضا يحسنون عزف سلام العريس ، وسلام المأذون وطالع السعد .. لعل مرجع الغصة التى فى قلبى أن كلمة ــ الاحداث ــ كانت ترجمتها عندى ــ الأيتام بدليل أن بنات البلد ، الملتفات بالملايا السود ، يمصمصن شفاههن حين يرونهم ــ حسرة واسى يزيدهما لوعة رؤية صبى منهم غارقا فى حضن نفير كأنه مخلوق عجيب يلتف حول عنقه ، له جسد اخطبوط وفم سمك القرش ، ومطلوب من الصبى الصغير أن ننفخ فى طرف ليخرج الهواء من الطرف الآخر !.. وصبى آخر عرف متاعب الحمل فى الشهر التاسع ، كأن الطبلة الكبيرة داخل بطنه لا خارجها ، هى التى تسيره وتجره الى الامام والى الارض فيمنع نفسه من الوقوع بالانحناء الى الخلف .. تحسب أن قلبه قد انتزع من صدره وعلق على طرف العصا الصغيرة التى يدق بها الطبلة .

نساء البلد ، ما ارقهن ! تود كل واحدة لو انها تناولت

الصبى منهم فربتت على ظهره وقبلته فى جبينه ، وأخذته فى حضنها ، ثم اطلقته وفى يده نبوت الغفير أو خد الجميل.

***

اصلاحية الأحداث

تمكنت من زيارة اصلاحية الاحداث فى الجيزة ــ ولا ادرى كيف ــ قد نسيت ــ وزرت ورشها وعنابرها ــ الله وحده يعلم ما يحدث بهذه العنابر بالليل ــ وجمعت بيانات واحصائيات عديدة عن نزلائها . كيف أقوى أو ارضى أن احتجز كل هذه المعلومات القيمة لنفسى لابد ان ادل بها على الناس ، اتفقت مع نادى الحقوق المطل على ميدان الأوبرا ان القى محاضرة عن ــ الاحــــداث المجرمين ــ ونشرت الصحف النبأ العظيم ، وذهبت فى الموعد المحدد وتحت ابطى مظروف محشو بالاوراق ، اتدبر كيف أفتحه واخرج أوراقه بهدوء حين ابدأ الكلام ــ مخفيا عددها حتى لا يضج الحاضرون من قبل أول كلمة ..

أقول لنفسى ماذا أفعل حين ادخل ويعلو التصفيق .. لا شك أننى سأشعر بخجل .. حقا لقد شعرت بخجل ، ولكن من نوع آخر . دخلت الردهة الواسعة فاذا مقاعدها تلمع ، كأنما لها أسنان بيض تبرز من شدة الضحك .. لم يكن فى القاعة كلها الا رجلان فقط .. هل ننصرف ونحمل الصحف جريرة الكذب بالاعلان عن المحاضرة ، أو أتكلم وفى هذه الحالة هل أستعمل صيغة الجمع ــ أو صيغة المثنى فى مخاطبتهما ؟ ولماذا أعلو المنصة ؟ أليس من الأنسب ان

اجلس بينهما واتحــدث بما اريد ؟ والأعجب والاغرب
كل هذا انني ـ برضه ـ القيت المحاضرة .

فى بعض الأحيان ننهب اعمارنا ونلهب ظهرها بالســوط
حتى تجرى مسرعة ، لا لشىء الا رغبة منا فى نسيان جرح
فتكون خسارتنا للعمر اشد مصيبة من الجرح ذاته .

وهكذا فعلت حتى خيل الى اننى نسيت هذه الوقفة
المزرية فى نادى الحقوق .. فاذا بى لشدة عجبى أجد رجلا
وقورا ـ لم أره من قبل ـ يدق باب بيتى ذات يوم ، فلما
تقدمت اليه صافحنى بحرارة وحمد الله أن اهتدى الى
اخيرا فهو يسمع عنى وبعلم بخبر محاضرتى ، انه يأسف
أن فاتته هذه المحاضرة القيمة . هل لدى نسخة منهــا ؟
يا اخى ! كان الجرح قد اندمل لماذا توقظه ؟

ومع ذلك احسست براحة كبيرة وشكرت لهذا الرجل
الكريم رده لكرامتى .. واسرعت واتيت له بالمحــاضرة
ذاتها ـ فليأخذ النص الوحيد عندى ـ لا نسخة منــه
فحسب ! ياللا مع السلامة ! يفور من عينى .. ثم استطرد
فى الحديث يقول ـ انظر الى مبلغ كرمه !

ـ حرام أن تنقطع عن الاهتمام باصلاحيات الاحداث ..
اننى مستعد ـ لوجه الله ، ولخدمة هؤلاء المساكين ـ أن
أضع نفسى تحت تصرفك ..

اخبرنى انه يشغل وظيفة فى اصلاحية الاحداث بالجبل
الاصفر ، لو أردت صحبنى اليها ومكن لى زيارتها سرا ،
اذ لا يجوز للغريب دخولها الا باذن من مصلحة السجون ،
وهى لن تأذن لى بعد أن انتقدت نظام اصلاحية الجيزة .

كيف أستطيع ان أفى هذا الرجل النبيل حقه من الشكر ؟

انه أعاد الى أشواقا قديمة ورد ثقتى بنفسى .. انه فاعل خير ، لوجه الله ..

وتقابلنا فى المحطة ، وركبنا القطار معا ، ونزلنا فوجدنا عربة الترولى التى يدفعها نزلاء الاصلاحية مسافة لا تقل عن خمسة كيلو مترات .. لتوصيل وتوديع السادة موظفى الاصلاحية ، ومفتشى مصلحة السجون ، والزائرين .. بتصريح أو خلسة أمثالى ..

لم اكد اجلس حتى لاحقنى صوت لا تحتمله نفسى ، وكدت أقفز من الترولى ، هاربا .. الصبية يلهثون من ورائى وعلى جانبى كأنهم كلاب عطشى ،مدلدلة الالسن .

كان الـرجل دليلى ، أرانى ما اراد هـو ان أراه ، ثم انصرفت على موعد معه فى قهوة .. وفى هذه الجلسة صب فى مسمعى كلاما خلت انه الحق ، وأنه من الشجاعة أن اجهر به ، كان الكلام نقدا مرا للاصلاحية ونظامها واهمال المسئولين فيها ..

وقلت فى نفسى ينبغى أن أضع هذا الكلام فى اطار علمى ، عليه تحبيشة من أقوال العلماء وجداول الاحصائيات .. حتى لا يكون الرجل صاحب الفضل الأوحد .. فجمعت عدد النزلاء الذين أتموا مدتهم فى الاصلاحية بعد أن تعلموا بها احدى المهن وتتبعت مقدار التزامهم لهذه المهن حينما خرجوا للحياة وسعوا لاكتساب الرزق فلم أجد الا نسبة ضئيلة منهم ينطبق عليها هذا الوصف ، ويصبح من حقهم القول بان الاصلاحية كانت ذات نفع لهم . فقد وجدت أن الحداد أصبح بائع صحف ، والنجار بائع أمواس حلاقـة وهكذا .. وطبعت هذه الاحصائيات والمقارنات على البالوظة وعلى نفقتى من خمسين نسخة .

وكتبت بحثا تفلسفت فيه بالنقد وتعاليت واتفقت هذه المرة مع نادى التجارة ، فى شارع عماد الدين ، فهو عمار يغاير نادى الحقوق المخروب — على أن القى به محاضرة — تانى ! — عن اصلاحية الاحداث بالجبل الاصفر . ولشدة دهشتى زاد عدد الحاضرين على ثلاثين — ضاع تعبى ومالى فى البالوظة عشرين نسخة هدرا — فى مقدمتهم مدير مصلحة السجون بجلده ولحمه ، — بقية الحاضرين من موظفى المصلحة ، جاءوا وراء مديرها .. وكان المدير رجلا طيب المنبت عاقلا كريم النفس ، صبر على النقد يجيئه من صبى فى سن ابنه ، ثم قام وعقب على المحاضرة بكلام يرد الامر الى نصابه .

لم اقابل دليلى الوقور قط بعد ذلك . كان فص ملح ذاب ، لم أعرف — الا فيما بعد — أن زيارتى السرية للاصلاحية كانت موضع تحقيق ، وان الرجل الكريم ، فاعل الخير لوجه الله كان على خلاف مع رؤسائه ، وظن ان تعرضهم لحملة من النقد ، يدبرها من وراء ستار ، وينطق بها مغفل نطق الببغاء سيزيحهم من مناصبهم ليحتلها هو ويفرض سلطانه ..

كنت كف القط يمدها القرد الى النار لتخرج له أبو فروة مشوية لذيذة .

وكان الجرح الثانى الذى سببته لى الغفلة والسذاجة اشد من الجرح الاول الذى سببه لى الغرور .. ومنذ ذلك الحين تبت والحمد لله عن المحاضرات والقائها .

والغريب اننى عشت بعد المحاضرة الثانية اياما يعتريى هم وحيرة مبعثهما سؤال يتردد فى نفسى — ان مدير مصلحة السجون لا شك قد اعجب بك .. فلو طلبك ليعرض عليك

منصبا فى هذه المصلحة تقبل ـ لأنك شغوف بالمجرمين فستكون معهم ! ـ أم ترفض لأن المنصب أقل من مطامعك!

واخذت أطيل الجدل والنقاش مع نفسي وأعذبها من قبل أن يصلنى العرض . وطبعا لم يصل ، لان مدير المصلحة ليس غرا حتى يعرض المنصب على من نقده ، بل على من يضحك الناس عليه بهذه السهولة ، وحسنا فعل ..

***

خبط عشواء

كل الذى فعلت أن كتبت طلب الاستخدام بالنيابة الاهلية وارسلته بالبريد الى النائب العام ـ كأنه خطاب معايدة وسؤال عن الاحوال . وانتظرت ، فلا أعرف احدا فى وزارة الحقانية ، أو أعرف أحدا يعرف احدا فيها . أنا وقسمتى .

فاذا بى أعلم أن مدرسة الحقوق ستوفد اربعة من أوائل دفعتى الى جامعات أوربا لاعدادهم لشغل مناصب الاساتذة فى المدرسة (وكانت حركة تمصير الوظائف قد بدأت تشتد) نسيت النيابة الأهلية وتعلقت نفسى بهذه البعثة تعليقا شديدا ـ كنت كما ترى أخبط خبطا عشوائيا ـ ان كلمتى « بلاد برا » لهما عندى سحر غريب منذ صباى . لى عم كان يسافر الى سويسرا فاذا عاد أنعم علينا بمجموعة من كرت بوستال تفرد وتطبق ويزيد طولها على المترين تصور جبال سويسرا وبحيراتها ينداق عليها لون أزرق قاتم لا أدرى لماذا تهتز له نفسى اهتزازا مؤثرا ..

يارب ! أفى الدنيا كل هذا الجمال ؟ « بلاد برا » عنـدى جنـة الارض . أهلها من عجينـة غير عجينتنـا . أحس الا مجال لى للتثقيف وتعلم اللغة الا بالسفر اليها .. (دع عنك سحر الباليه والاوبرا والكونسير ..) لجامعاتها هيبة ووقار لا تعرفهما مدرسة الحقوق ، يكفى ان أسـاتذتها يدخلون الفصول يخ.ـن فى « الروب » ونسمع انهم — مع ذلك — اهل كرم وتواضع ، فيدعون تلاميذهم لتنـاول الشاى معهم ، الزوجة هى التى تدور بالأقداح عليهم .. سارى راى العين الاساتذة الذين ارنوينا من مؤلفاتهم ، وبدات اسال : فى اى جامعة يلقى الاستاذ « كابيتان » دروسه ؟ ثم اننى لم اتجاوز العشرين الا بأشهر قليلة ، وخرجت من المدرسة وتجاربى فى الحياة معدومة ، فكان الخط الواضح أمامى أن أستمر فى الدراسة وان اكرس نفسى للعلم .

ولكن الدور لم يات على . ونزلت من مرتبة المرشـح الاصلى الى مرتبة المرشح الاحتياطى فى بعثتى ، فاذا بجميع المرشحين — والحمد لله — قرأوا العلامات ، حتى المنمنمة منها ، ودق قلبهم دقا سليما ، وراق بولهم .. فسافروا وبقيت ، سعيت لرصيف الميناء يوم سفرهم ، أتتبـع الباخرة وهى تشق البحر الى الامل المنشود ، الى المستقبل الموعود ، وفوق ذلك الى المجهول الساحر ، أحسـست أننى أودع نفسى ، وان ضوءا فى صدرى قد انطفأ ، وغلبتنى رغما عنى حسرة لم يبق بينها وبين الدموع الا القليل .

***

بسفه

وقعت عيناى ــ وأنا اراجع ما سبق ــ على ذكر تمصير الوظائف فى المعهد الذى تخرجت فيه فى مدرسة الحقوق. فتحركت فى نفسى ذكريات شتى مؤلمة .. ابناء الجيل الحاضر فى نعمة ، لا يدركون مبلغ الذل الذى كانت تعانيه مصر . كان البلد لغير أهله . تجارة الصادر والوارد والمصارف والشركات .. فى يد الاجانب ، يملكون قدرا كبيرا من الأراضى الزراعية . احياء برمتها مستعمرات لهم ، هم ملاك مبانيها ومتاجرها ، اللافتات مكتوبة بالافرنجية ، الشحاذون فى هذه الاحياء من الاجانب ، سائق التاكسى اجنبى ، الكمسارى فى الترام مصرى ، والمفتش أجنبى ، الكمسارى فى المترو أجنبى ، لأن المترو أرقى من الترام .

كانت مصر تستورد كل شىء من الخارج ــ حتى المومسات ، (كان اللورد كرومر يفخر بانه لم يسمح لمومس انجليزية بالقدوم ــ أو بالبقاء فى مصر) .

لن أتحدث عن مستشار الداخلية حين يجوب الاقاليم يستقبل كالملوك ، ويمسك المدير له زمام جواده ، ولا عن مستشار وزارة المالية (يخضع مجلس الوزراء لأمره) ، وانما أتحدث عن الكونستابل فوق الموتوسيكل ، انه امبراطور لا حد لسلطانه ، وهو وحده الذى كان يجعلنى أحس أن مصر بوابة بلا بواب ..

وضحك على ذقن مصر حين أعلن تصريح ٢٨ فبراير انها دولة مستقلة ، وصدر قانون بتعويض الموظفين الاجانب عن تركهم خدمة الحكومة (وكان الاستقلال مشروطا بصدور هذا القانون) لم يعط كل منهم مكافأة حسب مدة خدمته السابقة ، بل قدرت هذه المكافأة على حسب ما كان يستحق لو بقى فى خدمة الحكومة الى أن يبلغ سن الستين ، مع تقدير العلاوات والترقيات ، ودفعت لجميعهم ، سواء منهم من كان يعمل فى الحكومة منذ سنين او منذ اشهر — كل هذه المبالغ مرة واحدة .. ولم يكتف بذلك ، بل أضيفت اليها مكافآت سخية ، وبعض الذين خرجوا عادوا للخدمة من جديد بدعوى أنهم تجنسوا بالجنسية المصرية ، دفعت مصر الملايين من الجنيهات عبثا . ان ابشع سفه يستحق الحجر لا يعد شيئا مذكورا الى جانب سفه حكومة ذلك العهد فى بعثرتها لأموال مصر ، فى وقت هى فى اشد الحاجة المليم واحد لبناء صرحها الاقتصادى . ولم تتعظ ، اذ استبقت لوائح التوظف الموضوعة لصالح الاجانب ، كان يسمح للموظف الأجنبى باجازة لمدة ثلاثة أشهر ونصف اذا قضاها خارج القطر .

وظل هذا النص قائما يطبق على الموظفين المصريين ، وعشت زمنا طويلا اعجب كيف يتاح للموظف الفنى القادر على السفر الخارج مثل هذه الاجازة السخيفة ، ويحاسب الفقراء باليوم والساعة .

***

الأصفار خلصت

على ذكر الملايين المعثرة : كان احد رجالات مصر يتولى رياسة تحرير صحيفة الحزب الوطنى بعد أن تدهور حالها ،

الادارة عبارة عن دكان صغير ، فيه عامل عجـــوز يصف الحروف ويدير مطبعة يد ، ويترحم على أيام « اللواء » ، انه يعمل فى المطبعة لا من أجل الأجر ، بل محبة فى مصطفى كامل الذى صافحه ذات يوم وابتسم له ، وسحره .. فى ركن من الدكان سـلم خشبى تصـعد بك طقطقتـه الى « صندرة » بها مكتب وكرسى ولا تعرف لونهما وسـط الظلام ، وجال فى خاطر رئيس التحرير أن يكتب فى يوم زاد فيه سخطه على الاحتلال الانجليزى ، مقالا عن خسائر مصر من جراء قناة السويس ، الورق الذى يكتب عليـه مقاله جزازات صغيرة لا تتسع الواحدة منها الا لجملتين او ثلاث وكتب على الورقة الاولى : ان مصر جندت لشق القناة ٦٠٠٠٠٠ عامل ، اشتغلوا ١٥٠٠ يوم فاذا قدرنا ان اجر الواحد منهم هو ٢٠٠ مليم فى اليوم الواحـد . (فرغت الورقة فمد بها يده الى عامل المطبعة وسأله أن يبـدأ فى جمـع الحـروف واسـتمر يكتب) لبلغ ذلك ١٨٠٠٠٠٠٠٠ مليـون من المليمـات ، أى ١٨٠٠٠٠ جنيه .

وانظر الى حماقة اسماعيل ، يقبل التحـكيم بينه وبين دليسبس الفرنسى ، فلا يجد فى أرجاء الارض كلهـا الا فرنسيا آخر يحتكم أليه ، (هو الامبراطور نابليون الثالث بدعوى أنه صديق) ، ودفعت مصر بسبب هذه الحماقة ٢٠٠٠٠٠٠٠ فرنك .

فرغت الورقة الثانية فناولها للعامل .. واستمر يكتب : « واذا حسبنا مساحة الاراضى الواقعة على ضفتى القناة والتى اغتصبتها الشركة ظلما وعدوانا لبلغت على الاقـل ٦٠٠٠٠ فدان ، واذا قدرنا أن ثمن الفدان الواحـد هو

١٠٠ جنيه لبلغت الخسارة ٠٠٠ر٠٠٠ر٦ جنيه » .
(فرغت الورقة فناولها للعامل) .. واستمر يكتب :
« اما حساب ترعة المياه الحلوة .. »

لم يستطع أن يتم كلامه . ارتفع صوت العامل من أسفل يقول له صارخا :

ـ يا سعادة البيه ! اعمل معروف خفف الخساير شوية ، احسن الاصفار خلصت من المطبعة ! »

***

فى النيابة والمحاماة

وصلنى من النيابة العامة كتاب لا يتضمن تعيينى فى وظيفة معاون نيابة ، بل يخبرنى اننى سأوضع تحت التمرين مدة ما ، ينظر بعدها فى أمرى وعلى أن أختار النيابة التى أحب أن اتمرن فيها ..

بدات الحكومة ـ ولم يقع الفاس الا فى رأس دفعتى ـ تفلسف سياسة التوظيف ، يقول النائب العام ـ وهو على حق ـ انه غير مقيد بنتائج امتحان الليسانس ، فهى ليست دليلا على أن كل ناجح ـ ولو كان متقدما ـ يصلح للعمل فى النيابة فهو محتاج أن يختبر هؤلاء الناجحين ليرى مدى صلاحيتهم له ..

وفى مصر كل كلام على الورق لابد من تأويله تأويلا قبيحا . لم تتردد السنة السوء عن القول بأن هذه السياسة الجديدة تهدف الى حرمان الأوائل من الوظائف وتقديم

* « الجمهورية » ١٧٠ /١٩٥٩/٤ ، ص ٥

المتاخرين أصحاب الوساطات .. ان جلسة واحـدة مع النائب العام تكفى للحكم . فهل سيمتحن المتقـــدمين فى القانون من جديد ؟ وما قيمة امتحان الليسانس ؟ المقصود يا سيدى ـ القائل هو عليم ببواطن الأمور ـ هو مد الحبل، وتعيين المحاسيب واحداً بعد آخر دون ضـــجة ، وبذل الوعود الكاذبة للباقين . « وموت ياحمار عبال ما يجيلك العليق ! .. »

لم أصدق هذا الكلام لاننى لا أحب المكر ولا أثق بالماكرين .. وان كنت أحسست اننى سأضيع وسط الزحام .

اخترت نيابة الخليفة (ومقرها فى المحكمة الشرعيــة) لانها قريبة من دارى ، وبدأت عمـلا أصـــدق وصف له «صبى وكيل النيابة» كقولك «صبى حلاق»،وصبى ترزى» كل مهمتى أن اجلس الى جانبه ، وأراقبه ، واذا أعطانى محضر تحقيق قرأته وأبديت رأيى فيه شـفهيا .. أما التحقيق فيجريه رجال البوليس فلم يتح لى أن أقابل احبائى المجرمين وجها لوجه ، الا حين يدخل علينا عسكرى يجرجر وراءه جمعا من الناس فى يد بعضهم الكلبشـــات ويضرب « سلام » ويقول « تلبس يا أفندم » ! ننفـض أيدينا منهم سريعا ، بتحويلهم الى قسم البوليس !

سرعان ما تبينت حقيقتين ، الأولى : أن التمرين بدون تحمل للمســـئولية مضيعة للوقت .. لو وكل الى عمل تعود نتائجه على أن خيرا أو شرا لأقبلت عليه بهمة ، أما الوضع الذى كنت فيه فلا يزيد على وضــع المتفـرج الذى لا يبالى ، لا احاسب على حضور ولا على انصراف .

والحقيقة الثانية : أن الدراسة النظرية شىء آخر ، مختلف جدا . اغلب الاوراق التى بين يدى مخالفـــات

لا ذكر لها فى قانون العقوبات الذى حفظته .. مطعم مطلوب اغلاقه لمخالفته للشروط الصحية . قهوة مطلوب تقديمها للمحاكمة لانها وضعت كراسي « فوق الرصيف » .. أراجع قانون العقوبات فلا يسعفني بشيء . قال لى وكيل النيابة :

ــ لا تبتئس . كذلك كان حالى فى أول عهدى ، كاتب النيابة يتعالى على ويسخر منى حين يرى لخمتى . حتى سألت عن « مجموعة اللوائح والرخص » فجيء لى بجزءين ضخمين ، علاهما التراب . نفخته عنهما ، وقضيت ليلتى ساهرا فى مراجعتهما حتى تمكنت من قطع دابر السخرية.

امامى محضر تحقيق اقف امامه حائرا . كيف اصف جريمة رجل كل ما فعله أنه بصق فى وجه آخر .. هل هو سب ؟ هل هو ضرب ؟ .. ان قانون العقوبات لا يتضمن ما يعاقب على البصق فى وجوه خلق الله .

لم ندخل المحكمة ، ولم ننتقل لتحقيق الجنايات ، ولم يقل لنا أحد من هو الحكم على أدائنا فترة التمرين بنجاح ، ووكلاء النيابة يتبادلون علينا واحدا بعد آخر .

***

أصل الى المحكمة هابطا اتدحرج من شارع «نور الظلام» ــ ما أعجب هذا الاسم لأنه شارع ضيق شديد الانحدار ــ على الجانبين مكاتب وكلاء المحامين الشرعيين ، اغلبهم فى جلاليب وجاكتات ، وعلى الأذن قلم .. فيهم من لا تفارق شفتيه ابتسامة ساخرة ، وفيهم البلداء لو قامت القيامة ما اهتزت لهم شعرة . يجلس داخل هذه الدكاكين وعلى

ابوابها نسوة ، دهشت ــ فقد كنت اتعرف جو المحكمة الشرعية لأول مرة ــ حين رايت أغلبهن متبرجات بالكحل والاحمر والأبيض .. ان يوم الذهاب للمحكمة عندهن يوم عظيم ، ينبغى التأثير على القاضى ، فان حساب النفقة لا يمكن أن يغفل الشياكة والجمال ، ولأنهن سيقابلن ازواجهن وجها لوجه وتبقى العين فى العين مدفوعات بشهوة التشفى أو الأمل فى الصلح .. يوم عظيم ــ مرة اخرى ــ لأن الشفاه والافواه والحلوق والايدى لن تكف عن رواية الخناقة القديمة ، فانها اذا نسيت فماذا يبقى لهن من كلام أو مدعاة لاستجلاب الرثاء .. نسوء البخت أدخل وراءهن المحكمة فأجد حدة الدكان قد باخت .. المأساة الحامية حين تروى تنقلب مهزلة مضحكة .. فاذا خرجن من قاعة الجلسة عادت الحدة وتبينت فظاعة المأساة من جديد .. تزداد النقمة اذا كان الحكم قد صدر بتأجيل الدعوى لجلسة أخرى .. هذه هى اللحظة الحرجة التى يبدأ فيها تبادل السباب والتشابك بالايدى ، وضرب الروسية والعض والنهش .. وأحيانا القتل .

وراء كل قضية قصة .. كم كنت أتمنى فى ذلك الوقت أن أشتغل كاتبا لمحام شرعى كما قال « فوكنر » انه كان يتمنى أن يشتغل بوابا لماخور ..

فى يد هذه النسوة صبية صغار لا أحد ينتبه لهم .

***

خاب ظنى وتحقق قول العليم ببواطن الأمور .. أخرت وسبقنى من هو خلفى . وكنت أفضل أن أصل فى الطريق الى سد من أن انسى فى طريق بلا نهاية ،وأصدرت أنا نفسى الحكم ــ لا أتركه لغيرى ــ بأنه من الخير لى أن أتخذ وجهة أخرى فقلت لأجربن حظى فى المحاماة ، اذ أنفت ،

رغم احتياجي ، أن اشتغل فى وظيفة كتابية ، وكبر على نفسى ان احرم مما حسبته حقى .

ان أسرتى قليلة العدد منطوية على نفسها ، كل رجالها موظفون ليست لهم معاملات مع الناس ولا قضايا مدنية او جنائية او حتى شرعية ، والقاهرة بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشىء الى حلقة من المعارف والاصدقاء يسندونه فى مبدأ أمره .. وقلت لنفسى ينبغى الهجرة الى بلد آخر، أصغر من القاهرة ابدأ فيه خطواتى الاولى ، هكذا تفلسفت مفضلا الصفر على النزر القليل ، واتجه ذهنى الى مدينة الإسكندرية ، فقد كنا فى القاهرة نعلم ان فى مديرية أسيوط مدرسة متقدمة من المحامين المصريين أولاد دوس ، وعلوبة، وسيونى ، وفهمى ، ورمزى .. أسماء معروفة لدينا ، اما فى الاسكندرية فلا تلمع اسماء محاميها الاهليين، ولعل السبب أن محكمة الاستئناف المختلط — وكان مقرها الاسكندرية — احتكرت السوق بمحامييها الاجانب ، تاركة المصريين فى الظل . ومما سهل على الهجرة للاسكندرية أن كان لى بها خال موظف بالجمارك . وقلت لأنزلن عنده ضيفاً ولو ثقيلا .

ولكنى اشترطت الا اشتغل عند محام بالمجان ، وطلبت ان اكافأ ولو بمبلغ قليل من المال ، لسد مصروف جيبى ونفقة انتقالاتى وصيانة كرامتى فلا يقال عنى اننى لا ازال صائعا .

وجدت فى الاسكندرية محاميا وعدنى بمكافأة شهرية قدرها ستة جنيهات ، وبدات العمل عنده فى منتصف الشهر ، هو من اليهود ، وكانت هذه الكلمة لا ترن فى اذنى ذلك الوقت رنين اجراس عربة المطافىء او الاسعاف

.. كنا فى غفلة تامة ــ بفضل سذاجة زعمائنا السابقين ــ عن الخطر الداهم رغم النذر السافرة والطلائع البينة ، أكان هذا ايذانا من القدر بأن خطوتى الاولى تجمعنى بهذا الجنس العجيب من الناس الذى سيقابلنى شبحه فى مستهل كهولتى فينكبنى ويؤذينى أشد الأذى ، ويقلب كل المبادىء الجميلة التى اعتنقها بحب وغرام الى أضداد لها !

لقيت فى هذا المكتب لأول مرة أناقة وحبا للفنون لم أعهدهما من قبل .. فى بيتنا كتب ولكن ليس به صورة واحدة أو تحفة فنية .. مكتب فخم ، وكرسى بزنبرك تميل به الى الوراء فيشدك الى الامام . مكتبة قانونية غنية . مكتبة أدبية أغنى منها . مؤلفات «أناطول فرنس» فى أجمل طبعة . على المكتب صورة لفتاة صغيرة ، هى بلا شك ابنته ، تشيع فيه جوا غامضا من الحنان ، وصور فوتوغرافية لوصية نابليون كتبها بخط يده فى المنفى بـ « لونج وود » بجزيرة « سنتاهيلينا » يطلب فيها دفنه بجوار « السين » فى أحضان الشعب الفرنسى الذى طالما أحبه ، ويوصى بممتلكاته الشخصية لخادم له .. اعداد متناثرة من « المقتطف » و « الهلال » و « البيان » و « المحاماة » و « روايات الجيب » و روايات غرام .. غير إنى لم أكن حينئذ متنبها لدعوى اليهود حبهم للفنون والثقافة وضربهم فيها بسهم وافر .

وجاء أول الشهر ووثقت أن المحامى سيدفع لى ثلاثة جنيهات ، فأنا مفلس ومن أسرة كلها موظفون ، كلمة أول الشهر عندهم مقدسة ، هى المنارة الوحيدة فى حياتهم ، والأوتاد التى تثبت بها خيمتهم على الارض ، ولكن المحامى اعتذر أننا كنا فى عطلة الصيف ولم ترد للمكتب قضايا

جديدة كثيرة ، ووجدت الوعد اليقين قد اصبح كلاما عائما . تركته ــ وفى قلبى غصة .

وانتقلت الى مكتب محام مصرى وعدنى بمكافاة شهرية قدرها ثمانية جنيهات ولا اسميها علاوة لأنى لم اقبض قبلها شيئا .. مكتب ليس به دلالة واحدة على أن الحياة بها شيء اسمه الفن ، أيا كانت صورته ، ولا حتى أبو زيد الهلالى . لا ذوق ولا ترتيب ، ولا كراسى هزازة .. ولعلى كنت فى ذلك المكتب اكثر اطمئنانا لنفسى منى فى المكتب الآخر الذى كشف لى مبلغ جهلى وتخلفى وحرمانى .

كان من بين الخطط الاستراتيجية التى وضعتها بحنكة غير المجرب أن اراسل الصحيفة الوحيدة التى تصدر فى مدينة الاسكندرية وهى صحيفة «وادى النيل» ــ فنشرت لى سلسلة مقالات عن المحاماة لأشهر المحامين فى مصر وأوربا ، فى ذيل كل مقال اسمى وتحته كلمة « محام » .. ولكن بدون عنوان ! .. فاذا بهذه الصنارة لا تصطاد سمكة واحدة .

وكنت قد زرت صحيفة « وادى النيل » ابان تأجج عواطف اهل الاسكندرية للغازى مصطفى كمال فى حربه من أجل تحرير بلاده .. اعداد الصحيفة توزع كألواح الثلج فى عربات يد يتخاطفها الناس وهى طازجة بحبر المطبعة . وتقرأ البرقيات المطولة التى تنشرها تحت عنوان ضخم « لمراسلنا الخاص بمدينة انقرة » بأصوات مرتفعة متهدجة ، ولما ذهبت لادارة الصحيفة دخلت على رجل ضئيل الحجم لم يخلع معطفه ولا طربوشه ، نظارته تمتطى حدبة فى منتصف انفه ... امامه صحف تركية عديدة ، وفى يده مقص يقطع به مقالات تهيأ لترجمتها . فلما سألت

عنه قيل لى « هذا هو مراسلنا الخاص بانقرة ! » .

وسعدت فى ادارتها بالتعرف الى الشاعر الرقيق الصبور عبد اللطيف النشار ، له قصيدة جميلة يصف فيها احدى المقابر ، وكان يركب القطار ذات يوم ، ووقف فى محطة تجاور مقبرة ، لم يصرخ الكمسارى « الميت ينزل » ولكن الشاعر ترك القطار ومشواره واشغاله ومنتظريه عند الوصول ونزل الى المقبرة ينفرد فيها بنفسه ، ويكتب قصيدته .. كان يتولى تحرير الصفحة الأدبية فى « وادى النيل » ويتولى صديق آخر لى تحرير الصفحة الاقتصادية .. طلبهما صاحب الجريدة ذات يوم وقال لهما انها فى حاجة الى تجديد .. ورفض اقتراحهما بأن يستخدم أقلاما جديدة .. فهو لا يريد أن يدفع مليما واحدا ، وأخيرا اهتدى الى حل موفق ، طلب من الأديب الشاعر أن يحرر الصفحة الاقتصادية ، وطلب من زميله المتخصص فى الاقتصاد والتجارة أن يكتب الصفحة الادبية .. فلم يسعهما الا القبول .. والعجيب أن صحيفة «وادى النيل» فى عهدها الجديد زادت رواجا عن ذى قبل ..

***

الاسكندرية

انى احب ثغر الاسكندرية ، أحس بسعادة كبيرة تنزل بردا وسلاما على قلبى حين أتجول فى مينائها بين عطر زكى من عطور الشرق ينبعث من مخازن الخروب ، ورائحة نفاذة يتسلل غولها فى خياشيمك ساعيا الى تخديرك واسرك فى

قبضة لن تتراخى ، تتسرب من مخازن التبغ ـ اننى عين وزارة المالية ! ـ اشاهد السفن تفسد مؤخرتها الحبلى رشاقة عرنينها ، مربوطة كأنها الخيل أمام المداود ، تحس انها تغلى وهى باردة ميتة الانفاس ، يخيل لك انه لو قطع الحبل لوثبت من فورها ولوت عنانها واختبفت وراء الأفق. لنشات ـ رغم ضآلتها ـ متعجرفة تمخر فى خيلاء البطة ومشاكسة كلاب الصيد الجائعة ، لها ولولة ترج القلب.. ما الذ الشعور بالخوف المفاجىء وأنت فى أمن مطمئن . قوارب صغيرة يدفعها رجالها وهم وقوف ، وجوههم ـ لا ظهورهم ـ الى الطريق ، تتأرجح فوق ماء أزرق يفصله عن ماء رمادى خط مرسوم لا تدرى سببه . عربات النقل الطويلة يسوقها أيضا اصحابها وهم وقوف (يذكروننى برمسيس فى عربته) ، فتوتهم تحب الرعشة السارية فى أبدانهم من قلقلة العجلات فوق البلاط ..

اعود فأمر أمام الدكاكين التى تبيع الحبال والقلوع والبكر ، لا اعرف غيرها يصلح مصنعا للأحلام .. وعلى الشاطىء هياكل لسفن اخرى من الخشب ، عجفاء بادية الضلوع كأنها ديك رومى فى نهاية مأدبة مصرية ، اراقب بلذة « قلفطة » شقوقها . يقطع عليك نسيم البحر فجأة رائحة غليظة عطنة زخمة ، يضيق بها صدرك وتنجذب اليها فى وقت واحد ، يقولون انها « يود » البحر ، والبلدية ومجاريها أعلم ..

أبناؤها أهل نخوة وشجاعة وكبرياء لا يعرفون مركب النقص : تراهم بالسروال الأبيض المنتفخ والحزام العريض جالسين رافعى الرءوس فى المقاهى الافرنجية التى تزعم أنها وقف على الاجانب والطبقة الراقية ـ وهذا شىء لا

يفعله أولاد البلد فى مصر ، اذا تركوا احياءهم ضـــاعوا واحسوا بالغربة ـ اذا قارنت عدد ضحايا المظـــاهرات لوجدت الاسكندرية تتفوق على جميع مدن مصر ، شنق من اهلها فى الحركة الوطنية ثمانون رجلا مرة واحدة ، منهم أب وابنه ..

ولكن ما سر هذا اللون الاصفر العجيب الذى يكسو كالطفل وجه الفتاة الاسكندرانية ؟ .. من اجله أحببت بنات بحرى حبا شديدا ، وما سر أن الاسكندرية وهى مهد كبار ملحنينا ـ ترضى أن تعيش بدون صحيفة أو مجلة أو عدد يليق بها من المكتبات ؟ هل هى حق أم باطل تلـك الأسطورة التى تؤكد ان بها طلسما يذود عنها الحـــدآت والغربان ؟ وأخيرا ما سر هذه الشخرة التى تنفرد بهاعن بقية ثغور مصر ؟ كان سليمان نجيب عائدا من أوربا وعلى راسه قبعته ، فما كادت السفينة ترخى حبالها حتى تسلق اليه كالقرد صبى شيال ووقف امامه وتناول حقيبتـــه وقال له :

ـ وان باوند يا خواجة ..

فالتفت اليه وشخر له شخرة عالية وصرخ :

ـ بتقول كام يا ضلالى ؟!

جرى الصبى الى حافة الباخرة ، واطل على المعـلم ، وقد انتصب طوله فوق الرصيف ، وهتف اليه بصـــوت مجلجل :

ـ « يا معلم ده بيشخر !! آخد منه كام ؟ »

سعيت الى دكان الحبال والقلوع والبكر لأقابل العامل الذى قيل لى انه لف الأرض سبع مرات وعاد وفى حقيبته صور عديدة .

.. سألته عنها فأراني صورته وهو واقف أمام جدار ولا شيء آخر ـ وقال : انا فى هونج كونج ، وصورة اخرى له أمام جدار آخر وقال : انا فى بومباى ، وصورة ثالثة أمام جدار وقال لى : انا فى سان فرانسيسكو .

ونظرت الى عينيه فوجدتهما سليمتين قويتين فحمدت الله أننى اعمش !

***

دمنهور

لم اجد فى قلبى مقدرة ولا شجاعة على ان اشتغل او افتح مكتبا باسمى ، فان تأثيثه يحتاج الى نفقة لا املكها ، والايراد غير مضمون ، والصفر الذى فضلته فى الاسكندرية على نزر القاهرة لم يزد مع الايام على صفر .

ومتى ارتد الانسان على وقفته فى الصف الأول وارتضى الصف الثانى بديلا فلا يلومن الا نفسه اذا تزحلقت قدمه بعد ذلك الى الوراء .

انتقلت من الاسكندرية لاشتغل محاميا بدمنهور بمرتب شهرى قدره ١٢ جنيها ، فكأنى عجزت فى ميدان العمل الحر بالمحاماة أن أخلع مريلة موظفى الميرى ، ونزلت ايضا فى دمنهور ضيفا عند أحد أنسبائى البعيدين ..

واذا كنت ذرعت مديرية البحيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا الا أن مخالطتى لأهلها لم تكن مخالطة مباشرة بل مخالطة عن طريق ملفات القضايا ، وأغلبها قضايا صغيرة (التى أتولاها نيابة عن المحامى صاحب المكتب الذى يقصده

الناس ويجرى هو وراءهم ـ ما عرفت الجرى وراء أحد طول عمرى . عشت فى الريف ولكن على هامشه) .

ركبت لأول مرة قطار الدلتا ، ولم يكن صورة مصغرة القطار ، بل صورة مكبرة للعب الأطفال شاهدت انبثاث الأروام بين الفلاحين ، فهم تجار القطن يركبون معنا هذه القطارات فلا نجد لذلك عجبا .

لا ازال اذكر الى اليوم كيف كنا نصل الى محـكمة ابى حمص والمحطة تبعد عن البلد كثيرا فاذا كان اليـوم ممطرا خضنا فى بحور من الوحل ، ونزل السائق يفوص فبه الى وسطه ليدفع الحصان العجوز بيديه وطرقعـة لسانه وسوطه . وابو حمص من افقر البلاد فى المساكن . ولما سالت عن السبب علمت أن أرضها حكر يستغله مالك يهودى لا يأبه بالبناء ويحاربه ..

رشيد حسبتها قريبة من الاسكندرية ، كنا لا نبلغهـا الا بعد ثلاث ساعات ونصف ساعة فى قطار بطىء . اتأمل من النافذة صفوفا لا تنتهى من النخيل والتين الشوكى ، على اليمين صفحة هادئة لا تتحرك هى بحيرة ادكو ، وعلى الشمال رمال ورمال . ولـكن لابد أن ترى فـلاحا وراء محراثه .. نساؤها يلبسن ثياب أهل القـاهرة الملاية والقصبة التى لا تعرفها الاسكندرية ، ورجالها كذلك كأهل القاهرة الا نفرا قليلا يقتدون بزى أهل الاسكندرية البنطلون الواسع والحزام العريض . أسماؤهم غريبة تنتهى بواو ممدودة مثل « جادو » ، ولعلهم من مهاجرى الغرب ، أو أسماء مثل الدرس والنزر . لقيت رجلا اسمه «الفلس». شهرتهم عندنا نحن أهل القاهرة انهم أرباب نكتة يتكلمون بالقاف ، لم تسعفنى زيارتى العابرة أن اتحقق من ذلك .

لا ادرى لم هى فقيرة رغم أنها مشهورة بالفسيخ والسردين والسمان والليمون والسيرج والبلح الزغلول .. فى المحطات تعرض علينا سمك مشوى لنشتريه .

محكمة الدلنجات تنعقد فى حجرة صغيرة ليس بهـا الا ما يكفى لجلوس ستة أشخاص ، واصحاب القضايا والشهود جالسون على الارض اكواما وصفوفا . كاتب الجلسة مصدوع يربط راسه بمنديل حريمى مفلفل .. اذا طلب القاضى مستندا تركنا ليبحث عنه ، ثم يعود .

كل مراكز مديرية البحيرة متخلفة الى درجة تبعث على الرثاء .. لا يوجد فى واحد منها مطعما تستطيع ان تأكل فيه لقمة نظيفة . دمنهور نفسها محرومة من المجارى ولأهلها عادة غريبة ، أن « يدلقوا » من النوافذ مياه بيوتهم قذرة وغير قذرة .. رايتها تتحدث بعجب عن مدير فضله انه شق طريقا واقام متنزها .. مع انها مدينة غنية تعج بمحالج القطن واهلها ارباب تجارة وحزم لا يفلح بينهم غريب .

وكنت اجوس خلال الريف وانا كالمخدر لا افهم سبب علته ولا احس فى قلبى الا يأسا مريرا واستسلاما صاغرا .

***

سماسرة

عرفت فى المحاماة جنسا عجيبا من الناس ، انفت منه وانفت من اجله من مهنة المحاماة ، فلبعض المحامين سماسرة للقضايا . ليس سبب انفتى راجعا الى المهنة ذاتها ،

فالأرزاق على الخلاق ، ولا باس أن يحتاج العمل الى وسيط ، ولكن السبب أنهم لا يعملون على المكشوف بل فى الخفاء وبالمخادعة .

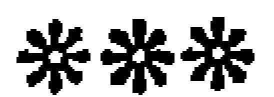
كنت فى حضرة المحامى فدخل علينا رجل يتأدب ويخشع وكأنه يلبس مسوح القديسين ، لا جاكتة فوق جلابية ، تعلن ابتسامته ان عشمه فى جدوى الخير لوجه الله لا يموت ، فعليه سمة الشهداء أو الفدائيين .

سلم على المحامى سلام الغرباء باحترام وتهيب شأن من لا يعرف أحدهما الآخر من قبل . يجر وراءه جر النعجة رجلا مصفر الوجه مدهوشا .. وقال الرجل الأول للمحامى : « صديقى هذا عرفته من القهوة له قضية وقد استشارنى فلم أجد غيرك أهلا لها .. لأنى وان كنت لا اعرفك ، اسمع عن كفايتك ونزاهتك وستكسبها لنا » .

ولم يقل له باذن الله .. كلام جميل كله تعاطف ومودة لوجه الله .. سحر الرجل فدفع مقدم الأتعاب وتسلم الايصال وخرجا . لم تنقض خمس دقائق حتى عاد السمسار وحده مندفعا كالرصاصة ، فى عينيه نظرة النسر ، فسلم عليه المحامى سلام الحبايب العشاق ، واندفعا فى حديث سريع لم يمنعنى من أن أنتبه ليد السمسار تمتد كالمخلب — وسط الحديث وكأن لا علاقة لهذه اليد بهذا الحديث — الى المحامى فناوله خلسة — ولا أدرى ممن وانما هو الشعور بالخجل — أجر سمسرته .. ثم بلع كل منهما ريقه ايذانا بختام المأساة أو المهزلة والى اللقاء مرة اخرى .

اذا كان السماسرة جنسا عجيبا من الناس، لا يصطادون الا جنسا اعجب منهم يستحق ما يجرى عليه . يصاب الرجل بتحكم « كيف » الدخان أو تحكم لعب الورق فى

القهوة ، أما هم فيصابون بتحكم « كيف » القضايا والمحاكم . فى حياتهم مسألة هينة ما أسهل حلها بالمصالحة .. بل لاحظت أن صاحبها لا يحسن روايتها بل يفرقها حتى تضيع معالمها وسط تفاصيل لا تنتهى عن مؤامرات الأقرباء ودسائس الأنسباء وموالسة الحكام ، ولكنها فى جسده كالجرب أكبر اللذة أن يعكف على حكها صاحيا نائما .. هم أكثر أصحاب القضايا لجاجة وجريا وراء المحامين ، وتتبعا لحركاتهم واخبارهم وأسرعهم أتهاما لهم بالتواطؤ مع الخصوم ... كنت آنف من السماسرة ولا أجد لهم عذرا وانا شاب عفيف متحمس .. الا اننى وأنا أكتب الآن عنهم ، اجدهم ــ بعد أن وصفت ضحاياهم السمجاء ــ من أخف الناس ظلا وأكثرهم ذكاء .. فحلال عليهم مهنتهم الشريفة .



النصب

وهكذا فى جميع قضايا النصب أثور حينما أجد الناس لا ينتبهون ــ وهذا شيء مخيف اذ يكاد ينطق بأن الامانة فى هذه الدنيا والعنقاء سواء ــ الى أن الضحية المزعوم بأنها بريئة تستحق العطف انما هى أشد من النصاب لؤما وخسة ودناءة وطمعا وجشعا . فأيهما أثقل ذنبا : نصاب لعله رب أسرة مأزوم بلاه الله بحدة الذكاء فأضله الشيطان عن الطريق المستقيم ، أم رجل يقال انه فاضل كريم يرضى ــ وهو مستور الحال وقد يكون من كبار الأغنياء ــ أن يشترى من رجل فقير ، لعله حافى القدمين رث

الثياب ، خاتما من الماس لا يقل ثمنه عن مائة جنيـــه بخمسة قروش لا غير ؟ لو كان فى قلبه ذرة من امانة لقاده ى صائغ ينقده الثمن الحلال . سرق النصاب خمســة قروش اما هو فسرق مائة جنيه . والغريب أن هذا الرجل الفاضل هو الذى يجرى فيفضح السر ويطلب بمعاقبة من ضحك عليه ! ولا ادرى ايهما ضحك على الآخر ، اذا قسا عليه الناس لم يزيدوا عن وصفه بالبلاهة وطيبة القلب وهما اغرب مترادفين فى قاموس الاخلاق !.

ما أمتع باب النصب فى قانون العقوبات . انه المـرة الوحيدة التى تحس فيها أن هذا الشيخ الصارم الوقور الذى ضم بين حافتيه سجلا سلبيا للفضيلة بتعداده بلذة كبرى الرذائل (المسمى قانون العقوبات) يتشوق الى اللعب بالأقنعة وسيوف صلاح الدين وثياب الفراعنة والمماليك وجند الرومان وبقية هلاهيل الفرقة القومية، فهو يشترط لجريمة النصب وحدها اخراجا مسرحيا !.

لابد لى أن أروى هنا اعجب اخراج فى النصب صادفته لان بطله يلبس رداء الفلاحين السذج من ملابس مسرحية لتوفيق الحكيم * .

قال صديقى الفاضل :

ــ كنت أسير فى عتمة المساء فى شوارع جاردن سيتى ، فاذا على الرصيف المقابل فلاح على ملابسه طين الحقل ، فى يده حبل ليف لعله خلعه عن وسطه حين دخل المدينة ، فى قدميه بلغة صفراء مسودة ، تتعثر مشيته حين يدب بها على ارض ملساء مرصوفة ــ وهى تجـرى جريا فى

* «الجمهورية» ، ١٩٥٩/٤/٢٥ ، ص٤

دروب القرية واخـاديد الغيط ـ فهى تأبى أن تمشى به فيجرجرها زحفا على الارض ، بجانبه امرأة هبط ثدياها كالخرجين على بطنها ، تفوح منها رائحـة اللبن الرايب والجبنة القريش ، على راسها مقطف به علو برسيم وحمامة قرعاء تصوصو منتوفة الريش زرقاء اللحم متآكلة المنقار ، يتخبط الرجل فى المراة وتتخبط المراة فى الرجل كأنهمـا تائهان فى أرض مجهولة مخوفة ، رغم أنوار البلدية .

احس صديقى أن الرجل قد انتبه له وأنه يهم بالاشارة اليه والتقدم نحوه فيكفكف خجله وتشده المرأة من كمه ، يؤكد صديقى أنه رأى شفتيه ترتعشان من شدة ارتباكه وحيائه وزجره لأول نوازعه الحمقاء حين تهمس له انها عين الحكمة .

ومضى صديقى فى طريقه فاذا بصوت رقيق فيه مسكنة الشيخوخة وحشرجة الحلقوم الذى تخشب بعد نضارة يقول له :

ـ ياسيدنا الافندى ! ياسيدنا الافندى !

ـ افندم ..؟

ـ من فضلك باين عليك طيب وابن حلال عاوزك فى معروف .

.. آمن صديقى بهذه الشهادة وارتاح قلبه فسارع يقول له :

ـ أفندم .. خير ! تحت امرك ..

ـ بقه شوف .. احنا فلاحين غلابه بنبيع ساعات بيض وفراخ لواحد طيب زى حضرتك فاتح أجزخانة مش بعيد من هنا . ايه قولك .. النهاردة قال لى « لازم يافلان

اهديك بهدية حلوة من عندى حلال لك وناولني قزازة وقال لى انها كويسة وتشد الحيل وتمنع الرطوبة وتنقى الدم وتفتح الشهية حاجة اسمها كينا .. حاجة زى دى .. مراتى وغوشتنى ولعب الفار فى عبى .. قالت لى : اوعى يابو فلان تكون مخلوطة بخمرة .. احنا موش وش كده .

واخرج الرجل من المقطف زجاجة نظيفة مغلفة فى ورق شفاف يخرفش ، مختومة الراس بالشمع الاحمر وعليها رسم رجل نصف عار فى ازار جلد النمور ـ كأنه شمشوم او هرقل يمزع فكى أسد مهول أحدهما عن الآخر ـ وتحته « كينا بسليرى ـ احترس من التقليد ! » .

ومال الرجل بسذاجة على صديقى وقال له :

ـ اللى أنا عاوزك فيه بس يا سيدنا الافندى تقول لى من فضلك وتصدقنى بأمانة الدوا ولا المشروب ده دخله صحيح خمرة ولا سبرتو ؟

ضحك صديقى واكد للرجل وهو يربت على كتفه ان الأجزجى لم يغشه وانها هدية طيبة تنفعه .

تناول الفلاح الزجاجة يتأملها بحسرة ، كأن المولى سبحانه وتعالى لم يشرح صدره للحق يأتيه من اول غريب يقابله ، وأن وصفه من قبل بالطيبة والاخلاص ـ ومعشر المؤمنين أهل شك وريبة حين يكون الامر حلالا أو حراما .. وقال :

ـ والله الاجزخانجى ده على نياته ، فتح شهية ايه واحنا ناس مش لاقيين ناكل .. والله ما هى لازمانى .. تسوى لها كام يا سيدنا الافندى .

هبط صديقى اول درجة فى سلم الامانة وقال : « ٢٠ — ٣٠ قرشا » .

وهو يعلم أن ثمنها خمسون قرشا بالتمام والكمال .

— عوضنا على الله . او كان اداني بريزة كان أحسن لنا .

طرطقت أذنا صديقى فاسرع يقول وهو يحس انه بارع واسع الحيلة نهاز للفرص :

— تاخد فيها ١٥ قرشا ؟

ترك مجالا للفصال .. يا للمكر ..

زم الرجل شفتيه ونظر الى المرأة فاشاحت كأنهاتقول « انت صاحب الأمر والنهى اذا كنا أمام الناس » .

مد الرجل يده بالزجاجة الى المقطف مقدار ثانية ثم عاد واخرجها وهو يقول :

— طيب خليها بعشرين قرش ، ما انت قلت ان ثمنها ٢٠ — ٣٠ قرشا .

دفع صديقى الريال كأنه يتكرم عليه باحسان قدره خمسة قروش واسرع فى خطوه ، وكان الصديق هو أول من طلب الهرب ، ليبتعد عن الرجل وهو لا يزال يتعثر فى مشيته وبلفته تكاد تنفلت من قدمه .

وفى الدار فك صديقى الورق الشفاف ، لم يأبه أن وجد على ظهره بعض البقع اللزجة وحين حاول فك الشمع الأحمر انفلت فى يديه بسهولة لم يكن يتوقعها .. لم يصدق همسا بدأ يوسوس له الا حين صب أول كاس فوجده ماء خالصا من ترعة عكرة .

والغريب أن صديقى نزل من الدار مهرولا ليطارد الرجل

النصاب فكان فص ملح وداب .. لم يذهب ـ والحمد
لله ـ للبوليس ولو ذهب لقيل له : هذه ليست أول مرة
وان البطلين لم يعرفا الريف قط نظرا لأنهما من سكان
احدى العطوف فى مجاهل القاهرة الحانية على الجريمة
والشحاذين والقرداتية وعصابات خطف الأولاد ..

***

فى ساحة المحكمة

لم تكن الصعوبة التى واجهتنى فى أول عهدى بالمحاماة
هى « ماذا أقول ؟ » بقدر ماهى « كيف أقول ؟ » رغم انى
دخلت المحاكم ـ كمتفرج ـ من قبل فاننى لم أقدر صعوبة
موقف المحامى الا حين وقفته . كنت أود أن يجىء مكانى
ـ كما نرى فى محاكمات السينما الفرنسية ـ بجانب المتهم
فيميل الى موشوشا وأميل اليه هامسا ، وأن تتهيأ لى
الأسماع حين يطلب منى القاضى أن أتفضل وابدأ المرافعة ،
وان يتاح لى أن أثب من مكانى لأمسك بتلابيب الشاهد ـ
وسبابتى تكاد تخرق عينيه ، وأحاول فضح كذبه بسيل
من الاسئلة البارعة .

اين كل هذا من محاكمنا الجزئية ومحاكم مراكز
البحيرة ، وبالأخص محكمة الدلنجات ؟ المحامون محشورون
حشرا كالسردين فى مقعدهم يترافعون وهم وقوف به .
كنت أجاهد بذراعى حتى أجد لى مكانا بينهم اذا قام جارى
عن يمين أو يسار قمت أنا أيضا ـ لانى قزم ضئيل ـ
بضغط أجسامهم ـ والمتهم وان كان مقبوضا عليه فهو فى

قفص الاتهام بعيدا عنى . وان كان مطلق السراح فهو يقف سدا بينى وبين القاضى ، يجد من حسن الأدب الا يدير وجهه الى ، واذا نظرت الى الناس من ظهورهم وجدتهم كلهم ابرياء .. كل شيء يجرى فى عجلة ، رول الجلسة به ٢٥٠ قضية على الاقل .

بعض القضاة يأتون بقطار .. ويعودون بقطار آخر .. بينهما وقت محدود ، ينبغى انجاز هذه الاكوام خلاله .. شهل شهل .. لا تتاح الفرصة لأن اوجه للشاهد سؤالا ، واذا وجهته طلب أكثرهم — أنفه وكبرياء — الا أن يكون توجيه السؤال من القاضى .. وهذا التكرار يكسر حدة الهجوم ويضيع أثرها ، فالأولى التنازل عنه ..

رأيت أغلب القضاة يكتبون الحكم وانا فى أول المرافعة، لأن القضية واضحة كالشمس ، وكل كلام لغو .. بعض مقاعد المحامين عالية لا يظهر منها الا رأسى اذا وقفت . فلم ارض أن تبدو للقاضى كهذه الرءوس المقطوعة الموضوعة فى طبق فوق مائدة فى ألعاب الحواة والسحرة وهى مع ذلك تنطق وتضحك وتسأل الجمهور أن يتوجهوا للمولى سبحانه ليرحمها ويصبرها على بلواها ، وأغلب بنات البلد يجارن بهذا الدعاء بعيون مغروقة بالدموع ، ويسلكن صاحب الرأس فى سلك الأولياء أصحاب الكرامات ، ويتهامسن لو خطونا عليها هل تفك عقدة العقم ، هيهات أن يصدق القاضى اننى أيضا من الأولياء أصحاب الكرامات .. فحماك من خطتى أن انفلت من المقعد ، ولو دست على أقدام جميع الجالسين .. واقف فى حرم المحكمة بين منصة القاضى وهذه المقاعد ولكننى كنت احس اننى تهت فى هذا الحرم واختلطت بالشهود والمتهمين مطلقى السراح .

ثم عدلت عن خطتي سريعا بعد أن ترافعت يوما أمام قاض وقفت منحرفا الى يمينه ، فلما جاء دوري في الكلام دق القاضي المنصة بكعب قلمه الرصاص ، ونظـــر الى يساره وقال « اتفضل » نظرت حيث نظر فوجدت محاميا آخر قد غرق وجهه في ملف .. ظننته يقصده فصبرت .. عاد كعب القلم يدق مرة أخرى ثلاث مرات بدلا من مرتين « اتفضل » . المحامي الآخر لا يزال غارقا في الملف فصبرت فاذا بالقاضي يميل بكل جسده الى ويصرخ :

ـ ما قلنا ستين مرة اتكلم ياحضرة المحامي .. !

لم افطن الا فيما بعد انه مصاب بالحول ..

وممـــــا زاد بلوتي أن بعض القضاة يصرون على ألا يترافع امامهم المحامون الا مرتين الروب الأســـود .. وكانت اكبر متعة لزملائي القادرين أن يفصلوا لهم يوم نجاحهم هذا الروب ، أما بقيتهم من الفقراء أمثالي فكنا نؤجره من فراشي المحكمة لقاء نصف ريال .

أعوذ بالله من رائحة عرق المحامين أنها تفوق زميلتها رائحة النفتالين .. لم أجد روبا واحدا يليق بي ، بل كل روب لبسته اخذت أعوم فيه ، كأنني قسيس أرثوذكسي يخوض حفرة في يوم مطر .. الملم أطرافه وارفعها الى وسطي حتى لا اقع به اذا مشيت .

اذا كنت خجولا متهيبا وكانت قضيتك هي رقم ١٢٥ بقيت مسمرا من الصباح للساعة الثانية بعـــد الظهر ، فنحن لا نعرف ترتيب القضايا الا يوم الذهاب للمحكمة ، أما اذا كنت مشهورا أو على الاقل ملحاحا مكشـــــوف الوجه لا يهمك الكسوف استطعت أن تحمل القاضي على ان يقدم قضيتك عن غيرها بدعوى انك ذاهب للمرافعة ـ

كذبا فى اغلب الأحوال — فى قضية هامة جدا فى محكمة اخرى ..

حضرت مرة قاضيا طيب القلب يستجيب لهذا الرجاء بسهولة .. وبعض القضاة وقد لاحظت بدهشة ان اغلبهم كان فى مبدأ امره محاميا — يرفضون ادخال اى تعديل على رول الجلسة اكراما للمحامين . على يمين القاضى فوق المنصة تل مرتفع مائل كبرج بيزا من الملفات بين البدين والنحيف ..

— من فضلك نمرة ٦٥ ..

— مد القاضى يده وسط التل وأخرج الملف ..

— من فضلك نمرة ٧٧

— من فضلك نمرة ١٤٤

ولما فرغ الحاج المحامين عاد الى ترتيب الرول ، ولكن برج بيزا كان قد اختلت بعض ادواره — دون أن ينتبه القاضى — واصبح سكان البدروم فى السطح وسكان السطح فى البدروم

— القضية اللى بعديها نمرة ١٩

وتناول القاضى اول ملف (ربنا يهون) . وزعق الحاجب بصوته الرنان كأنه ينادى على بلح أمهات لا تين ولا عنب زيك ..

— عثمان ابوسريع ! .. عثمان ابوسريع ..

قفزت عين القاضى بين الاوراق خطفا لا يبالى حتى وقفت عند وصف التهمة وذكر المادة الواجب تطبيقها .. تهمة احراز حشيش ..

— ايه قولك فى التهمة ؟

عثمان ابوسريع خائف ، مضطرب كالفار فى مصيدة ، يبدأ يتلعثم من قبل أن يتكلم :

ـ ياحضرة القاضي ربنا يخليك ، انا كنت طالع الصبح بدرى أصلى الفجر حاضر وقدام الجامع لقيت وزة قلت دي لازم تايهة يبقى ثواب لو مسكتها عبال مايبـــــان صاحبها ..

قاطعه القاضي بغضب وحده قائلا :

ـ مش ح تبطل تخريف الحشاشين ده ؟ هو لولا تهيأ لك انك شفت وزة كان عرف البوليس يمسكك ؟ حبس ٣ شهور .. غيره .. القضيه اللى بعدها .

بعد ساعتين أو أكثر ، حين قال القاضي وقـــد هد التعب جهده وصوته : القضية اللى بعـــدها .. ونادى الحاجب بصوت أكثر رنينا ، فقد خلت الردهة من الزحام الشديد ..

ـ داود محمد مبارك ..

ودخل رجل هادىء النفس ثابت الجنان على شفتيه ابتسامة ساخرة ..

وجرت عين القاضي فى الملف كعادتها وسأله دون أن يرفع وجهه :

ـ أيه قولكَ فى التهمة .. سرقت الوزة ؟

كان القاضي قد نسى القضية الأولى

فقال له داود وهو فخور بأن يصحح للقاضى خطأه ، ولو على حسابه :

ـ ياسعادة البيه ، انا المتهم فى الحشيش وقضية سرقة الوزة هى اللى حكمت فيها قبل كده .. معـــاذ الله اكون حرامي ، واكون دنى أسرق وزة .. ليه مش لاقى آكل ، انا صحيح مضبوط بالحشيش وقســـمتى

كده .. لكن بشرفى لما ضطونى الدور ده ماكانش معايا حشيش ، الجاويش هو اللى حطهولى فى جيبى ..

قال القاضى مقاطعا :

ــ بس .. بس .. هى حدوته

وقام من فوره ليقدم تقريرا يلتمس فيه الغاء الحكم الذى اصدره خطأ .. بسبب الحاح المحامين وارتفاع برج بيزا ..

***

كسبت اول جناية وخسرت اول جنحة

لم يكن محرما على المحامين تحت التمرين أمثالى فى اول عهدي بالمحاماة المرافعة أمام محكمة الجنايات اذا كانوا يتكلمون نيابة عن محام مقيد امامها ، وقد وجدتنى ذات يوم مع الاستاذ الأول ــ صاحب « اناطول فرانس » . فى محكمة الجنايات بالاسكندرية ، منعقدة برئاسة المرحوم طلعت باشا . وكنت أحب هذا الرجل وأتتبع باعجاب شديد أسلوبه الناصع الذى ينم عندى عن ذهن صاف ونفس سمحة (وقد شغفت فيما بعد بالمقارنة بين هذا الاسلوب وأسلوب عبد العزيز فهمى ، تميز هذا الأخير بالمنطق العلمى الجاف والبراعة فى اثارة الاعتراضات ــ أحيانا مفتعلة ــ لاظهار براعة اشد فى الرد عليها وتفنيدها) . ونودى على قضية ، المتهم فيها أعلن عن فقره وعجزه عن توكيل محام له فندبت المحكمة له محاميا للدفاع عنه بالمجان ، وكان المحامون يضيقون بهذا التكليف كل الضيق ، ولا يخصون هذه القضايا بكبير

عناية .. فلاعجب أن غاب هذا المحامى ، وزاغ، ولعل طلعت باشا كان قد قرأ القضية وعرف أن التهمة واضحة البطلان لا تحتاج الى « لت » أو « عجن » ، فود أن يفرغ منها دون تأجيل ، وطلب الى الاستاذ أن يتطوع بتصفح الملف والدفاع عن المتهم .. وظن الاستاذ انها ورطة ، فهدته حيلته أن يورط فيها تلميذه فدفع الى بالملف وقال لى : « هذه فرصة فريدة تسنح لك بالمرافعة أمام محكمة الجنايات ، هنيئا لكَ يابختك » .

كنت أدافع عن رجل لا أعرفه ولم أقابله ولا أدرى هل هو خفيف الدم أم ثقيله ..

نظرت الى قفص الاتهام ، أتأمل شابا طويل القامة مفتول الذراعين ، ضيق الصدر أسمر الجبهة ، نظرته مكشوفة غير متهيبة ورأيته بدوره — حين عرف أننى ساتولى الدفاع عنه — يتأملنى بنظرة مبتسمة ليس فيها خوف أو غضب ، فرددت أبتسامته بابتسامة ارشق منها كأننا من أعز الاصدقاء ، قرأت الملف على عجل فاذا بى أتبين ان هذا الشاب القوى عرض للخطر ذات يوم حياة سكان حى بأكمله ، كأنه احقر من الميكروباس ، كالطاعون أو الكوليرا .. كان يشتغل صبى فرن ووقعت الشحناء بينه وبين المعلمة ، فلما انتهى ذات يوم عجن العجين وتهيأ العمال لقطعه أرغفة وخبزه رش خلسة على العجين كمية من مسحوق التوتيا الخليلى ، وانصرف لا يهمه أن يهلك الالف من الناس الغلابة حين يأكلون هذه الارغفة المسمومة .

ونوديت المعلمة ، فدخلت امرأة نصف لها وجه فتاة، وجسد برميل وصوت القنوع المحتج بأنه لم يأثم اذا طلب

من الحياة ما تعطيه لأمثاله ، لا يطمع فى زيادة فمن العدل الا يكون نقصان .

علمنامن شهادتها أنها ورثت الفرن عن زوجها المرحوم وروت لنا القصة فى كلمة ونصف ، فهى سـيدة عملية عاقلة ، ثم التفتت الى قفص الاتهام فرأيت نظرتها ترق رقة الأم لطفلها وقالت :

ـ انا مسامحاه .. المسامح كريم .. وعاوزاه يرجع لشغله ..

نظر الى طلعت باشا بابتسامة حلوة ملؤها التشجيع والسرور ، يعد نفسه للتسلى بمرافعتى ، يتساءل فى مرح ماذا عساى أن اقول .

فكت هذه الابتسامة عقـدة لسانى ووثبت روحى اليه . اننى أومن بأن الفكرة مخلوق حى ينتقل بوسيلة لا نعرفها من راس الى راس ، ولو فرقت بينهما أبعد المسافات ، اننى واثق أن فكرته عن القضـية دخلت رأسى .

قلت كلاما لم يزد عن دقيقة واحدة ، وجلسـت ، وانتهت أول مرافعة لى أمام محكمة الجنايات . « ياسيدى الرئيس ياحضرات المستشارين »

هذه الجملة وحدها هى نصف المرافعة .

لون المادة لا يخفى عن العيون .. ليست هناك نية قتل .. بل مجرد اتلاف أشياء منقولة وهى مخالفة ، لا جناية . أطالب بالبراءة .

احتفظ طلعت باشا بابتسامته ، وخيل الى انه أحس بشىء من خيبة الأمل لأننى لم « أهجص » . فيضـحك

على ، ونظر الى بسرور وحنو وهز رأسه ، ثم أدار وجهه يمنة ويسرة ـ لا للتشاور بل لمجرد تقابل النظرات مع زميليه ـ ونطق من فوره الحكم بالبراءة .

من سماحة محكمة الجنايات وهى أكبر محكمة الا تحكم فى المخالفات ولو كانت ثابتة . فهذا لا يليق بها فاذا كنت متهما فى مخالفة ، فخير لك أن تخطىء النيابة فى حقك وتحيلك على محكمة الجنايات متهما فى جناية باطلة .

لما خرجت من المحكمة رايت عن بعد المعلمة والفتى يسيران جنبا لجنب وهو محنى الراس الى الارض وفى يده سيجارة وهى ـ لانها تمشى تهتز على الجنبين ـ تصدم كتفها فى كل خطوة كتفه صدمة خفيفة . انشرح قلبى لهذه الذبذبة اللذيذة وشعرت أن الصلح قد عقد ، وان استئناف العلاقات مضمون ولو الى حين .

ومن العجيب اننى انتظرت فى اليوم التالى أن يزورنى هذا الفتى ليشكرنى ولكنه لم يفعل .. لم أره قط ومع ذلك عشت أياما لا أبدأ الأكل من رغيف الا اذا فتحته أولا ودققت النظر فيه ، فانى لا أعرف عدد معلمات الأفران الارامل فى الاسكندرية .

***

نسيت مهنة هذا العامل الفقير الغلبان ، وانما لا أزال اذكر راسه المكور ووجهه المرسوم بالبرجل وعينيه المستديرتين . لا عجب ان وهبه الله ـ فى شكل علامة استفهام ـ اذنين كبيرتين نافرتين كمقبضى ابريق شاى ، يخال لك انك تستطيع أن تمسكه من احدى هاتين

الاذنين ــ فهو قصير نحيف له يد عظـــامها قراقيش ــ وترفعه عن الأرض فيرتفع ــ كالعلقة ــ ممك ويدور جسده دون أن يهز ساقيه .. لأنه فارغ وكلامه فارغ ، ومـــع ذلك لا ينقطع عن التحدث عن نكبته .

يجد لذة كبرى فى أن يروى للناس جميعـــــا كيف اكتشف ان زوجته تخونه .. مالك والزواج يابطــــل الابطال ؟ المصيبة ان بعض الناس يظنون أن الزواج ستر شرعى دائم ــ لافضح على عاجل لضعفهم الجنسى .. وما الدليل على الخيانة ؟

لم يقل انه شك فى مسلك زوجته ، او ان الفار لعب فى عبه ؛ أو انه ارتاب من قبل فى غريم معين واحـــكم مراقبتهما فضبطهما متلبسين « فرقعهما » علقة ســخنة أو سلمهما للمحاكمة والفضيحة بجلاجل ، بل نكبتــه الكبرى التى يضرب من اجلها كفا بكف انه كان يعيش فى غفلة .

احتاج ذات يوم الى « رخصته » التى يصــــونها فى غلاف من الجلد ، فعاد مسرعا الى البيت ، والبيت حجرة معتمة فى بدرون رطب ، ومع ذلك يزحمها سرير عال من الحديد الأسود تعمم قوائمه ــ والظـــاهر أن الزوجة لا تخشى البوليس ــ اربعة عساكر مبعجرة صفر مزنجرة .. بحث عن الرخصة فى سلقط ملقط لم يجدها . وأخيرا طوى مرتبة السرير ، فاذا به يجد تحتها رخصة من نوع آخر .. كرت بوستال لصورة رجل فتوة مبروم الشارب يجلس على مقعده منفوش نافخا صدره ووراءه تقف فتاة كل جمالها من رونق الصبا تضع يدها فوق كتف الاسد، وتعدل ضفيرتها من وراء الي صدرها لتلمس ثديها .

عرفها أولا من ثوبها الذى أقامت لشرائه القيامة .. انها زوجته بعينها . دقق النظر فى الرجل فعرف بعد تلبث جاره الجزار الفاتح دكانه أمام باب البيت . ومما اطال تأمله انه لم يره قط فى هذا الثوب غير الملطخ بالدم .. انه يحتجزه للمواسم والاعياد والفنطزية .

لا ادرى ما الذى حدث بعد ذلك ؟ .. ولكن الشىء الذى لا ريب فيه انه لم يشتك للبوليس ، ومضى يروى نكبته لعموم الناس .. حتى فوجىء ذات يوم باعلان من زوجته تطالبه امام المحكمة الشرعية (هل لها عين فتمثل امام قاضي الشريعة ؟) بدفع نفقة مسكن وملبس وطعام واكدت انها حبلى ـ فوق البيعة ـ عندئذ ثار الرجل لشرفه . لم يبق الا أن تبتز هذه الفاجرة ماله ! .. فى اغلب قضايا الاعراض تتحول سريعا الكرامة المثلومة الى نزاع مالى .. كأن الاستغفال فى المال اشد وقعا على النفس .

نصحه سماسرة القضايا بأن لديهم حيلة تفسد حيلتها وفجرها . ماعليه الا أن يرفع دعوى جنحة مباشرة لاثبات جريمة الزنا ، فان الحكم بالادانة يسقط النفقة وقد يسقط الولد أيضا .

وجرجروه الى المكتب ودخل علينا مشهرا الصورة يرفع بها ذراعه ، فتخاطفتها الأيدى حتى الكتبةوالفراشين وامنا نحن على قول السماسرة ورفعنا الدعوى باسمه .

تعال نحتكم للمنطق .. ان خروج الزوجة مع عشيقها وذهابها الى المصور نتيجة لخلوة داعرة من قبل لاشك فى ذلك . ان هذه الصورة هى عادة تسجيل لشىء حدث . ولكن قانون العقوبات لا يعترف ـ والحمد

لله ــ بهذا المنطق .. انه يتطلب لاثبات جريمة الزنا شروطا قاسية .. أن تضبط متلبسا ، أو أن تضبط لك خطابات بخط يدك فيها ذكر صريح للعلاقة الآثمة، او ان تعترف طواعية واختيارا .

واذ كانت الدعوى خاسرة فقد بعثني الاستاذ للمرافعة فيها .. فقلت في ختامها : اذا سمحنا لقانون العقوبات ــ وهو مستمد من منطق الناس ــ أن يعبث كما يشاء ويهوى بهذا المنطق فانها مصيبة كبيرة لا نعرف عند أي حد تقف .

لا مصيبة ولا غيرها .. كان تعليق القاضي على هذه الفلسفة ان حكم من فوره بالبراءة ، وخسرت أول جنحة ترافعت فيها . وخرج الزوج يقول لي :

ــ يخلصك كده ؟

لم افهم هل يشير الى زوجته أم الى القاضى . غير انه ــ لطيبة قلبه ــ لم يوجه الى كلمة لوم واحدة ، فاسرعت أبتعد عنه وانا أقول له :

ــ لا تسكن مستقبلا امام جزار !

***

ليس فى ذهنى عن الاسكندرية ، ودمنهور ذكرى قضية كبيرة . لو تركت لشأنى لبقيت حيث كنت وان لم أفز بمجد او بشهرة أو بمال عريض . فان الخروج من مسالك أصعب بكثير من الدخول فيه .. ثم اننى أكون أضيق صدرا بالعزال والتبديل والتغيير ، ورحم الله المتنبى صاحب البيت الخالد :

خلقت ألوفا او رجعت الى الصبا
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

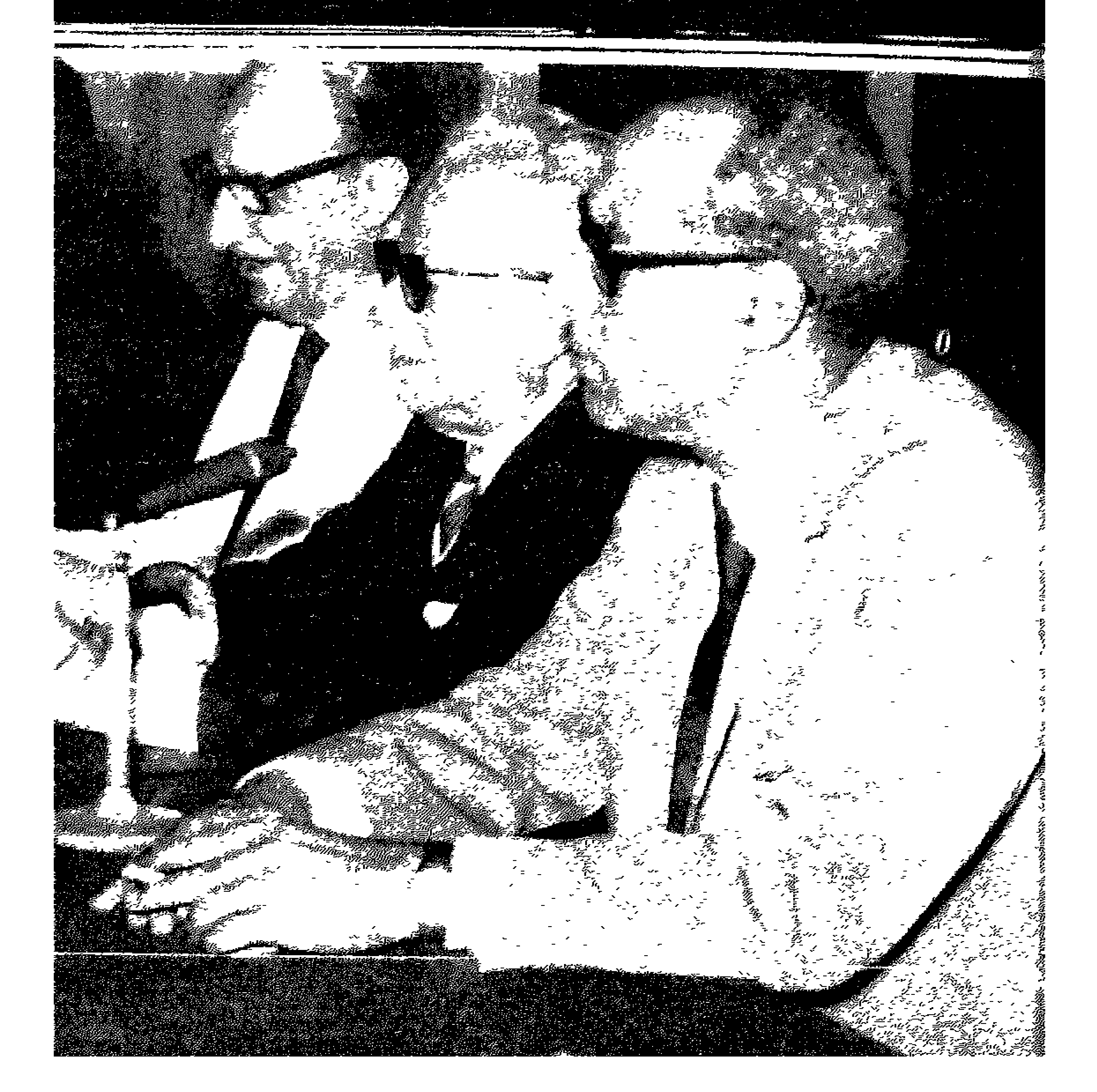
لم يمض على اشتغالي بالمحاماة أكثر من ثمانية شهور حتى بدأ القلق على مستقبلي يساور أهلي ، وبدا تراب الميري يملأ خياشيمهم ، فتعرضت لضغط شديد خوفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول ــ من اجل أن ارضى بوظيفة في الحكومة . لم يجدوا لي ــ بعد الوساطات والشفاعات ــ الا وظيفة معاون ادارة . وكانت وزارة الداخلية قد بدأت منذ عهد غير بعيد تطعم وظائف المديرين بالقضاة والمستشارين ، فادوا في عملهم الجديد اجل الخدمات ، ورفعوا مكانة المنصب ومستواه (وهو الآن يعاني من حرمانه من هذا التطعيم) .. كما رغبت حملة الليسانس ــ وقد أخذ عددهم يزداد ــ للعمل في السلك الاداري بانها سوف تضعهم في درجة يساوي مرتبها مرتب معاون النيابة . والناس تردد مثلا غريبا يقول « غضب الله على اثنين محضر محكمة ومعاون ادارة» وأن هذه الوظيفة اقل كرامة من وظيفة النيابة ، فلم أقبل المنصب الا صاغرا مستسلما . وقد عانيت فيه مشقة كبرى ، وامتحنت امتحانا عسيرا عرفت فيه الغم والهم والحسرة والألم .

ومع ذلك كان له أكبر الفضل في ان أعرف بلادي واهلها وأخالط الفلاحين عن قرب . وأعيش في الحقول بين نباتها وحيوانها ، وآكل بصلها وسريسها ، بل انني وجدت فيه سعادتي عندما أصبح الحمار يزاملني طول النهار .. نعم وجدت سعادتي مع الحمير . تسلمت في أول يناير سنة ١٩٢٧ عملي معاونا للادارة في مركز منفلوط .. فالى اللقاء هناك . *

*١ «الجمهورية» : ١ / ٥ /١٩٥٩ ، ص ٥

الباب الثالث

وجدت سعادتى ..
مع الحمير !



حين نزلت الصعيد لم افهم لأول وهلة قول محدثي عن رجل من الأعيان انه « حمار » ـ بميم مشـــددة . ظننت والكلام عن غائب قد تحول كالعادة من الاستفتاح بالمدح الى التثنية بالذم والسب ، فلما تلجلجت فى الرد أردف يقول عن صاحبه : انه أكبر مالك للحمير فى المركز وأن ربحه واسع مضمون .

ادركت ان كلمة « حمار » هى عندهم ترجمة لكلمة مليونير .. وأنها عنوان صناعة من أهم الصـــناعات ، احفادها فى الوقت الحاضر شركات النقل باللوريات .

لم تكن هذه الصناعة تعنى بنقل الناس ، فالفلاح يمشى وان طلب مطية ركب حماره أو حمار جار ، له ظهره كله أو نصفه الخلفى ولا يركب بالأجر . أما الأفندية الموظفون فمن الضرائب المفروضة على العمدة أن يوفر لهم حمارا سيره اما رخاء كبساط الريح واما عـــذاب تفك قلقلته كل المفاصل .. حسب المقام وطمع العمدة فى راكبه ، أو يشتركون هم والغرباء فى ركوب عظـــام حمارين او ثلاثة تقف بالمحطة ويرتزق منها رجل فقير، يزيد دخله اذا تكفل أيضا بتوصيل الخطابات والبرقيات الى القرى ويسمى حينئذ بالطواف .

وانما تعنى هذه الصناعة بنقل محاصيل الحبوب .

فهذه الأكوام المكدسة المتناثرة فى جنبــات الوادى بين الجبلين من القمح والذرة والفول والشعير .. لا وسـيلة لنقلها الا بأكياس على ظهر الحمار ، حتى لنحسـب ان الحمار قد مد من عموده الفقرى شريطا لسكة حديدية تجوس خلال القرى وتعبر المصارف والترع والوهاد بلا جسور ، من ينقلها غيره ؟

ان جسمه مفصل (على الضيق) فلا يضيع عنـد حمل الكيس فضل ، ظهره فى مستوى يد الانسان ، خفة وزنه تعينه على هبوط الأخاديد وتسلق جوانبها ، له حافر دقيق ـ اذا قارنته بخف الجمل أو حافر الجاموسة (البرطش) ـ يتشمم ويبصر المطبات ويختار من بينهـا مسلكا ، فكأنما يمت للماعز بنسب .

يمشي على السن ويستند الى شظية حجر ، حين تجف الأرض وتغطيها شبكة من الشقوق ترسم جزائر صغيرة فى حجم الكف ينخفض سطحها ويتكسر اذا ديست .. أنظر الى الحمار حينئذ كيف يتحسس طريقه ، يمرق من المآزق ويثبت عند المزالق ، قوائمه طوع أمره كالخيزران . له جلد على الجرى ، ويحفظ الطـريق ، ينتظم فى القافلة لا يربكها . لا يعرف الجموح ولا يقفز خوفا من خيـاله كالحصان الاسترالى الذى عرفته دورية المركز . غلبان يبلع الاهانات ، بخس الثمن نادر الأمراض ، لا تنتفخ بطنه على ندى البرسيم كما تحدث للجاموس . لا يجر صاحبه الى الترعة ، بل اذا طلب الاستحمام سار وحده ليتمرغ فى التراب .

عاشرت الحمار سنتين ، أركبه من مطلع الشـمس لغروبها وكنت أول العهد به أطالب مع البردعة بالجام وركاب

اوهم نفسى اننى من الفرسان ، والحقيقة أننى أتعلم الركوب ، اطلب اللجام لظنى اننى اتحكم به فى الحمار فكان تحكمه فى اكثر ، والركاب لأمنع سماجة تدلدل القدمين على الجانبين ، واتقى الانزلاق عن يمين أو شمال. ولكن كيف افعل ؟

لابد لى ان احمل مظلة والا انسلقت فى الشمس ، ومنشة من ليف النخيل وآلا انفلت منى عيار شفتى ولسانى وخدى وحاجبى ورمشى ومفصل رقبتى ان أردت ـ ويداى مشغولتان باللجام والمظلة ـ أن أطرد ذبابا لحوحا كالشحاذين يرشق وجهى ويحط عليه ليتخذ منه ساحة للعبة (الاستغماية) . أما العصا فوزرها تركته لصبى ليجرى ورائى .. بعد قليل تنازلت عن الركاب كبقية الناس .

نخرج من المدينة ونسير قليلا على جسر (الابراهيمية) ثم نعرج الى سطح صليبة حوض ، وهى تل من تراب يتلوى وسط الغيطان كالثعبان ، يكون الجبل امامنا تارة ، أو عن يميننا او يسارنا تارة أخرى ، وكان رأسى يصيبه الدوار أول الأمر . من حوالينا غيطان متشابهة تمتد الى مرمى البصر ، كأن صوتا خفيا مرهوبا أمر الدنيا بالصمت ، حينئذ كنت اخلو الى صاحبى . لم أر كالحمار حيوانا تحس انه أدرك انه اسقط فى يده ، أنه لم يقبل قدره عن عمى وغفلة أو تدليس عليه ، بل عن بصيرة وفهم بعد أن وازن بين حيلته وقدرة ظالمة ، وقاده ذكاؤه العملى الى الاقتناع بأن كل أمل قد مات ، وأن لا فائدة ترجى من الثورة أو اللجاجة أو العناد ، فوضع ارادته وغرامه وبهجته ومرحه وحبه للعب والمعابثة فى

حزن مكتوم فى قلبه ، واحنى راسه واذنيه وسبل ضهره ، واستسلم بلا قيد ولا شرط .

قال لنفسه : « فلتحسبن أن الذى يعيش فى جلدك هو حمار غيرك ، ولتبق لى روحى لا يعلم بسرها الا خالقى » ... للبقرة عين غارقة فى أحلام لذيذة ، وللجمل عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنما يخشى ان تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء ، وللحصان عين تنم عن الخيلاء والنبل والذكاء ، تعكس الضوء بالليل فتتقد كالياقوتة الحرة ، وللتيس عين فيها العناد كله واضمار الخبث والمؤامرات ، وللجاموسة عين منطفئة لا تنبعث منها حياة او ارادة الا وهى أم ترضع طفلها فينعقد سباتها على الحنان . لم أر جاموسة تنطق بمعنى الا مرة واحدة لا ازال اذكرها ، كانت تسير تبرطش فى الطريق وتخلف عنها وليدها . فوقفت وأدارت رأسها الى الخلف ونادته اليها بخوار غليظ ، ساحدثك فيما بعد عن جاموسة تحتضر وتنظر الى صاحبها وفى يده سكين ، أما الحمار فان عينه ذابلة حزينة ، تكاد تترقرق فيها الدموع ... بل يخيل الى فى بعض الاحيان انهما (معصمه) كعيون الاطفال بعد بكاء ، اهذا هو سر نهيقه؟ ليس فى صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة ، انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد للناس فى نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء ثم تذوب كأنها لم تكن .

احس بمكنون طبعه حين اراه وحده من سائر الحيوان يعلن عن شبقه بلا حياء ، ويلاحق الانثى فى الطريق علنا بارادته ، لا ينتظر حتى يساق ذلولا الى موعد غرام مرتب له من قبل .

ثم هو وحده يفعل هذه الفعلة .. اذا مر بنا جمل محمل بالبرسيم لا تثنيه قوة عن أن يطعنه بخطمه ، وقد كشر عن أسنانه الغلاظ ونهشن منه نهشة يتمثل فيهـــا الغيظ والفوز بعد لاى باستخلاص حق مهضوم من يد غاشم سافل شحيح . أنه يعرف صاحبه ولكنه يتجاهله، المفاوضات بينهما مقطوعة والود مفقود . لا يريد الا ان يفرغ من امتهانه ليخلو الى نفسه ، ناعسا مطاطىء الراس مسكينا تحت سقيفة فى مدخل السوق ، اذا ربت على ظهره ورقبته احسست كم هو طيب وديع وكم هو محتمل لذله بصبر واستسلام .

وراء منزل خرابة لها سور خشبى غير مرتفع يطلق فيها احد جيرانى حماره عند الغروب ، وكنت الحظ كل ليلة حمارا ثانيا ياتى من بيت فى الطـرف الآخر يسـير الهوينى كانه يتنزه ، ثم يقف جنب زميله وبعد معابثة خفيفة بالاسنان يمد الاثنان رأسيهما خارج الحاجز كما يفعل المطل من النوافذ ، ويلبثان هكذا برهة ينظــران للطريق والمارة ثم يمضى كل منهما الى حاصله .

حمار الأجرة

على المحطة حماران للايجار ، غششت فى أول الأمر فاخترت أكبرهما جثة ، حسبته اقوى على الجرى من زميله القزم الأغبر ، هو أبيض اللون ، على ساقيه وظهره لطخ من الحناء ، أذناه متدليتان على صدغيه كمقاصيص بنت البلد ، ولكنه لم يكد ينفلت من مرمى بصر المعلم بعد

ان ودعه بطرقعة من لسانه على سقف حلقه « تشك » ، نبها تحذير وتنبيه لتقديم حساب عند العودة ، حتى نسى الدنيا ومشوارى وتهديد المعلم ، وأبى الا أن يسير كما يشاء هو ، كأنما يفرز قوائمه فى عجين ، عظمتا كتفه ، فهو موتور من سلندرين ـ تعلو واحدة وتهبط اخرى وأنا أتأرجح فوقه .. كل ضربة عصا وراءها خطوة واحدة سريعة ثم تعود ريمة لعادتها القديمة ، استنفدت أنا والصبى كل الفاظ واصوات الحث على المشى حتى جف ريقنا ، بلا فائدة . أسلمت أمرى لله واعتمدت على يدى أضغط بها فوق البردعة لأخفف اهتزازى .

واصبحت أتجنب هذا الحمار وارفضه، لأننى جربت بعد ذلك ـ وليس لى خيار فهما حماران لا ثالث لهما ـ الحمار القزم الأغبر الذى احتقرته أول يوم ، فوجدته ذلولا يقطع الأرض فى حركة لا أدرى لماذا تذكرنى بيد غسالة عفية تفردها وتطبقها على القماش فى الطشت فى حركة متشابهة . اياك ان تستهتر بالأقزام فى الحمير والناس ..

وذات يوم خرجت لأمر عاجل فلم أجد الا الحمار الأبيض . ياللوقعة السوداء .. أين صاحبنا الأغبر ؟ انه خرج فى مشوار ولن يعود الا بعد الظهر ، ما العمل ؟ رضيت بقسمتى وركبته وأطلق المعلم ورائى صبيا جديدا لم أكن أعرفه ، دهشت حين وجدت الحمار يقفز لكل زقة من العصا خطوتين بدلا من واحدة . لم أفطن أول الأمر للسبب ، ولكن شيئا فى قلبى انزلنى عن الحمار وتناولت العصا فاذا بى أجد ان هذا الصبى قد ثبت فيها مسمارا حادا ليغرزه فى لحم الحمار المتعب ، ثارت نفسى لهذه القسوة الحمقاء الغاشمة الا اننى عجبت وأنا أقارن

بين فعل الذل فيالحمار : لا يزيد على مقاومة سلبية وفعلة في هذا الصبي ، انه يخاف أن يضربه المعــلم اذا تأخر عن موعده المرسوم ، وكان خيرا له أن يسير الحمار هــذه الخطوة البطيئة لئلا يلهث وراءه ويتصبب عرقا وله في شاهد يستغفرله ، ولكن الذل جعله يتطوع بالشر والحاق الأذى بالغير ولو اضرارا بنفسه ، وهكذا يصبح دائمــا الصبي الأذل أشد قسوة من المعلم الظالم .

اخذت بعد ذلك انتبه لجروح الحمير تحت البردعة وعلى السيقان ، واعرف من عذاب الحمير هذه الذبابة اللعينة التي تعشعش في منخره فتخرجه عن حلمه ويكاد يجن ، والحمد لله أن ليس لذنب الحمار اذا قطع منفعة، والا تعرض لما يحدث للخيول في الاســــطبلات من اغارة اللصوص عليها بالليل يقطعون ذيولها بالموسى لينتفعوا بشعرها ، ولكن الحمار يعرف بالليل في بعض القــرى أعتداء اخس على يد بعض شبان مرضى تختلط في قلوبهم الحماقة والبهيمية والكبت وحب العبث والاســــتهتار والمباهاة بالمخاطرة والجدعنة .

حرت كثيرا في أمر هؤلاء الصبيان لا يزيد عمر الواحد على السابعة أو الثامنة ، يجرى ورائى طول النهار ، لفلفة الصليبة قد تعينه على اختصار بعض الطريق ، فما نكاد في اتجاهنا غربا نصل الى منعرج يسير بنا جنوبا شــوطا طويلا ليرتد من جديد شمالا الى مكان لم يقربنا نحو الغرب الا مسافة قصيرة حتى يتركنى الصبي بلا استئذان وأراه يتدحرج (كالبلية) على الجسر ويشق الغيطان ويغيب عنى شبحه ثم القاه جالسا على الأرض يترصدنى حيث تنتهى هذه اللفة الفارغة ليستأنف الجرى ورائى ، والى اللفة القادمة فيها فرج .

اتحدث اليه طول الطريق . نهم للمعرفة يتخفى تحت وهم التطوع كرما بتسليته لينسى بلاءه . ولعله يلعننى لتنشيف ريقه بالكلام أكثر مما هو ناشف من الجرى واللهثان . اغلب كلامى غير مفهوم له ، ومعظم ردوده مقتضبة لا استخلص منها ما اريده الا بعد الحاح واستفسار . اذكر أننى هفوت مرة وقدمت للصبى قطعة من الشيكولاتة ولكنه رفضها بشدة ، حسبته أول الأمر يتابى ، فاذا بى لشدة دهشتى وفزعى أجده يقول :

ـ حسك تكون حاطط لى فيها حاجة ..

ياخبر ابيض .. كنت أظن أننى اكتسبته كصديق فاذا به يتهمنى بحيازة المخدرات أو لعله لا يستبعد على هتك الأعراض .

وفى قلب الفلاح ريبة متأصلة من الغرباء ، وريبة اشد ـ فى ذلك العهد الأغبر قبل الثورة ـ اذا كان الغريب من طبقة الأفندية الموظفين ـ سيأتى كلام عن هذا فيما بعد . أعود بالذاكرة الى القاهرة واسترجع صورة هذا القروى عند محطة الترام ، يتقدم الى بحذر وحياء وأدب يسألنى : هل يمر من هنا الترام الذاهب الى « الامام » ؟ فأجبته بكلام لا ألويه بل أضمنه كل ما فى قلبى من حنو :

ـ نعم ، يمر من هنا ، وقف مكانك بجانبى سأرشدك اليه حين يأتى . يتخذ جسمه هيئة من اطمان وسكن وانفرجت أساريره وبلع ريقه . ولكنه كاذب ومخادع ، بعد قليل يشيح عنى بوجهه ثم ينسحب ، جسمه متمسكن مضعضع كأنما يحمل أثقال الأرض كلها ، ويبتعد خطوتين ، ويختار رجلا آخر ، أسمعه يسأل بصوت خفيض حتى لا يبلغنى :

ـ هل الترام الذاهب الى « الامام » يمر من هنا ؟

أرجو ان يصدقني القارىء اذا قلت له انه لا يكتفي بشاهدين بل يذهب لثالث . كنت فى ذلك العهد اسأل نفسي : ما معنى هذه الظاهرة وما تفسيرها ؟ انها شيء مخيف .

ويأتى الترام رقم ١٣ فلا يستطيع الرجل ركوبه لارتباكه بين الصاعدين والنازلين ولارتباكه الأشد بين الريب والشكوك .

هـذا الصبى الذى يلاحقنى زحيرة ، لو سـمحت نفسى الشحيحة لاستأجرت له حمارا حتى تنجو أذنى من عذابها ، ولكن هيهات .. لا لأننى اخشى اتهامى بالشذوذ والحمق ، بل لاحساسى بأن فعلتى ستكون بمثابة جنيه واضح التزييف يعرض على اناس يتعاملون بالملاليم وانه كلام فارغ وبذخ .. لو زرعت فى الأرض الجدباء عود وردة لاجتثته من فورها يد الاملاق .. انه قذى للعين وخلل يزعزع الطمائينة لعرف مالوف . وقد غلبنى الخجل ذات يوم فأردفت الصبى ورائي ـ قسوت على الحمار لأرحمه ـ فما كدت ادخل القهوة بعد عودتى عند المسـاء حتى وجدت الخبر قد ذاع فى المركز كله يتبادله الناس كأنه نكتة ، علا الضحك والقهقهة ، واستقبلنى المعـارف والغرباء بابتسامة ساخرة . فكانت توبة نصـوحا ، والغريب أننى لم البث طويلا حتى ألفت اذنى سـماع الزحير ، ولم أعد أبالى به . وصحب هذا التحول فى طبعى جرى لسانى لأول مرة فى حياتى بأقذع الفـاظ الفحش والسباب كما سترى فيما بعد .

الحمير درجات

والحمار جعله الانسان على درجات ، أدناها حمار السبخ ، لا يطلب منه أن يجرى ، بل له - ان قدر - ان يمشي كما يشاء ، فيمشى يربط عظامه بعضها الى بعض خيط واه ، مشية أجرب يحك بيد خفية قروحا بعيدة على جسده لا يبلغها الا بعد مشقة وتلو ، يجند لهذه السخرة حمير اشلها الضعف أو الكبر أو السقم ؛ ودعت الدنيا لانها لا تعيش الا على هامشها .. منهوكة القوى عاجزة حتى عن الأنين ، لا ينطق منها حمار بمعنى واحد يدل على انه حي .. فى بعض الاحيان يضع الصبى الفلاح وهو يسير بجانب الحمار ذراعه على كفله ، أظن ان هذه اللمسة - رغم ثقلها - هى صلته الوحيدة بعالم الشعور ، لا يجد فى غيرها الفا أو شفاء من الوحدة والضياع .

والدرجة الثانية هى حمير الأجرة بالمحطة ، لا تعرف الراحة ، تعتصر قواها الى آخر قطرة كما يستنزف دم الذبيحة ، يقاس طعامها بالدرهم بمقدار ما تبذله من جهد لا بمقدار جوعها ، هى اكثر الحمير اصابة بالجروح وبخاصة على سلسلة الظهر تحت البردعة ، فلا تشفع لها ، كل علاجها أن تكتم - حتى لا تتبين لأعين الغرباء - بدهان من الحناء أو الطفل ، هيهات أن تخفى احمرار لهاة الجرح . فى حياتها معالم واضحة الصورة ، أولها (المعلم) وهى تعرفه وترهبه وتكرهه وتذل بين يديه

وتفهم كلامه ، وان زعمت أنها تجعل أذنا من طين وأذنا من عجين ، وثانى العالم (صبى المعلم) يسترد معه الحمار بعض ارادته فان أذاه لا يتضمن الارهاب بل القسوة وحدها ، فلكل هجوم من الصبى دفاع معد من الحمار ، وقد رأيت الحمار ينتصر كثيرا على الصبى ويرغمه على الرضا بجهده المبذول لا يطالبه بمزيد هو قادر عليه .

وثالث العالم هو الطريق ، فانه ما يكاد يوضع فى أوله حتى يعلم الى اين ينتهى ، وتحس من مشيته وحدها ما اذا كان المشوار طويلا أو قصيرا .

لذلك كان حمار المحطة أكثر الحمير مكرا ، هو ابن سوق محنك بالتجارب ، له طبع ينفرد به عن غيره ، ويحدث كثيرا أن يطلق المعلم على الحمار اسما — لا أدرى لماذا كان اسم (سماره) أحب الأسماء اليهم — وانى أجزم عن خبرة — وان حسبتنى مخرفا — ان الحمار يعرف أنه صاحب الاسم ، وأنه يجد فيه — كما يجد فى طبعه ونوع مكره — مقومات استقلاله عن غيره .

ثم يأتى بعد ذلك حمار الفلاح .. ركوبته الخاصة ، وقد وجدته — رغم أنه يكون احيانا ضخم الجثة — طيب القلب وديعا فيه كثير من عباطة السذج لأنه يعيش — وان فى شظف — بين أحضان أسرة كواحد من أفرادها ، واذا خرج عن دائرته بدا عليه شىء من الحيرة واحتاج الى شىء من الوقت ليعرف ماذا يراد به والى أين يقاد . انه لا يحتاج من صاحبه الى كثير من الزجر والحث ، بل يبذل له — طواعية — غاية جهده ، وهو قدر حددته العادة ومألوف طبع صاحبه وصلح بينهما منذ قديم . وهذا سر اضطرابه أول الأمر اذا ركبه غريب .

على رأس القائمة حمير تعد من الطبقة الارستقراطية، لعلها أوشكت الآن على الانقراض فى الريف ، ولكننى لحقت فى ذلك العهد أواخر سلالتها ، يهيم بعض الأعيان اصحاب الأطيان من أجل راحته وأشباعا لزهوه وتدليلا على مكانته بأن يكون له حمار فاره قوى ، منتصب الرقبة مرفوع الرأس ، راقص الخطوة ، أكحل العينين ، له بردعة من جلد ثمين أو من قطيفة لها زينة كثيرة ، ولجام وركايب ، ويضن به الا على كبار الحكام ، أكله موفور وتعبه قليل ، اذا حمل صاحبه الى المدينة أو انتظره على المحطة رمقته الأبصار ، وان سار به الى الغيط صدرت من فوقه الأوامر من تحت المظلة مؤيدة بعلو المقام .

ينبغى أن أعترف لك بأن هذا الأرستقراطى لم يثر انتباهى اليه كثيرا .. أعلم أنه سعيد بلحمه وشحمه .. والسعادة وان كانت مطلبنا الأسمى الا أنها ــ على خلاف الشقاء ــ قضية واضحة ليس لها ظاهر وباطن ، ان نكشت فيها لم تخرج بسر أو عجيبة ، ومن دواعى الحيرة أنها لا تباع الا بثمن واحد .. هو التفاهة ..

مدرسة الحمير

ولكن لا تحسبن ان هذا الحمار الأرستقراطى يولد هكذا ، فانه حينئذ لا يختلف عن بقية أطفال الحمير .. شعرها لا يزال زغبا ناعما ، لها شوشة منفوشة فوق جبهتها ، كأنها حملان كبيرة ، ضخامة الراس اذا قيست

الى البدن علامة هذه الطفولة وكأنها تعدنا بعقل جبار ، وستصحح النسبة عند البلوغ ، حياتها قفز ولهو ولعب .. المفاصل مركبة على صواميل لا تزال لينة فالخطوة فوضى ، ستفسد فيما بعد ما فرط من الحرية وتتخشب ويصبح الظهر لراكبه من ألعاب العذاب فى لونابارك .. حينئذ ينبغى انقاذ ابن الأكابر من هذا الخطر الداهم ، آن الآوان لارساله للمدرسة لتعلم المشى ، لا المشى الذى يريده هو ، بل المشى الذى يريده له الانسان .

نعم .. وجدت للحمير مدرسة عجيبة يديرها رجل فى احدى القرى اسمه الشيخ شعبان ويجعل منها أكبر مورد لرزقه ..

وهى مدرسة مختلطة ، من تلامذتها الخيول ، التى يطلب أصحابها ان تمشى مشية الرهوان ، وأغنياء الفلاحين مغرمون بهذه المشية غراما شديدا ويرونها ليس مثلها علامة على الأناقة والصبونة ، وهى مشية تحتاج الى تعليم طويل، وتدريب أطول لا يحسنه الا المتخصصون أمثال الشيخ شعبان .

ومن تلامذتها الحمير الأرستقراطية يطلب منها أن تكف عن الفوضى واختلاف حركة كل مفصل عن الآخر ، وأن تعرف ان المشىء كالرقص له أصوله وقواعده ، حتى يصبح الظهر كالبحر الهادىء لا الهائج ، وهذه مشية تحتاج أيضا الى معلم صبور ..

وهى مدرسة خارجية داخلية .. فى القسم الخارجى تلاميذ الجيران ، يأتى الرجل بالتلميذ كل صباح ثم يتسلمه عند الغروب ، حتى لا يدخل فى أجر الشيخ شعبان حساب وجبة العشاء .. وتلاميذ القسم الداخلى

ياتون من بعيد مع كل تلميذ زاده وزواده .. كيسان او ثلاثة من الفول والتبن ، وينصرف صاحبه ليبقى التلميذ بالمدرسة الى أن ينال الشهادة .

وقد حضرت اول قدوم لبعض تلاميذ القسم الداخلى الى المدرسة ، وانتبهت الى الحمار حين ينتقل من يد يعرفها لا يوجس منها شرا الى يد جديدة تنم هى وصوت صاحبها عن جد لا يعرف الهزل ، انتهى عهد السرمحة يا حبيبى .. أرجو أن يصدقنى القارىء اذا قلت له اننى رأيت التلميذ يستخذى ويلزم أدبا فيه الكثير من الحزن حين يخلو الى الشيخ شعبان بعد أن يودعه صاحبه ويغيب عنه * .

والشيخ شعبان رجل متئد الحركة ، وقور ، خفيض الصوت ، لكلامه غنة لذيذة ، متعطر متكحل متأنق ، يلبس العمامة والجبة والقفطان ــ فهو ناظر مدرسة ــ ما أحوجه لبنطلون .. ولكن هيهات ! فهذا لبس الكفرة فهو حرام ــ وهو فوق ذلك مهزأة . له كفان مبسوطتان غير مطخطختين ، وأصابعه سرحة طويلة ، يزين بنصره الأيمن خاتم من فضة له فص كبير من العقيق فى لون الدم ، موصوف له فى طالعه ، له عثنون كأنما انتزعه من صورة الجحا .

كنت أرى شبحه من بعيد على الأفق فوق الجسور ، مقوس الظهر فوق دابته فأحسبه ــ بفضل عثنونه ــ من طلائع غارة جديدة لجحافل التتر ، فى يده سوط لا يستعمله الا نادرا ، هو للاشارة والتنبيه لا للضرب ، فان أدواته الأولى هى ركبتاه ، يطبق بهما على ظهر دابته ككسارة اللوز والجوز ، ولكزات خفيفة من كعبه ، والفاظ قليلة

---

* « الجمهورية » ، ١٩٥٩/٥/٨ ص ٣

متقطعة ، فيها رقة النصح والارشاد ورهبة التهديد معا. والتلميذ من تحته صاغر فاهم ، يخطىء ويصيب فيصبر عليه الشيخ شعبان مرة وأخرى .

ويعود الى الشيخ شعبان ونجلس أمام البيت نشرب القرفة ، واذا وصلت الى خياشيمى رائحتها الذكية المنبعثة من معابد الشرق البعيد ، لا أدرى لماذا كان يخيل الى ان الرجل يذكرنى بقائد حلقة الذكر . وأسأل نفسى بعد مر السنين الطوال وأنا اكتب هذه السطور : هل السر فى عمامته وجبته وقفطانه أم فى عثنونه أم لعله تشابه الوظيفتين فى تحويل حركة من الفوضى الى الانتظام ؟ لقد ذلل الشيخ شعبان مشية الصفوة من خيول المركز وحميره ، والان شكيمتها ، وعلمها الأدب ، وابرأها من العناد والزبلحة .

قابلته ذات يوم فى المركز فرايته مهموما مقطب الوجه ، واخبرنى انه ذاهب للمحكمة الشرعية فلما سألته : « خير ان شاء الله ؟ » أجابنى :

ــ انى رافع قضية اسقاط نفقة زوجتى فقد نفذت عليها حكم الطاعة ثلاث مرات وفى كل مرة تهرب ناشزة الى بيت أهلها .

حمير القاهرة

وكما لحقت أواخر سلالة الحمير الأرستقراطية فى الصعيد لحقت أيضا ــ وانا صبى صغير ــ أواخر عهد الحمير فى القاهرة بين شعبية وأرستقراطية .

حكيمة القسم فى حينا — حى الخليفة — سيدة عجفاء لم أر وجهها فهى مقنعة — كعصابة « كلو كلوكس كلان » — تلبس (لا أدرى لماذا) حبرة بيضاء كأنما فصلتها من ملاية سرير ، تخترق الدروب والحوارى ممتطية حمارا ، وبجانبها رجل يسندها بوضع ذراعه وراءها ..

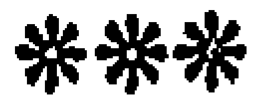
لكثير من الناس الموسرين تحت بيوتهم اصطبل فيه حمار حصاوى ، لا تزال تزن فى أذنى نداءات باعة البرسيم « ربع غزالك » والمفهوم من هذا هو وصف البائع المهذب لحمير هؤلاء السادة ، فمن الذى لا يشترى منه .

فى شوارع القاهرة وميادينها لافتات مثبتة على اعمدة مكتوب عليها بخط أبيض جميل على رقعة زرقاء « موقف لثلاثة حمير » ، أو اربعة أو ستة حسب اشتداد حركة النقل فى هذا المكان . أذكر من بينها بوضوح لافتة على سور حديقة الأزبكية امام مدخل فندق الكونتننتال . وسبب ذكرى لها للآن أنها كانت مكتوبة هكذا « موقف لثلاثة حمير » الياء قبل الميم — لعل مرجع هذه الغلطة الفريدة أن مدير البلدية كان خواجة ..

وكنت من زبائن موقف الحمير فى العتبة الخضراء . بجانب سقيفته الخشبية الشرقية ، يجلس تحتها صف من ماسحى الاحذية أمام صناديق كبيرة مزينة بالنحاس الأصفر ، أصحابها من الطليان والأروام — لا عجب فقد كان بناء المحكمة المختلطة يقوم وسط الميدان — وكنت اذا خرجت من سينما أوليمبيا « أيام ماشيست العظيم » أركب من هذا الموقف حمارا ليوصلنى الى آخر شارع محمد على عند ميدان الرفاعى ، افعل هذا لا للتعب بل للهو وحين يبقى معى قرش واحد .

اما الحمير القاهرية الأرستقراطية فاراها حين اذهب الى مسجد السيدة نفيسة أو السيدة سكينة ليلة الحضرة ، يتوافد علينا واحد بعد آخر - كأنهم المماليك فى استعراض - رجال من أولاد البلد يختبون فى الشاهانى وشيلان الكشمير ، على حمير فارهة قوية تمشى مشية الراهون ، تزيد على حمير الريف الارستقراطية بان شعرها مقصوص فى رسوم زخرفية ، وعلاوة على البردعة الفخمة ، يتحلى الحمار برشمة فضية براقة تهتز فوق صدره ، لبعضها أحجبة تقيه شر العين ، لجامها مشدود ، شكيمته تكاد تمزق شدقى الحمار ، وينسكب منهما رغوة بيضاء متماسكة كغزل البنات ، يخيل الى انهم كانوا يقيسون أصالة الحمار بمقدار طول هذه الرغوة ووفرتها ، ومع ذلك فان نفسى تعافها ، واعجب كيف رضى ابن البلد - وهو صاحب ذوق رقيق - بهذا المنظر السمج ، ثم يتخذ كل منهم مكانه فى القهوة وحماره امامه .. ويدخن الجوزة وينفخ الدخان من فمه وطاقتى انفهالى خشم الحمار ، فأراه ينشقه بلذة كبرى ، كالعتاة من أصحاب الكيف ، كنت وأنا صبى أحسد الحمار على هذه المتعة المحرمة على ، ولعل هذا هو السر فى أننى حين كبرت أصبحت من غلاة المدخنين . وكانت تقوم فى بعض الأحيان معارك لفظية قد تصل الى حد التضارب اذا استهان واحد من أولاد البلد بفضائل حمار منافسه .

عشنا ورايناهم يركبون الموتوسيكل والحرمة فى السيدكار ..



لصوص الحمير

يصادفني في القصص الغربية ـ وبخاصة في الأدب الروسي ـ ذكر لاناس من عجائب الخلق يطلق عليهم « لصوص الخيول » ويوضعون في أحط دركات البشرية، ثم لا أجد لهم وصفا يشفي غليلي ، لعل السبب أن حياتهم تمضي في الهرب والتخفي .

وعرفت في الصعيد أيضا حين نزلته عصابات لا لخطف الخيل ـ فهي قليلة وفي حراسة شديدة ـ بل لخطف الحمير ، لا من البيوت ، فهذه مجازفة لا تساوي غنيمة بخسة الثمن ، بل في الأسواق يوم انعقادها حين يستأمن الفلاح لحماره مربطا غير مأمون ، أو حين ينشغل بالبيع والشراء وسط الزحمة وتخونه يده فتظل من وراء ظهره توهمه أنها قابضة على الحبل بعد أن يكون قد انفلت منها ، وتؤلف هذه العصابات من عدد من الأفراد يوزع عليهم العمل ، والذي يسرق الحمار ـ يحوط عليه بعض زملائه ـ يسلمه من فوره لثان فيجري به الى ثالث يخرج به من البلد مسرعاً ليطوحه الى مكان قصي يختبيء فيه زمنا ثم يساق منه بعد ذلك الى مديرية أخرى ليباع فيها .. فانظر ما يحتاجه هذا العمل من تنظيم دقيق .. والله وحده يعلم كيف يقسم الثمن بين الجميع .

ان جريمة خطف الحمير هي وسط بين النشل والسرقة ، وقد عهد الي ذات يوم أن أحقق في قضية

تنازع رجلين على حمار ، كان الأول يسير فى سوق القرية فاذا به يهجم على رجل آخر ليس من أبنـــاء المديرية ويمسك بخناقه ويتهمه بأن حماره مسروق منه هو ... يقسم أغلظ الايمان . والثانى يقسم بايمـــان أغلظ ان التهمة كاذبة وأنه يصح فى الحمير كما يصح فى النـــاس أن يخلق من الشبه أربعين .

قمت من المركز ومعى المتخاصمان والحمار حتى بلغنا قرية الأول ووقفنا على مشارفها من بعيد ، ثم أطلقنــــا الحمار فجرى واختار من الدروب اليمين ثم اليســـار ثم مرق بين منازل القرية لا يتريث حتى دخل جريا بيت الرجل يكاد يحطم الباب بنطحة من رأسه ، وكان قــد مضى على السرقة أكثر من سنة . هل بعـــد هذا دليل ؟

شاهد الاثبات الوحيد هو الحمار نفســـه ، ولكن هيهات أن نسوقه ليقف امام القاضى ، فلا مفر من أن أذهب أنا للمحكمة واقول لها : أنا شاهد حاضر عن الحمار ياافندم !

نكت الحمارة

حتى النكات التى كنت أسمعها وانا صبى لم تكن تخلو من ذكر للحمارة والحمير .. فالنكات من أصـــدق علامات الزمن ، وهى تدل على أن الحمارة كانوا قوما معروفين بخفة الدم وحب المداعبة . ابقاها فى ذاكرتى نادرة تروى عن الشيخ على الليثى الشاعر الفكه نديم الخديو توفيق ، وكان الاثرياء يتخاطفونه ويحبسه كل

واحد منهم فى داره أياما ليستمتع به فلا يغادره الا تلقفه ثرى آخر وهكذا . كان يقطع صحراء حلوان على ظهر حمار متنقلا من مضيف الى مضيف ، فاخذ يناجى سائق الحمار ويقول له :

ـ أتعرف الى اى شىء تهفو نفسى الآن ، لقد شبعت من اللحوم والديوك حتى اصبحت لا اطيقها .. من لى باكلة عدس وبصل أخضر تحرش معدتى ..

لكز الرجل الحمار وقال :

ـ ياشيخ على ! المسالة سهلة ، اذهب الى بيتكم ولو مرة واحدة فهذا اكلكم يوما بعد يوم ..

السرك وحماره

لم يبق فى جعبتى من أصدقائى الحمير الا حمار واحد . هو اشدها ذكاء وأخفها دما واكثرها الفا بالانسان .. « حمار السيرك » ، وهو سلالة متطورة من حمار الحاوى ، كان يدخل حارتنا وينعقد الناس من حوله فاذا قال له صاحبه :

ـ اختر لك عروسة .. وقف الحمار ، بعد أن يدور دورة كاملة ، امام فتاة جميلة وابى رغم الضرب أن يتحول عنها ، والغريب أن الفتاة تخجل وتسر لهذه الشهادة ! وان ساله « أين حماتك ؟ » وقف امام عجوز لحظة ثم مضى هاربا لا ينصت لامر صاحبه بالتريث عندها ولو قليلا . لقد أختفى حمار الحاوى من دروب القاهرة .

وقد كنت منذ صغرى من هواة السيرك أسعى اليه عند سيدنا الحسين أيام الاحتفال بمولده ، لا يتم السيرك الا باستعراض للخيول المدربة . ويكون به احيانا اسد شيخ هزيل يكاد يقع من طوله ، لفرط الاعياء ينطق كل جسمه بأن أمله الوحيد فيما بقى له من حياة أن يظفر يوما بماشطة وبلانة ، اين منه اسد مترو جولدين ماير، لا ينقصه الا ان تعلق فى رقبته الجلاجل وتعقد على جبهته فيونكة من حرير .

وكان سيرك سيدنا الحسين يضم ايضا - اثباتا لمصريته وشعبيته - حمارا يخرج الى الساحة منطلقا كالرصاصة ، وينزل اليه عدد من الرجال يتراقصون أمامه ويخايلونه ، فيجرى وراءهم ويلاحقهم وهم يفرون أمامه يحاول ان ينطح واحدا منهم براسه أو يصرع آخر بشلوت من ساقيه معا . لا يدله احد - كما فى الخيل والكلاب المدربة - ماذا ينبغى أن يفعل . انه يحفظ دوره ويعلم انه يلعب ، ويتاجج نشاطه كلما علا الضحك والتصفيق من حوله . وتنتهى « النمرة » بتغلب الحمار على منازليه جميعا ، فهم يتواثبون واحدا بعد آخر من فوق السور ويلوذون بالمتفرجين ، فاذا خلت الساحة له كف عن جموحه ودار امامنا يستعرض بطولته وخيلاءه ثم انطلق خارجا كالرصاصة كما دخل .

من حسن الحظ ان السيرك كان يحط رحاله فى منفلوط وهو فى طريقه نازلا الى مولد السيد عبد الرحيم القنائى . اذا دخل البلد انتشر خبره فى المركز كله وجاءه الفلاحون من اقاصى القرى ، يتكدسون بعضهم لصق بعض ، غابت أجسادهم فى تشابه ملبسهم وبقيت أعناقهم مشرئبة وعيونهم مثبتة على ساحة السيرك . الكفان

موضوعان ـ فنحن فى الشتاء ـ خلف خـــلاف تحـت الأبطين « ظهورهم محنية ألى الأمام ، أما انا فأجلس فى « بنوار » كتب عليه أصبع تلميذ مبتدىء بدهان أحمر « بوليص » أعلانا أن شاغله ـ مع الاحترام وحفظ المقام ـ قد دخل سفلقة وبقوة السلاح !

من سحر السيرك يجلس الناس فى حلقة كأنهم اسرة واحدة مجتمعة فى مندرة أو فى دوار العمـــدة ، وجوه بعضهم فى وجوه بعض ، ما أسرع الفلاحين للضـــــحك والمرح وما أسرعهم ايضا الى الدهشة والتعجب حين يرون فتاة صغيرة عفريتة تنقلب أمامهم على أربع ظهراً لبطن وتتداخل وتدور كالارحى ويبرز وجهها كأنما تطل به من بين قوائم طاقة فى بدروم جسدها ، فانت أصــــبحت لا تدرى أين الساقان وأين الذراعان . اعجابهم بها لا يخلو من اشفاق وترحم ، ولكن اللحظة الحرجة ـ مع استئذان يوسف ادريس ! ـ تأتى حين تتقدم أختها الكبرى فتعلو قمة هرم ملخلخ من قوائم خشبية مرفوعة بعضها فوق بعض لا يحكم رصها الا قطع صغيرة من الورق تدس بينها ، ثم وهى فى هذا المكان المهول تقـــوم بحركات لو زلت فيها زلة واحدة لهوت صريعة الى الأرض . يقول لهم صاحب السيرك حينئذ « ياجماعة اللعبة خطيرة ، الزموا الصمت وادعوا الله فى سركم ! » فلا تسمع فى السيرك كله نأمة واحدة . فاذا بلغت الفتاة غاية الخطـر ارتفع صوت الرجل يقول « وحدوه » فتنطلق فى أرجاء الخيمة تجلجل كالرعد شهقة عالية « لا اله الا الله » ! » تكاد جباههم تتفصد عرقا من شدة معاناة الوجل ..

ثم هذا مغن يقلد الشيخ سلامه حجازى كما تقلده اسطوانة له ممسوحة ، وهذه مسرحية من فصل واحد

فيها ملك ووزير ميمنة ووزير ميسرة تردنا الى بغـــداد أيام الرشيد ويحيى البرمكى ، ولكننا لا نرى زبيـــدة ولا أبانواس .. أنزال الستار ورفعها ينوب عنه فرش ولم لبساط قديم حائل . لو كنت من أذكى الناس لما عرفت ماذا كان لونه ، يثير فى الحالتين سحابة من الغبار، ولكن لا بأس انه شيء هين اذا قيس الى الروائح من روث الخيول وعفونة الأسد الهصور ، ثم يأتى دور الرقص ..

ان الفلاح لا يعرف شيئا عن بهجة الأنثى ، حتى الغوازى ــ وهن قلائل ــ يرقصن فى لباس يغطى أجسادهن الى الكعبين .. لاغرو ان كانت هذه الراقصة أحب شيء لديهم ، أذا دارت عليهم بالطبق ، وجـدت من بين هؤلاء الفلاحين من يدفع لها القرش كأنما هى التى تحســـن عليه بتناوله منه ، لم تكن السينما قد انتشرت بعـــد فنقلت الكباريه الى بيوت القش والطين .

مع هذا السيرك الذى وصل منفلوط رجل من اهل الصين ــ متى خرج من بلاده وابن ينتهى مطافه وكيف حط رحاله بهذا السيرك ؟ ! الله أعلم ــ يرقد على ظهره ويهشك برميلا كبيرا بقدمين تشبهان قدمى الاطفال ..

ولكن اعجب شيء هذه الموسيقى التى تنبعث من أبواق مشروخة مخرخشة ، ومع ذلك تنفذ الى قلوبنا وتهزناكأنها من أشجى الألحان وأعذبها ، لم يكن الميكرفون ــ والعياذ بالله ــ قد دهمنا بعد ..

فى السيرك حمار يقوم بلعبة اخرى غير التى رأيتهـــا فى القاهرة فهو يخرج للساحة ومعه رجل واحد ويدور بينهما صراع ، يحاول كل منهما أن يوقع صاحبه على الأرض .. وتنتهى اللعبة ــ كما فى القاهرة ــ بانتصـــار

الحمار . ولم أر فى أوربا سيركا واحدا يضم برنامجه لعبة الحمار .. فهى من الأمجاد الخاصة بالسيرك المصرى وحده .

ولكن بهجة السيرك أصبحت عندى يخالطها فى قلبى شىء من الضيق والحرج .. لم انتبه لما يجرى وراء الستار الا يوم دخلت على قرداتى يعرض ألعابه فى خيمة فى معرض شعبى عام مقام فى ارض الجمعية الزراعية ، وجدت قردا صغير السن مختبئا فى ركن تسيل الدماء غزيرة من شدقيه لم أر فى حياتى مثله ينطق بالذعر والألم والعذاب .

سألت صاحبه عن السبب فلم يتلكأ فى الاجابة ، بل سارع الى رواية الخبر بلا خجل كأنه يزهو بقوته وحيلته وبطشه ، هذا قرد ماكر لئيم لا ينصاع لأوامره .. أجاعه وضربه بالعصا فلم ينصلح ، وبلغ من سوء أدبه أن عضه ذلك اليوم فى يده ، فأقسم أن يلقنه درسا لا ينساه وأن يجرده من سلاحه . فامسك بالقرد الصغير وتناول حجرا أخذ يهوى به على خطمه حتى هشم له جميع أسنانه .. هو واثق أنه سيصبح بعد ذلك فى يده ذلولا لا يعصى له أمرا . وسمعت ـ ولم أشهد بعينى وان كنت لا أستبعد الخبر ـ أن الدرس الأخير للقرد أن يدخل عليه صاحبه يمسك فى يد جروا وفى يد سكينا ، ثم يصدر للجرو أمرا فلا يعطيه ، فيتناوله ويقطع رأسه بالسكين أمام القرد ويقول له « هذا جزاؤك ان عصيت ! »

أغلب حيوان السيرك يعانى عذابا تختلف درجاته وكلها تؤدى ألعابها فى قبضة الارهاب ، لو دققت النظر تبينت آثاره عليها . ارهاب يبلغ حد ابطال الغريزة ،

كما نشاهد الحصان يرضى أن يعلو الأسد ظهره ويجرى، أو يرقد على الأرض ويخطو الفيل من فوقه .

ولا ينفرد الحيوان وحده بهذا العذاب ، فقد روت لى بهلوانة من أسرة معروفة فى عالم السيرك عندنا انها لم تتعلم العابها وهى طفلة صغيرة الا بعد أن ضربها المعلم ضربا مؤذيا ملاحقا لا تزال « توحوح » منه الى اليوم .. والغريب أن المعلم هو أبوها !

***

يسرح ذهنى فأذكر كيف أقف وانا صبى بجانب حوض المياه فى ميدان القلعة أرقب الخيل والحمير وهى تشرب ..

أقدمت مسرعة كأنها تعرف المكان تحنى راسها وتعب من الماء ثم ترفعه وتسكن برهة وقطرات الماء تتساقط من خشمها فلا ادرى لماذا يرق لها قلبى ، وتنبعث من عينيها نظرة غائمة كأنما أصابها الارتواء المفاجىء ، بعد العطش الشديد ، بدوار خفيف .. يرتعش جلدها على البطن أو الساق وتهز ذيلها وتحنى راسها مرة أقل زمنا ومرة سريعة كسلام الوداع ، ثم تمضى متثاقلة للعناء من جديد . أمشى بجانب عربات الدبش تسحرنى عجلاتها الضخمة تتمايل وتقعقع وتأكل الطريق أكل الأهتم ، دحديرة القلعة أمتحان لعربات مثقلة بأحمال لا تعرف الرحمة ، فيقف الحصان كأنه تمثال مصبوب لم تنبض فيه حياة أصيب فجأة بالعمى والصمم والخرس، فهو لا يبالى بشىء من الضجة التى تقوم حوله كأنه ارتفع فجأة فهو تمثال جامد فوق قاعدة عالية ، يدفع صاحبه العربة من خلف بكتفه وقد قصرت ساق عن ساق مغروزة فى الأرض ، أو يستدير للطريق ويعلق كل وزنه

وقوة قبضته تشد عارضة العجلة الى الأمام فيتزحلق حتى يكاد يرقد على الأرض ليحركها من مازقها ، وقد ينهال بالسوط او العصا على دابته فكأنه يضرب ميتا لولا اطباقه وفتحه لجفنيه . ينشب الحصان سنى حافريه الأماميين فى الأرض ، ويتقوس ظهره وتتحرك رقبته حركة تذكرنى بعمل المضخة .. امرنا لله .. ولكن الفرحة الكبرى لنا حين يقع حصان العربة الحنطور على الارض ، انه أطبق عينيه . لو ترك مكانه لنام الى آخر النهار ، تختلط القوائم والعريش واللجام فى كوم واحد كأنه حطام . يتجمع الناس وتكثر الآراء والنصائح ثم اذا وقف الحصان على قوائمه احسسنا انه يبعث من قبره ..

يبرز لذاكرتى من هذه اللوحة التى رسمت لك معالمها شبح امرأة اجنبية تلبس لبس الملكة فيكتوريا ـ مظلة وقبعة مستديرة واسعة ينحدر منها شرشف من الموسلين ، وحذاء رجالى بكعب واطى ـ تهل من بعيد فيصاب سائقو العربات بذعر .. تكشف الجروح وتتدبر الأحمال ، وتحيل القساة المذنبين والحيوان المسكين الى القسم .. هذه هى مندوبة جمعية الرفق بالحيوان .

لقد اختفى الآن حوض مياه شرب الحيوان من ميادين القاهرة ، واذا كان عدد الحيوان قد قل كثيرا الا اننى لا اعرف هل الحاجة اليها قد انقطعت ام لا .. ولكنى لا ازال اطمع أن تطلع علينا بين الحين والآخر فى شوارع القاهرة سيدة مصرية تحوطها الهيبة لها عين فاحصة وكلمة عادلة لا تقبل الجدل اذا سألنا عنها قيل لنا ، هذه مندوبة جمعية الرفق بالحيوان .

أما العذاب النفسانى الذى وصفته لك بمناسبة الكلام عن السيرك ، فلن نصل الى كشفه او علاجه ، يكفى ان تحس به القلوب ، وان تشمل ضحاياه فى دعواتها حين تسال خالقها جناحا من رحمته للمعذبين فى الأرض .

الطبيب البيطرى

على ذكر جروح الحمير وعلاجها لم أجد فى منفلوط وزمامها الشاسع الا طبيبا بيطريا واحدا ، هو طبيب المركز الذى لولا مرتبه لمات جوعا .. لم ار خلال سنتين ولو مرة واحدة فلاحا غنيا او فقيرا يقصده لعلاج حيوان له ، لا جاموسة ولا جمل ولا حصان ولا حمار ، فلاتتصور ان يقصده لوقاية دجاجة من الخناق ، أو لحقنة ضد الكوليرا ..

فالفلاح متمسك بوصفات بلدية لا يؤمن الا بها ، ويراها رغم اخفاقها بين يديه مرارا كثيرة تغنيه . تصده عن الطبيب البيطرى ريبة مزدوجة : ريبة من ضرر علاجه ، وريبة اخرى أشد ، كما سترى فيما بعد ، من الموظف الافندى الغريب الذى يطبق عليه قوانين لايفهمها، أنه قد يصادر لحم الجاموسة اذا نفقت عنده ، ومع ذلك اذا ماتت الجاموسة ذرفت عليها الدموع ولطمت الخدود وتعالت الصيحات واقيمت لها مناحة كبيرة .. وتقبل صاحبها العزاء من الأهل والجيران ، ولولا الحياء للبس عليها السواد ..

لا انسى يوما مررت على فلاح قد جلس أمام داره

جلسة تنبىء بالألم والضياع ، يجلسها أحيانا أمام حلاق الصحة حين يبتلى بصداع لا ينفع فيه الأفيون ، فيسال الحلاق ان يشرط صدغيه بالموسى ليفصد الدم الفاسد .. ترقد امامه على الأرض جاموسته فى النزع الأخير .. بين عينيها ويد الرجل سكين كبير ، كلاهما ينظر اليه ، هذه كانما ترجوه أن يحزم أمره وينقذها من عذابها . استسلمت ، إدركت انها تموت ورضيت بالذبح من يد صاحبها . وهذا لا يفقد أملا مادام نفسها لا يزال يتردد فى حلقومها .. ان يده لن تتناول السكين آلا قبيل لحظة طلوع الروح بثوان قليلة لتكون الطعنة له ولها واحدة .

ثم ينبغى العثور على القصاب الذى يقبل شراء لحمها ، وقد يكون غائبا فى قرية أخرى ، ولا مفر من قبول الثمن البخس الذى يجود به .

يعلق لحمها فى السوق ويتناثر فى القدور ، وقد ينتهى الأمر الى المركز اذا أصيب بعض الأطفال بتسمم. وقد لاحظت أن المصابات فى هذه الحوادث اكثر من المصابين ، لأن الفلاحة تأكل نصف اللحم من القدر من قبل أن تتم الطبخة بدعوى أنها تريد أن تعرف هل نضج اللحم أم لم ينضج بعد .

ويبقى للطبيب البيطرى الاشراف على سلخانة البلدية ، والمرور على الأسواق ، وتصيد الكلاب الضالة. يتسلم من الوزارة قدرا محددا من الاستراكنين فيجعل معاونه — وهو من عساكر المركز — يعجنه أمامه فى بقايا من لحم على هيئة أصابع الكفتة ، ويخرج بها المعاون ليجوس خلال القرى ، وعليه أن يعود من رحلته ومعه عدد مماثل من أطراف ذيول مقطوعة للكلاب التى أعدمها،

اثباتا لأدائه لمهمته .. أذمن واجبه اذا ألقى السم للكلب أن ينتظر أمامه حتى يموت ويقطع علامة من ذيله .

يأتى الينا هذا العسكرى فى المساء ونحن جلوس فى القهوة ، فى يده كوز من الصفيح صدىء قذرفى قعره اطراف ذيول غارقة فى الدم . فيلقى عليها الطبيب نظرة سريعة متأففة ويقول : « كويس » .. يضرب العسكرى سلاما وينصرف .

لا ادرى ماذا دار بخلد الطبيب البيطرى ، لعله لحظ على العسكرى دلائل شبع ورى .. فاذا به يتقلب ذات مساء على تأففه ويطيل النظر الى قاع الكوز . ليس هذا الشعر شعر كلاب .. أحد بصره فاذا به يتبين بأنها ذيولَ ماعز ..

سرق المعاون السم ليبيعه للفلاحين الذين ينتقمون من خصومهم بفعلة دنيئة بعدها خسة .. يثقبون كالح الذرة ويملأونه بالسم ويلقونه أمام جاموس عدوهم ..

الباب الرابع

الصعيد



لا استطيع ان اتبين شعورى حين علمت اننى مهاجر لأقيم منفردا بالصعيد . هل هو تهيب من المجهول أو خوف من الانقطاع والوحدة ؟ لم يسبق لى قــط ان سافرت للصعيد أو خالطت أهله . صورته المنطبعة فى ذهنى رسمتها لى اقاويل تقارب تهاويل الاشـــاعات عن جرائم القتل والأخذ بالثأر ، القاتل يصرف عمره فى تتبع ضحيته ككلب الصيد وهى تفر أمامه من بلد الى بلد ، والقتيـل يراق دمه ـ وقد بلغ فيه القاتل ـ تكفيرا عن اعتداء وقع قبل مولده ، ان رمزت للصعيد بشىء فبهذه الشومة ـ خشبها فى صلابة الحديد ـ تهوى بها أذرع قوية مفتولة على الرءوس والعظام فتحطمها وتعجنها ، فى المتاحف من عهد طيبة جماجم لموميات عليها آثار وقع الشومة .

نساؤه حبيسات فى دورهن ، فيهن من تفخر بانهــا لم ترتد الملس الا مرة واحدة ، يوم أن خرجت زفتهــا من بيت أبيها الى بيت زوجها ، وكأنما ودت لو كفنت به لتلبسه مرة أخرى وهو قشيب . معظم بلاده ـ رغم غناها ـ محرومة من الماء والنور ، أما الحــرمان من المجارى فكل بلاد الريف كانت حينئذ فى الهوا سوا .. دع عنك انباء زحف العقارب ، ان سلم منها فراشــك كمنت لك فى حلق القلة او كوز الزير ، وأحيانا فراشك حذائك أو فى بطن لوفة الحمام ..

حياة خشنة صارمة ، مجردة من الزينة ، لا تعرف ولا تجيز دلع القاهري فى طعامه وملبسه ، نكاته ونزهاته.

الليل فى الصعيد سجان له يد سوداء تغلق الأبواب عند غروب الشمس على الانسان والحيوان .

ومع ذلك أشعر بسعادة الانطلاق الى عالم غامض احس بسحره وعطره ، كنت اشتاق اليه من قديم وأدرك ان مصريتى ومحبتي لبلدى لاتتمان الا اذا اغتسلت فى حوضه ..

منذ صغرى الحظ فى زملائى أبناء الصعيد فى المدرسة رجولة ونخوة وشهامة وجلدا ، ثم — وهو الأهم عندى — قدرة — أشبه بالغريزة — على تناول الحياة حلوها ومرها كما تلقاهم ويلقونها ، لا يفسد تمتعهم بها ابتلاء بالتهيب ، والشكوك والملل وفراغة العين ، والبحث فى ملك اليد عما وراءه . ما سمعت منهم شكاية ، ولا احسست بهذا النازع الخبيث المتستر فى النفوس الضعيفة لاستدرار العطف والحدب عليها ، هو نوع من الملق والنفاق يصوب سهمه للداخل لا للخارج .

وكنت اتتبع من فوق الكبارى هذه المراكب العريضة — تكاد تغطس فى الماء — قادمة مع التيار ، محملة بالتبن او البلاليص ، جماعة من أهلها متحلقون عند الدفة حول قدر مسود ، تحس أن صمتهم اكثر من كلامهم ، ورجل آخر يقفز فى خفة القرد يتسلق الصارى ليلم القلع المرقع ويميل به حتى تمر المركب من تحت الكوبرى . بينه وبين ماسك الدفة صراخ لا اتبين الفاظه ، حاد غضوب ، كأنه

تلاحم النبابيت ، تتقد له الأعين كالشرر ، وتبرق الأسنان كوميض السلاح .

ما هو بلدهم ؟ من أين هم قادمون ؟ ما طعم هـذه الحياة الطافية فوق الماء ؟ كم تمنيت أن أصحبهم في رحلة لأعرف أسماء الرياح وعلاماتها وحيل التيار المخاتل ، واطل على الدوامات ، ويرسم لي النخيل الرشيق في كل لفتة لوحة في النهر متباينة ، واسـلم في كل ليلة على « موردة » جديدة .

يهتز قلبي حين يقال لي ان الجنازات في بعض بلاد الصعيد تعبر النيل من الغرب الى الشرق ، أحس أنني اعيش في عهد الفراعنة ، وأظل أصـور لنفسي تأرجح الميت في القارب فوق المياه ينهي به حيـاته كما بـدأها بتأرجحه في المهد . وكانت لي جدة تقول ضـاحكة انها تتمنى أن تشيع هكذا جنازتها حتى تشم الهواء قبل ان تغيب في قبرها .

ولماذا اقصر كلامي عن أهل الصعيد على أبنـاء المدارس ؟ حتى الباعة الجوالون من فقرائه المعـدمين يمشون في عزة كأنهم جند في استعراض عسكري لجيش ظافر ، تضرب أقدامهم الأرض تكاد تخرقها ، أجسامهم ممشوقة ، ورءوسهم مرفوعة ، بطونهم مشـدودة وظهورهم مبسوطة ، اذا بانت لك عظام الصدر أحسست أنها غطاء دينامو لا يلهث ولا يصفق طلبـا للنجدة ، كأن كل واحد منهم أمير في قومه .. أكثر مايجذب العين فيهم رقبة طويلة مغروزة في الجسـد كصـخرة في جبل ، هي وحدها التي تضفي عليهم هذا النبل وهذه المهابة ..

لا أنسى بائع الرمان الذى كان يدخل حارتنا ، فى كل جانب من عبه ـ فوق حبل مشدود على وسطه ـ أقتان على الأقل من الرمان ، على كفيه رمان ، وفوق رأسه قفة كبيرة مملوءة لفم عينها رمانا • لو قبل الشارى ـ فى غفلته ـ أن يساعده على انزالها كادت تخلع ذراعه وتطرحه أرضا ولو كان فحلا • يمشى هذا الرجل الشيخ ، وقد خط الشيب شعره ، من مطلع الشمس الى العشاء ، لا ترى فيه من أثر الجهد الا رفع حاجبيه وخفضهما كأنه يوازن بهما القفة فوق رأسه •• « منفلوطى يارمان ! » •• كل قوته انحبست فى رقبته •• ولا تسألنى من أى طعام تستمد قوتها •

على جانبى الشريط وجسور الترع والمصارف ، وفوق السقالات ، بين أرصفة الموانىء وبواخر محملة بالفحم ، جنس يحيل العمل من فوره الى وقدة الحمى ، يشبه النمل فى دأبه وتبعثر أفراده وانتظام مجموعته معا ، اذا كان لا مفر من « الحزق » فعيب أن يصدر من حلوقهم الا متسترا فى ترجيع جماعى لمقطع فى أغنية ينشدها واحد منهم • لقد طوفت فى بقاع الأرض فلم أجد للصعيدى ندا فى تحمله للجهد •

فى ليالى الشتاء حين أمر على مداخل عمارات ملفوفة فى شبكة من السقالات كأنها قنفذ ضخم قد نصب أشواكه ، تسمر قدمى أغنية منبعثة على ضوء نار وشرر وسط الظلام ، تسيل رقة وحنانا • أصبحت « الحزقة » بحة محروقة من شدة الوجد •

كل هذا يتمثل لى فى قطار الصعيد « ترسو » : فى

زحمته ورائحة الحلبة وبخار التراب المحترق فوق الأجساد والمقاطف والزكايب يقذف بهـا فوق الرءوس ، والركاب يصعدون وينزلون من النافذة ، ولكن لا ضـير ، فلا يخلو سفر من ضارب طبلة يسلينا متطوعا طول الطريق بأغانى الحنان الى الوطن والحبيب .

قدام بيت اللى بحبه　　شجرة وضلة ومعنى وهوا

هيهات لخمر أن تسكرنى كما تسكرنى كلمة « معنى » فى هذا البيت . لقد ذكرت أحب الأغانى الصعيدية الى فى مقدمة مجموعة قصص « دماء وطين » فلا أستطيع تكرارها هنا ..

لقـد دمـغ الصـعايدة باسـمهم القطـار الذى يغادر الاسكندرية (بلد سيدى المرسى أبى العباس ، الولى الذى يرد ذكره فى أغانى الصعيد) فى منتصف الليل .. هو قطارهم المفضل اذ يسلمهم فى الصباح بالقـاهرة الى أول قطار للصعيد ، بل انتقل هذا الاسم الى القطار المماثل الذى يقوم من القاهرة الى الاسكندرية فى الموعد ذاته . وهذا هو تفسير الأغنية الصعيدية الشهيرة :

ياباجور الساعة اتناشر　　يامقبـل على الصعيد

انه القطار القائم من الاسكندرية لا من القاهرة وكانت هجرة الصعايدة الى الثغور أكثر منها الى القاهرة .

وقد بدأت فى ذلك العهد أعرف لأول مرة قطار الصعيد وأرى عجائبه ، كلما أوغل بنا فى جنـوب الوادى أصبحت

مواعيده غير مألوفة للقاهرى ، مثلى ، لم يسبق لى من قبل ان أصل الى بلد أو أسافر منها في الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا ٠

وعرفت أيضا نظام الخط المفرد جنوب المنيا ٠٠ فى ذلك العهد لا يمر القطار الا اذا سلم السائق لناظر المحطة طوقا من الخشب وأخذ بدله طوقا آخر ، يدا بيد ان وقف القطار بالمحطة ، أو يعمد السائق ـ والقطار ينهب الأرض ـ الى القاء طوقه على الرصيف ، ثم يمد يده لتصل الى مستوى طوق يتدلى من عمود مثبت فى نهاية الرصيف فيخطفه خطفا ٠ وأعجب كيف لا يخطئه مرة واحدة ٠ فاذا تسلم الناظر الطوق وضعه فى آلة بمكتبه وحينئذ يستطيع أن يفتح اشارة المرور للقطار القادم من الناحية المقابلة ٠ وكنت أتتبع كل هذا فى شغف كبير لأننى منذ صغرى أهيم بالقطارات ويسحرنى منظر المحطة ـ أكبر سوق للوداع ـ وتقاطع الأشرطة ، ولمعانها ، وامتدادها الى نهاية البصر ٠٠ حتى فى المحطات الصغيرة أجد راحة كبيرة لنفسى حين أجلس تحت شجرة وأطلق العنان لذهنى فى سرحان لذيذ ٠ وقد وجدت فيما بعد أن من أحب التسلية الى بعض الناس فى الصعيد أن يخرجوا للمحطة لا لشىء الا للفرجة على القطارات وركابها ٠

الأخذ بالثأر

على ذكر عادة الأخذ بالثأر وتأصلها في الصعيد : خرجت ذات يوم في عهد قريب أصحب فرقة من المسرح الشعبي لنقيم حفلة في مدينة أسيوط • ورضي المدير ـ لود بيننا ـ أن يحضرنا ، ورأيت اكراما لمديرية أسيوط أن أؤاخي بين مسرح قاهري يتسمى ـ لا أدري لماذا ـ بالمسرح الشعبي ، وبين ألوان من الفنون الشعبية المحلية • فجاءت لنا ثلاث فرق من عازفي الأرغول وأنشدوا أناشيدهم •

ثم أعلنوا لنا وسط الحفل ـ مدفوعين بالمنافسة ـ أن هذه الأناشيد المحفوظة ليست كل بضاعتهم ، وأنهم قادرون على أن يرتجلوا من فورهم مواويل في موضوع نقترحه عليهم • من قبل أن أفتح فمي أقول لهم « غنوا لنا عن عشقكم لبلادكم ونيلها وزرعها » مال على المدير يقول : هذه فرصة • اننا نحارب ـ بناء على تعليمات وزارة الداخلية ـ عادة الأخذ بالثأر ، وقد كثرت المواعظ والخطب فلماذا لا نطلب اليهم أن يحاربوا هذه العادة بالمواويل أيضا •

فوقفت وقلت لهم : « قولوا لنا شيئا عن عادة الأخذ بالثأر » • كأنني دعوت جياعا الى مأدبة ، فما كدت أجلس حتى اندفع منشد الفرقة الأولى في موال يقول فيه ان الرجل الذى لا يأخذ ثأره بيده سيعيش طول عمره ذليلا مهانا •

فأوقفته وقلت له : لا · لا · ليس هذا الذى نريد ·

جذبه منشد الفرقة الثانية باحتقار بعد أن ثبتت خيابته وحل محله منتفش الصدر ، قد انتفخ شدقه كالبالون وبدأ ينشد موالا يقـول فيه ان الرجل الذى لا يأخـذ ثأره بيده يستحق البصق فى وجهه ·

يادى الداهية السودا ·· حسبوا جميعا ــ لمجرد ذكرنا لعادة الأخذ بالثأر ــ أننا لا نتصور مثلهم أن يخرج مجـال القول عن مدحها ، وحسب الثانى أننا لم نرض عن الأول لفتور حماسته فى التنديد بمن لا يأخذ ثأره بيده ·

مال على المدير مرة أخرى يهمس فى أذنى :

ــ قفل على كده ! ·

فأشرت بانزال الستار المهلهل وباخت الحفلة ·

الذهاب للصعيد

يناير سنة ١٩٢٧

بقيت واقفا أمام مدير أسـيوط ، قال لى بلهجـة رجال الضبط والربط : (ما أعجب هذه الرفقـة المفروضـة على هاتين الكلمتين ! قد فهمنا « الضبط » فما معنى «الربط» ؟ ستقابلنى هذه الكلمة فيما بعد لا فى ميدان العمل ، بل فى مجال الشعوذة والسحر عند الفلاحين) ·

ــ شوف ، لا ليسانس ولا دياولو ! ·· كل المعـاونين عندنا زى بعض حتى ولو كانوا من تحت السلاح ·

لم أنطق بكلمة ، ولم أشكره ـ وكان ينبغي ان افعل ـ حين اختار لى مركز منفلوط لأعمل به • فانى ، وان كنت أستفتح عملى كالقطة العمياء لا أعرف ترتيب مراكز أسيوط فى المتاعب والمزايا ، ولم يبصرنى بها من قبل انسان ، وجدتنى ـ رغم انكارى لغلظة الحديث ـ أستبشر بهذا البلد ، هو فى مقدمة مدن قلائل يجلجل اسمها في دروب القاهرة اشادة بالأصالة والتفوق عند ذكر طيب المنبت وجودة الثمر ، هل تذكر وصفى للبائع الشيخ الذى كان يدخل حارتنا وينادى « منفلوطى يارمان » ؟

سأذهب الى موطن هذا الرمان ، جعلته أغانى الصعيد توأما لنهود العذارى ، وسأجعل أول متعتى أن آكل رمان منفلوط ، وأن أجلس له كما كنت أفعل وأنا صبى ، أتأمل نظم عقيقه بعد أن أنزع عنه سترا لا يدانيه ورق السيلوفان فى رقته وحسن حياطته ، ثم أنحته بأسنانى ولو مال بعض شرابه على ذقنى ، لن يزجرنى أحد ، سأحرص على ألا تقفز منى حبة واحدة ، فقد كان يقال أن فى كل رمانة حبة واحدة معينة من أكلها دخل الجنة !

كم كانت خيبة أملى حين لم أجد فى منفلوط رمانا • لقد اجتثت يد الاهمال أشجاره كلها ، وزرعت منه حدائق جديدة فى أبنوب وساحل سليم والبدارى ، لا أعرف هل هى من سلالة رمان منفلوط أم لا • أعلم أن شجرة الأم فى سلالة البرتقال أبو سرة •• فى أمريكا تعد من ذخائر الأمة وكنوزها فهى باقية معززة مكرمة ، ضرب عليها سياج ، كأنها مصونة فى معبد أقيم لها ، يحج اليها ويطاف حولها ، كم تمنيت أن لو بقيت فى منفلوط شجرة رمان نخصها بمثل هذا التكريم •

واستبشرت بمنفلوط مرة أخرى لأن واحدا من أبنائها كان من أعز النـاس لدى الجيـل الذى أنا منه ، مصطفى لطفي المنفلوطي • أسال من صخرة الفصحى عينا سلسبيلا كم نهلنا منها وارتوينا ،ان سحره لا يقاوم وفضله علينـا عظيم ، ولو أنه رحمه الله أكبر مسـئول عن دموع مآقينا وزفرات صدورنا وخفقات قلوبنا ونحن نقرأ له «العبرات» و « مجدولين » ـ أو « تحت ظلال الزيزفون » • لم نبال أن نسأل « ما معنى الزيزفون » ؟ مهما يكن معناها كفي أن لها رنينا جميلا له طعم حلو فى الفم ويغمرنا بلذة رقيقة توحى بالأحلام ، ألا ترى أنها تصلح اسما لآلة موسيقية ؟ خلصت للصبا أوهامه ولم يفسدها لحسن الحظ ادراكنا فيما بعد أن الزيزفون هو التليو ، كل ما نعرفه عنه أن أوراقه تبـاع فى الصيدليات ـ وهى أبعد شيء عن الأحلام ـ لعلاج الأرق والحمى ، ولا يوحى مذاقه العطن بنسائم الحب التى كانت تفوح لنا من اسمه •

وقد بحثت عن أسرته فى منفلوط فوجدت له أخا معمما مثله ، معروفا بالفضل والعـلم والتعفف ، ولكنى وجـدته صموتا منقطعـا عن النـاس ، ورغم ما بذلت من التقـرب والتـودد لم أظفـر منه بشيء ينفعنى فى معرفة المنفلوطى ، بل كان الحاج هذا الغريب بالسؤال مسـتغربا ان لم يكن مستهجنا • وكنت أحب أن تتجدد فى منفلوط ذكرى ابنها الكاتب الكبير فيحتفل بيـوم مولده أو وفاته ، أو تقـام مكتبة عامة صغيرة تسمى باسمه ، وتخصص حجرة منهـا لجمع مخلفاته وأوراقه وصوره ومؤلفاته •

أمضيت أول ليلة فى منفلوط باستراحة المركز • حجرة ليس بهـا الا سرير سـفرى وكرسى للجلـوس أو تعليـق

الثياب ، أتبادل معه العرى واللبس • حجرة جرداء باردة بلا روح ، لو شغلتها أسرة معيلة لما أحسست أنها مسكونة ، سقفها عال ، كأنك فى قعر بئر ، السفلى من جدرانها مطلى بدهان أزرق كئيب محبب كحمو النيل ، والعلوى من جص كالح سقط من الجرب بعضه دون البعض ، يرسم أشكالا لا تثبت للعين على هيئة واحدة : بقايا وجوه خبيثة تستدير لك فى حركات مفاجئة مرة يمنة ومرة يسرة ، ثم تضيع وسط أشلاء الخراب لتبرز تتجسس عليك من جديد •

يصل الى أذنى طول الليل أصوات جر سلاسل ، وخبط بالأكف على البنادق ، ووقع حوافر خيل الداورية خارجة داخلة على عواء الكلاب ، وعناء مفاتيح لا شك غليظة تدور فى أقفال ، وصرير أبواب لا ريب ثقيلة تفتح وتقفل ، وضوء يسيل وهو مختنق • وسطل تهوى على جانبه يده فترن كالجرس ، ورش للماء كطرقعة سوط رفيع ، وحديث كله صراخ لا أتبين ألفاظه ، كأنه فض لا ينتهى لنزاع يتجدد ••

يخال الى أن هذه الضجة تصلنى من عالم قصى مجهول ، لا أدرى هل أنا فى حلم أم فى يقظة ، ثم أخذ الليل يذوب ويضمحل شيئا فشيئا ، وفجأة عم ضوء وهاج عنيف ، انتشلتنى يده — كالغريق — من لجة الظلام • الساعة لم تبلغ الخامسة ، أمامى ثلاث ساعات على الأقل لا أعرف كيف أقضيها فكان عذابها على فى النور أشد وقعا من وساوس الليل البهيم كله •

وحين نزلت ومررت أمام « البلك أمين » قيد اسمى وساعة وصولى للمكتب فى دفتر الأحوال •• حينئذ أدركت أننى نمت تلك الليلة انسانا واستيقظت معاونا للادارة •

معاون الادارة

وجدت على مكتبى أوراقا مكومة شذر مذر فى تل مرتفع، فمعاون الادارة كان فى عهدى تلقى عليه كافة الوزارات أعباءها ، فهو يؤدى أولا كل خدمات وزارة الداخلية ، من تحقيق للجرائم ، والخروج فى الدوريات ، وانتخابات العمد والمشايخ والتحقيق معهم وتحصيل الجزاءات منهم ، والتفتيش على السلاح غير المرخص به وضبطه ، والقيام بتحريات عن طلبات جديدة للموالد والاشراف عليها ، وحماية شركة الأسواق الانجليزية بزج الفلاحين قسرا داخل أسوارها واحصاء السكان ، والبحث عن الغائبين والهاربين ، واصدار رخص فتح الدكاكين ، وابطال المدافن القديمة ، وانشاء مدافن جديدة ، والسماح لثرى أن يدفن فى مسجده ، وحضور مزاد المعدية وتحصيل رسومها ، وجمع الحجاج وتسهيل سفرهم ، ومراقبتهم عند عودتهم . وأخيرا توزيع بطاقات حفلات الجمعيات الخيرية قسرا على العمد والمشايخ ، وسوقهم للسفر الى القاهرة أو الاسكندرية لحضور تشريفة كبرى فى عيد جلوس أو عيد ميلاد .. ولوزارة المالية تحصيل الضرائب كلها ، والحجز على المتخلفين وبيع متعلقاتهم ــ فهو المشرف على الصيارفة ــ ومسح الأراضى لتعديل الضريبة ، ومسح المواطى والجزر والعلو وأكل البحر ــ فهو المشرف على المساحين ــ وصيانة املاك الحكومة وتحصيل ايجارها ، وتقدير قيمة المبانى

وتحصيل رسومها .. ولوزارة الحربية اعداد قوائم المجندين وحضور الفرز ـ وهو يوم عصيب ـ وضبط المتسحبين .. ولوزارة الزراعة مقاومة الدودة والجراد وآفات النبات والحيوان ، وتنفيذ قانون ثلث الزمام ، والاشراف على اعداد الاحصائيات التى تطلب من العمد والمشايخ عن المحاصيل والأشجار ، وهي احصائيات « خليها على الله » ! . ولوزارة الأشغال حراسة جسور النيل ، والمرور عليها ، واصلاح كسورها .. هو يد الحكومة فى تنفيذ بقايا السخرة فى قسر الفلاحين على الخروج لحراسة الجسور وتقديم البوص والحطب .. ولوزارة العدل الحضور عن الحكومة فى القضايا المرفوعة منها ضد الأفراد ، وتنفيذ أحكام الطاعة ، والمشاركة فى أعمال المجالس الحسبية ، وتلقى طلبات القناصل الفخريين .. ولوزارة المواصلات تحصيل رسوم انتفاع الأهالى بجنبيات شريط السكك الحديدية ، ولها نصيب فى ازدياد عمله من ضبط المسافرين بلا تذاكر ، ومعاينة حريق المحاصيل من شرر القطارات ، وتحقيق حوادث القاء حجارة على الشريط ـ وهي حوادث كثيرة .

انني اذا لم أتعلم من هذا العمل كل شيء عن بلادى وأهلها فاني اذن حمار .. مع الاعتذار لأصدقائى الحمير ! .

منفلوط

وجدت منفلوط بلدا خفيف الدم معتدل المناخ غير محروم من الماء والنور ، لا يندفس فى حضن الجبل ، بل

يتوسط رقعة تفصل بين النيل وجسر « الابراهيمية » ، يحاذيه شريط السكة الحديدية • اذا نزلت من القطار قابلك الريف من فوره ، عن يمينك حوض متسع يمتد زرعه الى نهاية البصر ، وعلى يسارك دور حديثة ، وقهوتها، وبناء المحكمة ، والمركز ، وقصر الطرزى ، وبركة غير صغيرة ، هى أول لقاء لى بمشكلة البرك فى الريف ، ثم ينعرج الطريق الى اليمين نحو الجنوب الى أسيوط عند موقع نقطة المومسات •

ان منفلوط تمتد نحو المحطة لا نحو النيل • وكنت لا أبلغ الموردة الا بعد مشقة وعبر حقول ليس فيها طريق للمرور •

ووجدت أبناءها ــ هي وقراها ــ أهل طيبة وأمانة وحياء لعلها سر انقباضهم عن الغرباء أمثالى من الموظفين •• لم يشذ منهم الا قرية واحدة عرفتها فيما بعد حينما تكفلت هى وحدها بأكبر نصيب فى جرائم القتل • اننى أعز منفلوط لأنها أكرمتنى وعاملتنى باحسان وأغمضت عينيها عن حماقاتى وعيوبى •

ينبغى لى أن أبحث بسرعة عن مسكن لا لأجد فيه المأوى فحسب ، بل لأتخذ فيه مطبخا يقيم أودى ، فلم أجد فى منفلوط مطعما واحدا أستطيع أن آكل به • وعثرت على مسكن صغير مستقل ــ ايجاره مائة وثمانون قرشا ــ نصفه بالطوب الأحمر ونصفه الآخر لحسن الحظ بالطوب النيىء ، فقد ارتاحت نفسى لهذا الاطار الصادق للصورة الجديدة لحياتى • وكان أول شيء فعلته أن اشتريت لبدة وزعبوطا ، أزعم فى غرورى أننى أجد فيهما الالهام اذا جلست أكتب فى الصعيد ، وهذا مثال من تقاليع ناشئة

الكتـاب وأوهامهم ·· لا يعلمـون أن النفس ترفض كل تحايل · نعمت بالاستقلال وشقيت بالوحدة لأول مرة فى حياتى ·· أنا رب الدار وأهلها ، لا يسألنى أحد متى والى أين أخـرج ومن أين أعود ، ومع ذلك فمن الغـريب أننى مكثت زمنـا طـويلا اذا رجعت متـأخرا بالليـل لمت نفسى وشـعرت بانقبـاض المذنب يخشى القبض عليـه متلبسـا بفضيحة ، وفتحت الباب محاذرا أن أحدث ضجة ، وعلوت السلم متسحبا كاللص على أطراف قدمى ، كأننى أتوقع أن ينفتـح فى بيتى المهجـور باب وينـدلق فى الظـلام نور ويضبطنى صوت شبح أمى تقول « هل عدت ؟ » كانت هذه هى عادتها معنا ، لا تنام الا اذا اطمأنت أننا عدنا جميعا لم يدهسنا ترام ·

ليس لى فى زحمـة العمـل وقت أستطيع أن أتريث فيه وأسأل نفسى : « ما الذى حدث ؟ ما الذى جرى لك ؟ » ·· اننى لا أرقبهـا ، ومع ذلك أحس بأن مألـوف طبعى يذوب شيئا فشيئا ، تحل محله عادات جديدة مفترسة تتناولنى بأنيابها ومخـالبها ·· وجدتنى لأول مرة فى حيـاتى يعلو صوتى ـ مع الأسف ـ بأقبح ألفاظ السب الوقح الفـاحش المقذع الداعر ، لعلى كنت أجد فى مقدرتى على التفوه بها لذة كبيرة تعوض حرمانى وأنا صبى من مجاراة رفقـاء الحارة فى هذه المتعة العجيبة ··

فهذا السب انتقل الى بالعدوى من زملائى ، فهو وسيلتهم الأخيرة فى استخلاص الحقيقة من أفواه المتهمين والشهود والمراوغين ، فالقضية البسيطة التى ينبغى أن نفرغ منها فى غمضة عين تنقلب بمجرد بدء التحقيق الى « حسبة برما » · الشهود لا يفهمون السؤال ، اجابتهم خارجة عن الموضوع ،

لا يقولون لك الحق الا بعد جهد شديد ومراوغة ، لا يأبه الواحد أن يعدل من فوره عن قول سجلته في محضرك منذ .نيهة فيقلب التحقيق رأسا على عقب ، لا يلتمس لنفسه عذرا ، أفواههم بئر عميقة تجر منها دلوا ثقيلا . ثم ينشب العراك بين المتهم والمجنى عليه وبين المتهم والشهود وبين الشهود بعضهم وبعض ..

يحدث كل هذا في ركن حجرة صغيرة ، وفي بقية الأركان قضايا وضجة مماثلة ، ينهدم بعض زملائي فتنبعث من حلوقهم ألفاظ السب الداعر كأنها صرخة استغاثة واحتجاج ، أو كأنهم يرونها وسيلة للارهاب ، أو أقل عقاب يستحقه هؤلاء الناس لقاء ما يذيقونه لهم من عذاب ، بل يذهب بعض زملائي في قنوطه الى حد القيام من مكتبه وصفع المناكف بالأقلام على صدغيه ، وفيهم من ينادي عسكري المركز ليحمل عنه مشقة هذه الغلظة الفظة . والمصيبة أنني اقتديت بهم أيضا .

انني أعترف بجرائمي لأنها سقطت بمضي المدة ..

دبوس

انني لم أنس هذه القضية .

كانت القرية في ذلك اليوم ـ ككل يوم ـ منصرفة الى شأنها ، يباع فيها الزمن بالنهار لا بالساعة ، اذا لم يعل الولد ظهر جاموسته ـ قاعدا أو راقدا ـ أو يذهب للغيط بقي في ساحة القرية يجري ممتطيا عودا من حطب الأذرة .

فاذا بهم يهل عليهم رجل لا أدرى من أين ٠٠ رجل فى عمامة خضراء وفي يده دف ، وفي يده الأخرى شيء اسمه الدبوس ، وهو مسمار غليظ طويل ، له رأس كبيرة من الخشب ، انه جاء يعرض على أهل القرية كراماته ، فيدق لهم على الدف مترنما بأناشيد فى حب الرسول حتى تدمع عيناه الكحيلتان ، فاذا تجمع الناس حوله ـ والأولاد أكثرهم ـ صرعه الوجد ، وزاغ بصره وهمهم ودمدم ، وتناول هذا الدبوس فغرزه فى أحد شدقيه فخرج طرفه من الشدق الآخر ٠٠ ما شاء الله !! قدرة قادر ! ثم ركز سنه على عظمة ترقوته وأخذ يرقص والدبوس لا يقع ٠٠ سبحان الله له فى خلقه شئون !

ووقفت امرأة وراء صبيها ، هى أشد منه انبهارا ٠٠ فاذا بيد الرجل تهبط على رأس الصبى وتمسحه ويقول لها : مبروك ان فى ابنك شيئا لله ٠٠ رأيت عليه علامات الصلاح والوصول ، وسأثبت لك هذا ، وجذب الصبى وسط الحلقة وجعله يركز الدبوس فوق عظمة ترقوته ، لم يكد الصبي يدور دورتين حتى وقع على الأرض مغشيا عليه ، فانكفأت فوقه العمامة الخضراء تحمد الله وتشكره فقد تجلت على الصبى كراماته ، وانطلقت الأم تزغرد بأعلى صوت ، وجرت اليها بقية النسوة يزغردن أيضا ، وان لم يعلمن السبب بعد ، كان الدبوس بضغط رأسه الثقيل قد خرق سنه المدبب ـ فى غفلة ـ جلد الرقبة ، ونفذ من اللحم حتى طعن القلب ، وبدأ الدم يسيل الى جوف الصبى ، ولا أحد يدرى ٠ تتابعت شهقاته وحشرجته ، والشيخ يرقص والأم تزغرد حتى أسلم الصبى الروح وسط معالم الأفراح ٠

وبعث العمدة بالجميع الى المركز ، وعهد الى بالتحقيق ، وأخذت أدير بصرى بين الأم قد خدشت خدها بأظافرها ، وانتكش شعرها ، وبح صوتها ، وبين الدجال النصاب تحت عمامته الخضراء التي تغرر بالفلاحين ٠٠ فقدت حلمي ورباطة جاشي ، لا تؤلمني وفاة الصبي بقدر ألمي للزغاريد تنبعث من فم أمه ٠٠ لم أعرف كيف أضبط غضبي وقمت فصفعت هذا الرجل المسكين قلمين ، لا تستطيع أن تقول ـ ان رأيت يدى ـ أنهما قلمان ساخنان ٠٠ ومع ذلك ندمت وعشت أياما أتصور أن يدى ستصاب بالشلل لمجرد أن الرجل كان يرتدى عمامة خضراء ٠

آه ٠٠٠ ياعيني

هذه حادثة أخرى باقية في ذهني ٠٠

كنا في شهر أغسطس ، لم نفارق مكتبنا منذ الصباح المبكر ، تغذينا فولا مدمسا ، وجاء المغرب وولى ، وجاءت العشاء وولت ٠٠ ونحن منهمكون في العمل ٠ نأمل أن يأتي لنا الليل بنسيم عليل يجفف عرقنا ويفك توتر أعصابنا ويرطب حلوقنا ، كأن الأرض قد بلعت في شهيقها هواء النهار الساخن فازداد في جوفها التهابا ، وعند الليل بدأت في زفيرها تنفخ به في وجوهنا ، هواء لافح يختلط فيه عطن الماء الآسن وزخمة الجحور ووقدة الطين وذوب القش والغبار والهاموش ، وخرجنا الى الطريق نتعلم المشى من جديد ٠٠ نعالج تخشب سلسلة الظهر والرقبة

وهمدان اليد ولسعة الجفون ، معاون البوليس ـ وهو رجل مهذب من أسرة طيبة ـ قد فك ـ رغم أنف القانون ـ أزرار سترته العسكرية ، يمشى كفارس يترجل لفوره من على ظهر جواد بعد مشوار طويل ·· لم يخط خطوتين حتى هجم علينا رجل يضع كفه فوق عينه :

ـ يا سعادة المعاون ! الواد شحاته ضربنى قلع لى عينى ، فى عرضك ·· فى طولك ·· الحقنى ··

ياللمصيبة ، هذه جناية ! سنعود للمركز وسنقضى فيه بقية الليل ·· ولكن صبرا ، لا داعى لليأس ، هذا الفتى نعرفه ، أنه أكبر كذاب فى المدينة ، لا أعرف من أين يرتزق فانى لا أراه الا متسكعا بجانب المركز ، يدخل علينا كل يومين أو ثلاثة وبيده بلاغ يشكو فيه ضحية له جديدة من خلق الله ·· بلاغات باطلة ، أو عن مسائل تافهة ·· لا شك أنه يكذب هذه المرة أيضا ··

رأيت المعاون فى شدة غيظه يهوى بقبضة يده على رأس هذا الرجل المناكف ، ثم يركله بقدمه ··

يا حضرة المعاون ! عينى ·· أنا فى عرضك ·

ينهال الضرب من جديد ونحن نضحك ونتوقع أن يرفع الرجل بين لحظة وأخرى كفه عن عين سليمة انطفأت فى نظرتها ـ فى قبضة الألم والخجل ـ لمعة التخابث وحب المعابثة · لن ينقذنا الا طبيب المركز ليثبت لنا فى ورقة رسمية كذب مدعاه ، فنادى المعاون عسكريا وكلفه أن يبحث عن الطبيب من تحت الأرض ويستكتبه ورقة بما نريد وجلسنا فى القهوة ، وتشاغلنا ونسينا ما حدث ،

وإذا بنا ننتبه الى العسكرى يدخل علينا ويضرب سلاما ويمد لنا يده بورقة :

« بالكشف على (•••) تبين أن عينه اليمنى قد انقلعت من محجرها •• »

هذه صورة كريهة ـ وسأذكر مثلها فيما بعد ـ هى من ماض محزن كانت مصر تعيش فيه مذهولة عن نفسها وفضائلها لذل الاحتلال وافتقارها لحاكم يؤمن بها ويثبت أقدامها ويصغى لوجيعتها ، مضى هذا العهد ومظاهره الى غير رجعة ، حينما ظفر الشعب بوحدته وتضامن طبقاته وآمن بعزته وكرامته وتولى أمره أبناؤه •

دجالون

ذكرنى لابس العمامة الخضراء بالدجالين المنتشرين فى الريف ، يستغلون سذاجة الفلاحين ، هم على أنواع ، منهم المقيم ، أكثر زبائنه من النساء ، يكتب لهن الأحجبة ويشفيهن من العقم الخ الخ •• مكرهم هين ، وخطرهم قليل ، وسطوهم على المال معتدل ، لأنه متصل ، يزعمون الصلاح والولاية ، تتبرك بهم النسوة ولا يرهبنهم •

ونوع آخر من المقيمين يزعم أن بينه وبين الشيطان عهدا وميثاقا ، فهو مرهوب ، اذا مر وسط الناس تباعدوا عنه حذر أن يقع ظله عليهم ، ضحاياه من الرجال ، فهو القادر ـ ان شاء ـ على أن « يربط » الواحد منهم فيصبح وهو فى أتم صحة عاجزا عن التمتع بالحب ، ثم اذا شاء فك فى

غمضة عين وثاقه ، وهذا أعجب مثال رأيته لتغلب الوهم على نفوس الفلاحين ، والغريب أن الضحايا لا يكتمون بلوتهم ، ولا يأبهون أن يشيع خبرها ، بل لا أبالغ اذا قلت انني آنست في وجوههم دلائل السرور والسعادة كأنهم تلاميذ ظفروا بأجازة غير منتظرة ٠

وكان أشهرهم رجل يقيم في قرية بطرف الوادى ، يقع منزله على سفح الجبل ، وهو مأوى الجن ٠ اذا طلع النهار ذابت الجن كالثلج تحت وقدة الشمس ، وتلاشت أشخاصها وتحولت الى فتات يطاردها الريح كالكلب المسعور من الكهوف والجحور ، ويبعثرها ويضرب بها الصخور ، صفيره من ولولتها وعوائها ٠٠ ولكن صبرا سيأتى الليل ، سينزل المؤذن بعد أن دعا الى صلاة العشاء ، وما هى الا دقائق حتى يتم الركوع والسجود وتنقطع تلاوة القرآن ، ويأوى الناس الى المضاجع ويغلقون عليهم أبوابا يظنون في غفلتهم وبلاهتهم أنها تحميهم ٠٠ لا يعلمون أن الجن تنفذ من عقب الباب ٠٠ حينئذ تتجمع الجن من جديد ٠٠ ويتضح لكل منها شخصه وتبسط مرة أخرى سلطانها على الأرض ، تعقد الندوات ، وتستضيف أشياعها من بنى آدم ٠ هذه هى اللحظة التى ينفلت فيها هذا الرجل من مسكنه ، فيغشى الجبل ويغيب رسمه ، لا تخطىء قدمه موقعها وان كان الليل فى لون الحبر ، كأنما تقوده يد خفية ، تؤاخيه الذئاب ، وتسلم عليه العقارب ٠٠ هذا ما يزعم الناس ، والرجل راقد فى فراشه ، يحاذر أن يغادر داره لكثرة أعدائه ٠٠

وقد سعيت الى لقائه ، فوجدته قزما نحيلا يلبس فى عز الصيف زعبوطا خشنا يكشف عظام صدره ، مجعد الوجه ،

عيناه دائرتان ، لم أر مثله جمعا بين الحذر والتوثب ، والدفاع والهجوم ، تنطق ملامحه بهم من اطلع على سر مخيف غير مأذون له أن يفضى به الى أحد ، كأنه فرغ لتوه من مسح العرق من على وجهه بعد مشادة عصبية طويلة استنفدت قدرته على التحدث • لا أدرى لماذا بنى طول جلستى معه وكف له مبسوطة ، وأخرى مطبقه . كأنما جعل فى الثانية تدبره ، وفى الأولى كلامه • أطبق فمه وراوغنى وأنكر شهرته ولم أفلح فى أن أستلين هذا الذئب المتحفز •

هذه الرهبة التى يبعثها فى قلوب الفلاحين هى التى قادته ـ فيما أعتقد ـ الى الاشتغال أيضا بالاقراض بالربا الفاحش •• حين يأتى موسم جنى القطن تكون يد الفلاح فارغة من المال فلا يجد مفرا من الالتجاء للمرابين • وكان ثمن القنطار فى ذلك العهد ستة جنيهات ولكن المرابى يشتريه قبل الجنى بثلاثة فقط ، أى أن رأس ماله يتضاعف فى أقل من عشرة أيام ، ولا يقبل على اقراض الفلاحين بالربا الفاحش الا من كانت له سلطة عليهم ليضمن رد ماله ، فهذا هو سر التحاق ساحر « الربط » بأسرة المرابين •

وجدنا جثته ملقاة ذات يوم على الجسر ، فى عب زعبوطه لفة ضخمة من عقود مبرقشة ببصمات الأصابع ، وفى جسده أكثر من عشرين طعنة سكين ، وطوى التحقيق سريعا وسط شماتة الناس كلهم ، لم نعرف الفاعل ، وأجمع الرأى على أنه واحد من مدينيه لا مربوطيه ، وكنت أقول لنفسى : لعل الدليل على ذلك أننى لم أسمع امرأة واحدة تزغرد حين شاع خبر مصرعه •

***

دخل على فى المركز ذات صباح رجل يكاد يسقط من الاعياء ، مصفر الوجه محمر الجفون وشكا لى أنه لم يذق

طعم الراحة منذ أسبوعين ، فمايكاد يأوى الى فراشه وتنقطع الرجل من الطريق وتدخل عينه فى النوم حتى يفزع لهبد مكتوم متكرر يهز الجدران ، ينبعث من منزل جاره ، لا ينقطع الا عند بزوغ الفجر · سأل جاره عن الخبر ، فأنكر انكارا شديدا أن الصوت منبعث من منزله ، وأقسم أنه ينام وأهله مع العشاء ، ورجح أن هذا الهبد هو معابثة جن فى منزل الرجل نفسه ، وأكد له أنه لو صبر عليها أسبوعا ، أسبوعا واحدا فحسب ! ·· فانها ستستنفد رغبتها فى هذه المعابثة وتنصرف باذن الله ، ويحسن صنعا لو أطلق فى منزله البخور الجاوى · (دهش الرجل لكلام جاره اذ لم يعهده من قبل خبيرا بالجن والبخور) ·

بعد العشاء بقليل اصطحبت أحد العساكر وسرنا حتى بلغنا المنزل ، ووقفت على الباب قليلا ، فاذا بآذاننا تسمع ـ كما قال الشاكى ـ هبدا مخنوقا متواليا ، دققنا الباب دقا يماثل هذا الهبد فى قوته أو يزيد ، ولكن الباب لم يفتح · وبدأت الناس تتجمع حولنا وتعلو أصواتهم وأدرك جميع أهل الحارة أنها « كبسة » ··

وبعد قليل انفتح الباب ووقف أمامنا رجل يلف رأسه عرضا بمنديل أحمر تورمت فى الجبهة عقدته ، خلع جلبابه وبقى فى قميص ممزق وسروال منتفخ مسود ، تتدلى دكته الى الركبتين ، معفر الوجه واليدين والقدمين بل كأنما أهيل على جسده كله تل من التراب ··

وقعت نظرته علينا ثم طارت الى باب القاعة المفتوح على الفناء ، الى اليسار منا ، فباب الفلاح لا يفتح على الفناء ، بل على مدخل وراءه جدار ·· لئلا تنكشف الحريم لأول نظرة من القادم ، فقادتنا نظرته وحدها ـ شأن كل

الخائفين ـ الى مكمن النسر ، لم نكد نصل باب القاعة الموارب حتى وقفنا مبهوتين ، فقد أصبحت تلالا عالية من التراب الرطب ، تدور مع الجدران ، ووسطها بئر عميقة يهبط قاعها خمسة أمتار على الأقل •

تبين من التحقيق أن الرجل وُقع في يد نصاب محتال أوهمه أن كنزا عظيما مدفون في أرض منزله ، وسلبه كل ماله حتى باع مصوغ زوجته • واختفى المحتال ولم نستطع الاهتداء اليه لأنه غريب عن المركز ، وظل الرجل أسبوعين لا يذوق فيهما هو الآخر طعما للنوم ، يمضى ليله كله فى فحت الأرض ، دون أن يلحقه اليأس •

غضب المأمور على لأن الشكوى الادارية الأولى عن الهبد المكتوم قد انقلبت فى يدى الى جنحة نصب ستضاف الى احصائيات الجرائم فى المركز • •

***

أما المحتال الآخر فأشد جرأة ، لم يختف بعد فعلته ، بل رأيته يجلس فى القهوة مطمئنا ، يشرب الشيشة بلذة كبرى • هو أفندى من أهل القاهرة ، يكسب مالا وفيرا من كشف الطالع والمستقبل ، وليس بلازم أن تأتيه بنفسك ، بل ترسل له ـ من أى مكان فى الأرض ـ خطابا داخله حوالة بريد بأربعين قرشا • • ولكنه لا يقنع بهذا كله ، فلهُ ـ كالأعيان والسياح ـ رحلة فى الصيف الى وجه بحرى ، ورحلة فى الشتاء الى وجه قبلى • • لا أظن أن مرجع أسفاره هو قلق نفسه ، بل أرجح أن سر بقائه هو معرفته متى يقب ومتى يغطس •

قربت مقعدى منه فلم تمض دقائق كثيرة حتى وجدتنى اجلس منه جلسة التلميذ .. أفاض على بكلام ساحر عن التصوف ووحدة الوجود ، ومعنى الظاهر والباطن ، وعن انهزام كل القوانين أمام النفس الواصلة .

لجأت اليه أسرة فى المركز ليشفى بنتا لها مصابة بالصرع ، فطلب أن يتركوها فى الدار معه لأن العلاج من الجن يتطلب أن يختلى بها بعيدا عن الناس .

لم يكد ينصرف بعد الخلوة التى طالت ، مبشرا بالشفاء ، موصيا أن تترك الفتاة لحالها أياما لا ترهق بسؤال ، حتى رأت الأسرة من فتاتها تحولا بعد اعتداء له آثاره ، فطار اليه أب الفتاة لا يقوى على أن يستل غضبه من براثن الخوف والرهبة من عالم الجن المسيطر عليها ، ففاجأه الدجال بقوله :

ـ ماذا كنت أفعل ؟ لقد استطعت أن أسيطر على العفريت الذى تلبسها وأمرته بالخروج من جسدها ، فقال ان أمامه طريقين لا غير ، أحدهما من عينى الفتاة . فماذا كنت أفعل ؟ هل كنتم تريدون منى أن أفقأ عين فتاتكم ؟

كتم الأب جرحه ولم يتقدم الينا بشكوى ضد هذا المحتال خشية الفضيحة .

ظللت طوال الجلسة أتطلع الى وجهه محاولا أن أستشف سر هدوئه وثباته واطمئنانه ، وكدت أملس عليه طلبا للعدوى .

***

ولكن اغرب نصاب صادفته فى الصعيد لم يبعث فى

العجب لجرأته بقدر عجبي لسذاجة الفلاحين ، فان حادثته عندى هي مضرب الأمثال في انهزام العقل بل انهزام الغريزة أمام الدجل ٠

في منفلوط سيدة تعد من بين الفلاحين موسرة ، وهي في نظر الموظفين مثلي فقيرة ، كان لها ابن وحيد ، حين بلغ سن الشباب خرج ذات يوم من داره ثم لم يعد ، اختفى كأنما بلعته الأرض ٠ هل هو حي ؟ هل هو ميت ؟ أين هو ؟ ٠٠ لا أحد يدرى ، لبست أمه السواد عليه ، أهون لديها أن يصلها خبر موته من ألا تعرف له مزارا تقصده في المواسم والأعياد وتؤنس عزيزها في وحشة القبر ، وتوزع فوقه الخبز والتمر على الفقراء لينزل برها رحمة ونورا عليه ، ومر أكثر من عشرين سنة لم يهدأ فيها حزنها ٠

جلجلت ذات يوم زغاريد من بحرى البلد ، هذا فرح يستوقف فيه المارة الغرباء وتوزع عليهم أكواب الماء المحلى بالسكر ، تقيمه هذه السيدة ابتهاجا بعودة وحيدها بعد الغياب الطويل ٠ طرقت بابها في الصباح يد لا تألفها فلما فتحته وجدت أمامها رجلا يلف رأسه بكوفية تغطى شراشيبها جبهته وأذنيه ، فلم يكد يراها حتى ارتمى على صدرها يقول : « أمه ، أمه ، أنا رجعت أهوه » ٠ بهت وجهها وتخاذلت ، يكاد يغشى عليها ، لها نظرة تنبعث من عينين أذبلهما البكاء وغطاهما بطبقة صفيقة من السحابات ، تريد أن تتملى من وجه حبيبها وهو يدفس وجهه في صدرها ويبكى ٠

وظل الفتى أياما ، جلسته أمام الباب يستقبل المهنئين ، يأكل الشقانق والمقانق ، ولا يخلو جيبه من نقود ، ويشعل سيجارة من أخرى ٠ ولكن ماذا تقول في الطمع وخسة

الطبع ، كانت للسيدة اسورتان من ذهب وخلخالان من فضة ، لقد انقضى عهد التزين ولكنها تحتفظ بهما فى قعر صندوق خشبى فى حجرتها ليوم الزنقة • كانت تصعد السلم ذات صباح بعد أن أعدت لحبيبها فطوره ، محنية الظهر ، تكحكح فرأت ابنها يخرج من الحجرة مهرولا ، ولما رفض البقاء حين استوقفته ، شيعته قائلة : « روح اتفسح ربنا يكتب لك فى كل خطوة سلامة ! » •

ودخلت الحجرة فرابها أن الصندوق لا يحسن اطباق فمه ، كأنه أبكم يريد أن ينطق بكلمة من بين شدقيه لا من طرف لسانه ، فتحته فرأت الثياب مبعثرة والأساور والخلاخيل قد طارت •• فزعقت زعقة واحدة •

لا يعلم أحد على أى مصيبتيها تنوح ، ولحقته الزعقة وهو مجد فى خطوه فى أواخر الحارة ، فجرى ، وما يكاد يجرى حتى جرى الناس وراءه ، وانكشف أمره وجاءوا جميعا للمركز وأحيل التحقيق على •

واستفاقت السيدة أخيرا للنصاب الذى غرر بها ، لا لأنه سرق حليها ذخيرة العمر ، بل لأنه حين قبض عليه لم يلجأ اليها مستعطفا يقبل يديها ، معلنا توبته ، بل رأته ذليلا كفأر وقع فى مصيدة لا يهمه الا أن يجد لنفسه مخرجا ، أما هى فقد نسيها ، لا يوجه اليها نظرة واحدة • سألته عن اسمه فتلجلج قليلا وزعم لنفسه اسم ابنها الغائب ، فناديت العسكرى وقلت له :

ــ اعمل له فيش وتشبيه •

سحبه العسكرى من تلابيبه لا من يده امعانا فى اهانته ، ومضى به نحو الباب ، وفهمت الأم أنها مطـالبة بالانصراف أيضا ، ولكنها تجمدت أمامى تدير رأسـها تلاحق ظهر من غشها وسرقها بنظرة غائمة ، لو عاد ابنها لكان فى مثـل عمره ، وسمعتها تتمتم : « روح الله يسامحك » •

وبعد أيام وصلتنا صحيفة سوابق طويلة مهيبة •

سمات مهملة

يحمى الفلاح من هؤلاء الدجـالين ويشـفيه من أضغانه وأحقاده واضـماره الثأر رجال طـوافون يشتـهرون عنده بالصلاح والتقوى والولاية ••

مر على بالصـعيد نفر غير قليل من هؤلاء الملـوك غير المتوجين •

لا حد لسلطانهم على رعاياهم ، لهم أيضا جولات موسمية ينتقلون فيها من عشيرة لأخرى • فمـا يقدم الواحد منهم وينزل عند أحد مريديه حتى تنقلب حياة البلد من النقيض الى النقيض ، تحس فى الجـو أن الهـدنة قد أعـلنت وأن النـاس قد فرغوا من أمر دنيـاهم الى دين نسـوه زمنا ، فحلقـات الذكر لا تنقطـع ، والصـلوات تقـام جماعة فى أوقاتها •

ويلتف الفـلاحون طـول النهـار ومعظم الليـل حـول الشيخ ، لا ترتكب جريمة واحدة ، يصالح الخصم خصمه ، ويسترد الرجل مطلقته ، ويعذر الدائن مدينه ، الرجال فى

خشوع واستعبار ، تكسو وجوههم سعادة كبيرة ، والنساء أكثر منهم سعادة لأنهن منهمكات فى اعداد الفخر طعام لديهن • يشعرن أنهن أصبحن هن وأولادهن فى حرز منيع •

رأيت بعيني رجالا يتخاطفون ماء وضوء الشيخ ليشربوا منه ، ولا يرفع فمه من القلة حتى تدور على بقية الجالسين للتبرك ، وما يكاد الشيخ يعلن عزمه على الرحيل حتى يحلف رجل بالطلاق ثلاثا الا أقام أسبوعا آخر ، فاذا انقضى أقسم رجل آخر اليمين ذاتها ، وهكذا دواليك •• وكنت أسأل نفسي : لماذا لا تظل القرية هكذا فى سلام طوال السنة ، ولماذا يغلب الشر من جديد متى غادر الشيخ؟

وقد حضرت مجالس كثيرة من هؤلاء الشيوخ واستمعت الى كلامهم ، فلم يبهرنى منهم علم ولا أحسست بقوة روحية خارقة ، وظهر لى أن الولاية عندهم مهنة متوارثة لكسب الرزق • اننى لا أتهمهم بسوء ، وأبرئهم من بذل اى ضغط أو ارهاب للاثراء ، وان كان أكثرهم يميل الى البدانة لا الهزال ، الهدايا تقدم اليهم عن طواعية وطيب خاطر ، ولو رفض الشيخ هدية المريد لأصاب قلبه بطعنة لا يبرأ منها ••

ان نفع هؤلاء السادة للفلاحين فى عهدى ــ ولا أعرف الحال اليوم ــ كان عظيما ، لا يقتصر تأثيرهم على الفلاحين السذج فحسب • كان فى منفلوط كاتب مدرسة لا يرى بأسا من أن يلم بالخمارة بين الحين والحين ، وأن يكتب العرائض الغفل من الامضاء للنكاية برؤسائه وكان من مريدى أحد هؤلاء الشيوخ ، فرأيت بعينى ــ حين حل الشيخ ــ وقت نومه أقل من وقت ركوعه وسجوده حتى نبتت له زبيبة الصلاة ، وبح صوته من حلقات الذكر وتلاوة

الأوراد ، وانقطعت العرائض ونطق وجهه لنا جميعا بحب صادق ، فلما رحل الشيخ عادت ريمة لعادتها القديمة .

وقد شذ عنهم وبقى فى ذاكرتى الى اليوم يحوطه اجلالى واكبارى ، شخص نحيف ، يكاد يلتهب جسمه ، يشع الذكاء من عينيه ، مبرأ من الدنايا والصغائر ، قد صرع الخداع فى نفسه ، يعلم ما يفعل ولا يفعله الا حسبة لله وخدمة لبنى قومه وأخذا بيد هؤلاء الفلاحين المساكين ، اذا تركوا لأنفسهم بلا هداية ضلوا ضلالا بعيدا . هو الشيخ ابراهيم القاياتى رحمه الله ، لم أره يرضى أن يتبرك به كالصنم ، وكانت له سطوة كبيرة فى الصعيد وكان له فضل كبير فى فض الحزازات وابطال الثأر ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها ، لم يكن كل كلامه عن الدين ، بل نصائح أخ مجرب ..

رأيته مولعا بالتدخين . فالتفت الى وقال :

ـ لعلك تسأل نفسك كيف ابتليت بهذه العادة وكان خليقا بى فى نظرك أن أبرأ منها ، هذه سفاسف الدنيا ، لا أجد فيها عيبا .

تتبعت فيما بعد باعجاب كبير أخبارا كثيرة عن الشيخ ابراهيم أبو خليل ، رحمه الله ـ الذى كانت له مكانة سامية فى الزقازيق ـ تتبين منها حسن سياسته فى توثيق روابط الألفة والاخاء بين أسر عديدة . وددت كثيرا لو تجمع لى قدر كاف من أخباره لأستطيع أن أترحم له وأصف سياسته ، فهذه سمات مهملة فى التأريخ لمجتمعنا الحاضر .

***

احصائيات

ينبغى لى من أجل أن أصل بك الى الغـاية أن أقدم لك بعض المشاهد .

المشهد الأول :

على الدكة أمام منزل العمدة ، فرشها اكراما لى ببسـاط منسـل حائل اللـون . فى يدى أكثر من عشرين مسـألة يحتاج الفراغ منها أن يجند لى العمدة نفسه وأهله وخفراءه وحميره .

التليفون لا ينقطع عن تلقى اشارات عاجلة من المركز . وجاء الصراف على ركوبته ووقف أمامنـا وأنزل على الأرض زكيبتين منتفختين .

ـ خير ان شاء الله ؟

ـ آدى اللى طلعنـا به من المركز بعـد مادوخونا . وجع دماغ واصل .. استنى لما تشوف .

أخرج الصراف أمعاء الزكيبتين ، لفات ضخمة من ورق الميرى ، ولما فكها وجدت أمامى أكبر اسـتمارة رأيتهـا فى حياتى ، كأنها لحاف ، لا يقـل عرضـها عن نصـف متر ، وطولها عن المترين .

ـ مطلوب منا فى مدة أسبوع واحد أن تملأ الاستمارات .

ـ هى ايه المخروبة دى ؟

هذه استمارات الاحصاء الزراعى العام · صدر به قانون ، لا أدرى لماذا صدر ولا من الذى أصدره ، أغلب الأمر أننا دعينا الى مؤتمر دولى تعهدنا فيه بتبادل مثل هذه الاحصائيات طبقا لنموذج موحد ·

ان مثل هذه المؤتمرات نكبة على الدول الصغيرة التى تنساق محافظة على كرامتها بالتعهد بأعمال تفوق قدرتها ·

فالمطلوب أن يحرر كل مزارع هذه الاستمارة ليبين فيها مساحة أرضه وأنواع محاصيله ـ محصولا محصولا ـ ومقداره وأنواع ماشيته ودوابه ودواجنه ، وأشجاره بالاسم والتحديد ·

فى الاستمارة أسماء لمحاصيل وأشجار لا أسمع بها ولا أعرفها · انها مترجمة من النموذج الموحد · من الذى سيملأ هذه الاستمارات ؟ أين الفلاح الذى يقرأها ويفهمها ثم يكتب بخط واضح ـ لا كتخربيش الفراخ ـ أجوبته أمام الأسئلة ؟

أدرك العمدة والصراف أنها مصيبة وقعت على رأسهما ·

وقعد الصراف على الأرض وتناول أول استمارة ورفع قلمه عن أذنه ··

ـ خذ الأول أرض الباشا · بيقولوا ايه عندك ··

ـ كام شجرة لبخ ··

ـ قول عشرة عشرين ·

ـ وكام شجرة بلوط ·

ـ قول عشرين ثلاثين ، حد ح يعد ورانا ·

ـ وكام شوفان ··

ـ شوفان ايه ·· جتهم العمى ·· والله ما نضرناه ·· خط أمامه « لم كان » ·

لم أقم من مجلسى حتى كان العمدة والصراف قد أنجزا عددا غير قليل من الاستمارات على هذا النحو · وظللت طول الطريق يخيل الى أن حوافر الحمار تكرر فى أذنى نغمة العمدة :

ـ حد ح يعد ورانا ؟

حقن الفروج

المشهد الثانى :

على باب العمدة ، فوق كرسى من القش المبروم ، صمم صانعه أن يلطخه بما بقى عنده من بوية شم النسيم للبيض بالأحمر والأخضر ، بحرى بيت العمدة مسجد القرية ، تفوح منه رائحة لم أر فى حياتى أخبث منها · أكاد أتقيأ ويغمى على والعمدة ومن حوله ولا هم هنا ·· سمك قش الكرسى لا يقل عن سنتيمترين ، ومع ذلك نجح البعوض فى أن يشقه من تحت بابرته ـ كم طولها ـ فتنغرز فى لحم فخذى مخترقة مع القش البنطلون واللباس ·· أمامنا عدد من دجاج نحيل يتخاطف بقايا روث البهائم ·

أدركت أننى قطعت على الجالسين حديثا يتفكهون به ، بدليل الابتسامة المنتشرة على وجوههم ·· ورأيتهم يتوجهون

ببصرهم الى الصراف وهو جالس على الأرض وبجانبه خرجه ودفاتره وفي يده ورقة طويلة عريضة يطبقها •• وكان أول من أعاد الحديث رجل شـيخ يلبس زعبـوطا يكشف عن صدره ••

ـ وبعدين يامقدس خليل • كمل لنا قرايتك قول •

سألت الصراف : ايه الحكاية ؟

فناولني الورقة فوجدتها اعلانا كبيرا من وزارة الزراعة عن أوصاف طاعون الدجاج والاحتيـاطات الواجب اتخاذها لمقاومته : عزل الدجاجة المريضـة ، ورش الأرض بالجير ، واستدعاء الطبيب البيطرى ، وأنهـا مسـتعدة بلا مقـابل لتشريح كل دجاجة ترسل اليها •• في مخازنها حقنة ضد هذا الطاعون ثمنها عشرون مليما •

التفت الى الرجل الشيخ قائلا :

ـ ياحضرة البيه ، عشنا وشـفنا الفـروج ينضرب فيها ابرة ، هى الفروج بنى آدم ؟ السنة اللى فاتت شكونى ابرة قعدت أوحوح جمعة ، اشحال الفروج يابوى ؟

ضحك الجميع بسرور وفهمت من تطلعهم اليه واستقرار الأنظار على وجهه ومن استعدادهم للضحك لأقل ملاحظاته أنه فى الغالب عجوز القـرية المعـروف بدعاباته •• وقلما تخلو من مثله قرية ، رد عليه الصراف :

ـ بس لو كان عندك كتكوت واحد بلاش تقول فرخـة كان يبقى لك حق تتكلم •

ـ يعنى الفـرخة خفت ولا مـاخفتش مش ح تتـاكل ح تتاكل ؟ تو ما تميل رقبتها الواحد يدبحهـا ويخلص •

ومين فاضى يلم الفراخ الميتة ويبعتها للحكومة ؟ دى والله على ما توصل تكون اتعفنت •

صرخ فيه العمدة :

ـ يا شيخ درويش ، ما تفهم ، عقلك طخين ليه ؟ مانتش عارف ؟ شغل الحكومة كده •

رويت لى عن هـذا الشـيخ نادرة أراها ـ رغم ألفـاظها المستهجنة ـ مثـلا فذا للذكاء والبراعة وصـدق النظر فى استخراج الفكاهة ، ولا أنكص من أجل هذا عن اثباتها هنا ، تعريفا للقراء بنوع من دعابات أهل الريف •

مر ذات يوم جمع من الفلاحين متحلق على الأرض حـول طبق فيه طبخـة عدس جعضـيض لا منزوع القشر ولا هو بجبته ، بل هى حبات من العـدس لم تنضـج فى سنابلها فتباع بثمن بخس •• وغليت بالماء حتى أصـبحت عجينة مثل اللبخة •• كريهة المنظر ، لا هى صفراء ولا هى حمراء ، فقال لهم ••

ـ والله لو فسـا عليهـا واحد من بحـرى لقـلت انـكم تأكلون خ ••

ثلث الزمام

المشهد الثالث :

اجتمـاع على مسـتوى عال فى المديرية ، واجتمـاع على مسـتوى أوطأ فى المركز ، ثم انتقـالى ومعى قوة من الجند

السوارى الى القرية لأخلع أشجار القطن التى زرعت فى أكثر من ثلث الزمام ٠

كانت الحكومة لم تر وسيلة للحد من هبوط أسعار القطن الا أن تحدد الكمية المعروضة منه للبيع ، فأصدرت فى ذلك العهد لأول مرة قانونا يحرم زرعه فى أكثر من ثلث الزمام ، ولكن لا أدرى ما الذى حدث ٠

لعل الفلاحين لم يبلغهم خبر القانون الا بعد زرع القطن ٠ أو لعلهم علموا به ولم يأبهوا له ، ظانين أنه حبر على ورق ، على كل حال كان المطلوب منى يومئذ أن أرد القدر المزروع الى نصابه بالقسر والاكراه ٠٠

وجدت القرية كلها واقفة على رجل ٠٠ رجالا ونساء وأطفالا ، تجمعوا حولى : « فى عرضك يا حضرة المعاون ، حرام عليك تخرب بيتنا ، بعد شقانا وتعبنا » ٠ أرى بعض الوجوه تكاد تنطق : وماذا يهمك أنت من خراب بيتنا ٠ أنت تقبض مرتبك أول كل شهر ٠

ـ هوا ده عدل ٠٠

ـ طيب استنوا عليه وخدوه قطن شعر ٠

كيف تطاوعنى نفسى أن أقلع زرع هؤلاء الفلاحين ٠ انهم لو فعلوا ذلك فى زرع جيرانهم لساقتهم فعلتهم الى السجن ٠

فى ذهنى يوم أن حرث الفلاح الأرض ثلاثا أو رباعا ، ثم سواها ـ وهو محنى الظهر ـ من الصباح للمساء ، ورفع خطوطها وحفر مساقيها ٠٠ يوم أن خرج وفى حجره حفنة من بذور ميتة كالحصا ، يغرزها فى جانب الخط ، لا يدرى هل تنبت أم تتعفن وتموت ، يدعو الله يقيها شر ظلمات

الأرض ويريها النور .. يوم أن اتفق مع صاحب الماكنـة على ري الفدان ست مرات لقاء ثلاثة جنيهـات ، يوم جرى الماء أول مرة فغاص فى قنواته الى الركبتين ، يوم أن خرج من البذرة بصيص ، ساق هش تتعلق به ورقتان رقيقتان ، عاد فعزق الأرض وخف القطن ، يرمق النبت مشـفقا ، لو نزل الصقيع لذوى فى طفولته ، أو عصفت به الريح ارتمى صريعا ..

يوم هـددته دودة الـورق ودودة الشرانق ، يوم زنقة اطلاق مياه النيل فى الحيـاض قبـل أن ينضـج القطن ، بالنهار يحرسه وفى يده نبوت ، وبالليل يهجر بيته ويرقد عند رأس الحقـل على بندقية ، يسـعل بين الحين والآخر ليجاوبه جار مختف يطلق عيارا فى الهواء .

وقفت وسط الفلاحين أذكر كل هذا وأحار ماذا أفعل . فى ذلك اليوم قدمت لى الرشوة لأول مرة ، لا أزال أحس فى يدى ضغط يد فلاح يدس لى ورقة بعشرة جنيهات .. فلم أغضـب وسـامحت من أراد شراء ذمتى .. ولـم يدرك ما أحس به ..

وتحايلت .. أولا : اخترت جوانب المصارف والمساقى ـ وأشجار القطن لا تنمو ولا تزهر عنـدها ـ وجعلتها قدرا مشاعا تنتفع به القرية كلها . وثانيـا اغمضت عينى ولم أفتح فمي وأنا أرى المساح يزوغ ويرمي القصبة مرة بمقام مرتين ..

وعدت مع الغروب الى بيت العمدة وجلست أمامه ، أرى ألسـنة من نيران حمراء تنبعث من أكوام الحطب المكوم . وليكن فى علمك أننا طالبنا أهل القرية أن يقدموا لنا أيضا البترول الذى نحرق به زرعهم ..

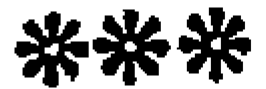
ذكرني ذلك بما قاله الجبرتي عن محمد علي عند وصفه لتشغيل العمال بالسخرة ، اذ أنه كان يجبرهم أيضا على أن يدفعوا من جيوبهم أجر الطبال والزمار والمنشد الذين سيسوقونهم بألحان تفعل فعل السياط لينشطوا في انجاز مهمتهم ..

وخرجت من القرية وقد لف الليل ما تراه عيني من اشخاص ، أحالهم الى أشباح مطأطئي الرءوس يمصمصون شفاههم عجبا وحسرة ..

كانت هناك هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة ، انتهى أمرها والحمد الله ، كانت عنده حينئذ ـ في عهدي بالصعيد ـ ليست خادما معينا ، بل سيدا مستبدا جاهلا ، نفعه قليل ولكن ضرره أكثر .

لم أسلم طول خدمتي بالصعيد من الشعور بالأسى لهذه الهوة . ووجدت معظم أشغال الحكومة ـ رغم حسن نيتها ـ يساء تفسيرها وتعرقل وتهدم ، وحاولت بكل قواي ـ بل جعلت ذلك خطتي وديدني ـ أن أستلين الفلاح حتى أجعله يثق بي ، فلم أفلح .

في ذهنه اعتقاد راسخ بأن الحكومة لا تفهمه ، وأن الموظفين أغراب أجراء لا يهمهم الا قبض مرتبهم ، وقلوبهم ليست معه ، وأكثر عبارة يرددها ـ كما رأيت ـ شغل الحكومة كده !



ورق لصـق

وذات يـوم تمـلكنى الهيـاج وضربت كفـا بـكف وأنا لا أتمالك نفسى على هذا من الضحك ٠

هذه حادثة لا ازال أذكرها وارددها فى أحاديثى ٠

استمع لها :

كان بريد المركز يجرى على سـنة قديمة ، اذا وصـلتنا عريضة من انسان وأردنا أن نستفسر من المديرية عن رأيها كتبنا بذلك رسالة وشبكناها بدبوس فى العريضة وأرسلنا الاثنين الى المديرية ، فيجيئنـا الرد ثـلاث ورقات ودبوس واحد ، فنعيدها اليها وقد أصبحت أربعا ، وهـكذا دواليك فيـزداد عـدد الدبابيس أيضـا ، حتى تصـبح الأوراق والدبابيس ، فيهـا من الأوراق الـكبير فى حجـم نصـف الفرخ ، والصغير فى حجم تذكرة الترام ، وأوراق مسطرة وأوراق غير مسطرة ، فيها ردود مكتوبة على الهامش يمينا أو شمالا أو من فوق أو من تحت ، وردود مكتوبة على ظهر ورقة أجنبية لا علاقة لها بالموضوع ، يتبـادل خطهـا رجال متعلمون ورجال لا يـكادون يعرفون فك الخط ٠٠ الافادة الواحدة متحف متنقل لنماذج الخط فى مصر ٠٠ وكان لابد من ارسـال هذا الـكوم كله فى كل مرة نحتـاج فيهـا الى استفسـار وان كان لا يتطلب الرجـوع الى هـذه الأوراق كلها ٠

وكان لا يزال بالمركز آلة تشبه آلة كى الطرابيش تطبع

فى دفتر ورقة شفاف صورة من مراسلات كتبت بالحبر الزفر ، فيخرج الأصل والصورة معا مقرطمة الأحرف ، مفرشحة السطور .. تحتاج من قارئها علما لدنيا ..

هذا هو نظام « الكوبيا » ومع ذلك كانت هذه الآلة لا تستعمل الا نادرا ★ .

فى صباح يوم وأنا أفتح البريد انبعثت لى منه رائحة حريفة ساطعة ، تشممتها فاذا بى أجد لها قربا برائحة الخردل .

يارب ما هذا ؟ وجدتها تفوح من افادة بدأت بأن قدم فلاح فى قرية طلبا لفتح دكان بقالة ، فدارت هذه الورقة البسيطة بين القرية والنقطة والمركز والمديرية وتفتيش الصحة زهاء سنة ، ذهابا وايابا حتى انقلبت الورقة الواحدة الى كوم ضخم من أوراق متربة متسخة ممزقة الجوانب مقصوصة الرقبة .

وكنت أعرف عمدة القرية وأحبه وأحترمه ، فهو من خريجي الأزهر الشريف ، ولأنه نظيف فى مسكنه وملبسه، ولأنه أيضا كريم النفس ذو حياء رقيق .. والظاهر أن كاتب صحة المديرية انتبه بعد سنة الى أن طلب فتح دكان بقالة ينبغى أن توضع عليه ورقة دمغة كانت تسمى فى عهدى (لا أدرى قبل أم بعد انشاء مجمع اللغة العربية) ورقة لصق ، ثمنها ثلاثون مليما . فكتب للمديرية يقول « نرجو التنبيه على مقدم الطلب بفتح دكان بقالة أن يرفق بطلبه ورقة لصق بثلاثين مليما » . أرسلت المديرية الأوراق الينا فارسلناها للنقطة فارسلت للعمدة فعادت الى تنبعث منها رائحة الخردل .

★ « الجمهورية » ، ١٢/٦/١٩٥٩ ، ص ١٠

فتشت في الأوراق فوجدت العمدة قد كتب « الأوراق معادة للنقطة ومعها ورقة اللصق المطلـوبة بثلاثين مليما » أتدرى ما الذى بعث به ؟

بعث لنا بورقة « لزقة » ويلكوكس من التى توضع على الظهر أو الصدر لعلاج البرد فى الشتاء ٠٠ وكان ثمنهـا فى عهدى ثلاثين مليما ٠

ضربت كفا بكف وكدت أولول كالأرمل الحـزين تسير في جنازة زوجها « يا دى الداهية السودا ! يادى المصيبة !» وقمت من فورى الى التليفون وطلبت العمدة وطلبت اليه ان يسرع بالمجيء الى لأمر عاجل هام جدا جدا ٠

فجاءنى مضطربا ولكنى تركته يجلس برهة يسترد فيها أنفاسه وطلبت له فنجـان قهـوة وظللت أتأمله ثم قلت له بصوت ضمنته كل ما يقدر قلبى من حنو واعزاز :

ـ يا شيخ فلان ٠٠ أنت من خريجى الأزهر ، أنت رجل ذكى متعلم ، فبالله عليك خبرنى ما هى العـلاقة فى نظرك بين طلب فتح دكان بقالة وبين احتياج الحكومة لورقة لزقة ويلكوكس ؟ ٠٠ وحتى على فرض أن رئيس الوزراء أو وزير الداخليـة أو مأمور أو معـاون الادارة أو ضـابط النقطـة مصاب بالروماتزم فهـل تعتقـد أنه يربط بين علاجه وبين طلب فتح دكان بقالة ؟

احمر وجهه خجلا ولكنه تجلد ، وقال وهو يطالع وجهى كأنه يريد أن يفضفض لأول مرة بكلام طال حبســه له فى صدره :

ـ والله ياسـيدى لفنـدى سـألنا عن ورقة اللصق فلم يهدنا أحد ٠ لم نسمع بها من قبل ٠ وقيل لنا ان أجزاخانة

فى البنـدر تبيع بثـلاثين مليمـا لزقة مســعرة كـورق البوسـطة ٠٠ فقلنـا لابد أن تكـون هذه الورقة المطلوبة للحكومة فارسلناها ٠

ـ وهل دخل هذا فى عقلك ؟

ـ أعمل ايه ؟ شغل الحكومة كله كده ٠

فراغة عين

وكان مما يزيد الهوة بين الفلاحين والحكومة فى العهـد الماضي الذى أتحـدث عنـه أن بعض الموظفين ـ لا كلهم ـ كانت عيونهم فارغة ، هم الذين حملوا الفلاح على أن يصف عملاء الحكومة عنده تارة بأنهم « أجـرية » وتارة بأنهم من « الشباحين » ، يجهـر بهذا القول ولا يخفيه ٠ اسـتقر فى ذهنه ـ وان كانت أسانيده حوادث غير كثيرة ـ أن هؤلاء الموظفين يعتقـدون أنه راقـد على كنز وأن خيرات أرضـه موفورة مبذولة ٠

لذلك رأيت الفلاح يحاذر أن تظهر عليه دلائل النعمـة ، فهذه هى خطـة دفاعه التي ورثهـا عن جدوده حين كانت تمزق السياط ظهورهم لتحصيل الضرائب منهم ، لا حاجة لأن نرجـع الى أيام المماليـك بل يـكفى أن تقـرأ سـيرة محمـد عبـده وعلى مبـارك ـ ما أعظمهمـا من رجلين من أبناء الفـلاحين ـ لتعـرف ماذا كان يلاقيه الفـلاح لابتزاز المـال منـه ٠ حـدثت هجـرات جمـاعية كثيرة ، سـكان قرى بأكملها يرحلون منها ، فى الوجه البحرى من فر من

الديار كلها اما شرقا الى سوريا ، أو غربا الى ليبيا وما بعدها • لا أجد مع الأسف من يؤرخ لهذه الهجرات ويتتبع أخبارها •

قد لا يخلو حذر الفلاح من ظهور دلائل النعمة عليه من خوفه ايضا من الحسد ، فانه يعيش في رعب دائم من العين الزرقاء يخاف منها على نفسه وأولاده وحيوانه وزرعه • الحديث عن الحسد يشغل جانبا كبيرا من سمرهم • رويت لى حكايات عن رجل كان يكفى اذا رأى قافلة من الجمال تهل من بعيد أن يصوب اليها نظره ، ويقول : ما أحسنها ! حتى تهوى الجمال على الأرض وتنفق •• تروى هذه الحكايات بلهجة التأكيد فلا سبيل لك أن تجادل فيها •

من أثر هذا الحذر على الفلاح أن قل اهتمامه بنظافة ملبسه ومسكنه • رأيت رجلا من الموسرين من سكان القرى يتعمم بقماش يلفه حول رأسه كالخرطوم قد اسود لونه من القذارة ، تقززت له وأنفت لوجه ينطق بالذكاء أن يمتهن هكذا • لم أتمالك نفسي ــ وكثيرا ما أقحمها بغباء ! ــ وسألته :

ــ ياعم فلان لماذا لا تغسل عمامتك ؟

أتدرى ماذا كان جوابه ، مكر علي وأجابني :

ــ ياسيدنا لفندى بنى آدم من التراب والى التراب يعود•

كان الزهد عنده صنو للقذارة ••

ينبغى لى هنا أن أفى بحق فلاح واحد بقيت صورته فى ذهني الى اليوم ، أكاد أراه امامي وأنا أكتب هذه الكلمات •

هو وحده الذى استوقف نظرى ـ فى مدى سنتين كاملتين ـ بنظافته .

أمر عليه فى أرضه ـ تقاس بالقراريط فحسب ـ فأجده يحرث ويعزق وجلبابه الأزرق يشف ويرف ، نطق لى هذا الجلباب لأول مرة بجماله ، وكنت أراه مرفوع الرأس معتدا بنفسه ، وكنت أسلم عليه فى كل مرة ، وأتحدث اليه حتى زالت الكلفة بيننا ، فأفضيت له بعجبى من نظافته وشذوذه عن بقية الفلاحين فأجابنى :

ـ أنا رجل أؤدى الصلاة ، أتوضأ خمس مرات . ان الاسلام دين النظافة يكره الخبث والنجاسة .

***

أعود الى الحديث عن الموظفين وفراغة أعينهم ، قد يكون تفسيرها عند بعضهم هو وهمهم فى ربط قدر الوظيفة وأبهتها بمقدار ما يلقونه من الاكرام حين ينزلون على الفلاحين ، فالعمدة قد يقدم لصغار الموظفين قطعة جبن وبصل ، وان بالغ فى اكرامهم سلق لهم بيضتين ، وان لم يكن فارغ العين ـ غضب وأحس أن كرامته قد أهينت ـ فيقدم له العمدة الطبقين الخالدين فى الريف ، بامية وملوخية قرديحى عليها أشبار من السمن والمرق الأحمر ، فان قدم هذا للمأمور كانت وقعته سوداء ، ان مقامه دجاجة على الأقل ، أما المدير ـ اذا شرف ـ فله خروف ، هكذا كانت التسعيرة فى عهدى .

ووجدت الموظفين يتندرون بعبارة تدور على أفواههم لم أفهمها أول الأمر وهى « التعيين الناشف » . وأدركت

فيما بعد أنهم يقصدون أن الموظف اذا لم يأكل عند مضيفه ، فليس معنى هذا أن حقه قد سقط • فالمفروض أن يلف العمدة حينئذ شيئا من الطعام ــ حسب المقام ــ ليحمله الموظف عند عودته الى داره • هذا هو التعيين الناشف • وكان مما يحسب من المهارة نجاح الموظف فى الحصول على التعيين الناشف ليشاركه أهله فيه بدلا من أن يأكله وحده فى الدوار • ولم أسمعهم يصفون هذه الأكلة ــ كما هو المنطق ــ بالتعيين السائل •

لا أزال أذكر يوم أن ذهبت مع المأمور للتحقيق فى واقعة الى قرية ونزلنا على عمدتها • رأيت التحقيق خليقا أن يتم فى ساعة أو ساعتين على الأكثر • ولكن المأمور أخذ يمطه مطا شديدا ويقول للمتهم :

ــ وكمان سين ، ايه قولك فى أن •••

سؤال فارغ لا يقدم أو يؤخر ، والعمدة يلزمنا تارة ويغادر القاعة تارة أخرى ، قلقا كأنه فى ورطة ، حتى حل موعد الغداء وحل المأمور أزرار سترته ، وانكشف بطنه ، ومال برأسه على الدكة ، وتشبثت قدماه بالأرض •

وجاءنا الطعام تزينه دجاجة سمينة (راجع التسعيرة من فضلك) ••

لم نكد نخرج من الباب حتى أقبلت امرأة تصرخ وتولول وكادت تمسك بتلابيب العمدة :

ــ ياعمدة حرام عليك ! مالقيتش الا واحدة ولية غلبانه زى حالاتى تاخد فرختها وهى سارحة فى السكة • حرام عليك ، تنزل لك بالسم الهارى •

أدركت أن العمدة اغتصب الدجاجة من انسان ضعيف ،

واحسست بخجل شديد ، بل خفت أن يستجاب دعاؤها ، فدعاء المظلوم مستجاب • وقفز المأمور الى البوكس وقفزت وراءه • هذه مسألة لا شأن لنا بها تسوى بين العمدة والفلاحة • ورأيت المأمور يعتبر الحادثة نادرة تروى فتضحك عن شح بعض العمد واستغلالهم للفلاحين ، واستمر يضحك طول الطريق •• والغريب أنني أيضا أشاركه في ضحكه •

كنت لا أعرف شيئا عن هذا كله في أوائل عهدي بالعمل ، ولكن المشكلة تبينت لى سريعا فما أكثر ما يمضى معاون الادارة نهاره كله بعيدا عن داره ، خرجت ذات يوم مع لجنة المساحة لنقيس أرضا تسمى بطرح البحر ، معنا شيخ القرية ، والمساح وصبيه ، واثنان من الخفراء ، وجنزير طويل يصلصل هو عدة الشغل • شققنا الغيطان حتى وصلنا الى النيل ، البرسيم علوه شبران ، أخضر ندى ، مربوط عليه هنا وهناك بقرة أو جاموسة مستغرقة فى سعادة كبرى وهى تلوكه بين فكيها وتهز أذنيها ، ما كان أخشن أكلها فى الشهور الماضية ! لا أعرف شيئا يفوق وداعة عينيها • فوقنا سماء رقيقة السحب ، والهواء صاف شفاف كأن يدا من السلام والطمأنينة تمسح على جبهتي ؛ أحس أنا القاهرى أن نوافذ مغلقة فى نفسى تتفتح لأول مرة • انقطعنا عن العالم كله وخلونا الى الأرض والزرع والحيوان والنيل ، غمرت قلبى راحة جميلة تمنيت ألا تفارقه أبدا • هذا الجو ساعدنى على أن أرفع الكلفة بينى وبين أصحابى كأننا فى نزهة تزول فيها الفوارق • هذا طبعى وكثيرا ما جر على المتاعب فى حياتى •

واقترب الظهر وولى ، وأحسست بالجوع ، ورأيت بين

القوم مسارة تجمعت فيها رءوسهم ثم جرى أحد الخفراء للقرية ، فرحت بهذه المسارة وبمنظر ساقى الخفير فى جريه ، ولكننى أرجو ألا يضحك القارىء اذا قلت اننى توقعت فى سذاجتى وأوهامى أكلة شاعرية تنسجم مع هذا الصفاء وتنسجم مع مشاعرى ٠٠ لو سألتنى أن أصفها لك بالتحديد لما استطعت ، كأننى أتوحم على أكلة تهبط علينا من السماء لم تصنعها أيدى البشر ٠

وبعد غياب طويل زاد فيه جوعى عاد الخفير وفى يده صرة منبعجة ، فترك القوم عملهم من فورهم ٠٠ فرشوا لى حراما أجلسونى عليه ، ثم تحلقوا حولى على الأرض عن يمين ويسار ، فى وجوههم سعادة كبيرة أن تألفت قلوبنا ، هم فى فرح لأننى سآكل معهم مثلهم ٠ لم أصبح عندهم من الأجرية أو الشباحين ٠ وفتحت الصرة فاذا بها لا تحتوى الا على خبز بائت وبصل مستدير ٠

أقول لك الحق اننى رغم ادراكى لمعنى فرحهم وسعادتى به احسست بخيبة أمل كبيرة ، وصعبت على نفسى ٠ لم يحدث لى قط من قبل أن اقتصرت وجبة لى على خبز وبصل ، حتى يوم كنا ـ من أجل تحريش المعدة ـ نطبخ بصارة يستحب معها أكل البصل ٠ أعاف البصل المستدير لأنى أرى لقضمه بالأسنان وهو يحشو الفم منظرا قبيحا ، وأفضل عليه البصل المنسرح المبروم ، أهذه هى الأكلة الشاعرية التى تهبط على من السماء ؟ خجلت من الاعتذار وأكلت معهم على مضض ، كم تمنيت أن لو كانت نفسى أقوى وأنبل وعلت عن سفاسف الأنفة والحرج ، وتأملت الأرض والزرع والحيوان والنيل من حولها مرة أخرى ، وصحبة أناس بذلت بساطتهم مع الود ما تملك ايديهم ،

انها لو كانت كذلك لأدركت حقا أن السماء قد استجابت لدعائها ، وأن كل أكلة سواها ما كانت تكون الا شذوذا وغلطا وتلفيقا وقبحا ٠

عرفت يومئذ كيف يؤكل فحل البصل ، يوضع على الأرض ويدش بقبضة يد لها وقع الحجر أو يد الهاون ، فلما هممت أن أقلدهم أحسست بوجع فى كلية يدى ، فاكرمونى أيضا بدش فحل البصل لى ، يقدمونه الى كأنه دجاجة فصصوها لى بأيديهم ٠ ليس معنا سكين ، ولا حتى مبراة ، معنا أسناننا فحسب ٠

كدت بعد الأكل أرقد سطيحة ، وأنام حتى لو وضعت راسي على ركبة المساح ، وظلت رائحة البصل تليس فمي ولساني وحلقي الى صباح اليوم الثانى ، أحس له بغليان في جوفي ٠٠ عشت بعد هذه الأكلة يوما كاملا وأنا سيىء الخلق ، مناكف ، شرس ، جحود ، كافر ، اذا كان هذا حالى بعد أكلة واحدة فما بالك برجال ـ كل منهم كالشحط ـ لا ياكلون الا هذا الطعام فى أغلب الأيام ٠

وكما صعبت على نفسى يوم مأدبة البصل المستدير رثيت لها ـ واختلط الرثاء بالحزن والغضب ـ حين دق بابى بعد العشاء ذات ليلة رجل له عمل عندى ٠ لم أكد أوارب الباب حتى مرق منه كأنه هارب يلتمس النجاة ، يده وراء ظهره ، ولما اطمأن أن لا ثالث معنا أعادها الى الأمام ورفعها الى علو وجهى ـ وهى مسافة قصيرة ـ يطلب الى عينى ـ وهو يبتسم ـ أن تتمليا من بهاء سمكة كبيرة تتدلى من حبل من خوص ، تلمع فى العتمة ، وهو يقربها أيضا الى أنفى ٠٠ هذه هى رشوته لى ، لم يكن غضبى لاقدامه على شراء ذمتى ،

بل لحكمه علي بأنني رجل بطني شبّاح فارغ العين ، ما أظن أنه اشتراها بل صادها ليصيدني بها ٠

ليس من الحلول العملية أن أحمل معي طعاما وأنا خارج من الدار ، فاني أخجل اذا حل موعد الغداء وكنت بين الفلاحين أن آكل وحدي ـ ودونهم ـ ما حملته يداي ، وليس مما أستسيغه أن أفرض نفسي على مضيفي ، وهل أنا أعمى ؟ يكفي أن ألقي نظرة الى الدار ، ليس فيها شيء يمت الى كلمة « الأثاث » بصلة ، سوى عدد من كراسي القش ، مهشمة بالية ٠ من بيوت الفلاحين التي دخلتها كثرة ليس فيها الا الأرض والجدران وفرن سماوي تنضج على بلاطته أرغفة من دقيق الشعير زرق مكببة ، هي كل طعامهم ٠٠ مع المش أو البصل ٠ لا شيء غير هذا ، اللهم الا اذا عددت بوص الأذرة الذي يغطي أرض القاعة نوعا من السجاد ٠٠ واعتدت أن أقسم لمضيفي بأغلظ الأيمان ـ كذبا ـ أنني مريض أو شبعان ، حتى ألفت أن أقضي نهاري صائما ولا آكل الا اذا عدت للدار ٠ ووجدت مع الزمن أن صحتي تحسنت وزال ترهلي وصلب عودي وزادت مناعتي، فحمدت الله ٠٠

نهم للمال

تعلو فراغة العين الى درجة تهدد المروءة ، وتقلب الانسان المتعلم ابن الناس الى وحش ضار لا يشبع نهمه ٠ لا أتورع هنا ـ كما عاهدت القارىء ـ عن الادلاء ـ غير ملفق ولا

مبالغ ـ بقبح شديد يبلغ مبلغ الاجرام ، رأته عيناى ، ومن الخير أن أصـف بعض ما كان يعـانيه أهلنـا ، للـدرس والعظة ، ولكنى أحب أن أنبه الى أننى أصف عهدا مضى عليه أكثر من ثلاثين سنة ، وأرجو ألا يحمـل كلامى على محمـل التعميم ، فمن الطـائفة التى سـأتحدث عنها كثرة أقر لها بالفضل والاحسان ، ولـكن كان يزاملهـا مع الأسف ، قلة دنيئة مجنونة ، كرهت من عشرتها الحياة ، وأنفت لنفسى أن تسوى بينى وبينهم كلمة انسان ٠

عرفت طبيب مركز كان همـه هو الاثراء العـاجل بأى ثمن ، ان نهمه للمال لا يقف عند حد ٠ دع عنك اسـتيلاءه ـ ظلما وعلى خلاف القانون ـ على جنيه كامل من كل فلاح يكشف عليه ليشهد بصلاحيته لوظيفة « خفير » فاذا دفع المبلـغ أجـازه ولو كان أعمش ، والا فـلا ولو كان له عين النسر ، بل الداهية حين ينتقل معنا الى القرية حيث ضرب فلاح فلاحا برصاصة أو سكين أو شـومة ٠ يعلن من فوره أن المصاب ينبغى أن ينقل للمستشفى ، الى « القشلة » ـ هل هى مشتقة من كلمة الأشلاء ؟ لست أدرى ـ والمستشفى فى بنـدر المديرية بيننا وبينه مائة كيـلو متر على الأقل ٠ كلمة المستشفى هى السيف الذى يشهره طبيب المركز فى وجه الفلاحين وهم فى عز النكبة ، فانها تقع على المصـاب وأسرته وقع الصاعقة ، هم يؤمنون ايمانا لا يتزعزع أنه لو دخلها لما خرج حيا ، ثم كيف ينقل ، وكيف يزار ؟ انهـا مشقة لا قبل لهم عليها ٠ حينئذ يأتى دور « حلاق الصحة » أراه يجوس خلال أهل المصاب ، يقول لهم : لو شئتم لتولى الدكتور علاجه هنا تحت مسئوليته ، فلا يذهب للمستشفى، وان أقل أجر يرضى الدكتـور مبلغ كذا من الجنيهـات ٠٠

يدور بين أهل المصاب تشـاور ، رءوسهم دائخة ، وعيونهم زائغة . يصطدم في اللخمة واللهفة بعضهم ببعض ، ويكثر القيام والقعود ، وتختلط أصوات الرجال بأصوات النساء ، أنستهم داهية الدكتور داهيتهم الكبرى .. ثم يدور بينهم وبين الحلاق فصال ومساومة ، وتشفع ، وتوسـل ، حتى يسـتقر الرأى على الأجـر الذى يرضى الطبيب ، فيتفـرق بعض الأهل جريا للبحث عن المال ، لا يبرح الطبيب القرية حتى يضعه في جيبه ، أما العلاج فسيتولاه بطبيعة الحـال حلاق الصحة .

لا تبرح ذهنى ذكرى جلسـة لى مع هـذا الطبيب فـوق مقعدين على الجسر عند قرية ، ننتظر اصلاح عجلة السيارة. تلفنا ليلة غطيسة غابت نجومها .. لا ينقطع زن الجنادب ونقيق الضفادع كأنما طار من هلع لبها ، فهى ترى دوننـا روحا شريرة تخرخش فى غيطان الأذرة ، توشك أن تدهم الأرض . وجرى بيننا ـ دفعا للانقبـاض ـ سـمر لذيذ ، تتخلله الضحكات العالية ، ثم اذا بأذنى تسـمع من تحت الجسر صوتا خفيضا يهمس بتوسل ذليل :

ـ يا دكتور ، سـايق عليـك النبى ، أنا فى عرضك . اعمل معروف ..

يقطع الدكتور كلامه لى ويلتفت الى مصدر الصوت ـ وأنا لا أرى صاحبه ـ ويصرخ :

ـ هات الريال وتعال ..

ـ ماعنـديش الليلة دى ، ما احكمش على قرش واحد ، من فضلك واحسانك .. أنا تعبان بالحيل .. حاتفرتك .

ـ ذنبك على جانبك .

سألت الدكتور عن الذي يطلبه منه الرجل . والعجيب أنه أجابني بلا خجل وهو يضحك : انه فلاح يعرفه عنده حصوة في المثانة ، تتحرك أحيانا فتمنعه من التبول ، فاذا حدث له هذا جرى اليه في المركز فسلك له مجرى البول بالقسطرة لقاء ريال كل مرة .

ـ والقسطرة مش معاك دلوقتي ؟ .

ـ أيوه ..

ـ وفيها ايه لو تريحه ، حرام عليك .

ـ سيبه ده ابن كلب ، الريال أحسن من عينه .

وقمنا الى السيارة ولا يزال الشبح من تحت الجسر ينادي :

ـ يادكتور سايق عليك النبي ، أنا ح اتفرتك .

وهذه حادثة ثانية تعود هي الأخرى الى ذهني .

ويل لي ! كنت أحسب أن هذه الذكريات قد هضمتها وفرزت خبثها ، اذا استثرتها عادت ، بعد مرور الزمن الطويل ومع ماينشأ معه من تسامح حتى مع ألد الأعداء ، وهي محطمة الأنياب مقلمة الأظافر ، وأنا هادئ النفس رابط الجاش ، كأنما أنقل عن شاهد غيري . فاذا بها وأنا أفك عنها الأكفان البالية تهب ضارية تنهش قلبي ، فأتوجع لها بمقدار يفوق توجعي حين افتراسها لي أول مرة .

جناية قتل بشعة في احدى القرى ، رجل يملك فدانين لا غير ، وله خمسة أولاد كبار ، كلهم من الفلاحين الجائعين للأرض . ماتت أمهم وتزوج الأرمل ـ في أول يوم بعد الأربعين ـ بفتاة صغيرة * .

* « الجمهورية » ١٩٥٩/٦/١٩ ، ص ١٠

ستأتي لهم بمن يشاركهم فى الميراث ، لا ولدا واحدا بل ربما زربة عيال ، صبيان وبنات ، تزعم الابن الاكبر الثورة ضد الأب وبين لاخوته أن لا نجاة لهم الا بقتل أبيهم ، فيهم من انصاع له وقبل الاشتراك فى الجريمة ، وفيهم من نصحه مكرا وسحب يده وان علم بالذى سيحدث وباركه فى قلبه (كأنها أسرة كارامازوف) • وانفرد الابن الأكبر بأبيه فى الحقل وغافله وهوى على رأسه من الوراء بالشومة •

وصلنا ــ ومعنا الطبيب ــ بعد الحادثة بساعات غير قليلة •• وجدنا المصاب راقدا على الأرض ، فاقد الوعى لا ينطق رغم انكباب بعض الناس على اذنيه ينادونه باسمه • عظام رأسه سليمة ، ولكن الضربة أحدثت شرخا فى قاع الجمجمة • أخذ الدم يتسرب منه الى جوفه ، فرأينا تنفسه البطىء نوعا من البلع ، وكدنا نلحظ بطنه وهو يعلو شيئا فشيئا •• ملت فوقه أحدق فى وجهه ، حتى لحيته ازرق لونها ، لا أدرى لماذا وهمت أنه رغم انعزاله عن عالمنا وعجزه عن الاتيان بأقل حركة حتى من أهداب عينيه ، أن ذهنه لا يزال ــ وسط ضجة كأنها قرع أجراس ضخمة ــ حاضرا معنا يعى ما يدور حوله ، لم يكن الموت بل هذا الجمع الغريب بين الحضور والغياب هو الذى هز قلبى •• ثم بدأت حشرجة الموت •

أتدرى ماذا كان يفعل الطبيب فى هذا الوقت ؟ أرسل صبى الحلاق ليقول للزوجة الجديدة ان الدكتور مستعد لاجراء جراحة للمصاب اذا دفعت له مبلغ كذا ، قبلت المرأة من فورها دفع مايطلبه ولكنها استمهلته قليلا حتى تجمع هذا المال من هنا وهناك وأخرج الطبيب من حقيبته أدوات

الجراحة ووقف ينتظر .. نعم ينتظـر ورود المبـلغ ، فاذا برجل من الملتفين حول المصاب يرفع رأسه ويقول :

ـ خلاص طلع السر الرباني ..

أعاد الطبيب أدواته الى الحقيبة .. لم أتمالك نفسى أن أسأله :

ـ كيف ترضى اجراء الجراحة له وهو فى النزع الأخير. ثم أنت تعلم أنهـا ليست جراحة تربنة ، فليس الـكسر فى عظام الرأس بل فى قاع الجمجمة ، ولا حيلة لك فيه (كنت فى ذلك الوقت أقرأ كثيرا فى الطب والأمراض) .

فأجابنى :

ـ واجب الأطباء التدخل مادام فى المصاب عرق ينبض ! حتى ولو كان الأمل فى نجاح الجراحة واحدا فى الألف ..

كان يريد اجراء جراحة لميت ، من شدة جشعه للمال .

أطبقت الكلبشات على معصمى الابن الأكبر .

الجنود الذين معنا من السوارى ربطوه بسلاسل وجروه جريا وراءهم من القرية الى المركز ، وهى مسـافة طويلة . كنت أركب البـوكس فورد مع وكيـل النيـابة والمـأمور والطبيب وضابط المباحث . صـليل السلاسـل لا يفارق أذنى . لم أجد فى نفسى الشـجاعة أن أقول لهم « أركبوه معنـا » لا أحتمـل ـ رغم بشـاعة الجريمة ـ رؤية اهدار الكرامة والتعذيب ، لم يصبح انسانا بل أدنى من الحيوان . أمد رأسى ـ حتى تكاد تنقصف رقبتى ـ لاتطلع الى وجهه ، والعجيب أننى رأيته متهللا لا تفارق الابتسامة شفتيه طول

الطريق • كأنما وجد بهجة كبيرة في أن يكون بطل هذا الركب كله ، لولاه لما كان ••

في أغلب الجرائم التي حضرت تحقيقها تملكني شيء من الحيرة • هل أنا صادق أم واهم ، أحس في المتهمين نشوة عجيبة ، فكأنهم يترددون في الجريمة بلذة ، شأن المسحورين •• قد يكون تفسير هذا أنهم يخرجون من الضياع الى مسرح تسلط فيه عليهم الأنوار ، ويقوم لهم المركز ويقعد ، وتجيء لهم النيابة بجلالة قدرها •

كلبشات

على ذكر الكلبشات : لابد لى هنا أن أروى حادثة أراها من أغرب النوادر فى تاريخ الاجرام •

عربة السبنسة فى قطار الصعيد تكاد ـ والنهار والحر فى عزهما والنوافذ مفتوحة لأنها مخلوعة ـ تجللها عتامة هى خليط من بخار مشبع برائحة الحلبة والعرق تفوح من أجساد ومقاطف مكدسة ، ومن كلام ـ كهلوسة محمومة ـ متشابك له دوى كهدير البحر ، ومن زعابيب مجنونة من التراب تقفز اليها وتحوم فى جوها كأعمدة الدخان ، كأنها سوق قائم لم ينقصها رجل « أفندى » منتصب وسطها ـ كالمؤذن فى مالطة ! ـ فوق الرءوس ، يهتز جسمه لأنه واقف على زكيبة ـ فهو جوال لا مقعد له ـ ومع ذلك فان صوته لا يرتعش وهو يعدد مزايا القطرة العجيبة التى تشفى اللحمية والشعرة واحمرار الجفون وتمنع الدمعة

والعماص ··· ثمنها بالأجزاخانات عشرة قروش ولكنه ـ اكراما لهم ـ يبيعهـا بخمسـة فقط ، والأجر والثواب على الله ··

بجانب احدى النوافذ يجلس جندى عائد الى نقطته بعد ان سلم متهما للمركز ، وجاءت جلسـته أمام فلاح يضـع تحت مقعده قفة كبيرة غطـاها بلحـاف · وكان الجنـدى يمسك بيده زوجا من الكلبشات بقى مفتوحا بعد أن خلعه المركز عن يدى المتهم ، وأخذ من قبيل التسلية يديره حول أصبعه ، كأنه طفل يلهو بلعبة ·· بريق حديده يسقط على عينى الفلاح فلا يحيـد عنه بصره ، بعـد قليـل بدأ يتكلم ويقـول انه لم ير من قبل الكلبشـات عن قرب ، وما كان يحسب أنها تفتح هكذا · وأبدى عجبه لصنعها بحيث تقفل وتفتح ·

قال له الجندى وهو يمازحه : « أتريد أن تجرب ؟ » فمد له الفلاح معصميه فأدخلهما الجنـدى فى الكلبشـين ومال بطرفهما المفتوح شـيئا فشيئا وهو يحـاذر أن ينتهى عبثه باغلاقهما · ثم اذا ـ وهما يضحكان ـ بتكة خفيفة تعلن لهما أن الكلبشات قد انطبقت ·· يادى الداهية السودا !

ما العمل ؟ ليس مع الجندى مفتاحهما ، انه بالنقطة ·· وهل يترك الجندى الكلبشات فى يد الفلاح ويعود للنقطـة ليواجه تحقيقا ينتهى بتقديمه لمجلس التأديب ؟ كان جزعه أشد من جزع الفلاح لا تفارقه ابتسامة بلهاء · كل أسـفه أنه لا يستطيع فى ورطته أن يضرب كفا بكف ·· لا مفر اذن من أن يعدل الفـلاح عن متـابعة سـفره وينزل مع الجندى للذهاب الى النقطة ، فلربما سـامحه الضابط حينما يشرح

له سوء حظه ويطمئنه على أن عهدة النقطة ردت اليها سليمة وان كانت مغلقة !

وجاءت المحطة ونزل الجندى وسار الفلاح وراءه .. فاستوقفه قائلا « القفة القفة ! أوع تنساها .. هات أشيلك فوق رأسك .. »

لا أدرى ما الذى حدث بالنقطة هل سقط اللحاف عفوا ؟ أم دس الجندى فيها يده يحسب بها شيئا يؤكل . كشفت القفة في النقطة عن سرها فاذا بها تحتوى على جثة رجل مقطعة أربع تربع .

واعترف الفلاح بأنه هو القاتل وأنه كان يريد الهرب وترك القفة فى القطار ..

تشريح الجثة

ونعود لصديقنا فارغ العين طبيب المركز . لقد ذكرت لك أمثلة من تكالبه على ابتزاز النقود من تحت الأرض ، قد أغفر له جشعه ـ فللمال سحر لا يقاوم ، تذل له النفوس ـ ولكن لن أغفر له أبدا فعلة لم يكسب منها مليما انما تدل على غلظة فى الطبع ، وبلادة فى الحس ، ومجافاة لأبسط مطالب الذوق ، واستهتار بشع بكرامة الانسان وشعوره .

ذهبت معه فى جناية لاتزال ذكراها تحز فى نفسى . فتاة بكر حملت من قبل أن تنتقل الخطبة الى زواج أخرته

شكليات ومناقشات تافهة بين الأسرتين .. ولربما صادف التأخير هوى في نفس الخطيب الجبان بعد أن نال غرضه ، ولعله أصبح يعيب عليها في سره أنها رضخت له .. فلما انفضح أمرها حبسها أبوها في حجرتها انتظارا لعودة ابنه من سفر له .. عاشت أياما وليالي وهي تعلم أنها محكوم عليها بالاعدام . ان انهارت لهلعها من الموت فانها أشد انهيارا لتحطيم بنيان في قلبها أقيم على أن بين الأب وابنته محبة . فكيف تلقى مصرعها على يدى أبيها ؟ هل تكرهه ؟ كيف تغفر له ؟ .. وعاد الأخ .. وسمعت بأذنيها أباها يقول لأمها أن تذهب لقضاء الليلة عند أختها . وخرجت الأم وهي تقول لابنتها من وراء الباب : « لك رب يابنتي ! »

ومضى الأب في الصباح الى العمدة وأبلغه أنه قتل وحده ابنته دفاعا عن العرض . قدم نفسه ليفدي ابنه حتى يبقى عائلا للأسرة بعد ذهابه هو الى السجن .

دخلنا منزلا فقيرا من منازل الفلاحين له حوش سماوى ، وسلم بالطوب الأحمر يصعد الى الدور الأعلى .

أمر الطبيب أمامي بانزال جثة الفتاة ثم صرخ ..

ـ هاتوا لى دكة .. فجيء له بدكة .. لعلها هي الوحيدة عندهم لا جلوس لهم الا عليها . ووضع الجثة فوق الدكة تحت حنية السلم . من فوقنا نسوة ـ من بينهن أمها ـ تطل علينا ، تصرخ وتولول ، ومن حوالينا صبيان ندافعهم كالذباب ، من وراء باب البيت مئات من المتطلعين المتطفلين تمد أعناقها وأبصارها فوق الأكتاف ومن بين الرءوس .. عريت الجثة أمام الجميع .. وأخرج حلاق الصحة المشرط وبقر بطنها وتناول من بين القدمين جنينا كامل النمو ، رفعه في الهواء كأنما يريد أن يريه للجميع .

كان يستطيع هذا الطبيب أن يشرح الجثة داخل النقطة ، أو فى جوارها ان أراد مجاملة الضابط ، أو ينقلها للمركز. ولكنه لم يبال أن يمزقها أشلاء أمام أعين أهلها وجيرانها . فى منزلها ، على دكتهم الوحيدة ! .

حدث اتفاق جنتلمان بين المتهم والعمدة ، وبين العمدة وبيننا على ألا نجر الابن فى الجريمة ، ولم يرد له ذكر فى التحقيق ونحن نعلم علم اليقين أنه مشارك فى القتل .

وجيء بالخطيب ..

شاب ممتقع من شدة الخوف ، ولكن ما كان أسهل عليه أن ينكر ويتنصل .. ليس فى القانون مع الأسف نص تقضى به العدالة يمكن به محاكمته مع أن القتل وقع بسبب حماقته هو أيضا ..

شعرت بشيء من الضيق ، ولكنى كرهت الحياة أشد الكره حين جاءت الأم وأدلت بشهادتها ، وقبل أن تنصرف تريثت قليلا وهى تستند محنية الظهر على المقاعد ، وأدارت علينا نظرة كلها توسل واستجداء . حن قلبى لهذه المرأة المحطمة وتعلق كل انتباهى بشفتيها .

حسبتها ستقول : « خدوا بالكم من جوزى ده راجل عجوز ! » أو « ان ابنتى مظلومة ، انضحك عليها ، الله يجازى اللى كان السبب » أو « ربنا وحده هو اللى حاسس بمصيبتى مش عارفه أبكى على بنتى والا أبك على جوزى ، قلبى مش مطاوعنى ، لكن أنا مسامحاه » لم تقل شيئا من هذا وانما تمتمت بصوتها المبحوح :

ـ كان عند بنتى حلق وأستيك اديناهم للجدع ده علشان يكمل بيهم المهر .. أنا عاوزاكم تجيبوها لى منه ، ده حقنا ..

لم يكن لهذا الأب مفر من قتل ابنته · ان الذى وضع السكين فى يده هو ضغط الرأى العام ، يجعل الشرف قاصرا على سلامة العرض ·· ولو لم يقتلها لما استطاع أن يعيش فى قريته ، فلأهلها انتباه شديد بسيرة نسائها · أغلب الحديث يدور عن ذلك ، بل ان بعض الشبان يجدون لذة ولهوا واستعراضا لرجولتهم فى التطوع للتجسس على البيوت ·· فاذا تكشفت فضيحة تتبعوا ولى الدم · يأتى دوره قبل الزوج بالتحقير والازدراء فى مواجهته ، يعيرونه بسكوته حتى تسقط كرامته ، كأنها حركة عضوية لا شعورية للمجتمع يريد بها أن يلفظ من يخرج عن تقاليده·

وكان لى تأمل غير قليل لهذا الربط بين الشرف والعرض حينما كنت أحضر كثيرا من مجالس الوعظ فانى أجد المتكلم ـ بعد مقدمات قصيرة ـ لا يتحدث عن استقامة الخلق وفضائل الصدق والشجاعة وخسة الكذب والغش والخداع، بل يقفز من فوره الى التحدث عن النساء وبهرجتهن ويجعلهن السبب الأول لكل شر ، وان من سلم عرضه سلم شرفه ، كأنه يكاد يقول لهم : « وافعلوا بعد ذلك ماتريدون»

ثم أتأمل أيضا حوادث القتل للدفاع عن العرض مما يحدث منها فى القاهرة والمدن الكبرى فانى أشتم فى بعض هذه القضايا أن المال ـ لا الشرف ـ هو الدافع عليها ، وأن القاتل ـ وهو فى أغلب الأمر أخ بلطجي ـ يبدأ وهو صامت بقبول ما تقدمه له الأخت من مال كأنه احسان يشكرها عليه ·· ثم يأخذه كأنه حق له ، بل اتاوة مفروضة ، ثم يغلو فى مطالبه ·· وتكون الفتاة قد انتقلت هى أيضا من البدء بالعطف على أخ عاطل ومساعدته الى الانتهاء باحتقاره وأنها تشقى من أجله هو وحده ، وأنه قد أهدر رجولته ولن

يحمر لها عينه ، فترفض دفع الاتاوة وان لم تسلم من الخوف بأنه مع ذلك قد يغدر بها •• كثيرات من بائعات الهوى تنقضى حياتهن فى هذا الاضطراب بين التحدى والخوف من الغدر •

وكان طبيب المركز فى عهدى يستحق أجرا مستقلا ـ أظنه جنيهين ـ عن كل مرة يشرح فيها جثة بتكليف من النيابة العامة •

وقد رويت لك أن التشريح يتم فى دار القتيل ذاته ، أو فى أرض فضاء بجانب النقطة ، أو على الجسر ان كان غريقا ، يحدث هذا على مشهد من الناس ، وكان حلاق الصحة هو الذى يتولى ـ وقد جلس القرفصاء ـ فتح البطن واخراج الأحشاء والطبيب واقف ينظر لا يمد يده • هذا رجل مات رصاصة دخلت بطنه ، كنت أنتظر أن يقتصر التشريح على فتح جوفه وتتبع هذه الرصاصة • ولكنى رأيت طبيب المركز فى كل مرة يأمر الحلاق بأن ينشر الجمجمة بمنشار : فيتهتك المخ ويتساقط على الأرض ، فيجمعه الحلاق بيده ويعيد تعبئته فى الطاسة ويضعها مكانها من جديد « كلشن كان » • مبالغة تصل الى حد الاستهتار بكرامة الميت ، لا تفيد التحقيق شيئا ، ولكنها لازمة من أجل أن تتم الصفقة التشريحية ويستحق الطبيب أجره الاضافى •

ألفت منظر تشريح الجثث ، لا أنسى أول مرة شق فيها المبضع أمامى جلد الميت من تحت منتصف ذقنه مشيا مع وسط حلقه ورقبته ثم الى البطن حتى العانة ، كان أكثر ما أدهشنى اصفرار الشحم تحت الجلد الأسمر •

تشريح الجثة « الطازة » أهون على نفسى من تشريح جثة دب فيها التعفن ·· لا أنسى هذا الغريق الذى عثرت به أو الذى عثر على لست أدرى ، كنت مع لجنة المساحة فى أرض قريبة من النيل ، فى صفار شمس من أوائل أيام الخريف · أنا جالس على الأرض فوق حرام ، سحب أبكار رقيقة الحواشى تتبختر عبر سماء زرقاء شفافة ، عصفور — لا أعرف اسمه — له ذيل طويل مرتعش يتواثب من حولى ساعيا وراء رزقه بهمة تغالب وجله الدائم ، يريد أن يعود لعشه قبل الغروب · من بين عيدان البرسيم تصل الى أنفى من بطن الطين الندى تحت قشرة جافة رائحة زخمة توحى بأن مخاضه لم ينقطع كأنها منبعثة من معمل كيمائى ·· نداءات الفلاحين بعضهم لبعض عبر الحقول لها ولولة شجية يهتز لها قلبى ، كنت أحسب أن أمامنا ساعة كاملة من قبل أن يتم العمل ولكن أعضاء اللجنة يسرعون على غير عادتهم· وجمعوا أدواتهم وهموا بالانصراف ، فلما وقفت رأيتهم يصطفون أمامى جاعلين ظهورهم للنيل ، أحسست أنهم يخفون عنى شيئا ، فشققت سياجهم وعلوت الجسر وتأملت المياه فاذا بجسد مكور يقب ويغطس ·

— ما هذا ·· ؟

— مفيش حاجة ياحضرة المعاون ، باينها جثة بهيمة ·· يمكن حمار ولا مؤاخذة ·

— حمار ازاى ·· ؟ ده بنى آدم أهو قدامكم ··

— اعمل معروف ياحضرة المعاون ماتجبلناش مصيبة وخوتة دماغ · سيبها تبحر مع المية تطلع فى حتة تانية ·

سيأتى رجال المركز والنيابة والطبيب وعدد من الجند ،

يلزمهم قهوة وشاى ان لم يكن غداء أو عشاء ، وستحسب جناية فى احصائيات القرية ، ويزيد عدد عفاريتها واحدا .

لم أنتقل حتى أخرجت الجثة ووضعت على الجسر . وجدناها عارية الا من حبل من الليف مربوط حول العنق هو لا يدل الا على أن فلاحى القرية القبلية ربطوها به وسحبوها بعيدا عن زمامهم .. ابتلت الأرض حول الجثة ، لاتزال تنزلق من فوقها قطرات ضئيلة من الماء كأنها عرق لوح من الثلج .. الأظافر مزرقة ، وجلد الكفين انفصل على هيئة قفاز شفاف ، البطن منتفخ ، فيه جفنات مشرذمة الجوانب ، من هنا دخلت السكين .. وبدت الساقان والذراعان المقوستان قصيرة لا تناسب حجم الجثة ، ورغم أن سواد العينين اختلط بالبياض خلت أن الغريق يصوب الينا نظرة شاخصة .

حضرت تشريح الجثة ولكنى بقيت مشيحا بوجهى عنها ، لا يكربنى منظرها بل نطقها ببرودة الموت .

لم نعرف من هو ، ودارت اشارة تليفونية على جميع عمد المركز بأوصاف القتيل الغريق الذى عثر عليه المعاون فلان الفلانى .. فتجمع على لوم القرى كلها لا قرية واحدة .

لم أسمع بعد ذلك شيئا عن هذا القتيل ، وحفظت القضية لعدم معرفة الفاعل .



يوم الكشف

•• سأروى لك آخر المتمة مثلا جديدا عن استهتار طبيب المركز في أمر قد يكون هينا ، ومع ذلك كنت لا أستسيغه رغم عجزى عن الرد على حججه •

يوم الكشف الأسبوعى على المومسات يتحرك موكبهن جماعة سيرا على الأقدام من النقطة الى مكتب الطبيب • لهن مشية مضطربة ، لا هى متسكعة ولا مجهدة ، كأنما يئودهن تعلم المشى من جديد فى مشوار هو سخرة لا نزهة •• صامتات لولا طرف فستان لبنى أو بمبة من تحت ثيابهن السود لما فطن لهن أحد ، رأيت الناس يتركوهن لحالهن ، لا تعليقات لهم ، لا بسخرية ولا برثاء ، هذا الموكب الذى ألفوا مشاهدته هو عندهم « طقم شغالة » يجاهد فى الحياة مثلهم • تتجمع النسوة فى الردهة ويتسلم الفراش رخصهن ويدخل بها على الطبيب فيوقع عليها بأنه أجرى الكشف وثبت لديه خلوهن من الأمراض التناسلية ، ويعود الموكب من حيث أتى ، صامتات لا يفهمن لم كان الذهاب والاياب •• شغل الحكومة عاوز كده •

لم أتورع عن أن أسأل الطبيب :

ـ لماذا تفعل ذلك وأنت مطالب بأن تكشف عليهن ؟

أجابنى :

ـ لو كشفت عليهن لضاع منى وقت طويل ، ولثبت أنهن جميعا مصابات بأمراض ، ثم ان كل من يخالطهن يعلم علم اليقين أنه يعرض نفسه للمرض ، ذنبه على جنبه •

أودع هذا الطبيب الذى قسوت عليه رغم أنفى وعلى خلاف طبعى ، وألوم نفسى من أجل ذلك لوما شديدا ، بأن أعترف بجميل له على . كان لا يخالط الموظفين ، وقلما دخل أحد داره ، ولكنه دعانى ذات يوم للعشاء . لعله رآنى من كثرة ماوجهت اليه من أسئلة ساذجة .. وبسبب نظراتى الحائرة المتطلعة أننى لم أنخرط بعد فى قافلة رجال الادارة ، أو ربما شفع لى عنده أننى أشذ عنهم فيرانى الناس أحيانا أخرج الى عملى وفى يدى أو فى جيبى كتاب . دخلت مسكنا أنيقا نظيفا ينم لأول وهلة عن ثقافة أوربية . ستائر ملونة على النوافذ ، لم أشهد مثلها فى منفلوط .. أنوار خافتة ، أثاث مريح من الطراز الانجليزى ، ومكتبة غربية عامرة ، وبيانو فى ركن الصالون . ودخلت علينا صاحبة الدار . سيدة متحشمة وقور فى ثوب جميل . وكنت لم أرها من قبل . أغلب الظن أنها تعيش طول الوقت حبيسة دارها . أحسست أننى أنتقل فجأة الى صالون — لا فى القاهرة — بل فى لندن أو باريس . لم أعجب حين علمت أنها من خريجات « الساكركور » . عزفت لنا على البيانو ألحانا تلقاها هواء منفلوط بدهشة يمازجها استغراب . من أى عالم قصى مجهول يأتينا هذا الطارق الغريب ؟ علمت أن لهم أولادا — رأيت صورهم فوق البيانو — بقوا فى القاهرة لطلب العلم ..

يسود الدار جو من السلام والدعة والنظافة والرقة والاطمئنان ومع ذلك لم أنعم بعشائى الفاخر — بين أطقم من فضة وكريستال — وأنا أحاول أن أطابق ما أشهد على سيرة

هذا الطبيب خارج داره . زلزل هذا التناقض نفسي زلزالا شديدا وعجزت عن الفهم والتفسير . وأحسست أنني في صحبة أناس أقاموا وسط الغابة مخبأ جعلوه لا يتسع الا لهم ، وصورة مصغرة لقصر جميل ، وأقاموا من حولهم المتاريس .. يخرجون للأدغال للصيد كالوحوش ، ثم يعودون فيغسلون أيديهم وينفضون ثيابهم ويتذوقون نعم المدنية والحضارة للجسد والروح .. أما أنا فقد بقيت نفسي طول المساء مطروحة خارج المتاريس ، ممزقة أشلاء ، يتناهبها سكان الأدغال .. ووقاني الله سبحانه وتعالى طول حياتي من شر هذا السياج .

قبلات وأحضان

أكاد أحس أن أهل البلد كانوا أيضا يقولون في سرهم : « كيف يخلص لنا هؤلاء الموظفون وهم لا يخلص بعضهم لبعض ؟ .. » لا شك أن أخبارنا تصلهم . فيضعونها تحت أضراسهم ويخفون ابتسامتهم الصفراء تحت شواربهم .

في المركز معاون بوليس ومعاون خفر ، كلاهما رب لأسرة كبيرة تعتز به ، هما مضرب المثل في الصداقة ، لا يقابل أحدهما الآخر ، في المكتب أو في الطريق ، بالليل أو بالنهار ، الا اندلق كل منهما في حضن حبيبه وطوقه بذراعيه ، وانشغل الفم وهو مفلوت العيار بتقبيل الوجنات، وظلت اليد اليمنى تطبطب من وراء على الظهر كأنها تمتحن بطيخة .. كنت أحسدهما وأتمنى أن يكون لى صديق

مثلهما . وظل هذا حالهما زمنا غير قصير ، ثم لا أدرى ما الذى حدث بينهما فاذا بالصداقة الحارة تنقلب فى غمضة عين الى عداء شديد .. لغاية كده كويس .. هذه الأشياء تحدث فى الحياة حتى قيل فيها شعر كثير وأمثـال وحكم ومواعظ .. ولكنى أصـبت بذهول حين دخلت على معاون الخفر فوجدته منشغلا بهمة فى تحرير عريضة اتهام ضـد معاون البوليس . فى يده « نوتة » صغيرة مما يوضع فى جيب الصديرى ، يتأمل صفحاتها ويكتب :

« فى يوم ١٠ يناير (أى منذ خمسة أشهر تقريبا) أشر معاون البـوليس فى دفتر الأحوال أنه خرج لداورية ليلية الساعة كذا وأنه عاد منها الساعة كذا مع أن الذى حدث هو أنه أرسل الجندى السوارى فرح سعفان ، فجمع له دفاتر الخفراء من مناطقهم ، وأشر عليها وهو فى منزله لم يبرحه» .

ثم يقلب صـفحات النوتة حتى يعثر على تسـجيل آخر فيعاود الكتابة :

« وفى يوم أول فبراير أخذ بدون وجـه حق من عليقة المركز ملـو كيسـين تبن لحصـانه الخـاص .. وفى يوم ٣ مارس .. »

سألته : ايه الحكاية .. ؟ ليه تعمل كده .. ؟ أنتم كنتو أصحاب .. عز الحبايب ..

فانفجر فى :

ـ ابن الكلب الشرموط مقدم فى عريضة مهببة ، أتارى السافل كان مقيد على كل حركاتى وسكناتى زى اللى كان مراقبنى ، تصـور عادد كام مرة رحت فيهـا قال خمـارة البلد ، كذاب فى أصل وشه ، لكن ماتخافش على أنا كنت

واخد احتياطى · البركة فى النوتة دى · وقبل ما يودينى فى داهية ـ ده بعيد عن شنبه ـ ح أوديه أنا فى ستين داهية ·· بكره تشوف واقعته سوداء ··

انصرفت أجر أقدامى ، لم أسأله :

ـ ومقيد على أنا ايه فى النوتة بتاعتك ؟

لعل الذى كان يطمئنى قليلا أن ليس بينى وبينه لا قبلات ولا أحضان ·· وانما أعدك بأننى سأحدثك عن خمارة البلد فقد كان معاون الخفر هو الذى قادنى اليها أول مرة وسحب رجلى اليها ·

سينما بدون رخصة

لذلك لم يندهش أهل البلد حينما علموا ذات صباح بما فعله معاون البوليس بواحد منهم بالليل ··

بجوار المركز بيت جميل لأحد الأعيان الأثرياء ، له حديقة واسعة · هو معمم وله ابن مطربش يهيم بالسينما ، فأقام فى الحديقة آلة عرض جيدة وشاشة لا يقل حجمها عن شاشة دور السينما · وكان يتكرم علينا ويدعونا لمشاهدة الأفلام كل مساء مع عدد قليل من أصدقاء صاحب البيت · وتدور علينا بسخاء فناجين القهوة والشاى وأكواب الشربات ، سهرة جميلة هى نعمة كبيرة أحمد الله عليها · وكان هذا الثرى عضوا مرموقا فى حزب سياسى كبير يتولى الحكم ·

معاون البوليس أولنا فى الدخول وآخرنا فى الانصراف.
اذا حدث أن أخره عمل فى مكتبه أرسل خفيرا يرجو صاحب الدار أن يؤخر عرض الفيلم حتى يحضر . هو أكثرنا مبالغة فى تحيته ومدحه والثناء على كرمه وأخلاقه التى لا تفترق عن أخلاق الملائكة .. وكان يطلب من الابن أحيانا أفلاما معينة فيحضرها له اكراما لخاطره ..

فى مساء اليوم الذى بلغنا فيه نبأ اقالة الوزارة وجدته مهموما فى البحث عن شمعة وشريط من القماش وشمع أحمر .

لم أر من قبل مثل هذه التشكيلة فوق مكتبه فسألته باستغراب :

ـ خير ان شاء الله ؟ .

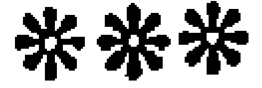
ـ لا ، حاجة بسيطة ، أنا رايح أحرر لجارنا فلان محضر مخالفة لأنه فاتح سينما عمومية بدون رخصة .

ـ وح تعمل ايه .. ؟ ح تشمع باب البيت .. ؟ وأهله يدخلوا ويخرجوا ازاى .. ؟

ـ أنا ما أعرفوش الا انه باب السينما ، ده مش ذنبى قدامهم المحكمة .

ـ وعندك تعليمات بكده .. ؟

ـ هى دى عاوزة تعليمات يا أستاذ ؟ .. الدور على فى الترقية ، وعاوز لى زقة بسيطة ؛ فلعل وعسى ★ .



---

* «الجمهورية» ٢٦ ـ ٦ ـ ١٩٥٩ ـ ص ١٠

ماحدش زيك ..

وخيل الى كذلك أن أهل البلد يجدون نوعا من التسلية في استعراضهم للموظفين يتبدلون عليهم تباعا أشكالا وألوانا، فما يكاد القادم يستقر بينهم ويألفهم ويألفونه حتى ينقل ويحل محله وجه جديد له طبائعه ومزاجه .. ساقية لا تكف عن الدوران . هذا الدوران كما يصون لحسن الحظ أهل البلد من تحمل الهم المقيم اذا كان القادم فاسدا أو مناكفا ، فهو ليس بالمخلد بينهم ، يحكم كذلك ــ لسوء الحظ ــ على هذه الألفة مع القادم الذى يرضون عنه بأن تظل سطحية لأنها مؤقتة . فالفلاح رجل عملي يجد من العبث والاسراف في غير طائل أن تتحول الألفة الى صداقة مع عابر سبيل .

وقد رأيت بعض الموظفين الطيبين العواطفجية ، حين ينقلون من بلد أقاموا فيه زمنا الى بلد آخر عساه أن يكون قريبا ، يلحقهم شيء من المرارة ويتهمون أهله بالجحود وقلة الوفاء والمقدرة على الضحك على الذقون ، حين يرون أن صلاتهم بأهله التى وهموا أثناء اقامتهم به أنها توثقت ، قد انبتت مرة واحدة كأنما لم يعرفهم فى هذا البلد أحد أو ــ كما يقولون ــ كأنما لم يكن لهم أفضال كبيرة على كثير من أهل هذا البلد .

هذه النظرية العملية من جانب الفلاح ، وهذه المرارة الموروثة من الماضى عند الموظف العاطفى ــ والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ــ تعرقلان توثيق الصلات بينهما مهما طالت اقامة الموظف بالبلد الجديد ، وتظل هذه الصلات رغم

ظـواهرها البراقة لا تسـلم من جو من الزيف ، وان كان منشـؤه أسـبابا سـلبية غير متعمـدة من الجـانبين ٠٠ فالفلاحون يرون أن الموظف أتى لا حبا فى سواد عيونهم ، بل تأدية لواجب مفروض ربما يراه كريها ، ما يفرغ منـه حتى يسرع فيولى لهم ظهره ويتفض منهم اليدين ، والموظف يتـوقع من أهل البلـد منـذ مبدأ الأمر قلة الوفاء وسرعة النسيان ، ولا يصـدق في كثير من الأحوال مودة من يهم بالتقرب اليه ٠

وكنت أحس بهذه التيارات التحتـانية ، وأرقبها بأسى غير قليل ، ولا أعرف لها علاجا ، وأرى مجتمعنا فى الريف يضيع عليه بسببها كثير من الخير والجمال ٠

وجدت في بندر منفلوط رجلا قصير القامة يلف رقبتـه شتاء وصيفا بكوفية من الحرير يماثلها فى اللون أحيانا ، ثم يبيض عنها ـ بعد الغسيل كل شهر مرة ـ شال عمامة واسعة تهبط حتى تكاد تقضم أذنيه في وجه مستدير دائم الابتسام (فكنت أعرف أسـنانه) ٠ له فرس « رهوان » هى وحدها دليله على أنه يمت للأعيان بصلة ، على حين أن رقة ملابسـه وخشـونة جلده لا تعنينـا على تصـديقه ٠ ولكن ـ كثر الله خيره ـ هو رجل ليست له مصلحة يجرى وراءها في المركز ، ولا له قضية يدخل من أجلها المحكمة ، ولكنه مع ذلك وقف نفسـه ـ كأنمـا يجـد فى ذلك لذة كبيرة ـ على تتبع أخبار تنقلات الموظفين ، واستقبال القادم وتوديع الراحـل ، وان لم يدخل أحدنا قط بيتـه ، بل لم أعرف فى أى شـارع يقيم وما مهنته على وجه التحـديد ٠ نراه على رصيف المحطة ـ والقطـار يبرحهـا فى منتصف

لليل ــ يقول للموظف المسافر وابتسامته المعهودة لا تفارق شفتيه :

ــ والله العظيم ماحدش جانا زيك قبل كده ، ويقول له : ولا حدش ح يجينا زيك بعد كده •

ثم يكون فى استقبال الموظف الجديد ويقول له بابتسامته اياها :

ــ البلد نورت وربنا أكرمنا بيك ، والله العظيم من وشك باين ماحدش جالنا زيك قبل كده ولا حدش ح يجينا زيك بعد كده •

هيهات أن يطاوعنى قلبى أن أتهم بالنفاق رجلا يتبرع لوجه الله ــ لا سعيا وراء مصلحة ــ بكل هذا الترحيب والمديح •

بيت الباشمهندس

من ذكرياتى عن تنقلات الموظفين •

مهندس البلدية مضى عليه فى منفلوط أكثر من ثلاث سنوات جاءها منقولا من وجه بحرى فعد هذا النقل نكبة كبرى • ليس لديه أمل فى التخلص من قبضة الصعيد لأن ملف خدمته يزداد مع الأيام والسخط اسودادا ، فاستسلم وطلب السعادة والنسيان فى نشوة الخمر وأحلامها • يسميه أهل البلد « الباشمهندس » فنحن جميعا نعلو رتبة عندهم •• الجاويش « باشجاويش » ، والمفتش « باشمفتش » ، وأنا كنت معروفا باسم « الباشمعاون » •

هو رجل أعزب عزوف عن الناس ، لا يألف الا شلته فى القهوة ، ولعله لو أتى هؤلاء الأصحاب القلائل في مكان غير القهوة لهرب منهم • يسكن وحده ـ بلا خادم ـ في منزل طويل عريض من طابقين يقع فى أطراف البندر ، لا يئوب اليه الا بعد منتصف الليل فيفتح الباب بعد لأى ، ويعلو الدرج وهو يدندن حتى يصل الى فراشه ، فيرتمى عليه وينام ، ثم يغادره فى الصباح ويعود اليه بعد الظهر لينام ساعات القيلولة ثم يخرج وهكذا دواليك ، لا يختلف يوم عن آخر ، حياته مظروف به ثلاث صور تحقيق شخصية من أصل واحد ، هى الأمس واليوم والغد ، فأنت تراه لا ينتفع من هذا البيت الكبير كله الا بسرير سفرى صغير •

أصبح المنزل بعد قليل ـ فما بالك بعد ثلاث سنوات ـ من المسارح الحرة للفيران والعناكب والهوام والغبار ، زجاجات الخمر مبعثرة على طول المدق المؤدى من الباب الى الفراش • أوراق الصحف تطير كما تشاء وتستقر حيث تشاء ، القمامة بين متناثرة ومكدسة طال عليها الأمد ، والباشمهندس المكلف بنظافة البلد كله سعيد بحياته أشد السعادة ، يقول : ان أوسخ معيشة لأعزب أفضل ألف مرة من أنظف معيشة لمتزوج • لما عرفته تنبهت أن أهل البلد حين يتطقون لفظ « الباشمهندس » لا يخفون ابتسامة تدل على الاستخفاف والرثاء معا •

كنت ألحظه وهو يسير أمامى على حافة الطريق منزويا مقنفدا ، رأسه اندفست في جسده فلمس شعر قفاه ياقة الجاكتة أو البلطو ، له مشية راقصة تديره قليلا الى اليمين

ثم قليلا الى لايسار · ترى أثرها فى تآكل كعبى حذائه من جنب· وحين أرقبه يسير هكذا وأجد يديه مضمومتين يحركهما الى الأمام والخلف لا أدرى لماذا يخيل الى أنه يكلم نفسه ، أحس حينئذ أنه شيخ متعب أثقلته السنون والهموم ، فاذا لحقته ـ لا أبالى اقتحامى لخلوته ومفاجأتى له ـ ومشيت الى جانبه تطلعت الى عينيه تحت حاجبين غزيرين متهدلين ، مستندين الى وسادة رثة من انتفاخ مستعرض على شكل اللوزة فوق كرسي الخد ، رق جلدها حتي تتحسب أنك لو مسستها بسن أبرة لنزت دموعا متعفنة ، وتقلصت على صدغيه تجاعيد رقيقة كخطوط الكف وعلى جبهته ـ لماذا لا يفردها ؟ ـ حبال من دوبارة غليظة كأنما لفتها يد العطار فى الحمزاوى · تنبعث من هاتين العينين نظرة صافية وديعة تترقرق بماء الحياة والقدرة على الضحك والبهجة ، لم أر مثلهما عيونا تبتسم وتغضى بحياء لذيذ لا يلبث أن يعم الوجه كله ، فأحس أننى بازاء شاب قد شاخ قبل الأوان · اننى لا أستطيع تخمين عمره ويورثنى هذا العجز شيئا من الحزن والأسي ، كأننى أشهد غصنا رطيبا لا يزال أمامه فى الحياة فسحة كبيرة يورق فيها ويزهر تقصفه فى عز الشباب يد غادرة · وكلامى عن عجزى عن تقدير العمر له بقية ستأتى فيما بعد ·

نترك سيرة الباشمهندس قليلا لنستقبل معاون البوليس الجديد الذى شرفنا ذات صباح وقال له صاحب الابتسامة والفرس الرهوان : انه لم يأت لمنفلوط من قبل ولن يأتى من بعد معاون مثله طيب ابن حلال · هو شاب أنيق أبيض اللون ، وسيم متعاجب ، على رأسه طربوش غامق قصير كطربوش اسماعيل باشا ، يتألق فرحا بمنصبه الجديد

لأنه جاءنا بترقية تقربه الى مطمعه فى أن يصبح سريعا مأمورا لمركز ، وينتقل من تلقي الأوامر السخيفة وينفذها وهو لاعن ساخط الى اصدار هذه الأوامر فى نفخة وأبهة بالقلم الأحمر أو بالشخط والنطر ٠

فهمنا أنه متزوج ولكنه جاء وحده أول الأمر ليبحث عن مسكن ، فاذا وجده استدعى أسرته ٠ وبدأ الموظفون يتهامسون أن مثل هذا الشاب الحليسوة الذى تبدو عليه دلائل النعمة لابد له زوجة جميلة هاى لايف ، فمتى تحضر؟ ومتى نراها ولو خلسة ؟

جعل المعاون أول همه البحث عن سكن وترك مكتبه وبدأ يجول فى البلد حتى وجد بيتا أعجبه موقعه وتفصيله وان أكربته فيه قذارة الأرض والجدران وسارع باستئجاره . وقيل له ان هذا البيت معروف فى البلد كله باسم « بيت الباشمهندس » نسبة الى مالكه الأول وكان مهندسا من أبناء البلد ٠

وعاد المعاون من فوره على عجل الى مكتبه ، وكنا بعد الظهر بقليل فدق الجرس فدخل عليه الجاويش ٠

ــ اسمع يا جاويش

ــ أفندم

ــ أنت عارف بيت الباشمهندس ٠

ــ أيوه

ــ ده بيت وسخ قوى ٠

ــ معاك حق يا سعادة البيه حاجة وحشة خالص ٠

ــ عندك كام عسكرى ماعلهمش الوردية ؟

ـ أربعة

ـ وكام خفير ؟

ـ ستة

ـ وكام مسجون أشغال ؟ (وهم المساجين الذين يعملون سدادا لغرامة) ••

ـ ييجي عشرة •

ـ عاوزك تخدهم كلهم وتروح معاهم تنضفوا لى البيت ده من فوق لتحت تخلوه زى المراية • فاهم ؟

ـ حاضر يا أفندم ، أمرك يا أفندم !

وخرج الباشجاويش وهو معجب أشد الاعجاب بالمعاون الجديد فهو رجل حمش لا يعجبه الحال المايل ولا يخاف أحدا •

جاءنا الباشمهندس للقهوة متأخرا وهو يكاد يقع من طوله لفرط الضحك •

ـ خير ان شاء الله مش عادتك ؟

ـ تصوروا أنني كنت راقدا اليوم بعد الظهر فى أحلى نومة فاذا بى أستيقظ فزعا على دق شديد على الباب كأن القيامة قد قامت • لم يحدث لى هذا قط من قبل ، وزاد انزعاجى حينما تدليت من النافذة فرأيت رهطا كبيرا من العساكر والخفر والمساجين على رأسهم الباشجاويش وفى أيديهم جرادل وفرش ومقشات ، وثقت أنهم أخطأوا العنوان ، وعرفتهم بنفسى وان كانوا يعرفوننى • ولكن الباشجاويش طلب منى ألا أضيع الوقت وأن أنزل اليه ، فلما واجهته قال لى ان لديه أوامر مشددة بتنظيف البيت من

تحت لفوق ، ففتحت لهم الباب على مصراعيه وظلوا من بعد الظهر الى العشاء يكنسون ويمسحون ، حاجة ألسطة خالص ، رزق الهبل على المجانين وتيجى للعمى طابات .. والى الآن لا أعرف السر ولا من تكرم على بهذه الخدمة الكبيرة .

لا أعرف ماذا حدث لمعاون البوليس حين عاد يعاين داره الجديدة بعد العشاء والسهرة مع المأمور ليطمئن على تنفيذ أوامره .. والعجيب أنه حنق على الباشمهندس ـ ولا ذنب له ـ وظل طول صحبتهما يناكفه ويدبر له المقالب .

***

اعود لبقية الحديث الذى فتح بابه على وصفى للباشمهندس وقولى اننى أسيت له حين عجزت عن تخمين عمره .

هذا التناقض بين العمر والوجه كان يلاحقنى مرات غير قليلة . فى منفلوط تلقيت لأول مرة فى حياتى عن قرب ووجها لوجه ضحايا البلهارسيا والملاريا ، فتية كثيرون فى زهرة العمر اكتسى وجههم بسبب هذين المرضين الخبيثين بصفرة الموت ، انتفخت بطونهم بثقل طحال متضخم ، أصبحوا مسخا تحار كيف تصفهم ، أهم شباب أم شيوخ . فى عيونهم نظرة مجهدة ومع ذلك تثب اليك كأنما تحاول التملص من يد تغتالها لتنطق بمعانى النفس وتنم بالراحة والمرح والمعابثة . وجدت أغلب الفلاحات ما تكاد الواحدة تتزوج وتخلف ولدا أو اثنين حتى تتساوى فى المظهر مع أمها ، قددتهما لسعة الشمس ووقدة الفرن ، وامتهنهما

وعطرهما بشذى واحد عجين الجلة وتقريصـها ، ودمغهما بميسم واحد بذل جهد مماثل في عمل شاق متصل رتيب ، هى أكثر أهلنا قفزا من الصبا الى الشيخوخة ، ولكن لهفى على صبية صغار لم يشبوا بعد عن طوق الطفولة من الكادحين في الريف أو فى المدن ، أولاد الفلاحين فى الغيط، الباعة السريحة فى المدن ، ولماو السبارس والمشردين على سلالم الترام من يمين ويسار ، والخدم الصغار من بنين وبنات : هم من معاناة الحياة أصبح لهم ذكاء الرجال المجربين وخبثهم وحيلهم وكلامهم ، حرموا جميعا من مرحلة هى أجمل العمر مرحلة الطفولة بلهوها وأخيلتها وغرقها فى غفلة من الهموم في عالم من اللعب والاختراع لا تمت لعالمنا بصلة ، ان هذا الغدر بالطفولة مأساة نعيشها ونغفل عنها ، لسنا فيها بدعا بين الأمم التى تجاهد للتغلب على الفقر • ان سعادة الآمم اذا قيست بالدخل القومى أو انتشار التعليم فانها تقاس أيضا بنجاحها فى أن تتيح لكل مرحلة من مراحل العمر حقها وحظها فى الحياة •

حتى بين الموسرين ، كم أود أن يكف الآباء والأمهات عندنا عن اشراك أطفالهم فى أحاديثهم ومشاكلهم وعن الالحاح عليهم بأن يثبتوا سريعا مقدرتهم على الكلام والفهم والتصرف كالبالغين ، انهم يحرقون طفولة أبنائهم وهم لا يشعرون فى سبيل الافتخار الأنانى بأنهم أنجبوا عباقرة •

تسكع على الصبح

غلبنى فى ذلك الصباح ميل الى التسكع بعد العمل المتواصل فى الايام الأخيرة هو الذى صد نفسى عن الذهاب

الى المركز ، كنت محتاجا الى يد تدلك عن رقبتي وركبتي تصلبهما من ركوب الحمار ، وتدلك أعصابي أيضا لأنها كالزنبرك ، هو وحده الذى اذا انفك تعقد ، والتعب ـ كالجوع ـ يحطم النفس ويذلها ويغيض عليه كل مباهجها ، فكي الأسفل يتوسل الى : من فضلك خليني أتثاءب ، وروحي تتوحم على وسادة من ريش النعام لتضع عليه راسها وترقد تحت شجرة وتحلم الأحلام • والغريب أنني أحسست مع هذا الميل الى التسكع بتوهج فى حاسة الذوق ، لا أدري سببه ، فليس له علاقة بالجوع ، اذ كنت دببت بطني بالفطور من جبن ولبن وفول مدمس كعادتي كل صباح • وجدت لساني كأنه استيقظ من نوم أو شفي من علة وأخذ يتمسح في قضبان فمي كما يفعل الثعلب الحبيس في قفصه اذا دنت ساعة الأكل ، يقول لي لساني ، اذا أذقتني الآن شيئا ولو طعام دلع أو حرش لاكتشفت معي لأول مرة أجمل أسرار طعمه وأدركت طرفا من نعم الله •

ولكن أين اذهب ؟ ليس اليوم يوم السوق ، فلو كان لوجدت فيه ما أشتهي على أتمه • انني لا أريد أن أجلس على القهوة لسببين ، الأول : أنني أستسمج أن أزوغ من المركز علنا ، والثاني : أن الذهاب للقهوة نوع من الوظيفة الفتها رجلاي وسمعي وبصري ، لو أصبت بداء المشي في حالة النوم لما قادتني قدماي الا اليها ، على حين أن لذة التسكع هي في الخروج عن المألوف • المحطة ميتة ، لأن موعد قطار مصر لا يزال بعيدا ، حتى الناظر قفل الدكان ووضع مفتاحه في جيبه وصعد الى زوجته ، يخطف له تعسيلة ، لن تكتحل عيني الا برذاذ الروائح المتطايرة مع فتات القشر من أكياس البصل المكدسة على الرصيف ، كل منها في

شهره التاسع • الجلوس على باب الصيدلية لم يأت أوانه بعد ، فقد قررت ألا أفعله الا اذا كانت في يدى منشة من شعر الخيل بمقبض من العاج بعد الاحالة على المعاش حين يكون همى الأوحد السؤال عن آخر علاج لضغط الدم ، ان كان فى العمر بقية •

اذن لم يبق لى الا أن أتطفل على طبيب المركز ، صديقى الذى بفضله علمت عن مظالم أهلنا ما لا كنت أعلم أو أتخيل ، وأقرب الأمكنة شبها بمحطة السكة الحديدية التى أحبها ساعة يقظتها على صفير القطار ، هى عيادة الطبيب ، فليس الا عندها نحس أننا فى هذه الدنيا على سفر أيضا •

دخلت عليه فوجدته لحسن الحظ منشغلا باجراء جراحة ، اذا كان لا يلبس معطفا أبيض ـ حاشا ثم حاشا ـ فمن باب أولى ألا يضع برقعا على فمه ، لعل عذره أن أهل الصعيد يرون من أكبر الكبائر أن يتبرقع الرجل كالمرأة ، بل اكتفى بخلع الجاكتة ولملمة كم القميص فوق الكوع كالرحى ، وعلى الطاولة الضيقة الطويلة ـ دهانها الأبيض مقشور هنا وهناك ـ رقدت فلاحة شابة من قرية مجاورة ، لا ترتدى الا جلبابا أسود غليظا ، يهبط الى الكعبين ويتكفل ذيله اذا مشت بكنس الطريق وراءها ، طعنتها جاموسة بقرنها فمزقت جدار بطنها ، والعجيب أن الثوب ذاته لم يتمزق لأنه فضفاض ، فنفذ فى مكان الطعنة مع القرن الى تجويف البطن ثم رجع سليما ، كان الطبيب قد أزاح ثوبها وكومه فوق صدرها • فلأول مرة فى حياتى رأيت أمعاء انسان حى تبرز من ثقب فى بطنه بروز أسلاك من موطور مخروب ، ودهشت حين رأيتها على غير ما كنت أظن ، رقيقة تكاد تكون شفافة ، منتفخة كبالون الأطفال ، تشبه

البقاليل ، أى قدرة هذه التى تقيم حياة الانسان المستأسد على مثل هذا الوهن ؟ الشابة الفلاحة شاحبة الوجه زائغة العينين ، مرتعبة لا من الجراحة بل من وقوعها وهى فى الغربة ــ مع أن المسافة بين قريتها والمركز فركة كعب ــ فى يد أناس ليسوا من أهلها ولا من طينتهم ، تعرف أكيدا بالبداهة وبالوراثة والسمع والعلم والتجربة أن الرحمة قد نزعت من قلوبهم ، يائسة مغمومة لو استطاعت للطمت خديها ، لا رثاء لحالها أو لحال وليد سيتيتم يا ضناى بعدها ، بل لعريها وانتهاك حرمتها وكشف عورتها ، أظن أن عارها هو الذى أفقدها الشعور بالألم ، فهى لا تصرخ او تتاوه ، انما تتلاحق أنفاسها كأنها تلهث من كرب عظيم ، كنت أظن من قبل أن جمال الوجه لا ينطق الا فى حالة الصحة والنعيم والاشراق وأن الجمال والرضا أو البؤس أو الكمد ضدان لا يجتمعان • فما بال هذا الوجه الذى تجمعت عليه كل الأدواء ، وشحب على الخوف والبؤس ، وكادت شفتاه تضربان الى الزرقة ، جلده مشدود وعظامه ناتئة ، كل خلية فيه لم ترع الا المش والبصل والبتاو ، ما باله قد اكتسى فى نظرى بصفاء التحف المرمرية فى قبور الفراعنة ، كل لمس لها تيمم وتبرك وصلاة • وما بال الشفتين قد أنستنى رقة رعشتهما لونهما ، بل تمثل لى فيه كل ضعف وضياع وعطش للحنان ، لو أطعت نفسى لمددت يدى أمسح بها على شعرها وجبهتها وملت بفمى على شفتيها الزرقاوين أقبلهما •

غسل الطبيب يديه فى طبق غويط به سائل مطهر ، لم يلبس قفازا ، بل أخذ يعمل بسبابتيه واحدة وراء أخرى ــ كأنه يحشو باذنجان ضولمة ــ فى دفع الأمعاء البارزة داخل

تجويف البطن وأنا أهمس له :

ـ مفيش بنج ؟

فرد علي بقهقهة أردفها بقوله :

ـ خليها على الله ٠

انتهى من ادخال الأمعاء ورأيت كيف خاط جدار البطن حتى اذا فرغ من وضع الضماد عليه سحب ثوبها من فوق صدرها وغطاها وهو يتنهد ٠٠ كم كنت أتمنى أن يشيح بوجهه ولو فى هذه الحركة الأخيرة التى لا تستدعى منه النظر لتفهم الفلاحة أننا فهمنا ، ولكن تقول لمين ؟

سألته :

ـ أتظن أنها ستعيش ؟

فأجاب :

ـ وتبقى زى الجاموسة اللى نطحتها ، الصعايدة جنس نمرود ، مايجيبهوش الأرض الا الشديد القوى ، ولا يفل الحديد الا الحديد يا أستاذ ٠

والعجيب أني تتبعت أخبار هذه الشابة من العمدة وعلمت أنها شفيت فى أقل من أسبوع ٠

لا أدرى لماذا ذكرتني ملاحظة الطبيب عن الجنس النمرود بهذا الرجل الأعرج الذى عرفته فى احدى قرى نقطة « نزالى » جنوب ٠ انتظر أهلها على زمنا حتى ألفوا حديثى وطبعى ٠ ثم باحوا لى بالسر ٠٠

كنا جالسين ذلك اليوم أمام دوار العمدة فاقبل علينا هذا الأعرج ، رجل بدين ، يدل مظهره على أنه أرفع من طبقة الفقراء المعدمين ، لما سلم على كادت يده تسحق أصابعي ، ومع ذلك فكل حاله ينطق بأنه طفل كبير ، فى

خفة حديثه وتلفت وجهه ولعبه بعود من القش يعقده حول أصابعه ، وفي استناده عند القيام على كفيه فوق الأرض حتى تعلو عجيزته •

لم يكد يستقر به المقام حتى رأيت القوم كلهم يبتسمون ويتطلعون الى ، شأن من يريد أن يروى لك نكتة تعجبه ، فلما رأى الرجل ابتسامتهم عرف الذى هم قادمون عليه وابتسم هو أيضا ، يريد بهذه الابتسامة أن يستل منهم سلاح الهجوم ، سيكون هو الذى يضحك على نفسه قبلهم •

ثم قالوا وهم يزومون :

ـ تحكى انت والا نحكى احنا ؟

لا اذكر الآن أى الطرفين حكى الحكاية ، المهم أن هذا الأعرج أصبح منذ حادثته موضع تندر أهل القرية لخلطه بين العباطة والنمردة ، وبين الهبالة والشيطنة ، وأهل القرية يتصيدون أقل دواعي التندر لأنها قليلة ويتوارثون روايتها زمنا غير قليل • كان الرجل قد ذهب وهو سليم الى المنيا ـ وتلك هى أطول رحلة له شمالا أو جنوبا ـ لعيادة قريب له وللتبرك بزيارة سيدى الفولى • فلما عاد لم يركب القشاش بل ركب الاكسبريس وقطع تذكرة لمنفلوط لأن هذا القطر لا يقف على محطة نزالى جنوب ، ويتطلب نظام السكة الحديدية في الخط المفرد (كما كان فى عهدى جنوب المنيا) أن يخطف السائق والقطار مسرع طوقا معلقا فى عمود على رصيف المحطة ليقذف به الى ناظر المحطة التالية ، وهكذا دواليك محطة بعد محطة يقذف طوقا ويخطف طوقا ، ويقتضيه هذا أن يخفف من سرعة القطار قليلا •

وكان قطار الاكسبريس قد تأخر عن موعده وبان لصاحبنا انه لن يدخل منفلوط الا بعد منتصف الليل حين تكون قد انقطعت كل المواصلات ، وعزم على أن يكوع فى المحطة حتى الفجر ، ولكنه حين رأى القطار يخفف من سرعته قليلا وهو يهل على محطة نزالى جنوب ــ وربما وصلت الى خياشيم صاحبنا روايح قريته ــ حتى لعب الشيطان بعقله وأوهمه أن النزول من القطار وهو مسرع ينبغى ألا يخيف رجلا شجاعا مثله ، حتى ولو وقع فانه يستطيع أن يسند نفسه على يديه ورجليه ، فلم يكذب الخبر ولم يجد فى العربة كلها من فطن لحماقته حتى يمنعه ، ووقف على باب العربة حتى اذا رأى رصيف المحطة نزل من الاكسبريس كأنه ينزل من سوارس .. لم تدق عنقه كما يعلمنا المنطق وعلم الطبيعة ، بل نجا وكسرت رجله ، ومنذ ذلك اليوم أصبح معروفا فى القرية وما جاورها بأنه : فلان إللى نط من السكسبريس .

وتركنا الرجل ومضى وهو يدب على ساقه العرجاء ويضحك ، يحمل عاهته كأنها قشة على ظهر بعير ، يخيل الى أنه أصبح يؤمن أنه ولد بها كما ولد غيره بست أصابع أو أربع ، فليست هذه عاهات بل عوارض .

خرجت مع الطبيب من حجرة العمليات ــ عينى ياعينى ــ الى حجرة المكتب فوجدت فلاحا واقفا بالباب وقفة الخاشع المتأدب ، وسلم علينا بوضع يده على صدره تارة وجبهته تارة أخرى وهو يقبلها كل مرة .

سأله الطبيب :

ــ عاوز ايه ؟ بتشكى من ايه ؟

ـ رطوبة يادكتور ، رطوبة فى جنبى ..

الرطوبة عند الفــلاح هى أخبث الأمراض كلها ، لو فتح مدرسة للطب لسماها مدرسة الرطوبة .

أشار له الطبيب فرقد فوق سرير الكشف وهو يقرفص ركبتيه ويدنيهما الى بطنه ليتخــذ هيئة الهيــاكل العظمية لموتى الشعوب البــدائية فى قبــورهم ، ففردهمــا الطبيب بضغط يده وهو يقول له :

ـ أنهو جنب اللى بيوجعك ؟

فأجاب ببساطة :

ـ جنبى البحرى يادكتور .

لم أتمالك نفسى من الابتسام ، وكدت أتلفت فى الحجرة لأعثر على شيء يهدينى الى البحرى من قبلى ، حتى لو رأيت الشمس أو كانت فى يدى بوصلة لتلخفنت وظللت أدور فى مكانى ..

هذا مثل فريد لحاسة عجيبة وجدتهــا على أشــد قوتها لدى الفلاح ، حاسة معرفة الجهات الأربع . كنت اذا سألت فلاحا عن طريق أجابنى :

ـ امش شــوية وبعــدين تشرق وكمــان مســافة تبقى تغرب .

وقد يكون الشرق عن يسار السائر والغرب عن يمينه ، ان الفلاح لا يعرف اليمين واليســار والأمام والخلف ، بل الشرقى والغربى والبحرى والقبلى ، وقد لاحظت أنه يتخذ البحرى أساسا لتحديد الجهات الأخرى ، وبعض الشــعوب

تتخذ الشرق ، لست أدرى تعليل هذا الخلاف والكن الذى تبينته أن الفلاح يعرف الجهات الأربع بالغريزة لا بالتعليم، حتى لو أنه سقط من باراشـوت وهو معصوب العينين فى أرض مجهولة وسمعك تنادى عليه لهتف بك :

ـ قبل حداى ٠٠

هدأت نفسي بعد تسكعها فى عيادة الطبيب وان لم يتثاءب فكى الأسفل ولم ترقد روحي على وسادة من ريش النعام ، وخرجت وسرت الى المركز وأنا مدلدل الأذنين ، أدير فى رأسى عذرا أخترعه لأبرر تأخرى ٠ ولماذا أذهب بعيدا ٠ سأقول للمأمور :

ـ أصل عندى رطوبة ٠

وليفهم ما يفهم ! ★

سـوق الجرائم

حاولت فى الفقرات السابقة قدر جهدى وفى نطاق خبرتى ـ وأعترف مع الأسف أنها محدودة ـ أن أصف لك شعورى ـ وقد أكون مبالغا ومهولا ـ وأنا أتأمل علاقة أهل البلد بالموظفين عمال الحكومة عندهم ، ووصفت لك ما خيل الى أننى رأيته من ثمارها وجذورها باحثا عن تفسير لهذه الهوة التى كنت أحس فى عهدى أنها تفرق بينهم والتى جعلت من همى المؤرق أن أبنى لنفسى فوقها جسرا فكان ينهدم قبل أن يقوم ٠ لم أفلح فى حمل الفلاح على الوثوق بى مع أننى رفضت كل الرفض أن أؤمن بما يقول زملائى

★ كتب للجميع ، ١٥٠ ، مارس ١٦٠ (ص ٧ ـ ١٣)

ـ عن تجربة ـ بأن الفلاح رجل لا يوثق به وأنه عنيد لا يتحول عن طبعه وأن معاملته باللين والانسانية عبث ضائع ·· يلحون على أذنى بهذا الكلام يوما بعد يوم ·

هذه الريبة التى شرحت لك مظاهرها وأسبابها هى التى كانت تفسد على الحكومة كثيرا من نياتها الطيبة وكانت تجعل ـ كما يتبين من الأمثلة التى ذكرتها لك فيما سبق ـ بين الكلام الجميل على الورق وتنفيذ هذا الكلام بونا شاسعا ·

بقيت لهذه الهوة أسباب أخرى لابد لى من ذكرها ، بعضها لا حيلة لنا فيه ، يظلم الفلاح حكومته بسببها ظلما شديدا ، سأضرب لك مثلا بقضية عاصرت مولدها وخاتمتها المفجعة ·

فى أحد بلاد المركز أسرة لها سطوة كبيرة ، لن أطيل عليك بذكر أسبابها ، الأب ـ عميد الأسرة ـ هو « الرأى » الذى يقدر الموقف ويدبر الخطة ويعطى اشارة التنفيذ ، رجل داهية ، ماكر ، سهتان ، لولبى ، غويط ، ساحر فى كلامه ، وتصنعه التقوى والضعف والطيبة وايثاره المسالمة على العدوان ، ماء من تحت تبن ، يساعد على هذا الزعم أنه رجل نحيل ، قلة ، مصاب بأمراض كثيرة أخفها الربو والفتاق · هو أمى لا يقرأ ولا يكتب ولم يخرج من قريته الا قليلا ومع ذلك كنت اذا جلست اليه أقول له فى سرى « لو كنت من رجال السياسة كان يروح جنبك فين « ماكيافللى أو « متر نيخ »! ·· كنت أعجب به ، وأحبه ، رغم كهوفه وسراديبه ·· واستلطف مجلسه وحديثه ··

أما التنفيذ فموكول الى الابن الأكبر وهو شاب ضخم

الجثة ، مفتول العضلات كأن لحمه من حديد ، لو مال على جبل لهده ، يعرفه أهل البلد أنه جرىء ، مستبد ، لا يحب أن ينزل كلامه الأرض • مرهوب تخافه الناس •

وأصبحت البلد ذات يوم وهى تتحدث عن نزاع قام بين هـذه الأسرة وجار لهـا فى الأرض ، كل ما أذكره عن سبب النزاع أنه يتعلق بالحدود بين الأرضين ، أو بمرور ماء الماكينـة الى أرض عبر الأخـرى ، لا شـأن له بالمال أو بالعرض • وعلم أهل البلد كلها أن هذا الشاب قال لجاره أمام جمع من الناس :

ـ ياتيجى بالمعروف ، ياما يحصلكش طيب ، صدقنى •

وأهل البلد كلهم يشهدون أن هذا الجـار رجل طيب ، لا يؤذى ذبابة ، وأنه انسان ، ولكن الظاهر ان أجله كان قد انتهى ، فلا يدرى أحـد لماذا ركب هـذه المرة رأسـه وأبى الانصياع للتهديد ـ ومع ذلك أخذ يحتاط لنفسه •

رأيته بعينى لا يفارق داره قط بعد الغروب ، ولا يخرج بالنهار الا بين حارسين شحطين ملتصقين بجسده عن يمين ويسار ، وعينه مع ذلك تجوب الأفق ، قلقة ، مسـتريبة ، يشتد انتباهها عند المرور بجانب غيط أذرة ، أو اذا رأت من بعيد شبحا لواحد من بلدة غريمه فيخال لها انه يخفى تحت جلبابه بندقية ، أية معيشة هذه ؟ كيف كان فى هذا الخوف المقيم يأكل ويشرب وينام ؟

لم يكتف بذلك بل قدم للنقطة بلاغا يشرح فيه الأمر ، وينهيه بطلب واحد هو أن تأخذ النقطة تعهدا على المشـكو فى حقه (بعدم التعرض له) ـ هذا هو التعبير المستعمل فى أمثال هذا البلاغ •

وقد وجدت المركز أثنـاء عملي به يتلقى عددا كبيرا من أمثال هذا البلاغ ، يحرر المعاون بكلام الشاكى وكلام المشكو في حقه محضرا تحفظه النيابة اداريا، أو يتولى الباشجاويش بخطه البديع قيد كلام الاثنين في « دفتر الأحوال » ويصر الشاكى قبل الانصراف أن يسـجل رقم وتاريخ المحضر أو القيـد فى دفتر الأحـوال في ورقة يضـعها فى عبه كأنهـا حجاب ••

وكنت أرقب هذا الذي يحدث وأتعجب له • فنحن نعلم أننا نشهد مولد أسباب جريمة متوقعـة ، ومع ذلك نقف أمامهـا مكتـوفي الأيدى ، فالنزاع من اختصـاص المحـاكم المدنية ، ولو تتبعنا هذه الشكاوى لمحاولة فض أسبابها لما بقي لنا وقت ولتحقيق الجرائم التي وقعت فعلا ، ثم لا شك أنه سـيتبين لنا آخر الأمر أن أغلب هذه الشـكاوى أوهام وأن تهـديد المشـكو في حقـه تهجيص في بلاليـص • من العسير أن نصـبح (لجنة صـلح) متنقلة ، ليس هذا في تقاليد المركز ، ولو فتحنا هذا الباب على أنفسـنا لما عرفنا كيف نغلقه ، هذه هي صـورة متـكررة للغـز الذي يحير الناس منذ قيام الحكومات وانشاء النيابة والبوليس وقوات الضبط والربط •• انها لا تتحرك الا بعد أن تقع الجريمة فعلا • أما قبل ذلك فكل جهدها أن تقف موقف المتفرج •

وكنت أرقب الشاكى حين يضع الورقة في عبه ، وأكاد أحس أنه لا يأخذها كضمان لحياته ، بل كضـمان أن دمه بعد موته لن يضيع هدرا ، انه يريد أن يفتح عين الحكومة قبل أن يطمس الموت عينه هو ، هو يريد منذ الآن أن يطمئن على أنه قادر على الانتقام وهو في قبره •• أمنع نفسى بجهد أن أقول له •• لكن بعد خراب مالطة ! ••

ومضت أيام وأسابيع على هذا النحو حتى كادت الحكاية تضيع فى طى النسيان ، ولكن لعب القط والفار ، فاذا به ذات يوم وقد عاد الى داره وكان الغـروب قد خدعه وسبقه بوقت غير طويل يسـهو ـ وكل شيء مقـدر ومسـطر على الجبين ـ ويجتاز وحده الشارع الضيق أمام بيته الى دكان بقال فى مواجهته ليشترى منه أوقية من الشـاى وأوقيتين من السـكر •• وكان البقـال قد علق على مدخـل الدكان مصباح اللوكس ، يزن ، ويصـطدم به بصـوت مسـموع أنواع عجيبـة من الحشرات ، وتبـدو الوجـوه تحت نوره الوهاج شاحبة غاضت دماؤها •• وهم الرجل بتقديم يده لتناول الشاى والسكر ويمسى على البقال ويصبحه بخير ، فاذا به ينطخ بعيار نارى من تحت الجسر القريب فوقع من فوره قتيلا فلما عدلوه على ظهره وجدوا يده لا تزال قابضة على الشاى والسكر •

هذه هى القضية ، هى عند أهل البلد سهلة واضحة ، الأعمى يشوفها ، لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح عنزان ، ان القـاتل هو هذا الشـاب ولا ريب ، ينبغى اذن حسـب منطقهـم القبض عليـه فورا ومحـاكمته واعدامه فى أربع وعشرين ساعة ، يقـولون هذا وقد علموا أن الشـاب كان لحظة اطـلاق العيـار جالسـا ـ على غير عادته ـ فى بيت العمـدة مع عدد من الأعيان والسـمار ـ من بينهم الأب ، وهؤلاء أناس لاتكذب شـهادتهم ، ان هذا الخـداع عندهم تأكيد لا نفى لادانته • انهم يسقطون من الحسـاب صاحب اليـد التى ضـغطت على الزناد ، هذا مأجور ، آلة صـماء لا تفترق عن البندقية التى أطلقها ، هو دخيل ، فالقضـية هى بين القتيل وغريمه الشاب •

ولكنهم يرون أن لرجال البوليس والنيابة منطقا مخالفا ، جعلنا همنا الأول البحث عن القاتل ، تتبعنا أثره في الحقول فضاع منا ، فتشنا بيوتا كثيرة فلم نعثر على شيء •• يقولون : وهو القاتل مغفل حتى يترك البندقية فى بيته ؟• لم يتقدم أحد بشهادة عن واقعة القتل تسعفنا • لم نلبث أن ادركنا أن القضية (فطيس) ومع ذلك فتحت ضغط الرأى العام قبضنا على الشاب وسقناه الى سجن المركز ونحن نعلم أن اقامته فيه لن تطول فاذا كانت براءته موضع شك قليل أو كثير فان الحكم عليه محال لعدم كفاية الأدلة على الأقل •

ويتفرج أهل البلد على الحكومة في هذه اللخمة ويستخفون بها وبمنطقها وتظل الهوة قائمة بينهما •

لذلك كان للجرائم سوقان ، سوق حر ـ أهالى ـ وسوق رسمي ـ ميرى ـ ولا علاقة بين الاثنين •

في السوق الحر القاتل معروف ولو لم يره أحد،والأسباب بينة واحتمال الأخذ بالثأر ـ فهذا هو الحل الوحيد ـ يدرس على ضوء عزوة أسرة القتيل ورجولة أفرادها ، وقد يحسب حساب للابن الرضيع فى الأسرة العريقة في أخذ الثأر • مابقي بعد ذلك من كلام عن الجريمة بنوع من السمر ، ما أحلاه عند الاجتماع فى الغيط بالليل تحت سماء تناثرت نجومها وحول نار وقودها قوالح الذرة ، ولكنه كلام لا يسجل ولا يقيد ولا يعرض بعضه على بعض لتعرف جانب الصدق والكذب فيه ••

أما السوق الرسمي فهو ـ على النقيض من السوق الحر ـ منشغل بالثانوى ، بالتفاصيل ، بالمظهر السطحى • الحق الواضح لا يزال يحتاج عنده الى برهان كأنه يطلب من

القتيـل ـ لا من القـاتل ! ـ ألا يقـع القتـل الا بحضـور شاهدين على الأقل ، وأن يطابق أحدهما كلام الآخر بالسنتي والمللى ، حتى في وصـف الثياب ، ومقـدار غروب القمر ، وقياس المسافات أولا فى تحقيق البوليس ، ثم بعده بوقت قليل فى تحقيق النيابة ، ثم بعد عمر طويل أمام المحكمة • ومنظر القضاة على منصتهم بالأوسـمة والوشـاح رهيب ، وصرخة الحاجب تزلزل القلوب ، وللمحامين صراخ وامساك بالتلابيب فلا نجاة الا أن يقال لهم ما يرضيهم ولو كذبا ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فالمسـألة هى عندهم مسـألة شكليات واجراءات حكومية ••

لذلك لا يجد الفلاح غضاضة فى أن يدلى فى هذا السوق الرسمى ـ الذى يراه سوقا أعمى ـ بشهادة الزور •• أهه كله عند العرب صابون •

قد تختفى جرائم الأخذ بالثـأر لو أخذت الحـكومة هى نفسها بثأر الفلاح ، بحسب منطقه وهذا محال •

وقـد تتبعت باهتمـام أخبـارا كثيرة عن بعض رجـال البوليس والادارة ، تروى كالأسـاطير ، ولا يزال لاسمهم دوى فى الصعيد ، اذ وجدت شهرتهم قد قامت على أنهم لم يابهوا بالقانون والسوق الرسـمى وماشـوا منطق الفلاح ودبروا هم أنفسهم مقتل نفر من عتاة المجرمين • هكذا يقال عنهم ، والله أعلم بالحق ، ولكنني وجدت الفلاحين يذكرون هـذه الأسـماء ويحيطونهـا باحترام واعجـاب شـديدين ويقولون :

ـ كده تكون الرجالة ولا بلاش •

لا أترك هذا الموضـوع دون أن أخبـرك أنني كنت اذا فرغت من عملي لا أخرج من المركز الا اذا زرت هذا الشاب في زنزانته ، وطلبت اليه ذات يوم أن يكتب لي شيئا بخطه في الدفتر الذي كنت أحتفظ به حينئذ ـ وضاع مني فيمـا بعد ـ لتسجيل عينات من خطوط المجرمين ، ـ لعلك تذكر أنني حدثتك عن هذا الدفتر فيما قبل ـ ٠٠ وقد ارتاب في هذا الطلب أول الأمر ، ثم استجاب لرجائي وهو يضحك على هـذه التقليعـة الجـديدة التي لم يفهمهـا ٠ يقف في الزنزانة كالأسد ، الحبس للجـدعان والدنيـا بخير ، اذا اقترب مني وقبض بيديه على القوائم الحديدية ملأ صـدره شراعة البـاب وفـاض على الجـانبين ، يسـتقبل الزوار كالضيوف ، ويطلب لهم شايا ، وجدت العساكر والخفر في خدمته وبقية المسـاجين ـ بلا سعي منه ـ يعاملونه كأنهم أتباع له ، لم يكن مسجونا ، بل معتكفا يستظل هنيهة تحت سقيفة هربا من حر الشمس ٠٠

جمعية عمومية

ومن المنغصات للعمد أن المركز يسـتدعيهم ٠ (حسب قولهم كل يومين والثاني ، وحسب الواقع : كل حين ومين) لعقـد جمعية عمومية ٠ مايزورنا المدير أو وكيله أو مفتش الداخلية ، وكذلك ما يحل موسـم الفيضـان أو الدودة أو الجراد أو تقفيل الميزانية ، حتى تنبعث اشـارة تليفونية تشدد على جميع العمـد بضرورة الحضـور ، والحـذر ثم

الحذر من التأخير • فيهم من يسكن على أطراف الوادى ، بينه وبين البندر سفر شاق طويل ، كلهم يقدم متحسرا على ضياع يوم كان ينفعه لو خلص له فى قريته •

هذا يوم مشهود ، حول بناء المركز عدد غير قليل من الخيل والحمير ، بين غنى وفقير ، الخفراء المصاحبون للعمد جاءوا مرتدين ملابسهم القروية وتحت ابطهم الزى الرسمى وهو بذلة زرقاء من قماش خفيف لها حزام عريض يشد وسطهم ، وتحيل لابسها الى نحلة ضخمة ، واذا بلغوا باب المركز جلسوا القرفصاء فى الطريق وخلعوا ولبسوا أمام أعين الناس ، ثم وضعوا على رءوسهم لبدة كالطربوش بلا ز فوقها نحاسة مستديرة عليها رقم • حينئذ تكون القيافة الرسمية قد تمت ، فيدخلون المركز وهم مطمئنون ، فق كان من أسباب الجزاءات التى يوقعها عليهم الحمقى ء رؤسائهم أنهم يمثلون أمامهم أحيانا وقد غفلوا عن ارتداء هذا الزى الرسمى الذى يضيقون بقمطته ضيقا شديدا •

يجلس العمد صفا وراء صف ، يستمعون الى الخطب والأوامر والتنبيهات المشددة ، من ضرورة حفظ الامن (بكسر الهمزة من فضلك) وتحصيل الميرى وتنفيذ أوامر الحكومة • لم أجد فيهم من يتكلم أو يقف ليسأل ، بل هم منصتون صامتون ، فهذا كلام سمعوه من قبل مرارا ، وما حضورهم الا سدادا لخانة • وخيل الى ــ ولست أدرى ان كنت على حق ــ أن الصداقات قليلة بين العمد ، فلم أشهد كثيرا من الأحضان والقبلات أو السلامات الحارة ، أكثرهم لائذ بنفسه منطو عليها • أيكون تحمل الهم الواحد منفرا لا مقربا بين القرناء ؟ •

أما نحن المعاونين فكنا نفرح لهذا اليوم كثيرا ، فوق مكاتبنا أكداس من أوراق يلزم لانجازها أخذ أقوال العمدة ، فنظل نستدعيه ونرجوه التكرم بالمرور علينا فيماطل ويسوف ، الآن وقع فى الخية •

من اثقل هذه الأوراق ، حكم تأديبى يقتضينى أن أحصل من العمدة غرامة قدرها خمسون قرشا لسبب لا تستريح له نفسي • فالتهمة هي أنه أهمل فى ضبط سلاح أو التبليغ عنه • فما تقع في القرية جريمة ويستعمل فيها سلاح ــ سواء أكان بندقية أم سكينا ــ حتي يحرر للعمدة ــ اداريا ــ محضر مخالفة لأن حضرته لم يفتح عينه ولم يضبط هذا السلاح قبل وقوع الجريمة • وليس فى القرية فلاح واحد له أرض أو زرع لا يملك سلاحا •• لايدفع العمدة هذه الغرامة الا بضجر بالغ وهو يضرب كفا بكف ، قائلا « وانا ذنبي ايه ، كنت أشم علي ضهر ايدى ؟ » كنت أحس أحيانا أنني أنتزعها من جيبه انتزاعا ، وكان مما يهون على نفسى علمى بأنه سيفرضها بدوره علي قريته •

والورقة الثانية ثقيلة الدم أيضا • هى تذكرة لجمعية خيرية ورد للمركز عدد كبير منها لتوزيعه بالذوق والانسانية ، ونحن نعلم أنها لن توزع الا بالاكراه ! ونقوم نحن بدل الجمعية بدور المستعطف المستجدى تارة ، والضغط والتلميح بما قد يخبؤه المستقبل تارة أخرى •

وقد رأيت العمد ينقسمون الى ثلاث طوائف : الأولى عمدة من أسرة لها عزوة وملك ، الوظيفة ليست الا تأكيدا وتثبيتا للمقام ، عليه سمة الأعيان لا سمة الموظفين ، شيخ الخفر تابع ملتزم حده ، وكنا نرتاح مع هذا العمدة لأنه يفض كثيرا من المشاكل ــ وربما بلغ بعضها حد الجنايات ــ

فلا تصل للمركز ، والثانية عمدة من عائلة طيبة ليس لها عزوة كبيرة أو ملك وفير ، عليه سمة الموظفين لا الأعيان ، هو أكثر من العمدة الأول اعتدادا بمنصبه وأشد حرصا على اطاعة الأوامر وتجنب المسئولية ، شيخ الخفر رأسه برأس العمدة ، والثالثة عمدة في قرية كل أهلها فقراء على باب الله ، يقترض العمدة من أقاربه وأقارب أقاربه اقرارات كاذبة بأنه يملك النصاب القانوني من الأرض (عشرة فدادين فيما أذكر) ليس عليه لا سمة الموظفين ولا سمة الأعيان ، بل سمة الأجراء المسترزقين ، المركز يركبه ، وأهل البلد يركبونه ، ونفوذ شيخ الخفر يفوق نفوذه ، وبدلا من أن نستنجد به ، فانه هو الذى يستنجد بنا . جيتك ياعبد المعين تعيني لقيتك ياعبد المعين تنعان .

رحلة ملكية

الاشارة التليفونية التى خرجت هذه المرة من المركز للتتميم على جميع عموم كافة العمد هى افادة حامية جدا ، المأمور أصبح يشبه هذا الجهاز العجيب الذى كان يدور به علينا فى القهاوى رجل جعل صنعته أن يمتحن قوة أعصابنا ، لقاء أجر ندفعه نحن له (دبور زن على خراب عشه !) فيقدم لنا مقبضين من نحاس (لم يذهبا قط للمبيض !) يخرجان بأسلاك من صندوق أقذر من ملابس صاحبه ، فما نكاد نضم عليهما اليدين حتى تسرى فى أبداننا رجة عنيفة ، وتقاس رجولتنا بمقدار صبرنا عليها . أصبح المأمور رعشة مصبوبة فى قالب على هيئة انسان :

صوته ، يده ، كرشه ، شاربه ، رمشه ، شفتاه •• كلها ترتعش • وسرت هذه الرعشة الى الجميع •• حتى العسكرى عامل التليفون ، كفه ترتجف وهو ممسك بنص الاشارة ، تكاد الورقة تلسع أنامله ، صوته مرتعش ، ولكنه حاد كوقع السياط ، نبراته متتابعة كطلق الرصاص ، تقفز وتفرقع من حلقه كحبات الأذرة وهي تشوى على بلاط الفرن ، ليس هذا وقت الدلع والتريقة وتبادل النكت والشتائم الحياني مع الخفراء عمال التليفون في دور العمد•

ذلك أنه كان قد وصلنا من المديرية ذلك الصباح نبأ اعتزام الملك فؤاد ـ الجندى أبو شنبات مبرومة ـ القيام برحلة الى الصعيد • سيغادر في حراسة الله عاصمة ملكه بالقطار الملكى ثم يعود في رعاية الله باليخت الملكى (قاصد خير) • وعلمنا من البرنامج موعد مروره ببندر منفلوط في الذهاب والاياب باليوم والساعة والدقيقة •

ومع أن برنامج الرحلة يؤكد أن القطار الملكى لن يقف في محطة منفلوط الا أن المأمور رأى من الضرورى أن تقام الزينات وأن يصطف على رصيف المحطة أكبر عدد من أعيان المركز وأهله فلربما ـ من يدرى ؟ ـ راق للملك في لحظة نحس أن يطل من الشباك والقطار يمر أمام محطة منفلوط فاذا رآها قاعا صفصفا سأل عن اسمها واسم مأمورها • أليس من المعقول بعد ذلك أن يأمر برفته ؟

ودخل مأمورو المراكز في مزايدة عجيبة ، يحاول كل منهم أن يبذ قرناءه في مظاهر الترحيب بالملك ، لم تنقطع الاتصالات التليفونية بينهم ، وكل منهم يكذب ويخفي ورقه عن الآخر •

أما الزينات فأمرها سهل . كانت المحافظات والمديريات والمراكز فى ذلك العهد أصبحت تنافس أصحاب محال الفراشة فى حيازتها لعتاد ضخم من الرايات والأعلام والمصابيح الملونة وغير الملونة . كانت الدولة أكبر مالك ومورد لعالم الأفراح . وكان بمحافظة القاهرة لجنة أعضاؤها من كبار الأعيان اسمها لجنة الاحتفالات باستقبال حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم . وكان فى مركزنا نصيبه من هذه الزينة يحرص عليه وينفض عنه ترابه فى المناسبات الملكية ، اذن ستزدان المحطة بالأعلام ، وتسطع عليها بالليل الأنوار ، ولو بعد مرور القطار ، بالنهار .. وسيجند طلبة المدارس مع أساتذتهم من مطلع الفجر ، وان كان مرور الطلعة البهية الملكية ـ بسرعة ٩٠ كيلو مترا ـ سيكون فى عز الظهر ، وسيتمم على جميع عموم كافة العمد بالحضور ، والحذر ثم الحذر من التأخير ، وسيتقدم المأمور بأحر الرجاء لأعيان المركز بأن يتخذوا أماكنهم هم أيضا على رصيف المحطة . أما الورقة التى أخفاها المأمور فهى نجاحه فى تجنيد عدد من عربان قرية « التتالية » ـ لقاء أجر من المصاريف السرية ـ للجرى على خيولهم على جانبى القطار .

واستراح المأمور وتنفس الصعداء ، وهدأت الرعشة ، ولكن الفرحة لم تتم . اذ همس له كاتب الخفر وهو يعرض أوراقه ـ وهو شاب معروف عندنا باصفرار وجهه وخبثه ـ .. وقال :

ـ الصحف تذكر دائما فى وصف استقبال جلالة الملك انطلاق الزغاريد .. وقد علمت أن القطار الملكى سيستقبل عند مروره بمحطة ملوى ويشيع بالزغاريد ..

يا خبر أسود .. امتقع وجه المأمور .. من أين له

بهذه الزغاريد ؟ انهــا موهبــة اختصــت بها النســاء دون الرجال · ولن تقبل امرأة واحدة من أحرار أهل البندر أن تخرج للمحطة وتزغرد ، ولو لجلالة الملك ؟

أعمل المأمور فكره طويلا ، واستشار معاون البوليس ، وأخيرا لمعت فــكرة بديعــة ، من حســن الحــظ أن مركز منفلوط به نقطة مومسات ، فلماذا لانحسن التصرف ونجند بلباقة وبدون ضجة مومسات النقطة للوقوف على رصيف المحطة ، بمنأى عن الجميع ، لن يشعر بهن أحد ، وسيظل الأمر سرا مكتوما ·· وبذلك نضمن انطلاق الزغاريد ··

ولأول مرة فى تاريخ هؤلاء المومسات أصبح كلام المركز لهن رجاء لا زجرا ··

فى ذلك اليوم رأيت سرب المومسات يسير فى الطريق الى المحطة ، على وجه كل منهن ابتســامة جمعت بين فرحة الخروج للنزهة فى يوم عطلة رسمية من وجع الشــغل ، وبين الزهو بمكانة جاءهم الاقرار بها غير انتظار ، الا أنى شــعرت ــ ولا أدرى لمــاذا ــ أنهــا كانت تخفى شــيئا من الخجل ، نعم من الخجــل ــ وليس من العجيب أن تخجــل المومس ، خجل لمشاركتهن فى لعبة زائفة ، وللهــوان الذى هبط اليه المركز بجلالة قدره وان كان فى هذا الهوان رفعة لهن · فليس كالمومس علمــا واحاطة ورعاية لأقدار الناس وترتيبهــا طبقــا لاختــلاف مراتبهــا · هى دائما من علماء البروتوكول ، وترتيب الأسبقية فى المال والنفوذ ·

واتخــذت مــكانى بجــانب المأمور ، لأنى أحب أن أقف بجانب كل « صــعبان على » · وقبيــل الموعد المحــدد حين شارف التوتر أن يبلغ ذروته لا أدرى ما الذى حدث ، ساد

الهرج والمرج ، واختلط الواقفون من أعيان وموسسات بعضهم ببعض • فهذا رجل طيب لمحت عمامته وسط شلة من الموسسات ، ولما انكشف لى وجهه رأيته يضحك ببلاهة ، وهذه مومس تشق الصفوف وتنطبق عليها حلقة من كرام الأعيان ، واذا هى تشرح لهم مسألة عويصة لم أتبينها ولكنى رأيتها تشير بيدها اليهم تارة والى صدرها تارة أخرى • وهاج المأمور فجأة ، لقد باظ الترتيب وأفلت الزمام وانكشف السر واختلط الأمر ولا نضمن انتظام الصفوف ولا انبعاث الزغاريد كقومة سرب حمام • فاذا به يشد قامته كأنه قائد في ميدان يصرخ صرخة الحرب ، ويلوح بيده اليمنى مشيرا لليمين وباليسرى مشيرا لليسار ويزعق بأعلى صوته :

ـ الأعيان هنا •• والموسسات هنا ••

وبعد قليل مرق القطار الملكي أمامنا بسرعة كبيرة •• مغلق شيش النوافذ كلها • لم نر وجه مخلوق واحد ، وانطلقت الزغاريد وعلت الهتافات بحياة مولانا الملك وانصرف الجميع وقفاهم « يقمر عيش » ••

كانت الرحلة الملكية في العودة أقل وجعا للدماغ • ولم ترتجف لها القلوب • فاليخت « قاصد خير » لكبر حجمه وجلالة قدره لا يسير الا وسط مجرى النيل ، وبعد أن يتخذ مهندسو وزارة الأشغال كل الاحتياطات لرفع مستوى النهر ـ لفترة وجيزة ـ ولو على حساب الماء المخصص لرى الأراضى العطشى • وبين وسط النيل و « موردة » منفلوط مسافة كبيرة • سيكون البعد حمى لنا من السلطان ، فمن الأمثلة التى كنا ورثناها عن عهود الاستبداد « السلطان من لم يجاور السلطان » • حتى لو

شاءت له ارادته السنية أن يقف على سطح اليخت (والأمل الا تكون عنده نظارة معظمة !) ودقق النظر فلن يرى أشخاصا بل أشباحا ، ولن يرى صفوفا متراصة كالجند ، بل لحمة مختلطة ليس بينها مومسات هذه المرة لأن الزغاريد مهما لعلعت لن تصل الى أذنيه الكريمتين .

ومع ذلك ذهبنا من النجمة ومعنا العساكر والخفر وضحايا السخرة الراقية من طلبة المدارس وأساتذتهم وجمع من هلافيت الناس . هذا لا يهمنا فالعبرة هنا ـ والسلطان بعيد ـ هي في العدد لا في المقام .

و « موردة » منفلوط تبتعد عن البندر مسافة كبيرة (وكأنما كان بين مدننا والنيل عداوة مستحكمة ، فكل منها تبتعد عنه وتدير له ظهرها ، انظر بنها وكفر الزيات .. ولماذا نذهب بعيدا ، انظر الى القاهرة المعزية والأيوبية) . ليس لها طريق ممهد ، بل نسير اليها في مدق صغير وسط الغيطان ، شط من الطين الزلق أمامه حجران ، يطلق عليه اسم « الموردة » تجوزا ، فهذا مكان لا يصلح لرسو قارب صغير ، غاية ما ينتفع به أن تتجمع عنده الفتيات لملء البلاليص ، (مشروع انشاء موانى نيلية يداعب عيني منذ وعيت قراءة الصحف ولم ير النور بعد). لما بلغناها ألفينا أنفسنا مضطرين لأن ندوس بالأقدام أرض فلاح فقير ـ لا تزيد عن قيراطين ـ زرعها بصلا .. وفي غمضة عين أصبح الغيط سداحا مداحا . رأيت الفلاح يحاول أن يصد بيديه صدر كل واحد منا ، فلم يفلح . وهل يمكن له أن يصد الحكومة ؟ فقعد القرفصاء ، وأسند رأسه على كفيه فوق ركبتيه .

ومر اليخت من بعيد بعد أن مرت الساعة الثالثة .. لم

نكتف بتلويح الأيدى والأذرع بل هتفنا أيضـا ـ دون أن نجهد أصواتنا ـ ليحيا جلالة الملك •

وكان آخر شيء علق بأذنى ونحن ننصرف صوت الفـلاح وهو ينوح :

ـ عوضى على الله ••

لا أدرى لماذا بعث منظر هذا الفـلاح فى روحى شـعورا ممضا باعياء وتعب شـديدين • وشـكوت حالى للمأمور ـ وكنت لا أزال كثير التشكي بلا حياء ـ فقال لى ، مسـتغلا فراسته وذكاءه :

ـ من تعب المشوار ووقوفنا من الفجر •

فنظرت الى وجهه وابتسمت ، واسـتعادت روحى بعض سكينتها •

قصيدة من ٩٩ بيتا

وقد أعادت هذه الرحلة الملكيـة الى الأذهان فى منفلوط ذكرى رحلة سـابقة لولى نعم آخر •• مر الخـديو توفيق بالقطـار على منفلوط ذات يوم وخرج الأعيـان لاسـتقباله بالمحطة وتقدم اليه شاعر منفلوط حينئذ الشيخ أبو النصر واستأذن أن يلقى بين يديه قصـيدة للترحيب ، فتنـاول الخديو وأذن له ، وربما فعـل لعلمه بأن القطـار لن يقف بالمحطة الا دقائق معـدودة ، ولعله كان يعرف الشـاعر اذ كانت له شهرة مستفيضة فى خفة الدم والظرف والفكاهة•

وبدأ الشاعر تلاوة قصيدته ، بيتا بعد بيت ، والخديوى يهز رأسه بالرضى والاعجاب ثم يصبر ، والشاعر ماض لا يفتر عن التلاوة ، تتلاحق الأبيات ، دون أن تلمع بارقة أمل فى قرب الختام ، فتململ الخديوى وانتقل غليان القاطرة وضجرها اليه بالعدوى فقاطع الشاعر قائلا بضيق يقنعه بابتسام :

ـ هى القصيدة كام بيت ياشيخ أبو النصر ؟

فأجابه كلمح البرق :

ـ ٩٩ يا أفندينا ! •

هذا جواب لا يمكن السكوت عليه بل يثير بلا تردد سؤالا لا مفر منه ولا يختلف فيه اثنان •

فارتفع حاجب الخديو واختلجت عينه وقال بعجب :

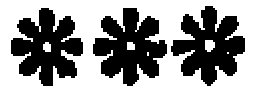
ـ طب وماخلتهاش ١٠٠ ليه ؟ •

فكان الرد أسرع من سابقه :

ـ أصلى ناقصنى بيت يا أفندينا •

ففهم الخديو هذه التورية وابتسم لها وأقطعه بيتا فى منفلوط ، مكافأة للشاعر على لباقته وظرفه ، ولينقذ نفسه ـ على الأقل ـ من قصيدة لا تنتهى •

وقد لحقت بعض فلول أسرة هذا الشاعر ، ورأيتهم هم أيضا أهل ظرف وسماحة وتحشم ، ولكنى لم أستطع أن أظفر عن شاعر منفلوط بخبر آخر ، ولا وقعت يدى على ديوان شعره حتى اليوم •



ذكرى الراحلين

كم كنت أود أن يعنى أبنــاء مدنننــا بجمع آثار رجالاتها السابقين وحياطتها وابرازها ، فلا تعــدم مدينة منها رجلا من أبنائها كان له فضل سابق مشكور ينبغى ألا تنساه ، اما فى خدمة القضية الوطنية أو بالتفــوق فى ميــدان العلم والأدب سواء فى الأزهر أو المدارس ، أو بترك مؤلفات غلفها النسيان أو آثار تدل على احسانه وبره بالفقراء (المنشاوى فى القرشية ، كشك فى زفتى ، الغمراوى فى بنى سويف، حفيظة الألفية الخ الخ) وحبــذا لو جعلت لجــان الاتحــاد القومى هذا العمــل فى مقدمة برامجهــا ، بأن تجمع كل ما تعثر عليه لهم من وثائق ومؤلفات وصور ورسائل تجعلها نواة لمكتبة بلدية • كمــا تشــجع فى الوقت نفســه دراسة أنساب الأسر العريقة وتاريخهــا ، وكان عنــدنا فى الماضى القريب أكثر من متخصص فى علم الأنســاب (وكانوا من أعز الناس عندى) مثــل رمزى ، بســيونى ، فخــرى عبد النور ، عبد اللطيف سعودى ، وأخشى مع الأسف أن يكون هذا العلم قد انقرض بموتهم جميعا عليهم رحمة الله •

الست ظريفة

ســأذكر هنــا مثــلا آخر على خلو مدنننا من مراجع عن الفضــلاء من أبنــائها الســابقين ، ولــكننى لست أدرى — والتسامح يتباين — هل يصلح هذا المثــل عند الناس كما يصــلح عنــدى ، لعلهم يقــولون اننى أجــرح حجتى باثارة نموذج لما قد يجره « التفتيق » أحيانا فى دفاتر بعض هؤلاء الراحلين ، والأفضــل عنــدهم أن أكفى ماجــورا على سيرة

يؤذيهم فيها سوء المطلع وكان يجمل بهم ألا يروا منها الا حسن الختام ، ولكن ما حيلتي والمثل مستمد من منفلوط ، التي جعلت من همي ان أستوفي لك صورتها بما قدرت عليه من ألوانها المتعددة المتضاربه •

أكبر المساجد في منفلوط وأعمها بالناس يوم الجمعة هو مسجد الست ظريفة (وهذا مثل فذ على تسمية المساجد في الريف بأسماء السيدات) وقد حاولت عبثا أن أعرف من هي هذه الست ظريفة وأين منشؤها ومتى عاشت وكيف أقامت مسجدها • لم أظفر من أهل البلد على كثرة سؤالي بجواب نافع ، نسوها ونسوا كل شيء عنها ولم يذكروا لي (هل السيئات أبقى أثرا في ذهن الناس من الحسنات ؟) الا أنها ـ فيما يقال ـ امرأة أمضت أبرك عمرها في تجارة الهوى ، ثم استتابت ربها فتاب عليها ، فأنفقت كل مالها في طاعته ورضوانه • ومنعني اليأس من أن أسأل أين كانت تجارتها ؟ في العاصمة ؟ في منفلوط ؟ • وماذا كان مبلغ جمالها ؟ وهل « ظريفة » هو اسمها حين ولدت أو اسم الشغل ؟ وللفضوليين أمثالي أسئلة سخيفة تقلقهم ولا ينسونها الا اذا جدت لهم أسئلة أسخف منها •

فالست ظريفة اذن هي رابعة المنفلوطية •

بائعات الهوى

جاءت سيرة المومسات في الفقرات السابقة فخير لي أن أفرغ هنا من التحدث عنهن •

لم تكن نقطة المومسات في منفلوط ذات شهرة مستفيضة ، وليس لها اسم يمت الى الطبيخ كما تسمى قرينتها في أسيوط باسم « الخبيزة » ، ولا أظن لها أصلا عريقا وأقدمية تاريخية مثل نقطة المومسات في « بهجورة » في الصعيد الجواني • لا تروى عنها مغامرات التبذير في الهوى او المال او المخدرات ، لم تكن وكرا للمجرمين والفتوات ، ولا تحدث فيها مشاجرات • وقد بقيت في المركز سنتين فلا أذكر أنها أزعجتنا طوال هذه الفترة الا بقضية واحدة غامضة عجيبة سيأتي لك خبرها بعد قليل ، بل هي دكان شغل في مستوى دكان بقال في قرية ، كل بضاعته رخيصة وتصر في منديل ، لا يباع فيه الغاز الا ملء مصباح الفتيلة ليلة بليلة ، لأن الرزق يوم بيوم والرحمن لا ينسى عبيده •

وكان من التقاليد المرعية أن الموظفين يتحاشون هذه النقطة وان سمح بعضهم لنفسه أن يستضيف في منزله احدى نزيلاتها في تكتم شديد وفي ستر من الليل البهيم ، وكان لهم في البغاء السرى فرج ومتسع ، فان أهل الصعيد يغفرون أشياء كثيرة ولا يغفرون قط انتهاك حرمة الحي واهله • انها كبيرة الكبائر وقد يستباح فيها قتل المضيف قبل الضيف •

قد لا يجد أحدهم عيبا في أن يتستر على قاتل سفاح محترف أو لص يغتال الولايا ، ثم يجد من العار الذي يفضل عليه الموت أن يتستر على خنا داخل قمقم •• هيهات أن تفوح اليه رائحته لبعده عنه •

ومع ذلك لا أزال أذكر بعض أهل هذه النقطة : الأولى

معلمتهن « جليلة » ، هى التى تسير على رأس الموكب يوم الكشف عند الذهاب الى طبيب المركز ، انها تمثل الجيل المنحدر ـ ذوق عتاق العمد ـ ضخمة البطن والثديين وجهها مكتئب قبيح ، الدق على ذقنها مبرطش باهت كأنه مرض جلدى ، الخزام المدندش فى أنفها لا يبدو أنه للزينة بل لشكم وحش ضار ، من أكبر النكبات أنه قدر على الانسان ـ وهو الذى اختص وحده دون بقية المخلوقات جميعا بتذوق الجمال ـ أن ينفرد وجه هذا الانسان بعينه دون سائر المخلوقات أيضا بقدرته الفائقة على التعبير عن أبشع معانى القبح وغلظ الطبع • كنت أسأل نفسى تارة : كيف يمكن أن يباع عندها الهوى ويشترى ؟ هل لها سر لا نعلمه؟ وتارة أخرى : ماذا يكون مصيرها بعد قليل ؟ لها رب اسمه الكريم • ومع ذلك يروى عنها أنها كانت صاحبة مجد وحاشية • « وجليلة » هو أيضا اسم عشيقة سيد درويش (ولم تكن أقل من صاحبتنا قبحا !) •

والثانية « بهية » : فتاة الجيل الصاعد كما يقال اليوم ـ ذوق بندر وأفندية ـ فتاة شرخ الصبا ، لو أعطيت لها لعبة لفرحت بها كالأطفال ، صافية البشرة ، رخصة اليدين ، ساذجة ، تكاد توحى نظراتها أنها فى غيبوبة عن العالم وما يجرى لها ، وقد جالستها عند التحقيق فى القضية فما راعنى الا أنها رغم قميصها اللبنى المسخسخ يبدو تحت فستان مزين بالدنتلا والركاما والترتر والشرائط ، تفوح منها رائحة القرويات ، مع أنها لا تحلب ولا تقرص الجلة ولا تأكل خبزا من دقيق الذرة مخلوط بالحلباء ، وكنت أسأل نفسى : من أين جاءت وكيف وصلت للنقطة ؟ لم أعرف خبرها لأننى لم أسع للانفراد بها •

وكن جميعا اذا رأين فتاة من أهل البندر اسمها «سليمة»، تهفو وتمر أمام النقطة تخبيء وجهها الا عينا لها فى ملس لا يغطى كعبها المحنى فوق شبشب زحافى ، قذفنها بالحجارة والطوب لأنها بطلة البغاء السرى ، شخصها كأنه منفصل عن رسم لراقصة فى قبر فرعونى ، سمراء ممشوقة القد هضيمة الكشح ، عالية الرأس ، طويلة العنق ، مستقيمة الكتفين ، لوزية العينين ، أنفها أقنى ، وشفتها السفلى ممتلئة بارزة ، نظيفة الجسم والملبس • سمعت من يقول عنها انها طيبة الريق ، حتى رائحة البصل من فمها حلوة • كانت تدور على الموظفين العزاب جميعا ، فلا تفشى رغم الالحاح عليها سر أحد لأحد ، قطعت لسانها وألقته فى بئر ، لا تحدد أجرا ، بل تقبل على الرأس والعين ما يعطى لها ، لا تحرم الفقراء من مرتعها وتهب لهم كل ما عندها ، ثم لا تصد عن الغنى الخسيس بل تعامله بخسته ، فتنقص له من نفسها مقدار ما أنقصت دناوته من ماله ، يكاد يكون لها ميزان لا يخطىء فى درهم • تنفذ بشرف التعاليم المتوارثة ـ لم تدون بالكتابة ـ لقوانين الأخلاق الفاضلة التى سنتها مدينة الفساد لرعاياها عن حكمة وتجربة ، وتطيع بلا رقيب تعليمات المرور فى دروبها وان لم يكن هناك أقل احتمال للتصادم • أكبر لذتها أن تجلس مع الفندية ، تسمع أحاديثهم وتنصت بنهم لنكتهم وحكاياتهم ، وتزج نفسها هكذا فى حياة تبدو لها براقة وأرقى من حياتها واغنى بالتمدن والرفاهية • حياة تظل دائما أبعد من منالها •

لا تشرب الخمر الا في مجلس يروق لها وتحس فيه بالصفاء والكرم وكسر الموازين ، الا ميزان أخوة البشر في الضياع وطلب الرحمة فلا تشيل فيه كفة عن كفة . واذا لم تجد هذا المجلس صدت عن الخمر وان طاب ، الا مجاراة المضطر ومن طرف اللسان ، وان شربت تقهقر بها العمر وارتدت صبية غريرة ينحسر عنها الخبث ، وزادت رقبتها الطويلة انكشافا من فرط امالة الضحك لرأسها ، تفتح الكتب وتقلب المجلات وتتأمل صورها بلذة كبيرة ، فان وجدت على صحيفتين متقابلتين وجهين يلتفت الأول منهما للثاني ظنتها قصة عن شخصين يحدث أحدهما الآخر وتسألك :

ـ ماذا يقول له ؟

وكانت تقول :

ـ هذه هي سعادتي ، والذي أخرج به من دنياي ..

لم تسمع قط تشكو حالها ، ولم تر ألا مبتسمة ، الا أن الدمعة طفرت من عينها فجأة وهي تجلس ذات ليلة الى فتى متلفت ، زائغ حائر ، حمله شيطان حب الاستطلاع على أن يوجه اليها ـ بدون مناسبة ـ سؤالا باردا سخيفا كأنه بسبيل اعداد ريبورتاج صحفي خاطف رخيص ! وان كان مبعثه ادراكه أنها تخاطر بحياتها وتعيش والسكين على رقبتها :

ـ ما أفظع مأزق صادفك في حياتك ؟

قالت بعد تردد ، وما أفضت بسرها الا لاحساسها أنه يحنو عليها : ان موظفا جديدا ـ وهو شاب صغير ـ دعاها

لمنزله ذات ليلة ، وكانت لم تعرفه بعد ، وان سلف لها أن رأته في الطريق يسير وجهه الى الأرض • فتوسمت فيه الطيبة ، والمروءة ، وعلمت أنه جاء منتدبا رفق بعثة لمقاومة الجراد ، وكان قد اتخذ مسكنه في نهاية درب ضيق ، يحتاج الوصول اليه في عز الليل الى حذر شديد حتى لا ينتبه لها الجيران ، ثم الى حذر أشد من أن ينبعث من هذا المنزل المدفوس أقل صوت يدل على سره ، وظلت تجول في الشارع وتغوص في الجدران ساعتين أو أكثر حتى سنحت لها في ظنها أول فرصة مواتية فمرقت كالسهم الى منزله ، وأغلق الباب عليها واصبعه على فمه • وكانت تحس في نفسها نشوة تلازمها كلما دخلت لأول مرة منزلا لا تعرفه • عساه يتكشف لها عما قليل عن نوع جديد من العلم والتسلية • وكان المفروض هو العكس ، أى أن يخيفها المنزل المجهول أكثر من المنزل المألوف ولكن هذا ، كان قلبها يدق من أثر الترصد الطويل ، ولكن وجهها كان متهللا ، فما رابها من صاحبها أول الأمر شيء • وصعد بها في الظلام وهو يجرها من يدها الى حجرة نومه وأشعل مصباحا ، ولكن صوتا ما ـ أشبه بخرخشة الفيران ـ بلغ أذنها فطرطقت واتقد انتباهها اليه ، ومالت عن كل شيء سواه نحوه وتعطل ما بقي من ملكات عقلها ، كانت هامدة متوثبة كالطائر المفزع تلبث مشلولا برهة قبل أن ينطلق كالرصاصة عن فرعه لينجو بنفسه من الخطر الصادق أو الموهوم ، وهي مع ذلك ماضية في حديث مع صاحبها يسيل من فمها سريعا كسيل الماء من صنبور مختل • ولكن صاحبها كان متعجلا ، فلم تجد مجلسا ولا صحبة ، ولا ندوة ولا دردشة ، بل أسرع يقضي لبانته منها ثم خرج ،

وفتح الباب ودخل شاب آخر ، قالت لعلهما صديقان ولا بأس باثنين ، وقد سبق لها تجربة ذلك مرارا ، ولكن لماذا أخفى خبره عنها ، وخرج الثاني وفتح الباب ودخل ثالث ، فأدركت أنها وقعت في مأزق بغيض وعذاب حتى هي لا تطيقه • ولكنها لم تتصور حينئذ قط أن يقفل الباب ويفتح عشر مرات متعاقبات • لم تكن تستطيع المقاومة ، ولم تكن تستطيع الاستغاثة • لم تشعر قط من قبل كما شعرت تلك الليلة بمهانة نفسها وضياعها لحرمانها وحدها دون سائر الخلق من حق مجرد طلب النجدة ولا تقول حق نوالها وهي بها جديرة • دفعوا لها أجرة نفر واحد ، وألقوا بها في الطريق قبل أن ينجلي الليل حتى لا يطلع عليهم النهار وتدب الأرجل في الدرب •

فلما انتهى كلامها طفرت الدمعة من عينيها فمسحتها بأناملها ، ثم عادت لتوها الى مرحها لم ينقص منه شيء الا أن ابتسامة نظرتها زادت لمعانا •

ودمعت عيناها مرة أخرى ـ ولا يدرى لماذا فهي لا تفشي سرها ـ حين سمعت لأول مرة اسطوانة لأغنية شعبية تنشدها مغنية ريفية بصوت شوى على نار الوجد حتى احترق ، مقطعها المتكرر يقول :

ـ والملتقى يا حبيبى بين أيادى الله ••

أعرفت هي أيضا لوعة العشق في ماضي حياتها ؟

والغريب أن خير من وصف بائعات الهوى في الصعيد هو كاتب يونانى ، صديقى الأديب « ساجارادس » مؤلف القصة الجميلة المترجمة للعربية باسم « عذراء أسيوط » بقلم عبد السميع المصرى •

توبة

كان لا يزال لتتويب الضالة عند الفلاح مكان في سجل الفضائل وان جاء في ذيلها ، يضمن له ثوابا ، ولم يكن تطوعه للانقاذ نتيجة احساس مرهف بمعنى الانتشال ، بل لتسليمه بأن الضالة لم تخطيء عن عمد وارادة ، بل صاغرة لحكم المكتوب على جبينها ، فان كان لكل ذنب قدر ، فلكل توبة أوان ، وما سقوطها الا فترة طارئة ، اذا زالت اتصلت من جديد على راحة الهداية طرفا حياة مستكينة كأن لم يصبها من قبل قطع ٠

هذا الفلاح الذى جاء من قريته البعيدة ـ ولا أحد يدرى دوافعه ـ ليعود اليها ومعه احدى نزيلات نقطة المومسات بعد أن عقد قرانه عليها ٠ لم أشهدهما لا هو ولا هي أحياء ، بل رأيتهما جثتين مهشمتين ٠ أركبهما من منفلوط بعد العشاء ـ كأنما لا يريد حياؤه أن يدخل بها قريته الا في الليل ـ سيارة أجرة ، « فورد » صغيرة ، من الطراز القديم ، محملة بالركاب ٠ هذه السيارة الكهنة المعطلة الفرامل والمصابيح ، ان اتسعت فلخمسة أشخاص خلو الأيدي ، من بينهم السائق ، ولكنها كانت تحمل داخلها وعلى كل رفرف وسلم ، وعلى التصادم الخلفي والأمامي ، وفوق السطح أكثر من خمسة وعشرين راكبا ـ بخلاف السائق ـ في يد كل منهم زكيبة أو مقطف ٠٠ (انني أتكلم عن خبرة ، فطالما ركبت مثل هذه السيارة) نخت مختبئة وسط كتلة من اللحم والخيش ، ومع ذلك سارت مسرعة على جسر الابراهيمية ٠ هذا الطريق يقطعه على مسافات متتابعة بوابات لتصريف المياه بين الأحواض والترعة ،

يضيق عندها الجسر ويصبح جناحه من اليسار واليمين حافة هاوية سحيقة يصعب تمييزها فى الظلام ، فلا نجاة للسيارة المسرعة بالليل الا اذ أحكمت التزام وسط الطريق قبل الوصول الى هذه البوابات ، مر السائق من هذا الطريق أكثر من مرة بحمولة مماثلة ، ولكنه فى تلك الليلة دفع حياته ـ ومعها ـ الله يسامحه ـ حياة أغلب الركاب ـ ثمنا حان سداده لبخت سالف ، طالما قامر بحماقة على دوام ابتسامه •

وذهبت لمكان الحادث وعلى ضوء المصابيح رأيتهما ، هذه هى جثتها ، امرأة غلبانة ليست بذات شباب أو رواء ، عليها قميص لبني ، تحت ثوب وردى ، تحت جلباب أسود، ترقد فى حضن جثة منقذها ، فلاح فقير ، جلد على عظم ، جسد ما أظنه عرف تمام الشبع ، غاية ترف هذه الجثة المهشمة الرأس أن جلبابها الأزرق كان حديث عهد بالغسيل •• وقد تتبعت خبره فيما بعد فعلمت أنه متزوج من غيرها ، وأب أولاد ، يعيش كادحا من حقله الى بيته ، ليست فى حياته مغامرة وما عرف عنه شرب الحشيش أو ارتكاب المحرمات ، وما زار منفلوط الا لعمل مرةأومرتين، فليس هو الذى يتردد على نقطة المومسات ، لعل الزوجة لما بلغها خبر فعلته رفعت رأسها للسماء ـ وطاقة بها مفتوحة ـ ودعت على القايمة بالحنجل والمنجل والقضا المستعجل • فان لم يكن هذا هو القضاء المستعجل فأى شيء يكون ؟

عدت الى دارى مكتئبا ، تلازمني صورة هذه الفتاة التى جاءتها النجدة بعد لأى لحد عندها فكان الردع أسرع منها •

حاشاى أن أسأل : أكانت ستجتاز الإمتحان فى المستوى الجديد بصحيفة بيضاء وتشارك صابرة فقر زوجها أم

ستعود ريمة ــ بجحود وضيق صدر وحسرة ــ الى عادتها القديمة ؟ • يكفى أنها لقيت ، وهى تائبة ، ربها الرحيم الغفور •

الخمارة

يقودنا الحديث عن نقطة المومسات الى الخمارة ، وكان المفروض هو العكس • لم تخل منفلوط من خمارة تقع وسط البندر ، يملكها أجنبى ، كنا في أواخر عهد لا يزال يعد فيه ارتياد الخمارة فضيحة علنية ، يتحاشاها كرام الناس من أهل البلد ، ويتحاشاها الموظفون الا السكير المدمن منهم حينما يهيج به شيطان الخمر ، يذهب اليها متنكرا ، بالجلابية والمعطف ، وكان لهؤلاء الموظفين فرج فى قهوة المحطة ، فهي قهوة لا خمارة ، يشربون فيها الويسكى وهم يلعبون الورق ، حتى الغشاش المعروف له مكان بينهم• وكان معاون البوليس لا يجد بأسا أن يشرب كأسا أو كأسين بعد نهار مرهق ، الى أن غاظه من صاحب القهوة شيء لم أعرفه ، فحرر له على التو محضر مخالفة لأنه يبيع الخمر بالقطاعى بدون رخصة • وظل صاحب القهوة يلطم خديه لا لنكبته فى الغرامة ، بل لنكبته فى وفاء الزبون القديم •

وكانت خمارة البلد تثير في نفسى تأملات عن تطور مجتمعنا ، لا أظن أن البشرية أنبتت فى سجلها الطويل جيلا لا يعرف نوعا من المسكرات ، ولكن على كثرة ما قرأت فى التاريخ قبل الاسلام لم أعثر على حملة عنيفة تحارب الخمر ، بل كانت تعد تارة متعة لا تتم الا بها بقية المتع ،

وتارة محكا للرجولة ، حتى كان من المبارزات تشارب الخمر وينهزم فيها من الخصمين من تصرعه قبـل الآخر • ثم جاء الاســلام فأنزل بهـا ضربة قاضـية ، اذ جعلها اثما مجلبا لسخط الله ، في الدنيا بقلة البركة والانذار بالفقر ، وفي الآخرة بنار جهنم ••

أجيـالنا القـريبة السـابقة كانت تؤمن أن الخمـر ام الكبائر ، اذ ذاع عن رجل أنه شربها سقطت كرامته ورفضت شـهادته وربمـا طلقت منه امرأته ، فلا عجب أن لم يجرؤ واحد من أهل البلد على فتح خمارة • ثم استشرت الامتيازات الأجنبية وتبعها الاحتلال البريطاني ، فتمشت الخمامير من العـواصم الى مدننـا الصـغيرة وقرانا الـكبيرة ، يملكها أجانب ، وتجذب الناس أيضا باعداد وجبات نظيفة وقهـوة طيبة وأنس سفور زوجة أو ابنة ، وانقلب صاحبها أغلب الأمر الى مراب يعـرف أسرار العـائلات ، يقرض بخـراب البيوت الفلاح المعذور عند الدودة أو الجمع ، والأعيان غير المعذورين ليمد لهم حبل الفساد وتخرج أملاكهم من أيديهم له أو لنفر من شيعته ، وان تستروا وراء بنك من البنوك ، وتمشت الخمر أيضا تحت اللواءين السابقين من الخمامير الى بيوت الأعيان ، وفي ذهني مثل عجيب على ذلك :

هو بلد صغير في الصعيد ، سوقه كأغلب بلاد الريف ، يسمى بالقيصرية (نسبة الى قيصر الروم) مسـقوف على صفين من الدكاكين الصـغيرة المعتمة ، يخـرج أصـحابها جميعا من بيوتهم قبل الفجـر الى المسجد ، فاذا فرغوا من صلاتهم فتحوا دكاكينهم ، وتربع كل منهم ـ بعد أن يخلع حذاءه ـ عند مدخل دكانه يتلو القرآن والأوراد والابتهالات

بصوت غير خفيض ، يسمع من بعيد كطنين النحل •• اذ جاء أول مشتر لتاجر يسأله عن بضاعة عنده أجابه « طلبك عند جاري هذا فاذهب اليه » ليضمن بذلك أن يستفتح جاره قبله •

وكان الرجل الذى أتحدث عنه من أعيان هذا البلد • بلغ الأربعين من عمره دون أن ينقطع فى يوم منذ صباه عن صلاة الفجر في المسجد ، وقلما أدى صلاة قضاء ، محافظ على ميعاد تلاوة القرآن والأوراد في منزله قبل محافظته على موعد أكله ، هو من أسرة يهمها استبقاء نفوذها ، فلاذ بالخديو عباس الثانى أول الأمر ، فوجده ـ فى رأيه ـ على قلة سلطانه العبانا مستبدا لا يؤمن منه الغدر ، همه جمع الأموال بنهب الأوقاف وبيع الرتب والنياشين ، فعدل عنه الى « كرومر » ، وأسلم اليه ولاءه ، وأصبح من المهنئين بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا .

وأبلغه أصدقاؤه ذات يوم أن المستر فلان مفتش الداخلية سيزور البلد ولن ينصرف عنها دون أن يذهب اليه فى داره لتحيته ، تكريما له واعلاء لشأنه عند الحكام ، فأعد له مأدبة تتحدث بذكرها الركبان ، ولكن قيل له ان الحفاوة بحضرة جناب المفتش لا تتم الا بأن يقدم له الخمر أيضا ، حتى لا يحرمه من مألوف متعته ، فأخذ يسأل يمينا ويسارا : ماهى هذه الخمر ؟ وما نوعها ؟ فالخمر عنده كلمة عامة لا تحدد بصنف معين ، حتى عثر على الخبير فقال له ، اعلم أن الخمر أنواع ، فينبغى أن يقدم له أولا ما يصلح منها لفتح الشهية وهو « الأبرتيف » من فرموت وسينزانو وارد ايطاليا ، ثم النبيذ الأحمر العتيق عند أطباق اللحم وارد فرنسا ، ثم النبيذ الأبيض عند الديوك الرومى والدجاج ،

وارد بلاد الراين فى المانيـــا ، ثم شامبانيا ذات جبب فى نهاية الأكل من فرنسا أيضـــا • فاذا قدمت له القهـوة كان معها الكونيـاك والليـكور المعسـول ، ولكل نوع كأسه ، فالأبرتيف في كأس طويل بين الصغير والمتوسط ، والنبيذ في كأس متوسط طويل ، والشامبانيا فى كأس مستدير، قصيرة ، وآخرها في كئوس صغيرة كالكستبان الكبير •

وسافر الرجل للقاهرة ليستدل على أكبر تاجر للخمر ، فقيد اسمه وعنوانه عنده ، واشترى منه صناديق عديدة ، واشترى أيضا الكؤوس من خالص الكريســتال •• وقدم كل هذا لضيفه ، ولكن المصيبة الكبرى أنه رأى من المبالغة في اكرامه ألا يتركه يشرب وحده ، كأنمـــا يقترف دونهم ذنبا ، فشرب معه كأسا بكأس ، وأحيانا كأسين بكأس •• وظل منذ ذلك اليوم مخلصا للخمر فى « عفونة » الغشيم ، وقطع صلاته وأوراده •

انظر اليه يوم حضرته الوفاة وهو فوق السبعين ، مسجى على الفـراش وأهله حوله يكتمـون دموعهـم ، زاغت منـه العينان وامتنع عليه الكلام ، فرفع بجهد يدا مرتعشة يهزها مشيرا الى زوجه ، مثنيا اصبع السـبابة نحـوه ، أسرعت اليه بكوبة ماء ، فأشاحها عنه ، وعادت سبابته تشير •• حتى فهمت أنه يطلب كأس الكونياك الذى اعتاد أن يكون آخر شيء يشربه قبل النوم • وكان حقا آخر شيء شربه فى حياته قبل أن يقابل ربا ظل يتعبده من قبل أربعين عاما •

***

مزايدة

آن الأوان لأن نخرج من هذا الجو البغيض ـ بغاء وخمر ـ لنتنفس الهـواء النقي ، لا عجب أن عاد الى ذاكرتى يوم خرجت غبه من دارى قبل الفجـر ملبيا اشـارة عاجلة من المأمور •• لا أعرف كالفجر شيئا يبعث في نفسى الراحة ! الصفاء ضارب أطنابه ، والدنيا طيبة الأعراف ، تسـتقبل صـحيفة بكرا لم يسـودها بعد سـطر من الشرور •• ثم يبعث فيها مع ذلك نوعا من الرهبة ، لجلالة لحظة انهزام ليل كان يمكن أن يكون سرمديا أمام صـبح جديد يزحف جيشه اللجب بأبهة وخيلاء ، معقود على لوائه النصر ، تنتظر أذنك أن تسمع نداء بوق سحرى جبار يعلن مقدمه ••

كانت الحيضان قد امتلأت بفيضـان النيل ، وعلا الماء فوق أرضها وضـغط بالمنـاكب على جسـورها الهشـة ، فانكسرت قبل منتصف الليل صليبة بنى كلب ، وبدأ الماء يتدفق من الحـوض الى الحـوض الذى يليه شـمالا ، بقى احتمـال ألا تـكون الأرض قد نالت حقهـا من الماء وتبقى شراقى • وكان سد القطع يحتاج الى عمل ٢٥ رجلا تقريبا ، فوردت الاشارة التليفونية التالية للنقطة :

« من عمدة بنى كلب الى النقطة :

انكسرت صـليبة بنى كلب بالقضـاء والقـدر ولم كان يفعل فاعل ، الحالة خطيرة ، المطلوب ٥٠ رجلا » •

وأرسلت النقطة للمركز الاشارة التالية :

« انكسرت صليبة بنى كلب رغم موالاة المرور من طرفنا، الحالة خطيرة جدا ، المطلوب ١٠٠ رجل » •

وأرسل المركز الى المديرية الاشارة التالية :
« انكسرت صليبة بنى كلب رغم كافة الاحتياطات من موالاة المرور ووضع البوص وأكياس التراب ، الحالة خطيرة جدا جدا ، المطلوب ٢٠٠ رجل » •

وجندت المديرية كل قواها لارسال النجدة ، ولما ذهبت مع المأمور وجدت ٢٠ رجلا يعملون في سده ••

وطلع علينا الفجر بنوره وبهائه ونحن واقفون على الجسر ، هذا الماء الضحضاح أمامنا ينحدر سطحه في سبيل هدار يأكل الجسر من على الجانبين •• فى هذا الصباح شهدت لأول مرة قوة الماء وجبروتها •

وتبين أن الأرض بلغت غايتها من الماء ، فطار الخبر للفلاحين أن يسرعوا لبذر الفول •• فرأيت بعينى فلاحين يغوصون عرايا فى الطين الرايب الى وسطهم ، وقد علقوا فى ظهورهم بالحبال غلاية الشاى ووابور الغاز ••

الأم ••

لا أنسى هذا المنظر الذى شهدته وأنا منشغل فى تحقيق قضية تافهة ، معزة نزلت فى حقل برسيم •• فطارت أسرتان الى السلاح ، هذه لصون الكرامة ، وتلك لصد الهجوم • كنا نعلم أن النصح والشفاعة والزجر والتهديد

لن تغنى شيئا ، وأن بين السلام واطلاق الرصاص خيطا اوهى من نسيج العنكبوت ، ان لم يكن فى حضورنا فبعد ذهابنا ، ان لم يكن اليوم فغدا أو بعده ، وان غدا لناظره قريب . حين يطلع الشيطان برأسه فى الصعيد لا تدخل جحره من جديد الا بعد أن يلغ فى الدم .

رأيت أول الأمر افراد الأسرة صاحبة البرسيم ، خمسة اخوة ، كل منهم تمثال بديع لرجولة الصعيدى وأنفته وصلابته ، لهم جميعا شوارب طويلة منتفشة ، ورقاب لا اني عن التغنى بجمالها وكبريائها ، هم فى غضب شديد كانما قتل لهم قتيل ، ووجدت من الحكمة أن أذهب الى بيتهم ، بحجة الاستماع الى أقوالهم وتحرير المحضر وأنا أرمى الى تهدئة نفوسهم ، دخلت واحدا من هذه البيوت الريفية العادية ، وجلسنا فى الحوش ، فى جانب منه سلم من الطوب الأحمر بلا درابزين يصعد الى حجرة لها باب من لوح خشبى رقيق ، وعلت الأصوات وتشابكت واتقدت العيون ، ليس فى الأرض قوة تثنيهم عن الشر ، فاذا بهم جميعا يصمتون فجأة حين سمعنا صوت صرير باب الحجرة العليا ، وهلت علينا منه امرأة عجوز محطمة ، قد انقلب سواد عينيها الى بياض ، رمادية الجلد ، هذه امرأة أفنت عمرها فى عمل مرهق متصل ، وحمل وولادة ، وعرفت كافة الأمراض ، جرى الابن الأكبر فصعد اليها فى لمح البصر وتضاءل أمامها ومد لها ذراعه لتستند اليه ، وجرى الابن الثانى ومد لها من جانب آخر ذراعه وهو يحنى رأسه ، وحوط الباقون عليها يفتحون لها الطريق خطوة خطوة .. وقبل أن تبلغنى كانوا يقولون لها : « لماذا تتعبين نفسك ؟ » ، فاجابت وهى تجلس بجهد قبالتى بعد أن سلمت على :

ـ ييجي حضرة المعاون عنـدنا ولا أسلمش عليه ؟ دى تبقى عيبة كبيرة قوى •

ســألت ان كنت شربت الشــاى ، وألحت على الحــاحا شديدا أن أبقى للغــداء عنـدهم • أدير نظرى فى الرجال فأراهم يجلسون في أدب قد غضوا أبصارهم ، لا يبدو عليهم أنهم قادرون على ايذاء ذبابة •

سألت عن سبب الضجة ، فلما علمت الخبر هونت منه ، ولامت أولادها على سرعة غضــبهم ، تزوم فيهم أحيــانا ثم تضحك لى ، وقالت :

ـ اتركوا لى هذه المسألة أفضها مع جارنا ، فان لنا به سابق ود ، فاذا تحدثت اليه لان فى يدى ••

بقيت صورتها فى ذهنى بقيــة اليـوم ، أحمد لها أنها فضت نزاعا كاد يؤدى الى مجزرة ، وأحمد لها قبل كل شيء أنها أنقذتنى من تحرير محضر طويل عريض من أجل معزة•

تنفيذ حكم طاعة

كنت حديث عهد بالعمل حين عهــد الى المامور لأول مرة تنفيذ حكم بالطاعة صادر من المحكمة الشرعية ، انني أمقت الاكراه ولكن ينبغي لى أن أعترف بأن نفسى نشطت وتهللت شأن المقبل على متعة لذيذة •• فلن يكون من الظلم أن ألقى الجزاء ••• وقبــل أن أغادر المكتب قرأت الحــكم فاذا به يقول « وأعد لزوجه المقيمة فى كفر الشيخ مبارك منزلا فى

الكفر المذكور ، يحده من بحرى طريق ، ومن قبلى منزل فرغلى ابو مجاهد ، ومن شرقى طريق ، ومن غربى منزل محمد أحمد محمد » ، وكنت لم أذهب بعد الى كفر الشيخ مبارك بل ولا أعرف أين هو • فلما سألت ، علمت أنه كفر صغير •• يقع على جسر « الابراهيمية » ، بحرى منفلوط بمسافة سأقطعها على ظهر الحمار فى ثلاث ساعات ، فتوكلت على الله وخرجت بعد أن تم التنبيه على العمدة المسئول عن الكفر أن ينتظرنى عنده مع شيخ الخفر •• فتنفيذ حكم الطاعة يتطلب جيشا من ثلاثة على الأقل ومعهم السلاح ••

وجسر « الابراهيمية » أصل كيانه من الطين المتخلف من شق الترعة ، مكوم بجانبها ، فارتفع سطحه عن الغيطان بعلو مترين أو ثلاثة على الأكثر ، حتى أن الأشجار المنزرعة فى الحقول لا تبدو منها فوق الجسر الا فروعها مما يضفى عليه بالليل منظرا رهيبا •• وسار بى الحمار بين الترعة والغيطان ثلاث ساعات فاذا بى أصادف العمدة وشيخ الخفر جالسين تحت فرع شجرة ، فقلت لهما بعد السلام •

ـ هيا بنا ••

ـ الى أين ؟

ـ عجايب ! الى كفر الشيخ مبارك ! فقربنى العمدة الى حافة الجسر ناحية الغيطان وقال لى « هذا هو كفر الشيخ مبارك ! » •

رايت فى حضن الجسر ، بين الحقول وسطحه ، بارتفاع مترين ، كوما صغيرا من كهوف متلاحقة ، هيهات أن تسمى فى أى قاموس فى العالم باسم منازل ، يكاد لا يصل سطحها

الى مستوى الجسر ، مغطاة بالبوص والقش ، كان حصيرة واحدة تغطي الكفر كله ، كلها من الطين الجالوص ، لا اذكر انني رأيت بينهـا ما هو مبني بالطـوب النيىء ، غيـر أن جدران بعضها من حجارة مكومة فوق أخرى ، وأقسم لك أن العمدة وشيخ الخفر سنداني وأنا أدب على أسطح هذه الكهوف ، فلا خوف من الوقوع ، لأهبـط منها الى الأرض أمام منزل الزوجة ، فقلت في نفسى وأنا فوق السطح : «أين الطريق القبلي ، وأين الطريق البحرى » ..

أحنيت رأسي ـ وأعـلم أنني قصـير القـامة ـ ودخلت سردايا ليس به جنس متاع ، أرضه مغطاة الى الركبة ببوص الأذرة ، ورأيت فيه فتاة تجرى في أنحـائه وهى مذعورة ، تخربش فى البوص ، فقبضنا عليها ورفعنـاها الى سرداب مماثل في بيت مجاور ..

لم أمـكث في كفر الشـيخ مبـارك كله أكثر من خمس دقائق ، وعدت أركب الحمار يهزنى هزا وينفضنى نفضـا ثلاث ساعات ، والهواء يجاذبني ثيابي ، ولكن لم أكد أبدا لكز الحمار حتي لسعنى برغوث فى رقبتي ، وتسلل آخر من رجل البنطلون شـاقا طريقه ـ ولا أدرى كيف ـ حتي بلغ بطني ، مع أن تكة لباسي مشدودة ، وبدأ ثالث يتلاعب ما بين صدرى والفانلة ، وأنا لا أملك حرية الهرش لانشغال يدى كلتيهمـا بالشـمسية والمنشـة ، وظللت أتلوى حتي بلغت دارى ، وخلعت ملابسى فانطلق منها فى فرح جيش لجب ، أراه لشدة كثافته رأى العين ، وظللت ليالى عديدة لا أنام من وخز الابر ..

***

يوم الفرز

يومان عصبيان مختلفان ، ومع ذلك يجمعهما وصف واحد ، فكلاهما فيضان قوى جبارة تدهم الأرض ، لا أعرف مثلهما شيئا ارتجت له نفسى وأنا فى الصعيد •

أولهما يوم الفرز ، وما أدراك ما يوم الفرز •• جاءتنا بالأمس لجنة القرعة ، ضباط من مختلف الرتب ، بينهم طبيب ، فأخلينا لهم بعض مكاتبنا ، ووقفنا أنفسنا على خدمتهم •

وباتت منفلوط ترقد فى أحضان ليل وديع خلى البال، يلف القرى المتناثرة حولها كما يلف القماط الوليد •

فاذا لها قبل الصباح انتفاضة على رهبة ، كأنما نفخ فى الصور ، تدفقت عليها من النجمة سيول من جموع كثيفة من شباب القرى ، من الشرق والغرب ، من الشمال والجنوب ، ومع كل جماعة شيوخ القرية وخفراؤها ، فى أيديهم عصى طويلة كأنما يسوقون بها قطيع أغنام ، تحوط عليهم نسوة يولولن ، هن أشد منهم جزعا واضطرابا ، والتقت هذه السيول فغصت بها الساحة الكبيرة بجانب المركز ، وسدت الشوارع المجاورة ، وامتنع فيها المرور ولو للسائر على قدميه ، صدر الأمر للفلاحين أن يخلعوا ملابسهم فخلعوها وبقوا عرايا كما ولدتهم أمهاتهم ، وان استبقى بعضهم منديله الأحمر معقودا فوق الرأس ، ثم أقعوا على الأرض ، تتخطى رقابهم أرجل الخفراء وهم يجوسون خلالهم •• ولم العجلة والوقت يدرى ؟ ذلك أن طبيب

القرعة سيفحصهم وهم عرى وليس لديه وقت يضيعه فى الانتظار حتى يخلع الفلاح أمامه جلبابه الأزرق وما أسهل خلعه فليس فوقه غيره ، وليس من الممكن وضع نظام يتم فيه الخلع فوجا بعد فوج ، فلا مفر من أن يصدر الأمر للجميع منذ وصولهم ، والمساواة فى الظلم عدل • سيظل الفلاح هكذا عاريا مقرفصا على الأرض ساعات طويلة تحت الشمس الى أن يأتى عليه الدور ، لم أر أحدا يكسب فيهم ثوابا ويسقيهم ويدور بينهم بقربة أو قلة أو كوز •

لم يكن سبق لى أن رأيت مثل هذا المحشر الضخم من الأجساد البشرية العارية ، ان رائحتهم بخار منعقد ، سيظل عالقا فى الجو أياما بعد اختفائهم ، كأنما تتطاير من أجسادهم نخالة ، لعلها فتات القشف ، أنفاسهم تزيد من حرارة الشمس كثرهم يضع الكفين تحت الابطين ، وبعد قليل بدأ العرق يلمع على القفا والجبين والظهر والصدر ، حتى عمهم بحر واحد من ماء آسن عكر ، تطفو عليه الطحالب ، وجزائر من المخاط الأزرق ، ولطخ لزجة من اليرقان والعلق والديدان ، وأعشاب عفنه •

لم يسبق لى مثل هذه التجربة ، رأيت لشدة وألمى ولأول مرة ، وكأن الصورة تضخمت مليون ضعف بسبب هذا الحشد ــ أن رءوس معظم الفلاحين مصابة بالقراع ، انقلب الشعر الذى خلقه الله لهم زينة الى دهان قبيح لطخ رءوسهم ، تتخلله بقع رمادية وزرقاء ، كأنها بطحات مطرقة ملوثة بروث البهائم ، بقع يخال لك أنها تنز ، الشعر القليل الذى يكتنفها هيش نبات شيطانى خبيث اقتلعته يد فلم تبق منه الا جذوره الذابلة • لا أدرى لماذا وقع فى نفسى

أن رأسا هذه حالها هي كالبيضة المششة لا تجد داخلها الا أفكارا فاسدة ، على عكس ما يقال عن القراع ـ ويلحق به أيضا الصلع ـ من أنه دليل الذكاء ..

الحديث بين الجالسين ممازحة ، مبعثها الخجل ، ومع ذلك فان الهمهمة المنطلقة من هذا الحشد كانت تصل الى أذني كأنها ضجيج محنقين ، أو جياع تأخر عنهم مرة بعد أخرى طعام موعود ، هي ضجة أناس معذبين ، فيها حدة مكبوتة ، كأنها تهارش وحوش مفترسة بالأنياب والأظافر ، يخالطها احتجاج يحبو دون أن يمشي أو يثب ، يدور بين الرجل ونفسه ، وبينه وبين جاره ، ثم تعلو فجأة وسط الهمهمة زمجرة عالية فتهوى العصى حتى يعود سطح الهمهمة الى الاستواء من جديد ، فاذا جاء الدور قام الفلاح تدفعه الأيدي باللكمات في قفاه ، وبالنخس في ظهره ، حتى يدخل أمام اللجنة ، ساترا سوأته بكفيه .

واتخذت مكاني بجوار طبيب القرعة ، وهو رجل من الشرق باع نفسه للغرب في ذلة الرقيق وكبريائه حين يعتز بسيده ، (وكان أغلب جيشنا في العهود البائدة من هذا الصنف العجيب الذي طالما سار في ركاب الاستعمار كالعقبان في مصر والسودان) . وكان مع ذلك أكرش محتقن الوجه . يضع منديلا معطرا على أنفه ، هو متأفف ضجر ، وقح أفحش الوقاحة ، لو كان يفحص كلبا جربا لكانت يده أحن عليه منها على الفلاح ، هو قبل أن ينطق الفلاح باسمه واسم شياخته وقريته يسخر منه ومن غبائه وبلاهته وتخبطه وتعثره وهو يطلع على المقياس ، وتهبط خشبة فوق رأسه بعد أن يلكز في بطنه ليشد قامته . أرى الفلاح يرفع بصره مع الخشبة حين ترتفع ـ وهو لا يراها

ـ ويغلق عينيه حين تهبط ، لا شيء يدل على خـوفه مثـل حـركة حاجبين يتتبعـان نظرته .. حتى أمام الطبيب لم يسلم من النخس بغضب ، كأنه داهية ثقيلة ..

ثم يصرخ الطبيب وكأنها صرخة انتصار :
ـ سعفة بالرأس غيره ، اللى بعده .
ويأتى فلاح آخر فيصرخ الطبيب :
ـ فتاق .. غيره .

سعفة .. فتاق ، فتاق .. سعفة ، ما أكثر ما سـمعت هاتين الكلمتين فى ذلك اليوم . لم أكن أعرف من قبل أن القراع والفتق منتشران بين الفلاحين بهذه الدرجة الفظيعة. ان تفشى القراع ليس بعجيب ، وهو ينتقل بالعدوى ، ولكن ما علة انتشار الفتق بين الفلاحين ؟ أهو لمجرد اضطرارهم لحمل الأثقال أم يضاف الى ذلك سبب آخر له علاقة بالنهم الجنسى فيما يقال . وقد قرأت بعد ذلك سـيرة الدكتور شفايتزر الذى يعيش فى أدغال افريقيا (والحائز على جائزة نوبل) فعلمت أن الفتق منتشر أيضا بين أقوامها البدائية ، وليس هذا بالمرض الهين . اذ قد ينتهى الى اختناق الأمعاء فيسبب آلاما جهنمية ، واذا لم يسعف المريض بجراحة كان مصيره الهلاك ، ليتك تقرأ كتاب الدكتور شفايتزر لتعرف ماذا يقوله لمرضاه عندما يجدون على يديه الشفاء .
واقترب العصر ونحـن لم نفرغ ، وتضـاءل البحـر الى جداول ثم الى جرعات ثم ذاب من بين أيدينا ، واعجب حين أقول لك : ان هذا العـذاب كله الذى تحمله الفـلاحون قد ضاع هباء فاذا كانت اللجنة قد قبلت عددا منهم فان الذين طلبوا الى التجنيد من بيوتهم كانوا أقلية ضئيلة .. كأنك تقطع ثمار حديقة بأكملها ثم تأكل منها حبة واحدة .

وخرجت الى الطريق فخيل الى أن منفلوط قد مر بها اعصار ، واكتسح معها أيضا روحى .

وفاء النيل

أما اليوم العصيب الآخر فهو يوم البطل فيه هو النيل ، لا أقصد يوما من أيام جبروته ، حين يجلس الفلاح على الجسر يرقب في وجل ارتفاع الماء أنملة أنملة ، ولا يوم عبثه في عز فيضانه بالشواطىء فيتقطع ويضيف كما يشاء ، بل هو يوم في أوائل أغسطس أجوس فيه خلال الوادى على ظهر حمارى ، الحقول من شدة الجفاف والعطش قد تشققت ، ينفذ بصرك الى أعماق غارقة في الظلام ، كأنك تمشي فوق غطاء هش مخادع من تحته هوة ، أرض قشلانة جربانة ، انقلب سطحها من طين الى تراب ناعم ، تسفيه أقل الرياح ، تحس أن الأرض قد فغرت فاها ، تكاد تلفظ أنفاسها ، لم يبق الا انتفاضة ضئيلة واحدة ، يمسكها الاعياء لا الأمل فى البقاء ، هى على وشك أن تجود بها وتستسلم للعدم .

اذا ذهبت الى أقصى الوادى شرقا الى أن تصدني التلال عند قرية أم القصور ، أو الى أقصى الغرب عند قرية «جحدم» أكاد أرى رأى العين حركة الرمال الصفر تزحف كحمم البركان ، قليلا قليلا ، بترصد خبيث ، ومكر شديد ، تمد الى الطين الأسود يدا مغتالة في لمستها الجدب والفناء ، الفلاح وجاموسته تشرب من بواقى ماء آسن متخلف فى حفر صغيرة من أيام فيضان سابق ، كوم الحبوب فى داره يهبط شيئا فشيئا .. هل ستتصل آخر حبة منه بأول حبة

لن تنبتها له الا هذه الأرض التي جثت على ركبتها وأحنت راسها وتهيأت للموت !

يلف الكون كله ـ أهله وطينه وحيوانه ـ جو غريب من التوتر ينفذ الى النفوس على غفلة منها ، ولكنه توتر رهيب، لا تفلح الضجة مهما علت أن تفسد غلالة من الصمت قد حطت على الوادى ، لو كان الكون شخصا لرأيته واقفا يقلب وجهه في السماء ويتصنت يمنة ويسرة •

وكنت في ذلك اليوم لا أنتظر شيئا ، أسير بجوار أحد الحيضان كعادتى كل يوم •• وفجأة رأيت ثعبانا نحيلا من ماء داكن يتلوى على الأرض ويهوى بين الشقوق ، له ذيل طويل يجره فيلاحقه ، لم أر طول اقامتي في الصعيد شيئا مثل هذا السرساب الضئيل من الماء يملأ روحى حتى كاد يسحقها بشعور مختلط من الرهبة والفوز ، واليأس والنجدة ، بل الموت والحياة تجمعهما لحظة واحدة • لا أدرى من أين جاءت هذه النسوة ، كأنما انشقت عنهن الأرض ، ورفعن رءوسهن وانطلقن في زغرودة مجلجلة عالية اهتز لها قلبى ، كأنى أسمع لعلعة بوق جيش منتصر مقبل الى أهله من بعيد •• جاء الفرج ما أجمله •

ذكرى هذين اليومين تتضاءل بجانبها صور فيلم يستغرق عرضه عاما كاملا ، ولا يتغير فيه شيء سنة بعد أخرى ، تمتلىء الحيضان وتنقلب كل قرية وسطها الى نافورة من نخيل غارق في الماء فلا نصل اليها الا بالقوارب ، ينحسر الماء ويزرع البرسيم ، ما أجمل منظره في الحقل بنواره الأصفر الدقيق ، عنده تعرف الأرض والحيوان لذة الربيع ورقة السماء وحنانها • تلد النعاج ، ويهنأ الجاموس ببرسيم غض حشو فمه ، ثم بعد البرسيم فول ما أزكى

رائحة أزهاره ، أو قطن يراق فوقه العرق حتى يفتح لوزه • لا أدرى لماذا لا أعرف للقطن ولا شجره ولا أزهاره ، مسحة من الجمال ؟ لعل السبب انه متحنط مستبد ، حتى حين يخال لى أن ندفا من الثلج قد هبطت على الوادى لا تنشرح لها نفسي ولا أراها الا بقايا حجرة عمليات فى مستشفى أو ضمادا متناثرا عالقا على جثة ضخمة •

ثم يكون فى الأرض بدل القطن وبعد القمح أذرة عويجة، محصولها هو خلاصة حياة الفلاح ، اذا قال « مونة السنة » عنى بها ما يدخله من حبه في داره ، اذا وفر لزوجته ما يكفيها منه فليس لها ان تسأله عن شيء غيره ، من عيدانه يقيم الأخصاص ويصنع الجدران والسقوف ، ووقيد الفرن ، ويقتل ان شاء من بين عيدانه الطويلة خصمه ، هذا هو موسم القتل • اذا تكومت الكيزان المستديرة ودقت على الغناء ـ بالعصى ، ونشأ تل من الحبوب وقف عليه الفلاح الميسور ـ وهو يذكر ربه وزكاته ـ يوزع العوايد ، هذا الكوم للمعدية ، وذاك للموالدى ، وآخر لبائعة الحلوى الفقيرة التي تجلس على رأس الدرب فى القرية ـ آه •• نسينا انسانا آخر •• الحلاق •• انه أقبل يهرول وفي يده كيس ، هو أكبر الأكياس فى ذلك اليوم •

وآخر صورة فى ذهنى عن غيط الأذرة هى هذه البقع الدموية التى تتناثر على الأرض مستديرة كالدنانير ، تنعقد فيها أشعة الشمس بعد أن تسربت بجهد بين عيدان صفر متمايلة ، ما أمتع منظرها ، لم أر للون الأحمر فى غيرها مثل جماله ، من أجلها أنسى لهذه العيدان ما تبعثه من أنفاس خانقة ، ورائحة زخمة عطنة ، وهاموش ، وما تخبئة من مكامن البنادق شغل اليد •

فراق

كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك قواى وأن له جسدى ، أقلب ولا أقرأ صحيفة يومية فاذا بنظرى يقع على اعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف أمناء المحفوظات - أى سكرتير - فى القنصليات والمفوضيات • القاء النظرة كان مجرد صدفة ، ولكنها قلبت حياتى رأسا على عقب ، فقد تقدمت ونجحت وان جاء اسمي في ذيل قائمة الفائزين ، فصدر الأمر بتعيينى أمينا لمحفوظات القنصلية في جدة ، باعتباره أسوأ المناصب الشاغرة •

ما أبلغ هذا الانقلاب في حياتي ، سأغادر الصعيد بل الوطن كله الى بلاد مجهولة وراء البحار •

سأترك ظهر الحمار لأركب سيارات ترفرف عليها الأعلام ، حتى هي - لا شاغلها وحده - لها حصانة •• سأخلع بذلة لجنة المساحة (وهي أشد ملابسى قدما ورثاثة) لألبس السموكن والبونجور والفراك والردنجوت ، ومن القبعات : الميلون ، والسلندر ، وقبعة الأوبرا ، وقبعة رمادية للصباح ، وسوداء للمساء ، وفوقها قبعة بيريه لركوب السفن •

سأترك مجتمعا تعيش فيه المرأة وراء الحجاب لأعيش فى مجتمع تتربع المرأة فيه على عرشه ، هى التى تحرك الخيوط وتصنع الأقدار ، وبعد أن كنت أخاطب المرأة بلا مراسيم تعلمت كيف أنحنى أمامها فاذا مدت لى - دون أن تقف يدها ، وكانت سيدة لا آنسة - والحذر كل الحذر من الخطأ فانها تكون غلطة لا تغتفر - وضعت على أناملها قبلة

يجعلها الأدب والعرف وسطا بين البرود والاندلاق ، ثم أمد لها ذراعي لندخل معا حجرة الطعام . فاذا جلست جانبي قاست هي والآخرون مقدار براعتي وثقافتي بمقدار نجاحي في اثارة انتباها وتسليتها .

سأضع كل كلام اعتدته بما فيه من رقة وغلظ في حقيبة أختمها بالرصاص لأتعلم نوعا آخر من الكلام ، وبلغة غير لغتي . اذا دخلت الصالون المزدحم بالمدعوين في حفلة شاي ينبغي أن أتحدث حديثا فارغا سهلا خفيفا ، مع التنقل كالنحلة من حلقة الي أخرى ، ثم تنفض الحفلة فأقابل الوجوه ذاتها ـ لا تنقص او تزيد الا قليلا ـ في حفلة أخرى لشرب الكوكتيل ، وينبغي لى أن أدير الاسطوانة مرة أخرى ، ثم تنقضي الحفلة وأقابل الجميع لثالث مرة في يوم واحد في حفلة عشاء جلوسا أو وقوفا ، فأمثل الدور من جديد ، لم أجد شيئا أشق من هذا العبث على نفسي .

سأنتقل من حياة يفيض فيها العمل المرهق عن الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن الفارغ عن عمل موهوم . كدت أنحشر في زمن الباحثين عن قتل هذا الوقت الفارغ بالعبث والمجون . كنت في خطر شديد من أن تأسرني هذه المظاهر البراقة وأضيع وأصبح تفاهة لابسة سموكن ، ولكن شيئا واحدا انقذني ، ليس هو طبعي ولا تربيتي ، فالانسان مهما صلبت ارادته غير معصوم من ضعف طاريء تنزلق عنده قدمه ثم لا يعرف كيف يقوم ، انما الذي انقذني هو عملي سنتين بالصعيد ، هذا العمل الذي طالما أرهقني وأذاقني من عذاب الجسد والروح أشكالا وألوانا ، والآن أحمده وأبوس يديه فقد عرفت بفضله ـ كما رايت أنت ـ بلدي وأهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من أبنائه .

انقذني هذا الشعور من الضـياع وأقامني اقامة وجدت فيها السلامة وراحة القلب بقدر ما في الدنيـا من سـلامة وراحة قلب ، حتى كدت أومن لا زهوا بل اقتناعا ـ أن خير من يصلح للتمثيل الدبلوماسي هو من غرق في الريف بين احضان أهله زمنا غير قليل •

سازور الحجاز وأدرس المذهب الوهابي ، وأعرف مشاكل الحج والكورنتينات ، وأرى جميع الشعوب الاسـلامية ، وبعض كبـار المسـتشرقين ، وكيـف أن بعض الدول الاسـتعمارية تعين قناصـلها هنـاك من بين رجال وزارة المستعمرات لا الخارجية ، ثم أزور تركيا فأشـهد الحركة الكمالية في عنفوانها ، ومظاهر تحول حكومة شعب مسلم من دوله تعترف بدينه الى دولة تتجاهله بل تعـاديه ، ثم أعود اليها بعـد غيبة طويلة ، فأرى انحسـار هذه الموجه وأقارن بين العهدين •

عشت في ايطاليا مع أطماع موسوليني وبهلوانيته خمس سنوات ، وزرت ألمانيـا ورأيت وسـمعت هتـلر وأعوانه ، يؤججـون الحـركة النـازية بمشـية الأوزة ، وذهبت الى فرنسا لأرقب مبادىء احتضار الجمهـورية الرابعة على يد أحزابها المتفتتة ، ثم الى ليبيا فاشـهد مشـاكل أمة عربية تحاول تدعيم استقلالها وسط مصاعب هائلة ••

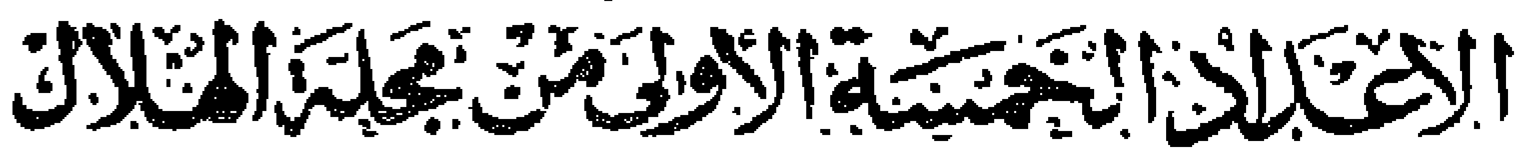
وشهدت بعد هذا وذاك نمو سياسة مصر الخارجية مدى ثلاثين عـاما • اني أحب أن أحـدثك عن كل هذا اذا رأيت أنني لم أثقل عليك بهذا القدر من مذكراتي ، ووجدت أنا في العمر بقية ، وفي الهمة اقبالا ، ومن الزمن مهادنة ومن النفس تواضـعا ، فادع لي بخير كما أدعو لك ، ولنفترق هنا على أمل باللقاء •

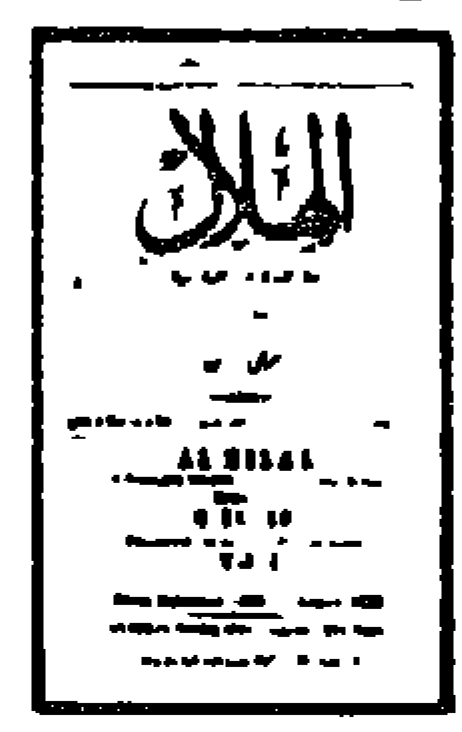
الفهرس

مقدمة ص
نعم .. خليها على الله ٥
الباب الأول
مدرسة الحقوق ومضاعفاتها ٣٧
الباب الثانى
خبط عشواء ٧٩
الباب الثالث
وجدت سعادتى مع الحمير ! ١٣١
الباب الرابع
الصعيد ١٦١


عدد خاص


مصر والعالم
يوم صدر
الهلال
سبتمبر
١٨٩٢

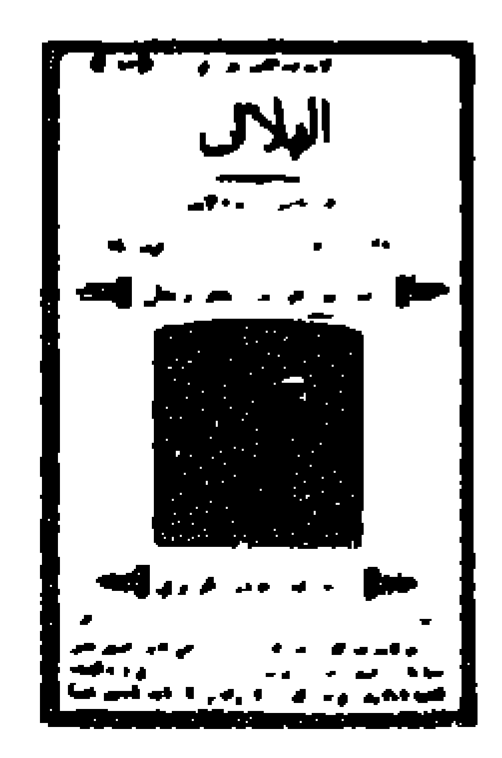

الأعداد الخمسة الأولى من مجلة الهلال











هذا الكتاب

خليها على الله

خلافا للسير الذاتية ، والتى تدور اساسا حول شخصية صاحب السيرة ، فإن «خليها على الله» بانوراما اجتماعية ، الشاهد عليها هو صاحب السيرة ، وهو شاهد لاتهمه تفاصيل اللوحة الكبيرة ، الا لابراز العبرة ، واستجابة لفنية الكتابة ، فنحن مع كاتب ، قد يكتب الجملة الواحدة ثلاثين مرة ، لتستقيم حسبما يريد لها ، ويرضى عنها .

وقد اختار يحيى حقى ، مرحلتين من حياته وحياة المجتمع الذى عايشه بوعى وبصيرة ، حدثنا عن احداث المرحلة اللاحقة لتخرجه فى مدرسة الحقوق العليا سنة ١٩٢٥ ، وامتزجت اهتماماته باحداث الفترة ، ليتعاشق العام بالخاص .

ثم حدثنا عن عمله معاونا للادارة بمركز منفلوط . حيث عايش الصعيد بقلب محب ، وعقل متعطش الى المعرفة ، والبانوراما التى قدمها للصعيد ، لم يفلت منها تفصيله : الطبيعة ، الانسان ، الحيوان ، النبات ، علاقة الانسان بالسلطة الحاكمة ، والهوة التى تفصل بينهما ، ولأن تأثره بحياته الجديدة ، كان عظيما ، فقد تبدت فى الكثير من اعماله الابداعية ، قصة «البوسطجى» وباقى قصص مجموعة «ماء وطين» وبعض قصص مجموعة «ام العواجز» بل ان رواية «صح النوم» تجد مذكرتها الايضاحية فى « خليها على الله » نشرت حلقات «خليها على الله » فى جريدة الجمهورية سنة ١٩٥٩ ، وكان جمال عبد الناصر ، يقرأها وعند حد معين ، قال : يحيى حقى .. كفى .

وربحنا «خليها على الله » .

وخسرنا اوراق كثيرة من الرحلة العميقة والممتدة .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

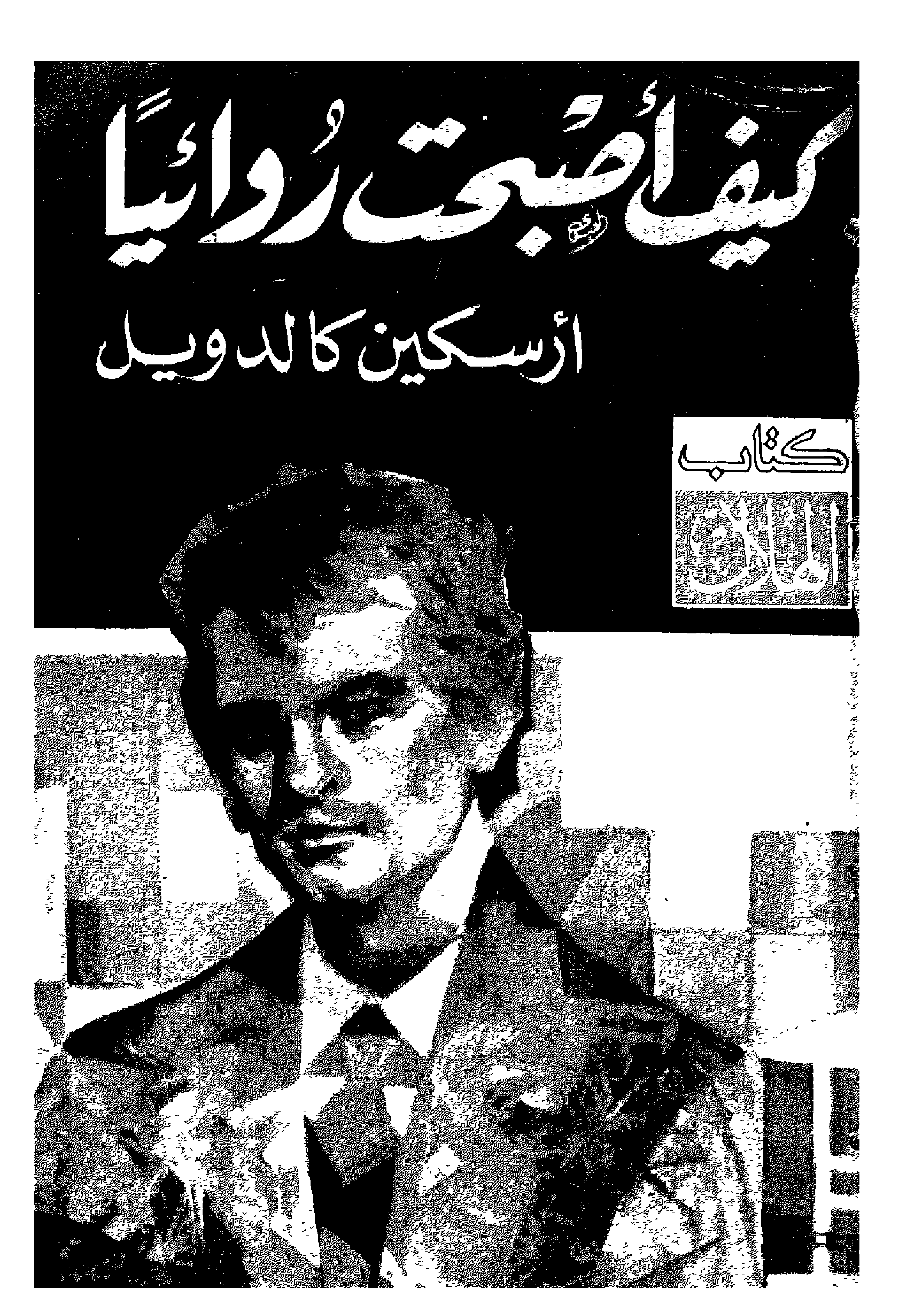
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

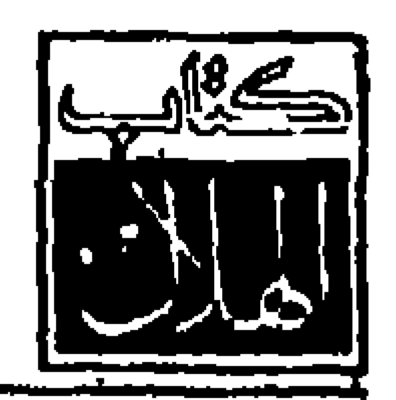
الكويت · السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

٢

رقم الايداع : ٩٤٩٢ / ١٩٩٠
I. S. B. N
977 — 07 — 004 & — 7


كيف أصبحت روائياً
أرسكين كالدويل
كتاب
الهلال



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

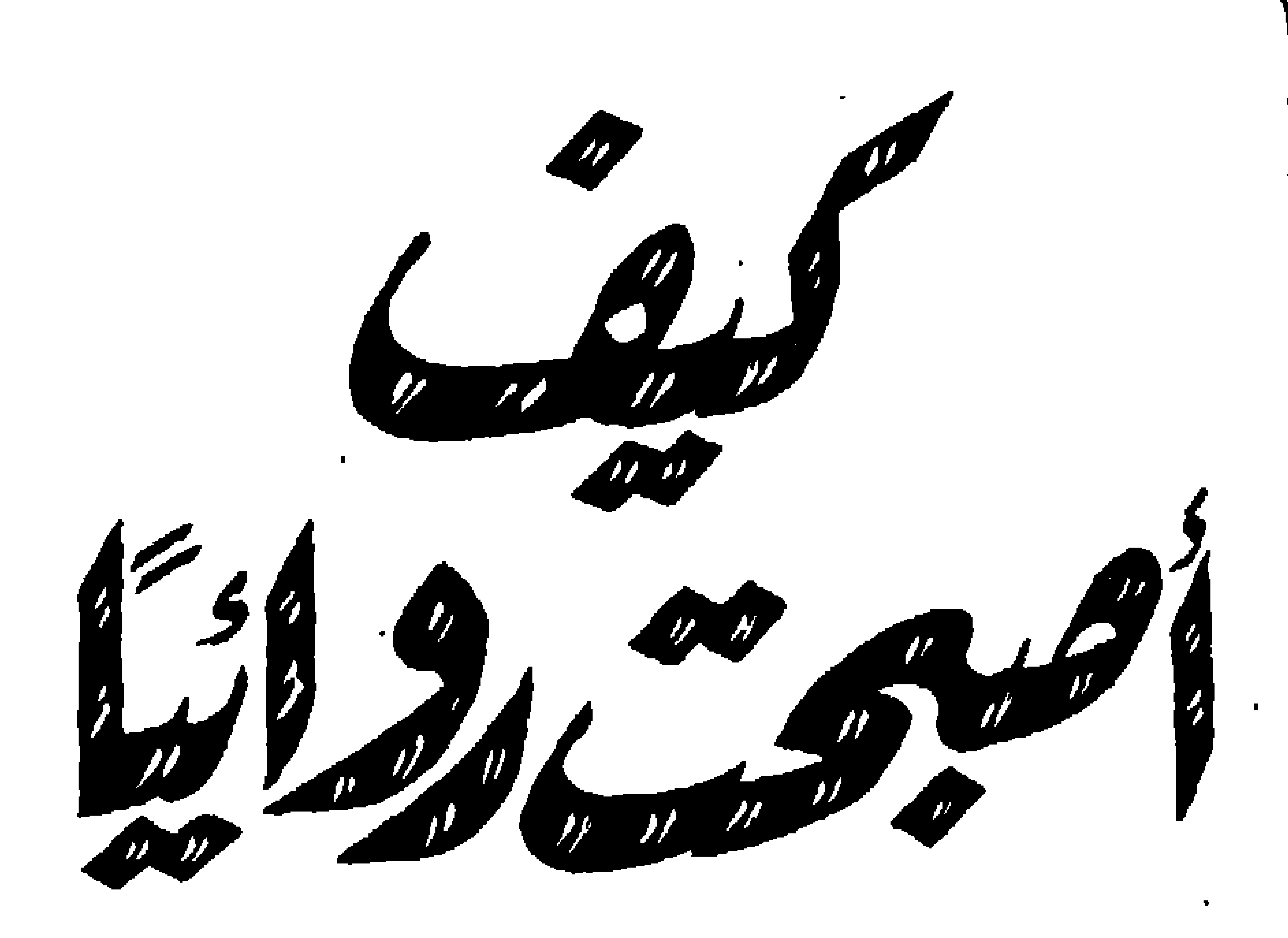
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٤٨٢ - رجب - فبراير ١٩٩١

أسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش

لبنان ١٠٠٠ ليرة ، الاردن ١,٥ دينار ، الكويت ١,٥ دينار ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٠ ريالات ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٠ درهم ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الامارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١ ريال ، غزة ١,٥ دولار ، لندن ١,٥ جك



بقلم

ارسكين كالدويل

ترجمة : أحمد عمر شاهين

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين

مقدمـــة

الهدف من هذا الكتاب هو عرض بعض الخبرات لمؤلف ، قد تكون لها أهمية وطرافة لقارىء محب للاستطلاع ، أو لكتاب فى أول الطريق ممن يبحثون عن الرؤى فى أرض العجائب التى يعتقد الجميع أن المؤلفين يعيشون فيها .

ولم يكن هدفى أن أسرد أحداث حياتى بالتفصيل ، ولكنى أتناول ببعض التفصيل تلك الخبرات التى ربما أثرت على كتاباتى وانعكست فى قصصى القصيرة ورواياتى ، فما يمكن أن تجده فى هذا الكتاب هو جماع خبراتى كمؤلف وليس تاريخاً شخصياً خاصاً .

هناك بعض الأمور تركتها عن غير قصد ، والبعض حذفتها عامداً ، فإنى أشعر أن عملى كسائق فى مطار ميلنجتون فى ولاية تنيسى خلال الحرب العالمية الأولى ، أو كجامع قطن قصير التيلة فى ولاية ألاباما فى العشرينات ، أو كمسافر فى طائرة ضربها البرق فوق اريزونا سنة ١٩٤٢ ، أو كسائح ربح ٢٧ ألف فرنك فى لعبة الروليت فى أحد كازينوهات موناكو سنة ١٩٤٩ ، لا يخدم أى هدف يتعلق بخبراتى .

كتبت هذا الكتاب من الذاكرة والمفكرة ، وحاولت أن استدعى الأحداث والأحاديث كما وقعت قدر ما استطعت ، وإذا وجدنى القارىء مخطئا على أى وجه ، فسأكون شاكراً لو عرضت هذه الأخطاء حتى أصححها فى طبعات قادمة .

أرسكين كالدويل

القسم الأول

السنوات المبكرة

ربما جاء وقت على معظم من اتخذوا من رواية القصص حرفة ، أن يتساءلوا لماذا لم يكن الواحد منهم ممثلاً أو موظفاً فى بنك أو بائع أحذية بدل أن يكون مؤلفاً .

العقلانيون أو على الأقل أصحاب الذاكرة الجيدة ، ربما يستطيعون تذكر حادثة طريفة فى شبابهم ، كانت نقطة التحول فى حياتهم ، لكنى لست محظوظاً لهذه الدرجة ، فأنا اتساءل الان ما الذى حدث فى مطلع شبابى وقادنى وأغرانى ودفعنى إلى الطريق الذى اخترته .

إنى متأكد أن كتابة القصة القصيرة والرواية ليس بالشىء الهين الذى يمكننى القيام به بسهولة ولطف ، إن الكتابة ترهقنى وتصيبنى بالمرض حين أواجه النتائج ، إن العمل الجسدى المرافق لعملية الكتابة هو وضع مخالف للطبيعة البشرية ، فهو يعنى الجلوس مقيداً ، معتل المزاج طوال النهار

أو الليل وراء طاولة أو مكتب أو آلة كاتبة ، حينما يرغب المرء في الوقت نفسه بالنهوض والذهاب إلى مكان يرى فيه شيئاً يقتنع أنه أكثر إمتاعاً مما يفعله ، كما يعنى أيضا محاولة خلق أناس كالاحياء ، أحداث لها معنى فى الحدود الضيقة للعالم الصغير الذى عرفه . انه يعنى الكفاح لوضع كلمات على الورق تحمل روح الحياة وإحساسها المراوغ ، ومحاولة لا نهائية للوصول إلى المعانى المحددة وظلالها ، عدا أن تواجهك أحيانا صعوبة التهجية الصحيحة لاسم حيوان منزلى أليف .

من المؤكد أن الكتابة لم تقحم على ذاتى ، ولم يقترح مدرس أن أتخذ من التأليف مهنة ، كما لم يشجعنى محرر صحفى أو ناشر ، فهم على غير استعداد ، للابتسام وتشجيع ولد أشقر الشعر يستوقفهم .

كانت والدتى تأمل أن أجد وظيفة تقليدية ، وحثتنى أن أعد نفسى لدراسة القانون أو الطب ، أما أبى ، الذى لا أذكر أنه لمّح لى بشىء ، فلم يكن سيصاب بالخيبة لو التحقت بسلك رجال الدين .

وبقدر ما استطيع التذكر الان ، فإنه لم تكن لدى رغبة أو دافع أو ميل لأن أكون كاتبا فى سنوات عمرى من الثانية عشرة إلى السادسة عشرة ، ولكن من الواضح أن شيئا ما قد حدث لى بعد تلك السن ، وهكذا حينما أصبحت فى الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين تحققت أنى أود أن أكون كاتبا أكثر من أى شىء آخر فى هذا العالم . وصممت أن أشق

طريقى ككاتب ، دون أن يشغلنى أى شىء آخر حتى نهاية حياتى . والهدف الأول الذى وضعته أمامى أن أصبح قصاصا مقروءا خلال السنوات العشر التالية .

إنه عهد من السهل التلفظ به ، وسرعان ما تعلمت أن الأمنيات ليست كافية . كان لدى الارادة والعناد لكن القدرة ظلت مائعة لفترة طويلة .

واعتقد أن أحد أهم الدروس التى تعلمتها فى تلك السنوات المبكرة ، هو أن الحياة نفسها هى أعظم معلم دائم ومعجز للمرء . سمها خبرة إذا أردت ، ومهما سميتها فانى كنت أبحث عنها وأسعى اليها منذ ذلك الحين .

٢

كنت فى الخامسة عشرة من عمرى ، سنة ١٩١٨ ، حين أدركت أنه فى ظروف معينة ، يمكن كسب النقود بالعمل ، وأن العمل فى ظروف أخرى لا يؤدى بالضرورة إلى كسب النقود .

انتقلنا إلى بلدة "ريتز" فى مقاطعة "جيفرسون" فى ولاية جورجيا ، وهى بلدة صغيرة يقطنها حوالى ١٢٠٠ نسمة ، تقع غرب نهر سافانا بحوالى ثلاثين ميلا ، تربتها طينية رملية تصلح لزراعة القطن . كان أبى راعيا للكنيسة البرستباريه هناك . عشنا قبل ذلك فى ولايات عدة ، فمنذ مولدى فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ وأبى سكرتيرا لجمعية الإصلاح الدينى البرستبارية . ولذا كان كثير التنقل .

بعد التحاقى بالمدرسة الثانوية بعدة شهور ، علمت أن بعض الأولاد الأكبر سنا ، يعملون جزءا من الوقت فى معصرة لزيت بذرة القطن ، ذهبت لمقابلة رئيس العمال ، الذى قال بعد أن تفحصنى جيدا "يمكنك المجىء للعمل فى وردية الليل" ليلة واحدة أو سبع ليال فى الأسبوع .

كنت أكبر من سنى حجما ، فخلال صيفين مارست الحراثة مع فريق من البغال فى مزرعة فى تنيسى ، مما أكسبنى عضلات نامية .

كانت الوردية تبدأ فى الحادية عشرة مساء وتنتهى فى السابعة والنصف صباحا ، تتخللها استراحة لمدة نصف ساعة لتناول الطعام ، بين الثانية والنصف والثالثة ، وكانت الأجرة دولارا فى الليلة .

كنت أعرف أن أمى ، والتى كانت قبل زواجها مدرسة للغتين اللاتينية والفرنسية فى مدرسة للبنات ، لن توافق على عملي في وردية ليل في معصرة للزيت ، خوفا على صحتي ودراستي . فقررت أنه من الأفضل ألا أخبر والدى بالأمر .

في الليالى التى أعتزم العمل فيها ، كنت أذهب إلى الفراش مبكرا ، ليعتقد والداى أنى أنام نوما جيدا ، وقبل الحادية عشرة بقليل كنت ارتدى ملابسى بسرعة ، واجرى مسافة نصف ميل لأصل الى المعصرة وأوقع فى ساعة الحضور ، ومن ثم أبدأ بالقاء بذور القطن بجاروف فى أحواض النقل حتى الصباح . كانت الأحواض تنقل بذرة القطن الى بناية أخرى حيث تقشر أولاً ثم تعصر تحت ضغط هائل لاستخراج الزيت . أما المادة الصفراء المتبقية ، فتطحن وتسوق مع القشور كأعلاف للماشية .

كان يتواجد من عشرة إلى اثنى عشر عاملا فى المخزن الكبير لبذور القطن .. بينهم واحد أو اثنان من طلاب المدرسة الثانوية وحوالى ثلاثة او أربعة من الزنوج . وبدا لى فى ذلك الوقت ، ومازلت اعتقد أنه حقيقى ، ما من شىء يحدث فى ريتز أو ضواحيها ، مهما قل شأنه ، إلا ونعرفه بالتفصيل فى

حديث المعصرة . الحزازات العائلية ، المواليد غير الشرعيين ، الوفيات الغامضة ، الشجارات العنيفة ، الهجر والفضائح الجنسية ، الخروج على التعاليم الدينية ، كل ذلك كنا نناقشه بحرية خلال الليل ، البيض والزنوج على السواء .

كنا نعمل فى مخزن البذور ، وفى الجو اللطيف ، كنا نتناول الطعام فى وقت مبكر قرب الخط الحديدى ، أما فى الليالى الممطرة فنتناوله فى غرفة الغلى ، لا يوجد بيننا إحساس بالتفرقة العنصرية ، فلكل الحق فى التعبير عن رأيه ، أبيض أو أسود ، ما يحب وما يكره ، وفى أى موضوع يراه ، ربما توجد أماكن أخرى كهذه وإن كنت أشك فى ذلك ، ولكن حسب معرفتى ، فإن معصرة زيت بذرة القطن كانت المكان الوحيد فى البلدة الذى يتمتع بديمقراطية كاملة .

وحينما ينبلج نور الصباح ، ويكشف الفجر الرمادى عن الوجوه المتعبة لرجال وأولاد يلقون ببذور القطن فى الأحواض الناقلة ، يبدو لى دائما ـ فى ذلك الوقت ـ أن كل المشاكل الآتية لكل سكان البلدة ومتاعبهم التافهة أيضا قد اشبعناها بحثا وحديثا وتحليلا وانتهينا منها ، وانه ستكون هناك أحداث جديدة وفضائح جاهزة للمناقشة حين نعود للعمل فى الليلة التالية .

ويأذن لى رئيس العمال أن أوقع وأنصرف قبل نصف ساعة من موعد إنتهاء الوردية حتى أتمكن من الذهاب إلى البيت والظهور على مائدة الإفطار فى الموعد المحدد .

وفى الثامنة والنصف اتجه إلى المدرسة لامكث طول النهار . إستطعت أن أستمر على هذا المنوال شهرين ، أعمل من ليلتين إلى خمس ليال فى الأسبوع ، قبل أن يغلبنى النوم نهائياً كنت أنذاك قد وفرت ثلاثين دولارا ، وكنت متأكدا أن امى تشك أنى أقوم بعمل غير مسموح لى أن أقوم به ، لكنها لم تفاتحنى بشىء ، حتى غلبنى النوم ذات صباح وأنا على مائدة الإفطار ، وكانت تلك نهاية عملى فى معصرة زيت بذرة القطن .

اقتربت أجازة الصيف ، وأعلن أبى بصراحة ، وأعتقد أنه كان فخورا أو حتى غيورا مما فعلت دون أن يبوح بذلك ، انه لا اعتراض لديه اذا رغبت فى العمل على أن يكون عملا مناسبا ، فى متجر او دكان ، وفى النهار .

وهكذا قبل بدء الأجازة بأيام قليلة حصلت على عمل فى مقر الجريدة المحلية الأسبوعية "جيفرسون ريبوتر" التى يملكها ويحررها شارلى ستيفنز . وكان كل عملى أن أدير يد المطبعة .

فى الأسبوع التالى ، أسند الىّ عمل إضافى وهو رص الحروف باليد ، وفى الأسبوع الثالث اخبرت شارلى أنه بامكانى جمع بعض الأخبار لصفحة المجتمع ، وكتابة أخبار عن بعض الأحداث الطريفة .

اشتريت بالنقود التى وفرتها من عملى فى معصرة الزيت آلة كاتبة مستعملة ، وسمح لى شارلى باستخدامها أثناء العمل .

ومن الواضح أن الجريدة لاقت نجاحا ذلك الصيف ، فأثناء فترة الحر الشديد قام شارلى بإجازة على الشاطىء وتركنى ادير العمل وحدى ، اكتب الصفحات الست ، وأرص الحروف باليد ، وأطبع الجريدة ، ألفها وأعنونها واسلمها إلى المشتركين .

كان التوزيع حوالى ستمائة نسخة فى ذلك الوقت ، ووجدت أنى شغلت بالعمل ستة أيام فى الأسبوع رغم اختصار صفحتين من الداخل .

حينها عاد شارلى فى نهاية اسبوعين طويلين ، مسمر الوجهه وفى صحة جيدة ، القى نظرة على الأعداد التى اصدرتها فى غيابه ، وبدا أنه سر من عملى إذ قال انى اخرجت صحيفة كالصحف المتخصصة فى مظهرها ، ثم أضاف أنه بامكانى إصدار الجريدة لفترة أطول ، وبعد أن اتصل ببعض التجار بشأن ديون خاصة بالاعلانات ، ذهب ليصيد السمك فى الخليج لمدة أسبوع .

حينما عاد الى البلدة ، استجمعت شجاعتى وسألته عن الأجر ، وحسبت أنه مدين لى بسبعة اسابيع من العمل .

بدت عليه الدهشة حين ذكرت الأجر ولم يرد . تبعته الى غرفة التحرير وسألته ثانية عن أجرى . هز رأسه بأسى وقال : لا تتوقع أن أدفع لك نقودا نظير تعلمك العمل .

أخبرته أنى ظننت أنه ينبغى الحصول على شىء نظير

العمل الذى أديته . لكنه قال : اسمعنى يا ارسكين .. أنسيت انك جئت إلى هنا بمحض اختيارك وقلت : إنك تريد أن تعمل عندى . لم تقل كلمة واحدة عن الدفع ، وأنت تعرف ذلك جيدا كما أعرفه .

قلت : لكنى أعتقدت أنك ستدفع لى شيئا يا مستر ستيفنز . لقد كانوا يدفعون لى دولارا كل ليلة حين كنت أعمل فى المعصرة .. وأنا استحق أكثر من ذلك نظير عملى لديك ، أليس كذلك يامستر ستيفنز ؟

قال : ولد . من الأفضل أن تسرع الى المعصرة وتحاول الحصول على عملك القديم إذا كانت النقود هى كل ما تسعى اليه فى حياتك .

قلت : ولكن ألا يمكنك أن تدفع لى حتى نصف دولار فى اليوم ؟

لا .. قالها وهو يهز رأسه مصمما .

فكرت فى الأمر طوال الأسبوع التالى ، ثم سألته إذا كان لديه اعتراض أن أترك العمل . أفهمنى أنى أثبت بذلك عدم ولائى للعمل ، وحيث أن الصيف كان على وشك الانتهاء ، وكان بامكانى ترك العمل ، فتركته .

٣

أصبحت مدخراتى تتجسد فى آلة كاتبة مستعملة ، ولقد تركت العمل الوحيد فى البلد الذى كان يتيح لى استخدامها ، بدأت أبحث عن عمل ، فى مصنع الثلج ، لا يوجد ، فى الصيدليتين ومتاجر البقالة الستة لا يحتاجون من يساعدهم ، موسم حصاد القطن قد إنتهى ، والوقت مبكر جدا على القطف ، وتمنيت لو أنى لم أترك عملى فى الصحيفة .

وأخيرا ، مثل معظم الاولاد والشباب فى ريتز ذلك الصيف ، بدأت الذهاب إلى مباريات البيسبول التى تقام عدة مرات فى الأسبوع ، بين النادى المحلى وفرق من المدن القريبة ، كانت لدى مدير النادى مشاكل آخرى ، معظمها مالى ، ووافق بصدر رحب أن أتولى تسجيل وقائع المباريات التى تقام فى ريتز ونتائجها ، وقد قمت خلال اسبوع أو أكثر بعمل جيد ، حيث عينت بعد ذلك المسجل الرسمى للنادى ، دون أجر ، واعطيت تصريحا بحضور كل المباريات المحلية ، وسمح لى بالجلوس على مقعد اللاعبين ، وأحيانا كان يسمح لى بالقيام برحلة مع الفريق إلى بلدة قريبة .

أثناء عملى فى صحيفة "الريبورتر" اكتشفت أن معظم الصحف اليومية فى الولاية تستخدم مجموعة من المراسلين المحليين ، ينالون أجرهم دولارين عن كل عامود من المادة

الأخبارية التى تنشر بالفعل ، وكان عليهم فى نهاية كل شهر أن يقصوا رسائلهم التى نشرت ويلصقونها فى مجموعات على شكل أعمدة ويرسلونها إلى المدير التنفيذى للصحيفة ، وكان من رأيى أن ما يحدث فى ريتز ويجذب اهتمام صحف المدن الكبيرة لا يملأ عمودا واحدا فى الشهر خلال سنة كاملة ، ولذا قررت أنه من الأجدى أن أسعى للاتصال بقسم الرياضة فى أقرب صحيفة يومية "اوجستاكرونيكل" .

وعلى الفور تلقيت من المحرر الرياضى فيها مجموعة من المظاريف المعنونة بطوابعها لأضمنها رسائلى ، وقد فهمت من ذلك انى عينت رسميا كمراسل بالقطعة لصحيفة الكرونيكل فى ريتز .

وسواء كان لجريدة الكرونيكل قراء فعلا فى ريتز ، أو أن مباريات البيسبول التى أقيمت ذلك الصيف كانت بالفعل مثيرة بشكل غير عادى بحيث يقبل الناس على قراءتها ، فإنى وجدت كل كلمة ارسلتها قد نشرت بالفعل ، وأصبحت انشر عمودا يوميا تقريبا يتضمن تقريرا عن المباريات .

كان من الممكن أن يكون مكسبى أكبر لو تجاهلت تحذير مدير النادى بعد مباراة حرجة اقيمت فى ريتز ، لقد هددنى بسحب التصريح منى ومنعى من دخول الملاعب إذا أرسلت تقريرا مفصلا عما حدث فى المباراة ، وكنت قد كتبت عن العراك الوحشى الذى حدث بين أحد أعضاء فريق زائر وأحد الأنصار المحليين ، إنتهى بأن فقد اللاعب قطعة من أذنه

ونقل النصير الى بيته فاقد الوعى ، وادعى المدير أن قصة كهذه لو ظهرت فى الصحيفة فستؤثر على الدخل بقية الموسم .

وكانت نهاية موسم البيسبول نهاية قاسية بالنسبة لى ، عدت الى المدرسة بإحساس محبط ، لأنى عدت بلا عمل أو وسيلة للدخل ، ومع ذلك كانت لدى آلتى الكاتبة ، واستطيع أن أكتب باصبعين الان بدل أصبع واحد .

كتبت لمدراء جميع الصحف الأخبارية اليومية فى جورجيا عارضا خدماتى كمراسل محلى فى بلدتى ، بعضهم لم يرد ، والبعض مثل جريدة اتلانتا وجريدة ماكون تلجراف ارسلا ظروفا معنونة بطوابعها كى ارسل لهما تقاريرى . خلال الشهور التالية أرسلت إلى هاتين الصحيفتين بالاضافة الى صحيفة اوجستا كرونكل تقارير كاملة عما اعتقدت أنه يمكن اعتباره احداثا هامة وقعت فى منطقتنا فى مقاطعة جيفرسون . وكانت النتيجة مخيبة للآمال . ولا مجال للمقارنة بين ما نشر وبين ما نشرته عن مباريات البيسبول التى اقيمت فى ريتز فى الصيف الماضى . كان هناك شخص ما فى كل صحيفة يختصر بانتظام تقاريرى المكونة من صفحة أو صفحتين الى فقرة من بوصتين او ثلاث .. وقد مكثت طويلا حتى اجمع ٢٢ بوصة وهى طول العمود .

وأملاً فى تحسين حالتى عمدت الى المنافسة بين الصحف ، فتركت الصحف الثلاث الى صحف ثلاث أخرى ، لكن هذا التغيير لم يأت بنتائج جيدة ، ففى آخر الشهر كان حصيلة ما

نشر فيها أقل مما سبقها ، ثم عرفت أن الصحف الصباحية توزع فى ريتز أكثر من الصحف المسائية ، والسبب أن صحف الصباح توزع فى اليوم نفسه بينما الصحف المسائية لا تصل أحيانا إلا فى اليوم التالى ، وعدت لمراسلة الصحف الصباحية .

وفى طريق البحث عن وسيلة لزيادة ما انشره من مادة ، طلبت من والدى فى الربيع التالى أن يصحبنى لزيارة عدد من مدراء التحرير فى الولاية ، ووافق أن يصطحبنى الى "ماكون" وقطعنا رحلة المائة ميل بعربتنا الفورد القديمة على طرق ترابية ، تاركين البيت فى السادسة صباحا ، وبعد عدد من الأعطال والتوقف عدة مرات لتنظيف شمعات الاشعال ، وصلنا "ماكون" فى الثانية بعد الظهر ، لم يكن لدى أدنى فكرة عما سأقوله لمحرر الأخبار ، وفى الوقت الذى كنا ندخل فيه مكتب جريدة التلجراف تمنيت لو أنى لم أقم بهذه المحاولة .

كان "مارك اتروج" هو مدير تحرير التلجراف وهو أول صحفى أصيل أقابله ، كنت مبهورا جدا بالموقف ، بحيث أنى لم أفعل أكثر من هز رأسى عدة مرات حينما يوجه الىّ الحديث .

تحدث أبى معه لمدة ساعة تقريبا ، حديثا يدور معظمه حول الأمور السياسية فى جورجيا ، وفى النهاية ونحن نتصافح

ونستعد للمغادرة تحدث أبى عنى ، وأشار إلىّ أنى أراسل صحيفة التلجراف من ريتز منذ عدة شهور .

قال مارك أنه قرأ بعض ما ارسلته ، ثم أضاف باتسامة أن مكتب الادارة يعتبر بلدتنا خارج توزيع منطقة التلجراف الأساسية وربما خارج منطقة التوزيع الثانوية وأنه يشك فى أن يكون هناك اثنا عشر مشتركا فى الصحيفة فى مقاطعة جيفرسون بأسرها .

ولا أعرف ما الذى دفعنى أن أقترح القيام بتوزيع جريدة التلجراف فى ريتز فيما لو عينت مراسلاً إخبارياً لها ، ربما لأننى أريد أن أقيم علاقة ما مع جريدة . لقد قمت بتوزيع الجرائد حينما كنت صغيرا .

وضحك مارك وهو يهز رأسه : إنك لا تريد حقيقة أن تسرح لتبيع الجرائد .. هل تريد ذلك يا ارسكين ؟
قلت : أفضل أن أكتب لها .

قال بجد : اعتقد ذلك . أنت تحاول جادا نشر شىء فى التلجراف . سأخبرك بما يمكنك عمله . عد الى ريتز واكتب عما تراه يحدث ، لا تأخذ كلمة أى شخص حول أى موضوع ، انظره بنفسك أو لا تصدقه ، هناك دائما شىء ما يمكنك أن تكتب عنه آجلا أو عاجلا فى أى مدينة ، واذا استطعت أن تجعله يبدو طريفا فسيطبع ، لا تقلق من أجل ذلك ، كل ما فى الأمر أن تكتب عما ترى . ذلك هو الأجدى . حظ سعيد .

بعد مغادرتنا ، ذهبنا إلى شارع شيرى ، وتوقفنا عند مطعم صفير حيث تناولنا شرائح اللحم والبطاطا وفطيرة التفاح ، وبقيت اشعر بالجوع حتى بعد أن أكلت ، واشترى أبى دستة من لفائف القرفة لنأكلها فى طريق عودتنا الطويلة المتربة ، اذكر ذلك اليوم جيدا ، لأن أبى كلما اشترى لفائف القرفة بعد ذلك كان يدعوها أطفال السكر .

٤

فى اوائل سنة ١٩١٩ بدأت أقوم برحلات فى السيارة داخل الريف مع أحد الأطباء المحليين ، الذى يتوزع مرضاه مسافة أميال على طول النهيرات وجوانب التلال فى أجزاء من مقاطعات جيفرسون وبيرك وجلاسكوك .

لم اكن أتلقى أجرا على قيادتى العربة والقيام ببعض الاصلاحات الثانوية بها ، كما أننى لم أتوقع أن أتلقى ، كنت شغوفا بالتعرف على طبيعة حياة الناس فى الريف وكنت سعيدا أن تتاح لى هذه الفرصة أحيانا يظل الطبيب مستيقظا طوال الليل ، وينام باستغراق أثناء ترقيع إطار داخلى أو الانتقال من بيت مريض لآخر . وكان لا يفرق فى المعاملة بين من يستطيع الدفع لقاء خدماته ومن لا يستطيع ، وغالبا ما يزود المريض بالدواء الضرورى وأحيانا حين تكون ظروف المريض صعبة كنت أراه يترك دولارا أو اثنين على الكرسى أو المائدة .

بعد ذلك بدأت أقوم برحلات ريفية مع مخمن ضرائب المقاطعة الذى كان يربط بذكاء بين عدالة التخمين والاصلاح السياسى . وتعلمت سريعا كيفية التنبؤ ببعض الدقة فيما اذا كنا سندعى لوجبة غداء أم لا ، فإذا شعر الفلاح أن تسوية ضرائبه كانت مناسبة ، أكون آنذاك متأكدا أنه سيتمسك بنا

على الغداء وإلا فإننا نسير إلى أى مطعم قريب وسط تمتمات المخمن عن بخل الناس .

أخذنى أبى معه ذلك الصيف حين زار أعضاء كنيسته فى الريف ، ولم يكن أعضاء الكنيسة وحدهم الذين قمنا بزيارتهم بل زرنا عددا ممن لا يذهبون إلى الكنيسة ايضا ، ويبدو ، فى معظم الأحيان ، أن هناك نمطا عاما من الحياة فى الريف الكبيز المزروع قطنا . لقد زرع التبغ بكميات كبيرة فى هذه التربة الرملية الطينية نفسها منذ سنوات ، ومازالت عدة طرق عريضة ومستوية ومهجورة والتى تكونت بسبب دحرجة براميل التبغ المنقى من المزارع الى نهر سافانا . يمكن رؤيتها على ذرى التلال ، ومعظم ملاك الأرض فى المدن يعيشون فى راحة نسبية بينما كان الفقر يحيط الريف كله ، والأختلاف الوحيد كان فى درجة هذا الفقر فقط وأحيانا توجد اشارات وشواهد لبؤس اكبر ، لم يكن أبى يستطيع السكوت دون التعليق عليه ، كان يوقف العربة بجانب الطريق التى تحف به الأعشاب ويحملق عبر حقول القطن الى الغرفة أو الغرفتين المتهدمتين للبيت الذى غادرناه لتونا ، معظم الأسقف من الصفيح والأثاث عبارة عن سرير وعدة حشيات على الأرض وبعض كراسى من مصاصة القصب .

ويقول أبى بحزن : ذلك الرجل البائس لم تتح له فرصة ليخرج عن فاقته أنه أسوأ من ضفدع طين فى جحْر ، إنه لمن العار أن يعيش الآدميون بذلك الشكل ، كل هؤلاء الأطفال ماذا سيصبحون حين يكبرون ؟ ضفادع طينية فى جحور .

لم يكن هناك جواب على ذلك ، لأن كلانا لا يعرف الحل . ونسير بعد برهة عبر الطريق الطينى القذر فى صمت تحت حرارة بعد الظهيرة الى العائلة المستأجرة التالية التى سنزورها .

نحن أنفسنا لم نكن نعتبر أثرياء أو معتدلى الحال ، لكن معظم الناس الذين رأيتهم كان مستواهم الإقتصادى أقل منا بكثير ، كان مرتب أبى كقس ٤٠٠ دولار فى العام ، وحتى حينما عمل فى التعليم ليزيد دخله لم يتلق ابدا أكثر من ٢٠٠٠ دولار فى السنة طوال حياته . ومع ذلك كانت هناك عادة كنسية تساعد فى زيادة الدخل ، فلسنوات كثيرة كان بيت القس يزود بمساعدات أولية فى شكل منتجات زراعية . هذه العادة تسمى "الترطيل" من الرطل ، وكانت توجب على اكثر رعايا الكنيسة ثراء أن يحضروا رطلا واحدا أو عدة أرطال من اللحم والدقيق والسكر أو أى سلعة رئيسية الى بيت القس عدة مرات فى السنة . لم نكن أبدا جوعى لكن غالبا لم أكن أحصل على ما أحب أن آكله ، وبدون شك كان الكثيرون حولنا يجوعون سنة وراء أخرى . ولا أذكر مناسبة واحدة لم يطلب من أبى الطعام عبر رحلاته فى الزيف ، وكان من عادته ، حتى حينما تقول امى انه ليس هناك ما يكفى ثلاثتنا ، أن يحمل زكيبة من البطاطس او البرغل أو البسلة او الدقيق فى العربة اينما ذهب ، وكانت أمى تضيف احيانا حقيبة صغيرة من الحلوى للعجائز والأطفال .

٥

في سبتمبر ، وقبل ثلاثة أشهر من عيد ميلادى السابع عشر ، ذهبت الى الكلية ، كنت آسفا للتخلى عن طموحى فى كتابة أخبار مقبولة كمراسل للصحف في ماكون واوجستا . ولكنى بدأت أشعر بالآفاق المحدودة لشرق جورجيا ، وأردت أن أعرف أكثر عما وراء هذا العالم .

التحقت بالصف الأول فى كلية ارسكين فى ساوث كارولينا ، وهى مؤسسة تعولها الكنيسة البرستبارية ، ولقد تخرج أبى هناك من كل من الكلية والمعهد الدينى ، وكانت المصاريف قليلة بحيث أنه شعر أن باستطاعته تحمل اقتراض النقود ليرسلنى هناك . كانت تجربتى الأولى أن أكون بعيدا عن البيت وأحببت الحرية النسبية لحياة الكلية .. لكن ما ضايقنى هو تكريس وقت كبير للتعلم وحيدا داخل المساحة المحدودة للحرم الجامعى ، بعد عدة أسابيع من القلق اعتدت قضاء عطلة نهاية الأسبوع فى مكان آخر قدر استطاعتى ، ووجدت أن أرخص وسيلة للابتعاد هى تسلق ظهر قطار شحن مساء الجمعة أو السبت واذهب إلى المكان الذي يصل اليه القطار فى الصباح لقد ذهبت الى بلدان عدة ، وكنت أعود الى ديوديست على ظهر قطار الشحن مساء الأحد أو مبكرا صباح الاثنين .

ولأني طالب مستجد فقد زودوني التلاميذ القدامى بالقواعد والتعليمات التي يجب اتباعها وتنفيذها . كان هناك ثلاثة اوامر تركت الانطباع الأعمق في نفسي ، اولاها وجوب تكوين فريق كرة قدم من الطلبة المستجدين وإلا فإن العواقب ستكون وخيمة . ثم أن أقوم بتهريب ثلاث وجبات يوميا من صالة الطعام الى لاعبي بوكر في لعبة تجرى دون توقف تقريبا منذ بداية الدراسة وحتى أعياد الميلاد ، ثم من العودة إلى الدراسة في يناير وحتى حفل توزيع الشهادات في يونيو ، وأخيرا أن أبحث عن وادعو واقدم شخصيا فتاة بين السابعة عشرة والعشرين من خارج المدينة في كل حفل رياضي ناجح في الحرم الجامعي .

أحببت كرة القدم ، ولم أمانع في حمل الطعام الى لاعبي البوكر ، ولقد تعرفت الى عدد من فتيات ساوث كارولينا ذلك العام ، فلم تكن هناك مشكلة في حضور فتاة مختلفة عند كل احتفال . ولكن مع واجبات شاقة كهذه وجدت فرصة ضئيلة للمذاكرة .. وكانت درجاتي في نهاية سنتي الأولى منخفضة لدرجة أدهشتني أنا نفسي واشترطت سلطات الجامعة انه سيسمح لي بالالتحاق بالسنة الثانية إذا وافقت على الاشتراك بالكامل في نشاطات مدرسية معينة .

حين إنتهت الدراسة في أوائل يونيه ، ذهبت إلى بلدة صغيرة تبعد خمسين ميلا عن شاتونوجا ، في ولاية تنيسي ، كان اسم البلدة كالهون في ولاية جورجيا حيث حصلت على عمل كمساعد بناء ، لم يكن غيرنا ـ أنا والبنّاء ـ يعمل في

المشروع وهو إنشاء كنيسة من حجر الجرانيت اكتشفت على الفور أن هذا أشق عمل قمت به .. فى نهاية الصيف كانت الجدران الجرانيتية تنتصب عاليا بمستوى السقف . كنت فى حالة صحية جيدة تلائم كرة القدم ، وعدت الى الكلية لأكوّن منتخب الجامعة بعد أسبوع من التمرين .

حين انتهى فصل كرة القدم فى نوفمبر ، أضحيت قلقا بدون النشاط الجسدى العنيف الذى اعتدت عليه خلال الصيف وما بعده ، اثر عودتى الى الجامعة وبعد اجازة اعياد الميلاد بفترة قصيرة قررت أن انطلق الى العالم . واخترت نيواورليانز كمكان أذهب إليه وذلك لسببين : أولهما أنى لم أذهب إلى هناك من قبل ، ثم أنى وفرت نقودا كافية تقودنى الى ذلك البعد .

بدأت أقلل وجباتى يوما بعد يوم لمدة أسبوعين . وحيث فشلت فى الحصول على عمل على ظهر سفينة كعامل شحن . ذهبت إلى بوجولوسا فى ولاية لويزيانا بحثا عن عمل . كانت البلدة على شاطىء نهر بيرل وكان بها ورشة كبيرة لنشر الخشب . كانت البلدة كغيرها فى تلك المنطقة ذلك الوقت مقرا لاضطرابات عمالية ، وكانت هناك يافطة كبيرة على طريق السكة الحديدية تطلب من العمال ومحرضيهم الذهاب الى مكان آخر او التعرض للاعتقال .

هذا التحذير العام لم يعن شيئا بالنسبة لى ، وكنت متأكدا بأنى سأحصل على عمل فى بوجولوسا . فى الساعة السادسة

صباحا كنت على باب مكتب العمل فى منشرة الخشب . وتكرر ذلك لمدة ستة أيام ووزنى ينقص بسرعة ، فى نهاية موسم الكرة كنت أزن ١٧٧ رطلا والآن وصل وزنى إلى ١٣٤ رطلا ، وحتى لو حصلت على عمل فى الورشة فلن استمر لفترة معقولة .

وجدت نفسى مقادا تحت الحراسة من رجلين صامتين ، لم اعرف السبب وفكرت ربما لأننى لم أدفع أجرة غرفتى لمدة أسبوع ، وفى خلال دقائق قليلة وجدت نفسى أقول اسمى وسنى الى شخص يجلس الى مكتب حجز ثم وجدت نفسى فى إحدى زنزانات سجن المدينة ، عالية السقف ، بعد ذلك ، حين أتيح لى وقت لأفكر فيما حدث . تذكرت أن الضابط فى غرفة الحجز أشار بملاحظة عابرة الى أن عمال العالم يضمون اليهم عمالا صغارا لم يرتدوا بعد سراويل طويلة .

كانوا يزودوننى بالطعام مرتين فى اليوم ، يأتى به حارس زنجى فى منتصف العمر يدفع بالوعاء عبر القضبان بلا تعليق . وكلما مر بى ناديته وسألته :

- لماذا يسجنوننى ؟

وكان يجيب بسرعة فى كل مرة :

- عليك بسؤال البيض .. فهم لايخبروننى بشىء ، أنا لا أعرف شيئا .

أنا أعرف شعورك لأنى أحس وكأنى مسجون هنا طول حياتى .

كما كان من العبث محاولة جذب انتباه أحد من الغرفة

الأمامية فى السجن لسؤاله عن سبب سجنى ومتى سيطلق سراحى ، وكان منْ عادة السجان أن يخبط بشدة الباب الحديدى حين يزعجه أحد فى الزنزانة .

بعد ثلاثة أيام بلياليها بدأت أعتقد أنى لن أخرج أبدا ، أعطانى شاب فى العشرين من العمر يقيم فى الزنزانة المجاورة ، مظروفا ، وحصلت على ورقة وقلم من شخص آخر .. وكتبت خطابا لوالدى أخبره فيه بمكانى وتوقى للخروج والعودة الى البيت ، كان معى خمسة سنتات من أجل طابع البريد ، نصحت ألا أعطيها للسجان إذا أردت أن يصل الخطاب ، وكان الزنجى خائنا أن يقوم بالعمل .

تسلقت الى أعلى الزنزانة وتعلقت بقضبان النافذة الوحيدة الصغيرة وانتظرت أن يمر أحد فى الخارج ، لم يكن هناك شارع فى تلك الناحية فى السجن ، قطعة أرض خراب تغطيها الأعشاب ونادرا ما يمر شخص هناك قبل الغروب بقليل رأيت صبيا زنجيا صغيرا يلعب فى الجانب الآخر فى قطعة الأرض ، ناديته عدة مرات قبل أن يغامر بالاقتراب من السجن .

كان الولد وهو فى حوالى الثامنة او التاسعة من العمر ، واجفا من أى شخص يناديه من نافذة السجن . وكان علىّ أن أقنعه بأنه لن يقع فى اية متاعب إذا انصت لما اريده منه .. وأخيرا وعدنى بصدق أن يشترى طابع بريد ويرسل الخطاب .. أعطيته النقود وقلت له أن الباقى له وأيضا "أبزيم حزامى" المطلى بالفضة الذى حصلت عليه من الكلية . جرى

الولد فى الظلام بعد ذلك واستلقيت مستيقظا طوال الليل اصلى صامتا لعل الرسالة أن ترسل .

عند حلول ظلام اليوم الرابع جاء رجل طويل مع السجان الى الزنزانة ، قال أنه سكرتير جمعية الشبان المسيحيين ، وأخبرنى أنه سيطلق سراحى فورا ، فى دقائق معدودة كنا نركب عربة الى مبنى جمعية الشبان المسيحيين ، كانت هناك وجبة على المائدة ، وبعض الملابس النظيفة لألبسها .

بعد حمام ساخن ، ارتديت الملابس النظيفة وأجهزت على الطعام . أثناء تناولى الطعام أخبرنى سكرتير الجمعية أن أبى قد تسلم خطابى وأنه قد أرسل لى اجرة عودتى بالقطار برقيا ، وأضاف أن القطار سيغادر بعد حوالى ٤٥ دقيقة .

كنت أول مسافر يركب القطار عند وصوله المحطة ، وكان آخر شىء رأيته فى بوجولوسا اللوحة المضيئة وعليها التحذير .

وصلت البيت فى أصيل اليوم التالى ، حين نزلت من القطار . وجدت أبى فى انتظارى ، صافحنى مبتسما دون أن يبدو عليه الضيق ، كنت سعيدا برؤيته ، واستطيع أن أذكر شيئا واحدا قاله ونحن على الطريق الرملى المشجر من الجانبين فى اتجاه منزلنا .

ـ ما رأيك فى لويزيانا يابنى ؟ لا يوجد مكان مثل مكاننا هذا فى كل الولايات . أليس كذلك ؟

٦

فى ابريل ، أخرجت آلتى الكاتبة من الدولاب ، وبدأت أكتب وأرسل مقالات إخبارية الى الجرائد الصباحية فى ماكون واوجستا واطلانطا . ووجدت أن ما ارسله متعلقا بالمواليد والوفيات والأحداث ينشر بشكل أكبر واسرع مما كان يحدث فى السنوات السابقة ، ولكنى ادركت أنى أفتقد حياة الكلية ورغبت فى العودة اليها .

ولقد كان مفهوما بلا نقاش ، أن والدى لا يستطيعان أن ينفقا على دراستى فى جامعة جورجيا ، ومع ذلك لم أكن أقنع بأقل من فرصة تقدمها جامعة كبيرة بدأت ابحث وأسعى للحصول على ما أريد ، وبعد دراسة عدد كبير من الكاتالوجات والنشرات وبتشجيع من والدتى قررت أن التحق بجامعة فرجينيا . ولقد كانت صدمة حقيقية أن أعلم أن الرسوم السنوية لما هو ليس من مقاطعة فرجينيا تتجاوز عدة مئات من الدولارات ، كما أن أجرة أرخص غرفة أمكننى الحصول عليها هناك كانت ضعف ما كنت أدفعه فى ديوديست ، مصاريف التعليم والمصروفات اللازمة للالتحاق بالجامعة كانت تقريبا ١٢٠٠ دولار سنويا ، قال والدى أنه يمكنه توفير ثلث هذا المبلغ ، كان سجلى التعليمى لايمكننى من الحصول على منحة تعليمية . لكنى اكتشفت أن هناك نوعا آخر من المنح

الدراسية يمكن الحصول عليه وبمواصفات لا تلقى اعتبارا كبيرا للدرجات وتغطى التعليم كاملا ، كانت المنحة تقدم من اتحاد بنات الولايات - الولايات التى انفصلت عن امريكا وتسببت فى الحرب الأهلية - الى الطالب الذى يقيم فى جورجيا . ويثبت أنه من أب وأم لجندى من جنود الاتحاد اشترك فى الحرب بين الولايات ، والمنحة لم تمنح لسنوات عديدة ولكنى لم أتردد فى إحياء الموضوع ، وأظن أن الاتحاد سيدهش إذا علم أن المنحة مازالت يمكن أن تقدم واستطعت أن أثبت أحقيتى وحصلت على المنحة .

دخلت جامعة فرجينيا فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ ، وفى خلال وقت قصير حصلت على عمل ، من الساعة السادسة مساء وحتى منتصف الليل كموظف يتلقى النقود لدخول قاعة سياحة قرب الحرم الجامعى . ساعدتنى الدولارات الستة التى اتلقاها كأجر اسبوعى مع النقود التى يزودنى بها أبى على دفع أجرة غرفتى وثمن الطعام والكتب والملابس .

أكثر الموضوعات التى أثارت انتباهى فى فرجينيا كانت اللغة الانجليزية وعلم الاجتماع . وبعد زيارات عدة الى مستشفيات الولاية ومنازل المسنين فى المقاطعة ومؤسسات مشابهة ، بدأت أكتب عما أراه : فى البداية كتبت تقاريرا واقعية جدا تشبه التحقيقات التى كنت أرسلها الى الصحف ، ولكن بالتدريج بدأت استخدم المادة نفسها كوحى لكتابة اسكتشات وقصص قصيرة . بعد ذلك اهتممت اكثر بالتعبير عن انطباعاتى الشخصية بدلا من انشاء موضوعات كتلك التى

عينتها مناهج اللغة مثل "ماذا يعنى وردثوردلى أو الانسانية كما جاءت فى شعر شعراء البحيرة" .

أصبحت الكتابة تستغرقنى ، وبدأت أجرب أشكالا عدة منها وبدأت أكتب مقالات هزلية ، معظمها تنويعا على "هو وهى" الى مجلة "فرجينياريل" مجلة الجامعة الفكاهية ، وأمضى ادوارد ثيتينوس ، الذى كان فى مجلس ادارة تحرير المجلة ، وقتا طويلا فى مناقشة حول مايمكن تسميته بالفكاهة الراقية ، وربما لأن ارثر هوكنز كان يرسم للمجلة فقد أصر على أن تحتل الرسوم الفكاهية أكثر من نصف المجلة ، واستمرت المطبوعة تظهر وهى تحتوى من المساحة الفنية ضعف ما هو مخصص للمادة الأدبية ، وما لم استطع نشره فى المجلة كنت ارسله الى مجلات فكاهية لها توزيع على مستوى الولايات ، وكانت تنشر فى معظم الأحيان ، أما المكافأة التى كنت أتلقاها فكانت عادة دولارا واحدا عن كل فكاهة تنشر .

طلاب عديدون فى الكلية ، كانوا يؤلفون كتبا . لكنى ترددت فى المحاولة ، أحد الطلبة كتب رواية وآخر ديوان شعر ، أحد الطلبة وكان يدعى "جوردون لويس" ويملك مكتبة قرب حرم الجامعة شجعنى بقوله أنه على استعداد لنشر كتاب لى ، إذا كان هذا الكتاب جديرا بالنشر ويعد بتوزيع معقول .

ولرغبتى فى تعلم كتابة الرواية ـ لكى أطبعها عند جوردون أو أى ناشر آخر ـ بدأت أغير فى المناهج التى أدرسها وأترك الجامعة فترات طويلة فى بحثى عن طريق للكتابة .

عرفت كيف أريد أن أكتب ، وماذا اريد أن أكتب ، أردت أن أكتب عن الناس الذين أعرفهم كما يعيشون ويتحركون ويتحدثون فى الواقع .

وخلال السنوات الأربع التى قضيتها فى الجامعة ، منتظما ومنقطعا ، عملت موزعا للبن لفترة فى واشنطن ، وقضيت عدة اشهر أعمل فى محل لبيع عصير البرتقال فى فيلادلفيا ، ومدة اربع اشهر موظفا أحرس معدات وأدوات مختلفة من اوان زجاجية وفخارية فى بدروم مخزن فى بنسلفانيا .

وأخيرا ، فى ربيع سنة ١٩٢٥ شعرت أنى لم أعد استطيع الانتظار لبدء العمل جديا فيما أردت أن أكرس له حياتى . كان عمرى ٢١ سنة ومازالت هناك سنتان لتخرجى ، تركت "شارلوتزفيل" وسافرت الى جورجيا وقدمت طلبا للعمل فى صحيفة "اطلانطا" . لم يكن لدى الطموح لأتخذ من الصحافة حرفة حياتى ، لكن العمل فى الصحيفة هو الكتابة ، وذلك ما أردت أن أتعلمه .

لم يكن "هنتربل" المسئول عن الصحيفة متحمسا لتوظيف اى خريج حديث من الكلية ، لكنه وافق على تعيينى كمحرر تحت التمرين بمرتب عشرين دولارا فى الأسبوع .

شكرته بحرارة لاعطائى هذا العمل واخبرته أنى سأحضر بعد ثلاثة أو أربعة أيام لأبدأ العمل .

كنت قد عبرت منتصف الغرفة فى طريقى للخروج حينما صاح بى :

ـ هاى .. تعال هنا .. ما هذا الذى تقوله عن بدء العمل بعد ثلاثة أو أربعة أيام ؟

أخبرته أنى أود أن أعود لأحزم حاجاتى وأحضرها الى اطلانطا .

ـ سأل باهتمام : أى حاجات .

ـ حسنا . بعض الكتب وقليل من ..

ـ كتب ! لو عرفت أنك تهتم بهذه الكتب المحشوة بالسجق أكثر من اهتمامك بالصحافة لما استخدمتك . اعتقد أنى سأرجع فى كلامى .. أنا أريد محررا لا دودة كتب .

قلت بصوت صاغر : وهو كذلك يامستر بل . سأمكث وأذهب الى العمل حالا .

ـ ذلك أصوب يا كالدويل .. ابحث عن آلة كاتبة واتصل بكل الحانوتية فى البلدة واحضر بعض التأبينات .

٧

كان هناك الكثير لأتعلمه وما لا أتعلمه ايضا عن كتابة قصة خبرية بسيطة . كان عليّ أولا أن أنحى جانبا الكتابة التى تهتم بالكلمة والتى تعودتها أثناء عملى كمراسل منذ عدة سنوات . ثم كان عليّ أن أكتسب المهارة فى كتابة ما يعتبره هنتربل مقالة خبرية مقروءة .

كان المحرر المسئول عن الحوادث يبدأ القراءة بأن يحرك بسرعة قلما من الرصاص مبرى جيدا على ٣٠٠ أو ٤٠٠ كلمة تكون قصة حريق أو حادثة ، حتى لا يبقى أكثر من ١٢ سطرا . ثم يعيدها لى قائلا أنه يمكن أن يقبلها إذا أعدت صياغتها فقط فى نصف حجمها .

كان هذا منهجا واقعيا وعمليا فى الكتابة ، يختلف تماما عن أى شىء تعلمته فى مناهج اللغة ، ومنذ ذلك الحين كنت سعيدا بأن شيئا ما قد دفعنى أن أذهب للعمل فى الصحافة .

أحد أول المهام الاخبارية لى فى جريدة اطلانطا ـ عدا الاتصال بالمشارح وكتابة عمود من النعى يوميا لمدة سنة ـ كان ذهابى الى فندق رخيص فى المدينة لاكتشاف كيفية موت أحد الأشخاص هناك . حين وصلت الى العنوان فى شارع ماريانا كان البوليس يجرى تحقيقاته ، وكانت المعلومة

الوحيدة لدى البوليس هى اسم الرجل الذى سجله فى الفندق الليلة السابقة ، وقرر البوليس أن الاسم زائف ، وأمر بأن تنقل الجثة وهى لعامل كما يتضح من لباسه ، وكان قد مات بطلقة من مسدس ، الى المشرحة وأغلقت القضية .

بعد أن غادر البوليس الموقع ، سألت موظف الفندق إذا كان يعرف سببا لانتحار الرجل .. كان لدى الموظف فكرة محددة . قال : أليس الوقت صباح الأثنين .. ألا تدرى ماذا يحدث عادة فى يوم العودة الى العمل ؟ سأخبرك .. ذلك الرفيق الذى حملوه من هنا شعر كما يشعر كل الفقراء حين يستيقظون مفلسين صباح الأثنين وقد انفقوا كل ما قبضوه فى الأسبوع السابق ، لقد قرر أنه قد شبع من كل ذلك . إنه الاثنين الحزين ياصديقى ، وذلك هو الوقت الذى يسحبون فيه مسدسهم الصغير القديم وينسفون أنفسهم مغادرين إلى العالم الآخر .

سألته : هل حدث مثل هذا فى الفندق من قبل ؟

قال : هل حدث ؟ أعمل هنا منذ سنتين وغالبا ما يحدث مثل هذا الأمر حتى إنى أكره أن أستيقظ صباح الأثنين حتى لا أرى ما فعله هذا اليوم بشخص ما . ستجدنى فى يوم ما قد تركت العمل هنا وعدت إلى جنوب جورجيا حيث الناس هناك لايعرفون ماهو الأثنين الأسود .

عدت إلى مكتبى فى الجريدة ، وبدأت أكتب عن رجل بائس مفلس فى اواسط العمر شعر بأن الحياة تعامله بقسوة ، ففقد

غريب فى أن يستمر كمخلوق فى عالم قاسى القلب بلا مشاعر أو عاطفة .

بعد ساعتين أو أكثر كنت قد كتبت عدة صفحات . عند الظهر خرج هنتر للغداء . في طريق خروجه توقف وقرأ ماكتبته . حينما انتهى اشعل سيجارا . وقال : ربما لاتعرف ياارسكين أن طبعة الظهر فى الشارع الآن . وأن الطبعة الأخيرة ستظهر خلال ساعات قليلة ، ومن المخجل أن تؤخر الصحيفة بسبب الحادثة التى ارسلتك لتحصل على تفاصيلها فى التاسعة صباحا . لقد قررت أن أخرج بعد ظهر هذا اليوم لأذهب إلى حديقة جرانت وأجدف قليلا فى مركب ، تلك هى المتعة الوحيدة التي أحصل عليها فى حياتى وأنا متأكد أنى أكره أن أفقدها .

حاولت أن أوضح له أنى استغرقت كل الوقت فى كتابة قصة ذلك الرجل الذى قتل نفسه فى الفندق قائلا :

ـ إنها قصة كبيرة ياهنتر . هذا الرجل اطلق الرصاص على نفسه بسبب الأثنين الأسود .

ـ ياه .. وماذا تفعل ؟ تكتب ترجمة لحياته ؟

ـ لكنها قصة جيدة . هاهو رجل عادى مثلى ومثلك استيقظ هذا الصباح وقتل نفسه بسبب الأثنين الأسود .

قال وهو يومىء ببطء : ماذا سيكون لون يوم الثلاثاء بالنسبة لى إذا فصلنى مدير الادارة لأنى لم أوزع هذه الصحيفة فى الشارع فى موعدها .. لأننى أخرتها منتظرا لتكتب قصة .

أمسك التليفون واتصل بادارة البوليس .. بعد دميه وضع السماعة وصاح : لا اسم لاعنوان لاقصة .

وأنتزع الورقة من الالة الكاتبة والقاها فى سلة المهملات .
والآن اكتب نصف عمود عن رجل مجهول وجده البوليس منتحرا فى غرفة فندق فى شارع مارياتا هذا الصباح ، ذلك كل شيء .

حينما اريد قصة عاطفية فسأرسل ميجى ميتشل لكتابتها .
كانت مارجريت ميتشل فى ذلك الوقت كاتبة متميزة بين محررى عدد الأحد من المجلة وكان مكتبها يقع فى دور آخر من المبنى . واستخدم هنتر وسائل مختلفة فى محاولة لاقناع ميجى أن تكتب قصصا خاصة له ، ورغم أنه نادرا ما نجح فإنه رفض التوقف عن المحاولة ، فهو يعتبرها أفضل كاتبة للقصص المتعلقة بالاهتمامات الانسانية فى الصحيفة .

. وأخبرنى فرانك دانيال وهو صحفى يقع مكتبه بجانب مكتبى أن مارجريت ستستقيل وتترك العمل الصحفى لتتفرغ لكتابة رواية وهى تخطط لذلك منذ سنوات .

ورفض هنتر أن يصدق ذلك ، حتى جاء صباح ولم تحضر .
كل ما علق به آنذاك أن كتابة الكتب وظيفة كالرقص على السلم ، وآمل ألا يقع أحد آخر من محررى الجريدة فى هذه الغلطة .

وحتى لو كانت مارجريت لاتملك شخصية مبهرة ولاطريقة

فى الحديث جذابة ولاشكل خلاب لظللت متأثرا بها . أكبرتها لأنها تملك الثقة الكاملة فى نفسها لترك عملها لتكتب كتابا ، وتساءلت فيما إذا كنت قادرا على إتخاذ قرار مشابه .

لم أبد لهنتر شيئا عن طموحي لكتابة كتاب ، لأنى أعرف رد فعله ، ومع ذلك كنت أفكر فى الأمر أكثر وأكثر طوال الوقت . على اية حال استقالت مارجريت ميتشل ، وبعد عشر سنوات من العمل نشرت روايتها "ذهب مع الريح" سنة ١٩٣٦ .

فى ذلك الوقت ، خريف وشتاء ١٩٢٦/٢٥ ، اتيحت لى الفرصة أن ألاحظ ، نوعا ما عن قرب ، التقدم اليومى لكاتبة انهمكت بنشاط فى مهنة الكتابة الروائية ، كنت قد تأثرت بشدة بكتاب " تغيرات القصة القصيرة " الذى نشرته فرانسيس نيومان فى السنة الماضية ، والآن يحضر فرانك دانيال كل يوم تقريبا ولمدة عدة اشهر نسخة من صفحة من الرواية التى تعمل بها الى الجريدة ، وقد كان صديقا مقربا لها . كل صفحة كانت جهد يوم كامل فى روايتها :
The hard Boiled vir gin
وكانت الصفحة مطبوعة بعناية شديدة دون تصويبات ، تبدو وكأنها كتبت بسهولة ودون مراجعة شاقة ، ولكن فرانك أكد لى أنها النتيجة النهائية لعمل يوم كامل من اعادة واعادة الكتابة .

كنت أعود الى البيت مساء واكتب قصصا قصيرة وارسلها بالبريد الى محررى المجلات بنيويورك ، كانت تعاد اليّ عادة بلا تعليق وبسرعة ملحوظة بغض النظر عن المرات التى أعدت

فيها كتابتها ، تسلمت قصاصات رفض عديدة متنوعة ، وطريفة حتى أنى بدأت أكون مجموعة منها احتفظ بها ملصقة فى البوم جمع الطوابع . العزاء الوحيد الذى خرجت به منهم ، ولسنوات عدة ، هو تخيل كمية النيران التى يمكن أن تصدر عنهم حين أحرقهم فى الوقت الذى تقبل فيه أول قصة قصيرة لى وتنشر فى مجلة .

٨

قبل نهاية سنة ١٩٢٥ كتبت الى عدد من الجرائد فى الاياما وجورجيا وكارولينا اعرض عليهم كتابة مراجعات لصفحة الكتب لديهم ، طلب واحد لقى الموافقة وكان ذلك فى خطاب سريع متحمس من كوراهاريس محررة صفحة كتب يوم الأحد فى جريدة شارلوت اوبزرفر .. قالت كورا أنها تبحث منذ فترة طويلة عمن يساعدها فى مراجعاتها للكتب ، وأنه يسعدها أن ترسل لى بعض الكتب لكتابة تعليق عليها ، وأنها أرسلت دستة منها فى البريد فى اليوم نفسه . وعبرت عن اسفها أنها لاتستطيع أن تدفع مقابل هذه المراجعة ولكن يمكننى الاحتفاظ بالكتب بعد كتابة التعليق عليها .

كنت أعانى بعض المتاعب المالية لدفع الأجرة وأشياء أخرى وكنت أمل فى كسب بضعة دولارات اسبوعيا إضافة الى مرتبى . وأخبرنى فرانك دانيال أنه يمكننى بيع بعض الكتب التى اراجعها خاصة تلك التى لا احتاج اليها .. ووافقت على المساهمة فى مراجعة الكتب فى جريدة الاوبزرفر . وفى فترة قصيرة كنت أكتب تعليقا حول دستة من الكتب اسبوعيا ووجدت أنى كلما راجعت عددا أكبر من الكتب أرسلت لى الصحيفة كمية أكبر . بعت عددا من القصص البوليسية والروايات الغامضة الى مكتبة تشترى الكتب القديمة بربع دولار للكتاب ، لكنى احتفظت بالقسم الأكبر من الكتب .

بعد حوالى ثلاثة أو أربعة أشهر كان لدى بضع مئات من الروايات وكتب الشعر والتراجم والمختارات وكتب فى جميع الموضوعات المعروفة .

وكان من دواعي سعادتي أني تسلمت خطابا فى اوائل سنة ١٩٢٦ من كورا هاريس تخبرنى فيه أن مراجعاتي تنشر كل أحد ايضا فى جريدة هاوستون بوست بالاضافة إلى شارلوت اوبزرفر ، وتخبرنى أن أتوقع استلام كتب أكثر لمراجعتها فى المستقبل . وانتابنى شعور بأنه مادامت مراجعاتي تنشر فى أكثر من صحيفة فمن المؤكد أن أتسلم مكافأة عنها يوما ما .

وبدأت الكتب تصلنى عدة مرات اسبوعيا ، وإمتلأت غرفتى حتى السقف بها ، ومع توقعي وأملى فى اليوم الذى استلم فيه ولو مكافأة رمزية عن مراجعاتي ، بدأت أقرأ بسرعة أكبر من ذى قبل ، أو أدقق تماما فيما كتب على ظهر الغلاف ، واكتب ملاحظات مختصرة . ومع ذلك لم يصلنى أى مبلغ .

ولأنى أكتب الكثير من التعليقات حول الكتب ، فإن كتابة تعليقين آخرين أو ثلاثة لن تسبب لى جهداً كبيرا ، وهكذا بدأت أكتب تعليقات فى صفحة الكتب يوم الأحد للجريدة التى أعمل بها .. ودفعوا لى مقابل ذلك دولارين أسبوعيا .

بعد ستة أشهر ، رفع هنتر بل أجرى الأسبوعى خمسة دولارات ، كما أصبحت مشتركا فى رابطة المحررين المحلية وبذلك ارتفع مرتبى الأسبوعى إلى خمسة وعشرين دولارا .

اختبار اشتراكى فى الرابطة كان كابوسا رهيبا ، تضمن

انتفاضة رهيبة لمجندين ضد السلطة فى قلعة ماكفرسون وهى قاعدة عسكرية قرب اتلانتا ، والاصابات القاتلة لعدد من الأبرياء بينهم ـ كما قيل ـ حاكم جورجيا وعمدة اتلانتا ونجم كرة سلة فى اتلانتا وممثلة زائرة من هوليود ، كل هذا أختلق فى الطابق الأسفل عند لوحة الاتصال التليفونى من مجموعة من محررى قسم الرياضة وذلك بالخبط على فوهة التليفون بقلم رصاص . وعند الساعة الثانية صباحا كنت قد غيرت الصفحة الأولى من الطبعة الأخيرة لعدد الاحد تماما ، متضمنة قائمة القتلى من الشخصيات المعروفة ، والتقارير الحية للزوجات المصابات بالهستيريا ، وتقارير من الجهات الطبية ، واستنكار الغرفة التجارية للحادث المأساوى ، ولم ينته الأمر إلا حينما شعر محررو القسم الرياضى بالتعب واتصلوا ليضعوا نهاية للخدعة فى الثالثة صباحا ، ووجدت نفسى قد اجتذت اختبار الاشتراك فى الرابطة .

حين وصلت العمل صباح الأثنين ، أخبرنى هنتر بل دون تعليق عما حدث مساء السبت ، أن أسرع الى كمبل هاوس وهو فندق قريب لأغطى مؤتمر الصفوةECLECTIC ، وسألته إذا كان يعنى مؤتمرا كهربائياELECTRIC ، قال دون أن يرفع رأسه عما يقرؤه " يجب أن تعرف ما هى الصفوة ياارسكين .. هؤلاء الناس دكاترة وليسوا كهربائيين " .

مازال هنتر لا ينظر مباشرة الى وجهى ، وتأكد لى أنه يحاول إطالة فترة اختبار الاشتراك فى الرابطة ، وكنت مصمما ألا أستغفل ثانية بقصة كاذبة .

في طريقى الى الفندق توقفت عند مطعم وتناولت افطارا ثانيا ولمعت حذائى ، وشاهدت مجرفة بخارية تحفر أساسات بناية جديدة ، وبعد ساعة تقريبا ، دخلت الفندق وجلست فى مؤخرة الصفوف فى المؤتمر المعقود . شاهدت الافتتاح عن بعد ، وقد استغرق حوالى نصف ساعة ، وقررت ـ حيث أنه لم تلق أى كلمات ـ أن جلسات اللجان قد بدأت ، فمعظم الحاضرين كانوا يجلسون فى جماعات صغيرة يتحدثون ويضحكون ، كانوا رجالا كبارا فى السن وبملابس محافظة . بدوا كرؤساء الشركات أو ما شابه .

بعد حوالى ساعتين من الغداء اتصلت بهنتر وابلغته أن أحد رجال المؤتمر اخترع مصباحا كهربيا يقال أنه أكبر تقدم علمى فى حقله منذ توماس اديسون . وسألته كم طول القصة التى يريدها حول هذا الموضوع ، واخبرته ألا ينسى إرسال مصور لالتقاط صورة للمصباح الجديد .

حين انتهيت من كلامى ، ساد صمت طويل قبل أن اسمع صوت هنتر يقول : أين أنت الآن ياارسكين ؟

ـ فى فندق كمبال .
ـ هل كنت فى المؤتمر طوال النهار ؟

اخبرته أننى كنت خارجا داخلا هناك طوال اليوم .
سأل بضيق : خارجا وداخلا أين ؟

ـ المؤتمر الكهربائى .
ـ وماذا عن مؤتمر الصفوة الذى أرسلتك اليه ؟

ـ هنتر .. اتصدق أن هؤلاء الناس دكاترة .
ـ ماذا تفعل عندك طوال النهار ؟
ـ أحصل على القصة .

وأضفت بسرعة : لا تنزعج ياهنتر ، سأكتبها لك حتى لو مكثت طول الليل . لاتنتظرنى . اذهب الى نزهتك وجدف فى قاربك فسأعتنى بالأمر .

وضعت السماعة ، وبسرعة التقيت بعدد من ممثلى المؤتمر كل منهم اعترف بأنه طبيب أو اخصائى من الصفوة . بعد الحديث اليهم عدت وكتبت فى نصف عمود قصة تقدم النظام الانتقائى فى الولايات المتحدة وأثره على الحياة الانسانية .

فى الصباح التالى ، وبعد أن قرأ مدير الادارة قصتى فى الطبعة الأولى ، اعطى هنتر حفنة من السيجار ومدحه لكتابة القصة الوحيدة عن رجال الصفوة والتى استطاع أن يقرأها ويفهمها طوال خدمته فى الصحيفة .

٩

في منتصف سنة ١٩٢٦ قررت أن أتخذ خطوتى التالية ، وهى ترك العمل ومغادرة اتلانتا ، عملت فى الجريدة لمدة عام ، كتبت حوالى أربعين أوخمسين قصة قصيرة لم تنشر واحدة منها ، ولدى أكثر من الفين من الكتب أخذتها مقابل نشرى مراجعات لها فى الصحف ، بالاضافة إلى أنى وفرت حوالى ٢٠٠٠ دولار .

ولكن الأكثر اهمية من كل ذلك . كان فى الواقع وصولى الى قناعة خلال الأشهر الأثنى عشر الماضية ، أنى أريد أن أكون كاتبا محترفا اكثر من أى شىء آخر ، وكما عرفت فإن هناك نوعاً واحداً من الكتاب الاصلاء ، أولئك الذين يرون قصصهم منشورة .

لا أذكر الفترة التى أصبح فيها هذا القرار راسخا فى وعيى حتى غدا جزءاً منى ، ولكنى لم اشك للحظة فى قدرته او استعداده لمؤازرتى بعد ذلك . وبغض النظر عن حكمة وتجارب البشر ، فقد مضيت لترك عملى وتكريس كل وقتى لكتابة القصص والروايات ، ووعدت نفسى بأن إلتحاقى بأى وظيفة لاتتعلق بما عزمت عليه . سيكون مؤقتا ، ومن أجل أن أظل حيا فقط ، كى يضمنى سقف تحته ، وتسترنى هدمة معقولة وقررت خمس سنوات قادمة لتحقيق طموحى مع

التحفظ أنه من الممكن أن احتاج خمس سنوات أخرى إذا كان ذلك ضروريا ، ولم تكن لدى أدنى فكرة عن كيفية اعالة نفسى وتلبية الاحتياجات الضرورية حتى يحين الوقت الذى أكتب فيه ادبا يدفع فيه المحررون ثمنا . لكن ذلك لم يبد لى مهما آنذاك ، فقد كان لدى اقتناع أنى سأجد الوسيلة حين تشتد الحاجة .

بعد وصولى الى القرار ، والزامى العقل ألا يجرفنى أحد عنه بدأت أفكر فى المكان الذى سأقيم فيه . أمضيت عمرى السابق فى الجنوب ما عدا عدة أشهر قضيتها فى بنسلفانيا ، وأردت أن أذهب إلى مكان أجد فيه منظورا جديدا ومختلفا ، عزمت على الكتابة عن الحياة فى الجنوب كما خبرتها ، وبدا لى أنه يمكن تصويرها أفضل اذا نظرت اليها عن بعد . لم يكن السفر الى الخارج متاحا لى ، وأردت أن أعيش بهذه الشروط داخل الولايات المتحدة مع مراعاة مكان ذى نفقات معيشة منخفضة . بدت لى ولاية " مين " بعيدة على الخريطة وتحقق المطلوب ، فقررت أن أتجه الى شرق الولايات هناك .

بدأت أحزم كتبى فى صناديق خشبية تمهيدا لشحنها عن طريق النهر ، لم أكن أعرف ماذا يمكنني أن أفعل بألفين من الكتب خاصة وقد قرأت مايهمنى منها ، ولكنها كل ممتلكاتى وهى أكثر قيمة من أن تترك أو تباع بسعر رخيص .

ورغم أن فرانك دانيال ذا شكوك ومخاوف فأنه لم يشر بأنى قد اتخذت خطوة خاطئة أو غبية . بل قال أنه لو شعر بأن لديه القدرة على كتابة الروايات بنجاح فستكون لديه الشجاعة لفعل ما أود أن أفعله .

ومن ناحية أخرى ، فإن هنتربل حذرنى مما سأتوقعه إذا أصررت على تهورى هذا ، ووصف لى مستقبلا بائسا لأولئك التعساء فى الحياة الذين يتوقعون أن يأكلوا ويعيشوا ويسيروا دون مظلة عمل تؤمن لهم ذلك .

بعد أن قدمت انذار ترك العمل بعد اسبوعين ، ظل هنتر يحاول معى حتى أغير رأيى ، وكلفنى بعدة مهمات صحفية ، يخيل اليّ أنها محسوبة ، ليرينى مقدار ما أفقده إذا تركت الصحيفة ، إحدى هذه المهمات هى تجهيز قسم خاص لطبعة الأحد خصص لتقديم حصر سنوى لانجازات المكتب السياحى فى اتلانتا وهى منظمة لاتستهدف الربح يمولها مجموعة من رجال الأعمال ومديرها "فريد هاو" الذى يرجع الفضل اليه فى اقامة عدد كبير من المؤتمرات فى اتلانتا كل عام .

صباح الأثنين التالى لظهور القسم الخاص فى الصحيفة ، والذى احتوى - ضمن شخصيات عديدة - صورة لطيفة للمدير " فريد هاو " جاء المدير الى غرفة التحرير ، وارسل هنتر عاملا يستدعيني ، كان وجه " هاو " مشرقا وقال لى بحماس وهو يصافحنى : ما هذا .. قسم خاص وصورة لطيفة فى مكان بارز .. وربت على ظهرى عدة مرات " أود أن أدعوك إلى الغداء يا ارسكين " .

هذا أحسن تحقيق كتب عنى يا كالدويل . لم يعرف الناس أننا نملك أفضل مدينة لعقد المؤتمرات هنا فى اتلانتا حتى

قرأوا ما كتبته أمس . وذلك يثبت لرجال الأعمال ماذا يعنى دعمهم لمكتب السياحة وفائدته لمصارفهم ، لقد وصلتنى مكالمات هذا الصباح بالفعل من رجال أعمال يتصفون بالعناد ، يريدون أن يستقلوا قطارنا الآن ، سأعمل على ملأ الفنادق بالمؤتمرات هذا العام وستراهم ينامون وأرجلهم تتدلى من النوافذ ، هيا نذهب إلى مطعم " راث " أنت ضيفى ياكالدويل .. اطلب ما تشاء ولا تلقى بالا الى التكلفة .

شكرته واخبرته أنى سأقابله فى فندق "أنسلى" بعد الظهر .

بعد ذهابه ، جاء هنتر ليجلس فوق المكتب قائلا بجدية : أترى ياكالدويل . ذلك يريك مايمكن أن تفعله هنا . الصحافة تجعل الحياة تستحق أن تعاش . أليس كذلك ؟ أنت أذكى من أن تنصرف الى كتابة الكتب . إلكل يعرف أنها عمل من لا عمل له . عاطل معظم الوقت . والأصدقاء يخافون إقراضك بضعة دولارات لأنهم لا يثقون فى إمكانك أن تردها . سأعطيك ورقة الى الصراف ليصرف لك مقدم اسبوع فى أى وقت تحتاجه .

توقف عن الكلام لحظة ، راقبنى مليا ثم قال :

- هل أنت مصر على ترك كل هذا ؟

- أخبرته أنى سأفعل .

جذب عدة أنفاس من سيجاره ، واداره فى فمه عدة مرات واستمر فى النظر نحوى بتعبيرات لم تتغير .

قال بعد لحظات : ياه .. حسنا .. وداعا يا ارسكين .. أمل ألا تعانى من الآن فصاعدا . ولكن كن على ثقة دائماً أنى أشعر بالأسى نحوك .

نهض وانصرف .

فى نهاية الأسبوع ، غادرت اتلانتنا الى مقاطعة "مين" .

١٠

في بداية الصيف ، كانت مقاطعة مين عالما مفرحا وهى تقبع فى صمت غاباتها ، وظلالها المنتشرة المريحة للنظر ، وتلالها المتموجة الجميلة كأنها جزر خضراء نضرة من أشجار الصنوبر والتنوب ، ومراعيها الخصبة التى تحدها النهيرات المتعرجة كأنها بسط خضراء ومياه البحيرات الهادئة ذات اللون الأزرق المخضر على الدوام ، والريف الممتد هادئا تسير فيه الحياة وادعة ، وقد انزاحت بعيدا كل أمراض وآلام المدينة ، وإذا كان على المرء أن يكتب فإن هذا المكان هو المكان المناسب بالتأكيد .

وقت الصيف فى مقاطعة مين ، كما علمت بعد ذلك ، كان فصلا قصيرا يستمر لأسابيع قليلة ، تتيح للمرء الاقتصاد والتدبير لفصل الشتاء من كل عام ، فذلك هو الوقت الذى يسعى فيه المرء للبحث وتوفير الأساسيات لراحته من الوقود والطعام لفترة الأشهر التسعة من البرد .

الطعام يعنى البطاطس ، وزرعت البطاطس ، والوقود يعنى الأخشاب ، وقطعت الخشب . قطع الخشب أصبح عملى فى النهار ، وكتابة القصص أصبحت عملى الليلى بالاضافة الى كتابة مراجعات للكتب لكورا هاريس ، وبدا النوم - لعدة أشهر على الأقل - رفاهية غير مقدور عليها .

لم يكن لدىّ سوى فكرة ضئيلة عن كمية الخشب التى تلزم لتدفئة بيت كبير من سبتمبر حتى مايو . مثل هذه البيوت التى يزيد عمرها عن قرن من الزمان أعدت لتستخدم للأقامة الصيفية ولم يكن يسكنها أحد فى الشتاء ، كان البيت باردا وجيد التهوية ومثاليا فى الصيف مما يبهج السياح والرحالة ، لكن المواطنين ينظرون الى هذه البيوت بازدراء وهم الذين يعرفون شقاء ليالى الشتاء الباردة التى تصل فيها درجة الحرارة تحت الصفر .

كان البيت مكوّنا من عدة غرف ، ومقاما على تل متوسط الارتفاع يقع بين بحيرتين فى بلدة فيرنون فى مقاطعة كينبيك ، وثلاث من واجهاته كانت معرضة لتساقط الثلوج فى الشتاء ، ولم يكن يوجد سوى مدفأتين فى غرفتين من غرفه الكثيرة .

سألت جارى ، وهو فلاح يدعى ارثر دولف ويعيش على بعد نصف ميل من بيتى كم كوردا (الكورد ١٢٨ قدما مكعبا من الخشب) من الخشب يعتقد انى احتاجها للشتاء . كان ارثر مقيما فى مين طوال حياته ، وأنشأ بيته المكوّن من خمس غرف ببعد نظر زودته به اقامته الطويلة هناك ، كانت الجدران والعلية معزولة لا تتسرب منها الحرارة ، والغرف صغيرة ومنخفضة السقف ، والحوش مغطى فى الشتاء بنشارة الخشب أو أفرع أشجار التنوب للوقاية من صقيع الأرض ، أما أكبر غرفة فى البيت فكانت مخزن الخشب وهى ممتلئة بالخشب الجيد طول السنة .

قدر آرثر ، بعد ما استعرض بحرص منشآت البيت الصيفى الكبير على التل ، ما احتاجه من الخشب بقوله " ربما من

١٨ ـ ٢٠ كوردا " وأضاف بحذر هذا مع الأخذ فى الاعتبار ، أنه لن يذيقنا شتاء قارسا ، آنذاك قد تحتاج الى ستة أو سبع كتل أكثر .

سألته : ما درجة الحرارة التى يصلها برد الشتاء هنا ؟
ـ عشرون تحت الصفر فى المتوسط .
سألته إذا ماكانت هذه الدرجة تستمر فترة طويلة .
ـ قال : لاتستطيع أن تحكم فى ولاية مين .
ـ وكم يستغرق قطع ٢٠ كوردا من الخشب وتخزينها .
ـ دون مساعدة من أحد ؟ .
أخبرته أنى سأقوم بذلك وحدى .
ـ ربما من الآن حتى يوم "جراوند هوج" .. وربما فترة أطول حسب الأحوال الجوية .
ـ إذن ربما يجب أن أبدأ من الآن .
ووافقنى آرثر على ذلك .

كان الرابع من يوليه حين بدأت أقطع أشجار التبولا وانشرها لتناسب حجم المدفأة ، كان خشب التبولا الأبيض ينمو أقرب إلى البيت من الأخشاب الصلبة ، وحيث أن الخشب المنشور يجب أن يجر أو يحمل أو يدحرج الى مخزن الأخشاب لمسافة ٢٠٠ ياردة ، فاقتصرت على قطع أخشاب التبولا وتجنبت قطع أخشاب الزان أو القبقب . وحين سقط الثلج بعد عيد العمال بقليل (عيد العمال فى أول مايو أو الاثنين الثانى من سبتمبر وهو يعنى هنا التاريخ الثانى) كان لدى حوالى عشر كوردات من خشب التبولا مقطوعة ومخزنة ، بدت كمية كبيرة من الخشب بالنسبة لشخص واحد وكنت

فخورا بما انجزته ، توقفت عن قطع الخشب آنذاك ، فعلى كل حال لم يكن هناك سوى مدفأتين .

حينمارأى آرثر خشب التبولا الأبيض فى مخزن الأخشاب ، هز رأسه وعلق "هذا الخشب الملعون لا يشتعل جيدا وهو أخضر ولا يستمر طويلا وهو جاف" "ربما العام القادم يمكنك ان تقطع أخشاب القبقب وتحتفظ بدفئك" .

مع بداية يناير ، كان معظم الخشب قد أحرق وكان الثلج أربعة أقدام فى الخارج ولكى نحافظ على الخشب الباقى ، أبقينا النار مشتعلة فى مدفأة المطبخ فقط ، وحينما يزحف الصقيع فى الليل كان صوت "طقطقة" الخشب وهو يشتعل كصوت طلقة المسدس أحيانا . كانت الليالى باردة تصل فيها درجة الحرارة الى صفر فهرنهيت وأحيانا تصل إلى اربعين تحت الصفر ، لكن النهارات كانت أكثر دفئاً .

كنت أكتب فى الطابق العلوى ، فى غرفة بلا مدفأة ، ألبس سويتر من الجلد فوقه سترة ، والف ساقى ببطانية وأنا أكتب على الآلة الكاتبة ، وأتوقف بين حين وآخر لأنفخ فى أصابعى المنملة ، بينما خارج النافذة تبدو مساحات لانهائية من الجليد الذى يصل الى الركبة فى ارتفاعه . كنت أعمل من ١٠ ـ ١٢ ساعة يوميا أكتب قصة وراء قصة ، أراجع وأصحح واكتب ثانية بتصميم الكلاب بغض النظر عن الوقت او الارهاق .

وفى فبراير غدت البرودة أكثر مما توقعت . كنت أرتعش فى الغرفة الباردة يوما وراء يوم ، كان بخار أنفاسى يتجمد على

زجاج النافذة ، وأصيب الجلد عند عقلات أصابعى بعضة البرد وأنا أحاول وأحاول لأجعل القصة تبدو كما اريدها أن تكون مسترجعا بحيوية الأيام المشمسة الدافئة لشتاء جنوب كارولينا وشرق جورجيا .

أثارنى آرثر دولف بدرجة صمته ، لم يتحدث الىّ منذ الأسبوع الأول من فبراير . فئران الحقول البنية التى جاءت الى قبونا فى نوفمبر لتقضى الشتاء ، رحلت مبكرا فى فبراير حين وصل البرد الى درجة لم تستطع احتمالها ، رحلت فى الليل الى دفء بيت دولف ، وكان يمكننا سماع أصوات الطلقات وهى تنفجر فى قبو ارثر ، عدة مرات فى الليل والنهار ، وهو يطلق على الفئران فى محاولة للتخلص منها .

قبل نهاية الشهر كنت أغادر إلى الجنوب ، وماكان يجب أن يقال منذ البداية ، أن المرء يستطيع أن يكتب فى مين إذا استطاع أن يحافظ على دفئه .

١١

القلق ، المشبع بشهوة التجوال ، والإحساس الذى لايمكن قهره للذهاب إلى مكان ما ، كان يبقينى فترة طويلة أحس بعدم الرضا . حين كنت فى السادسة وأعيش فى كارولينا الجنوبية ، ارتحلت عن البيت لأول مرة ، كنت هاربا لأختفى النهار بطوله وجزء من الليل فى اصطبل للخيل قبل أن يعثر علىّ والدى .

وحين كنت فى التاسعة ، أبيع الجرائد فى فترة ما بعد الظهر فى ستاونتون فى جورجيا ، ركبت قطارا ذات ليلة أحمل ملء ذراعى صحفا ، بدل العودة الى البيت أوقف القطار وابلغنى المحصل ألا أركبه ثانية لبيع الصحف ، وكلما كبرت ، وأنا الآن فى الرابعة والعشرين ، أضحى الأمر أكثر صعوبة فى إمكان البقاء فترة طويلة فى مكان واحد ، وكنت اتساءل ماذا يفعل الناس فى هذه اللحظة فى كل الأماكن الأخرى فى امريكا ، فى مئات القرى والمدن الصغيرة فى الريف ، وفى المدن المختلفة ، وتجتاحنى الرغبة فى أن أرحل لاكتشف مايفعلون .

إن استهلاك مؤونتنا من البطاطس وخشب التدفئة ، لم يكن بالنسبة لى سوء حظ ، فلدى الآن السبب الذى يجعلنى أغادر إلى مكان ما وتستطيع عربتى الفورد القديمة ذات السنوات

الخمس والتى اشتريتها من مدخراتى فى اتلانتا ، أن تنقلنى فى رحلة اخرى ، ربما أحد الأسباب التى دفعتنى لترك عملى فى الصحيفة بسرعة ، رغبتى فى أن أتمتع بحرية السفر حينما تسنح لى الفرصة ، وبدت لى عملية الكتابة انها لاتحتاج الى اقامة دائمة فى مكان واحد .

ذهبت الى شارتسفيل ثم الى اوجستا ، وعشت لعدة أسابيع فى كوخ مكون من غرفة واحدة فى الغابات الصنوبرية قرب مورانا فى كارولينا الجنوبية ، اتناول علبة من الفاصوليا باللحم ثلاث مرات يوميا واكتب من ١٦ ـ ١٨ ساعة ، بعد فترة ذهبت إلى بلتيمور وعشت هناك على العدس وكتبت عدة قصص قصيرة ، وحين نفدت نقودى رجعت إلى مين .

كان الوقت اوائل يونيه ، بدأت أقطع خشب الزان وانشره بحجم خشب التدفئة وأعرضه للريح والشمس ، أقطع الخشب فى النهار ، واعزق الأرض لاخراج البطاطس عند الشفق الارجوانى الذى يستمر فترة طويلة ، وحينما يأتى الليل اجلس للكتابة . فى ذلك الوقت من السنة ، وعلى خط العرض الذى تقع عليه الولاية ، كان النهار يبزغ فى الثالثة صباحا حيث أذهب للنوم لساعات قليلة ، كان الوقت يجرى بسرعة ، وكان هناك الكثير مما يجب عمله ، فكنت أوقف الساعة أو أعيد عقاربها الى الخلف وأنا أكتب على الالة الكاتبة .

كتبت عشرات من القصص القصيرة خلال الأشهر الأثنى عشر الماضية ، كنت أشعر أنى أتحسن أو أن القصص أضحت جذابة أكثر للقراء ، أصبحت متمكنا فى تشكيل

الأحداث الخيالية فى نوع من القصص تعطى التأثير الذى أردت أن أحس بها كقارىء ، حاولت أن أكتب وفى ذهنى أنى سأكون القارىء الوحيد للقصة ، معتقدا أن الكاتب نفسه لابد أن يسر من العمل قبل أن يفعل ذلك الآخرون .

كنت أفتقد الثقة فى مقدرتى على تحليل أعمالى القصصية كناقد ، وأن أحكامى لا يوثق بها ، لذا سعيت الى تكثيف المشاعر فى القصة موازنا بين تأثيرها العاطفى وتوازنها الداخلى ، وإذا اعجبتنى القصة ، بغض النظر عن عدم مطابقتها لطريقة القص التقليدى ، كنت أقتنع تماما بالنتيجة ، وأملت أن الوقت سيأتى حين يقبل الآخرون ، بما فيهم الناشرون ، أن هذه هى الطريقة الوحيدة الى يمكن أن تكتب بها هذه النوعية من القصص ، سواء بقلمى أو بقلم أى كاتب آخر لتنتج التأثير الذى تحتويه .

وبالنسبة لى ، كان على الدرجة نفسها من الأهمية ، اعتقادى بأن مضمون القصة ذو أهمية قصوى لبقاء التأثير فيها أكثر من الأسلوب التى كتبت به .

فالمضمون هو المادة الأساسية للخيال ، للأشياء التى يتحدث عنها الكاتب فى الحياة ، أفكار وآمال الرجال والنساء فى كل مكان ، واقعية الشخصيات الخيالية التى لم تعش ابدا على الأرض والتى تعطى القارىء الوهم بأنها حقيقية .

لم أكتب عن أناس حقيقيين إذن ، ولكن عن أفعال ورغبات أناس متخيلين ، الذين اذا صوروا فى قصة ناجحة او رواية

بدرجة مقنعة لبدوا أكثر واقعية من الناس الواقعيين بالفعل . وطبيعى أن كل الشخصيات الخيالية لدرجة ما مخلوقة من ذكريات وملاحظات عن أشخاص أحياء خبرهم المؤلف وإلا لما شابهت الأحياء إلا بدرجة قليلة .

وجاهدت ـ فى طريقة كتابتى ـ أن آخذ مباشرة من الحياة تلك الصفات والنعوت فى الرجال والنساء ، التى تنتج عند سرد النموذج الفعلى للشخصية التى أريد خلقها تحت الظروف التى أريدها ، ودائما تكون الشخصية الخيالية شخصية مركبة ونادرا ماتكون غير ذلك .

فى تلك الفترة ، ١٩٢٧ ، بدأت أتسلم من المحررين بعض الملاحظات القصيرة بدل ورقات الرفض المطبوعة ، رغم أن مجلة واحدة لم تقبل نشر قصة لى فإنه بين حين وآخر كنت أتلقى رفضا لقصة ما مع تعليق من المحرر عليها .

وكان هناك دائماً شىء ما يمنع نشر القصة ، أما أنها طويلة أكثر من اللازم ، أو مختصرة أكثر من اللازم ، أو مكتوبة بطريقة مبتذلة ، أو منافية لذوق قراء تلك المجلة المعينة ، أو واقعية اكثر من اللازم ، ومن المدهش هذا الكم من الأسباب الكثيرة المنطقية والمتكلفة التى يمكن أن ترفض قصة بسببها .

بالاضافة إلى هذا الرفض المهذب كنت أتلقى أحيانا النصائح ، ولست ضد النصيحة من حيث المبدأ مادامت تصب فى مجرى ما افعله أو أحققه ، ولكن بدا لى دوما أن

النصائح الى أتلقاها كانت بالتأكيد موجهة إلى شخص آخر ، وأنها وجهت لى بطريق الخطأ .

نصحنى أحد المحررين أن أقوم بدراسة فاحصة لنوع القصص التى تنشرها مجلته وأحاول أن أكتب مثلها . ومحرر آخر نصحنى بقوله أن هناك مستقبلا جيدا لكتابة مقالات فى موضوعات معينة لبعض المطبوعات التجارية كتزيين البيوت وتغطية الأرضيات ونماذج الأثاث المختلفة ، وأحد المحررين كلف نفسه بكتابة خطاب طويل ينصحنى فيه بالاقلاع عن كتابة القصة القصيرة قائلا أن من رأيه أنى لن استطيع أن أحقق نجاحا فى هذا المجال ، وأن إصرارى العنيد ربما يجعل فشلى المحقق صعبا على التحمل .

كل هذه كانت مراسلات ممتعة . واعطتنى شيئا ما اتطلع لاتسلمه بالبريد ، لكنها لم تكن مجزية ولا واعدة ، ولكى اجعل عدة عشرات من القصص تدور باستمرار على مكاتب المحررين كان من الضرورى الاحتفاظ بكمية من طوابع البريد ، بالاضافة إلى ضروريات الحياة مثل السكر والملح والأحذية التى لا أرغب أن تنقصنى ، وكنت حينما احتاج الى نقود ، الجأ الى الشىء الوحيد الذى يمكن عمله وهو أن أملأ حقيبتين من الكتب التى تسلمتها وقمت بكتابة مراجعات لها ، واركب الحافلة متجها الى مكتبة للكتب المستعملة فى بوسطن ، ربما لا أكون أنا الذى ابتدعت عملية بيع الكتب بربع دولار للواحد ، لكنى أعتقد أنى ساهمت فى المساعدة فى أن تبدأ هذه التجارة بشكل جيد فى بوسطن .

١٣

بعد ما وفرت خزينا جيدا كمؤونة للشتاء من خشب الزان والقبقب ، ذهبت ثانية الى فرجينيا وجورجيا وكارولينا لعدة أسابيع قضيتها فى الكتابة وعدت فى اوائل سنة ١٩٢٨ الى مونت فيرنون ، حيث قررت أن الوقت قد حان للتوقف عن كتابة مراجعات للكتب دون مكافأة لصحيفتى شارلوت اوبزرفر وهاوستون بوست ، ماحثنى على ذلك ايضا هو أن كوراهاريس كانت ستذهب فى اجازة سعيدة الى مكان ما لعدة أشهر وتتركنى مع العمل الروتينى لكتابة كل المراجعات أثناء غيابها . أعلمتها أن عليها أن تجد شخصا غيرى ليقوم بالعمل فى أسرع وقت ، كانت كورا شخصية مرحة جدا ومن السهل التعامل معها ، لكنى كنت أكتب عمودين أو ثلاثة اسبوعيا لمدة ٢٦ شهرا ، وبدأ الناشرون يشتكون من أن ملاحظاتى غدت قصيرة ومقتضبة دون ضرورة أو داع وأنى أضن على المراجعات بالوقت التى تقتطعه منى . وكان لابد أن يتوقف سيل الكتب التى كنت أتزود بها وتبلغ خمسة وعشرين الى ثلاثين كتابا اسبوعيا ، وهكذا بدأت أحصى ما عندى من كتب ، وأظهر الجرد أن هناك حوالى ٢٥٠٠ كتاب منوع من روايات الى كتب مختلفة طبع خلال السنتين الاخيرتين ، وكنت قد بعت مجموعات أخرى حملتها الى بوسطن بربع دولار للكتاب الى مكتبات بيع الكتب القديمة .

ووجدت أن بيع ٢٥٠٠ كتاب بربع دولار للكتاب شيء ، وبيعها بمعدل دولارين ونصف أو ثلاثة للكتاب شيء اخر ، وفكرت أني لو فتحت مكتبة في مكان ما وملأتها بالكتب التى عندي وبذلت جهدا لبيعها بسعرها المدون عليها ، فإنه بعد دفع أجرة المكان والنفقات الأخرى يتبقى مبلغا يمكننى أن أعيش عليه مدة سنتين لاحقتين على الأقل .

كذلك وجدت أنه كي يشترى ثلاثة أو اربعة من المتعلمين في مونت فيرنون ٢٥٠٠ كتاب بسعرها الرسمي قد يستغرق حياة بأكملها ، فبدأت أفكر في عملية بيع الكتب بالتجزئة فى المدن القريبة : أوجستا ، ووترفيل ، ليويستون او بورتلاند ، وبدت بورتلاند كاختيار منطقي بسبب كثافتها السكانية وبدأت أبحث عن شخص ليدير المكتبة بينما امكث فى البيت متفرغا للكتابة .

حينما انقشع برد الربيع ، ذهبت الى بورتلاند وأستأجرت متجرا فارغا فى شارع كونجرس قرب ميدان لونجفلو ، وعلقت يافطة المكتبة على الدكان ، ثم قمت برحلة اثر رحلة بالعربة الى مونت فيرنون ناقلاً الكتب والمتعلقات الشخصية لمسافة ٦٥ ميلا .

في الوقت الذى أصبح فيه العمل جاهزا فى المكتبة ، كانت تزور بورتلاند فتاة تدعى ماريورى مورس من بروكلين ، قضت العام الماضى فى سويسرا وأقنعتها ألا تعود إلى بلدتها وتبقى فى بورتلاند لادارة المكتبة ، وهكذا مضيت الى البيت الذى استأجرته فى كيب اليزابيث وجلست الى آلتى الكاتبة

مواجها الضباب المتغير والشمس الساطعة على شاطىء مين .

وبدا أن كل شيء يسير سيرا حسنا ، حتى بدأت كميات الكتب تتناقص بشكل مزعج ، وبدأت مارجريت تشكو من سياسة عدم تزويد المكتبة بكتب جديدة ، وقالت أنها لا تلوم الزبائن لقلقهم حين لايجدون الكتب التى يريدونها سواء الكتب الحديثة أو الكتب القديمة ، وبدأ العمل يتدهور بسرعة كلما اتسعت المساحات الفارغة على الأرفف ، وبدأ الزبائن القدامى بالتدريج يشترون كتبهم من مكان آخر فى ذلك الوقت كان أكثر من نصف الكتب قد بيع .

شككت أن مارجريت قبلت العمل معى بالدرجة الأولى كى تجد الفرصة لقراءة كل هذه الكتب الجديدة ، فقد بدأت الآن تذهب مرة أو مرتين فى اليوم الى مكتبة لاعارة الكتب فتستعير الروايات التى صدرت حديثا ، وحين يأتى زبون ليسأل عن كتاب معين كان باستطاعتها أن تحيطه علما بكل ما يتعلق بالكتاب ، سواء كان الكتاب يعجبها أم لا ، وتخبره برأيها فى المؤلف وإذا أبدى الزبون رغبة فى شراء الكتاب كانت تدله على المكتبة التى يستطيع الحصول عليه منها ، ولم تمض فترة طويلة حتى هددت بترك العمل إن لم أزود المكتبة بكتب جديدة .

فى هذا الوقت كان هناك القليل من الكتب فى المكتبة ، والقليل من النقود فى الجيب ، حتى أنه لم يكن هناك ما يكفى لدفع مرتب مارجريت فى نهاية الأسبوع ، كان الشىء الوحيد

المتاح آنذاك أن أبلغها بأن تأخذ مجموعة من الكتب المتبقية وتبيعها لحسابها بربع دولار للكتاب لأحد المتعاملين فى الكتب القديمة ، اتصلت بى ذات يوم قائلة :

ـ كيف يمكن أن تستمر المكتبة إذا بعنا الكتاب ذا الثلاثة دولارات بربع دولار ؟

آخر شيء فى الدنيا كنت أريد أن أنغمس فيه هو ادارة أى نوع من الأعمال التجارية ، وكنت لم أوضح لها أن الهدف من المكتبة فى الماضى والحاضر والمستقبل بالنسبة لى هو أن يمكننى ريع هذه الكتب الذى راجعتها من الحياة فترة ما ، اخبرتها أنى أكتب قصصا قصيرة وأن أى شخص آخر يمكنه أن يقلق من أجلّ المكتبة إلا أنا ، واعتبرت الموضوع منتهيا من ناحيتى ، لكنها اتصلت بعد ايام قلائل قائلة بصوت منفعل :

ـ ارسكين . هناك رجلان لطيفان هنا الآن ، وكلاهما يقول انه لابد من الحصول على كتب جديدة اذا اردنا للمكتبة أن تستمر ، وقالا انهما سافرا عبر الولايات المتحدة كلها ولم يريا مكتبة بهذا العدد القليل من الكتب .

قلت : ما شأنهما إذا كانت المكتبة تحتوى على كتب أم لا ؟

ـ قالت : إنهما يعملانِ في نشر الكتب ويريدان النجاح لكل بائعى الكتب .

ـ ما اسماهما ؟

ـ أحدهما يدعى سيسيل سكوت وهو يسافر ممثلا لشركة مكميلان والشخص اللطيف الآخر ـ أعنى الطويل ـ يدعى هنرى هاوتون وهو يعمل بائعا لحساب شركة هاوتون ، إنهما يحملان عدة حقائب مملوءة بالكتب الحديثة ، أتوق شوقا

لقراءتها ، ولم تحصل عليها بعد مكتبة اعارة الكتب فى الشارع المقابل .

سألتها ماذا يريدان أن يفعلا بهذه الكتب ؟
ـ إنهما يريدان بيعها بالطبع .
ـ ومن سيدفع لهما ؟
ـ المكتبة بالطبع ، مستر سكوت يقول أن المكتبات الأخرى تدفع فواتيرها وأننا يمكننا عمل ذلك اذا ادرنا المكتبة بطريقة عملية وتوقفنا عن بيع الكتاب بربع دولار الى مكتبات الكتب القديمة .

إسألى سكوت لماذا لا يشترى المكتبة ويديرها بنفسه إذا كان يعرف الكثير عن هذا العمل ويعتقد أنها فرصة ذهبية ، قالت محتجة ومنفعلة :
ـ ولكن ياارسكين نحن لا نريد بيع المكتبة ، هل اعود الى بروكلين حيث يقتلنى الملل ؟
ـ هل تعتقدين أنه يمكن تسيير العمل فعلا ودفع الفواتير .
ـ لا أرى ما يمنع ذلك .
ـ وهو كذلك . نفذى واعتبرى نفسك الرئيس ، اعتبرينى خارج اللعبة الآن ، أنا أعتزم كتابة الكتب لا أن اشترى الكتب يوما ثم أعود لأبيعها فى اليوم التالى .

إذا اشتريت بعض الكتب الجديدة منهما هل تريدنى أن أحضر لك بعض الروايات لقراءتها ؟
ـ قلت لها : لا .. لا أريد أن أرى كتابا قبل أن أرى واحدا ينشر باسمى .

١٣

لم يمض وقت طويل حين ادركت أن الأمور لا تسير بشكل جيد فى المكتبة ، فقد زرت ذات مساء "الفردمورانج" وهو رسام مناظر طبيعية ، فأخبرنى أنه رأى مارجريت تحمل ربطة من الكتب بعد ظهر ذلك اليوم إلى إحدى مكتبات الكتب القديمة قرب مرسمه ، لم تكن هذه علامة طيبة ، وخامرنى شعور بأن الأمر يلزمه أكثر من التمنيات الطيبة لسكوت وهاوتون .

فى اليوم التالى ذهبت إلى المدينة وعرفت أنه لم يعد ضرورة فقط العودة الى بيع الكتب الى المكتبات القديمة بل أن فاتورة الكتب التى اشتريت حديثا والتى تبلغ قيمتها الف دولار ، لم تدفع أيضا ، ولم يكن لدينا فكرة عن كيفية مواجهة الموقف وأن اتفقنا من أنه لابد من عمل شىء حيال ذلك .

سرت فى شارع الكونجرس مفكرا بما يمكن عمله ، منذ غادرت اتلانتا وأنا أحاول أن أعيش على ما أملكه مهما قل مقداره ، ومازلت أرغب فى الحياة بتلك الطريقة ، ثم أجدنى الآن مدينا بمبلغ لا استطيع دفعه ، بعد السير فى الشوارع لمدة ساعة قررت أن استشير ارنست جراونتج فيما يجب عمله ، كان الرجل ودودا معى منذ قابلته فى بورتلاند وشعرت أن علاقتى به تسمح بحمل متاعبى اليه ، عمل صحفيا فى بوسطن ونيويورك عدة سنوات ، وقد صدر حديثا أول كتاب له وهو

"المكسيك وتراثها" كما أسس جريدة بورتلاند المسائية وكان رئيس تحريرها حين ذهبت اليه ، بعد ذلك بسنوات أصبح حاكم ولاية ألاسكا .

قال باشارة واسعة من ذراعيه حين انهيت حديثى :
- تلك مسألة بسيطة يمكن علاجها .
وأضاف : إذا أردت أن تصبح كاتبا فعليك بابعاد هذه المشاكل عن ذهنك .. هيا سنقطع الشارع الى البنك ونسوى المسألة .

ترددت فى الذهاب إلى البنك لأخذ قرض ، واخبرته بذلك ولكنه أصر ، وعبرت الشارع مترددا الى البنك .

فتح ارنست باب أحد المكاتب الخاصة بأحد نواب مدير البنك ، دخلنا وجلسنا ، كان نائب المدير رجلا فى الأربعين ، طويل ، أسود الشعر ، ملامحه ودية ، وكان يتحدث فى التليفون .

قال ارنست : اخبره فقط بما تحتاجه والأمر سينتهى على مايرام ، كان نائب المدير يتحدث الى سمسار فى بوسطن واستطعت أن أفهم من حديثه بأنه كان يبيع سندات معينة لحساب البنك ، حين انتهى ، ضغط على جرس فجاءت سكرتيرته على الفور ، اعطاها تعليماته قائلا :

- احضرى لى هذه الصكوك التى كانت على مكتبى صباح اليوم ، لقد بعتها لتوى ، هزت الفتاة ذات الشعر البنى رأسها

بحيرة : ولكنى لم آخذها .
ـ كانت على مكتبك آخر مرة رأيتهم .
وبدأ نائب المدير وسكرتيرته البحث عن الصكوك ، يبحثون فى الأدراج وعلى الأرضية وفى سلة المهملات .
قال بعد فترة : اقسم أنهم كانوا هنا هذا الصباح ، كانوا فى يدى هنا ، جمهورية الأرجنتين ، الديون الخارجية ، ولقد بعتهم لتوى فى بوسطن ولابد من ارسالهم فى البريد الليلة . ستجدينهم فى مكان ما يا مس تيبيتس ، احضريهم لى بمجرد عثورك عليهم .

حين غادرت السكرتيرة ، قدمنى ارنست اليه ، فساد صمت ثقيل فى الغرفة بينما الأثنان ينتظران أن أتكلم وأوضح طبيعة عملى . اختلست النظر الى ارنست وهززت رأسى بعصبية ، اردت الخروج بأسرع ما يمكننى ، أشار لى أرنست مشجعاً وهو مقطب الوجه .

واستطعت أن أوضح بطريقة ما أن المكتبة تحتاج لنقود لدفع فواتير مستحقة قال وهو يعود لفتح الأدراج ثانية بحثا عن الصكوك : اعطنى رقما تقريبيا عن المبالغ التى ينتظر أن تصلك .

وكان لابد من القول انى لا اتوقع أى مبالغ قادمة .

قال هازا رأسه وناظرا مباشرة الىّ : كل مشروع تجارى لابد له من عائذ قادم ، العمود الفقرى للقرض ، الطريق الوحيد للتعامل .

هز رأسه ثانية : ما الضمانات التى لديك يا كالدويل ؟
اعترفت أنى لا أملك شيئا ، والشيء الوحيد الذى أملكه عربة قديمة عمرها سنوات وقيمتها ضئيلة .

أضاف وهو يأخذ نفسا عميقا واستدار ليبحث ثانية فى سلة المهملات ، ماذا يمكن بالله أن يحدث لصكوك تساوى مائة الف دولار فى مكان أمين كالبنك إذا ضاعت فى البنك فماذا يمكن أن يحدث لها فى مكان آخر ؟ .

كانوا هنا هذا الصباح ، لقد عددتهم مباشرة قبل أن أحادث السمسار .. استدار واتجه اليّ بالحديث ثانية :

- كم تحتاج لكى تستمر يا كالدويل ؟
- قلت : حوالى ألف دولار .

وكنت أتساءل كيف يمكن أن يفكر بقرض بمثل هذا المبلغ بينما وضعوا مبلغا يبلغ مائة ضعف فى مكان لا يعرفونه .

- كيف تعتقد أنك ستسدده حين يحين أجله ؟
اعترفت أنى لا أعرف كيف لكنى سأدفع .

وتكلم أرنست : ارسكين كاتب وهو جاد فيما يقوله ، عنده مدير لمكتبه وكل ما يحتاجه مبلغا ضئيلا للاستمرار ، ومايهتم به أن يصبح روائياً ، أنت تعرف روايات وقصص قصيرة كتب ومجلات .

أومأ برأسه وسألنى : متى تتوقع أن تسدد المبلغ ؟
فكرت فى السؤال لعدة لحظات قلت : لا أعرف متى يمكننى دفعه لكنى سأرده حينما أحصل عل بعض النقود .

توقف عن فتح الأدراج ورجع مستندا على مقعده :

ـ أتعرف يا كالدويل وددت دوما أن أكون كاتبا ، لو استطعت أن أكتب قصصا وانشرها فى المجلات لغدوت رجلا سعيدا ، أنه شيء رائع أن تكون كاتبا . لقد حاولت كتابة القصص لكنى يبدو أنى لم أحظ بالنجاح الكافى ، ما كتبته لم يكن جيدا بما فيه الكفاية فيما أعتقد ، من المحتمل أن ذلك هو السبب الذى جعلنى فى البنك الآن .

هز رأسه متحسرا على نفسه ، كيف يمكنك أن تتأكد من أنك ستحصل على النقود من كتابة القصص . اخبرونى أن الكتابة وسيلة غير مضمونة للحياة انظر الى ارنست أنه يؤلف الكتب لكنه يدير جريدة ايضا .

اخبرته أنى سأواصل حتى أتمكن من العيش بواسطتها .

ـ هل لديك أدنى فكرة متى سيتحقق ذلك ؟

ـ فى سنة أو سنتين ، وربما أكثر .

ابتسم لأول مرة ، وهو كذلك ، وناولنى ورقة لأوقعها . حينما تحقق الهدف ، تعال وادفع ، سأكون معك مادمت على هذا الإصرار وناول ارنست الورقة التى وقعتها لتوى قائلا : هيئة المديرين سترتاح أكثر لو كان توقيعك موجودا . لكن وقبل أن يوقعها ارنست اندفع وسحبها منه قائلا : لا ضرورة فكالدويل سيهتم بذلك بنفسه .

دخلت السكرتيرة وقالت بتعبير محير : لم أجد هذه

الصكوك فى أى مكان .. لابد أن تكون فى مكان ما فى هذه الغرفة .

وبينما أنا وارنست نغادر الغرفة ، رفع نائب المدير سلة المهملات وقلب ما فيها على الأرضية ، وركع هو وسكرتيرته ليفحصا كل ورقة فى القمامة .

١٤

في اوائل سنة ١٩٢٩ وبعد أكثر من ست سنوات من بداية كتابتي للقصص وأنا في جامعة فرجينيا ، تسلمت رسالة كانت الأولى من نوعها وسط الرسائل التي اتسلمها كانت من الفرد كريمبورج ويقول فيها أنه وزميليه في مجلة نيو اميركان كارافان وافقوا على نشر قصة لي في عدد أكتوبر القادم ، كان عنوان القصة "عاطفة منتصف صيف" كانت خلفيتها تدور في مقاطعة "مين" وتحكي عن حادثة عنيفة وقعت لفلاح كان مارا بمنزل جاره بعد ظهر أحد أيام الصيف ، كنت قد كتبتها في العام السابق وارسلتها الى عشر او اثنتي عشرة مجلة تجريبية خلال تلك الفترة ، ولم اكتشف إلا بعد فترة طويلة أن إحدى هذه المجلات الصغيرة " ترانسشن " وتطبع في فرنسا ، قد احتفظت بالقصة ونشرتها بعد أن غيرت عنوانها الى " يولية " .

كانت مجلة " نيو اميركان كارافان " اقرب الى الكتاب منها الى المجلة ، فهي مجموعة مختارات من القصص القصيرة تظهر مرة واحدة في السنة ، وكانت تدفع ٢٥ دولارا مكافأة عن القصة ، ولم يكن ذلك هو المهم بالنسبة لي ، الأهمية الأولى كانت أن هناك شخصا ما في مكان ما قد قبل إحدى القصص التي كتبتها واحسست أن خيبة الأمل المتراكمة لعدة سنوات قد مسحت فجأة من الذاكرة .

ونتيجة لهذه الأخبار الجيدة بدأت أرسل الى المجلات مجموعات من ست أو سبع قصص في المرة الواحدة ، وخلال الستة أشهر التالية وافقت عدة مجلات على نشر عدد منها . ورغم أني بذلك حققت هدفا غنيا إلا أن هذه المجلات لم تكن أى منها واسعة الانتشار تجاريا ، ولا يزال المشوار طويلا ، كل هذه المجلات كانت مجلات صغيرة دون دائرة انتشار واسعة ، ومكافآتها ، إن وجدت ، كانت أقل مما تقدمه مجلة نيو اميركان كارافان وجملة المبالغ التى حصلت عليها مقابل القصص الستة التى نشرت كانت فيما اذكر اقل من مائة دولار ، ومع ذلك كنت على استعداد أن أنشرهم بلا مقابل ، لأن هذه المجلات التجريبية شكلت الورشة الوحيدة التى دخلت منها الى عالم الأدب ، كان هدفى الأول أن أصبح كاتبا متميزا ، واذا أمكنني ذلك ، فإن أية مكافأة تسعى نحوى بعد ذلك ستكون على قدر هذا التميز .

حين انتهت نوبة الانفعال التى سببها لى خطاب الفرد كريمبورج ، ملأت حقيبة بقدر ما استطعت من المخطوطات وأخذت الباص الى نيويورك .. كان معى حينما غادرت ديترويت ١٢ دولارا وتذكرة مفتوحة بالباص ونسخة من الطبعة الأولى من رواية نيودوردرايزر الأخت كارى ، احتفظت بها بعد أن قيل لى أنها تساوى ثمنها الحقيقي عدة مرات ، وخططت أن ابيعها فى نيويورك لتساعد فى تغطية نفقاتى هناك . وكنت قد اشتريتها بـ ٣٥ سنتا .

وبتأثير انى كاتب واعد وسينشر لى عما قريب ، سجلت

اسمى فى فندق مانجر (تافت فيما بعد) فى الشارع السابع ٥١ ، كانت الأجرة اليومية لمن هم فى حالتى دولارين ، ومعى مايكفى أربع ليال حتى لو لم أبع رواية الأخت كارى ، مع تقليل مصروفات الأكل والسجائر الى دولار واحد فى اليوم .

بعد يوم واحد فى نيويورك أنفقت أكثر من دولار على الطعام وحده . وهكذا أخذت الكتاب الى بائع يتعامل بالطبعات الأولى فى الشارع ٥٩ ، فحص النسخة واخبرنى أنها ذات قيمة ولكن لايستطيع أن يقدرها ، واقترح أن أترك الكتاب عنده حتى اليوم التالى حيث يعرضه فى الوقت نفسه على زبون يعيش فى لونج ايلاند ، تركت الرواية عنده معتقدا أن على أن أحضر فى اليوم التالى لاستلم الثمن .

كانت حقيبتى تحتوى على القليل من كل شىء من الموضوعات الأدبية ، عدة قصص طويلة ، مقتطفات من روايات غير كاملة ، شعر ، فكاهات ، مقالات ، وعشرات من القصص القصيرة ، لم يكن لدى خطة فى كيفية التصرف بكل هذه المادة ولكنى كنت آمل أن أنشرها بطريقة ما ، وبعد محاولات عديدة ، غير ناجحة ، للدخول الى مكاتب المحررين ، عرفت أن لفت انتباه أى محرر بواسطة البريد اسهل بكثير من محاولة لفت انتباهه عن طريق المقابلة الشخصية .

لم أكن على علم تام بوظيفة المندوب (المراسل الأدبى) أو وكيل المؤلفين ، ولكن بدا لى من الحكمة أن أتعرف على أحدهم ، اخترت وكيلا بطريقة عشوائية عن طريق دليل التليفون وحددت موعدا معه للقائه فى مكتبه ، حين وصلت الى

هناك بحقيبتى المملوءة بالمخطوطات ، ألقى نظرة طويلة على محتوياتها ، واخبرنى أنه يجب ترك كل شيء عنده ليقرأه فيما بعد ، " فيما بعد " هذه لم تكن محددة ، فقررت أن مايقوله لايروق لى .. سألنى وأنا أغادر المكتب عن اسمى ثانية ، حينما اخبرته ، ابدى ملاحظة وهى أن هناك قضية واحدة لن تقلقنى فإن لى اسما جيدا للأغراض الأدبية وأنه لا داعى لتغييره .

فى الصباح التالى ذهبت إلى شارع ٥٩ حسب موعد بائع كتب الطبعات الأولى ، متفائلا بأنى سأتسلم عشرة أو اثنى عشر دولارا ثمنا للكتاب . بمجرد أن تحدثت معه زعم أنه لا يعرفنى ولا يعرف شيئا عما أقوله ، ثم قال أنه لم يرنى من قبل فى حياته . ذكرته بالمحادثة التى جرت بيننا فى اليوم السابق ، ووصفت له الكتاب الذى تركته عنده ، ووصفت له ربطة العنق التى كان يرتديها ، زعم غاضبا أنى أحاول أن أثير المشاكل ، وهدد بطلب الشرطة إذا لم أغادر على الفور ، لم يكن لدى طريقة لأثبات ما اقول ولم يكن هناك ما يمكن عمله سوى المغادرة ، وبقيت جائعا نسبيا بقية إقامتى فى نيويورك .

سمع الفردكريمبورج بطريقة ما أنى أحضرت معى حقيبة مملوءة بالمخطوطات غير المنشورة ، واقترح أن أدع أحد الناشرين يقرأ بعضا من القصص الطويلة والقصيرة التى بحوزتى ، اعطيت قصة طويلة الى شاب نشط يعمل محررا فى مؤسسة "هيرون بريس" للنشر واسمه اريك بوزيلت .

خالجنى شعور ، وقد أكون مخطئا ، بأن أريك هذا لم يكن له مكتب على الإطلاق ، ولكنه يدير عمله من عربة "تاكسى"

قابلته بناء على موعد مسبق ، عدة مرات ، وفى كل مرة يحضر فى الوقت المحدد وفى منطقة محددة من شارع ماديسون فى سيارة تاكسى ويطلب منى أن أركب ، وتسير العربة ببطء جيئة وذهابا لمدة نصف ساعة أو أكثر فى الشارع نفسه ، هو يتحدث وأنا أنصت اليه .

بعد مقابلتين معه ، أصبحت نفسيا على استعداد لقبول عرضه بشروطه هو لنشر القصة الطويلة التى أعطيتها له ليقرأها ، كنت منفعلا بفكرة أن ينشر كتاب لى ، وكنت على استعداد أن أوقع على جميع حقوق نشر مخطوطاتى التى أحملها معى لو عرض اريك ذلك .

حينما وقعت عقد القصة الطويلة ، اعلمنى اريك أن الكتاب سينشر تحت عنوان "اللقيط" بدا لى عنوانا غريبا وغير عادى لقصة ، لكنى افترضت أن اريك يعرف أكثر منى فى عالم النشر .

بعد نشر قصتى القصيرة فى مجلة نيو اميركان كارافان فى أكتوبر ، صدرت القصة فى طبعة محدودة فخمة فى ١١٠٠ نسخة مرقمة ومزينة بصور على صفحات كاملة رسمها تاى ماهون . بعد عدة أسابيع وأنا فى بورتلاند تسلمت كلمة من أحد المسئولين فى المقاطعة يقول فيها رغم أنه لا يزعم أنه ناقد أدبى فإنه يعرف تماما مايراه حين ينظر الى الرسومات ، وبذلك فإنه يعتبر أن من واجبه أن يخبرنى أن الكتاب يجب ألا يعرض للبيع فى بورتلاند .

١٥

تسلمت فى صباح أحد أيام خريف "كيب اليزابيث" الضبابى ، خطابا مختصرا من ماكسويل بيركنز مسئول التحرير فى مؤسسة تشارلز سكرنبرز ، يقول فيه أنه قرأ قصتين لى فى مطبوعات محدودة الانتشار ، وأنه يود أن يرى بعضا من قصصى غير المنشورة ، هذه هى المرة الأولى التى يطلب فيها أحد أن أزوده بمخطوطات لقصصى ، وحيث يمكننا اعتبار مجلة " سكرنبرز " تجارية وواسعة الانتشار ، فذلك يعنى خطوة كبيرة الى الأمام بالنسبة لى بعد نشر قصصى فى نيو اميركان كارافان ، والمجلات الأخرى محدودة الانتشار .

وصل الخطاب فى لحظة نشاط محمومة مرت بى ، استمرت ثلاثة أشهر من الكتابة المتواصلة بكثافة لم أصل اليها من قبل ولا وصلت اليها بعد ذلك .

ارسلت له فى البداية ، قصة قصيرة يوميا لمدة أسبوع ، وكل مرفق بها رد البريد ، لكنى لم أكن فى حالة تسمح بعدم التشجيع بعد ذلك ، بدأت نظاما صارما لانهاء قصتين قصيرتين اسبوعيا ، شعرت بالحاجة إلى الانتقال الى مكان آخر ، وبدا لى أن إقامتى فى كيب اليزابيث قد طالت خاصة وأن الشتاء بدأ يزحف على مونت فيرنون ، ومخزن الخشب لا يحوى سوى القليل منه ، فاتجهت إلى الجنوب ثانية .

ذهبت فى البداية الى مورانا ، لكن الأمطار الغزيرة أحالت الطريق الطينى إلى الكابينة فى الغابات الصنوبرية ، الى طريق لايمكن عبوره ، فاتجهت الى أوجستا حيث وجدت مكانا رخيصا فى شارع جرين ، وهناك واصلت الكتابة ليلا ونهارا لعدة أسابيع ، أخرج مرتين فى اليوم لأحضر علبة من الفاصوليا ورغيفا لوجباتى .

لم يكن فى الغرفة تدفئة ، والوقت يناير ، ومازال التقرح فى يدى وقدمى نتيجة لعضة الصقيع خلال الشتاء الأول الذى قضيته فى شمال نيو انجلند يلازمنى ، ووصلت الالام لدرجة جعلتنى اشكو الى المالكة من قلة التدفئة ، فشكت لى بدورها من ضجة آلتى الكاتبة فى الثانية أو الثالثة صباحا وقالت : ان الناس الأمناء الذين يعملون بجد يذهبون الى أعمالهم نهاراً بدل المكوث فى البيت والخبط على الآلة الكاتبة طوال الليل ، وتمنت بشدة أن أجد عملا أو أنتقل إلى مكان آخر .

كانت الغرفة الوحيدة فى البلدة التى تمكنت من العثور عليها بأجرة دولارين ونصف اسبوعيا ، وقررت أنه من الأفضل سحب شكايتى والبقاء .

فى نهاية يناير ، أصبحت متأكدا أنى لن أكون أكثر إحساسا بالبرد فى مونت فيرنون منه وأنا فى هذه الغرفة الباردة فى جورجيا .

ركبت الباص لأصلها مع آلتى الكاتبة وحقيبة مخطوطات ، شققت طريقى عبر طريق مغطى بالثلج بارتفاع ثلاثة أقدام ،

واشعلت النار فى مدفئة المطبخ ، طبخت وأكلت ونمت فى المطبخ المريح الدافىء للأسابيع الستة التالية .

وخلال الشهرين السابقين ، كان كلما رفض ماكس قصة سارعت بارسال غيرها ، ومعظم هذه القصص المرفوضة قبلتها مجلات صغيرة مختلفة ، كما لاحظت أن خطابات الرفض التى يرسلها ماكس تحمل تعاطفا مقصودا تجاه عملى ، أصبحت القصص تعاد بسرعة أقل مما فسرته بأنه يعطيها قدرا اكبر من الاهتمام ، كما أنه استنفد جميع حججه فى الرفض ، وربما أضحى تعبا من عنادى والحاحى المتواصل ، ورغم ذلك كانت خطاباته تتزايد متخذة شكلا غير رسمى واكثر حميمية وتشجيعا .

طلب منى اريك بوسيلت أن أرسل له قصة طويلة أخرى ، فبادرت الى ارسالها فورا ، وفى الوقت الذى نشرت فيه فى آخر العام ، تولى اليكس هلمان أحد المشاركين فى مؤسسة هيرون بريس ، أعمال اريك كمحرر للدار ، وبادر بتأسيس شركة جديدة ونشر قصتى التى عنوانها "المغفل الفقير" فى طبعة محدودة وبرسومات الكسندر كورت ، وكان له مكتب للتعامل يقع فى بناية لطيفة محترمة وليس فى عربة اجرة فى شارع ماديسون ، ومع ذلك سواء بسبب كفاءة مؤسسته أو عدم كفاءتها ، وقع سوء تفاهم بيننا .. ولم اتسلم نسخة من الكتاب .

فى ذلك الوقت كنت مشغولا بمشاكل أخرى تجعلني لا أفكر فى تفصيلات عمل يتعلق بنشر قصة طويلة لى ، كان أهم

هدف فى حياتى آنذاك هو اختراق مقاومة هيئة تحرير مجلة سكرنبرز .

كنت أكتب قصة جديدة وارسلها الى ماكس اسبوعا بعد اسبوع ، بعضها كانت تدور أحداثها فى نيوانجلند والبعض في الجنوب ، وبدا لى أن ذهنى يحتشد بموضوعات لاينضب معينها وأريد أن أكتب عنها ، وكانت الصعوبة في ايجاد الوقت الكافى لتحقيق ما أرغب فى كتابته خلال الأربع والعشرين ساعة القصيرة .

توقفت عن ملء ساعة الحائط الوحيدة التى فى البيت ، ومع ذلك بقى شكلها غير مريح لى ، وحللت الأمر بأن حفظتها فى مكان بعيد عن نظرى ، كما أن كل قصة ترفض لى كنت أرسلها الى مجلة أخرى ، وهكذا حتى تقبل ، وأصبحت تكلفة البريد أكثر من تكلفة الطعام والسجائر .

كانت المكتبة فى بورتلاند ، تترنح نحو النهاية ، برغم مبلغ الالف دولار التى دفعتها لتسييرها ، فى الواقع كانت كل الكتب من الكمية الأصلية التى كتبت لها المراجعات قد بيعت سواء بسعرها الرسمى أو بربع دولار للكتاب للمكتبات القديمة ، وشعرت أن المكتبة قد استنفدت أغراضها وأن الوقت قد حان لقفل ملفها واغلاق الأبواب .

عشت أنا وعائلتى مدة سنتين بمبلغ يعادل ألف دولار وهو مقدار المبلغ الذى اقترضته من البنك وأنوى إعادته فى موعده .

جاءتنى "مارج مورس" الى مونت فيرنون بروح معنوية منخفضة ، ذكرتنى وكأنها تتهمنى بأنها لابد أن تذهب الآن إلى بروكلين ، وكان العرض الوحيد الذى قدمته لها أن تقنع شخصا آخر بفتح مكتبة بكتب قام بمراجعتها قبل هبوط ثلوج مارس بوقت قصير ، تلقيت رسالة من ماكس يخبرنى فيها أن حملتى خلال الشهور الثلاثة الماضية قد أتت ثمارها ، وأنه قد وافق على نشر إحدى قصصى فى المجلة ولم يقرر بعد القصة التى سيختارها .

وبالعودة إلى الفهرست الذى احتفظ به عن حركة قصصى من مجلة الى أخرى ، وجدت أن لدى ماكس خمس قصص لى ، عليه أن يختار واحدة منها .

كان خوفى الفورى أنه ربما يغير رأيه ، وأن يحدث شيئا ما قبل أن ينشر إحدى قصصى ، فباشرت العمل منذ الغروب لأزوده بمادة كافية تساعده فى اتخاذ قراره دون تأخير .

بعد يوم وليلتين كنت قد انهيت ثلاث قصص قصيرة جديدة ، ثم أخترت ثلاث قصص أخرى مما لدى حتى يصبح عنده إحدى عشرة قصة ، وفكرت أن من الحكمة أن آخذهم بنفسى الى نيويورك ولا أسارع بإرسالهم بالبريد ، ورد على خاطرى أنه ربما تعطل القطار فيسبب تأخيرا فى تسليم البريد .

القسم الثانى

السنوات الوسطى

أثناء رحلة الباص من بورتلاند إلى نيويورك والتى استغرقت الليل بطوله ، بقيت مستيقظا تماما تنتابنى هواجس سوء الحظ ، وفي الوقت الذى إجتاز فيه الباص هارتفورد ، بعد منتصف الليل بقليل ، اندفاعى الواثق أصبح امرا مشكوكا فيه ، وبدأت أتساءل عن حكمة ما افعله ، لم أكن قد رأيت ماكس بيركنز ، وعلاقتى الوحيدة به كانت عبر المراسلة . ومع بزوغ الضوء بدأت اتصوره شخصا مخيفا يمكن أن يمتعض لاقحام نفسى عليه ويتحيز ضد أعمالى .

قضيت الوقت اتمشى جيئة وذهابا فى الشارع الخامس ، أحمل المظروف الذى يحوى مخطوطاتى ، أمام مبنى مجلة سكرنبرز ، من الثامنة صباحا وحتى ما بعد العاشرة بقليل ، وخلال ذلك الوقت كنت أفكر فى سبب معقول ابرر به تقديم نفسى دون دعوة ، ولكن لاشىء مقنع ومؤثر خطر على ذهنى ، وشعرت أن مقدار الشجاعة القليلة الباقية لدى بدأ يتبخر ، فعبرت الشارع وركبت المصعد الى مكاتب المحررين .

سألتنى فتاة مرحة ، فورا ، عما اريد ، أخبرتها ، والتوتر فى الجو المحيط يفقدنى أعصابى ، إنى أرغب فى ترك مظروف به مخطوطات لماكس بيركنز ، سألتنى إذا كنت أرغب فى رؤيته ، قلت بسرعة لا أريد ، وبينما كنت أستدير لأغادر ، سألتنى إذا كنت أرغب فى ترك رسالة مع المظروف ، نطقت اسمي وقلت انى سأكون فى فندق "مانجر" خلال اليومين القادمين ، وبسرعة أخذت المصعد هابطا .

حين وصلت الفندق ، ذهبت الى غرفتى وانتظرت ، عقلى يقول لى أنه من الغباء الانتظار ، ولكن لم استطع أن أعترف أن الرحلة كانت بلا نتيجة أملت أن يتصل بى ماكس هنا بدلا من الكتابة الىّ ، تركت الغرفة لفترة قصيرة ، أسرعت فيها الى الشارع لاتناول سندويتشا واشترى بعض الجرائد ، عند هبوط الليل استلقيت فى السرير منتظرا متوترا إلى مابعد منتصف الليل ، محاولا استجماع الشجاعة الضرورية لمكالمة ماكس إذا لم يتصل بى قبل مغادرة المدينة .

استيقظت فى الساعة السادسة والنصف صباحا ، تناولت الافطار واشتريت بعض الجرائد ، وعدت الى غرفتى فى الثانية منتظرا المكالمة ، كان الوقت ضحى حين دق جرس التليفون ، أجفلنى الصوت فى البداية ولكنى سعدت بالرنين حتى أنى تركت التليفون يدق مرتين قبل أن أجيب ، كنت متأكدا أن هناك شخصا واحدا فى نيويورك يمكن أن يكلمنى ، وكما أذكر جرت المحادثة كالاتى :

- كالدويل ، ارسكين كالدويل ، من مونت فيرنون ولاية مين ؟

ـ نعم ..
ـ حسنا ، كيف حالك ياكالدويل . بيركنز يتكلم . بيركنز من مجلة سكربنرز .
ـ أعتقد أني بخير .
ـ وصلتني مخطوطاتك امس ، تلك التي تركتها في المكتب ، كنت أتمنى أن تسأل عنى حين كنت هناك .
ـ حسنا .. هل رغبت في ذلك ؟
ـ على فكرة ، قرأت كل قصصك التي لدى الآن بما فيها الجديدة التي أحضرتها أمس .. ولن أضيف أكثر من هذا الآن .
ـ صمت .

ـ أعتقد أني كتبت لك منذ فترة أخبرك أننا نريد نشر إحدى قصصك في المجلة .

ـ تلقيت الخطاب ، لم تغير رأيك . اليس كذلك ؟ أعني حول نشر القصة .
ـ غيرت رأيي ! لا . اطلاقا . في الواقع أننا جميعا هنا في هيئة التحرير متفقون حول أعمالك وقد قررنا أن ننشر قصتين بلا من قصة واحدة ، وسننشرهما معا في عدد واحد . عدد شهر يونيه ، أحداهما " ترويض مارجوري " والأخرى " ربيع متأخر جدا " ، فهما قصتان جيدتان وهناك شيء ما فيهما يستهويني بشدة ، هناك إحساس جيد نحوهما شيء أحب أن أراه في القصص ، فهناك العديد من الكتاب الذين يملكون سيطرة كاملة على الشكل والتكنيك ولكن ينقص قصصهم الإحساس .. أعتقد أن ذلك مهم .

ـ أنا سعيد جدا أنهما حازا اعجابك .

ـ ستستمر فى الكتابة .. اليس كذلك ؟ نود أن نرى الكثير من أعمالك فى فترة لاحقة .

ـ سأستمر فى الكتابة ، لن أتوقف .

ـ سعيد أن أسمع ذلك .

صمت .

ـ والآن .. حول هاتين القصتين ، كما قلت نود شراءهما نكم تريد مكافأة عنهما معا . يجب أن نتحدث فى النقود عاجلا أو أجلا فليس هناك من سبيل لتجاهل ذلك .

ـ حسنا . لا أدرى بالضبط ، لم أفكر فيها كثيرا .. أقصد النقود .

ـ هل اثنان ونصف مبلغ جيد لكلتيهما ؟

ـ اثنان ونصف ؟ لا أدرى . ظننت أنى استطيع الحصول على مبلغ أكبر .

ـ ظننت ! حسنا ما رأيك فى ثلاثة ونصف ، فذلك أكثر ما يمكننا دفعه فى قصتين ، ففى هذه الأيام توزيع المجلات لايزداد كما كان فى الماضى وعلينا مراقبة تكاليفنا ولا أعتقد أن الأمور ستتحسن فى القريب وربما تسوء ، أنت تعرف أن الحياة الاقتصادية متدهورة وذلك ما يجعلنا نراقب تكاليفنا بدقة فى أوقات كهذه .

ـ أعتقد أنى موافق ولو أنى أعتقدت أنى سأنال أكثر من ثلاثة دولارات ونصف فى القصتين .

ـ ثلاثة دولارات ونصف ؟ اوه .. لا .. لابد انى اعطيتك انطباعا خاطئا ياكالدويل .. ليس ثلاثة دولارات ونصف ، لكنى

أعنى ثلاثمائة وخمسين دولارا .

ـ تعنى ذلك ! ذلك أمر مختلف بالتأكيد . ٣٥٠ دولارا مبلغ جيد .. لم أكن أتوقع هذا المبلغ .

حسنا إذن ، سأرسل لك الشيك خلال ايام ، اين ارسله لك .. اين ستكون ؟

ـ سأعود إلى مونت فيرنون .. سآخذ المركب الليلى على نهر لاين .

ـ هل تركب المركب دوما ؟ هل هذه طريقة سفرك ؟

ـ أول مرة .. فالباص أرخص كثيرا .. لكن استطيع أن أتحمل الآن .

ـ حسنا .. إلى اللقاء ياكالدويل ، ارسل لنا بعضا من قصصك بعد أن تلتقط أنفاسك .. وتعال لرؤيتى المرة القادمة .. إلى اللقاء .

بالتأكيد .. سأرسل لكم قصصا أكثر .. إلى اللقاء .

٢

وظهرت القصتان فى الموعد المحدد ، عدد يونيه من مجلة سكربنرز ، إنه شعور مشبع أن يدرك المرء وصوله إلى الهدف الذى خطط له ، والآن وقد تحقق هدف البداية يمكننى التفكير بأهداف أبعد تبدو لى أكثر أهمية : أحد هذه الأهداف فيما أعتقد هو أن أكافح لنشر مائة قصة قصيرة جديدة .

كنا في بداية الصيف آنذاك ، وبدأت ثانية عادة قطع الخشب خلال النهار ، وزراعة البطاطس عند الغروب ، والكتابة أثناء الليل .

حددت لنفسى كتابة قصة واحدة اسبوعيا ، بدل العمل كالمحموم لكتابة كم كبير من القصص القصيرة ، أردت أن أخصص وقتا كافيا لكتابة القصة الواحدة ، وقد كانت النتيجة أكثر اقناعا فى النهاية .

كنت أرسل كل قصة جديدة إلى ماكس بيركنز فى الحال ، ولكن لم تحظ أي منها بالقبول ، بعد اعادتها كنت ارسلها الى إحدى المجلات الصغيرة ، وكانت تنشر فى الغالب ، كان يوجد مايقرب من اثنتى عشرة مجلة للقصة آنذاك ، وجميعها مزدهرة ، بالاضافة الى مجلات اخرى تصدر فى فترات متقاربة .

في هذه المرحلة التي كنت أمر بها ، لم ابذل أى محاولة لارسال أعمالي إلى الدوريات واسعة الانتشار ، كنت أعتقد أن هناك الكثير لأتعلمه حين أنشر بالمجلات الأدبية الاكاديمية ، واخذت قرارا بتمزيق أى قصة ترفضها ست مجلات والغاء الفكرة التي بنيتها حولها ، ولم أندم على اتباع هذه الخطة .

غادرت البيت الصيفي الكبير ، بعد الرابع من يولية سنة ١٩٣٠ ، متجها الى كوخ صغير على شاطيء بحيرة باركر ، حيث يمكنني السباحة في ساعات الفراغ بعد الانتهاء من الكتابة والعمل اليدوى .

خلال السنوات القليلة الماضية ، كنت منغمسا بالكتابة واعداد المخطوطات ، ولم أتوقف لمراجعة واعادة قراءة ما كتبت ، لكنى الآن جمعت المخطوطات التي تشتمل على قصص قصيرة وطويلة ومواد أخرى ، واخذتها الى الكوخ لأقرؤها ، كان هناك حوالي ثلاث حقائب مملوءة بالمخطوطات غير المنشورة ، وبعد قضاء ليلة من النظر فيها ، لم اقتنع بأى منها ، لدرجة أني في الصباح حملت كل شيء الى شاطيء البحيرة واحرقته ، وكان الشعر والفكاهات والمقالات أول ما احرقت ، كما أضفت الى النيران المشتعلة المجموعة الكاملة من قصاصات الرفض التي جمعتها خلال السنين السبع الماضية .

بعد أسابيع قليلة من حرق المخطوطات ، تلقيت خطابا من ماكس بيركنز يقول فيه أنها ستكون فكرة جيدة لو أصدرت مجموعة قصصية في كتاب يضم القصص الحديثة التي

رسلتها ؛ وبعض القصص التى نشرتها فى مجلات مختلفة الاضافة الى بعض ما لم ينشر ايضا ، في حجم من ٢٥٠ ـ ٣٠٠ صفحة .

كنت قد نشرت خمس عشرة قصة في مجلات مختلفة ، من بينها مجلة "قصة" وهى أحدث مجلة ظهرت وأكثرها وعودا ، أضفت إلى هذه القصص عشر قصص أخرى ، كان بعضها تدور أحداثها في نيوانجلند والبعض الآخر لها خلفية جنوبية ، وبعد تفكير عدة أيام قررت أن أسمى المجموعة : الأرض الامريكية واستغرقت طباعة المخطوط على الالة الكاتبة، ومراجعته ، وكان فى حوالى ٢٧٥ صفحة ، حوالى ثلاثة أسابيع .

كان الوقت اواخر الصيف ، حينما اتجهت الى بوسطن وأخذت المركب البخارى المتجه الى نيويورك ، وفى هذه المرة لم أتردد فى الاتصال بماكس بيركنز .

استقبلنى بحرارة وود فى مكتبه ضئيل الأثاث ، ناولته المخطوط ، كان يرتدى قبعة بحافة مثنية بدت ضيقة على رأسه ، جلس ببطء وبدأ يقلب الصفحات لمدة ربع ساعة دون أن ينطق بكلمة ، ثم نهض وشبح ابتسامة ترتسم على شفتيه ، تحرك حول مكتبه بحذائه الجديد اللامع ، محركا اعضاءه المتصلبة ، ناظرا من النافذة على حركة المرور فى الشارع ، وبدأ يحدثنى عن ذكرياته فى فيرمونت حين كان شابا .

بعد حوالى ساعة من الذكريات الجادة أحيانا والطريفة غالبا ، جاء على ذكر المخطوط لأول مرة ، قال أن مؤسسة

سكرنبرز ستطبعها غالبا فى الربيع القادم سنة ١٩٣١ ، وأنه يود أن يختار قصتين لم تنشرا من قبل لينشرهما فى المجلة قبل صدور الكتاب .

وأنا استعد للمغادرة ، سألنى إذا كان لدى اقتراحات بخصوص توقيع عقد الكتاب ، اخبرته أن لا شيء لدى عدا أنى احتاج قليلا من النقود تعيننى على الحياة وأنى أحبذ الدفع مقدما .

حذرنى بأن لا اتوقع بيع عدد كبير من كتاب يضم مجموعة قصص قائلا : أن جمهور اقتناء الكتب يفضل الروايات ، وأن حقوق النشر لن تتجاوز ٢٠٠ ـ ٢٥٠ دولارا ووعد بأن يعمل على دفع مبلغ كمقدم قائلا أن الشيك سيرسل لى مع العقد حين يجهز لتوقيعى فى اوائل اكتوبر .

ذهبت لأقطع تذكرة عودة بالمركب البخارى الليلى وأنا سعيد أنى سأتسلم مبلغا كهذا .

أرسل لى العقد والشيك دون تأخير ، وحالما تسلمت النقود بدأت أخطط لرحلة إلى مكان ما ، إذا لم تتح لى الفرصة لأسافر فى الفترة الأخيرة ، إلا بين مين ونيويورك بالباص أو المركب ، وكنت أرغب فى رحلة إلى شاطىء المحيط الهادى ، فأنا لم أذهب قط غرب نهر المسيسبى واتطلع بشوق منذ فترة طويلة لرؤية مقاطعات امريكا الأخرى ، بعد تجهيز برميل من عصير التفاح وتخزينه فى القبو ، كنت على استعداد للمغادرة ، وفى اوائل اكتوبر ، غادرت مين بالباص الى كاليفورنيا حاملا معى آلتى الكاتبة الصغيرة من ماركة كورونا وعلبة من التى تلف السجائر .

٣

النفقات كانت مسألة هامة ، ولذا تجنبت التوقف فى الفنادق على طول الطريق ، كانت الرحلة من بورتلاند إلى لوس انجلوس تستغرق خمسة أيام وست ليال ، وكان يجب أن أنفق مابين ١٢ ـ ١٣ دولاراً اسبوعيا ، علما بأنى انفقت ١٠٠ دولار ثمنا لتذاكر الرحلة الدائرية ، وكان ما يطمئننى بالاضافة إلى آلتى الكاتبة ، شريط الآلة الاحتياطى الذى أحمله ، ورزمتان من الورق الأصفر ، ومؤونة شهر كامل من التوباكو وورق البفرة .

توقفت فى بوسطن ، نيويورك ، بتسبرج وسانت لويس فترة تكفى فقط لتغيير الباص العابر للقارة . انفعالى بالسفر جعلنى أظل مستيقظا طوال الطريق الى نيويورك ، وفى الليلة التالية نمت على اهتزازات الباص ، وحين وصلت الى لوس انجلوس بعد ليلة ثالثة لم أنم فيها جيدا ، بدأت اتساءل هل من العقل أن أقيم فى الباص لمدة اسبوع من أجل توفير النقود ؟ ومع ذلك ، حين وجدت الباص المتجه الى كنساس من سانت لويس منتظرا ، صعدت اليه دون تردد ، بدت المسافة بين البلدين كأنها تعادل كل المسافات التى سافرتها فى حياتى ، بعد رحلة امتدت طوال النهار ، نزلت من الباص مترنحا لأضع آلتى الكاتبة وحقيبتى والقى بنفسى فى فندق بكويك .

فى الحالة التى اعترتنى من الكرى والسبات وقلة النوم بعد أيام ثلاثة بلياليها من السفر ، لم تتضح لى آنذاك ولا بعد ذلك التفاصيل الدقيقة لمجمل الأحداث التى وَقعت خلال الساعات الست التالية ، وقد حاولت مرات عديدة أن استعيد أحداث ذلك المساء خطوة خطوة ، إلا أنها تمر مرورا عابرا فى ذهنى ، مع فجوات فى وعيى بذلك الذى حدث ، ربما يرجع ذلك لعدم قدرتى أن أظل مفتوح العينين معظم الوقت ذلك المساء .

سجلت اسمى فى فندق بكويك ، وصحبنى أحد الخدم الى غرفتى ، وهناك تعثرنا واحدا بعد الآخر بمجموعة من الحقائب قبل أن نصل الى مفتاح النور ، كان هناك خمس أو ست حقائب ثقيلة ذات أحجام مختلفة على الأرضية قرب الباب ، تكلم الخادم فى التليفون ليسأل إذا كان هناك خطأ ما فى حجز الغرفة لى ، فأخبروه بأن الغرفة قد أخليت ، وأنه سمح ببقاء الحقائب مؤقتا وأن محتوياتها قيمة كما أفاد صاحبها وسترسل له بعد حوالى ربع ساعة .

كانت الغرفة منعشة ومزينة ، والسرير مغريا بالنوم والاضاءة ناعمة وغير مباشرة ، وبمجرد أن غادرنى الخادم ، بدأت استعد لأخذ دش وحلاقة ذقنى لأول مرة منذ ثلاثة أيام ، كنت فى الحمام حين دق الباب ، واربت الباب قليلا فرأيت فتاة نحيفة سمراء ، ترتدى ملابس مزركشة ، تبدو فى العشرينات من عمرها ، لايمكن وصفها بأنها ليست جميلة أو جذابة ، قالت بقلق وتقطيبة ترتسم على وجهها : هل انتقلت الى هنا ؟ هززت رأسى ، ساد الصمت للحظات ، قالت : أقمت فى الغرفة حتى الساعة السادسة ، غادرت حتى لايحسبون ليلة اخرى ، كل هذه الحقائب تخصنى ، أردت فقط أن أتركهم هنا حتى يحين

موعد القطار ، ولكن قطارى قد تأخر ويقولون أنه سيغادر بعد ساعتين ، هل يقلقك إذا بقيت حقائبى هنا فترة أطول ؟ قلت لها : لا يقلقنى .

ابتسمت بود قائلة : أشكرك كثيرا ، ذلك جميل منك ، إنها مساعدة كبيرة ، لا أريد أن أنقلهم الى تحت ، لقد فقدت إحدى حقائبى الكبيرة بتلك الطريقة منذ فترة قليلة ، ألا يضايقك أن آخذ شيئا من إحدى هذه الحقائب ؟ قلت : لا بأس ، ودخلت الحمام وأغلقت الباب . بعد عشر دقائق خرجت من الحمام ونظرت فى الغرفة ، كانت الفتاة قد خلعت معطفها وجلست على كرسى تقرأ فى مجلة ، قالت مبتسمة : تريد أن تستخدم غرفتك الآن ، سأتركك حتى لا اضايقك أكثر .

خرجت إلى الصالة وأغلقت الباب وراءها ، ولم أجد الوقت لأطفىء النور أو أقفل الغرفة بالمفتاح ، ارتميت على السرير مرهقا ونعسا ، وبدا كأن لحظات قليلة قد مضت حين وعيت أن هناك من يهزنى بإصرار ، فتحت عينى قليلا لأرى الفتاة منحنية فوقى ، تساءلت وأنا نعسا : ما الحكاية ؟ قالت : القطار سيتأخر ساعة أخرى ، أكره أن أجلس فى الصالة كل هذا الوقت .

ـ وماذا ستفعلين ؟
ـ اتسمح لى بأن أمكث هنا ؟
نظرت الىّ متأملة وأضافت : فقط أجلس هنا وأقرأ .

حدقت فيها للحظات وأنا مستلق ورحت فى النوم ثانية .. وتنبهت على من يهزنى ، كانت الفتاة تجلس على حافة السرير آنذاك سمعتها تسألنى : ما حكايتك ؟

تمتمت : نعسان.
ـ قالت : أنها التاسعة والنصف ، اتصلت بالمحطة والقطار لن يغادر قبل الحادية عشرة والنصف ، ذلك سيجننى .
سألت : لماذا ؟
ـ ألن يبعث ذلك فيك الجنون ، افترض أن عليك أن تقوم بعدة اتصالات صباح الغد ثم تذهب إلى مدينة اخرى وتجرى اتصالات اكثر قبل هبوط الليل .

سألتها : أى نوع من الاتصالات ؟
ـ أومأت الى الحقائب المكومة قرب الباب : ابيع مواد تجميل . ذلك عملى ، عندى سبعة مواعيد مضمونة فى تولسا ومثلها فى اوكلاهوما ، ومن يعمل عملنا يعيش من يده الى فمه ، واذا لم التزم بمواعيدى سيأتى آخر ويأخذ العمل .

هززت رأسى وأغمضت عينى تعبا ، نمت ثانية ، لكننى أوقظت بعد قليل ، سألتنى : ما عملك ؟ أنت تسافر اليس كذلك ؟
هززت رأسى وقلت : أنا أسافر .

ـ ماذا تبيع ؟
ـ ورق عليه كلمات .

سألت باهتمام : كيف ذلك ؟ ماذا تعنى ؟
نمت ثانية قبل ان استطيع اجابتها .
استيقظت على هزاتها ، إصرارها على بقائى مستيقظاً أصبح مزعجا ، حاولت أن أزيحها بعيدا عن السرير .

قالت محتجة : يجب أن نتعارف جيدا .. ما اسمك ؟

ـ قلت : سكينى .. واطبقت جفونى .
ضحكت : لابد أنه اسم دلع .
هززت رأسى قدر استطاعتى .
قالت وهى تهزنى بإصرار حتى فتحت عينى : اسمى ادنا .. سأتلفن ليرسلوا لنا بيرة .. لايزعجنى أن أقيم احتفالا .. ايزعجك ذلك ؟ ذلك القطار سيغادر فى الثانية عشرة والنصف .. هناك وقت كاف .

استطعت أن اسمع صوتها يصلنى ضعيفا وهى تتحدث الى شخص فى التليفون ، ولكن لا أذكر شيئا بعد ذلك إلا هزاتها لى بإصرار .. حين فتحت عينى انحنت فوقى وهمست بشيء ما ، ولكن صوتها بدا لى بعيدا جدا ، ولم اتضايق مما كانت تقوله .

وأنا نصف نائم ونصف مستيقظ ظننت أنى أتذوق البيرة ، لكنى غير متأكد ، ثم بعد ذلك بقليل شعرت بشيء ثقيل يسقط فوقى ، ووجدت نفسى أكافح من أجل التنفس ، وبعد فترة قصيرة أنتابنى إحساس لذيذ بالسقوط بلا نهاية فى الفراغ وفقدت كل وعيى .

حين استيقظت بعد ذلك ، كان الوقت فجرا ، ولم تكن ادنا أو حقائبها فى الغرفة ، استدرت وعدت للنوم ثانية .

٤

بعد أربع وعشرين ساعة من وصولى كانساس سيتى ، قضيت نصفها فى النوم ، شعرت أنى استطيع تماما مواصلة رحلتى الى الشاطىء الغربى دون توقف .

وصلت لوس انجلوس بعد ثلاثة ايام بلياليها من السفر المرهق وتغيير الباص فى دنيفر وسولت ليك ، واقامة مقيدة فى باص غير مكيف الهواء فى جو ثلجى ، وكان ذلك بعد الظهر بقليل ، وفى خريف كاليفورنيا الممتع شعرت أنى سأنام لو لم استمر فى الحركة ، كنت أكثر تعبا ووسنا عما كنت عليه حين توقفت فى كانساس سيتى .

عبرت عدة وحدات سكنية حاملا حقيبتى وآلتى الكاتبة ، دون أن يصادفنى أى فندق ، سألت شخصاً عن فندق قريب بغرف رخيصة ، فاقترح أن أخذ عربة الى هوليود حيث يمكننى أن أجد عدداً أكبر منْ الفنادق فى شارع سبرنج فى لوس انجلوس .

وبينما العربة تعبر وسط هوليود ، رأيت يافطة مكتوب عليها "فندق مارك توين" ، تذكرت فورا قصة قصيرة كنت قد قرأتها لمارك توين وأنا فى جامعة فرجينيا ، وقلت فى نفسى أن مكانا يحمل اسمه يجعل الكاتب يشعر كأنه فى بيته ، نزلت فى المحطة التالية ورجعت الى الفندق .

كان الفندق صغيرا ، مطليا باللون الأبيض ويقع فى شارع ويلكوكس ، حكمت من مظهره أن بإمكانى دفع الأجرة ، وبمجرد أن دخلت الردهة ناولنى موظف الاستقبال قلم حبر وهو يرحب بى لأسجل اسمى . سألته عن تكلفة الغرفة فى الشهر ، وكان السعر الذى قاله أعلى مما توقعت ، وترددت فى التوقيع ، أضاف : الدفع مقدما بالطبع ، قلت : ولكن لدى أمتعة .

راقبته وهو ينحنى فوق المكتب وينظر بلا اقتناع الى حقيبتى الممزقة وآلتى الكاتبة ، قال بلهجة اتهام : تلك آلة كاتبة .. اليس كذلك ؟ هززت رأسى ، وتساءلت لماذا يتخذ موظف فى فندق يسمى مارك توين هذا الموقف العدائى من الآلة الكاتبة ؟

أضاف : وأنت كاتب .. أليس كذلك ؟

هززت رأسى ثانية .. قال وهو يبتعد قليلا : آسف لا يوجد لدينا غرفا تؤجر بالشهر الآن .

قلت : سآخذ غرفة لمدة أسبوع إذن .

قال باختصار وهو يهز رأسه : لا توجد لدينا غرف الآن .

قلت يائسا : إذن اعطينى غرفة لليلة واحدة ، لابد لى من مكان أنام فيه . لا استطيع أن أظل منستيقظا أكثر من ذلك .

أجاب : ابحث عن مكان آخر ، هناك فنادق كثيرة فى الشارع .

- لكن لماذا لايمكننى أن آخذ غرفة هنا ؟

- لأنه لا يأتينا من الكتاب إلا المتاعب ، يأتون إلى هنا

ويقيمون على الحساب ويفرون قبل أن يدفعوا .. وكل ما نجده بعد مغادرتهم حقيبة فارغة ، ودائما يخططون للهرب بآلاتهم الكاتبة بطريقة ما .

حملت حقيبتي وآلتي وسرت في الشارع ، وعند الناصية دخلت ردهة فندق "وارويك" ، لم يكن أصغر من فندق مارك توين ، ولكنه بدا كفندق اقامة دائمة أكثر منه للاقامة السريعة ، تقدمت مني إمرأة في حوالي الخامسة والثلاثين ذات شعر اشقر معقوص لتسألني إذا كنت في حاجة إلى غرفة ، اخبرتها اني ابحث عن غرفة رخيصة باجرة اسبوعية أو شهرية ،.قالت أن لديها غرفة يمكنني أن أستأجرها بسبعة دولارات في الأسبوع ، وقعت على السجل بسرعة قبل أن يثار موضوع الآلة الكاتبة ، وناولتها سبعة دولارات .

حين رأيتها تنظر باهتمام للعنوان الذى كتبته في السجل ، حملت متاعي وصعدت إلى الطابق العلوى ، بعد دقائق قليلة صعدت المرأة السلم يسبقها صوت حفيف تنورتها ، معبئة الجو بعطر نفاذ ، فتحت غرفتي متسائلة : من أى البلاد قلت أنك جئت ؟

- ولاية مين
- هل أنت متأكد ؟

قلت لها أني متأكد ، هزت رأسها قليلا وهى تنظر نحوى ولم تقل شيئاً بعد مغادرتها ، اقفلت الباب ووقفت أنظر من النافذة ، كان الشفق ووهج بلود الورد يشع من الأضواء فوق هوليود

حتى أني رغبت في الخروج للتفرج على المدينة ، لكني كنت أعرف أني سأنام في أي دقيقة ، فأنا لا أكاد استطيع فتح عيني ، لففت سيجارة بعلبة لف السجائر ، واشعلتها ، وسقطت تعبا على حافة السرير .

لا اذكر شيئا بعد ذلك ، سوى أني استيقظت جزئيا بعد عدة ساعات على صوت فوضى وهياج في الصالة خارج غرفتي بالضبط ، ظننت لبرهة أني أحلم ، لأني متأكد أنه لا يوجد أي فندق يمكن أن يسمح لنزلاء بعمل مثل هذه الضجة في منتصف الليل حتى ولا في هوليود ، زاد الصراخ والهرج ، وحين فتحت عيني متسائلا اذا ما كان هذا تقليدا هوليوديا ، فوجئت برجل إطفاء يكسر الباب بفأس .

وبعد لحظات كانت الغرفة تعج بدستة من الرجال والنساء المنفعلات ، معظمهم بالبيجامات والأرواب ، انتبهت لرائحة احتراق القطن آنذاك ، ولكن لم تكن لدى أدنى فكرة بأن هناك شيئا يحترق في غرفتي ، حتى جرني اثنان من رجال الاطفاء وهزاني بقوة ، أثناء ذلك ألقيت عدة جرادل من الماء على الفراش المحترق ، ثم رأيت أن نصف المرتبة على السرير المزدوج قد احترقت تماما تاركة "الزمبلكات" واضحة في ذلك الجانب .

سمعت صوت المرأة المرح تقول : الولد المسكين ، عرفت من هيئته حين وصل هنا بعد الظهر أنه تعب ونعس ككلب ضال .. هل أصيب بحرق في مكان ما .

تفقد رجل الاطفاء وجهى وذراعى وملابسى وقال لا أدرى كيف ظل سليما دون أن يحترق .

وقال آخر : هو لا يدرى كم هو محظوظ ، نصف ساعة أخرى وكان قد احترق تماما .

قالت المرأة : سأنقله إلى غرفة أخرى ليحصل على بعض النوم المسكين ، سألها أحد رجال الاطفاء : ألن تتخذى إجراء ضده لإشعاله النار فى الفراش ، كان يمكن أن يحترق الفندق كله لولا أن أحدهم شم رائحة الدخان فى الوقت المناسب .

قالت : لا .. وهى تتقدم لتحمل حقيبتى وآلتى الكاتبة ، قال رجل إطفاء آخر : ألن تخبرى البوليس حتى يجعله يدفع تعويضاً عن الخسائر ؟

قالت بحزم : لا .. وهى تدفعني تجاه الصالة ، قالت إنه جاء إلى هنا من ولاية مين لكنه لايستطيع خداعى فهو يتحدث بالضبط كأهل جورجيا ، وأنا من جورجيا أيضا أعيش هنا بين أغراب وآخر ما يمكن أن أفعله أن أسبب إزعاجا لشخص من موطنى .

الرغبة في الكتابة كانت أقوى عندى من الرغبة فى التفرج على مناظر هوليود الشهيرة ، ونادرا ما كنت أخرج من غرفتى فى فندق وارويك إلا لساعة واحدة ولمرة واحدة فى اليوم حيث أذهب لصيدلية تبيع السندويتشات مع الدواء لاتناول افطارا بـ ١٥ سنتا أو غداء بـ ٢٠ سنتا ، أو أسير عند الفسق مسافة وحدتين سكنيتين إلى مطعم يقدم وجبة عبارة عن قطعة عظم محاطه باللحم وبطاطس مهروسة ومحمرة بعشرين سنتا ، وهى وجبة لم تكن سهلة المضغ ، لكنها كانت تملأ البطن ، كنت انفق ١٢ دولارا فى الأسبوع وهو مبلغ فى حدود ميزانيتى ويوفر لى أيضا شراء الدخان وطوابع بريد للقصص التى أرسلها الى المجلات التجريبية يوميا تقريبا .

بعد ستة أسابيع من إقامتى فى فندق وارويك بدا واضحا لى عدم اقتناعى بالتقدم الذى أحرزه ، وبدأت أدرك بالتدريج أنى لن اقتنع بعمل من أعمالى إلا إذا كتبت رواية طويلة بل واكثر من ذلك أن تدور هذه الرواية بالضرورة حول الفلاحين المستأجرين للأراضى والعائلات التى تتقاسم المحصول والذين عرفتهم في شرق جورجيا ، وبالرغم أنى كنت بعيدا عن رينز ومقاطعة جيفرسون لفترة طويلة ، فقد شعرت أنى لن أتمكن من الكتابة بنجاح عن أناس آخرين فى أماكن أخرى إلا

إذا كتبت أولا قصة العائلات المزارعة التى لا تملك الأرض ، وحياة الفقر المدقع الذى تعيش فيه على رحال تلال شرق جورجيا وطرق التبغ ، وبدت لى الروايات التى قرأتها كمراجع بعيدة عن تصوير حياتهم أكثر من أى وقت مضى ، كانت تقوم على مواقف زائفة وأحداث مفتعلة بعيدة عن الواقع .

اردت أن أحكى قصة الناس الذين عرفتهم ، وطريقة الحياة التى يعيشونها بالفعل من يوم ليوم وسنة لسنة ، أحكيها بغض النظر عن موضات الكتابة أو الحبكات التقليدية ، وبدا لى أن الأكثر أصالة والمادة الأساسية للخيال هم الناس أنفسهم وليست الحبكات المصطنعة أو المضادة التى تعالج ببراعة أقوال وأفعال الانسان .

واتخذت قرارى ، حزمت أمتعتى وعدت الى جورجيا مخترقا اريزونا ونيومكسيكو وتكساس ، وصلت فى ديسمبر الى بيت والدى فى رينز ، كان الطقس باردا ورطبا ، وحقول القطن بنية وشجيرات الاسيجة وسنانة ، وعلى بعد أميال قليلة من المدينة تجتمع العائلات فى المزارع المستأجرة حول مواقد النيران فى أكواخ يصفر فيها الهواء ، تسيطر على معظمهم الكآبة ، وينهش الجوع بعضهم كالعادة ، والبعض يرهقه المرض دون رعاية طبية ، ملابسهم وطعامهم قليل بل ومعدوما فى بعض الحالات والعمل غير متيسر ، ولم تكن الحالة تسر الخاطر بل واكثر تثبيطا للروح عنها منذ سنوات .

لم أستطع ابعاد ملاحظة ماكس بيركنز عن ذهنى وهى أن

الحياة الاقتصادية للأمة ليست على ما يرام ، ويبدو أنها لن تتصلح لفترة طويلة ، ولم تكن الحياة الاقتصادية على ما يرام منذ فترة طويلة جدا فى المزارع المستأجرة أو المشاركة بجزء من المحصول فى شرق جورجيا .

وأصبحت أكثر احباطا لما رأيت ، وأنا أذهب للريف يوما بعد يوم ، واتوغل ابعد وابعد عن المستوطنات السكنية والطرق السريعة ولم استطع أن أتعود على رؤية الاطفال يتلوون من الجوع أو المرضى من كبار السن الذين يعجزون عن المشى الى الحقول للبحث عما يأكلونه .

وفى المساء كنت ، أكتب ما اراه خلال النهار ، لكن فى كل ما كتبت لم أنجح في التعبير عن المعنى الكامل لما رأيته من الفقر واليأس والاحباط ، وكلما توغلت اكثر فى مقاطعات بيرك وجيفرسون وريتشمون كلما قل اقتناعى بما كتبت ، كانت هناك قصة فى ذهنى مقدرة أن تروى وكان يجب أن تروى كما عرفها الناس بأنفسهم ، واخيرا حين عرفت أنها شىء كان من المفروض أن أفعله قبل كتابتي أى شىء ، تركت رينز وسافرت الي نيويورك ، فقد كان ما رأيته هو الذى كنت أبحث عنه .

استأجرت غرفة في الدور الرابع فى بيت يقع فى الشارع الخامس في الموقع الحالي لميدان روكفلر ، غرفة صغيرة ضيقة تتسع لسرير وكرسى ومصباح مكتب ، لكنها تطل على واجهات المبانى فى الجهة المقابلة للشارع ، وكان هناك تخطيط لازالة المبانى المحيطة لاقامة ناطحة سحاب لمبنى الاذاعة ، الاجرة كانت رخيصة ، ثلاثة دولارات ونصف

اسبوعيا ، واستطعت الحياة بخمسين سنتا يوميا للطعام المكون من رغيف من الخبز الشوفان ورطل من الجبن آكلهما فى غرفتى ، ووجبة اتناولها غالبا فى المساء فى مطعم قريب فى الشارع السادس ، سمى أخيرا بشارع امريكا ، عبارة عن طبق من شوربة العدس بعشرة سنتات ، وفنجان من القهوة بخمسة ، وبهذا المعدل من الانفاق ، سبع دولارات اسبوعيا للطعام والسكن وهو أقل مما كنتأنفقه فى كاليفورنيا بخمسة دولارات ، كان لدى من النقود مايكفينى لأشهر الشتاء فى نيويورك ، من يناير حتى ابريل .

بدأت بشراء شريط جديد لآلتى الكاتبة بخمسين سنتا ، ورزمة ورق بربع دولار ، وقلمين بخمسة سنتات ، ثم مزقت كل ما كتبته فى جوريجا ، كنت قد قررت عنوان الرواية وأنا أركب الباص الى نيويورك ، ولم يكن هناك عنوان مناسب لها اكثر من طريق التبغ ، وهو اصطلاح استخدم أصلا للطرق التى هيأتها دحرجة براميل التبغ عبر سلسلة التلال فى مزارع شرق جورجيا على نهر سافانا ، وحين لم يعد أحد يستخدم هذه الطرق لذلك الغرض ، عادت مساحتها الى الملاك التى تمر بأرضهم ، فأهملوها ولم يحافظوا عليها أو يعتنوا بها .

لم يكن فى ذهنى أدنى شك عن النتيجة التى ستؤول اليها الرواية منذ بدأت حتى انتهيت من المسودة الأولى بعد ثلاثة اشهر كانت عادتى اليومية ، أن أنهض قبل الظهر ، واتناول افطارا من الخبز والجبن ، وابدأ الكتابة ، كانت الرواية حية فى ذهنى حتى أنى لم أجد الوقت لقراءة ما كتبته فى اليوم

السابق ، واعتدت أن أتوقف عن الكتابة ساعة قرب المساء لاتناول شوربة العدس واتجول قليلا فى الشوارع ثم أعود لاستئناف الكتابة حتى الثالثة أو الرابعة صباحا وحين أنهى فصلا اراجعه حتى اقتنع به ، ثم أبدأ الفصل الثانى ، ولما بدأت كمية الورق تقل استخدمت ظهر الورقة للتوفير .

لم أشعر بالوحدة خلال تلك الفترة من اوائل سنة ١٩٣١ ، وربما لأن العمل الذى اكتبه استغرقنى تماما ، حتى أنى كنت اتراجع عن مكالمة أو الذهاب لرؤية ماكس بيركنز ، ومع ذلك جاءت مناسبات قابلت فيها بعضا ممن لهم علاقة بالنشر والكتابة ، فقد قضيت ذات مساء فى الحديث مع ريموند ايفريت وشارلس بيرس ، وهما محرران فى دار للنشر ، وفى اواخر مارس ذهبت الى حفلة كوكتيل فى مكاتب شركة ماكولى التى نشرت القافلة الأمريكية .

شيئان رئيسيان جذبانى فى هذه الحفلة ، البوفيه الذى وفر لى الوجبة الكاملة الوحيدة التى تناولتها خلال ثلاثة شهور ، ثم ماى ويست ، وبعد أن أكلت جيدا وحملقت حتى شبعت بماى ويست ، كان ذهنى قادرا أن يتذكر تجربة لقائى ببعض الضيوف الآخرين مثل لورنس ستالنج ، روبرت كانتويل ، مايك جولد ، ادوين سيفر ، جورج شرايبر ، دون بويل ، لويس ماجفورد ، جون شامبرلين ، وادموند ويلسون .

وفى هذا التجمع قابلت ماكسيم ليبر ، وكان محررا فى دار نشر برنتانو ، ويعمل على تأسيس وكالة المؤلفين الادبية وهو

اول وكيل ادبى يدعونى لأكون زبونا لديه ، وكان العرض مفاجئا لى لدرجة أنى لم أصدقه . قلت له أنى لابد أن أفكر قليلا فى الموضوع ، وخشيت أنه يجاملنى كصديق بلفتة كريمة ، وأن العرض سينسى بعد قليل ، ولكنه بعد أشهر كتب يسألنى ما هو القرار الذى وصلت اليه ، أجبت بسرعة أنى أرغب فى الارتباط به إذا كان متمسكا بما قاله ، ومنذ ذلك الوقت بقى ماكس ليبر وكيلى فى جميع ما كتبت من روايات وقصص ، وتولى كل العقود والمفاوضات حول كتبى .

أنهيت المسودة الأولى من طريق التبغ فى ٢٠٠ صفحة فى الأسبوع الأول من ابريل سنة ١٩٣١ ، وكان ما تبقى معى من النقود يكفى ثمنا لتذكرة العودة الى ماونت فيرنون ، وصدرت مجموعتى القصصية الأرض الأمريكية اواخر ذلك الشهر ، كما تسلمت ٣٥٠ دولارا من مجلة سكربنرز عن قصتين نشرتهما ذلك الربيع .

وسألنى ماكس بيركنز بعد صدور مُجموعتى عن رأيى فى كتابة رواية ، لم أخبره أنى قد انتهيت لتوى من المسودة الأولى لرواية ، بل قلت له أنى آمل أن أرسل له مخطوطة رواية قبل نهاية الصيف .

٦

مراجعات المجلات والجرائد لمجموعتى القصصية "الأرض الأمريكية" كانت خليطا منوعا ، بمعنى أن بعض المراجعين مدحوا المجموعة وتعاطفوا معها ، لكن الأغلبية منهم لم يكن كذلك ، لم أكن أتوقع أن يغمرونى بمديح واسع ، فأنا واع لبعض نواحى القصور فى مجموعتى ، ولكنى لم أكن مستعدا لهذه الحملة الواسعة من النقد غير المتعاطف ، خبرتى كمراجع للكتب جعلتنى استعد لمواجهة أشياء أخرى غير المدح ، لكن كان اكتشافا لى أن أجد معظم المراجعين ، حين لا يتفق ما يقرءونه مع وجهات نظرهم او لا يفهمون ما يقرءونه ، يزدرون العمل فى الغالب بل ويعاملون العمل الابداعى بسادية ، والملاحظات التى قيلت حول كتابى ليست فريدة من هذه الناحية ، وقد قرأت مراجعات لكتب أخرى ولاحظت أن التعالى كان صفة عامة فى معظم المراجعين ، ويبدو أن هناك حقيقة مؤكدة فى القول بأن كثيرا من المراجعين والنقاد هم مؤلفون فاشلون أو عشاق عاجزون ، وأنه لابد للناقد او المراجع الجيد أن يظهر مقدرته ، اولا فى ممارسة الحب او اصدار عمل ابداعى .

وفيما عدا قلة من النقاد والمراجعين ، فإن معظمهم نظروا إلى مجموعتى بازدراء ، بل وتعاموا عن الالتزام بواجبهم

النقدى ولم يخبروا القراء بشىء فيما يتعلق بمضمون القصص أو بمدى نجاح الكاتب أو فشله فى محاولته الابداعية ، وعلى العموم فان الكتاب ، وليس بسبب تلك المراجعات بالضرورة ، باع أقل من ألف نسخة .

بعد قراءتى لكم معقول من هذه المراجعات التى كتبت فى مجلات تصدر فى جميع أنحاء البلاد ، لم أعد أحترم مهنة مراجعة الكتب ، وتلاشى اعتبارى لها يوما بعد يوم ، ونتيجة لذلك وصلت لاقتناع أن عمود المراجعة المتوسط أو الصفحة الثقافية أو الملحق الادبى هو ابن الزوج أو الزوجة ويستحق الرثاء فى الصحافة الأمريكية ، يعامل معاملة سيئة ، تستجلب الحزن سنة بعد أخرى ، على يدى محررين فاقدى الحس ومعقدين نفسيا .

بدأت العمل بكتابة المسودة الثانية لطريق التبغ ، بعد تجربة قراءتى لمراجعات مجموعتى القصصية ، بفهم أكبر لما اريد أن أحققه .

كنت حتى وقت قصير ، جزءا من استقبال النقاد لكتابى ، معتقدا بغباء أن نجاح الكاتب يتوقف بدرجة كبيرة على مقدرته فى كسب ود هؤلاء كتاب المراجعات ، ولم يعد لدى الآن مثل هذا التصور ، وفى الوقت نفسه تعلمت درساً قاسياً ، وانى مقتنع الآن بأن واجب الكاتب والتزامه يجب أن يكون أمام نفسه وأمام قارئه .

وأن عليه تكريس جهده نحوهما ، وعلى المراجعين أن

يبحثوا عن مكان آخر لممارسة هوايتهم فى جلد الكتب ، فالقراء هم الوحيدون الذين لهم الحكم النهائى على كتبى .

وجدت أن أفضل تقسيم للوقت خلال ذلك الربيع والصيف ، هو تخصيص ثمانى ساعات للنوم يوميا ، وثمان ساعات للكتابة ، وثمان ساعات للعمل اليدوى ، فقد كان هناك خشب لابد أن يقطع ، وبطاطس لابد أن تزرع ، وعند اواخر يوليه كنت قد انتهيت من المسودة الثانية والأخيرة لطريق التبغ ، وملأت حظيرة الخشب بخشب القبقب والزان المنشور ، وجمعت محصول حبات البطاطس من الحديقة .

لم أكتب أية قصة قصيرة منذ تركت كاليفورنيا فى نوفمبر الماضى ، مخصصا الأشهر الثمانى الماضية للعمل فى الرواية ، ومع ذلك فإن القصص التى كتبتها قبل ذلك ، وقبلت ونشرت بدرجة أكبر من السنة الماضية ، كما أُختيرت قصة "دوروثى" والتى نشرت ذلك الربيع فى سكريبنرز لاعادة نشرها فى مجلد "أحسن القصص القصيرة لعام ٣١" والذى يحرره ادوارد دوبراين .

عدت الى كتابة القصة القصيرة بعد ارسال المخطوطة الى ماكس بيركنز وفى أقل من اسبوعين وصلتنى رسالة قصيرة يعلمنى ماكس فيها أن الرواية قد قبلت وستطبع فى كتاب عن شركة سكريبنرز فى اوائل العام القادم .

شعرت أنى استطيع أن أطلب وأنا مطمئن تسلم بعض

حقوقى المالية مقدما . وهكذا هيأت نفسى لمغادرة مونت فيرنون بعد أن مكثت هناك خمسة أشهر تقريبا ، وهى فترة طويلة أقضيها فى مكان واحد ، وحملت حقيبتى وآلتى دون أن انسى علبة لف السجائر وغادرت الى نيويورك بعد يوم عيد العمال ، (أول اثنين من سبتمبر ـ فعيد العمال أول مايو أو أول اثنين من سبتمبر ـ المترجم) .

« ٧ »

حين وصلت نيويورك فى سبتمبر سنة ١٩٣١ ، نزلت فى فندق مانيجر لعدة أيام قضيتها فى البحث عن غرفة رخيصة فى مكان هادىء ، مازالت الغرف فى المنطقة التى سبق أن عشت فيها لأشهر ثلاثة الشتاء الماضى ، رخيصة ، لكن المباني كانت تهدم بمعدل أسرع والضجة المتواصلة ليل نهار تزهد المرء فى الحياة هناك ولو مؤقتا ، حين أخبرت ماكس بيير أنى لم أعد أستطع تحمل نفقات فندق مانيجر ، وهى بمعدل ١٤ دولارا اسبوعيا ، اقترح أن نذهب لمقابلة الروائى ثيانال ويست ، كان ويست والذى يعرف ببيب ويست قد صدر رواية عمد كثير من النقاد الى الحط من قدرها باعتبارها رواية معقدة كتبت لفئة خاصة ، ولذا فإنها لم توزع بشكل واسع ، ولم يشعر ويست بالمرارة لملاحظات المراجعين ولكنه شعر بالحيرة لموقفهم غير المتعاطف وعجزهم عن فهم هدفه من الرواية .

وبجانب كونه كاتبا ، كان ايضا مديرا لفندق ساتون الفخم ، وكان يعرف الصعوبات المالية التي يعمل فى ظلها المؤلفون ، ولكونه قريبا حميما لصاحب الفندق ، فقد كان فى موقع يسمح له بتقديم أسعار مغرية للكتاب ابان الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينيات ، وقد قيل أنه من الأفضل للفندق ، فى تلك الأيام ، أن يكون ممتلئا بقدر الامكان ، ولو بالدفع الجزئى للأجرة ، أو حتى بعدم الدفع إطلاقا للبعض ، عن أن يظل خاليا ، لا أعرف كم عدد الكتاب والكتاب الواعدين الذين ساعدهم بيب بهذه

الطريقة خلال تلك الأزمة ، ولكن كان فندق ساتون لعدة سنوات أحد الفنادق القليلة من نوعها الذى كانت النوافذ المضاءة به أكثر من النوافذ المظلمة .

وبالرغم من أن بيب وافق على انتقالى للاقامة فى ساتون ، فإنه رفض أن يحدد سعرا للغرفة أو يشير الى ذلك قائلا أن بامكانى دفع ما اقدر عليه ، ولأنى على معرفة بالأسعار الأساسية للفندق ، خجلت أن أخبره أن حدود امكانياتى تتوقف عند أربعة دولارات اسبوعيا ، أو خمسة على اكثر تقدير ، ومع ذلك حثنى ماكس ليبر ألا أضيع مثل هذه الفرصة ، وانتقلت الى غرفة فخمة فى الفندق ذلك اليوم .

بعد اسبوع من اقامتى ، ذهبت إلى موظف الحسابات وقدمت له عشرة دولارات أجرة الأسبوع ، لم يقل أحد شيئا يضايقنى لكنى شعرت بالضيق ، كنت أعرف أن ما أدفعه بالرغم من أنه ضعف ما استطيعه فهو يقل عدة مرات عن السعر المقرر للغرفة .

أثناء هذه الفترة كان بيب يكتب رواية نشرت فيما بعد تحت عنوان "سيدة القلوب الوحيدة" ولكنه لم يكن مقتنعا بما يكتبه ومزق المسودة مرتين ، وكان يقول ، كلما تحدثت معه ، أنه يرغب في ترك نيويورك والذهاب إلى مكان ما فى الريف لينهى روايته ، وبالنسبة لى فلم أكن راضيا عن تقدمى فى الكتابة ، ولم استطع كتابة سوى بضع صفحات فى الرواية التى خططت لكتابتها ذلك الشتاء ، وشعرت بالقلق تحت هذه الظروف .. وتحققت أن لابد من المغادرة والبداية من جديد

فى الرواية بمكان آخر ، فى تناول الخبز والجبن فى احد ألغرف الفخمة المغطاة بالسجاد كان أكثر مما تتحمله طاقتى ، فمهما شربت من الماء فإن بلع الطعام كان يزداد صعوبة .

بعد ثلاثة اسابيع من الاقامة فى ساتون ، أخبرت بيب أنى لابد من الانتقال الى مكان اقل فى التكلفة ، فحثنى على البقاء ، قائلا أنه بالنسبة لك يمكن أن تدفع دولارا فى الأسبوع أو لا تدفع على الاطلاق ، ومع ذلك حزمت حقيبتى ورحلت ، ذهبت ، هذه المرة ، الى غرب المدينة ، واستأجرت غرفة فى الطابق الثالث على بعد قليل من سنترال بارك ، كانت الأجرة اربعة دولارات ونصف فى الأسبوع

تجربة كتابتى لرواية طريق التبغ مازالت تحتل عقلى تفكيرى ، فعزمت أن أطوع نفسى لكتابة الرواية التالية عن الحياة فى مكان غير الجنوب ، لم تكن طريق التبغ قد نشرت بعد ، فلن تظهر قبل فبراير سنة ٣٢ ، ولكنى كنت متشبعا بها لدرجة أنى كنت خائفا من أى كتابة عن الجنوب فى ذلك الوقت ستكون أقل قوة وبالتالى أقل تأثيرا ، اذن فالقصة التى بدأت اكتبها كانت عن عائلة من مين ، ولأنى انفقت ضعف المبلغ الذى كنت مقررا انفاقه فى الشهر الأولى لى فى نيويورك ، فقد حاولت أن أعيش بتقشف اكثر عن ذى قبل مازلت اتناول خبز الشوفان وجبنة مصايد الفئران فى غرفتى ، وحين أخرج بعد العصر ، ادفع عشرين سنتا لطبق من شوربة الفاصوليا وأوفر ثمن فنجان القهوة ، لقد خططت أن أقيم فى نيويورك خمسة أشهر أنهى فيها المسودة الأولى والثانية من الرواية الجديدة لكنى كنت أسير فى الكتاب ببطء اكثر من اللازم .

٨

كنت سأتضور جوعا ذلك الخريف فى نيويورك ، لو لم أكن محظوظا بتناول وجبة كاملة عدة مرات اسبوعيا خلال أكتوبر ونوفمبر ، كانت تقطن الغرفة المجاورة لى فى الطابق الثالث سيدة ظريفة ، لديها طبقان كهربائيان تعد عليهما الوجبات مرتين يوميا . لم يكن يسمح بالطهى فى نظام الغرف التى نستأجرها ، لكن فى حالتنا هذه كانت صاحبة المنزل متساهلة ، كانت رائحة الطعام تملأ الصالة وتتسرب من الشق تحت الباب الى غرفتى كل ظهر ، بعد اسبوع من انتقالى الى هذا البيت ، اخبرتنى الفتاة أن أسمها ماريانا وأنها جاءت إلى نيويورك من ميامى فى اوائل سبتمبر ، بدت كأنها فى الثامنة والعشرين أو التاسعة والعشرين ، كنت فى السابعة والعشرين آنذاك ، كانت ضئيلة الحجم بشعر بنى ، ومن الواضح أنها قادرة على انفاق مبلغ معقول على ملابسها ، لكنها لا تخرج للعمل .

ذات مساء فى اواسط اكتوبر دعتنى لأول مرة على العشاء ، كنت جالسا فى غرفتى والباب مفتوح قليلا ، وأنا أتناول الخبز والجبن ، نظرت فى غرفتى وسألت : أهذا كل ما تتناوله على العشاء ؟!

. أخبرتها صادقا دون أن أظهر البؤس أنها هى وجبتى المعتادة فى ذلك الوقت كل يوم ، طلبت منى الحضور فوراً إلى

غرفتها لتناول بعضا من يخني لحم البقر الذى أعدته ، لقد شممت رائحة طهو اليخني منذ ساعتين وأضحيت أكثر جوعا قبل تناولي الخبز والجبن ، تبعتها الى الغرفة المجاورة ورأيت أنها قد أعدت طاولة صغيرة عليها طبقان وفنجانان ، وشربت أطعم قهوة تذوقتها منذ اسبوع ، وأنا أشرب الفنجان الثانى سألتنى كيف أتهجى اسمى ، فسألتنى : ألم يسبق أن دعاك أحد باسم سكينى ، قلت : أحيانا .. كيف عرفت ؟ قالت لأن ذلك هو التصغير المنطقى الوحيد الذى أتخيله لارسكين ، إنه من المقطع الأخير لاسمك .

وكان اسم التدليل مناسبا لسبب آخر ايضا ، حين كنت العب الكرة كان وزنى ١٨٠ رطلا ، لكنى فى السنوات الأخيرة ، هبط وزنى الى ٩٨ رطلا ونادرا الى ١٢٥ رطلا ، وكنت ست أقدام طولا (سكنى تعنى النحيف ، جلد على عظم ـ المترجم) .

سألتنى لماذا أقضى هذا الوقت الطويل اكتب على الآلة الكاتبة ؟ أخبرتها أنى أكتب رواية .. قالت أنها رغبت فى كتابة القصص القصيرة حين أنهت الجامعة ولكن بدلا من ذلك عملت مدرسة لثلاث سنوات .

جلسنا نتحدث حوالى الساعة ، لاحظت خلالها أنها كانت عصبية وخائفة من شىء ما ، وحينما يعلو صوت خطوات فى الصالة أو على السلم تنصت باهتمام كما لو كانت تتوقع شخصا ما ، كان باب الغرفة مغلقا .

سألتها : هل تتوقعين احدا ؟

هزت رأسها بسرعة قائلة : لا .. ثم قالت بحزم : لا .. لا أحد قادم

نهضت ، وذهبت إلى النافذة ، أطلت من بين الستائر المنفرجة ، وبعد عدة دقائق عادت وجلست .

قالت وهي ترتعش ، وقد أبيض وجهها وعلاه التوتر : أنا خائفة ، خائفة فعلا .. سألت مندهشاً : مم تخافين ؟

نظرت نحوى نظرة طويلة كأنها تقلب الأمر هل تقول او لا تقول .

قالت : هناك رجل ..

توقفت ، ونظرت نحوى عدة دقائق كأنها فقدت فجأة الثقة بكل البشر ، قبل أن تضيف : رجل شرير .. وأكملت : يملك مطعما عند ركن شارع كولمبس .. انه .. لا ادرى .. يهددنى كل يوم تقريبا .

ـ إذا كان يهددك لماذا لا تخبرين الشرطة لتساعدك ؟

ـ اخبرنى ألا أفعل .

ـ يمكنك ترك المكان والذهاب إلى مكان آخر . يمكنك العودة الى فلوريدا ألا تستطيعين ؟

هزت راسها جافلة ، سألتها : لماذا لا تعودين إلى فلوريدا ؟

ـ لأنه قال لى ألا أفعل .

ـ منذ متى تعرفينه ؟

ـ منذ قابلته فى ميامى .. منذ عام .

ـ هل أخبرك أن تأتى إلى نيويورك ؟
أومأت بالأيجاب .
ـ هل سبق له أن جاء هنا لرؤيتك ؟
أجابت فورا : لا
ـ متى ترينه ؟
ـ حين أذهب الى المطعم .
ـ لا تذهبى الى هناك إذن .
ـ لا أستطيع ، لا ادرى ما جرى لى ، لكنى لا استطيع الابتعاد عنه لابد أن احضر الى نيويورك حين يطلب ذلك ، اشعر ان علىّ أن أفعل ما يقوله ولا ادرى لماذا أفعل ما يقوله لى ، لكنى مضطرة لا ادرى ما سيحدث لى ، لكن سيحدث شىء وأنا خائفة .

ـ ما الذى يمكن أن يفعله اذا اراد أن يفعل شيئا ؟
ـ يضربنى .. ولا ادرى ما سيفعله غير ذلك .
ـ ما الذى يجعلك تفكرين بهذه الطريقة ؟
ـ لا أعرف .. ولكن هذا ما افكر به طوال الوقت .

نهضت وبدأت تغسل الأطباق فى الحمام ، قمت اسير فى الغرفة دهشا منها ، تبدو عادية فى كل شىء إلا فى خوفها هذا ، سواء كان حقيقة أم تخيلا ، لم استطع أن أقرر إذا ما كانت قد اخترعت هذه القصة أو أن هناك رجلا فعلا يسيطر عليها بهذا الشكل ، حين انهت غسل الأطباق .. غيرت ملابسها فى الحمام وجاءت لتجلس على السرير .

لم يشر أى منا إلى خوفها مرة ثانية ، حيث غادرتها عند

منتصف الليل الى غرفتى ، قلت لها : إذا جاء أحد هنا هل تخبرينى ؟

أجابت بوقار هازة رأسها : لا يأتى الى هنا ابدا . لابد أن أذهب الى هناك . هو قال لى ذلك .

وخلال ايام أكتوبر التالية وشهر نوفمبر كنت اذهب إلى غرفة ماريانا عدة مرات اسبوعيا واتناول الوجبات التى تعدها ، ولكنها لم تبح بأى معلومات أخرى عن خوفها السابق ، ومع ذلك ظلت مصرة أن هناك رجلا سيؤذيها بشكل ما وتعتقد أن ذلك حتمى ، وكانت تغادر المنزل لفترة قصيرة كل يوم لتشترى الطعام ، فى اوائل ديسمبر خرجت بعد ظهر أحد الأيام والثلج يتساقط ولم ترجع ثانية ، فتحت صاحبة البيت غرفتها بعد ثلاثة أيام وأبلغت البوليس الذى وجد فى الغرفة عنوان اقارب لها فى ميامى ، فأعلموهم أن ماريانا قد إختفت ، وبعد حوالى اسبوع حزموا حاجاتها وارسلوها بسفينة الى فلوريدا .

أخبرتنى المالكة بعد ذلك أن الشرطة استجوبت صاحب مطعم فى شارع كولمبس أفاد بأنه رأى فتاة فى أوصاف ماريانا ترددت على مطعمه عدة مرات فى الأشهر الثلاثة الأخيرة ، وأنه لم يحدثها إطلاقا ولا هى حدثته أيضا ، وأقنع البوليس أنه لا يعرف شيئا عن اختفائها

« ٩ »

لم اقتنع بالمسودة الأولى للرواية التى اكتبها عن عائلة تعيش فى مزرعة منعزلة على طريق خلفى فى "مين" ووجدت صعوبة فى اتمامها فيما تبقى من ايام السنة ، لكن المسودة الثانية التى بدأتها فى يناير سنة ١٩٣٢ وانهيتها فى مارس كانت افضل بكثير بل أمتع وأقرب إلى الهدف الذى كان فى ذهنى .

عدت الى ماونت فيرنون لأجهز المخطوطة لارسالها الى شركة سكرنبرز سنز حيث لها الحق ـ حسب بنود العقد ـ فى طبع الكتابين التاليين لطريق التبغ ، وفى الوقت نفسه صدرت رواية طريق التبغ فى فبراير ، ووزعت اكثر بقليل من المجموعة القصصية ، ووصلت مجمل مبيعاتها بضعة آلاف نسخة ، كانت حصيلتها من النقود تغطى بالكاد مقدم الحقوق التى أخذتها ، وهذا يعنى أن هناك أملا ضئيلا فى استلامى أى مبلغ من حصيلتها ذلك العام ، ولم استطع منع نفسى من القلق حول الكيفية التى سأساعد بها عائلتى ، حقيقة كان هناك الكثير من البطاطس واللفت الاصفر للأكل ، ولكن كان ذلك كل شىء .

كتب عدد من النقاد مراجعات تتسم بالفهم والتعاطف ، وأن بقيت نسبة المراجعات المعارضة بالقدر نفسه كالمرة السابقة ، فالمراجعات التى قرأتها كانت بصفة عامة مشابهة لتلك التى

كتبت حول كتابى الأول على الرغم من احتلال المراجعات لمساحات اكبر بشكل ملحوظ فى معظم المطبوعات ، وتناول الرواية من عدد أكبر من الصحف والمجلات .

لم يطرأ تغيير يذكر على وجهة نظرى فى المواصفات والامانة الثقافية للمراجع العادى ، ولم اسمح لنفسى بالابتهاج لدرجة كبيرة بالمراجعات المتعاطفة ، ولا أن احبط بدرجة كبيرة بالمراجعات المعارضة .

بعد نشر طريق التبغ بقى موقفى الفكرى تجاهها كما هو ، وكان من المستحيل أن يقنعنى انسان بأن القصة لم تكن جيدة أو أن تصويرها للحياة التى تعرضها وتعبر عنها لم يكن اصيلا .

مر حوالى شهر دون أن يذكر ماكس بيركنز شيئا عن مخطوطة الرواية الجديدة التى ارسلتها اليه ، ثم كتب الىّ يقول أن لجنة القراءة فى سكرنبرز فشلت فى الاتفاق على رأى موحد حول الرواية ، ورغم أنه مع طبعها فانه لا يستطيع قبولها تحت هذه الظروف .

وكانت هذه أخباراً محبطة ، بالاضافة الى أن ذلك يعنى أنى لن أقبض أية حقوق مقدما يمكننى أن أعيش عليها ، وكان أول رفض يواجهنى منذ فترة طويلة ، واقتناعى الزائد بما كتبت جعلنى غير مستعد لذلك الرفض ، فى البداية سيطر علىّ الاحباط والتعاسة حتى أنى فكرت جديا ترك الكتابة والبحث

عن مجال آخر اعيش منه ، ولكنى ادركت بسرعة عبث هذا التفكير .

وبعد عدة ايام من التفكير ، سافرت الى نيويورك ، ولدهشتى لم يكن ماكس ليبر (وكيلى) قلقا بأى شكل ، بل على العكس كان يؤكد لى أن هذه ضربة حظ وضعته فى موقع يستطيع أن يتفاوض منه مع ناشر آخر وبشروط أفضل ، وكان قد تحدث مع ماكس بيركنز وأحاط علما بانقسام الآراء الذى ادى إلى رفض الرواية ، وبعد سماع تقريره فهمت أن شارلز سكربنر ، الذى لم اره قط ، كره الرواية وعارض نشرها .

ذهبنا لرؤية ماكس بيركنز فى مكتبه وتحدثنا حديثا وديا طويلا ، وقال فى النهاية أنه يأمل ألا ابحث عن ناشر آخر وان أقدم لهم كتابى التالى رغم أن رفض الرواية يناقض العقد ويعطينى الحق فى نشرها فى مكان آخر .

كنت على استعداد أن أوافق على العرض ، لكن بدبلوماسية شديدة نجح ماكس ليبر فى اخراجى من المكتب قبل أن يؤدى احترامى لماكس بيركنز فى توريطى ، وغادرنا ونحن أصدقاء معه ، قائلين أنها مسألة تحتاج وقتا للتفكير ، وذهبنا الى مقهى لنتناقش مدة ساعتين للوصول إلى قرار .

قال ماكس ليبر اخيرا : أنت حر .
كان مستفزا لعدم موافقتى له بألا أعود لسكربنرز .
قال : سكينى لا يوجد سبب فى العالم يجعلك لا تقدم على الخطوة الأكثر فائدة لمصلحتك .. المؤلف يجب أن يطبع كتبه

وإلا توقف عن أن يكون مؤلفا نشطا . هذه القصة التى كتبتها تعجبنى ، وماكس بيركنز يقول انها تعجبه ، وأنت قلت أنها تعجبك ، أليس هذا كافيا ؟

قلت : لا أعرف ياماكس .. مازلت لا استطيع أن أصل بنفسى الى نقطة قطع ارتباطى بماكس بيركنز .. ولا أعرف ماذا افعل .

إذن انظر للأمر بالشكل التالى ، لقد قضيت فترة طويلة من السنة فى كتابة الرواية .. واذا لم تطبعها .. فلا يوجد ما تقدمه بديلا لها ، أليس من الأجدر أن نتعامل مع ناشر آخر ، من أن ندع الأسباب العاطفية تشدك لسكريبنرز ؟ كن واقعيا فى تفكيرك .. انتبه لحياتك .. لديك عائلة تعيلها .. ودخلك الوحيد من الكتابة .. ذلك هو الجانب الاقتصادى المحطم فى الموضوع كله ، أعرف مقدار احترامك لبيركنز كمحرر وانسان وانا أحمل الاحترام نفسه نحوه .. وقد قال بنفسه أن الكتاب يجب أن ينشر ، والآن دورك لتتخذ الخطوة .

سألت : من سينشره ؟

ـ هناك العديد من الناشرين المغامرين الذين يتشوقون لاصداره .. اترك ذلك لى .

ـ ولكن هذا يعنى أن نترك سكريبنرز ؟

ـ طبيعى .

كان من المزعج بعد معرفتى الطويلة لبيركنز أن أفكر بقرار كهذا .. كان ذلك يعنى أنى لم أعد فى موقف يسمح لى أن

اتصل به للمساعدة أو النصيحة ، وقد أعتدت أن أنتظر رسائله بشوق وابدأ بقراءتها قبل الرسائل الأخرى .

غادرنا المقهى وعدنا الى مكتب ماكس لبير ، حين وصلنا كنت على استعداد لقبول نصيحته ، حين أخبرته بذلك طلب منى الحضور فى اليوم التالى .

سرت فى الشارع الخامس الى مبنى مؤسسة سكربنرز ، وقفت على الناصية اتطلع الى نوافذ مكتب ماكس بيركنز ، ودمعت عيناي وكنت أفكر كيف أخبر وكيلى أنى غيرت رأيى ولا أرغب فى أن يبحث لى عن ناشر آخر .

حين وصلت مكتب ماكس لبير صباح اليوم التالى ، اخبرنى بحماس بأن هناك دقائق قليلة ويحيل موعدنا مع هارولد جينزبرج ومارشال بيت من مؤسسة فايكنج برس . أردت أن أبقى فى مكتبه وأشرح له مشاعرى حول ترك سكربنرز ، لكنه كان منفعلا لتوقعه أن يصل الى تفاهم جيد مع مؤسسة فايكنج حتى أن لم استطع تمالك نفسى لقول أى شىء .

أشار الأثنان إلى المزايا التى يمكن تحقيقها من توقيع عقد مع مؤسسة فايكنج برس ، وبعد غداء فخم ووفير اقتنعت بتقديم كتبى الثلاثة القادمة لهم ، وناولهما ماكس ، ونحن نغادر ، مخطوطة الرواية التى رفضتها سكربنرز .

عدت إلى ماونت فيرنون بمجرد توقيعى على بنود العقد مع فايكنج أشفقت فى البداية أكثر من أى وقت مضى على قطع ارتباطي بماكس بيركنز ، لكن أسعدنى الاهتمام الذى ابداه

هارولد ومارشال بعملى ، وبعد تفكير طويل تساءلت هل دعوتهما لى على الغداء وحتى على تناول ما اريد دون النظر الى التكلفة هو مادفعنى إلى تغيير ناشرى ؟ المرة الوحيدة التى دعانى فيها بيركنز إلى الغداء طلب لى ساندويتشا وكوبا من عصير البرتقال .

وسألت نفسى هل أرغب حقيقة فى طبع الرواية التى تدور فى مقاطعة مين فى ذلك الوقت ؟ لقد قمت بكتابتها فى محاولة لتصفية ذهنى من تجربة كتابة طريق التبغ ، وقد أدت الغرض التى كتبت من أجله .

والآن تأكدت تماما أنى أريد الاستمرار فى الكتابة عن الجنوب ، وقد فكرت فى قصة خلال الأسابيع الماضية ، شعرت أنى يمكننى كتابتها بنفس قوة طريق التبغ ، وهى عن الحياة فى مكان آخر شرق جورجيا .

وكما حدث فى سكرنبرز ، فإن لجنة القراءة فى فايكنج لم يتفق رأى محرريها حول الرواية ، أو ربما كانوا مجمعين على معارضة نشر الرواية ، على أية حال كنت أرغب فى ذلك الوقت فى عدم نشرها ، وبالتالى فإن ماكس لبير سحب اعتراضه ، وبذا لم استفد من الغرض الرئيسى لتغيير الناشر ، ولكنى بدأت اسعد بارتباطي الجديد . وكنت متشوقا لبدء العملْ فى رواية الجنوب الثانية ، ومن المحتمل أن أنتهى منها لتطبع فى اوائل العام القادم وفى اوائل مايو بدأت اكتبها واسميتها "أرض الله الصغيرة" .

« ١٠ »

بالرغم من أني جعلت إقامتى الدائمة فى ماونت فيرنون لعدة سنوات ، فإنى لم أكتب كتابا واحدا هناك ، فالأرض الأمريكية كتبت معظمه فى أوجستا ومورانا وبلتيمور وبورتلاند ، وطريق التبغ كتبت فى غرفة فى أحد شوارع نيويورك ، والرواية التي مازالت مخطوطة كتبت في غرفة فى شارع قرب سنترال بارك .

كان لابد أن أعود إلى ماونت فيرنون ذلك الصيف لقطع الأخشاب وزراعة البطاطس ، بالاضافة إلى أنى لا أملك ما يمكننى من الاقامة فى نيويورك أو أى مكان آخر ، وكانت النقود الوحيدة المتاحة لأعيش بها هى تلك التى أتلقاها كمكافأة عن قصة نشرت هنا أو هناك ، وهى تتراوح بين ٥ دولارات وخمسة وعشرين دولارا عن القصة ، وهناك عدد قليل من المجلات لم يدفع شيئا ، ظهرت هذه القصص فى مجلات باجاتى ، ستوري ، كلاى ، كونتاكت ، وغيرها ، إحدى هذه القصص اختيرت ليعاد نشرها فى أحسن القصص القصيرة سنة ١٩٣٢ ، وكان عنوانها "نهر دافىء" وقد نشرت أولا فى مجلة باجاتي الفصلية التى يصدرها ريتشارد جونز .

فى دفء فصل الربيع فى مايو ، كنت سعيدا أن الوقت قد حان لكتابة عمل فى "مين" كانت الأيام طويلة ، أحيانا مشرقة بنور الشمس وغالبا ضبابية بسبب تقلبات الطقس ، وسواء

كانت ذلك أو تلك فقد كانت اياما سعيدة ومبهجة ، يمكن للمرء أن يرى حيوانا مرموط الخمائل يتشمس فى الحقول ، والأرانب تقضم العشب عند الأصيل فى المروج أو أفنية المنازل ، وكانت الأمسيات غالبا باردة ، لكن ليست الى درجة تحتاج لاشعال النيران للتدفئة .

وكما أحببت طريقتى فى كتابة كل كتاب ناجح فى مكان مختلف ، أحببت أن أجرب كل مرة طريقة مختلفة فى الكتابة ، كنت دائماً أكتب مسودتين أو أكثر من كل رواية أو قصة طويلة ، بينما أعيد كتابة ومراجعة قصصى القصيرة مرات عدة ، لكن حينما بدأت كتابة أرض الله الصغيرة ، أردت أن تكون مسودتها الأولى هى النسخة الأخيرة وتكون جاهزة للنشر بمجرد كتابة الصفحة الأخيرة ، كانت أحداثها قريبة الى سطح الوعى عندى ، وشخصياتها مألوفة لذهنى ، حتى أنى اقتنعت أنها ستنجز بهذه الطريقة .

وحينما كتبت الصفحة الأولى ، شعرت أنها ستسير بتلك الطريقة ، فأخرجت الورقة من آلتى الكاتبة ، ووضعتها مقلوبة على الأرض ولم أنظر اليها حتى كتابة الصفحة الأخيرة .

وبما أن العمل اليدوى كان كثيرا ذلك الربيع والصيف ، ويحتاج لانجازه الى وقت فى الأرض المخصصة للأشجار الحرجية وفى حديقة الخضراوات ، فقد قررت أن أكتب فى الأيام الزوجية من الشهر وأن أعمل خارج المنزل فى الأيام الفردية ، فى نهاية الشهر الأول كانت البطاطس قد زرعت

وحملان من الخشب الزان ، والقبقب قد قطعا ، وصفحات خمسة فصول من الرواية تستلقى على الأرض .

بعد شهرين ، كنت قد أنجزت ثلثى الرواية ، ورغم أنى لم أعد قراءة أى جزء منذ نزعته من الآلة الكاتبة فإنى كنت مقتنعا أن كل شىء يسير على مايزام .

فى اوائل يوليه ، بدأ الزوار يتوافدون على ماونت فيرنون لقضاء نهاية الأسبوع ، كان الفرد مورانج يأتى من بورتلاند بانتظام ليجلس فى ظل شجرة تفاح ويرسم طول النهار ، كما كانت هناك زائرة مواظبة أخرى من بورتلاند ، فتاة اسكندنافية زرقاء العينين ، شقراء الشعر ، تحب النهوض مبكرا فى الصباح لتنغمس فى لعب الجمباز على المرج المندى لمدة نصف ساعة قبل الافطار ، وتستلقى لتأخذ حمام شمس بوقار كبير .

زارنى جارى "ارثر دولوف" ذات أصيل ليرى التقدم الذى أحرزته فى قطع الأخشاب ، وصادف فى طريقه الفتاة تلتقط التوت فى الايكة على جانب التل ، لم يكلمها ، وتوقف طويلا ليفحص القماش الذى يرسم عليه "الفرو" ثم أسرع حيث كنت أنشر الخشب ، وقال معلقا ومشيرا بذقنه إشارة خفيفة إلى الدغل وبستان التفاح اللذين يبعدان حوالى خمسين ياردة : ارى انك حصلت على صحبة من المدينة ثانية ، تمتمت بكلمات غامضة دون أن أرفع رأسى عن كتلة الخشب التى أنشرها .

قال : ذلك الرسام يبدو مسالما .. لا اقول أن ذلك مفيد لكن يستحق أن يبتعد الانسان عن البلايا مادام عقله لم يضل .

استدار والقى نظرة سريعة تجاه شجيرات التوت الأسود ، من العقل لزائر نشأ فى المدينة أن يجلس فى الظل كما يفعل ، فهو لن يصاب بضربة شمس إذا حفظ رأسه وبقى حيث هو .

لم يضف أى تعليق حتى انتهيت من نشر كتلة الزان ، قال بحزن :
ـ ليس فى يدى ما افعله .. لكنى قلق على الفتاة الصغيرة .
سألته : لماذا يا آرثر ؟
ـ لأنها تجمع التوت بأغرب طريقة رأيتها أو سمعت بها ، لابد أن تزودها ببعض الملابس القديمة حتى لا تتمزق ملابس المدينة الأنيقة وسط الأغصان الشائكة .. أنت منهمك فى نشر الخشب ولا تدرى بذلك ، ولذا اخبرك .. إنها هناك على المنحدر الجنوبى من البستان حيث كثافة الأغصان الشوكية ، إنها عارية من الرأس الى القدم ، وأى إنسان عاقل يستطيع أن يسمع صوت احتراق جسدها وهو يطش فى الشمس الحامية .

أوضحت له أن "ساين" تدرك ذلك وأن حمام الشمس أحد أفكارها للبقاء فى صحة جيدة فهى من أنصار العراه .
قال : لم أكن لأقول عنها ذلك .. تحدثت بلغة عامة .. إنها عارية تماما .

ـ إنها اسكندنافية .. وكثير منهم يؤمنون بالثقافة البدنية .

ـ ليس لدى رغبة فى تعلم الكثير عن الأجانب ، لكنى أخمن أن جلدهم يمكن أن تصيبه القروح كأى شخص آخر .. إذا أصرت على أن تبقى كذلك ولم ترغب فى إرتداء ملابسها ، فعليك أن تحذرها وتنصحها بحمل مظلة فوق رأسها .. وإلا فسيقشر جلدها من حرق الشمس .

ظل صامتا حتى نشرت كتلة أخرى من خشب التدفئة ، تساءل :

ـ هل تخطط لتمكث سنة أخرى هنا ..
ـ طالما استطعت دفع المائة دولار أجرته السنوية أو أن أحصل على الف دولار لشراء المكان .
ـ إذا قررت أن تبقى فعليك الحضور فى الخريف والشتاء لتحصل على خشب للتدفئة للسنة القادمة ، حين ينساب النسغ من الجذوع ، اذا فعلت ذلك فلن تضطر لتشقى فى نشر الخشب الرطب ثم تجفيفه ، لا أعرف الكثير من أهل المدن الذين ينشرون الخشب فى الربيع والصيف حين يكون النسغ قد جف .

شكرته على النصيحة ، وحاولت أن أوضح له أن سبب قطعى الخشب فى الصيف هو بعدى عن البيت ، عادة ، فى الخريف والشتاء .، لم يقتنع بتفسيرى ، وتناول حفنة من النشارة الرطبة وضغطها حتى أصبحت مثل كعكة صلبة ، ورمقنى بنظرة ذات معنى ، ورماها جانبا .

وسألنى بعد فترة : هل تخطط لزراعة شىء لو بقيت هنا ؟

قلت : فترة كافية تسمح بزراعة بطاطس ولفت فى الحديقة ، أما بقية وقتى فأقضيه فى الكتابة ، الكتابة هى تجارتى يا آرثر .

ساد صمت طويل ، وعرفت قبل أن يعاود الكلام ، أنه وجد الفرصة التى كان يبحث عنها ، لم ينس أبدا انتقال الجرذان من برد بيتى القاسى الى دفء بيته فى الشتاء ، وكان عليه أن ينتقم بطريقة ما قبل أن يهدأ باله .

قال بايماءة قصيرة : حرفتك ككاتب لا توفر لك عيشة مريحة أليس كذلك ؟

ـ اعترف بذلك .

يبدو أنه اقتنع فقد سار فى الأحراش متخذا الطريق المضاد الذى جاء منه ، ودون أن يقول شيئا ، متجنبا تعريشة التوت الأسود على المنحدر المشمس قرب بستان التفاح .

« ١١ »

كتابة آخر صفحة ، آخر فقرة ، آخر جملة ، ثم آخر كلمة فى رواية أرض الله الصغيرة ، كانت أكثر التجارب إشباعا لى منذ بدأت الكتابة أول مرة ، كنت أكثر سرورا وسعادة منى حين انتهيت من طريق التبغ ، وذلك لسبب واحد هو أن الرواية تغطى مساحة اكبر وتقدم فى قصة واحدة طريقة الحياة فى مدن الجنوب والمعيشة اليومية لعائلة فى مزرعة بدأت الرواية بثقة ودون خوف أو شكوك حول مردودها والذى ضايقنى خلال كتابتى لروايتى الأولى ، وشعرت لأول مرة فى حياتى أنى استطيع أن أعتبر نفسى روائياً محترفاً .

انهيت الكتاب فى اواخر اغسطس ، وبعد ايام قليلة اخذته الى نيويورك ، بدا لى ان الدهشة اعترت كل فرد فى مؤسسة فايكنج حين سمع أنى جئت بمخطوطة كاملة لرواية جديدة ، وحتى ماكس ليبر دهش حين رآها ، وحين اعطيتها لهارولد ومارشال لم يقنعا بأنى كتبتها خلال الشهور الثلاثة الماضية .

عزمت أن أبقى فى نيويورك حتى يقرأ هارولد ومارشال الرواية ويتخذا قرارا بشأنها ، لكنى كنت عاجزا عن دفع نفقات الفندق هذه المرة بدرجة أسوأ من المرات السابقة ، حين سمع مارشال بذلك طلب منى أن أقيم معه فى شقته .

بعد أيام قليلة ، قبلت الرواية وتقرر نشرها اوائل سنة ١٩٣٢ ، ورتب لى ماكس أن آخذ مبلغا كمقدم ضعف ما أخذته عن أى كتاب من قبل .

كان مجمل دخلى سنة ١٩٣٢ حوالى ٧٠٠ دولار ، وهو اكبر مبلغ جنيته من الكتابة ، عدت الى مين ودفعت أجرة سنة مقدما وبقى مبلغ يكفى عائلتى لستة اشهر قادمة ، تناولنا اللحم المشوى لأول مرة منذ سنة ، وتركنا اللفت ليتعفن فى الأرض ذلك الخريف ، وأملت أن أكون ما أكلته منه هو آخر ما آكله فى حياتى .

ارسل لى ماكس ليبر (وكيلى الأدبى) عدة اوراق واتفاقيات لأوقعها عن السنة الماضية ، كنت أهتم أكثر بما اكتب وأقل فى تفاصيل العمل المتعلق بأعمالى ، وبدأت أعطى انتباها لهذه الأمور . أحد هذه الاتفاقيات التى وقعتها والتى ذكرنى بها ماكس ، تعطى الحق لجاك كيركلاند بتحويل طريق التبغ إلى مسرحية ، ويطالبنى جاك الآن بحق تحديد الاتفاق ، كان المسرح بعيد عن حياتى حتى أنى لم أعر حكاية المسرحية ادنى تفكير ، ومازال يبدو لى أنه من غير المناسب تحويل الرواية الى مسرحية ، كتبت لماكس انى لست مهتما بالموضوع ولكن اذا اصر فلا مانع لدى من تحديد الاتفاق ، أكد لى ماكس أن جاك جاد فى مسرحية طريق التبغ ويقترح أن تقدم فى برودواى ، وقعت الورقة وارسلتها إلى ماكس دون تعليق .

وماكان يثير اهتمامى آنذاك هو كتابة القصة القصيرة ، لقد خصصت معظم وقتى فى السنتين الاخيرتين لكتابة ثلاثة

روايات ، ومعظم القصص القصيرة التى كتبتها أما قد نشرت او فى طريقها الى النشر .

ذهبت ذلك الخريف للعمل في غرفة علوية فى البيت الكبير واكتب قصة بعد أخرى ، ولم يحدث أن سألت نفسى عن الهدف من كتابتى للقصص والروايات حتى واجهنى السؤال بالحاح يتزايد ، احب كتابة القصص والروايات كما يحب البعض تربية الماشية أو لعب الكرة أو ممارسة القانون . ولأنى لا اكون سعيدا بممارسة أى شىء آخر ، وأردت أن أجعل من الكتابة مهنتى وأن أنجح فى ميدانى واكسب عيشى عن طريقها بالضبط كأى مهنة أخرى أو تجارة يمارسها الناس .

وحين أسأل لماذا اكتب القصص ، كل ماكنت أقوله انى أحب الكتابة ، وحين أسأل عن تفسير أو شرح معنى قصة أو رواية كنت أقول أنها تعنى ما قالته للقارىء ، ليس لدى حقائق فلسفية اعلنها ، ولا قضية ابشر بها لتغيير مجرى التاريخ ، كل ما اردت عمله ببساطة أن أصف على قدر استطاعتى آمال وآلام الناس الذين اكتب عنهم ، واذا كان هناك دروس داخلها ، فكل قارىء حر فى أن يفسرها كما يشاء حسب وعيه .

ارسل الآن كل شىء أكتبه الى ماكس ليبر ، بدل من ارساله مباشرة الى المجلات كما كنت أفعل من قبل ، وكان ماكس صارما في اصراره على توقفى عن ارسال القصص القصيرة الى المجلات الصغيرة لنشرها ، وطلب أن يبقى القصص

عنده حتى لو لم تجد لها ناشرا على الفور .. وبالتدريج بدأت هذه القصص تظهر واحدة اثر الأخرى فى مجلات شهيرة لم تنشر فيها أعمالى من قبل .

استطعت شراء آلة كاتبة جديدة من ماركة كورونا ، وكانت الآلة القديمة التى استعملتها لعشر سنوات تقريبا قد تفسخت وتكاليف اصلاحها تقدر بثمن واحدة جديدة ، واوضح المتعهد الذى اشتريت منه الآلة الشنطة الجديدة أن الآلة القديمة لايمكن إصلاحها لكنه دفع فيها اخيرا خمسة دولارات .

التبذير الوحيد الذى وقعت فيه كان شرائى لثلاث نسخ من قاموس وبستر ، وكانت نسخة واحدة جديدة تكفى ، لكنى ولمدة طويلة كان طموحى أن يكون لدى ثلاثة قواميس فى الوقت نفسه .. فالقاموس القديم والذى استخدمته كثيرا وحملته فى كل مكان ذهبت اليه كان قد تمزق وضاعت منه عدة صفحات ، وضعت نسخة فى الغرفة العلوية حيث أعمل ، ونسخة أخرى فى غرفة المعيشة ، والنسخة الثالثة فى المطبخ ، وبذلك يكون باستطاعتى الوصول الى القاموس بسرعة حينما اكون فى المنزل .

الممتلكات الثلاثة التى أقدرها أعظم تقدير : الآلة الكاتبة ، وعلبة لف السجائر ، والقاموس .. وأعظمهم تقديرا هو القاموس وكنت أحاول النظر فيه أطول وقت ممكن ، لا للرجوع اليه ولكن لقراءته فى وقت الفراغ بدل قراءة الروايات والمجلات ، وفى تقديرى أنه لم يكتب شىء مدهش وممتع ومثير ومشبع وبناء ككتاب يحوى كلمات ومعناها المغرى الفاتن .

« ١٢ »

كانت سنة ١٩٣٣ وبالتحديد منذ أوائل فبراير وحتى أواسط ديسمبر ، سنة مزدحمة مليئة بالأحداث ، ولأول مرة منذ عقد من الزمان تقريبا لم اكتب لا رواية ولا قصة قصيرة واحدة خلال تلك الفترة ، لكنى فى نهاية تلك الفترة تعلمت درسا مفيدا ، وهو أن على الكاتب أن يكرس متسعا من الوقت للتمرين على مهنته والسهر عليها بغيرة ، وإلا فإنه سيجد أن كثيرا من أيامه قد أهدرت بما لايثمر وإن كان يثير .

كنت آنذاك ، وفى ذهنى تلك الحقيقة ، استطيع أن انظر إلى خبرتى السابقة كفترة كنت محظوظا فيها ، لأعرف أين وصلت وأتطلع إلى ماأريد أن أحققه بعد ذلك .

فى بداية ذلك العام ، اقترح مارشال ديست أن اختار عددا من قصصى القصيرة لتصدر فى كتاب عن مؤسسة فايكنج ، اخترت عشرين قصة نشر معظمها خلال الأشهر القليلة الماضية أو فى طريقها إلى النشر فى عدد من المجلات ، فكرت فى عدة عناوين للمجموعة وأخيرا قررت تسميتها : « نحن الأحياء » كتبت المجموعة على الآلة الكاتبة وأخذتها إلى مارشال حين ذهبت إلى نيويورك للاشراف على نشر أرض الله الصغيرة ، وحددت مؤسسة فايكنج موعد نشر المجموعة فى خريف ذلك العام .

أثار نشر « أرض الله الصغيرة » عددا من المراجعات أكثر

مما كُتب عن الكتابين السابقين مجتمعين ، نسبة المراجعات المتعاطفة للمراجعات المعارضة ظلت كما سبق ، لكن الرواية وزعت حوالى عشرة آلاف نسخة ، وهو ضعف حجم توزيع « طريق التبغ » .

كنت أقيم ، وللمرة الثانية ، مع مارشال بيست فى شقته ، وذهبنا ذات مساء إلى بيت « هارولد جويتربرج » ، وهناك قابلتِ الناقد الشهير الكسندر وولكوت ، وكان لقائى الأول معه ، وشعرت بالرهبة من ذكائه الحاد وجسمه الضخم ، لم يكن رجلا طويلا ، بل كان قصيرا مملوءا كالكعكة المحشوة ، يملأ مقعده ويفيض عنه ، وسيطر على الحديث بصوت عالى الطبقة ، واثناء مغادرتنا طلب منى أن أزوره فى شقته فى اليوم التالى فى الساعة الخامسة مساء .

وصلت فى الموعد تماما الى العنوان ، وقادنى خادم إلى غرفة استقبال صغيرة ، انتظرت فيها لمدة نصف ساعة ، وحينما لم يظهر اريك ، نهضت وتمشيت قلقا فى الشقة ، متسائلا اذا كنت قد ارتكبت خطأ فى الموعد والتاريخ ، بعد ربع ساعة أخرى فتح الباب قليلا وتطلع نحوى كما لو اكتشف ضيفا غير مرغوب فيه .

قال : اسمك كالدويل .. هل طلبت منك أن تزورنى .

اومأت بتعبير غير واثق .

فتح الباب بوصات أكثر وقال : لماذا طلبت منك المجىء ؟

اجبت وأنا ارتجف قليلا : لا أعرف .

فتح الباب دفعة واحدة وقال : ولا أنا .. إلى اللقاء .

تراجعت الى الغرفة متسائلا اذا كان هناك مايقال فى مثل هذه الظروف ، كنت على حافة الغضب لكنى حاولت أن اكبح

نفسى فى الرد على رجل فى مثل سنه .
قال مشيرا إلى باب آخر : هناك باب خلفك .
وتقدم الى منتصف الحجرة ، وانتبهت أنه كان يرتدى روب مطرز باللون الأحمر الغامق . كان يبدو كامرأة عجوز بدينة .

تحدث بحدة قائلا : لماذا لاتفعل او تقول شيئا .. ماحكايتك ؟ تملكنى الغضب ونطقت بأول ماخطر على بالى من كلمات !

لو لم تكن تبدو كجدة عجوز ، لقلت لك شيئا .
قال رافعا صوته : ماذا ؟
لمع وجهه وأحمر جلده : ماذا قلت ـ ماذا كان ماقلته ؟
ـ تبدو شبيها تماما بجدة عجوز .
قال بأمر : تعال هنا .
كان يشوح ذراعيه القصيرين ، وملامحه الدقيقة تزداد احمرارا .
ـ تعال نجلس ونتناول شرابا ، لم أكن اعتقد أن لك الجرأة وحضور الذهن لتقول شيئا كذلك . كثير ممن هم أذكى منك لايجرءون ويخافون سخريتى القارصة .. أنا سعيد انك لست كذلك .. لكنى لماذا انت لست كذلك ؟
ـ اعتقد لأنى لا أغرف مقدار شهرتك .
دق الجرس لخادمه : سأشرب مشروبا متحضرا .. براندى .. ماذا تشرب ياكالدويل .. مشروب بغيض كالمارتينى ؟

مكثت نصف ساعة أخرى وغادرت ، حين عدت إلى شقة مارشال واخبرته بلقائى مع اليك ودلوكت ، بدت عليه الراحة ،

وكان تعليقه أنى عوملت برفق أكثر من عدد كبير من زوار اليك .

بعد نشر ارض الله الصغيرة بوقت قصير ، وفى أوائل مايو كانت الرواية تقدم للمحكمة بتهمة « الاباحية » ، ورفضت الدعوة ضدها « جمعية نيويورك لمكافحة الرذيلة » ، أقام الدعوى سكرتير الجمعية جون سمنر ، وتولى الدفاع عن الرواية مؤسسة فايكنج..

وهب خمسون ناقدا وكاتبا للدفاع عن الرواية وتأييدها وكان الكسندر وولكوت أحد المدافعين عنها بحرارة .

بعد ثلاثة أسابيع رفضت الدعوى ، رفضها القاضى جرينبان قائلا : فى مذكرة مكتوبة ان الرواية ليست اباحية ، واضفت نص مذكرته الى الطبعات التالية من الرواية .

« ١٣ »

بعد أيام قليلة من رفض الدعوى ضد « أرض الله الصغيرة » وفى أواخر مايو سنة ١٩٣٢ ، كنت على بعد ستين ميلا جنوب أورليانز أكافح البعوض ليلا نهارا فى كوخ لصيد السمك مقام على ركائز فى مستنقعات « باراتاريا » . كنت أحد كتاب السيناريو الصغار مع وحدة من شركة مترو جولدن ماير السينمائية ، وسبب وجودى هناك أن ماكس ليبر وليلان هيوارد ـ وكان وكيلا ادبيا آنذاك ـ عرفا انى انفقت آخر دولار أملكه للحضور الى نيويورك ومتابعة القضية ، فقررا أن يفعلا شيئا لتحسين احوالى المالية .

وكانت مترو جولدن ماير تبحث عن كاتب ليساعد فى سيناريو فيلم يخرجه تودبراوننج ، وعمل ماكس وليلان على أن أنال الوظيفة ، وكان عقد الأشهر الثلاثة يقول ان المرتب ٢٥٠ دولارا أسبوعيا .

وصلت نيواورليانز على طائرة ذات محركات ثلاثة تصدر فرقعات أثناء طيرانها وقدماى ترتجفان لأنى لم اتناول طعاما منذ ظهر اليوم السابق ، وكان ذلك بعد نقاش حام مع شركة جولدن ماير . فقد بدا لى أن الطريق المنطقى الوحيد للسفر الى اورليانز هو ركوب قطار الجنوب السريع بعد الظهر والوصول الى اورليانز فى الليلة التالية . وكانت رحلة القطار هذه تستغرق ثلاثين ساعة ، وكان تفضيلى للقطار انى لم

أركب طائرة من قبل ولم أر سببا يجعلنى اعانى ركوب طائرة فى ذلك الوقت .

وكانت خطة الشركة ، والتى صممت عليها ، انه لابد من ركوب قطار المساء من نيويورك الى كليفلاند ، ثم استقل الطائرة من هناك الى اورليانز وحين اشرت أن هذه الرحلة تستغرق حوالى ثلاثين ساعة وهى نفس المدة التى يستغرقها القطار السريع ، فاخبرونى ان الخطوط الجوية التجارية الأمريكية كانت تكافح لاثبات وجودها ، وان شركة م . ج . م ، لايمانها بالتقدم قد اتبعت سياسة تشجيع الخطوط الجوية الأمريكية .

ولأن م . ج . م . هى التى ستتحمل الأجرة وبقية التكاليف فلم يكن بوسعى سوى التعاون لأقصى حد .

ركبت القطار الى كليفلاند ، وقبل مغادرة محطة جراند سنترال أخبرونى بأن ممثلا عن شركة الخطوط الجوية سيكون منتظرا فى كليفلاند ليوقظنى فى الساعة الخامسة والنصف ويتأكد من مغادرتى القطار وذهابى الى المطار ، كما أن هناك نقطة أخرى وهو أنه سيقدم لى إفطارا ساخنا قبل ركوب الطائرة .

وكما حدث ، لم يصعد أحد الى القطار ليوقظنى ، ومع ذلك استيقظت قبل الساعة السادسة فى وقت يسمح بارتداء الملابس ومغادرة القطار عند وقوفه ، ووجدتهم فى المحطة لايعلمون شيئا عن الموقف ، فأخذت سيارة أجرة إلى المطار ، أخبرنى السائق أن خدمة ايقاظ الركاب وتقديم الافطار الساخن قد اوقفتها شركة الطيران فى الاسبوع السابق .

وصلت اورليانز بعد طيران ١٤ ساعة متعبة ممرضة ووصل القطار الذى كنت سآخذه من نيويورك فى الموعد نفسه تقريبا .

نزلت فى فندق روزفلت فى نيواورليانز عدة أيام قبل انتقالى الى خليج باراتاريا ، ومن ثم وضعت ذات صباح على ظهر مركب يسير فى رافد لأحد الأنهار ، لينتهى بى الى خليج سمخى صغير فى خليج المكسيك .

أقمت فى كوخ دون نوافذ سلكية فى موقع لصيد سمك القريدس ، أجلس طوال الوقت ملتفا بالناموسيات ، أراقب صيادى القريدس اليابانيين ، منتظرا أن يعلمونى ما الذى يجب أن أفعله ككاتب سيناريو .

كان فى الموقع هوارد والاس وهو أحد كتاب السيناريو أيضا ، والذى قال لى ان لديه فكرة واضحة نوعا ما ، عن القصة لكن خطها الروائى قد تغير عدة مرات فى الفترة الأخيرة ، سواء فى هوليود أو فى موقع التصوير ، وهو لايدرى ماذا يفعل بها . وبقدر مافهمت فإن القصة تدور حول ابنة جميلة لأحد صيادى فأر المسك ، انتحرت غرقا لفشلها فى الحب .

مكثنا اسبوعا فى موقع صيد سمك القريدس ، ننتظر كل يوم أن يقرر تود براوننج كيف يريد القصة أن تروى على الشاشة ، ولكنه كان مشغولا بتصوير المناظر التى ستستخدم فى الفيلم ، نصحنى هوارد الا اقلق ، فالافلام لابد أن تنتهى بشكل ما ، بالاضافة الى انها فرصة لأتعلم كيف أكيف نفسى مع طريقة الحياة فى صناعة الأفلام ، اعترفت انها حياة تختلف عما ألفته ، وانى أعانى من اضطراب قليل .

بعد اسبوع ، اخذونا ، أنا وهوارد ، الى نيواورليانز واركبونا ، قطارا على خطوط شركة سن ست المتحدة الى لوس انجلوس ، بينما بقى الآخرون فى خليج باراتاريا لالتقاط صور أكثر للمناظر .

ركبنا فى مكان منخفض مريح ، وكنت مقتنعا بالمكان الذى اجلس عليه وهو عبارة عن مقعد أتوبيس هزاز محسن ، لكن هوارد ، رأى أن على الاستوديو أن يوفر اقصى درجات الراحة لكتابه ، وبدأ تعيسا ، وتحدث عن فقد ماء الوجه .

كان علينا أن نقضى يومين وثلاث ليال على خطوط سن ست ، بعد الليلة الأولى فى اسرتنا المنخفضة ، اتخذ هوارد قرارا بالتصرف ، قال انه يمكننا أن نأخذ مقصورة وندفع الفرق ومن ثم نطالب الاستديو بالمبالغ حين وصولنا كاليفورنيا ، كان ذا خبرة ككاتب سينمائى بينما كنت مجرد كاتب صغير بلا خبرة ، وهكذا وافقته وانتقلنا الى مقصورة .

وحدث ان رأى هوارد فتاة فى القطار ، ظن ان بامكانه أن يقيم علاقة معها ، فدعاها للاقامة بمقصورتنا ، عند الأصيل بدت المقصورة مزدحمة بنا فاقترح هوارد ان بامكانى ان اكون مستريحا فى مكان الفتاة فى العربة المجاورة ، وحين عدت عند العشاء وجدت باب المقصورة مقفلا ، ومتاعى قد نقل الى العربة المجاورة ، وقضيت الليلتين التاليتين فى سرير علوى فيها ، فسر لى هوارد الموقف بأن ذلك سيتيح لى فرصة اكبر للتفكير فى القصة السينمائية ، وابدى استعداده لارجاع نصيبى الذى دفعته كفرق اجرة نظير اقامتنا فى عربة البولمان الفخمة .

« ١٤ »

في الصباح ، وفي محطة الهمبرا ، كانت تنتظرنا عربة ليموزين من الاستديو ، انصرف هوارد الى منزله في بيفرلي هلز ، وذهبت الى ستوديو م . ج . م . في مدينة كلفر ، بدأ موظف الاستعلامات في مدخل الاستديو مندهشا وهو يقول لي انه من غير المعتاد أن يأتي كتاب السيناريو للعمل مبكرا ونصحني ان أذهب الى مكان ما وأعود حوالي الساعة العاشرة .

كنت قد لاحظت وانا في طريقي الى الاستوديو فندق كالفرسيتي الذي يقع في أعلى بناية في الجوار ، حملت حقيبتي وآلتي الكاتبة وسرت الى الفندق حيث حجزت غرفة أجرتها الاسبوعية اكبر مما دفعته في فندق وارويك في هوليود ، وبما اني لااملك سيارة ولا اعتزم شراء واحدة ، فقد خططت أن أسكن على مسافة قريبة من الاستديو يمكنني قطعها على الاقدام . حين دخلت صالة الفندق ، لم أر أحدا يبدو عليه انه كاتب ، كان هناك العديد من النساء والرجال يبدون كالممثلين ، بعضهم اقزام ، وبعضهم له هيئة الاكروبات وكثيرون كانوا يرتدون زي رعاة البقر المبهرج .

في العاشرة سرت في شارع واشنطن بوليفار الى الاستديو ، وبعد انتظار لمدة ثلاثة ارباع ساعة ، أخذت الى غرفة كبيرة تحتوي على عدد من الأرائك المصنوعة من الجلد ، وكراسي يغوص فيها المرء اذ جلس ، وكنبات ضخمة ومنافض ، سجائر بحجم الفازات ، كان النهار مشمسا ومشرقا في الخارج ، لكن الستائر كانت مسدلة تماما على النوافذ ، والغرفة مضاءة اضاءة خافتة مستترة غير مباشرة .

كان هناك مخرجون ومساعدو مخرجين يجلسون فى أوضاع مختلفة مريَحة ، بعد أن قدمت للجمع ، سألنى رجل يجلس فى أحد المقاعد التى يغوص فيها المرء بطريقة حماسية عن رأيى فى الفيلم الذى أعمل به .

قلت على الفور : لاتسألنى .. فأنا أقل واحد يعرف عنه شيئا .

نظر المخرجون والمساعدون نحوى وكأنى اهنت كل منهم شخصيا .

سألنى أحدهم : ماذا تعنى بذلك ياكالدويل ؟

ـ لم أر أحدا فى لويزيانا ، يعرف شيئا عن القصة ، كل ما أعرفه فتاة صغيرة جميلة ستنتحر غرقا فى خليج صغير .

صاح واحد بانفعال : حركة يارجل . اعطنا حركة .. ذلك ماكنا ننتظره .

ساد بعد ذلك صمت عميق لعدة لحظات .

سألنى شخص آخر بصوت هادىء : تعنى ان السكربت لم ينته بعد !

قلت : لا . لم اكتب شيئا بعد . أريد أن أعرف اكثر عن القصة أولا .

عقد مؤتمر سريع من المخرجين فى ركن من المكتب الكبير ، وحينما انتهى ، جاء شخص وامسكنى من ذراعى وطلب منى أن انتظر فى غرفة الاستقبال ، بعد نصف ساعة جاءت احدى السكرتيرات وسألتنى أين أقيم ، اخبرتها انى اقيم فى فندق كالفرسيتى ، ترددت لحظة قبل ان تكتب ذلك فى مفكرتها ، ثم قالت : لابد أن تذهب لمقابلة سام ماركس .

وكان سام محررا قصصيا ، وذا شخصية مهيئة للتعامل بدبلوماسية ، مع المواقف المزعجة ، التى تبرز بين المخرجين والكتاب ، دعانى على الغداء ، وسألنى عن رأيى فى الاقامة بغرفة فى مبنى الكتاب ، وبعد كلمات قليلة كنصيحة اخوية تركنى لأتلاءم مع حياة كاتب سيناريو مبتدأ فى شركة م . ج . م .

جاءنى بعد عدة ايام ليخبرنى ان القصة التى كنت سأعمل بها قد وضعت على الرف مؤقتا واقترح انه ربما يعجبنى العمل فى مادة قصصية أخرى ، وقادنى الى غرفة تسجيل الصوت حيث يعانون من مشكلة مع أحد افلام ميريام هوبكنز ، كانت المشكلة كما رأيتها مجرد اعطاء تعليمات لميريام بما تفعله لتحية حبيبها حين يصل . بدا الأمر سهلا تماما بالنسبة لى ، اقترحت ان تنهض ، وتسير اليه بلهفة وتتركه يأخذها بين ذراعيه ، ذكرنى مستشار المنتج بسرعة اننا فى عصر السينما الناطقة وليس الصامتة وان على كاتب السيناريو ان يقدم حوارا لكل موقف ، ارسلوا لاستدعاء كاتب آخر ، وحين غادرت كانت ميريام تتأرجح فى الشرفة وحبيبها جالس على كرسى بلا ظهر يقرأ .

أخبرنى سام ان م . ج . م . تخطط لسلسلة من الأفلام القصيرة المبنية على ملفات المباحث الفيدرالية تحت اسم « الجريمة لاتفيد » وانه ستعطى لى عدة قصص لمعالجتها سينمائيا . وكانت أول قضة بعنوان : « سرقة القطار السريع » .

بعد حوالى اسبوعين من اقامتى فى مدينة كلفر ، تلفن لى

جاك كير كلاند ودعاني للمجيء الى بيته على شاطيء ليلان في سانت مونيكا ، رغبت في الذهاب ولكن لعدم وجود سيارة لدى ، وعدم معرفتي بالمدة التي تستغرقها الحافلة لتصل هناك ، اعتذرت ، اخبرني ان مسرحيته طريق التبغ قد انتهت ويتوقع ان تظهر على المسرح في برودواي الخريف القادم .

في أيام السبت كنت آخذ الباص السريع الى هوليود ، اعتدت ان اذهب الى مكتبة ستانلي روز في شارع هوليود بوليفار ، وهي مكان تجمع للكتاب والكتاب الواعدين ومشتري الكتب الخلصاء ، وكانت الغرفة الخلفية من المكتبة مزدحمة في الاصيل والمساء ، وحسب قول ستانلي فان مبيعاته من الكتب كانت تافهة ، وكان اذا اراد الحصول على دخل ليعيش ويدفع اجرة المكتبة وثمن الاضاءة ويحافظ على سير عمله ، يملأ عدة صناديق بالكتب ويوزعها على ستوديهات السينما ولايحاول اقناع المناقشين في مكتبته بالشراء .

قبل مغادرتي كاليفورنيا بفترة قصيرة للعودة الى مين ، ارسل ستانلي دعوات لحفل كوكتيل يقيمه في احدى الامسيات في المكتبة ، كان موعد البدء الثامنة ، لكن المكتبة كانت قد امتلأت عند حلول الساعة السابعة بمائة أو اكثر معظمهم غير مدعو ، وحين وصل المدعوون في الثامنة ، لم يستطع كثير منهم ان يخطو داخل المكتبة المزدحمة ، فوقفوا على الأرصفة يتطلعون من النوافذ ، كان ستانلي قد اخبرني ان الدائنين يطاردونه وانه بحاجة ماسة لبيع الكتب ليستمر عمله ، وان هدفه الوحيد من الحفل هو التأثير على امرأة شابة بدأت منذ فترة قصيرة تكتب عمودا في جريدة هوليود ، وانه يطمح ان تشير الى مكتبته وتجتذب الزبائن .

كانت هذه المرأة هي هيداهوبر ، وحين قدمت اليها نسيت

تماما ماحثنى عليه ستانلى من اقناعها بكتابة شىء يساعد مكتبته ، وحين تذكرت كانت قد ابتعدت ولم استطع الاقتراب منها ثانية ، وبينما كانت تغادر صحت بصوت عال غطى على المناقشة قائلا :

ـ سأذكرك بقبعتك .. حتى لو لم استطع التحدث معك .. قالت وهى تمرق وسط الجمهور وتغادر : اذا استمتعت بقبعاتى فقط فقد احسنت .

وحين لم يبق سوى حفنة من الضيوف ، قرب منتصف الليل ، انتحى بى ستانلى جانبا وسألنى ماذا قلت لهيدا عن المكتبة ، اعتذرت بشدة قائلا : حاولتُ ان أصل اليها واحدثها .. لكن كثافة الحضور لم تتح لى فرصة .

قال : تعنى انك لم تقل لها شيئا .. لم تأخذ وعدا للكتابة عن مكتبتى ؟

ـ لم تتح لى الفرصة لقول شىء عن المكتبة .. لكنى اعتقد انها لها قبعة ذات شكل عجيب .. وقد قلت لها ذلك .

قال يتهمنى : ذلك سيفلسنى .. ستكتب الآن عمودا كاملا عما قاله : شخص ما عن قبعتها .. دون كلمة واحدة عن مكتبتى بعدما انفقت ٧٥ دولارا حصلت عليها بصعوبة على هذه الحفلة لتكتب عنها فقط ، وقد آتت لتبعد ذلك عن ذهنها ، ليت كان لديك الحس بعدم ذكر القبعات وهى هنا .

قلت : لكن على كل حال ياستانلى ـ لقد بعت الكثير من الكتب الليلة أليس كذلك ؟ ذلك قد يساعدك .

قال عابسا : ابيع كتب للمثقفين ! كل هم الجمهور هنا أن يسمع نفسه يتحدث .. انهم يعتقدون ان الفلاحين فقط هم الذين يشترون الكتب .

« ١٥ »

عدت إلى مونت فيرنون فى الأسبوع الأول من سبتمبر ، ومعى ألفان وخمسمائة دولار مما كسبتها فى الاشهر الثلاثة الماضية ، ١٠٪ من مرتبى ذهب الى ماكس وليلان عمولة الوكالة، وكانت مصاريفى الاسبوعية فى كاليفورنيا تعادل خمسة وعشرين دولارا ، وانفقت ثلاثمائة دولار على الملابس والنثريات .

ذهبت الى بورتلاند ، بعد يوم عيد العمل ، ودفعت للبنك قيمة الدين البالغ الف دولار ، واشتريت سيارة فورد جديدة ، وهى أول سيارة لم تكن مستعملة اشتريها ، كل ذلك جعل معظم المبلغ يتبخر ، لكن خلال ايام قليلة تلقيت اشعارا مع شيك بألف دولار قيمة فوزى بجائزة بيل ريفيو للأدب لسنة ١٩٤٣ ، هذا الحظ مكننى من شراء البيت لعائلة فى مونت فيرنون ، فعلت ذلك على الفور بدفع الألف دولار نقدا ثمنا له . كانت القصة الفائزة ، والتى نشرت فى بيل ريفيو ذلك الربيع ، بعنوان « بلد مملوءة بالسويديين » وكان لهذه القصة تجربة مريرة من الرفض المتواصل ، فقد دارت لمدة سنة دورة سريعة على اكثر من دستة من محررى المجلات ، وقبل أن تقبلها بيل ريفيو بفترة وجيزة ، كان أحد المحررين قد أعادها مع ملاحظة تقول : « هذه الفرس العجوز لن تفوز فى سباق » .

صدرت المجموعة القصصية « نحن الاحياء » عن فايكنج برس ، واخبرنى مارشال ويست انهم يرغبون فى رواية للعام

القادم ، لم أكن قد كتبت سطرا ابداعيا واحدا خلال الاشهر التسعة الماضية ، ولم يكن لدى عدد كاف من القصص القصيرة لتصدر فى كتاب ، اخبرت مارشال انى اخطط لبدء الكتابة فى يناير ، بدأت بروفات طريق التبغ فى نوفمبر ، وطلب منى انطونى براون - المخرج - الحضور الى نيويورك لايام قليلة ، حضرت عدة بروفات ولم يكن لدى سوى ملاحظات قليلة مع اصرارى بضرورة التزام الممثلين ، بنص الحوار الأصلى ، قرأت المسرحية ووافقت عليها ، وكان جاك كير كلاند قد حافظ على روح الرواية بحيث رأيت ان النص لايحتاج أى تغيير .

قبل مغادرتى نيويورك اعطيت اول مقابلة صحفية فى حياتى ، نشر الحوار فى جريدة نيويورك هيرالدتربيون ، وحين قرأته فى اليوم التالى بدا لى انه من المفترض ان اقول بعض التعليقات المثيرة عن الحياة فى الجنوب ، كان الحوار حين قرأته فى وضح النهار يبدو عاديا والآراء التى جاءت به تحصيل حاصل .

افتتحت المسرحية على مسرح الماسك فى نيويورك يوم الاثنين ١٩٣٣/١٢/٤ ، وهو تاريخ الغاء الحظر فى الولايات المتحدة ، وكانت من انتاج كيركلاند واوشرن وهما صاحبا الحق الوحيد لانتاجها ، وكانت حصتى المالية فى المسرحية نصف حق التأليف مع جاك . كانت المراجعات التى كتبت حول المسرحية مشابهة لتلك التى كتبت حول الرواية ، ولم تبد مشجعة وساد اعتقاد بأنها لن تستمر لاكثر من اسبوع او اثنين ، كانت نفقات الانتاج تعادل ٢٥٠٠ دولار اسبوعيا ، واعتقد جاك وهارى ان الدخل الاسبوعى سيغطى التكاليف ،

وكافحت المسرحية لمدة شهرين بدخل اسبوعى يتراوح بين ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ دولار .. وبالرغم من ان مسرحيات قليلة استمرت على مسارح برودواى بهذا الدخل الضئيل ، فإن جاك وهارى رفضا الاعتراف بفشل المسرحية .

وفى يناير سنة ١٩٣٤ نشر جوزيف باترسون سلسلة من مقالات المحررين فى الديلى نيوز تمتدح المسرحية وتحث الجمهور على مشاهدتها ، وتضاعف الدخل على الفور واستمر تدفق الجمهور يتزايد بقية الموسم ، فى نهاية العام كانت المسرحية قد أضحت راسخة فى برودواى ، وحين انتهى عرضها كان ذلك بعد استمرارها لمدة سبع سنوات ونصف مسجلة بذلك اطول مدة لمسرحية استمر عرضها على المسرح فى نيويورك ، وبصرف النظر عن مزايا المسرحية نفسها ، فان الفضل فى نجاحها يعود الى محررى باترسون وتمثيل هنرى هل الذى قام بدور جيترليستر ، وسام بيرد الذى قام بدور دود . ومع ذلك ، فمن المشكوك فيه أن أيا من هؤلاء كان سيجد الفرصة للمشاركة بهذا النجاح لولا تصميم جاك كيركلاند ورفضه انهاء المسرحية حين كان دخلها فى البداية اقل من النفقات ، وقد عمل فى وظيفة لكتابة الافلام فى هوليود كى يوفر نقودا لأجرة المسرح والممثلين ونفقات الترويج والاعلان ، ولم يبح بمقدار المبلغ الذى انفقه لكنه كان كبيرا .

وكان من المحتم ، تبعا لاختلاف الممثلين الذين قدموا المسرحية ، ان تتعرض المسرحية لتفسيرات مختلفة من سنة لأخرى ، بعضها كان جادا رضيت عنه وبعضها ساخرا أسفت له ، وبالنسبة لى كان تفسير هنرى هل هو الأكثر اصالة وقبولا .

وبالاضافة الى العرض الاصلى فى نيويورك ، كانت هناك فرقتان جوالتان تقومان بأداء المسرحية فى أوقات مختلفة فى ارجاء الولايات ، وكان نصيبى من حقوق التأليف يتراوح بين ٣٥ دولارا اسبوعيا الى ١٠٠٠ دولار فى الأسبوع ، لقد بدأ عرض المسرحية سنة ٣٢ واستمرت تقدم بلا انقطاع لمدة ١٧ سنة تالية سواء فى مكان ما من الولايات المتحدة أو خارجها على يد اكثر من فرقة مسرحية .

وقد قدمت في دول عدة ، سواء بموافقتنا او بدونها ، قدمت فى الارجنتين واستراليا وبلجيكا والبرازيل وتشيكوسلوفاكيا والدانمرك وانجلترا وفرنسا واليونان والمجر وايطاليا والنرويج والسويد وسويسرا ، وكانت اطول العروض فى فرنسا ٤٨/٤٩ وانجلترا ٤٩/٥٠ حيث قدمت لأكثر من سنة وفى سنة ١٩٣٤ نشرت مؤسسة فايكنج النص الممسرح للرواية فى كتاب ، كما كتب نونالى جونسون نصا سينمائيا عن الرواية والمسرحية لم يكن بالدرجة نفسها من الجودة ، واخرجته شركة فوكس للقرن العشرين سنة ١٩٤١ .

« ١٦ »

كان قرارى الثابت فى سنة ١٩٣٤ أن أعود الى الكتابة دون تأخير . ان سنة من البعد عن تخوم الكتابة ومتطلباتها كانت امرا ممتعا ومربحا لكن استمراره جعلنى اغدو بائسا وتعيسا ، لقد دفعت الديون واشتريت سيارة ومنزل وقمت باسفار كثيرة ومعى من النقود مايكفى لنفقات سنة قادمة ، ولكنى فشلت فى كتابة كتاب لسنة ٣٤ ، وكما بدا لى آنذاك فان كل هذه الانجازات تتضاءل قيمتها ، اما القيمة الكبرى ألا وهى كتابة ونشر كتاب .

إدراكى الكامل لفشلى فى هذه النقطة وأنا الذى خططت حياتى أن أعيش لأكتب ، جعل التعاسة تنتابنى ، فجلست على الفور فى الاسبوع الأول من يناير لأكتب ، وكما اعتدت فى السنوات الماضية تركت البيت لاكتب ، وكنت فى مثل هذه الأوقات اغدو سريع الغضب ، نكد المزاج ، وفى حالة ذهنية غير طبيعية ولا اطاق وكانت عائلتى تبذل الكثير لتتحملنى خلال هذه النوبات ، ذهبت الى نيويورك واستأجرت غرفة فى دور أرضى بسبعة دولارات اسبوعيا فى مبنى قرب سنترال بارك ، وبدأت اكتب القصص القصيرة من الصباح الباكر الى وقت متأخر فى الليل . كان البرد قارسا ذلك الشتاء فى نيويورك خاصة فى تلك الغرفة الرطبة فى الطابق الأرضى دون سجادة تغطى ارضيتها الاسمنتية وشعرت بالبرد بدرجة اكبر مما كنت عليه حتى فى « مين » . ولقد اعتدت أن اتمدد على

ظهرى فوق الأرضية لمدة عشرين او ثلاثين دقيقة بعد يوم طويل من الجلوس وراء الآلة الكاتبة . البرد والرطوبة اعادا القروح الى يدى .

بعد اسبوع من نقاش لاطائل وراءه مع المالك بسبب نقص التدفئة ، بدأت اخذ رحلات بالباص تستغرق عدة ايام كل مرة ، فالباص المكيف كان دافئا ومريحا ، واثناء النهار وعلى الطرق السريعة الناعمة ، فى الريف ، كنت أكتب بالقلم الرصاص ، وفى الليل اتوقف فى فندق واواصل الكتابة على الآلة الكاتبة ، هذه الرحلات التى تكررت مرة أو مرتين اسبوعيا جعلتنى اتجول فى مناطق ومدن كثيرة .

بعد ستة أسابيع ، وفى اواسط فبراير تقريبا ، كنت قد انتهيت من ست قصص ، احداها طويلة اسميتها « اركع للشمس المشرقة » وهى تحكى عن ظلم احد الملاك فى الجنوب لمزارعيه ، قصة شعرت بالحاجة الى كتابتها منذ عدة شهور ، وكان لهذا العمل الطويل ان ينتظر فرصة فراغ لانجازه .

رفضت عدة مجلات القصة ، قبل ان يقبلها ماكس بيركنز لتطبع بعد سنة فى مجلة سكر بنرز ، وكانت « اركع للشمس المشرقة » عنوانا للمجموعة القصصية التى أصدرتها دار فايكنج فى العام التالى .

رجعت الى « مونت فيرنون » فى فبراير وأنا على ثقة انى سأستمتع بدفء أكثر من الغرفة الأرضية فى نيويورك . وبدأت اكتب رواية وأنا اجلس امام مدفئة متوهجة فى كوخ قرب بحيرة باركر المغطاة بالثلوج ، كان عنوان الرواية

« الرحالة » وهى تحكى عن قس ، لم تعينه الكنيسة رسميا ، فى الجنوب ، يمارس الاحتيال تحت غطاء دعوته ، وقد لاحظت اشباهه فى الحياة كثيرا فى جورجيا وفلوريدا وكارولينا ، وكانت الفكرة التى بنيت عليها القصة فى ذهنى معظم السنة الماضية ، جاهزة لأضعها على الورق بالسرعة التى استطيع الكتابة فيها ، وكنت انظر الى احداثها كاحدى ظواهر الحياة الطبيعية فى الجنوب والتى رغبت ان اضمنها سلسلة من الروايات .

المرة الوحيدة التى توقفت فيها اثناء كتابة الرواية ، كانت بسبب اعلان لاداء ضريبة الدخل عن السنة السابقة ، وهى المرة الأولى فى حياتى التى اكسب نقودا اطالب بدفع ضريبة عنها . وفزعت حين وجدت انى مدين لهم بعدة مئات من الدولارات ، هذا الدين ذهب بالمبلغ الذى اعتمدته للانفاق خلال سنة ١٩٣٤ ، ورغم انى كنت اتسلم ايامها حقوقى من عرض مسرحية طريق التبغ ، ومبالغ اخرى تتراوح بين ٥٠ - ٧٥ دولارا من النشر ، إلا أن إلمسرحية كانت تعرض من اسبوع لاخر ، وبدا لى انه من غير المعقول تستمر طويلا ، بالاضافة الى أن ادفع ضريبة عن كتب نشرت وانفقت حقوق نشرها .

انهيت الرواية فى اواسط مايو تقريبا ، وارسلتها لهارولد ومارشال لتقييمها ، واثناء انتظارى لرأيهما ، قضيت جزءا كبيرا من الوقت مشغولا بتوفير ماتحتاج اليه عائلتى المكونة من خمسة افراد بقية العام ، فقد كان كل ما املكه ٢٠٠ دولار ، وهذا يعنى أن يعيشوا بمبلغ ٢٥ دولارا شهريا .

● ● ●

« ١٧ »

قبل أن أتلقى كلمة واحدة من فايكنج ، أعرف منها اذا قبلوا طباعة الرواية أم لا ، طلبت منى شركة م . ج . م . فى اتصال مفاجىء ، أن أعود لكاليفورنيا للعمل فى كتابة قصص للسينما في ستوديو كالفرسيتى ، استشرت ماكس ليبر حول العرض ، وحيث انهم قرروا رفع اجرى الى الضعف ليصبح ٥٠٠ دولار اسبوعيا ، فوافقت على الذهاب لمدة ثلاثة اشهر ، وبهذه الطريقة احسن أوضاعى المالية .

وصلت لوس انجلوس فى أواخر مايو ، وقضيت عدة أسابيع اقرأ مواد سينمائية ، واكتب وأراجع مشاهد من نصوص شبه كاملة ، ثم اقترح هارى بيهن وهو كاتب سيناريو متمرس ، ان نتعاون فى كتابة قصة جيدة للسينما ، وقد لاقى الاقتراح قبولا من ماكس وآخرين من المهتمين بالسينما ، وهكذا ذهبت انا وهارى لتقيم فى المبنى المخصص للكتاب ، كانت تجربتى الأولى فى التعاون مع كاتب سيناريو أو أى كاتب اخر فى عمل ما ، كان هارى يفضل الاملاء ، بينما لم يسبق لى أن أمليت قصة ، اتفقنا ان يملى هارى مشهدا ثم أراجعه قبل أن ننتقل الى المشهد التالى . .

اتفقنا على كتابة قصة عن قطع الاخشاب فى الشمال الغربى ، على أن يكون رئيس العمال فى معسكر قطع الاخشاب هو البطل ، وتكون البطلة ابنة قاطع اخشاب فى

المعسكر . احرزنا تقدما خلال الاسبوعين الأولين ثم وجدنا انفسنا فجأة فى ظلام مطبق .

كان هارى بيهن طويلا رشيق العضلات ، ومن عادته ان يستلقى على احدى الكنبات لافا ساقيه ، يفكر ويملى . يبدو انه يملى احسن ماعنده حين يكون جسمه ملتويا ، وصلنا الى مشهد جديد ، وبدا أننا لانستطيع ابتكار حدث يبدو كخطوة منطقية تالية ، وخلال ربع ساعة لم تمل كلمة واحدة ، بينما كانت اطراف هارى مربوطة كعقدة على الكنبة ، وكنت احدق من النافذة بجماعة من الكومبارس تجلس على عتبة الباب ، وكاتبة الاختزال تقلب بهدوء صفحات مجلة .

همهم هارى فجأة : لقد عجزت اخرجنى من هنا .

وضعت كاتبة الاختزال المجلة وبدأت تسير فى الغرفة . بدا انفجار هارى عاديا تحت هذه الظروف ، قلت متعاطفا : لاتقلق ياهارى .. اعتقد اننا نستطيع معالجة هذا المشهد بشكل جيد . ربما يجب علينا أن نتوقف اليوم ونبدأ غدا بنشاط .

قال بصوت مملوء بالألم : لاأعنى ذلك ، ليس القصة ، هناك خطأ ما لااستطيع أن أفك نفسى ـ عندى شد عضلى فى كلتا الساقين . اتجهت الى الكنبة ونظرت اليه ، وكان قد ثنى ساقيه خلف ركبتيه بطريقة حشرت احد ذراعيه بشدة خلف الساق حتى بدت يده شاحبة لعدم سريان الدم اليها . وبدا وضعه الملتوى مشابها لمصارعة المحترفين المؤلمة ، حاولت أن أحرر احدى قدميه لأفك العقدة ، لكنه صرخ متألما بأعلى صوته .

سألته : ماذا يجب أن أفعل ؟
ـ لاأعرف . لكنى أفعل شيئا بسرعة فهذا يقتلنى . اسرع .

سمعت احدى السكرتيرات فى مكتب مجاور صرخة هارى ، فأسرعت بدخول الغرفة ، كانت فتاة صغيرة ضئيلة الحجم ، حين رأت ماحدث ركعت على الأرض قرب الكنبة وقالت : تبدو كأحد سرطانات بوسطن بما فعلته بنفسك ياسيد بيهن ، ولكن كيف حشرت ذراعك هكذا؟

قال بضعف : لا أعرف لكن افعلى شيئا بسرعة .

قالت : اعتقد انى استطيع ان افكك ، اهدأ فلن أوذيك ، ضغطت على إحدى ركبتيه ثم لوت إحدى اقدامه ، اندفعت قدماه الى الامام مع صدور صوت من ركبتيه ، وسقطت ذراعاه الى جانبيه ، كانت يده اليسرى بيضاء بياض الموت ، وغطى الأمل وجهه .

سألتها وهى تدلك يده وذراعه لتعود الدورة الدموية اليهما .

ـ كيف فعلت ذلك ؟

قالت : اعتدت الذهاب الى مباريات المصارعة مساء كل اربعاء ، ورأيت الحكم يفك عقد كهذه عدة مرات من ربطة هكذا ؟

قلت لها : فعل ذلك بنفسه .

قالت بدهشة : انه انجاز لكاتب سيناريو .. فى مباريات المصارعة يتطلب الأمر معركة قوية لربط انسان بهذا الشكل .

انتهى عقدى بعد ذلك بقليل ، وغادرت كاليفورنيا بينما انتقل هارى الى اريزونا ، ولم تصور قصة قاطع الاخشاب فيلما ابدا .

« ١٨ »

لعدة سنوات وأنا اتشوق إلى فرصة تتاح لى لأجوب أمريكا بالسيارة في أوقات فراغى ، أذهب حيث أرغب وأتوقف وقتما أريد وها قد حان الوقت عند مغادرتى كاليفورنيا صيف سنة ١٩٢٤ .

سافرت من ولاية الى ولاية فى الغرب متخذا طريقا متعرجا ، مسافرا من شاطىء المحيط الهادى الى نهر المسيسبى ، احيانا اقطع عشرين أو ثلاثين ميلا ، فى اليوم واحيانا مائتين أو ثلاثمائة ، ولم يكن ذلك وفق خطة معدة ابدا . قبل نهاية الرحلة وجدتنى أرغب فى الكتابة عن بعض مالفت انتباهى وامتعنى فى الطريق قررت مؤسسة فايكنج نشر رواية « الرحالة » فى يناير سنة ١٩٣٥ ، وبدأت اختار قصصا لنشر مجموعة ثالثة فى منتصف العام ، والاستعداد لكتابة عمل غير ابداعي يمكن تصنيفه كملاحظات مسافر ، بدا لى أنه من المناسب كتابته انذاك .

بعد ستة اسابيع من السفر فى الغرب عدت الى جورجيا لأجمع مادة لكتيب صغير اسميته « مستأجر الأرض » . وقد نشرت هذه الكراسة في مايو التالى عن دار فالنكس برس .

حين وصلت نيويورك فى أواخر اكتوبر فاجأنى ماكس ليبر بقوله بأن فرقة متجولة تقوم بتمثيل طريق التبغ فى شيكاغو قد

أوقف عرضها بأمر من العمدة ادوارد كيلى ، وطلب المنتجان منى السفر فورا الى شيكاغو للدفاع عن المسرحية ، واخذت القطار فى اليوم نفسه الذى وصلت فيه نيويورك ، وكان رأى كيركلاند واوشرن انه لابد من طريق قانونى لالغاء الحظر ، ولكن بعد عدة مداولات حامية فى المحاكم صدر الحكم ضد المسرحية ولم تعرض فى شيكاغو طوال حياة العمدة كيلى .

عدت الى نيويورك أواخر الاسبوع لأحافظ على مواعيد التزمت بها بلقاء غير رسمي مع فصول من دارسى اللغة الانجليزية في جامعة نيويورك وجامعة كولومبيا ، كما قمت بالاختيار النهائى لقصص المجموعة التى ستصدر بعنوان « اركع للشمس الغاربة » ، وكانت تضم ١٧ قصة نشرت احداها فى كتاب احسن القصص القصيرة لسنة ١٩٣٤ ، وأخرى فى كتاب احسن القصص لسنة ١٩٣٥ . وثالثة ظهرت فى كتاب القصص الفائزة بجائزة او هنرى التذكارية لسنة ١٩٣٤ ، وباقى القصص نشرت أو فى طريقها الى النشر ، ظهرت المجموعة عن دار نشر فايكنج فى يونيه سنة ١٩٣٥ .

كانت الصحافة لاتزال فى دمى ، ربما البقية الباقية من أيام اتلانتا جورنال ، وأردت أن أخوض مجالها قبل كتابة روايتى التالية ، هذه العودة الى الصحافة كانت مهمة بالنسبة لى ، فهى مدرستى الأولى فى تعلم الكتابة ، ولم تفشل ابدا فى تجديد روحى ، ورتّب ماكس ليبر لسفرى الى الجنوب لكتابة سلسلة من المقالات لنيويورك بوست ، ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان « مستأجرو المزارع فى شرق جورجيا » في فبراير اتبعتها بسلسلة اطول للجريدة نفسها نشرت فى

ابريل ، وكانت حصيلة سفر عدة اسابيع فى جورجيا والاباما ومسيسيبى .

حين وصلت نيويورك للاشراف على نشر « اركع للشمس المشرقة » ، اخبرنى ماكس ليبر ان مؤسسة فايكنج لم توافق على طبع كتاب السفر والذى اسميته « بعض الأمريكيين » ، وكان رأيه الا يتأخر نشر الكتاب ، وهكذا اتفق على نشره مع مؤسسة ماكبرايد ، وظهر فى اكتوبر سنة ١٩٣٥ .

قضيت معظم الصيف فى « ماونت فيرنون » وخططت للعودة الى الشاطىء الغربى عدة اشهر لافكر فى نوع الكتاب الذى سأكتبه . فقد حدث فى السنوات الأخيرة ان افكار بعض الكتب لم تكن تشد الانتباه ، وأردت ان أتأكد ان كتابى المثالى سيكون مهما بالنسبة لى ، سأذهب الى كاليفورنيا ليس لكتابة الافلام هذه المرة بل للحياة بعيدا عن هوليود والتفكير فيما اكتب فى وادى سان نودناندو فى ديسمبر ٣٥ الى ابريل ١٩٣٦ .

حقوقى المادية عن طريق التبغ تزايدت بثبات ، وبعد سنتين كان دخلى الاسبوعى منها قد وصل الى الف دولار ، استثمرت معظم النقود وان كان بشكل غير حكيم ، فى تعاقدات للمواد الخام والبترول .

فى بداية ابريل ، اضحت فى ذهنى فكرة واضحة ، عن نوع الكتاب الذى ارغب فى كتابته ، سافرت الى نيويورك وتحدثت مع ماكس ليبر عنه ، كان الكتاب دراسة واقعية عن الفلاحين فى الولايات التى تزرع القطن والضغط الاقتصادى الذى يرزحون تحته ، كان هدفى ان اوضح ان الادب الذى

اكتبه له ركيزة اصيلة من الحياة المعاصرة فى الجنوب ، ورغبت ان يوثق الكتاب بمجموعة من الصور ملتقطة فى مواقعها .

ورغم انى التقطت عددا من الصور لتظهر مع مقالاتى فى نيويورك بوست ، الا انها صور من التقاط هاو ، ولم تكن لدى اوهام عن مقدرتى فى ذلك الحقل ، ولذا كنت احبذ استخدام افضل المصورين لالتقاط صور الكتاب ان امكن .

بعد استعراض اسماء عدد من المصورين ، رتب لى ماكس ليبن لقاء مع « مارجريت بورك وايت » وهى مصورة شابة ملهمة اصدرت كتابا مصورا عن الصناعة لقى تقديرا كبيرا ، فضلا عن انها مشهورة بكتابها المصور عن طرق الصناعة والزراعة الروسية . وتقرر أن نسافر معا بالسيارة نجوب الولايات الجنوبية ، لمدة ستة اسابيع او شهرين .

بعد قضاء عدة أسابيع فى « مين » عدت الى جورجيا فى يولية سنة ١٩٣٦ لمقابلة مارجريت والرحلة الى الجنوب ، كان اسم الكتاب الذى سنتعاون فيه « رأيتم وجوههم » .

١٩

مرت الأسابيع الثلاثة الأولى من رحلتنا دون حوادث ، خططنا لنسافر مسافة ثلاثة آلاف ميل فى اتجاه الغرب أولا ، من جورجيا عبر الاباما الى المسيسبى ، وفى لويزيانا الى اركنساس ، ثم شرقا عبر تنيسى وكارولينا الى فرجينيا . قدت عربتى الفورد الى جورجيا وهى مثقلة بمعدات التصوير والحقائب وثلاثة اشخاص ، الثالث فى زمرتنا كانت مساعدة تحرير دعوتها لتقوم بكتابة اختزال دقيق للمحادثات التى سندرجها فى الكتاب . قبل مغادرتنا اوجستا اتفقت مارجريت وسالى بشكل ودى عمن ستركب فى المقعد الخلفى ومن تجلس فى المقعد الأمامى ، وقبلت سالى الجلوس فى الخلف طوال الرحلة قائلة بطريقة مرحة انها الفتاة المستأجرة ، وأن مثلها يتوقع منهن الجلوس على المائدة الثانية .

وبدأنا الرحلة فى ود ، ولكنى ادركت متأخرا انه كان بامكانى تجنب المشاكل لو تطوعت منذ البداية بالجلوس فى المقعد الخلفى وتركت احدى الفتاتين تقود العربة .

حين وصلنا « ليتل روك » اوضحت سالى انه من الصعب عليها كتابة ملاحظاتها بدقة فى المقعد الخلفى الهزاز ، حاولت ان اعالج هذا الموقف المتشابك ، بالاقتراح بالبقاء فى ليتل روك بضعة ايام ، اعتقدت ان التوتر سيختفى بمجرد ان تذهب سالى الى الكوافير وتشاهد بعض الافلام .

وحتى لو فكرت فى علاج افضل ، كان من المحتمل ان يفشل ايضا ازاء عدم اقتناع سالى واصرارها على الوصول الى قرار قاطع فى ليتل روك ، اوضحت مؤكدة منذ اليوم الأول لاقامتنا انها لن تكمل الرحلة اذا كان عليها ان تجلس فى المقعد الخلفى كل الوقت ، وقالت مارجريت انها ربما تفقد كل اهتمام بالمغامرة اذا كان عليها أن تجلس فى المقعد الخلفى اى فترة مهما قصرت ، حاولت ان اخفف من حدة النقاش بقولى انه يشرفنى ان تتجادل فتاتان جذابتان على الجلوس بجانبى ولكنى من اجل الوفاق ساجلس فى المقعد الخلفى طوال الوقت ، افهمونى انى يجب ان ابقى خارج النقاش .

فى الساعة الثانية والنصف صباحا ، ايقظنى موظف الفندق الذى نقيم فيه ليخبرنى ان هناك ضوضاء وفوضى فى الدور السادس ، ولابد من ايقافها .

وكرر مؤكدا : يجب ان تتوقف الضوضاء فورا .. النزلاء يشتكون .

قلت : أنا لا أثير أى ضوضاء .. انا فى سريرى .

قال : لكن احدى الفتيات تثير ضجة كبيرة .. واحدة من رفيقاتك انها مسئوليتك .

وعدته انى سأتصرف ، حذرنى بأن الأمر بيدى الآن ، واذا لم تتوقف الفوضى فسيتخذ اجراءات آخرى .

اتصلت بغرفة سالى تليفونيا ، لكن لامجيب ، لبست وخرجت الى الصالة ، لم أر احدا ولم اسمع اى ضوضاء ،

الصوت الوحيد فى الفندق كله هو صوت شخير احد النزلاء ، نزلت الى صالة الفندق الرئيسية وقلت للموظف غاضبا لقد أخطأت لاتوجد ضجة فى الدور السادس .

سلمنى مظروفا قائلا بهمهمة : هذه الرسالة تركتها لك الفتاة .

ـ اية فتاة ؟

ـ صاحبة الشعر الأسود التى خرجت لتوها ـ استدعيت سيارة اجرة وذهبت الى محطة السكة الحديدية قائلة انها ستستقل القطار خلال عشرين دقيقة .

جلست على كرسى وقرأت الرسالة .

قالت سالى انها تترك العمل وتعود الى البيت ، انها تستطيع العمل مع كاتب مزاجى واحد ، او مع مصورة مزاجية واحدة ، ولكن لااحد يضطرها ان تحتمل فنانين مزاجيين فى عربة واحدة فى فصل الصيف فى اركنساس .

القسم الثالث

سنوات النضج

١

البحيرات زرقاء هادئة ، والليالى صافية باردة ، وغابات البتولا تتلون اوراقها بالبنى والاحمر والذهبى فى خريف نيوانجلند الشمالية . وبعد صيف فى السفر فى الحرارة الرهيبة للجنوب ، كانت ولاية "مين" باردة وهادئة ، بدا لى آنذاك ان اهم شىء اقوم به هو صنع عصير التفاح فى المعصرة الخشبية الكبيرة خلف الحجرة ، اقفلت الآلة الكاتبة ووضعتها فى دولاب بعيدا عن انظارى .

وبعد شهر من الانهماك فى صناعة عصير التفاح صباحا ، والصيد بعد الظهر فى الغابات ، والتجديف عند الاصيل فى بحيرة باركر ، لم استطع كبح الرغبة فى الجلوس الى الآلة الكاتبة ، اصبحت الكتابة عادة كتدخين السجائر ، من الممكن أن امتنع عنها لفترات قصيرة لكنى اعود اليها دائما بشوق متجدد .

لم ارغب فى الانتظار فترة اطول للبدء بكتابة "رأيتم وجوههم" غادرت ماونت فيرنون فى اوائل اكتوبر متجها الى نيويورك لاعيش فى شقة فى الشارع الثانى والاربعين ، كانت رغبة مؤسسة فايكنج نشر الكتاب فى اسرع وقت وتحدد موعد

النشر فى ربيع ١٩٣٧ . وأملت أن انهى المخطوط واختار الصور مع مارجريت واكتب التعليقات عليها خلال الأشهر الثلاثة الاخيرة من عام ١٩٣٦ . كانت مارجريت فى عمل لمجلة وايف خارج المدينة مما آخر الاختيار النهائى للصور ، ووجدتنى منشغلا بأعمال لم يكن لها آية صلة بإنهاء الكتاب .

صدرت الطبعة الفرنسية من روايتى ارض الله الصغيرة فى اكتوبر ومن ترجمة موريس كوندرو استاذ اللغة الفرنسية فى جامعة برنستون ، وذلك عن دار نشر جاليمار ، وبمقدمة بقلم اندريه موروا .

وكان هذا اول كتبى التى تترجم الى للغة آخرى ، مع العلم أن كل ماكتبته قد نشر فى انجلترا عن دور نشر مختلفة ، واصر موريس كوندرو ان يقيم حفلا بهذه المناسبة تحت اشرافه ، وجاء الى نيويورك ونظم عشاء فى بنى ملحق فى مطعم فى سنترال بارك ، واهدانى اثناء العشاء نسخة من ترجمته وعلمنى ان جاليمار طلبت منه ترجمة ثلاثة كتب أخرى لى فى اقرب وقت . وقبل عودته الى برنستون كان قد اتفق مع ماكس ليبر على ترجمة "الأرض الامريكية" وطريق التبغ ونحن الاحياء . وكانت هذه بداية تعاون طويل وممتع مع موريس ومع دار النشر جاليمار .

اصبحت معوقات العمل متواصلة ، وبدا كما لو أن كتاب "رأيتم وجوههم" لن ينتهى فى الوقت المحدد لنشره فى الربيع ، احدى هذه المقاطعات كانت معرض الكتاب الذى اقامته جريدة نيويورك تايمز سنة ١٩٣٦ والذى كان عبارة عن حلقة ادبية عقدت فى معهد روكفلر خلال الاسبوع الاول من نوفمبر شارك فيها المؤلفون والنقاد ، حثنى مارشال بيت على

قبول دعوة للاشتراك فى المعرض ووجدت ان هذا النشاط يستقطع اسبوعا من وقتي ، كما لم يكن لدى الرغبة اطلاقا فى الحديث عن اعمالى أو مناقشة المشاكل الادبية ، وقد اقنعنى هذا المعرض ألا ابدى أى استعداد للاشتراك فى امثال هذه المهرجانات الادبية . كنت على ثقة انى سأكون اسعد لو شاهدت مباراة كرة قدم أو سلة .

ولكن ماحدث هو أكثر ازعاجا من هذا ، وعانى كتاب "رأيتم وجوههم" المزيد من التأخير ، فقد فشل ماكس ليبر فى منعى من توقيع عقد للقيام برحلة لالقاء محاضرات خلال الفصل الدراسى ٣٦ ـ ١٩٣٧ ، ورغم أن آخر شيء فى العالم كنت اتطلع اليه هو الحديث من منصة عامة فلابد انى لم اكن فى كامل وعيي حين وافقت بغباء ان اطوف فى مختلف المدن لالقاء محاضرات .

وباقتراب موعد المحاضرة الأولى ، جافانى النوم ليلة بعد ليلة رعبا من هذه المحنة ، ولاتسأل عن المرات الكثيرة التى فكرت فيها كيف تورطت فى هذا الأمر او معرفة ماحدث لى للموافقة على فتح الموضوع معى ، وقبل أيام قليلة من موعد المحاضرة فكرت جديا فى السفر الى امريكا الجنوبية لاهرب مما سيكون بالتأكيد تجربة مؤلمة .

ولحسن الحظ ألغى الموعد الأول باتفاق بينى وبين من أستأجرونى ، تلك الضربة من الحظ ، اعطتنى الفرصة والشجاعة ايضا أن أناشد فرانسيس كوسيل المدير المشرف على مكتب المحاضرات اعفائى من كل اللقاءات الباقية التى

رتبتها ، اعتقنى من العقد بحكمة ، والا فان كل من يهمه الأمر كان سيعانى وقتا شاقا بلا شك .

كان المحاضرة الأولى قد تقررت ان تكون فى كلية هاملتون فى نيويورك ولحسن الحظ كان كارل ساندبرج بدأ جولة محاضراته وطلب منى اذا كان بالامكان الغاء محاضرتى لصالح ساندبرج ، وافقت بسرعة ولم أسأل سبب هذا الرجاء المتأخر ، ولكن ليونارد ليونس قال فى عموده الساخر ان السبب ان ساندبرج يعزف القيثار مع محاضرته اما كل ما اقدمه أنا فهو الكلام ومهما كانت السبب فانه اعفانى من المعاناة ذلك الخريف والشتاء .

● ● ●

٢

بالرغم من التأخير والمعوقات الأخرى ، وبفضل وحى الدقائق الاخيرة ، كان كتاب « رأيتم وجوههم» ، جاهزا للنشر عن دار فايكنج فى أوائل ١٩٣٧ ، كما صدرت منه طبعة شعبية ورقية الغلاف في اخر العام عن دار « مودرن ايج » ـ العصر الحديث .

بعد الانتهاء منه ، كنت متشوقا للكتابة الابداعية ، فبدأت فى الربيع كتابة قصص قصيرة ، وقد طلب منى « مونت بورجيلى » وهو مدير لعدة صحف ومؤسس ومشرف على صحيفة « ميدويك بكتوريال » الاسبوعية المصورة ، ان اكتب له أسبوعيا ولمدة سنة ، وكان يفضل أن اكتب القصة القصيرة بدل المقالات ، ولكن وجدت بعد كتابة ست قصص ، أن تزويد المجلة بقصة قصيرة ، اسبوعيا عمل قاس جدا ، فتركت الكتابة الابداعية وغير الابداعية فى مجلة بكتوريال آسفا ، كان العمل مع مونت ممتعا ومربحا ، لكنى لم ارغب فى تكريس كل وقتى للصحافة .

عند نهاية الصيف كنت قد انتهيت من سبع عشرة قصة قصيرة ، واخبرنى مارشال بست ان مؤسسة فايكنج ترغب فى نشر مجموعة لى فى السنة التالية ، اقترحت عنوانا

للمجموعة ، وهى الرابعة التى انشرها « طرق جنوبية » وكانت قصصها قد نشرت فى العديد من المجلات بترتيب من ماكس ليبر ، وتراوحت مكافأة القصة منها بين عشرة دولارات و١٥٠٠ دولار .

وبدا واضحا لى فى سبتمبر من ذلك العام انه لابد من عمل شيء ما لتنظيم سجلاتى المالية والتى حاولت الاحتفاظ بها خلال السنتين الماضيتين .

فما باقى عبارة من ارقام مبعثرة على كعوب الشيكات ، دون تفريق بين المصروفات المهنية والشخصية ، ولاتوجد لدى فكرة عما اقدمه لدائرة الدخل القومى ، وقد بلغ دخلى حوالى ٢٠٠٠ دولار اسبوعيا من ريع مسرحية ، طريق التبغ ، والف دولار شهريا من ربع الكتب ، لاتصرف كلها بل ادخر جزءا منها ، وكانت هناك اكوام من الرسائل تحتاج الى رد . وادركت انى احتاج الى مساعدة وإلا لن يبقى لى إلا قليلا من الوقت للكتابة ، وفكرت فى استخدام سكرتيرة لأول مرة .

انتقلت ذلك الخريف إلى شقة أكبر فى فندق للاقامة فى سنترال بارك الغربية ، واستخدمت سكرتيرة مدربة ، فتاة واعية تدعى مارجريت سالتر قضت عدة اسابيع تصنف الرسائل وتنظم حساباتى المختلطة .

ووجدت وقتا كافيا آنذاك للرد على الرسائل المهمة ، اما باقى البريد فيمكن تصنيفه الى :

ا ـ خطابات تطلب نقودا بصراحة .

ب ـ خطابات تحوى قصة حياة كاتبها مقابل مكافأة عادلة .

حـ ـ خطابات مجهولة التوقيع تتهمنى بكسب نقودى من معاناة الجنس البشرى عامة والمستأجرين من الفلاحين خاصة . باقى الخطابات التى لاتندرج تحت هذه المواصفات كانت ذات طبيعة جادة عموما ، اما سؤالا عن اتوغراف ، او طلب مقالة تصلح لـ . . مدرسى ، او طلب توقيعى على عريضة لاحتجا- . . اكثر الرسائل التى لفتت انتباهى تلك التى يطلب اصحابها مبلغا محددا من المال لمنع الاذى الجسدى عنى أو عن أحد أفراد أسرتى .

ووجدت ضمن الأوراق وثيقة قانونية أخرى تحمل توقيعى ، ربما وقعتها فى الوقت نفسه ، الذى وقعت فيه عقد جولة المحاضرات ، وكانت هذه بالموافقة على تكليف الفردهيز وليون الكسندر بمسرحة رواية الرحالة .

قرأت المسرحية بسرعة ووافقت عليها مع بعض التحفظات ، عدلت المقترحات فى النص ، ووقع سام بايرد ، الذى ترك دوره البارز فى طريق التبغ ، بعد اربع سنوات عقدا مع معد المسرحية لانتاجها .

لم تكن بى رغبة للتورط فى انتاج مسرحى فى برودواى اكثر مما كان لى عند مسرحة طريق التبغ ، لكن الحاح سام بايرد بالتليفون والبريد واللقاء الشخصى جعلنى اوافق فى النهاية فى المساهمة المالية للمساعدة بظهور « الرحالة » على المسرح ° وفكرت بأنه سيقتنع لو استثمرت بضعة آلاف من الدولارات فى الانتاج ، لكنه قال ان هذا ليس كافيا ، وأصر أن أساعد فى مراجعة نص المسرحية ، ومقابلة الممثلين

بالحديث اليهم وحضور البروفات مما شغلنى لمدة شهرين بعمل يستغرق اليوم بطوله من الصباح حتى منتصف الليل .

وافتتحت المسرحية على مسرح فالتون فى نيويورك فى امسية شعرية فى ٢٠ يناير سنة ١٩٣٨ ، وقد حدث اثناء البروفة النهائية فى اليوم السابق ان معد المسرحية ومخرجها انكروا بصوت عال اى علاقة لهم بالمسرحية وشجبوا الشخصيات بكل الألفاظ بحيث لم يبق الا استخدام العنف .

لم يلق سام بالا لهذا الهدير الهائج واعتبره مجرد انفجار مؤقت عادى يحدث فى برودواى عشية الافتتاح ، وبقى محتفظا بهدوئه ومقتنعا ومتحمسا كعادته .

كانت مراجعات الصحف عن ليلة الافتتاح كلها تقريبا غير متعاطفة ، بل كانت عنيفة وذات تأثير يدفعنا لعدم رفع الستارة لليلة ثانية .

كان سام رجلا عنيدا ، ولايسمح لنفسه بأن « تيأس بسبب النقد » ، قال ان فى تاريخ المسرح كثيرا من المسرحيات التى هاجمها النقاد ومع ذلك بقيت شهورا كثيرة منتعشة على الخشبة ، وأنه يود أن يرى الرحالة تأخذ مكانها بين تلك المسرحيات المختارة ، وكانت فكرته أن يوفر نقودا اضافية لمرتبات الممثلين وأجرة المسرح للمحافظة على استمرار المسرحية اسبوعا كاملا ، قائلا أن اضرار المراجعات الصحفية تكون قد نسيت فى نهاية الاسبوع وربما يظهر الشباك بعض التحسن ، وطلب منى توفير مبلغ خمسة آلاف دولار بأية طريقة .

من الطبيعى ، أنه ليس سهلا اقناع احد بدعم مسرحية قبل أن تفتتح ، ولكن شبه مستحيل أن تجد شخصا يدفع آلافا من الدولارات للمحافظة على استمرار مسرحية افتتحت .

قلت : سام لا أعرف أحدا يضع نقوده فى مسرحية تبدو فاشلة .

قال مؤكدا : ذلك سهل . ستجد ممولين فى برودواى لآلاف من الأشياء التافهة ، ان كل مايزمك هو الوصول الى الشخص المناسب والتحدث بسرعة .

قلت : انت عشت فى برودواى فترة اطول منى وربما تكون اقدر فى الوصول الى الشخص المناسب والحديث معه .

- يجب أن أبقى قريبا من الشباك فمن المهم للمنتج أن يراقب الشباك كما يراقب القبطان فى البحر البارومبتر .

وكما تخوفت ، زودت المسرحية بالنقود من مدخراتى ، فى نهاية الأسبوع الأول انفقنا ٧٥٠٠ دولار للمحافظة على استمرار المسرحية اسبوعا آخر ، تبخرت مدخراتى بعد ذلك وجفت المنابع الأخرى وتوقفت المسرحية فى نهاية الاسبوع الثالث ، وأنا أشهد ذلك قررت أن أكون اكثر حرصا ؛ استثمار اموالى فى المستقبل خاصة فى دعم مسرحية برودواى .

٣

بعد اقامتي في نيويورك لاكثر من سنة ، كنت قلقا بالرغبة للسفر ثانية سلمت مخطوطة مجموعتي القصصية « عادات امريكية » الى مؤسسة فايكنج لتصدر في يونيه ٣٨ ، ولم أرتح لفكرة البقاء مدة ٦ ـ ٨ أشهر لكتابة رواية قبل ان أسافر في رحلة الى مكان ما .

كنت في الرابعة والثلاثين من العمر ولم أخرج من الولايات المتحدة وكندا ، ولم يكن صعبا ، في مثل هذه الظروف، ان اقنع نفسي بأن السفر الى الخارج مازال في اليد . اقترحت على مارجريت رايت ان نتعاون في كتاب اخر ، بالصورة والنص ، وقد شعر كلانا ان كتاب « رأيتم وجوههم » برهن على تعاون ناجح ومن الضرورى ان يتبعه كتاب آخر ، يشبهه في خطته ويختلف عنه في موضوعه ، وبعد الاخذ في الاعتبار عدة امكانيات قررنا السفر الى تشيكوسلوفاكيا لقضاء شهرين نجمع فيهما مادة لكتاب رحلات .

وحيث أنى لاأتكلم إلا الانجليزية ، أدركت صعوبة تعلم التشيكية والسلافية خلال أسابيع قليلة ، وحتى معرفتي المحدودة باللاتينية والفرنسية لم تفدني في هذه الناحية ، ومع ذلك كان هناك الكثيرون في براغ ممن يتكلمون الانجليزية ، وفكرت انى اذا احتجت لمساعدة اتصل بجيرى بوير وهو وكيل أدبى ، او بفرانز ديسكوف وهو محرر في

جريدة يومية ، وكانت ترجمة روايتى أرض الله الصغيرة قد صدرت بالتشيكية سنة ٣٧ من ترجمة ليدوفا كالتور ونشر مؤسسة جيرى بوبر .

وحين بدآنا الترحال فى الأقاليم الوسطى والشرقية من تشيكوسلوفاكيا ، بدت حواجز اللغة احيانا مسألة خطيرة . فى بوهيميا ومورافيا لم تكن هناك صعوبات كبيرة فى التفاهم مع سائقى التاكسى ورجال الشرطة وخدم المطاعم ، ولكن فى الأقاليم الشرقية لم يكن من السهل العثور على من يعرف الانجليزية ، حتى عمال الفنادق الذين يفخرون فى أوربا كلها بمقدرتهم على اجابة طلبات الاجانب العادية ، كانوا فى هذه الاقاليم يهزون اكتفاهم ويمضون، لدرجة ان الحصول على وجبة طعام فى فندق أو مقهى ، كان محطما للاعصاب احيانا ومحنة يحسب المرء حسابها ، فمثلا أنا أحب البفتيك ، وهو طعام تجده فى كل قائمة فى الولايات المتحدة ، وكان الطعام الوحيد تقريبا الذى يوجد بينى وبين الخدم تفاهم حوله ، فهم مغرمون به ، يحملونه باحترام شديد ، بغض النظر اذا كانوا هم يتناولونه او الزبائن . يبدو عليهم السرور دائما حين اطلبه . كما لاحظت انه من يطلبه يحظى باحترام اكثر من المعتاد .

ولمدة شهر كنت اتناول البفتيك فى الغداء والعشاء وحتى فى الوجبة الخفيفة . عند منتصف الليل اذا تصادف وتناولتها ، ويقدم هذا الطبق عادة فى اقاليم وسط اوروبا بيضة مقلية او اثنتين على البفتيك وأحيانا يقدم مع بيض مسلوق .

ذات صباح فى « أزغورد » قرب حدود اوكرانيا الروسية حاولت ان أطلب بيضا دون بفتيك فى الصباح ، فان تناول البفتيك مرتين فى اليوم يكفى .

قلت للساقى موضحا كلامى بشكل محدد باللغة التشيكية ، بيض دون بفتيك قال هازا رأسه قليلا : لابفتيك .

فكرت ان اناقشه بهذه المناسبة لتقوية لغتى لكننى خفت أن أربكه .

كررت : كثير من البيض فقط .
قال بلا حماس : كوروشو .
ذكرته بشدة : لابفتيك .. بيض .
قال وهو يمضى : تاك .

بعد حوالى عشرين دقيقة ، عاد بابتسامة عريضة ووضع أمامى طبق شوربة مملوء بالكافيار الأحمر ، وقال هو ينتحى ، لابفتيك .

قلت : ناظرا الى العطام النيىء : تاك .
ذقت قليلا من الطبق وبدأت امضغه كتجربة .

قال الساقى بالانجليزية لأول مرة : هل عجبك ؟

قلت ساخطا : اذا كنت تتكلم الانجليزية فلماذا احضرت لى بيض سمك بدل بيض الدجاج ؟

هز كتفيه كأنه لم يفهم شيئا مما قلت ، وبينما كان يقف مهمهما بسعادة تناولت معظم الكمية بالملعقة .

بعد السفر على معظم خطوط السكك الحديدية الاساسية والكثير من الخطوط الفرعية فى تشيكوسلوفاكيا ، اتناول البفتيك فى عشرات من المقاهى ومطاعم الفنادق ، ذهبنا الى بودابست واخذنا قطار الشرق الى باريس ، وفى أغسطس عدنا الي الولايات المتحدة .

كنت قلقا وأود أن أنهى الكتاب دون تأخير ، ورغبة فى تجنب المقاطعات ، استأجرت كوخا فى جزيرة برات ، وبعد شهرين كنت قد انهيت المسودة الأولى من الكتاب ، كان الشتاء قد قرب على الانتهاء ، اشتريت بيتا على قمة تل فى « دارين » بمبلغ عشرين الف دولار ، وانهيت النص فى آخر العام واخترنا الصور ، ونشر الكتاب عن دار فايكنج فى ابريل ٣٩ بعد أن احتل الألمان تشيكوسلوفاكيا ، وكان العنوان الذى اخترناه له أنا ومارجريت « شمال الدانوب » .

٤

وكما يحدث أحيانا ، فإن العقود تنتهى فتراتها ولا تجدد ، بغض النظر عن ودية العلاقات الشخصية والمهنية القائمة بين الناشر والمؤلف ، ويعتبر هذا حدث عادى حين يتضاءل حماس احد الاطراف . وطبيعى فى مثل هذه الحالات ان يلقى باللوم على الطرف الاخر ، مثلا حين يعرض الجمهور عن شراء الكتاب بالكميات المتوقعة ، فيلوم المؤلف الناشر او يأتى الناشر باللوم على المؤلف ، انذاك يضحى فك التعاون بينهما وشيكا .

استاءت دار فايكنج لأنى لم أكتب رواية منذ "الرحالة" التى نشرت سنة ١٩٣٥ وأعيد نشرها سنة ١٩٣٨ ، ولأنى أيضا أكرس معظم وقتى لكتابة كتب غير ابداعية ، مثل "شمال الدانوب" و"رأيتم وجوههم" ، وبدا ماكس ليبر وكيلى الادبى تعيسا لان هارولد ومارشال لا يميلون لقبول توقيع عقد جديد ، ولم أكن بدورى سعيدا لانى أعتقد أن دار فايكنج لم تبد اهتماما كافيا بالكتب التى كتبتها ، وكان حتما - تحت مثل هذه الظروف - ان يقل حماس الطرفين تدريجيا حتى تلاشى فى النهاية تماما .

لم تنتابنى المشاعر نفسها ، عند انسحابى من دار فايكنج ، كتلك التى انتابتنى حين انهيت تعاونى مع ماكس بيركنز وسكر بنرز ، بدأت انظر للنشر كعمل أكثر منه كموضوع شخصى .

كان الوقت ربيعا ، وقد أزهرت الأشجار في "كونيكتيك" . نشر كتاب "شمال الدانوب" ، وبدأت كتابة رواية جديدة اسميتها "متاعب في يولية" ، وهي تقدم وجها أخر من الحياة ، في التصوير المتواصل للجنوب الامريكي والذي بدأته بطريق التبغ ، ثم أرض الله الصغيرة ، والرحالة ، كانت القصة عن السياسة في مدينة صغيرة ، وتأثيرها على حيوات وشخصيات الناس في المجتمع .

كنت أكتب خارج المنزل في أيام الربيع الدافئة ، جالسا على جلمود صخر مغطى بالطحالب يطل على "لونج ايلاند" ، انهيت المسودة الأولى للرواية في شهرين ، وقبل البدء في الكتابة الثانية والأخيرة للرواية رأيت ان من الحكمة أن أصل إلى قرار حول عقد جديد للنشر سواء مع فايكنج أو أي دار نشر أخرى .

التقيت أنا وماكس عدة مرات مع هارولد ومارشال ، في أحد هذه اللقاءات سأل ماكس هارولد إذا كان ينوي نشر رواية "متاعب في يولية" .

قال هارولد : افترض اننا سننشر المادة الجديدة التي كتبها كالدويل ، قال ماكس وهو ينتصب في جلسته : مادة .. تسمى رواية "متاعب في يولية" مادة .. لم نأت هنا لندلل على بضاعة ، نحن هنا لنتحدث عن رواية ، وكالعادة ، حين تثور مثل هذه المواقف ، يلطف مارشال الجو بملاحظة فكهة تثير الضحكات الخافتة في الغرفة ، ومع ذلك . ظل ماكس مصمما ان يدفع لنا مقدم كبير كحقوق تأليف لكل كتاب جديد ، وان نتسلم حقوق بنسب مئوية متزايدة بعد ذلك ، وقلت مضيفا الى

هذا الجو المكفهر انى أرغب فى وضع الأسس لسلسلة من الكتب تنشر حول الولايات الأمريكية المختلفة تحمل عنوانا عاما "عادات شعبية امريكية" جذب هذا المشروع انتباهى منذ بدأت السفر فى الولايات ، ولاحظت الاختلافات البينة فى حياة الناس فى الأقاليم المختلفة ، أردت أن اخطط لسلسلة دراسات يكتبها مؤلفون على علم تام بالأماكن التى يقيمون فيها ، بحيث يمكنهم وصف وتفسير الصفات الطبيعية والفطرية للحياة فى امريكا ، وقد قال لى توماس وولف قبل وفاته بقليل سنة ١٩٣٨ ، انه يرغب فى كتابة أول كتاب فى هذه السلسلة ، ولكن بوفاته أجلت محاولة اصدار هذه السلسلة .

الهدف من كتب هذه السلسلة ،. بالاضافة إلى كونها طريفة ومقروءة ، هو وصف التأثير الثقافى الذى غرسه المستوطنون الأصليون واحفادهم على الحياة المعاصرة ، وشرح الطريقة التى تختلف فيها الحياة من اقليم إلى آخر .

وبدا لى ان مجموع هذه الدراسات سيكشف ماتشربته الشخصية الامريكية . واعتقدت ان هذا البرنامج يمكن انجازه فى ٢٥ ـ ٣٠ مجلدا .

لم يكن هارولد ومارشال ، متحمسين لتنفيذ مغامرة كبيرة مكلفة كهذه تحت اشرافى ، وفى النهاية بدأوا ينظرون بعدم الرضا حول كل الطروحات التى قدمناها انا وماكس ، وبالتالى ، مع البقاء اصدقاء ، وافقنا على انهاء العقد بيننا وعدم توقيع عقد جديد .

مكثت فى "دارين" خلال صيف ٣٩ ، وانهيت رواية

"متاعب فى يولية" فى أوائل سبتمبر ، ولم تكن أول رواية اكتبها منذ عام ٣٥ فقط ، ولكنها أول كتاب اكتبه منذ سنة ١٩٣٠ ، ولم يكن لدى ناشر له .

عرضت دار "راندوم هاوس" ان توقع عقدا معى بشروطى ، لكنى ترددت فى الاتفاق مع ناشر حتى أتأكد انى سأقتنع بالتعاون معه لفترة طويلة ، كنت آمل ان أحقق علاقة ودية غير محدودة بفترة زمنية مع ناشرى الجديد ، وليس مجرد عقد لثلاث سنوات وثلاثة كتب كما فى الماضى .

كانت دار "راندوم هاوس" تنشر سلسلة المكتبة الحديثة ، باخراج جيد واعادة طبع زهيدة الثمن ، ولقد عرفت المحررين فيها بنيت ودونالد منذ نشرت أرض الله الصغيرة فى السلسلة سنة ١٩٣٤ ، كنت على وشك الدخول باتفاق معهما ، فقد قدموا بنودا أفضل من بنود أى عقد وقعته من قبل ، وكنت سأوقع العقد لو لم يحدث ان قابلت "شارلز دويل" على عشاء كنا فيه ضيوفا على أميل كلارك .

أخبرنى "دويل" عن الخطط التى رسمها مع سلوف وبيرس لانشاء دار نشر جديدة ، عرفت بيرس لسنوات عديدة واحترمت قدراته وبعد نظره كمحرر ، قلت لدويل انى أبحث عن ناشر جديد وانه بالتالى هناك دار نشر فتية وجريئة تبحث عنى ، قال فى الحال انه يمكننى كتابة عقد معهم . تصافحنا لتأكيد تفاهمنا واخبرته انى سأطلب من ماكس ليبر ان يوقع عقدا معه فى الحال .

ووقع العقد بعد ايام قليلة مشتملا كل البنود التى رغبنا فيها انا وماكس بما فيها برنامج نشر سلسلة كتب "طرق

شعبية امريكية" على ان يصدر منها سنويا من ٢ ـ ٤ مجلدات .

أول كتاب اعطيته لهم رواية "متاعب فى يولية" وتقرر نشرها فى فبراير سنة ١٩٤٠ ، ولكى نبدأ فى سلسلة طرق شعبية أمريكية باسرع وقت تركت "دارين" فى أواخر أكتوبر سنة ٣٩ وسرت فى رحلة اجتازت البلاد بحثا عن عدد من الكتاب القادرين على المساهمة فى الكتابة الى السلسلة .

٥

بعد خمسة أسابيع من مغادرتي "كونيكتيكيت" ، كان خمسة مؤلفين قد وافقوا على كتابة خمسة مجلدات في سلسلة عادات شعبية امريكية جين توماس من كينتكي يكتب مجلدا بعنوان "بلد التلال الزرقاء" ، وأوتوا ارنيست من اركنساس يكتب "بلد الأوزال" ، وقضيت عدة أيام في جامعة أوكلاهوما اتحدث مع ستانلي فستال حتى وافق ان يكتب مجلدا بعنوان "بلد العشب الأخضر" ، وقضيت أسبوعا في سانتاني ، في نيومكسيكو موطن هانيال لونج الذي وافق على كتابة "بلد الصنوبر" وفي لوس انجلوس تعاقدت مع ادوين كورل على كتابة "بلد الصحراء" .

وكان كورل هو الوحيد من المؤلفين الخمسة الذي لم اتراسل معه او اعرفه من قبل ، وحين انتهيت من حديثي معه موضحا سبب قدومي لرؤيته ، كان نقاشه معي شرسا نوعا ما .

قال : أحب أن أكتب الكتاب ، لكن لا أحب أن يراجع أحد ما أكتبه . إذا كان هناك ما يتطلب اعادة كتابة .. أقوم بذلك بنفسي ، أكدت له انني لا أقوم بالمراجعة او التحرير بالشكل الذي يتخيله ، ووضحت له ان كل كاتب في السلسلة عليه ان يخطط للكتابة بنفسه ، وبالشكل الذي يراه وكل ما افعله هو

تقديم الاقتراحات اذا طلبت . قال ! حسنا ذلك مختلف ، لقد رغبت فى كتابة مثل هذا الكتاب "بلد الصحراء" منذ عشر سنوات ، والان سأكتبه فى سلسلة عادات شعبية امريكية حتى لو تشاجرنا معا على كل فصل فيه .

وقد اقتنعت انه بهذه الكتب الخمسة ستبدأ السلسلة بداية ناجحة ، وقد نشرت هذه الكتب خلال عام ٤١ ـ ١٩٤٢ وفى خلال السنوات العشر التالية كان قد تم نشر ٢٥ مجلدا فى هذه السلسلة .

حين غادرت كاليفورنيا ، توقفت فى اريزونا خلال الأسبوع الأول من ديسمبر لزيارة هارى بيهن ، كان قد اشترى بيتا فى توكسون ، وهى المرة الأولى التى اراه فيها منذ غادرت هوليود ، كان قد افتتح قسما لكتابة البرامج الاذاعية والحوار الاذاعى فى جامعة اريزونا وكان رئيسا لذلك القسم . وخلال الأسبوع الذى قضيته هناك ، حاول ان يقنعنى بلا جدوى أن اشترى بيتا فى الصحراء اقيم فيه جزءا من السنة ..

كانت أول زيارة لى لصحراء اريزونا الجنوبية ولم تبهرنى شهرتها واتساعها القاحل وجبالها الجافة العالية . ولم استطع أن أفهم وأنا الذى قضيت ٣٧ سنة جائلا فى جنوب البلاد وشرقها ، لماذا يترك انسان ما بنفس راضية أراضى مملوءة بالأشجار الخضراء والعشب النضير ، من أجل رمل حمصته الشمس والصبار بأشواكه فى الصحراء .

بعد أسبوع فى اريزونا قررت الذهاب الى شاطىء ميامى وقضاء أسبوعين للاستجمام قبل العودة ، كانت المسافة بين توكسون وآل باسو فى تكساس أكثر من ٣٠٠ كم ، وقبل

وصولى الى باسو بعدة ساعات ، بدأت اشعر بالضعف والدوخة ، أوقفت السيارة عدة مرات على الطريق السريع قبل أن أتمكن من قيادتها ثانية ، هجمات من الحمى والدوخة تأتى على فترات ، لم اعتقد أنى سأموت لكنى لم أشعر من قبل انى قريب لهذه الدرجة من الموت ..

اعتزمت ان اتوقف عند فندق فى آل باسو ، ولكن ما ان غادرت العربة فى البلازا فى وسط المدينة ، وحاولت الوقوف أثنيت ركبت تحتى ، فعرفت أن الأمر خطير ، بعد جلوسى فى العربة لمدة ثلاثة أرباع الساعة ، سألت سائق تاكسي عن اقرب مستشفى ...

قال : ثلاثة بلوكات من هنا على الجانب الأيمن من الشارع ، لن تضل إذا حاولت . اضطراب نظرى لم يمكنى من رؤية شىء أبعد من المكان الذى أنا فيه ..

سألته : ما اسم المستشفى ؟

قال : هوتيل ديو ..

بدأت أحس بالحمى تغطى ذهنى ، قلت وأنا أهز رأسى للسائق :

ـ لا أريد الذهاب إلى فندق ، أريد مستشفى . دلنى على أقرب مستشفى . قال بجد : ذلك ما أقوله لك ... هوتيل ديو على بعد ثلاثة بلوكات ، لن تتوه . احتججت بضعف : مازلت تقول انه فندق أريد مستشفى ... أخذ نفسا عميقا وصاح ساخطا : إلا تفهم ماتسمع حين تسمع ، قلت لك أنه مستشفى ... هوتيل ديو اسم المستشفى .. اذهب الآن .

حملقت فيه دون ان أراه جيدا ، وانتابنى تساؤل لماذا يعذبنى ...

رجوته : الا تدلنى على مستشفى آخر .

قال هازاً رأسه : مستشفى مدينة المقاطعة ، ربما يعجبك اكثر هذا الاسم ...

سر فى هذا الشارع لمدة ثلاثة أميال فستصل إليه ..

قدت عربتى فى اتجاه المستشفى ، عثرت عليه بعد منتصف الليل بقليل ، تركت العربة فى موقف أمام المبنى وسرت مترنحا الى الاستقبال ..

كان فى الخدمة ممرضان وطبيب ، بدا عليهم الشك وهم يروننى أسير مترنحا ، ثم شم الطبيب نفسى ثم قادنى إلى غرفة مجاورة ، وأخذ حرارتى ، قال أنها فوق المعدل الطبيعى بدرجة خطيرة وأنى لابد ان أبقى تحت الملاحظة حتى الصباح ، كنت سعيدا أن أكون حيث أنا حتى أنى لم أهتم بما ستكشف عنه الأعراض ..

أيقظنى طبيب وممرضة عند الفجر ، ضحك الطبيب الطويل والذى كان فى مثل سنى وهو يخبرنى أنى مصاب بمرض « جدرى الماء » وأن علىّ أن أبقى فى المستشفى لمدة أسبوع ..

حين دفعت حسابى وهممت بالخروج فى نهاية الأسبوع ، اخبرتنى الممرضة أن الطبيب قد التقط العدوى وأنه وضع فى الحجر الصحى ... ذهبت إلى صيدلية قريبة واشتريت حلقة مطاطية من التى يعض عليها الأطفال وارسلتها له

وصلت فلوريدا قبل عيد الميلاد بوقت قصير ، ونزلت فى فندق ووفورد فى شاطىء ميامى .. مكثت هناك عدة أيام جاءتني خلالها فتاة في العشرين من عمرها ذات شعر أسود ، وطلبت منى مقابلة لمجلة طلابية تصدر فى جامعة ميامى . وفى الحوار الذى استمر ساعة تحدثت ميلدريد زن وهذا هو اسمها بذكاء ونباهة تلفت النظر ، قلت لها وهى تغادر أن هناك عملا لها معى كمساعدة تحرير فى أى وقت تشاء ..

قالت : انها تتوقع أن تتخرج من الجامعة فى منتصف فبراير وبعد ذلك ستفكر بالبحث عن عمل ... فى أواخر فبراير جاءت ميلدريد الى دارين حيث اقيم .

٦

بعد نشر «متاعب فى يولية» فى فبراير سنة ١٩٤٠ ، كانت هناك أوقات قليلة خلال السنة التالية لا أكتب أو أسافر فيها ، بدأت مع ميلدريد مهمة استغرقت ثلاثة شهور فى اختيار مجموعة قصص من المجلات ومن المجلدات القصصية الأربعة التى اصدرتها ، لاصدار مجموعة تحتوى على ٧٥ قصة ، وقررت بالفعل بالاشتراك مع كاب بيرس أن نسمى العمل Jack Pot وتقرر أن ينشر فى بداية الخريف ... وقد اقنعنى سام سلون بأن أكتب مقدمة مختصرة لكل قصة من القصص الخمس والسبعين فى المجلد البالغ ٧٥٦ صفحة .

كان الاختيار سيتم من بين مائة قصة وذلك هو عدد القصص التى وضعتها كهدف أمامى سنة ١٩٣٠ ، رغبت أن أختار أحسن ٧٥ قصة وبدا واضحا أن عملية الاختيار وكتابة المقدمات ليست عملا عاديا سهلا قامت ميلدريد كبداية بالقصص التى نشرت فى المجلات ولم تنشر فى كتاب ولم يكن سهلا ايجاد نسخ من هذه المجلات ، فكانت تنسخ القصص التى لاتجدها من مكتبة نيويورك العامة ..

وكانت ميلدريد ، بالاضافة إلى عملها فى اعداد المجموعة القصصية ، تشارك فى التخطيط والاختيار لسلسلة طرق شعبية أمريكية ، وكانت الكتب التالية فى السلسلة هى : بلد الحدود العالية لاريك ثين ، بلد النخيل لستيتسول كنيدى ، وبلد المورمون لوالاس ستيجنر ...

في يولية غادرت دارين في رحلة الى مكسيكو ، ولقد تطلعت إلى الرحلة كعطلة من الكتابة ، لكني وجدتني أعمل في كتابة القصص القصيرة معظم الوقت ، سافرت لعدة ولايات فترة استغرقت عدة أسابيع ، ثم عدت إلى نيويورك لأجد سام سلون قد رتب لي الاشتراك في عدد من البرامج الاذاعية ، منها ، والذى وجدته أكثر امتاعا ، برنامج معلومات من فضلك ، وبرنامج لقاء المدينة على الهواء ..

لم أكره الاذاعة وليس لي اعتراضات عليها كتلك التي جعلتني اتجنب جولات المحاضرات ، ومع ذلك فان الاذاعة لاتجتذبني كالكتابة ، وحين سألت سام لماذا يحثني على الحديث في برامج الاذاعة قال انها وجهة نظر الناشر الذى يرى أن الاشتراك في مثل هذه النشاطات من مقابلات في الاذاعة أو الصحف ، قد اثبتت انها جزء مهم للشهرة وبالتالي للتوزيع .

كتبت خمس أو ست قصص قصيرة في مكسيكو حيث نشرت بعد ذلك في عدة مجلات ، ومع ذلك كنت قلقا في البدء في كتاب جديد .. وفي سبتمبر اقترحت على مارجريت وايت ان نتعاون في كتاب ثالث بالنص والصور ، وقررنا هذه المرة ان نبقى في الولايات المتحدة ونسافر بالقطار والطائرة لمدة ثلاثة أشهر ..

بدأت الرحلة في أكتوبر من ولاية ايوا وانتهت في كولومبيا في كارولينا الجنوبية في ديسمبر ، خلال هذه الأشهر الثلاثة سافرنا إلى أكثر من اثنتي عشرة ولاية ، الكتاب الذى خرجنا به « قل هل هذه هي الولايات المتحدة ؟ » كتبناه في شهري يناير وفبراير ، وتقرر نشره في يونيه في العام نفسه

أثناء العمل فى الكتاب ، أبدت مارجريت رغبتها فى التعاون معى فى كتاب رابع ، واقترحت ان نذهب هذه المرة إلى روسيا ، كانت قد سافرت إلى روسيا ولم أكن كذلك ، ولقى المشروع قبولا لدى .. ذهبنا إلى واشنطن وطلبنا فيزا لدخول الاتحاد السوفييتى السفير الروسى لدى أمريكا لونستانتين أومناسكى لم يبد حماسا لخطتنا بالذهاب إلى روسيا لجمع مادة الكتاب ، قال أولا أن رحلة كهذه فى ذلك الوقت بالذات .. ستكون مرهقة لرفيقتى بسبب صعوبات السفر ، سنة ١٩٣٩ ، وانها خبيرة بالسفر أكثر منى ، ثم حاول ان يثبط همتنا بقوله انه يعد بدخولنا روسيا لكن لايعد بخروجنا منها ، وأخيرا حذرنا بأننا قد نجد أنفسنا سجناء حرب فى الاتحاد السوفييتى .. لكنه ضاف إذا نجحنا فى الوصول إلى الصين ، فإننا يمكن أن نحصل على فيزا من السفير السوفييتى فى شانج كينج .

بدأنا نعد للرحلة فورا . أعطيت مخطوطة « مثل هذه هى أمريكا» ، إلى الناشر ، وذهبت لاشهد عرضا لمسرحيتى طريق التبغ فى برودواى لآخر مرة ، وهى المسرحية التى سجلت حتى ذلك الوقت رقما قياسيا فى استمرار عرضها ، والتى سيتوقف عرضها بعد سبع سنوات ونصف . وعلى الرغم من أن المسرحية بدت اسوأ مما كانت فى السابق ، فالممثلون قد لعبوا أدوارهم لفترة طويلة حيث أعطوا الانطباع بالملل فى عملهم ، فانها بدت لى قوية كما رأيتها تقدم أول مرة .

ذهبت أنا ومارجريت ، فى منتصف مارس ، إلى لوس انجلوس لنطير من هناك إلى هونولولو حيث أخذنا تصريحا

لدخول الصين على الخطوط الجوية الأمريكية ، كانت الحرب الصينية ـ اليابانية على أشدها سنة ١٩٤١ وكان من الصعب وجود أماكن فى الطائرات وهى الوسيلة الوحيدة للسفر عبر الصين من هونج كونج إلى شانج كينج ، انتظرنا أسبوعا فى هونج كونج ، قبل أن نحصل على مكان على طائرة شحن تحمل بالات من العملة الصينية القومية إلى عاصمة الحرب شانج كينج ، فى هذه المدينة قضينا معظم وقتنا فى مخابىء مزدحمة اتقاء الغارات الجوية اليابانية ، وبعد انتظار لثمانية أيام ختم السفير السوفييتى جوازات سفرنا بالفيزا لدخول الاتحاد السوفييتى ...

بدأنا رحلتنا بألما أتا عاصمة جمهورية كازاخ السوفييتية على متن طائرة صينية صغيرة بمحرك واحد ، وصلنا لانشو فى ولاية كاتو الصينية حيث تعطل محرك الطائرة الألمانية الصنع ، وانتظرنا تسعة أيام حتى جاءت طائرة أخرى من الطراز نفسه وحملتنا إلى هامى فى ولاية شكيانج والتى كانت محطة تغيير الطائرات مع الخطوط الجوية الروسية .

هبطت عاصفة رملية فوق صحراء جوبى فى منغوليا أرغمت الطيار الصينى أن يهبط اضطراريا فى مطار حربى منغولى ، وأحاط الجنود بباب الطائرة كسد منيع ، وتساءلنا هل كان فى ذهن لونستانتين اومانسكى منغوليا حين قال ربما نجد أنفسنا سجناء حرب فى روسيا .

بعد ثلاث ساعات ونصف من مكوثنا فى الطائرة الممنوع عنها حتى الهواء ، وضعنا فى عربة لورى ونقلنا إلى معسكر حيث وضعنا تحت الحراسة حتى انتهت العاصفة الرملية فى اليوم التالى . تأخرنا لمدة ٢٤ ساعة تسبب فى تأخرنا عن

موعد الطائرة فى هامى ، وكان علينا أن ننتظر ستة أيام أخرى لموعد الطائرة الأسبوعية إلى الما آتا .

حين كنا فى السفارة السوفييتية فى تشانج كينج ، كانت اليس لون موتس تطلب فيزا لدخول روسيا ، وقد حجزت معنا فى لاشو ، وقضينا الوقت معا فى هامى نلعب الشيكرز الصينى ونأكل الكافيار الروسى الأسود الجيد الذى كان الكيلو منه يباع بثمان دولارات .

فى ألما آتا تأخرنا مرة أخرى بسبب تفتيش الأمتعة وتفحص جوازات السفر ، لكنهم فى اليوم الرابع أعادوا لنا أمتعتنا وجوازات سفرنا ووفروا لنا الأماكن إلى موسكو على طائرة روسية حديثة بمحركين ، الفرق الوحيد الملحوظ بينها وبين الطائرة الأمريكية الشبيهة لها هو أنه لم يكن بها أحزمة للمسافرين .

بعد طيران لمدة يومين ، وتوقف ليلى فى اكيتوبنسك ، وصلنا موسكو فى الأسبوع الأول من مايو سنة ١٩٤١ .

٧

المكافآت السخية فى الاتحاد السوفييتى لمن ينشر له من الكتاب محيرة ، من الممكن لكاتب شيوعى ان يتوقع معاملة خاصة فى دولة شيوعية ، لكن لست شيوعيا ، ولهذا لم اكن مهيأ لهذا الكلام ، ذهبت مع مارجريت لكتابة وتصوير كتاب عن عيد العمال هناك وليس للحياة فى رفاهية ، وفجأة وجدت كل هذا العز يلقى فوقى ، وبدا من الحمق الا أطلب من الساقى أن يحضر لى الكافيار والشمبانيا لوجبة خفيفة عند منتصف الليل .

سألت ايوجين بتروف وهو صحفى وروائى روسى يتكلم الانجليزية ، لماذا ينال المؤلفون حقوقا لكتبهم فى روسيا أكثر منهم فى أمريكا ؟

قال : حين يطبع كتاب لمؤلف هنا فذلك يشير إلى انه يعبر عن وجهة نظر الدولة ولذا يطبع منه مئات الألوف من النسخ .

قلت : لكن كتبى أمريكية ... فلماذا تطبع هنا ؟

ـ الروايات الأمريكية الآن مع السوفييت وقد تكون غدا ضدهم . بعد أيام قلائل فى موسكو ، اخبرنى ميخائيل ابلتين سكرتير القسم الأجنبى فى اتحاد الكتاب السوفييت ان لى مبلغا كبيرا من الروبلات كحقوق نشر لكتبى ، كان العرف قد جرى فى الاتحاد السوفييتى هو طبع كتب المؤلفين الأجانب

دون التفاوض مع المؤلف أو كتابة عقود ، لكن الحقوق تقدر بالكامل ، وتودع في بنك الدولة كحق للمؤلف ، ولكي تحصل ،على هذه الحقوق يجب ان تذهب إلى روسيا وتطلبها شخصيا .

اعطاني قائمة لكتبي المترجمة ، الأرض الأمريكية طبع في موسكو سنة ١٩٣٦ في طبعة مصورة وأعيد طبعه سنة ١٩٣٧ في طبعة شعبية ، طريق التبغ نشرت على نطاق واسع سنة ١٩٣٨ ، متاعب في يوليو سنة ١٩٤٠ ، طبعات مختارة من المجموعات القصصية نحن الأحياء وأركع للشمس نشرت ١ ، ٣ ، سنة ١٩٤١ كما نشر العديد من القصص في المجلات الشهرية والجرائد الأسبوعية .

حين سئلت في قسم النشر الابداعي كم روبلا أود أن اسحب قلت ، آخذ كل حسابي ، لم تعط لي أية فكرة عن مقدار هذا الحساب ، وخمنت انه سيكون مئات من الدولارات تكفي لدفع جزء من تكاليف معيشتي وسفري وأنا في روسيا .

وما كان يمكن أن يتم ويحدث في حالة كهذه كي تسحب حقوقك من مكتب النشر هو خطوة بسيطة لكنها تحولت إلى احتفال كبير بدأ في الواحدة والنصف بعد الظهر وانتهى في السادسة مساء .

ومنذ بدأ الحفل لم يبد على أحد أنه يود أن يضع نهاية له .. قدمت انواع مختلفة من الفودكا ، وبعد حديث لمدة ساعة عن جاك لندن ، وشكسبير وابتون سنكلر ، وميخائيل شولوخوف ، وكونفوشيوس وشخصيات أخرى موضع الاعجاب ، وزعت الفودكا لساعة أخرى على المحررين

ومساعديهم والمترجمين فى الوقت نفسه الذى كان الكافيار يحضر فى آنية كريستالية كبيرة ، والجرسونات يحضرون الشمبانيا البيضاء والقرنفلية ، وبمجرد ان يفرغ وعاء كافيار جزئيا ، يحضرون آخر مملوءا ، وامدادات الشمبانيا تترى بكميات غير محددة .

وقرب المساء قدمت حلوى من الشيكولاتة ثم القهوة .

وأخيرا دخل محاسب ومساعده يحملان روبلات محزمة ، المبلغ كان فى رزم من العشر روبلات ، وكل ربطة تحتوى على ألف روبل ، بعد أن رتبت بعناية فى صفوف على غطاء المائدة الأخضر طلب منى المحاسب التوقيع باستلام المبلغ .

أعطونى حقيبة لوضع النقود بها ، لأحملها واحتفظ بها فى خزانة فندقى ، حيث سأواجه موقفا عصيبا كأجنبى اذا حاولت ايداعها أحد البنوك ، متى سحبت النقود يصعب ايداعها ثانية كما لايمكن اخراجها من البلاد .

أعطيت نصف المبلغ تقريبا لمدير الفندق ليحفظه لى ، ووزعت الباقى تحت السجادة وفى الدواليب وخلف الصور على الحائط .

ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت ان اسعار البضائع

والخدمات حين تدفع بالروبل أعلى مما توقعت ، وفى الوقت الذى غادرت فيه روسيا لم أكن فقط أحول الدولارات الى روبل بسعر رسمى ولكن انفق على مهنتى أكثر مما اكسبه فى روسيا وامريكا معا .

خططت مع مارجريت ان نسافر عبر روسيا البيضاء ، واوكرانيا والقوقاز واجزاء من سيبيريا ، لكن بعد انتظار ثلاثة اسابيع كنا سعداء ان أخذنا تصاريخ للسفر فى رحلة الفى ميل الى ماركوف وقبليسى والبحر الاسود ، واخبرنا المراسلون الاجانب الذين لهم فى موسكو شهورا عدة ، ولم يفلحوا فى شراء تذكرة قطار للينجراد ، اننا محظوظان بالحصول على تصريح للسفر خارج ضواحى موسكو .

بعد الاسابيع الثلاثة ذهبت الى مكتب الصحافة الحكومى ، وسألت متى يمكننا تسلم التصاريح لبدء الرحلة ؟

قال شاب صغير وقور الوجه فى حوالى السابعة والعشرين ويتكلم الانجليزية بوضوح وطلاقة ، ان اليس موتس لن يسمح لها بمرافقتنا وهكذا لايمكننا مغادرة موسكو حتى تغادرها .

فتساءلت عن السبب الذى تطلب فيه اليس تصريحا للسفر معنا .

قال بأسى : لانك مسئول شخصيا عن تصرفاتها .

ـ لكن لماذا ؟

ـ لانك مستخدمها .

ـ لا . هى تسافر على مسئوليتها الخاصة لتكتب كتابتها الخاصة .

ـ انت مخطىء اذن .. فقد ادليت بمعلومات خاطئة .

ـ قلت محتجا : لا اعرف لماذا تقول ذلك . فأنا لم أر اليس في حياتي حتى قابلتها في الصين ، وكانت مصادفة ان تأتي الى روسيا على الطائرة نفسها .

ـ مستر كالدويل .. من العبث أن تظل مصرا على أنكار الحقيقة .

ألأمر واضح لابد لها من الحصول على تصريح سفر حتى ترافقك .

ـ لا أعتقد أن ذلك سيروق لها .

ـ أنها لاتستطيع البقاء في موسكو ، اذا أنت غادرتها ، وأنت لاتستطيع أن تغادر دون صحبتها .

قالت : هناك شيء ما خطأ . هناك خلط ما .

قال : من الواضح أنك احضرتها الى روسيا معك . ذلك نعرفه جيدا وانت شخصيا مسئول عن تصرفاتها السياسية مادامت داخل حدودنا .

قلت بصوت منخفض : لكنني لم أحضرها .

فتح الرجل ملفا واخرج عددا من الأوراق الرسمية وفردها على المكتب امامنا ، قال وهو يراقبني : هنا .. أمامنا البرهان المطلق .

قلت : قل لي ماذا تقول الأوراق ؟

قال : مسجل هنا كمحضر رسمي أن اليس موتس منحت إذنا بدخول الاتحاد السوفييتي في ألما آتا بناء على طلب منك .. والسبب الموضح هنا انها سكرتيرتك .

قلت : لم أقدم مثل هذا الطلب وهي ليست سكرتيرتي أيضا .

ـ مستحيل أن تكون السجلات الرسمية على خطأ .
ـ شخص آخر هو الذى فعل ذلك .. لكنى أعرف انى لم أفعل .
ـ لن يسمح لها بدخول الاتحاد السوفييتى لو لم تقدم أو يقدم أحد غيرك طلبا بذلك .
قلت : اسألوا عن شخص آخر .
قال هازا رأسه : هذه مسألة خطيرة .. لو تخليت عن أى مسئولية تجاه تصرفاتها السياسية فهذا يعنى انه لم يزكها أحد وعليها مغادرة الاتحاد السوفييتى فورا .

قلت : اذا كنت أنت الذى ستخبرها بذلك فيجب أن تستعد للجرى بسرعة قبل أن تبدأ بقذفك بالاثاث .. لا اعتقد انها سترحب باقتراحك .. بالاضافة انها اذا كانت ذكية بدرجة تمكنها من دخول البلاد فستكون ذكية مما فيه الكفاية للبقاء ، انت تعرف كيف تكون عليه هؤلاء الفتيات الامريكيات حين يردن شيئا .
جمع الشاب أوراقه ووقف ، لم ترتسم الابتسامة على وجهه .
قال : تصريحات سفركما ستكون جاهزة غدا ، سيسمحون لكما بتنفيذ ماعزمتا عليه ، ولن يسمح لأليس بالسفر معكما .. خطط أخرى سترتب لها .

٨

انفجار الحرب الألمانية الروسية فى ٢٢ يونية ١٩٤١ وضع حدا مفاجئا للخطط التى رسمناها لجمع مادة الكتاب خلال بقية الصيف ، حين بدأت الحرب كنا فى منتجع سوخومى على الشاطىء الجورجي للبحر الأسود ، وتهيأنا للمغادرة على أول قطار ممكن ، استطعنا تدبير مكان فى عربة نوم ، ولكن كان من الصعب الحصول على طعام ، بدا لى انى انفقت معظم الوقت الذى قضيته مستيقظا فى الذهاب الى صنبور المياه الساخن والوقوف فى طابور من أجل الحصول على الماء المغلى لعمل الشاى كلما توقف القطار فى محطة ، وحصلت على الطعام بالانحناء خارج نافذة عربة النوم واستجداء امرأة عجوز تبدو كالجدة فى أن تبيعنى من الكاشا بدل واحدة ، واستمرت الرحلة شمالا عبر أوكرانيا أربعة أيام بلياليها ووصلنا موسكو صباح ٢٨ يونيه .

حين وصلت الى الفندق كان هناك العديد من البرقيات من امريكا ، معظمها من جرائد تطلب منى العمل كمراسل لها ، كان فى الاتحاد السوفييتى حقبة من الصحفيين وكانت هناك أعمال متوافرة لهم أكثر من عددهم . ذهبت لرؤية السفير الأمريكى فى موسكو لورنس ستاينهرات وكانت لديه برقيات اضافية لى ولمارجريت . بدأت مارجريت فورا التصوير لمجلة لايف . وبعد دراسة العروض التى قدمت لى . وافقت على

ارسال تقارير يومية بالراديو الى مؤسسة اتحاد الصحافة ، ورسائل مرتين بالراديو الى نيويورك على الموجة القصيرة لمحطة كولومبيا ، كما وافقت على كتابة مقالات لمجلة لايف . نتيجة لهذا العمل الكثير ليل نهار ، استخدمت جزءا من مدخراتى لشراء سيارة مستعملة واستئجار سائق وسكرتيرة ، لاحظت منذ البداية ان السائق يحمل مسدسا تحت بزة القيادة ، ولم اكتشف الا بعد عدة اسابيع انه كوربورال فى الجيش الأحمر ، وانه قد خصص ايضا ليكون حارسى الشخصى ، اما سكرتيرتى التى تتحدث الانجليزية بطلاقة كما انها حادة الذكاء فقد اختارها مكتب الصحافة لتقوم بالعمل الذى أريده .

من المهمات الثلاث التى اخذتها على عاتقى كانت التقارير المذاعة لمحطة CBS أصعبها خاصة فيما يتعلق بتوقيتها وظروفها ، أو أن النصوص التى ستذاع لابد أن تقدم فى ثلاث نسخ للرقابة فى المكتب الصحفى الحكومى ، وذلك قبل ساعة من اذاعتها ، وكما يحدث دائما حين ترفض كلمات او جمل أو نصوص كاملة كان يجب أن أصيغ بشكل آخر واقدمها من جديد للرقابة ، وكانت أوقات الاذاعة المحددة الثالثة بعد الظهر والثالثة بعد منتصف الليل ، واضحى العمل صعبا حتى فى الليل حين بدأت الغارات الالمانية على موسكو فى اوائل يولية ، وقد قذفت الاذاعة التى كنا نستخدمها بالقنابل في الساعة الثالثة بالضبط بعد اسبوعين من بدء الغارات ، وكان علينا ان ننتقل الى اذاعة أخرى ، وكانت هذه الأخيرة علامة مميزة ومعروفة فى موسكو ، ويتوقع أن تكون من أول أهداف المغيرين ، وأصبح الذهاب والعودة من المحطة تجربة ليلية مرعبة فى الأشهر الثلاثة التالية ، فقد كانت القذائف الفارغة

المتساقطة من المدافع المضادة للطيران فى الشوارع المعتمة ، أكثر من القنابل التى تلقيها القاذفات الألمانية .

كنت أرسل تقارير لاسلكية يومية لمكتب اتحاد الصحافة الأمريكى ، حين بدأت استلم برقيات مطولة من رالف انجرسول المئول عن مؤسسة ب . م فى نيويورك كانت الأولى ودية وعارضة وتعلمنى فقط بأن ب . م محتاجة الى مراسل فى موسكو ، البرقية الثالثة تطالبنى بالمساعدة فى ايجاد مراسل لـ ب . م . بعد عدة أيام أصبحت برقيات رالف جادة وتحثنى بشدة على مراسلة ب . م . ولم تعد تمنيات ودية بالصحة والعافية . ثم قالها رالف بصراحة أنه يريدنى ان استقيل من مراسلة مكتب اتحاد الصحافة وأن أصبح مراسلا لمؤسسة ب . م مع زيادة فى المرتب . كان مكتب الصحافة يدفع لى الف دولار شهريا ، والمبلغ نفسه من الاذاعة وكنت مقتنعا بذلك ، اعلمت رالف أنى لا أرغب فى تغيير العمل ولكن ستظل ب . م على خاطرى فيما لو طلب أى مراسل ذلك العمل .

كنت قد كتبت عدة مقالات عن حصاد القمح فى كانساس للأعداد التجريبية لجريدة ب . م وتسلمت ٢٥٠٠ دولار نظير ذلك ، ولم يكن سهلا تحت هذه الظروف الضاغطة ان اناقش انى من حملة اسهم مؤسسة ب . م وانه من الأفضل ان أعمل لحساب شركتى ، كان ذلك قرارا صعبا علىّ أن اتخذه ، ووعدت نفسى الا أقوم بالتغيير ، اذا لم أجد الشخص الذى يقوم بالعمل لحساب المكتب الصحفى .

ولحسن الحظ كان ايوجين بتروف متشوقا للعمل كمراسل للمكتب الصحفى واستلم عملى فى الحال ، وابرقت لرالف اعمله انه كسب الجولة وسأعمل لحساب ب . م .

في منتصف سبتمبر ادركت اني لن استطيع القيام بعملي اكثر من ذلك ، فعلى مدار ساعات اليوم اكتب لـ ب . م ومجلة لايف والاذاعة . اعلمت الشركات الثلاث اني اعتزمت مغادرة موسكو في اكتوبر لأعود الى نيويورك وعليهم اتخاذ الترتيبات ليحل محلي آخرون ، وكانت مارجريت قد انهت المقال الأخير للايف ، ومستعدة للعودة الى الولايات المتحدة .

رتبنا ان نسافر في سفينة بخارية تسير في قافلة الى انجلترا ، وقام بترتيبات السفر سفير بريطانيا في الاتحاد السوفييتي ، وكانت اليس موتس قبل ذلك قد اعلمت السفير انها ليس لديها النية في مغادرة البلاد الا برغبتها وكان عليه نقل تلك الرسالة الى الخارجية الروسية .

بعت سيارتي وودعت سائقي وسكرتيرتي الحسناء ، وكان يعز عليّ بالدرجة نفسها مغادرة الجناح الفخم في الفندق القومي ، اصبحت مشدودا بدرجة كبيرة الى الملائكة المجنحة المرسومة على أوراق ذهبية ترصع سقفه ، وقبل مغادرتي ارسلت في طلب اخير من الكافيار والشمبانيا ، ونظرت لأتأكد أني لم أترك روبلات كنت قد خبأتها .

وركبنا القطار في أوائل أكتوبر الى اركانجلسك ، وصلناها عند هبوط الليل بعد يومين في جو ممطر مثلج ، وكانت سفينة الركاب التي صعدنا اليها معدة للخدمة في المناطق الاستوائية فلم تكن مجهزة بوسائل للتدفئة ، كان معنا اثنا عشر راكبا اخرين حين غادرنا في رحلة طويلة باردة عبر وايت سي وبحر بارنيت فالبحر النرويجي الى فيرت كلايد . كان الضباب لاينقشع الا لماما ولمدة ساعة أو اثنتين في اليوم ، ولذا كانت غارات الطائرات الألمانية علينا قليلة .

٩

اعتقدت أنى قمت بكمية كبيرة من الكتابة فى روسيا خلال خمسة اشهر ، لكن هذه الكمية تبدو ضئيلة مقارنة بالصفحات التى طبعتها على الآلة الكاتبة خلال أسبوعين فى انجلترا .

بدا وكأن كل صحيفة تقريبا فى فليت ستريت ، كانت تخطط منذ يونيه أن تستولى على حقوق النشر الكاملة لسلسلة مقالات رئيسية عن محنة الحرب الروسية الألمانية ، وكان السباق الصحفى من أجل ذلك ، محموما وأكثر عدوانية عما كان عليه فى موسكو أو نيويورك .

فى المساء الثانى من وصولنا إلى لندن من جلاسجو تعاقدت على كتابة سبع مقالات عن الحرب الروسية الألمانية كما لاحظتها فى موسكو وجبهة سمولينسك بدأت العملية فى الليلة نفسها ، فى غرفتى بفندق سأقوى ، وللتأكد من تسليمى المقال إلى الصحيفة المضبوطة وليس إلى صحيفة منافسة ، فقد تمركز فى صالة الفندق مراسل من صحيفة ديلى ميلى طلب منه أن يغادر غرفتى حتى يأخذ المقال الأول ، نشر المقال الأول فى اليوم التالى ، ولكى أتم سلسلة المقالات فى الوقت المحدد كان لزاما على ان استخدم طابعا على الآلة الكاتبة متفرغ تماما ، وقبل الانتهاء من نشر المقالات السبع ، عرضت شركة نشر هتشنسون ان أوسع هذه المقالات لتنشر بالصور فى كتاب . ووافقت مارجريت على اختيار ٧٨ صورة

مناسبة للكتاب ، انهيت العمل فى اسبوع وحدد موعد لطبع الكتاب فى ديسمبر . وكان عنوانه « روسيا فى الحرب » .

قبل موعد رحيلنا إلى الولايات المتحدة بأربعة أيام ، عرضت دار نشر هتشنسون نشر يوميات الحرب التى كتبتها فى موسكو ، كانت اليوميات مع الملاحظات التى دونتها تتكون من مئات الصفحات ، وكان لابد من اعادة الصياغة لها ، لكن الكتاب انهى فى أربعة أيام بمساعدة كاتبين على الآلة الكاتبة متفرغين تماما ، وحدد موعد لطبع الكتاب فى يناير التالى ، وكان عنوانه « موسكو تحت النيران » .

كانت لندن أكثر تعرضا للغارات من موسكو ، والصعوبات والمشاكل فيها أكثر وضوحا ، لكن الانجليز بروحهم المعهودة فيهم كانوا مهتمين بالقراءة عما يحدث فى روسيا أكثر من حديثهم عن مصيبتهم الخاصة .

طرنا من انجلترا إلى البرتغال ، وفى لزبون سافرنا على شركة الخطوط الجوية الأمريكية لنصل نيويورك فى الأسبوع الأول من نوفمبر سنة ١٩٤١ بالضبط بعد شهر من مغادرتنا موسكو .

بعد أن تحررت من ضغط الكتابة المحددة بوقت معين ، ثم الكتابة للاذاعة ١٨ ساعة فى اليوم ، ومتحررا ايضا من قسوة العمل المركز لمدة أسبوعين فى لندن ، اتخذت قرارا قبل وصولى نيويورك بالا اندفع فى أى نوع من الكتابة فى أمريكا .

ومع ذلك فان دويل وسلون وبيرس حثونى ان ادعهم ينشرون كتابا مبنى على أحاديثى الاذاعية وتقاريرى

الصحفية من موسكو على أن أسلمهم الكتاب فى أقرب فرصة ممكنة ، ولأنه من نوع الكتب التى أحب كتابتها ، فقد بدأت فى اعداده على الفور ، مصمما ألا ارتبط بأى نوع من الكتابة الأخرى .

وبمساعدة ميلدريد زن التى جاءتو إلى دارين لتساعدنى كسكرتيرة ، اتممت الفصول الأولى فى آخر نوفمبر ، ولحسن الحظ فإن مليدريد استطاعت ان تقرأ ملاحظاتى المشخبطة ، بالقلم الرصاص ، وقد وفرت النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة والتى قامت بها كثيرا من الوقت .

انهيت الكتاب فى أواخر ديسمبر واسميته « كل ماجرى على الطريق إلى سمولينسك » ، وقد تقرر نشره فى فبراير ١٩٤٢ ، وذلك بعد شهرين من دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية .

فى يناير سنة ١٩٤٢ بدأت أكتب رواية مبنية على عمليات الفدائيين فى الاتحاد السوفييتى ، كان هدف الرواية ابراز الدور الذى لعبه المدنيون فى الحرب فى الاتحاد السوفييتى فى شكل روائى ، وبدا واضحا ان « نضال الانصار » كما كانت تسمى هذه الحرب من المدنيين ستصبح جزءا هاما فى الصراع الدولى فى المستقبل ، وان توضيحها سيكون موضع اهتمام الأمريكيين .

كان هذا أول عمل روائى اكتبه بعد متاعب فى يولية سنة ١٩٤٠ ، وكتبت الرواية والتى كانت عنوانها « طوال الليل » فى ثلاثة أشهر ونصف ، وسلمت المخطوطة إلى دويل وسلون وبيرس فى ابريل ، وتقرر نشرها فى خريف سنة ١٩٤٢ ، وقد اختارت جمعية الكتاب فى امريكا تلك الرواية لتكون رواية

الموسم ، واشترت شركة مترو جولدن ماير حقوق تحويلها كفيلم سينمائى بمبلغ ٥٠ ألف دولار .

بعد هذا النشاط الكثيف خلال سنة كاملة ، كنت منهكا جدا ، وبعد فحص طبى دقيق وشامل ، نصحنى الأطباء أن أخذ اجازة من الكتابة بكل أشكالها فى الفترة الباقية من السنة ..

أوقات قصيرة تلك التى مرت علىّ منذ سنة ١٩٢٥ والتى لم أكن أجمع فيها مادة للكتابة أو أكتب بالفعل ، لذا فقد ابديت احتجاجى بأنى لن استطيع البعد عن آلتى الكاتبة سبعة أو ثمانية أشهر ، لكن الطبيب أصر بشدة هذه المرة فى أن أتبع نصيحته .

تلفنت لهارى بيهن فى توكسون واخبرته انى جاهز فى النهاية لشراء بيت فى صحراء اريزونا لاقيم فيه فترة من الوقت ، ساعدنى فى اختيار منزل جديد تم بناؤه حديثا عند سفوح جبال كالتالينا على بعد ثمانية أميال شمال توكسون .

كان ثمن البيت ، المصمم ليلائم جو الصحراء ، والمبنى داخل فناء مسور بسور عال ، عشرين ألف دولار ، كان موقعه على السفح يجعله يطل على المدينة وعلى وادى سانتا كروز حيث كانت تبدو جنوبه جبال سانتا ماريا ارجوانية ومهيبة فى ظلال الأصيل . كنت على استعداد ان اعترف لهارى انى اشتاق الى الصحراء منذ غادرته ذات صباح فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ .

فى نهاية يونية ١٩٤٢ كنت مستعدا للمغادرة إلى الغرب ، عازما على أن أكون فى اريزونا الجنوبية خلال أسبوع .

١٠

في الطريق إلى توكسون ، خططت أن أتوقف في سانتا لعدة أيام ، أزور فيها الفرد مورانج إلى انتقل إلى نيومكسيكو من ولاية مين .

ميلدريد زن ، التي وافقت أن تستمر في العمل معي في اريزونا كسكرتيرة ومساعدة تحرير ، اشترت تذاكر القطار لنا وحجزت في الفنادق في سانتافي ومنوفيكي وتوكسون ، وقبل يوم الرحيل حضرت حفل كوكتيل في نيويورك في دار نشر سيمون اندشستر في مركز روكفلر .

وصلت الحفل متأخرا ، حين وصلت قال ريتشارد سيمون ان جاك ديلك من شركة افلام وارنر ينتظرني في مكتبه للحديث في موضوع هام ، تلفنت لجاك ومكثت ٤٥ دقيقة في محاولة لاقناعه بأني غير مهتم بقبول عرضه بالذهاب الى استديوهات وارنر للعمل في نص سينمائي .

قلت : قررت ألا أقوم بعمل ما لفترة ياجاك ، أؤكد لك اني لن أعمل لمدة سنة ..

قال في صوت مهيب : هذا شيء لا يمكن أن تقرره ببساطة .

المهم أنك مطلوب في الاستديو لفيلم معين . وعملي أن اقنعك أن تكون هناك .

ـ لكنى لابد من الذهاب إلى اريزونا ياجاك ، لا استطيع الذهاب الى بيرباتك الآن ، ربما فى وقت آخر .

ـ وارنر برزرز على وشك اخراج « بعثة الى موسكو » للكتاب الذى كتبه جوزيف ديفر ، بأسرع ما يمكن ، لا وقت لتضيعه . الدولة مهتمة ان تضع هذا الفيلم أمام الجمهور لأسباب نفسية ولا يمكن أن نطلب منك العمل فى هذا الفيلم لو لم نكن نحتاجك سيكون الوضع مختلفا لو جئت الينا ، لكننا نسعى اليك ... والآن دعنا ندخل فى التفاصيل .

ـ لكنك لا تدرك ياجاك ، لابد ان آخذ بعض الراحة ، قبل البدء فى أى نوع من الكتابة .

ـ الاستديو لا ينتظر ، نريد أن ننتج هذا الفيلم ، ونحن نحتاجك الآن ، لقد قضيت وقتا كبيرا فى روسيا حديثا .. وأنت تعرف خلفيات الفيلم الأساسية .. وذلك سبب طلبك العمل متى تأتى ؟

ـ سأغادر غدا مساء لأتوقف فى سانتافى اياما قلائل .

قال بحماس : حسنا ، ذلك يناسبنا ، حين يصل قطارك كانساس سيتى . انزل وكلمنى فى التليفون فى البيت ، المكالمة تتم فى دقائق والقطار يتوقف لعشرين دقيقة .. اتوقع أن أتلقى مكالمتك .. هل تعد بذلك ؟

ـ وهو كذلك .. سأتصل بك .

حين تركت التليفون كانت الساعة قد جاوزت الثامنة ، وكان الضيوف قد غادروا .

عدت إلى دارين تلك الليلة ، متسائلا كيف اقنع جاك ويليك ، وشركة وارنر اني فى حاجة الى راحة طويلة من الكتابة .

وحثنى ماكس ليبر وملدريد زن فى اليوم التالى ألا أدع أى شىء يبعدنى عن الذهاب الى اريزونا كما خططت .

تلفنت لجاك من المحطة الاتحادية فى كانساس سيتى ، وابلغته انى مازلت عازفا على الذهاب الى توكسون . طلب منى ان انتظر يوما أو اثنين قبل أن أتخذ قرارا نهائيا ، لم يبق وقت لنقاش أطول فقلت له انى سأقرر بالتحديد ما سأفعله حين أصل سانتافى . ومر يومين ، وفى سانتافى تلفنت لالفن مانويل وهو وكيل سينمائى قابلته منذ سنوات وأثق فى حكمه فى أى شىء ، يتعلق بهوليود ، سألنى عما أشعر به ، قلت له : أنى أشعر بتحسن كلما اتجهت غربا وسأشعر بتحسن أكبر حين أصل اريزونا الجنوبية قال ، باعثا اليأس فى نفسى : لا أفعل ذلك لو كنت مكانك ياسكنى .

ان الجو حار فى تلك الصحراء فى يولية واغسطس . ان درجة الحراراة تبلغ من ١٠٠ ـ ١٢٠ فهرنهيت فى الظل حينما اكره أن تتعرض لمثل تلك الحرارة ، كم عرض عليك جاك من النقود ؟ اخبرته انه لم يكن هناك نقاش حول النقود .

سألنى ما آخر اجر تقاضيته من العمل فى السينما ؟

اخبرته بالمبلغ الذى تسلمته فى آخر مرة عملت فيها لحساب شركة مترو جولدن ماير .

قال بثقة : ستحسن ذلك ، لن نعمل لأحد بأجرة عفا عليها

الزمن .. تلك سياسة عقيمة .

قلت : آل . لا أعتقد أنى سأقوم بالعمل ، يجب أن ابتعد عن كل أنواع الكتابة لفترة . احتاج لراحة . الطبيب اخبرنى بذلك .

ـ سكنى .. مشكلتك انك جوعان وأنت لا تعرف ذلك . استطيع أن أخمن ذلك من صوتك بالتليفون ، قضيت سنة تتقافز حول العالم ولم تكن تملأ معدتك جيدا . أنا قلق عليك .. عليك أن تبدأ الأكل فورا ، عندى الآن تيودور درايزر وريتشارد الدنجتون وهما يأكلان ، وكلاهما يقسم انه لم يشعر بالصحة الجيدة أفضل من الآن ، يمكنك أن تقوم بالعمل الذى تطلبه منك شركة وارنر فى شهرين واعطيك كلمة شرف بأنك ستتناول افخر الاطعمة ، وآنذاك يكون الرمل فى اريزونا قد برد قليلا ويمكنك ان تتنزه دون ان تؤذى قدميك ، سأتولى كل شىء وأتلفن لك بعد يومين ، لا ترحل وفكر فى شرائح اللحم إلى اللقاء ..

بعد يومين تلفن آل وقال انه اتفق على كل شىء .

سألته : ما الذى اتفق عليه ؟

ـ انهيت المسائل مع شركة وارنر . مسألة الأكل حلت والأجرة ستكون ١٢٠٠ دولار أسبوعيا ، جربت الليلة الماضية احدى شرائح اللحم ، وسيكون كل شىء على مايرام .. متى أصل إلى هناك .

سئلت : ما اليوم : قال فى الخميس .

قلت له : سأكون هناك يوم الأحد القادم .

ذهبت إلى ستوديهات شركة وارنر فى الأسبوع التالى ، فى البداية كتبت خطوطا عامة للقصة مع منتج الفيلم روبرت بكنر ثم كتبت مسودة للقصة السينمائية ، شعرت انى أديت نصيبى من الكتابة ، وكنت على استعداد لترك أى شخص آخر ليضع القصة فى شكلها السينمائى الأخير ، حتى يمكننى المغادرة إلى اريزونا . كتاب السيناريو الذين اتو بعدى فى العمل ، اصروا لأسباب سياسية أو ماشابه ألا يعزى لى أى فصل سينمائى لما قمت به . بل وساروا ابعد من ذلك وطالبوا شركة وارنر بازالة اسمى من الفيلم ، كانت كتابة السيناريو مثلها مثل الكتابة الصحفية أو كتب الرحلات تشكل جانبا ثانويا بالنسبة لاهتماماتى الأساسية فى الحياة ، لذا كان الجدال ذا أهمية ضئيلة بالنسبة لى . فى الواقع لقد صورته معتبرا أن العرض الذى قدمته للفيلم ، سيساعد فى تعزيز كتاب السيناريو الذين ظهرت اسماؤهم على فيلم « رحلة الى موسكو » .

فى أوائل نوفمبر ، كنت مستعدا للذهاب إلى اريزونا واخبرت ميلدريد انى لن أقوم بأى نشاط كتابى حتى أوائل العام . وقررت أن تبقى فى هوليود ، كان هناك رسائل كثيرة لابد من الرد عليها ، وسجلات مالية لابد من تنظيمها ، وطلبت من بولى ستاست التى كانت تقيم فى باسادنيا ان تأتى معى الى توكسون وتساعدنى فى الأشهر القليلة القادمة ، كانت شابة ونشطة ، وقد كيفت نفسها باستعداد تام للعمل معى فى الساعات غير العادية .

وصلنا توكسون فى إحدى امسيات الاسبوع الأول من نوفمبر ، وتلفنت لهارى اسأله كيف استدل على البيت الذى

اشتريته لم يكن هارى قد ذهب الى البيت ليلا . ومكثنا ساعة نبحث عن البيت على ضوء المشاعل ، وانحصرنا فيما يبدو فى منطقة كبيرة من سفوح كاتلانيا ، قررنا الانتظار حتى طلوع النهار .

فى الصباح التالى توقفنا عند مكتب المالك الذى بنى البيت وسألناه كيف يمكننا ان نسترشد الى البيت .

قال : من السهل العثور عليه ، كل مبانى السفح مرقمة ، أبحث عن رقم ٦٧ ذلك هو بيتك .

بعد نصف ساعة ، وجدنا البيت الذى كان محاطا بثلاثة أفدنة من النباتات البرية ، وعلى مدخله يافطة مكتوب عليها بحروف صغيرة « مبنى رقم ٦٧ » وبدت مناسبة لاسم لا لرقم مبنى .

١١

بعد أسبوعين من شمس توكسون ، وبعد قضاء معظم ساعات النهار على السطح المشمس أو ممتطيا ظهر حصان في الصحراء الهادئة ، اصبح من السهل أن أقنع نفسي ان ليس هناك هدف يجبرني أن ابتعد عن الكتابة .

كنت خلال السنوات الأربع الماضية ، ادون بين حين وآخر بعض أحداث حياة طفل في الثانية عشرة من عمره في جورجيا ، معظم هذه الشذرات كتبت في دارين ونيويورك وموسكو وسانتافي ونشرت في المجلات خلال فترة كتابتها ، ربدأ منطقيا الآن أن أجمع ذلك كله وأكمل قصة وليام ستروب وصديقه هاندسوم براون ، انهيت الكتاب على السطح خلال الأسابيع الأربعة التالية في يوم عيد ميلادي التاسع والثلاثين ، ونشرت رواية « ولد من جورجيا » في ابريل ١٩٤٣ ..

قبل عيد الميلاد بقليل سنة ١٩٤٢ ، اتصلت بماكس ليبر في نيويورك واخبرته بانني منذ انتهائي من رواية ولد من جورجيا . سألني ماذا خططت أن أفعل ، أخبرته أن ليس عندي أية خطة ولكني أشعر بعد قضاء شهرين في اريزونا اني بصحة جيدة ، ومن العبث ان أجلس لا أفعل شيئا ..

قال لي آنذاك لي كيديك وهو وكيل مكتب محاضرات يقترح

أن ألقى سلسلة من الاحاديث فى ميدل ويست ، حول الحرب الروسية الألمانية كما شاهدتها فى موسكو ، بدا لى ذلك طريقة مثمرة لقضاء شهر يناير ، فأخبرت ماكس انى سأحضر إلى نيويورك لتنفيذ اقتراح لى كيديك .

غادرت تكسون بالطائرة بعد أيام قليلة متجها إلى نيويورك ، حيث وافقت ان أقوم بجولة من المحاضرات تحت ادارة لى كينيك ، ورتبت المواعيد فورا فى عدة مدن وجامعات .

كان التليفون يدق فى غرفتى فى فندق سانت ريجز حين عدت بعد منتصف الليل بساعتين من جولة حول ميدان التايمز رأس السنة ، بمجرد ان سمعت الصوت عرفت انه آل بابريل .

قال : اين كنت طوال الليل ؟ انى أحاول الاتصال بك منذ أربع ساعات .

سألته متشككا : هل هذه مكالمة ودية ؟

قال : بالتأكيد .. كيف كانت السنة الجديدة فى نيويورك ؟
قلت : وأنا أعجب من مكالمته فى ذلك الوقت من الليل : جميلة .. وكيف هى فى لوس انجلوس ؟

قال : لا اعرف بعد .. مازال الوقت مبكرا لأخبرك .. فهى الحادية عشرة مساء هنا ، سأخبرك بكل شىء حال حضورك .

ـ لن أذهب إلى لوس انجلوس . أنا فى طريقى إلى جوبلن فى ميسورى .

ـ وماذا ستفعل هناك ؟

ـ قال ببطء : ذلك سيىء ياسكنى . أسف أن اسمعك تفكر فى أشياء مفيده ، حسن ان اتصلت بك فى الوقت المناسب ، المستقبل لمثل تلك الأمور . ولا أمان أو ضمان اجتماعى لها ، هل تعرف أين ينتهى الناس الذين يدورون فى البلاد ويلقون المحاضرات .

- أين ؟

ـ فى بيون المسنين ، ذلك ما يسمونها الآن ، اعتادوا أن يطلقوا عليها البيت الأخير ومدفن العجائز المساكين الذين كانوا يحاضرون .

- لقد وقعت العقد لتوى ياآل .

- والآن أولئك المحاضرون العجائز الذين يتطلعون بحزن إلى بيت المسنين ، انتهوا إلى التسول ، لقد رأيتهم عدة مرات . انه أمر محزن جدا ، من الصعب أن يصدق المرء انهم كانوا يدورون فى البلاد ويلقون المحاضرات ، أليس كذلك ؟

- ولكن ماذا عن العقد الذى وقعته ؟

ـ لاتكن سببا فى اخلالى بكلمة الشرف التى أعطيتها ، هل تفعل ذلك ياسكنى . لايمكنك أن تفعل ذلك بصديق حقيقى .. انه من الحزن لمن هو مثلى أن يخل بكلمة شرف . لقد وعدت بوريس مورس وسام سبيجل بكلمة شرف أن أحضرك إلى شركة فوكس للقرن العشرين بعد غد الساعة العاشرة والنصف صباحا ، يريدونك لعمل فى فيلم يصورونه . ولقد زدت راتبك ليصبح ١٥٠٠ دولار فى الأسبوع .

- آل لابد أن اسوى الأمر مع لى كيديك هذا اذا نويت

ذلك ، ولا أعرف كم سيكلفنى ، ربما بما لااستطيع تحمله ، من الأفضل أن أذهب الى جوبلن .

لايقلقنا . ذلك اذا لم ترد ان تتولى الأمر فدع بوريس وسام يتوليانه . الأفضل أن تركب طائرة سريعة غدا . حجزت لك فى بيفرلى ويليشير . ودع هذا يكون درسا لك ، ولاتدع أى شخص مهما كان أن يدفعك لمثل هذا العمل . قبل مغادرة نيويورك ، أعطيت جيد هاريس نسخة مخطوطة من رواية ولد من جورجيا ليقرؤها ، وكنت قد تحدثت معه قبل أيام عن امكانية مسرحة النص وقال انه يرغب فى انتاجه واخراجه فى برودواى خريف ١٩٤٣ قال لى انه سيقرأ الرواية ويرانى فى بيفرلى هيلز خلال شهر ، حين حضر الى ستوديوهات فوكس فى فبراير ، قال انه كان فى عملية ولم يعثر على مسرح للرواية كى يتمكن من اعداد عرض لها فى افتتاح الموسم فى اوائل الخريف ، وانا سنوفر وقتا كبيرا لو تحدثت مع مارك كونيللى واقنعته بمسرحة الرواية ، وحين سألته لماذا لم يطلب هو من مارك القيام بمسرحة الرواية ، اجاب انه كان يخاف ان يثور جدل بينهما حول كيفية اخراج المسرحية وذلك يهدد صداقتهما الطويلة . رأيت مارك عدة مرات ، وفى كل مرة ومهما كانت الاعذار التى ابديها ، كان يبدو عليه الضيق بسبب ان جيد ارسلنى للحديث معه حول مسرحة الرواية بدل أن يأتى بنفسه .

أخبرت جيد أنى أعتقد ان يجب البحث عن شخص آخر لمسرحة الرواية ، قرر جيد آنذاك أن يقوم نوڤالى جونسون بمسرحة الرواية ، وقضيت عدة أيام فى فترة مابعد الظهر فى مكتب نوڤالى منتظرا فرصة للحديث معه عن المسرحة ، لكن

كان جيد يحضر مصطحبا دامون رينيون ولاتتاح فرصة لأحد لعمل شيء سوى الاصغاء الى حكايات دامون الطويلة عن برودواى . وحتى نهاية الاسبوع لم يأت ذكر للمسرحية ، وكان على جيد أن يعود الى نيويورك فورا واكد لى قبل مغادرته ان نوڤالى سيكتب المسرحية .

سألته : هل أشار نوڤالى الى ذلك .

ـ لا . لكنه يريد مسرحة الرواية ، أنا متأكد من ذلك ، سيشعر بالاهانة لو تركنا غيره يقوم بالعمل ، انه يتوق لمسرحتها ، لكنه نوع خاص من الكتاب فهو لايتحدث عن شيء يريده ، اما اذا لم يرغب فى عمل شيء فانه يصدع دماغك فى الحديث عنه انه لم ينطق بكلمة واحدة حول المسرحية ، ومن ذلك عرفت انه تواق لعملها بعد مغادرة جيد الى نيويورك ، سألت نوڤالى اذا كان قد سمع من جيد عن مسرحة رواية ما .

أجاب : لا . جيد شخص من نوع خاص . لايناقش شيئا يتوق أن أعمله ، واذا لم يرغب ان اقوم بعمل ما يصدع دماغى بالحديث عنه .

ـ هل قال لك شيئا عن مسرحة رواية « ولد من جورجيا » .

ـ ولاكلمة . انها المرة الأولى التى اسمع بها ذلك . لو ذكرها لعرفت انه لايريدنى ان أقوم بالعمل .

ـ اذن كيف ستتعاونان فى مسرحية ولد من جورجيا ؟

ـ لن نفعل حتى يتوقف جيد عن أموره الغريبة هذه وبعد ثلاثة أشهر ، انتهى حق جيد فى مسرحة الرواية ولم يجدد العقد بعد ذلك .

١٢

لم أتمكن من العودة الى توكسون والبدء فى كتابة الروايات المكملة للسلسلة التى خططت لها من الحياة فى الجنوب ، الا فى عام سنة ١٩٤٤ فى ذلك العام نشرت رواية « أرض المآسى » عن دار نشر دويل وسلون وبيرس ، فى السنة السابقة ١٩٤٣ كنت قد وقعت عقدا لمدة سنتين مع شركة فوكس للقرن العشرين للكتابة للشاشة ، وكانت بنود العقد تحدد راتبا اسبوعيا يقدر بـ ١٧٥٠ دولار فى السنة الأولى ، يرتفع الى ٢٠٠٠ دولارا فى السنة الثانية ، لكنى فى نهاية السنة الأولى طلب اعفائى من تنفيذ الاتفاق كى اتمكن للعودة لكتابة الروايات .

حين عدت الى توكسون فى خريف ١٩٤٤ ، بعت البيت الذى عشت فيه فترات متقطعة خلال السنتين السابقتين ، واشتريت بيتا أكبر على سفوح كاتالينا بتكلفة بلغت ٣٥ ألف دولار ، وكان البيت الجديد يقع على ارتفاع اعلى ويشرف على منظر اجمل لوادى سانتا كروز وجبال سانتا مارينا .

أول ماقمت به فى توكسون هو كتابة سلسلة من النداءات لتذاع لصالح الخزانة العامة والادارة المالية للحرب . وبطلب من الخزانة العامة قمت فى نوفمبر مع عدد من الكتاب بجولة

للدعاية لسنوات الحرب . وكأن الهدف من النداءات الاذاعية والجولة حث الجمهور على شراء سندات الحرب هذه .

في هذا الوقت نشر مجلدان آخران في سلسلة عادات شعبية امريكية ، بلد الشمال البعيد بقلم تيمس وليامسون ، وبلد الدلتا العميقة بقلم هارنيت كين . وكان من المقرر نشر ثلاثة مجلدات آخر في عام ١٩٤٥ هي : بلد ملتقى المدن بقلم كلاريت وبيستر ، وبلد النجم الشمالي بقلم ميريدل لوسوير ، وبلد البوابة الذهبية ، بقلم جرتوود اثيرتون ، كما خطط لنشر مجلدات اربعة في عامي ٤٦ ، ١٩٤٧ ، وهم : بلد كاليفورنيا الجنوبية بقلم كارى ماك وليامز ، وبلد السفوح المنخفضة بقلم هـ . س . نيكسون ، وبلد القمح بقلم هومر كروى ، ثم تكساس البلد الكبير بقلم دونالد داى .

في السنة التالية ١٩٤٥ بدأت بكتابة الرواية التالية في سلسلة رواياتى عن الجنوب الأمريكى ، وهى رواية « بيت في الاعالى » ، كما وقعت عقدا مع جاك كيركلاند لمسرحة ولد من جورجيا .

نشرت الرواية عن دار دولين وسلدن وبيرس بعد سنة ، وفى الوقت نفسه افتتحت مسرحية « ولد من جورجيا » في بوسطن ولم تستمر سوى اسبوع واحد .

الروايات التالية التى كتبتها في سلسلة رواياتى عن الجنوب كانت :

يد الله القوية ونشرت سنة ١٩٤٧ ، هذه الأرض ونشرت

سنة ١٩٤٨ ، مكان يسمى اتيرفيل ونشرت سنة ١٩٤٩ ، ثم حادثة فى بالميتو ونشرت سنة ١٩٥٠ .

قبل عام ١٩٤٦ تنبهت لثورة جديدة فى عالم الطباعة ، لم ادرك حجمها حتى خريف ذلك العام حين فوجئت بكمية التوزيع الضخمة التى اصبحت عليها مبيعات الكتب الشعبية التى تباع بربع دولار للنسخة ، فقد أعاد كيرت انوخ وفيكتور وبيرايت طبع رواية أرض الله الصغيرة سنة ١٩٤٦ فى طبعة شعبية تحت شعار بنجوين (اصبح اسم السلسلة فى أمريكا بعد ذلك سجنت بوكس) ، وتجاوزت مبيعاتها خلال ستة اشهر المليون نسخة .

ذهبت الى نيويورك سنة ١٩٤٦ لحضور حفل كوكتيل اقامته دار سجنت ومطبوعات فاوست ، وكنت متشككا فى نبوءة فاوست بأن مبيعات أرض الله الصغيرة فى طبعتها الشعبية ستصل الى ٢ مليون نسخة خلال الأشهر السنة التالية . وكان فاوست على حق وكنت على خطأ ، وقد وصل حجم توزيع الرواية فى السنوات الأربع التالية الى خمسة ملايين نسخة .

طرق البيع التى استخدمتها شركتى سيجنت وفاوست ، رغم انها كانت معروفة الى حد ما الى موزعى المجلات والصحف ، الا انها كانت تختلف جذريا عن تلك الطرق التقليدية التى يستخدمها ناشرو الكتب عادة . كان هناك هدف لعملية توزيع الكتب الشعبية وهو تحقيق أعلى المبيعات بغض النظر عن مقاومة الشارى او سباق التجارة . ولقد حضرت عددا من مهرجانات البيع كضيف على سجنت وفاوست فى

نيويورك وكولورادو وأماكن أخرى ، وفى قسم المبيعات فى شركة فاوست اتيحت لى الفرصة لمشاهدة حملات المبيعات على أشدها . وتدبير وتنفيذ المقالب الفكاهية بدت فى مؤسسة فاوست بالأهمية نفسها التي ينفذون بها طلبات الكتب ، وقد وقعت ضحية احد مقالبهم المدبرة جيدا كما سنرى .

طلب منى ادى لوس ان اقابله فى كانساس سيتى عند الظهر تماما يوم ٢٥ يونية سنة ١٩٤٨ ، قدت عربتى فى الصباح من سانت لويس متجها الى كانساس سيتى حيث وصلت اطراف المدينة فى الحادية عشرة والنصف . لم أسر بالعربة سوى مسافة قصيرة داخل المدينة حين أطلقت عربة بوليس بها شرطيان سارينتها لترغمنى على التوقف ، قلت ربما اسوق عربتى بسرعة فى منطقة لاتزيد السرعة فيها على ١٥ كم/ساعة لكنى كنت متأكدا انى اسير بسرعة لاتزيد على ٣٠ كم/ساعة .

بدأت استعد لمناقشة الشرطيين حول ذلك لكن لم تتح لى الفرصة لذلك ، دون احدهما رقم رخصة القيادة وتفحص الثانى رخصتى واشار لى ان اتبع عربة الشرطة الى قلب المدينة .

حين اصبحنا فى وسط المدينة ، حاذيت عربة البوليس ، وسألت اذا كان بامكانى الذهاب الى فندق مولباتش حيث لدى موعد عمل هام . قال أحدهما : سنذهب الى هناك اولا .

وصلت مدخل الفندق قبل دقائق من الثانية عشرة وكانت عربة الشرطة خلفى تماما ، بينما ادى لويس ينتظرنى عند الباب .

قال بانتقال : لاوقت لدينا ياارسكين - علينا بالاسراع لحاق بموعد هام .

أومأت الى عربة البوليس واخبرته انى اعتقلت بسبب السرعة هز رأسه بانزعاج وقال : ذلك شيء .. ماذا يجب علينا أن نفعل ؟ فكر عدة لحظات قبل أن يضيف « من الأفضل ان تذهب لرؤية عمدة المدينة » وجذبني من ذراعي ودفعني داخل تاكسي . حين انطلقنا ، نظرت خلال الزجاج الخلفي فرأيت عربة الشرطة وراءنا مباشرة ، حاولت عدة مرات ان اتكلم عن تهمة المرور ضدى لكن ايدى كان يحول الحديث الى موضوعات أخرى . حين وصلنا مبنى البلدية تبعنا الشرطيان داخلها وسارا خلفنا الى مكتب العمدة ، ورحب بى العمدة ويليام كمب ترحيبا حارا ، بعد شكر العمدة ، لمزت ادى بكوعي وهمهمت شيئا عن تهمة المرور ضدى ، انحنى ايدى على العمدة واسر له بشيء .

سأل العمدة الشرطيين : هل لديكما شيء ضد مستر كالدويل . تقدم احدهما مهمهما وناولني قطعة ورق صفراء مطبوع عليها هذه الكلمات « مرحبا بك في كانساس سيتى ، من فضلك قد سيارتك بعناية » .

لم يعترف ادى بعد ذلك أن له ضلعا فى هذه الحكاية سوى الموعد مع العمدة .. ومع ذلك حين عدنا الى المكتب الرئيسى في جرينويتش أخبر فاوست ان جملة المبيعات فى كانساس سيتي كانت أنجح الحملات التى ادارها .

غادرت كانساس سيتي بعد أن قمت بدورى بوضع توقيعى على عدد كبير من رواياتى بطبعتها الشعبية حيث كانت تباع

فى صيدلية كاتز ، وذهبت الى جامعة كانساس لأمضى اسبوعا فى مؤتمر للكتاب عقد بالتعاون مع الجامعة .

كان بين الحضور الكثير من المؤلفين ، ومنذ البداية شعرت باحساس لايمكن للمرء ان يخطؤه من البرود فى كل مرة أظهر فيها لاتحدث . لم أعرف السبب فى ذلك متى سألت والتركلارك أحد المؤلفين المشاركين فى المؤتمر وتساءلت اذا كنت قد أهنت أحدا ما ، قال لى انه سمع من كتاب اخرين ان هناك استياء عاما لان الكتاب يشعرون انى اسأت الى سمعة مهنة التأليف ولقضية التعليم العالى باشتراكى فى مثل هذه الخطط الاعلامية لبيع الكتب فى كانساس سيتى وبالتوقيع على كتبى الشعبية فى صيدلية .

● ● ●

خاتمة

(١)

حين يعلن شخص ما أن لديه الطموح ليصبح كاتبا ، ويأتى الى مؤلف ليسدى اليه نصيحة ، فهناك عدة اسئلة يتوقع المرء أن يسمعها .

السؤالان اللذان ترددا دوما كتابة أو شفاهة بالنسبة لى هما :

- كيف تكتب قصة ؟
- وكيف تستطيع أن تنشر قصة ؟

بعد كل هذه السنين ، لاأعرف كيف اجيب على هذين السؤالين بدرجة تقنع القراء محبى الاستطلاع والكتاب الناشئين .

من الواضح ان معظمهم يعتقد انى اخفى سرا لان قليلا منهم يقتنعون باجابتى .

والاجابة التى أرددها دوما أنه من خلال تجربتى فإن أفضل طريقة لتعلم الكتابة هى الكتابة نفسها ، وأن أفضل طريقة لنشر قصة هى ارسالها الى المجلات حتى تجد محررا يكون مستعدا لنشرها .

ربات البيوت فى نكساس ، سائقو التاكسى فى اوهايو ، الطلبة في نبراسكا ، والموظفون فى كاليفورنيا ، الذين تسلموا مثل هذه الاجابة منى ، لهم الحق ان يشكوا بأنى لم أزودهم بمعلومات واضحة ومحددة عن كيفية الكتابة والنشر . وربما يرجع السبب فى انى غير قادر على اعطاء ارشادات واضحة تمكن أى واحد منهم أن يصبح كاتبا ناجحا . انى اعتقد ان الكتابة الخلاقة تحركها حالة ذهنية معينة ، وان اولئك فقط الذين ولدوا بهذه الموهبة ويسعون بجهد متواصل ليعبروا عن انفسهم كتابة يمكن ان يحققوا النجاح الذى يريدون .

هذه الحالة الذهنية كما اسميتها هى رغبة لا ارادية تسعى الى تحقيق ذاتها بأى ثمن ، انها توق شديد لايمكن تجاهله او انكاره ، انها شبيهة بالحاجة العاطفية عند البعض فى البحث عن الحب والرفقة ، او كقوة قاهرة كالحاجة الطبيعية للأكل والشرب عند البعض الآخر ، قوة هذه الحالة الذهنية هى التى تحث المرء وتدفعه للمدى الذى هو على استعداد للوصول اليه لتحقيق هدفه الواعى او غير الواعى فى الحياة .

درجة قوة هذه الحالة العقلية هو مقياس النجاح أو الفشل . كثير من الناس على استعداد لتحمل كل صعوبة انسانية تقريبا فى سبيل أن يتعلم كيف يكتب بنجاح ، وآخرون يحيطون بسهولة ويختلقون اعذارا منطقية للاستسلام والتحول لوظيفة أخرى . وكما يوجد هذان الحدان ، هناك أيضا أعداد كبيرة يتشوقون ان يكونوا كتابا ومع ذلك يفتقدون القدرة الضرورية للنجاح .

ويعتقد كثير ممن قضوا سنوات طويلة فى تعلم حرفة

الكتابة ، ان من يكتب لهم النجاح ككتاب مبدعين هم أولئك الذين هم على استعداد لتحمل الصعاب ، ومن الغباء ان ندعى أن الشخص لابد أن يكون مفلسا كى يوائم نفسه مع مهنة التأليف ، ولكن هناك حقيقة وهى أن رغبة المرء فى أن يصبح كاتبا تركز فيه قوة شرسة تمكنه سواء كان رجلا أو امرأة ان يجوع لكى يتغلب على أى شىء يقف فى طريق نجاحه ، وأن الفقر والجوع أكثر من الغنى وحياة الدعة دفعا للكاتب الواعد لبذل مجهود أكبر ليرى نفسه وهو يتغلب عليها بالتدريج الشخصى نفسه . مع الموهبة نفسها ، لو كان ولد غنيا فمن المرجح ان يوجه شراسته لتحقيق غاية مثل الشهرة وتحقيق الذات كمؤلف ، جائزة الابداع ، ان يبدع المرء سواء كان غنيا أو فقيرا هو الدافع الأول للكتابة ، أما كسب النقود فهو الدافع الثانوى ، وقد ترددت كثيرا فى تشجيع من يقول انه يفتقد الفراغ للكتابة ، أو أن المحررين فشلوا فى تقدير عمله ، قد يبدو هذا الموقف غير متعاطف ، ولكنى أشعر انه امين وواقعى ، وبالتالى اكثر فائدة من التشجيع الأعمى . كثير ممن يرغبون ان يصبحوا كتابا ، ربما بلا وعى ، يبحثون عن اعذار لعدم الاستمرار فى الكفاح حتى النجاح ، ويرون أنهم سيعيشون فى حياة أسعد ويكونون أنفع كمواطنين فى مهنة غير مهنة الكتابة .

الشخص الذى لديه ارادة أن يكتب يستطيع دائما أن يجد الفرصة ، أما اولئك الذين لايعنيهم البحث عن هذه الفرصة ، فانه تكون لديهم ، عادة ، اهتمامات أخرى ، سواء كانوا يدركونها أم لا ، وهى أكثر قربا لهم .

كثيرون مما يحاولون كتابة القصص سواء لقضاء الوقت أو

كحرفة ، سيكونون اكثر نجاحا لو كان لديهم فهم أفضل لطبيعة ، مايفومون به ، هناك تعريفات عدة للرواية والقصة ، تعريفي للقصة القصيرة أو الرواية ، انها حكاية خيالية لها ممنى ، وسي مشوقة لدرجة تشد اليها انتباه القارئ ، وجيدة بسا يكفي لترك انطباع لاينمحي على عقله ، هناك سايسمون قصاصين بالسليقة ، لكنني أقول ان العدد الأكبر سن الروائيين والقصاصين يسعون اما بالتدريب الشاق او بالاشادات الذكية ، للوصول الى خلق قصة تتصف بالكمال ويسكنها ان تجذب انتباه الآخرين ، واذا شد العمل اهتمام عدد كاف سن الاشخاص ، فمن المنطقي ان يكون احد هؤلاء سحررا في مجلة او ناشرا .

هناك احتمال ان كل الكتاب يملكون قدرة طبيعية متفاوتة في البداية ، حتى لو كانت موهبتهم لاتتعدى القدرة العقلية على تمييز كلمة من أخرى . لكن من المشكوك فيه ان يكون اى شخص نشر قصة أو رواية قد وصل الى ذلك دون أن يسضي فترة في التدريب على الكتابة ، فترة طالت أو قصرت لكن بالتاكيد تمرن لبعض الوقت .

هذه الفترة ، الذهاب الى ورشة لتعلم الكتابة ، اضافة الى الحالة الذهنية المعينة ، التي تحدثت عنها . تنتج قاصا متكاملا ، وتسحب معها الى السطح اى موهبة يستلكها الكاتب .

قلة الصبر ، والتدريب غير الكافي ، وعدم الاستعداد للجلوس الى الآلة الكاتبة يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ، كل ذلك كفيل أن يقلل او يزيل الموهبة او ارادة النجاح ، حين

يحدث ذلك ، فان الرغبة فى الكتابة تبقى لكن المقدرة تصبح ضعيفة وغير مؤثرة، ومايتلو ذلك من الطبيعى أن يكون الاحباط والتعاسة .

ستظل الروايات والقصص تكتب ، وسيعرف الكتاب الجدد رجالا ونساء أن أحد اسرار مهنة الكتابة هو التعلم بواسطة التمرين كيف يصبر المرء عن فكره ومشاعره ، ومن يتمرن حتى تصبح قصصه جيدة ، آنذاك يتهافت القراء على قراءته والمجلات على نشر قصصه .

٢

كل كاتب يتلقى خطابات ودية وخطابات عدائية بنسب وكميات متفاوتة ، فى حالتى فان النسبة بين الخطابات الودية الى الخطابات العدائية تصل تسعة إلى واحد .

ومنذ سنة ١٩٢٩ حين نشرت اول قصة قصيرة لى ، وصل معدل هذه الرسائل عشر رسائل اسبوعيا ، وفى عشرين سنة وصل عدد هذه الرسائل على وجه التقريب الى عشرة آلاف رسالة ، تفاوتت مضامينها من المدح المطلق الى اللعنات المطلقة ، لم يكن لدى الوقت ، وفى بعض الحالات النية ، للاجابة على نصف هذا العدد الكبير من الرسائل .

ثلث هذا البريد يمكن تصنيفه تحت بند طلب نقود ، او طلب توقيعى أو نصائح تتعلق بمسائل شخصية أو مهنية .

أما باقى الرسائل فهى مكتوبة بكلمات مؤثرة ، وتتضمن اسئلة كذلك التى يتلقاها المرء باستمرار من القراء مثلها مثل الاسئلة التى يسألها الطلاب والمحررون واشخاص لهم اهتمامات بالحياة المهنية للكاتب والعادات الخاصة بالكتابة .

وهذه بعض تلك الأسئلة واجاباتى عليها :

سؤال : يقول لى اصدقائى أن قصة حياتى طريفة وممتعة جدا ، واعتقد انها كذلك ، فلا يوجد مايشبهها سواء فى كتاب أو على شاشة السينما ، هل تكتبها لو زودتك بكل الحقائق ؟

ـ لا . يجب أن تكتب انت حياتك الخاصة .. وهذا شكل من التعبير عن النفس له قيمة كبيرة بالنسبة اليك ويمكن أن تخرج باقتناع اكثر بها لو كتبتها بنفسك .

سؤال : يمكنني أن أخبرك بقصة اعتقد انها ستدر كثيرا من النقود حين تكتب كرواية ، فكرت بها بنفسي ولا أحد غيرى يعرف بها . هل نتعاون معا على أن آخذ نصف الحقوق ؟

ـ لا . فالعمل الابداعى هو نتاج عواطف وعقل مفرد وسيكون اكثر نجاحا حين يكتبه من يبتكره .

سؤال : هل ذهبت الى المدرسة لتتعلم ماتعلمته عن كتابة القصص والكتب ؟

ـ لا . تعلمت بالخبرة . بالتجربة والخطأ ، وبالعمل بالكتابة حتى اقتنعت بالنتيجة .

سؤال : كتبت الكثير من القصص القصيرة فى أوقات فراغى ، كيف يمكننى أن أنشرها ؟

ـ بارسالها إلى المجلات ، لمئات المجلات اذا كان ذلك ضروريا وليس لمجلة أو اثنتين ، وأية مكتبة يمكن أن تزودك باسماء وعناوين المجلات التى تنشر القصص القصيرة وهذه هى الطريقة الوحيدة المقنعة للفت نظر المحررين الى عملك . وبعد نشر اول قصة يمكنك ان تستعين بوكيل أدبى ليساعدك .

سؤال : هل الشخصيات فى قصصك وروایاتك موجودة بالفعل ؟ هل هم اناس حقيقيون ؟

- لا . انهم شخصيات خيالية ، وأنا اكافح بشدة لجعل الشخصيات الخيالية كأنها واقعية من الحياة .

سؤال : هناك شخصية فى أحد كتبك تتحدث وتتصرف كعمى ، هل كنت تكتب عنه فعلا ؟

- لا . ولكن اسعد دائما حين أجد احدى شخصياتى الخيالية لها معادل موضوعى فى الحياة الفعلية .

سؤال : ماهو هدفك من كتابة روايات مثل : طريق التبغ ، الرحالة ، وأرض المآسى . ما الفائدة التى تقدمها هذه الكتب ؟

- الهدف من كل هذه الكتب هو أن اقدم مرآة يستطيع الناس ان ينظروا اليها ، ومهما كان الخير أو الشر فى كتبى فان ذلك يعتمد على ردود فعل القارىء تجاه الصورة التى يراها فى المرآة .

سؤال : كتبت كثيرا عن الفقراء ، لماذا لاتكتب عن الأشياء السعيدة فى الحياة ؟

- أولئك الذين يستمتعون بمباهج الحياة اقل بكثير من اولئك الذين يقاسون مآسيها ، حين يتغير هذا الوضع الاجتماعى سأشعر آنذاك ، انه لم يعد هناك أى هدف للكتابة عن آثار الفقر على الروح الانسانية .

سؤال : لايمكن لأحد أن يكتب رواية كأرض الله الصغيرة الا اذا كان له عقل كعقلك .. هل انت مجنون ؟

- لاأعتبر نفسى كذلك ، فانا أبدو لنفسى طبيعيا .

سؤال : ارسلت قصصي الى كل المجلات المعروفة . ولكني لم اتمكن من نشر قصة واحدة ، بدأ الاحباط يصيبني ، ماذا أفعل ؟

ـ هناك دائما موقع لكاتب جيد آخر على القمة . والطريقة المثلى للوصول الى هناك أن تبدأ من القاع . واذا لم تكن مهتما أن تبدأ من القاع فمن المحتمل انك لست مهتما بالكتابة على وجه الخصوص ، هناك آلاف من الجرائد الاسبوعية والمجلات الصغيرة والمجلات المهنية ، والمطبوعات الخاصة من كل صنف ولون ، ويبدو معقولا أن أى انسان لديه الصبر والتصميم الكافى ودرجة ما من القدرة على الكتابة أن يجد قبولا فى مكان ما وسط كل هذه المطبوعات ، واذا كان اهم شيء في حياتك أن تجد عملك منشورا فسيبدو لك اى مكان تنشر فيه مناسبا ، واذا بدا عملك جيدا للقراء مستجد من المحررين والناشرين من يرغب فى مساعدتك للوصول الى القمة .

سؤال : هل أتمكن من تعلم كتابة القصة القصيرة والرواية ، بأخذ دورة تدريبية فى مدرسة او جامعة ؟

ـ لاأحد يستطيع ان يجيبك حتى تحاول ، فلا يوجد مدرس مخلص يمكن أن يعد بأن يجعل منك كاتبا ، ولكن الارشادات تساعدك على أن تساعد نفسك .

سؤال : أود ان اصبح قصاصا ، هل العمل كمحرر فى جريدة مفيد ام ضار بالنسبة لى ؟

ـ لاأعرف أحد أضير بممارسة أى نوع من الكتابة .

فالصحافة ، بالاضافة انها تفيدك بالتمرين المستمر فانها تساعدك على تكوين عادة الكتابة اليومية ، انتظار الوحى عذر نادرا ماتجده وسط محررى الصحف .

سؤال : تنتابنى دائما الرغبة فى الكتابة ، ولكنى عندى عائلة يجب أن أعيلها ، ولا استطيع ترك عملى والمغامرة بالحياة على الكتابة ماذا أفعل ؟

الاثنان . احتفظ بعملك واكتب . ليس كل الكتاب الذين تنشر اعمالهم محترفين ، اعمال كثيرة جيدة كتبها كتاب تحيط بهم ظروف قاسية كالعمل البيتى كل يوم او الذهاب الى العمل خمسة أو ستة أيام فى الأسبوع ، الكتابة ، كهواية جمع الطوابع ، او الصيد ، من الممكن ان تكون هواية ممتعة ، وقليل من جامعى الطوابع او هواة الصيد يتركون اعمالهم .

سؤال : هل تكتب لتكسب نقودا ؟

- اكتب لأنى احب الكتابة ، سأكون غير قادر ان اخصص كل وقتى للكتابة لو لم استطع أن أعيش عليها .

سؤال : كم من النقود كسبت ؟

- ليس لى دخل ثابت . دخلى يأتى من حقوق النشر لما كتبته . كسبت قليلا بمعدل عشرة دولارات فى السنة مثلا ، وكثيرا بمعدل ۳۰۰۰ دولار فى الأسبوع .

سؤال : سمعت انك جنيت مليون دولار من كتاباتك . هل مازلت تحتفظ بها ؟

ـ لا . ثلاثة أرباع دخلى على نفقاتى الشخصية والمهنية والضرائب .

سؤال : هل لك ساعات عمل محددة ؟ وهل تكتب حين تشعر بالرغبة فى الكتابة ؟

ـ اكتب من ٩ صباحا حتى ٦ مساء ، ستة أيام فى الأسبوع ، عشرة اشهر فى السنة .

سؤال : هل تكتب فعلا طوال الوقت الذى تجلس فيه الى الآلة الكاتبة ؟

ـ لا . لكنى اجلس الى الآلة الكاتبة دوما . وهناك أوقات ينتهى اليوم دون أن أكتب سطرا واحدا .

سؤال : هل تعيد كتابة قصصك ورواياتك أم أن كل شىء يبقى كما كتبته فى المرة الأولى ؟

ـ سلة المهملات تمتلىء دائما فى نهاية اليوم . لقد أعدت كتابة بعض القصص والروايات أكثر من ١٠ أو ١٢ مرة .

سؤال : لابد أن هناك شىءا واحدا تعتبره أهم عنصر فى كتابتك . ماهو ؟

ـ لاأستخدم كلمة من عدة مقاطع حينما تغنى عنها كلمة أقصر ، لاأستخدم كلمة اضطر الى البحث فى القاموس عن معناها أو تهجيتها . راجعت مرة نسختى الخاصة من القاموس بشطب كل الكلمات التى تتكون من اكثر من اربعة مقاطع .

سؤال : ماهى فى رأيك أهم الخطوات لتعلم الكتابة ؟

- أولا تعلم معانى الكلمات وطرق استخدامها .
ثانيا : تعلم كيف تكتب جملة توافق الفكرة التي تعبر عنها .
ثالثا : أن يكون لديك مايستحق القول قبل بدء القصة .
رابعا : تعلم كيف تستخدم قوة العاطفة فى القصة لتترك تأثيرا دائما على ذهن القارىء .

سؤال : ماهى النصيحة التى توجهها لكاتب شاب ؟

- علّم نفسك الكتابة بالدرجة نفسها التى يعانى فيها أى فرد ليصبح ناجحا فى ميدانه من خلال التمرين ، فالأطباء والمحامون والخبازون والحلاقون والميكانيكيون والمهندسون وعمال الطباعة لابد ان يتعلموا بالخبرة ، لماذا لايكون الكتاب كذلك ؟

سؤال : ما الكتب التى تقرؤها ؟

- اقرأ كتبا قليلة ، ربما ست روايات فى السنة ، منذ سنوات قسمت الناس الى صنفين أولئك الذين يقرءون وأولئك الذين يكتبون ، ورغبت أن أكون مع الصنف الثاني .

سؤال : لو عشت حياتك ثانية . هل تبدأ بأن تكون كاتبا مرة ثانية ؟

- بالتأكيد . أشك انى استطيع أن أعيش بعمل آخر .

فهـــــرس

مقدمة ٥
القسم الاول ....
السنوات المبكرة ٧
القسم الثانى ....
السنوات الوسطى ٨٣
القسم الثالث ....
سنوان النضج ١٦٦
خاتمة ٢٢٥

هذا الكتاب :

كيف اصبحت روائيا ؟! ، كتاب فريد ، يكتبه روائى متمكن ، يجمع بين الخبرة والعلم ويمزج بين الفن والفكر ، ويكتب ارسكين كالدويل اهم الروائيين الأمريكيين المعاصرين سيرته الذاتية ، وكيف جذبه فن الرواية حتى حققت رواياته اعلى الأرقام وتتميز تجربته بالملاحظة الدقيقة والحساسية الفائقة والنظرة الفنية لكل ما يجرى حوله .

يقدم كالدويل سيرته بقوله : «لم يكن هدفى سرد احداث حياتى ، ولكن تناول الخبرات التى اثرت على رواياتى ، كما اقدم فى كتابى هذا جماع خبرتى كروائى ومؤلف» اذهل الكاتب الأمريكى القراء بقسوته وصراحته ، وقد ولد عام ١٩٠٣ فى مدينة كاوينا بولاية جورجيا ، واتهم بالكثير من بالاباحية والانحلال ، ورفعت ضده العديد من القضايا ، واثبت انه يهدف الى تعرية المجتمع الأمريكى حتى يمكن معالجة ما به .

ثم اصبح كالدويل اكثر الروائيين شهرة ، وحطم كل الأرقام القياسية للتوزيع .

انه كتاب هام ، بعد ان اصبح فن الرواية اكثر الفنون انتشارا فى مصر .

رقم الايداع : ٢٤٩٦ / ١٩٩١

I.S.B.N
977 - 07 - 0065 - 7

الطباعة : مؤسسة دار الهلال ـ القاهرة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

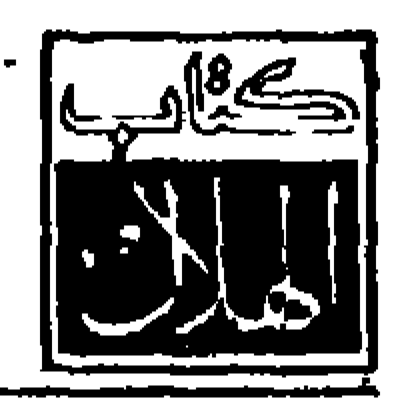
الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

كتاب
الهلال

قصة البرلمان المصري

د. يونان لبيب رزق



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

العدد ٤٨٣ ـ شعبان ـ مارس ١٩٩١

أسعار البيع للعدد فئة ١٥٠ قرش

الاردن ١٠٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريال ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٠ درهم ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى وأبو ظبى ٨ دراهم ، سلطنة عمان ٨٠٠ فلس ، غزة والضفة والقدس ١,٤ دولار ، لندن ١,٥٠ جك ..

قصة البرلمان المصرى

بقلم

دكتور يونان لبيب رزق

دار الهلال

الـغـلاف تـصـمـيـم الـفـنـان
مـحـمـد أبـو طـالـب

مقدمة

قد لا يعلم مصريون كثيرون أن عمر البرلمان المصرى ينوف عن قرن وربع من الزمان ، وهو بذلك أقدم البرلمانات المعروفة ليس فى تاريخ المنطقة العربية فحسب ، بل وربما فى تاريخ الشرق كله .

وهذا العمر الطويل كما صنع تطورا فهو فى نفس الوقت قد شهد تتابعا مستمرا لفصول التاريخ البرلمانى فى مصر .

وقد رأينا اختيار بعض هذه الفصول ليتضمنها هذا الكتاب ، وهو اختيار حكمته مجموعة من المعايير :

المعيار الأول : بدا فى تخصيص ثلاثة فصول عن تطور قوانين الانتخابات فى مصر انطلاقا من الايمان ان تلك القوانين لم تأت من فراغ وإنما كانت تشى بطبيعة القوى السياسية والاجتماعية التى صنعتها ، فضلا عن انها كانت تستعرض بالضرورة تاريخ البرلمان المصرى من خلال متابعة تلك القوانين .

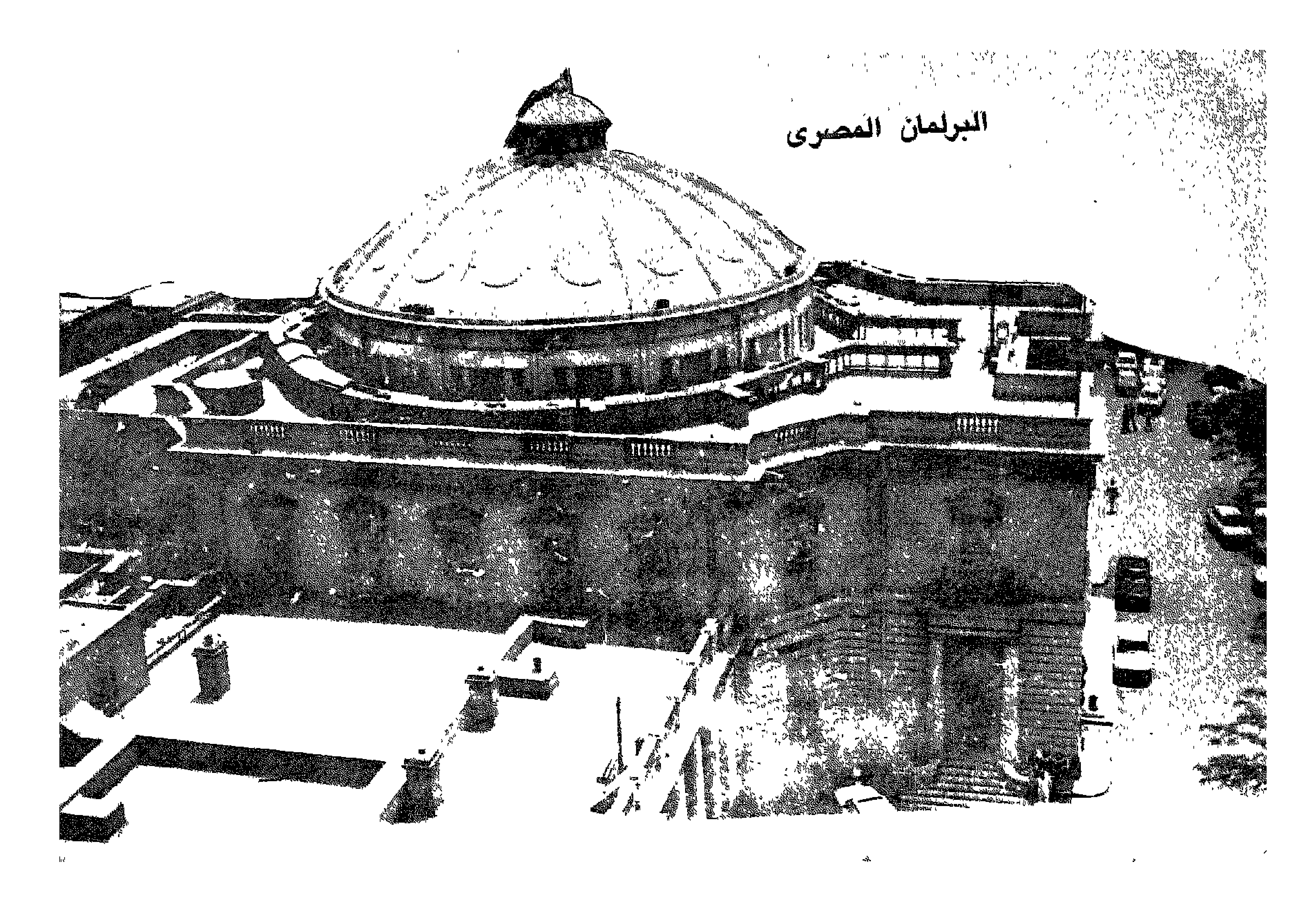
المعيار الثانى : روعى فى رصد ظواهر برلمانية بعينها تركت بشكل أو بآخر بصماتها على المسيرة التاريخية للحياة النيابية المصرية ، والظاهرتان اللتان وضعنا موضع الرصد تتصل اولاهما بالتواجد الدائم « للمستقلين » فى البرلمانات المصرية مما خصصنا له الفصل الرابع وتتعلق الثانية بمفهوم « الحصانة » فى التاريخ البرلمانى والذى افردنا له الفصل الخامس .

اما المعيار الثالث : فقد اتجه نحو اختيار مجالس ذات طبيعة خاصة فى تاريخ البرلمان المصرى بتقديم دراسة عن اول برلمان حزبى فى تاريخ البرلمان المصرى ، وهو برلمان عام ١٩٢٤ الذى خصصنا له الفصل السادس ، ثم هذا البرلمان العجيب الذى لم يعش اكثر من ثمان ساعات ، وهو بالتالى أقصر برلمان فى تاريخ الحياة النيابية المصرية الذى دارت حوله احداث الفصل السابع والأخير .

واحتكاما لتلك المعايير جاءت اختياراتنا لتلك الفصول من تاريخ البرلمان المصرى وأملنا كبير فى أن نكون قد وفقنا فيها .

وعلى الله قصد السبيل ..

التطور التاريخى لنظام الانتخابات فى مصر



البرلمان المصرى

الفصل الأول :

الفقراء يمتنعون !
١٨٦٦ - ١٩١٣

على مدى ماينوف عن قرن وربع من الزمان (١٨٦٦ - ١٩٩٠) ، ومنذ صدور « اللائحة الأساسية لمجلس شورى النواب » فى أكتوبر من العام الأول وحتى صدور قانون الانتخابات الأخير منذ بضعة أسابيع عرفت مصر مجموعات متعاقبة من قوانين الانتخابات تستحق الدراسة التاريخية ، والقول « بالدراسة التاريخية » مقصود بحكم ماحظيت به هذه القوانين من دراسات قانونية مستفيضة كان من الطبيعى أن تنصب بالأساس على الجوانب الفقهية من تلك القوانين دون أن تضع فى اعتبارها بقدر معقول الظروف التاريخية التى افرزتها على النحو الذى صدرت به .

وتنبع اهمية مراعاة هذه الظروف من حقيقة تاريخية بسيطة وهى ان طالما استمرت حركة التاريخ فمن المحتوم ان تتغير طبيعة المؤسسات السياسية ، ومنها المؤسسة النيابية بالطبع ، تبعا لهذه الحركة ، فيما يجرى بشكل صراعى قد تصل الاطراف فيه الى حلول توفيقية ، وقد لاتصل !

انطلاقا من التسليم بهذه الحقيقة فان متابعة امينة للتطور التاريخى لنظام الانتخابات فى مصر خلال تلك الفترة الطويلة نسبيا قد يكون مفيدا ، ولجميع المتصارعين !

ولعل هذا الطول هو الذى يدعونا الى العزوف عن وضع كافة تلك القوانين فى سلة واحدة ، فهى اصغر كثيرا من أن تتسع لها ! الأمر الذى يدفعنا إلى تخصيص سلال ثلاث ، أولاها للفترة بين عام ١٨٦٦ حين صدر القانون الأول وبين ١٩١٣ عام صدور قانون الجمعية التشريعية ، وثانيتها تمتد بين صدور قانون عام ١٩٢٣ والذى الحق بالدستور المشهور الذى صدر فى ذلك العام وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ ، والتى تمثل بدورها حقبة منفصلة لها سماتها المتميزة ، اما السلة الاخيرة فقد خصصناها لتطور قوانين الانتخاب خلال الأعوام الأربعين الأخيرة !

وقبل تقليب ما فى السلال الثلاث هناك مجموعة من الملاحظات الأولية على ما فيها :

١ ـ انه بامتداد الفترة الطويلة محل المتابعة ، ورغم تعدد القوانين واختلاف العهود التى صدرت فيها ، فانه ولاقانون واحد منها صدر عن جمعية منتخبة ، أو جمعية تأسيسية فيما هو مفروض !

٢ ـ فى كل الظروف كان لتركيب السلطة وتوجهاتها أشد التأثير على طبيعة القوانين .

٣ ـ لعبت الحركة الوطنية دورا أساسيا فى توجهات العاكفين على صياغة القوانين الانتخابية ، فى أغلب المرات ، وبدون استثناء تقريبا .

٤ ـ اخيرا فان عزل القوانين الانتخابية عن مجمل التغيرات الإجتماعية والفكرية يؤدى في العادة الى قصر عمرها واصابتها بحالة من الوفاة المبكرة !

لا للفقراء

يؤكد التقليب فى السلة الأولى على أن أبرز حقائق القوانين الانتخابية الأربعة التى صدرت خلال تلك الفترة (١٨٦٦ ـ ١٩١٣) كانت حرمان الفقراء من المشاركة فى العملية الانتخابية رغم اختلاف الظروف التى صدرت فيها هذه القوانين ، وهو حرمان تم تحت مسميات مختلفة .

اختلاف الظروف بدا فى أن القانون الأول الصادر فى ٢٢ أكتوبر عام ١٨٦٦ جاء صدوره بمبادرة من الخديوى اسماعيل وفى اطار سعى حثيث من هذا الحاكم لما تصوره من امكان جعل مصر « قطعة من أوربا » بينما صدر القانون الثانى فى ٢٥ مارس عام ١٨٨٢ ابان احتدام احداث الثورة العرابية واستجابة لدواعيها ، وجاء القانونان الثالث والرابع فى عامى ١٨٨٣ و١٩١٣ فى ظل الاحتلال البريطانى وتنفيذا لسياساته .

القانون الأول قصر حق اختيار اعضاء مجلس شورى النواب فى الريف على « المشايخ الحايزين على الأوصاف المعتبرة » وفى المدن يصير هذا الاختيار « باتفاق أو اكثرية آراء وجوه وأعيان تلك المدائن » !

تؤكد هذه الحقيقة قراءة المادتين السابعة والثامنة من القانون .

المادة السابعة تقول : « حيث ان كل بلد عليه مشايخ معينون برغبة الأهالى فبالطبع هم المنتخبون من طرف اهالى ذلك البلد أو النائبون عنهم لانتخاب العضو المطلوب انتخابه فى القسم ».

وجاء فى المادة الثامنة : « وأما الانتخاب فى مصر والاسكندرية ودمياط فيصير باتفاق أو أكثرية آراء وجوه وأعيان تلك المدائن » !

ولم يرعو واضع هذا القانون ، او واضعوه ، ممن لانعرفهم (!) من قولها صراحة ، وهى أن « الفقراء يمتنعون » ، فيما جاء بالحرف الواحد فى البند الرابع من هذا القانون القائل بألا يكون الناخبون « من الذين لم يحكم على أموالهم وأملاكهم بأحكام الافلاس وأيضا الفقراء المحتاجين » !

● ● ●

فى **القانون التالى** الصادر فى عهد ما اصطلح على تسميته بوزارة الثورة ، وبالرغم من الجرأة التى كان مفروضا أن يتحلى بها واضعوه فهو وان لم ينص صراحة على حرمان الفقراء من حق الانتخاب فانه وضع من القيود ما يؤدى الى ذلك التحريم بالفعل .

جاء ذلك فى المادتين الأولى والثانية من هذا القانون .

المادة الأولى تقول : « حق الانتخاب لكل مصرى من رعايا الحكومة المحلية سواء كان مولودا فى مصر أو متوطنا اقام فيها مدة لاتنقص عن عشر سنوات (على شرط) أن يكون بالغا من العمر إحدى وعشرين سنة كاملة وأن يدفع للحكومة من مال الضرائب او الرسوم المقررة أيا كانت مايبلغ خمسمائة قرش ميرى فى السنة » .

وتدعم المادة الثانية سابقتها ، فقد نصت على : « من كان عليه من (أرباب العائلات) هذا المقدار من المال الأميرى عن أطيان او عقارات يمتلكها وإن كانت مكلفة باسم غيره فله حق الانتخاب » .

وهذا المبلغ كان يكافىء الضريبة التى تدفع لنحو سبعة افدنة ، بمعنى آخر فقد سمح القانون بحق الانتخاب لصغار الملاك ، ولكنه لم يسمح به للمعدمين ، وكان هذا اقصى ما يستطيع السماح به ، ولظروف الثورة ، بحكم ان أغلب العسكريين الذين قادوها كانوا ينتمون الى هذه الشريحة .. شريحة صغار الملاك .

وبينما حرم قانون ١٨٨٢ على الفقراء حق الانتخاب فانه قد منحه للأجانب من خلال مانصت عليه المادة الأولى من السماح للمتوطن الذى اقام فى مصر مدة « لاتنقص عن عشر سنوات » مما كان يعنى ببساطة حصول مئات من الأوروبيين ، يونانيين وايطاليين وأرمن ، هذا الحق .

● ● ●

اما القانونان الصادران فى عهد الاحتلال (١٨٨٣ و١٩١٣) فقد حرما حق الانتخاب على من لهم « بيوت للعب القمار أو الفحشاء » والفقراء ، ثم ان هذين القانونين قد اشترطا على المندوب الذى يمارس حق الانتخاب أن يكون « جاريا دفع مال مقرر على عقارات أو أطيان فى نفس المديرية قدره ٥٠٠٠ قرش سنويا وذلك منذ سنتين على الأقل » ! وهذا المبلغ كان يدفع كضريبة عن ٦٢ فدانا من الأراضى المتوسطة .

ومثل هذه الحقيقة الأولى المستخرجة من السلة انما تشى بواقع اجتماعى ، وهى أن الوجهاء فى المدن والمشايخ المعتبرين فى الريف من متوسطى وكبار الملاك استمروا العنصر الفاعل بامتداد هذه الفترة الأولى من تاريخ القوانين الانتخابية .

نعم لفئات بعينها !

وتجر هذه الحقيقة وراءها حقيقة أخرى متصلة باستثناء فئات بعينها من الشروط التي وضعتها القوانين المذكورة خاصة بالقدرة المالية .

فقد نصت المادة الثالثة من القانون الصادر عام ١٨٨٢ على اعطاء حق الانتخاب لثمان فئات حتى ولو « لم يكن عليهم المبلغ المقرر » .

هذه الفئات كانت « العلماء الحائزون رتبة التدريس أو المشهورون بصفة العالمية » و« القسس وسائر الرؤساء الروحانيين من المسيحيين » و« حاخامات الاسرائيليين » و« المدرسون فى المدارس الأميرية والمكاتب الأهلية والحائزون للشهادات من المدارس العليا » و« أرباب الوظائف الملكية سواء كانوا فى الوظائف او متقاعدين » و« ضباط العسكرية سواء كانوا فى الخدمة أو مستودعين أو متقاعدين » و« الافوكاتية المقبولون فى المجالس النظامية » وأخيرا ، « الاجزجية والأطباء والمهندسون » .

والملاحظ ان قانون عام ١٨٨٢ قد تفرد بهذه

الاستثناءات ، ذلك ان القوانين الثلاثة الأخرى الصادرة قبله أو بعده لم تستثن أية فئة من الشروط التى وضعتها .

وفى تقديرنا ان هذا الاستثناء يرتبط بطبيعة القوى التى اصدرته ، قوى الثورة العرابية ، والتى أرادت فيما يبدو ان تستقطب عناصر رجال الدين والمثقفين باعتبارها من العناصر المؤثرة فى ميدان العمل السياسى .

بل اننا نلاحظ ما هو أكثر من ذلك وهو أن هذا القانون قد اعطى العسكريين اثناء الخدمة حق الانتخاب ، وهو ماحرمته كافة القوانين الثلاثة الأخرى .

القانون السابق عليه نص على ان « الداخلين سلك العسكرية سواء كانوا تحت السلاح أو امدادين (الاحتياطى) لايجوز انتخابهم ليكونوا من أعضاء المجلس » .

اما القانونان اللاحقان (١٨٨٣ و١٩١٣) فقد نصا فى المادة الأولى على أن « رجال العسكرية الذين تحت السلاح ليس لهم حق الانتخاب » .

ومفهوم طبعا السبب الذى دعا الى انفراد قانون ١٨٨٢ بمنح هذه المزية « لرجال العسكرية فقد كانوا هم الذين اصدروه »!

ايضا اختلفت هذه القوانين بالنسبة للموظفين فقد حرمهم القانون الأول فى بنده الخامس من حق دخول المجلس النيابى والذى جاء فيه بالحرف الواحد ، « المستخدمون فى الخدمات الأميرية ، والمستخدمون فى الجهات الخارجة عن الميرى سواء كانوا من العمد أو الوجوه أو غيرهم لايجوز انتخابهم »

وقد تفرد القانون الأول بهذا الحظر ، صحيح أن القوانين الوظيفية كانت لاتجيز للعاملين « بالميرى » الاشتغال بالعمل السياسى ، ولكنها اجازت لهم خوض الانتخابات ودخول المجالس النيابية ، وان اشترطت على صاحب الوظيفة أن يتخلى عنها فى حالة دخوله المجلس

الانتخاب غير المباشر :

(الحقيقة الثالثة) المستخرجة من نفس السلة تشير الى أن كل تلك القوانين قد رفضت الاخذ بنظام الانتخاب المباشر ، وفضلت أن يكون هذا الانتخاب على درجتين على الأقل .

القانون الأول (١٨٦٦) اعتبر مشايخ القرى منتخبين من الأهالى أو على حد تعبيره « معينون برغبة الأهالى فبالطبع هم المنتخبون من طرف اهالى ذلك البلد والنائبون عنهم » كما سبقت الاشارة .

القانون الثانى (١٨٨٢) ابتدع نظام المندوب عن عدد معين من الناخبين ، وهو نظام استمر يعمل به بشكل أو بآخر لنحو نصف قرن وحتى ١٩٢٥ على وجه التحديد .

فقد نص هذا القانون فى مادته الـ ٣٣ على : « ينتخب الذين لهم حق الانتخاب فى كل دائرة واحدا من كل مائة منهم .. والذين يقع عليهم الانتخاب على هذه الصورة هم الذين ينتخبون النواب » .

قانون العام التالى (١٨٨٣) وهو القانون الذى وضع بناء على تقرير اللورد دفرين ، سفير بريطانيا فى استنبول والذى

كلف بوضع تقرير لنظام الحكم فى مصر بعد الاحتلال ، استمر هذا القانون يأخذ بنظام المندوبين الناخبين غير انه اختزل عدد هؤلاء اختزالا ظاهرا ، فصار ينتخب مندوب ناخب واحد « من كل تمن من اتمان القاهرة ومن كل قسم من اقسام الاسكندرية ومن كل مدينة من المدن المبينة فى المادة الخامسة ومن كل بندر او بلد من بنادر وبلاد الوجه البحرى والوجه القبلى » .

وهذا الاختزال كان يعنى زيادة قدرة سلطات الاحتلال على التحكم فى المندوبين الناخبين مما جعل انتخاب اعضاء المجالس التشريعية (مجالس المديريات ـ شورى القوانين ـ الجمعية العمومية) اقرب الى الاختيار منه الى الانتخاب . فيتم انتخاب اعضاء مجلس المديرية بمعرفة المنتخبين المندوبين (المادة ١٧ من القانون) وتحرم المادة التالية هؤلاء المندوبين من « الاشتغال بأمور خلاف انتخاب اعضاء مجالس المديريات وهم ممنوعون من كل مناقشة ومداولة .

اما مجلس شورى القوانين والذى كان يتكون من ٣٠ عضوا ينتخب ١٦ منهم اثنان عن القاهرة والاسكندرية ينتخبهما « المنتخبون المندوبون » والباقى (١٤) عضو عن كل مديرية يختار بالقرعة من اعضاء مجلسها .

تبقى الجميعة العمومية التى كانت تتكون من النظار واعضاء مجلش شورى القوانين و٤٦ عضوا يتم انتخابهم من المدن (١١) ومن المديريات (٣٥) من خلال المندوبين الناخبين ايضا .

بيد أن هذا الوضع كان من الصعب ان يستمر بعد تعاظم الحركة الوطنية المصرية خلال العقد الأول من القرن العشرين .

وكان لهذه الحركة شقان يطالب اولهما بالجلاء ووحدة وادى النيل وطالب الثانى بالدستور ، خاصة بعد ماشهدته الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ مما عرف « بالانقلاب الدستورى » والذى ترتب عليه الأخذ بالنظام النيابى فى دولة كانت فى ظل حكم السلطان عبد الحميد اشد الدول اوتوقراطية .

وقد استتبع ذلك زيادة المطالبة بالدستور ، فكتبت الصحف وقامت حركة العرائض التى يوقعها المصريون مطالبين بالدستور ، وسارت المظاهرات يصيح رجالها « الدستور يافندينا .. الدستور يافندينا »!

الأهم من ذلك ان المطالبة بتغييرات جذرية فى النظام الدستورى قد انبعثت من داخل المجالس القائمة نفسها وارتفعت اصوات عديد من اعضاء مجلس شورى القوانين ، اولهم الشيخ على يوسف ، مطالبين بهذه التغييرات (فبراير ١٩٠٨)

أدى ذلك إلى تغير الوضع فى القانون الذى اصدرته سلطات الاحتلال بعد ثلاثين عاما (١٩١٣) والذى نص على ان « كل خمسين ناخبا فى كل قسم من اقسام القاهرة والاسكندرية وفى كل محافظة أخرى وفى كل مدينة وكل قرية فى المديريات ينتخبون ناخبا مندوبا واحدا » مما كان يعنى زيادة قاعدة الناخبين المندوبين .

ولنا أن نلاحظ هنا أن نظام الانتخاب على درجتين والذى كان مقصودا من تطبيقه تحكم السلطة فى نوعية اعضاء

المجالس النيابية بحكم ما يتيحه هذا النظام من قدرة التحكم فى المندوبين الناخبين نتيجة لقلة عددهم فإنه فى نفس الوقت قد تأثر بضعف أو اشتداد الحركة الوطنية : فإن ما تقرر من تغيير فى دستور عام ١٨٨٢ بتحديد عدد هؤلاء بخمسين انما كان وليدا للحركة الوطنية التى قادها رجال من امثال مصطفى كامل ومحمد فريد ولطفى السيد ، والتى كان احد مطالبها الاساسية "حياة نيابية حقيقية" .

ومع التسليم بأن هناك علاقة وثيقة بين قوانين الانتخاب وبين طبيعة المجالس التى تفرزها ، والربط بين هذا وذاك وبين الظروف التاريخية التى صنعت كل ذلك ، ينبغى التسليم فى نفس الوقت بأن قانون عام ١٩١٣ كان اقرب القوانين الانتخابية الصادرة قبل الحرب تجسيدا للفكرة النيابية .

هدم الهرم

فبالاضافة الى ما تضمنه هذا القانون من تمثيل عددى كان الناخبون المندوبون فيه يمثلون اقل عدد فى القوانين الاربعة فإن التعديل الذى تضمنه قانون الجمعية التشريعية قد صنع تغييرا دستوريا هاما فقد هدم الهرم !

والهرم الذى نعنيه هنا هو الشكل الذى قام عليه النظام النيابى بمقتضى القانون الاساسى الصادر عام ١٨٨٣ ، فقد قام هذا الشكل على قاعدة تصنعها مجالس المديريات الاربع عشرة التى ينتقل ممثلون منها الى مجلس شورى القوانين ، والتى يصعد مجموع اعضائها للجمعية العمومية .

وقد تم هدم هذا الشكل الهرمى من خلال الغاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وحلول الجمعية التشريعية محلهما التى يتم انتخاب اعضائها بواسطة الناخبين المندوبين .

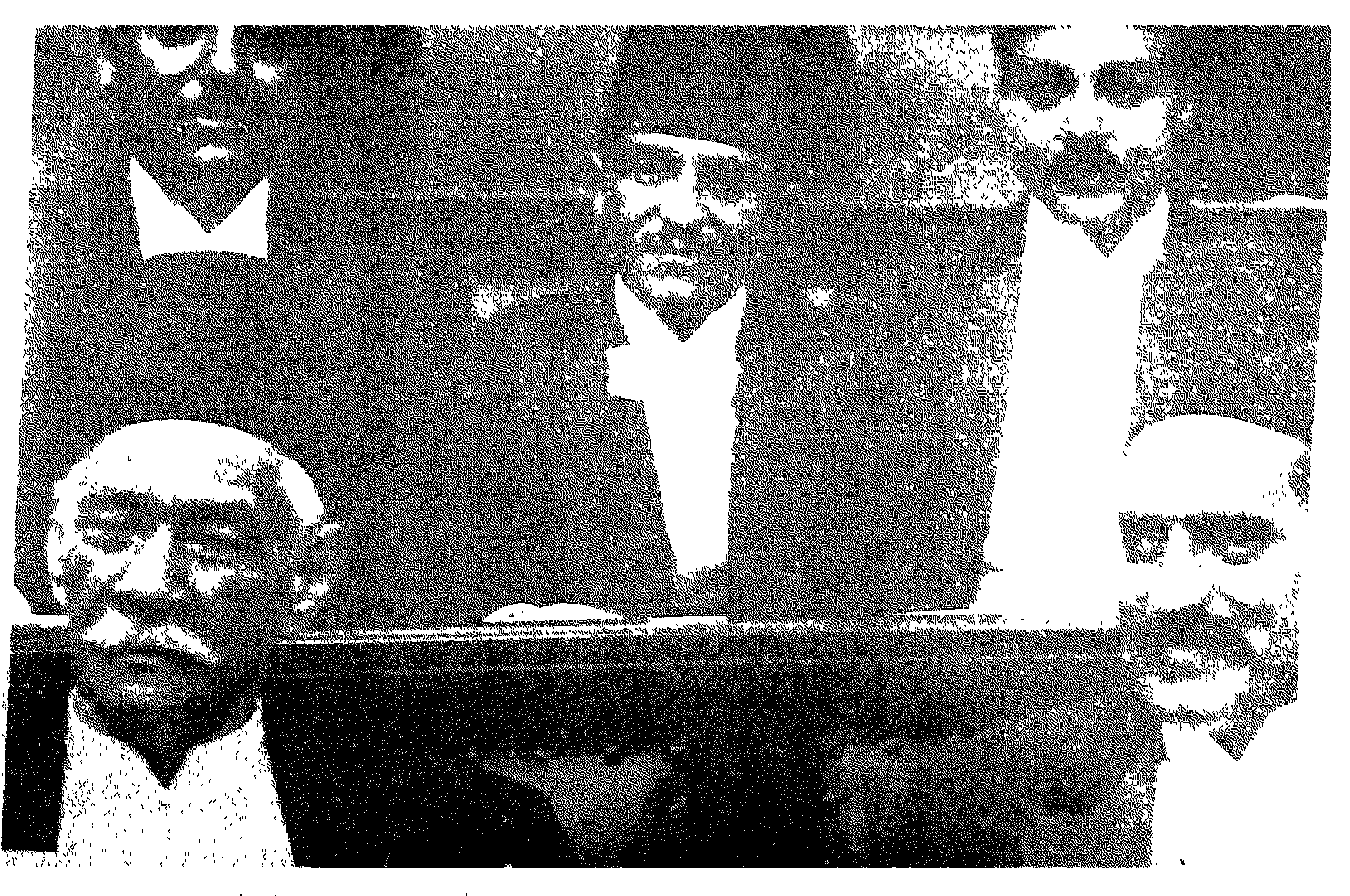
وتشير الكتابات التاريخية الى أن اول معركة انتخابية حقيقية فى التاريخ المصرى الحديث هى المعركة التى دارت لتشكيل الجمعية التشريعية .

وتدلل هذه الكتابات على ذلك بالمعركة الانتخابية التى خاضتها شخصية معروفة وقتذاك ؛ هى شخصية ناظر المعارف والحقانية السابق ، سعد باشا زغلول الذى رشح نفسه فى ثلاث من الدوائر الاربع التى كانت تتكون منها القاهرة .

وتشير نفس هذه الكتابات الى أن اول منشور انتخابى عرفته مصر كان المنشور الذى اصدره سعد خلال هذه المعركة ؛ وهو الامر الذى سجله اللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ؛ وهو الذى كان وراء اصدار القانون .. سجله فى تقريره عن عام ١٩١٣ والذى جاء فيه :

"خلال الاسابيع الثلاثة التى مرت بين اختيار المندوبين وانتخاب اعضاء الجمعية سعى المرشحون فى استمالة المندوبين اليهم بكل واسطة من وسائط الانتخاب المعتادة وكان اشهر واسطة اعتمدوا عليها اظهار بيان خططهم" .

● ● ●



جلسة برلمانية تجمع سعد زغلول ومصطفى النحاس .

القضاء موجود

حقيقة أخرى ، وهى أن واضعى القوانين الانتخابية خلال نصف القرن السابق على الحرب العالمية الأولى ، قد تنبهوا الى تمثيل القضاء فى العملية الانتخابية منذ الوهلة الأولى وحتى اللحظة الأخيرة .

قانون ١٨٦٦ قد نص من بين مانص عليه انه « بعدما يتم وضع الأوراق بالصناديق تفتح على يد المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى وقاضى المديرية » .

ويفرد قانون ١٨٨٢ مادة بأكملها عمن يتوجب اجراء الانتخابات بحضورهم وهم « مدير الجهة او محافظها أو مأمور الضبطية بمصر أو من تعينه الحكومة سواهم بصفة مندوبين عن الحكومة وحضور قاضى الجهة ايضا » .

نفس الحقيقة تضمنها القانونان الصادران من قبل سلطات الاحتلال واللذان نصا على حضور « واحد من أعضاء المحكمة الابتدائية الكائنة بتلك المديرية » .

ولامشاحة ان ارساء هذا المبدأ ، وان كان الأخذ به فى أول الأمر من قبيل التشبه بالقوانين الأوربية ، الا انه كان يمكن ان يوفر بعد ذلك حدا معقولا من الحيدة الادارية فى بلد تلعب السلطة المركزية داخله دورا ، وأى دور !

بقيت حقيقة اخيرة فى السلة ، ذلك ان قوانين الانتخاب الأربعة قد اسفرت عن حقيقة مؤداها ان تلك القوانين لم

تصدر فى عزلة عن المتغيرات العميقة التى شهدتها البلاد فى تلك الحقبة بالتحول من المجتمع الريفى الى المجتمع المدينى .

يظهر ذلك جليا فى المقارنة بين قانون عام ١٨٦٦ وقانون عام ١٨٨٣ ، فبينما كان القانون الأول ينصب بالأساس على العملية الانتخابية فى المديريات وجاءت اشارته الى الانتخابات فى المدن على نحو مختصر فى جانب من البند الثامن جاء فيه : « واما الانتخاب فى مصر والاسكندرية ودمياط فيصير باتفاق أو اكثرية آراء وجوه واعيان تلك المدائن » ، فان القانون الثانى قد خصص مادة كاملة على وجه التقريب لعملية الانتخاب فى المدن .

اكثر من ذلك فبينما اقتصر التمثيل فى المدن فى القانون الأول على مدن ثلاث ، فان شمل فى القانون الثانى ثمان مدن ، بل وتقسيم تلك المدن مما ينم عن اتساعها فيما تسجله المادة الخامسة من هذا القانون والتى جاء فيها بالحرف الواحد .

« اما فى كل تمن من اتمان القاهرة وكل قسم من اقسام ثغر الاسكندرية وكل مدينة من مدن رشيد ودمياط وبورسعيد والاسماعيلية والسويس والعريش فيكون تحرير دفتر الانتخاب بمعرفة لجنة تؤلف من المأمور ومن شيخ التمن أو القسم ومن مشايخ الحوارى » .

ولايبقى مزيد من الحقائق فى السلة الأولى ، ولكن تبقى اكثر من سلة أخرى !

الفصل الثاني :

الرعاع قادمون !
١٩٢٣ ـ ١٩٥٢

خشبة المسرح السياسى المصرى كانت قد تغيرت تماما خلال سنوات الثورة (١٩١٩ ـ ١٩٢٢) وهو تغيير قد انسحب آثاره على شتى مناحى الحياة العامة فى مصر ، وكان نظام الانتخابات من اكثر تلك المناحى تأثرا .

باختصار شديد فقد سقطت الفلسفة التى استمرت تحكم تلك القوانين خلال الحقبة السابقة (١٨٦٦ ـ ١٩١٣) وحلت محلها فلسفة جديدة .

الفلسفة القديمة كانت تقوم على ان حق قيادة الامة ، وبالتالى حق تمثيلها انما هو مخول لمن اسماهم الاستاذ احمد لطفى السيد مفكر حزب الامة العتيد ، « اصحاب المصالح الحقيقية » وهؤلاء فيما ارتآه الرجل هم ابناء العائلات من الاعيان او كبار المزارعين ، وابناؤهم او فئة المتعلمين واصحاب الوظائف الذين تعنى مصلحة الامة مصلحتهم ، وان مصالح هؤلاء متعددة بنسبة اتساع ثرواتهم وانهم يريدون قضاء تلك المصالح ، كما كتب لطفى السيد فى « الجريدة » فى يناير عام ١٩٠٩ ، « سواء كانت متعلقة برى الاطيان او



أحمد لطفي السيد يتباحث مع دولة إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء

بترتيب العمد والمشايخ والخفراء ، او سلامة حقوق الانتخاب من / العبث »..

وقد انعكست هذه الفلسفة بدرجة او باخرى على كافة قوانين الانتخابات الصادرة خلال المرحلة الاولى : وهى الفلسفة التى سقطت من بين ما اسقطته ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ لتحل محلها فلسفة جديدة ، وان لم يكن هذا الاسقاط كاملا !

الفلسفة الجديدة عبر عنها اعضاء لجنة الثلاثين اثناء عكوفهم على وضع الدستور خلال عام ١٩٢٣ ، وعلى الرغم من ان هؤلاء كانوا مختارين فى غالبيتهم من شرائح اجتماعية تمثل « اصحاب المصالح الحقيقية » لكنهم لم يتمكنوا من تجاهل الواقع الجديد الذى افرزته السنوات الثلاث السابقة .

قامت هذه الفلسفة على فكرة انه طالما ان كافة المصريين ملزمون باداء الخدمة العسكرية فان لهم جميعا حق الانتخاب ، وانه ليس من صلاحيات احد حرمانهم من هذا الحق ، وهو الامر الذى اكده واحد من اهم واضعى الدستور ، وهو عبد العزيز باشا فهمى الذى لقب بأب الدستور ، والذى لم يجد ضيرا فى ان يتساوى فى حق الانتخاب مع اى فلاح امى ، فيما حفظته لنا محاضر اجتماعات لجنة الثلاثين .

قيود انتخابية :

تأسيسا على هذه الفلسفة صدر قانون الانتخاب الاول فى تلك الحقبة فى ٣٠ ابريل عام ١٩٢٣ ، والذى قرر حق الانتخاب « لكل مصرى بلغ احدى وعشرين سنة ميلادية ».

غير انه وضع على هذا الحق مجموعة من القيود ..

القيد الاول : تعدد درجات الانتخاب ، فقد كان على درجتين بالنسبة لمجلس النواب ، حيث ينتخب كل ثلاثين مندوبا لانتخاب عضو هذا المجلس وعلى ثلاث درجات بالنسبة لمجلس الشيوخ حيث ينتخب كل خمسة من المندوبين الثلاثينيين مندوبا منهم لانتخاب عضو المجلس الاخير .

ولم يكن انتخاب هؤلاء المندوبين موقوتا بالعملية الانتخابية بل كان محددا بالسنوات الخمس التى قررها الدستور عمرا للمجلس .

القيد الثاني : متصل بالسن الذى لم يتحدد فقط بالنسبة للمرشحين (٣٠ سنة لمجلس النواب و٤٠ سنة لمجلس الشيوخ) وانما تحدد ايضا بالنسبة للمندوبين الناخبين لاعضاء المجلسين ، فقد تقرر الا يقل سن المندوب الناخب لعضو النواب عن خمس وعشرين سنة ، ولعضو مجلس الشيوخ عن ثلاثين سنة .

القيد الثالث : خاص بمجلس الشيوخ ، فبالاضافة الى ان القانون منح الملك حق تعيين خمسى اعضاء هذا المجلس فقد وضع شروطا مالية واجتماعية قصرته على فئات محددة عينها هذا القانون ، وقد بلغ عدد هذه الفئات ست عشرة على قمتها « امراء الاسرة المالكة » وفى قاعدتها « كبار التجار ورجال الصناعة واصحاب المهن الحرة ممن لا يقل دخلهم عن ١٥٠٠ جنيه سنويا » وهو مبلغ جسيم بمقاييس العصر .

اخر هذه القيود فرض على « الضباط وصف الضباط والجنود فى الجيش والبحرية ممن ليسوا على الاستيداع » فقد حرمهم القانون من حق الانتخاب ناهيك عن حق الترشيح .

ولاثنى عشر عاما تالية دارت معارك حادة للفكاك من هذه القيود بدأت مع اول مجلس نيابى تشكل انبثاقا من هذا القانون واستمرت الى ان تم اسقاط دستور صدقى عام ١٩٣٥ ، بما كان يمثله من اتجاه لوضع مزيد من القيود على حقوق المصريين فى الانتخاب ، وهى معارك تشكل صفحة ممتعة من التاريخ المصرى المعاصر !

معركة اسقاط القيود :

باستثناء القيد الاخير الخاص باخراج رجال الجيش من لعبة الانتخابات ، فلم يكن احد من اطراف العمل السياسى فى مصر ، راغبا فى ادخال هؤلاء فى اللعبة .. باستثناء ذلك شرع منذ اللحظة الاولى فى العمل على الخلاص من القيود ، من جانب طرف من اطراف العمل السياسى ، فى الوقت نفسه الذى بذل فيه طرف اخر غاية جهده للابقاء عليها ، بل وزيادتها احكاما كلما واتته الفرصة لذلك !

تتطلب متابعة المعركة قدرا من التعرف على القوى المتواجدة فى الحلبة السياسية فى اعقاب صدور القانون الاول والعمل به .

على جانب التقييد وقف القصر واحزاب الاقلية التى ظهرت فى الساحة خلال تلك السنوات الاثنتى عشرة ..

القصر بقيادة الملك فؤاد الاوتوقراطى النزعة كان يعز عليه كثيرا ما اصاب سلطاته من خصم لحساب الحركة الوطنية المصرية ، بحكم ما قرره الدستور من تولى الحزب الفائز فى الانتخابات للوزارة ، بما اصبح يعنيه ذلك من تقرير مبدأ « الوصول الى الحكم عبر صناديق الانتخاب » مما اعطى القوانين المنظمة لحق الاقتراع كل اهميتها لدى الملك التى اراد فتحاتها اضيق ما يكون !

احزاب الاقلية والتى شاركت القصر رغبته فى تضييق الفتحة ، وقد تنوعت هذه الاحزاب ، بدءا بالحزب الوطنى الذى كان يحزن زعماؤه ما اصاب الحزب من انكماش شعبى بعد الثورة التى قادها الوفد ! ومرورا بالاحرار الدستوريين اول الاحزاب المنشقة عن الوفد . والذى رأى زعماؤه منذ البداية ان اية معركة انتخابية سيخوضونها مع الوفد ستكون معركة غير متكافئة مهما واتتهم الفرص ، وانتهاء بالاحزاب التى اصطنعها القصر لتأييد سياساته ، والتى شهدت تلك الحقبة حزبين منها .. الاتحاد الذى تشكل عام ١٩٢٥ ، والشعب الذى ألفه اسماعيل صدقى بعد ذلك بخمس سنوات .

على الجانب الاخر كان هناك (الوفد) الذى كان يعيش اكثر فتراته شعبية ، والذى كان يرى زعماؤه على رأسهم قائد الثورة سعد زغلول ان هذه الشعبية يجب ان تترجم عن نفسها من خلال صناديق الانتخابات التى يجب ان تتسع فتحاتها لكل مصرى ، الامر الذى استهجنه خصومه الذين رأوا انه يسعى لحكم الغوغاء ، واتهموه بانه زعيم للرعاع ، وهى التهمة التى لم ينكرها الرجل !

على الجانب الاخير وقفت دار المندوب السامى تراقب

وتتدخل كلما اعتقدت ان ما تقرره صناديق الانتخاب قد تؤدى الى اضرار بالمصالح البريطانية فى مصر ، من خلال اتيانها بقوة قد تكون معادية لهذه المصالح ! (انظر الفصل السابع)
وبين هذه القوى دارت المعارك !

المعركة الاولى سجلتها لنا مضابط مجلس النواب الاول ، وهو المجلس الذى حصل فيه الوفد على اغلبية ساحقة (٩٠ فى المائة) رغم كل القيود !

فقد تقدمت « لجنة الحقانية » بالمجلس فى جلسة ٢ يوليو بمجموعة من التعديلات على القانون الانتخابى لعام ١٩٢٣ كانت تستهدف جميعها « فك القيود »

التعديل الاول : عمل على القضاء بضربة مباشرة على طريقة الانتخاب ذات الدرجات « لان من اثرها تطويل مدة الانتخاب وتعقيدها وحصر الوكالة الانتخابية فى ايدى فريق قليل من الناس وهذا مخالف لمبدأ الانتخاب العام الذى يجب عملا بالدستور ان يتخذ اساسا لنظام الانتخاب كما ان من اثره تسهيل المساومة فى الاصوات .. فلهذا نرى ان يكون الانتخاب على قاعدة التصويت المباشر سواء فى ذلك الانتخاب لمجلس النواب او لمجلس الشيوخ »

التعديل الثانى : سعى الى القضاء على قيد (السن) فقد رأت اللجنة انه من الناحية الواقعية كان الحق الذى اعطى لمن سنه « احدى وعشرون سنة حقا يكاد يكون صوريا لانه ما كان يشترك مباشرة فى انتخاب عضو مجلس النواب ولا عضو مجلس الشيوخ ، وكان من نتائج هذا حصر انتخاب عضو مجلس النواب فى يد عدد لا يكاد يزيد على الخمسمائة ممن بلغوا سن الخامسة والعشرين ، وكذلك حصر حق انتخاب

عضو مجلس الشيوخ فى يد عدد لايكاد يزيد على الثلثمائة ممن بلغوا سن الثلاثين » وقد اوصت اللجنة بتقليل سن الناخب الى عشرين سنة ، وقد أعتمدت فى ذلك على ان « سن الرشد عندنا يبدأ مبكرا (١٨ سنة) على غير الحال فى بلد مثل انجلترا (٢٥ سنة)»

وبينما كان البرلمان الاول يسعى الى فك القيود فانه على جانب آخر تمسك باحد حقوق المجلس التى اقرها دستور عام ١٩٢٣ الذى جعل لهذا المجلس حق قبول الطعن فى انتخابات اعضائه ، وكان لهذا التمسك اسبابه .

فقد كانت جريدة « السياسة » الناطقة بلسان « الاحرار الدستوريين » قد شنت حملة على الطريقة الحزبية المتعسفة التى واجه بها المجلس مسألة النظر فى الطعن فى صحة احد اقطابهم ، وهو محمد محمود باشا ، الامر الذى كلف الرجل عضويته ، وقد دعت فى هذه الحملة ان يكون النظر فى تلك الطعون من اختصاص محكمة الاستئناف .

واذا كانت هذه الحملة قد وجدت صداها فى اعمال اللجنة ، فان تلك الاعمال قد خلفت اثرها فى اثارة المعارك السياسية حول ما يجرى منها ، فقد رأت الدوائر السياسية المعارضة لحكومة زغلول انه يسعى من وراء ذلك الى هيمنة الرعاع فيما قرره المندوب السامى البريطانى فى تقرير له جاء فيه بالحرف الواحد « ان هذا القانون قد اتاح السيطرة النهائية على الانتخابات للطبقات الجاهلة التى لاتملك القدرة على تكوين الاراء السياسية وبالتالى تقع تحت رحمة المهيجين الحزبيين ، بالاضافة الى استخدام الرشوة والتخويف ، والوفد لا ينقصه اى عنصر من هذه العناصر »!

وباقرار مقترحات اللجنة وتحولها الى قانون انتهت المعركة الاولى ولكنها لم تكن المعركة الاخيرة !.

المعركة الثانية جرت خلال النصف الثانى من عام ١٩٢٥ ويمكن تسميتها « بالمعركة الزيورية » نسبة الى احمد زيور رئيس الوزارة التى ادارت هذه المعركة .

وزارة زيور كانت قد تشكلت بعد اسقاط وزارة الشعب بعد الانذار الشهير الذى قدمه الانجليز لسعد زغلول فى اعقاب حادثة اغتيال السير لى ستاك ، ولم يمض وقت طويل حتى تبين المراقبون ان الوزارة الزيورية بعد ان اعيد تشكيلها فى مارس عام ١٩٢٥ مجرد « لعبة للقصر » مما دعاهم الى ان يسموا زيور « باحمد الصغير » دلالة على تبعيته « لاحمد الكبير » ، الملك فؤاد ، خاصة وان الوزارة قد تألفت اساسا من شخصيات معروفة بعدائها للوفد مثل اسماعيل صدقى وزير الداخلية .. ومن احزاب تشكلت اساسا لهدم الحزب الشعبى .. حزب الاحرار الدستوريين وحزب الاتحاد الذى اقامه الملك فى نفس السنة .

وبهذه الحزمة من القوى المعادية للوفد جرت ثانى انتخابات فى هذه الحقبة ، وهى انتخابات تم الاعداد لها ، وقد تضمن جانب من هذا الاعداد استصدار مرسوم ملكى بالغاء التعديلات التى كان قد ادخلها البرلمان الوفدى عليه ، والعودة الى قانون الانتخاب على درجتين الصادر بمقتضى دستور عام ١٩٢٣ ، كما تم الاستعداد لها بضغوط ادارية واسعة مارسها وزير الداخلية السىء السمعة !



محمد محمود باشا اثناء خروجه من البرلمان بصحبة علي ماهر

رغم ذلك جاءت المفاجأة يوم ٢٣ مارس عام ١٩٢٥ ، ففى صبيحة هذا اليوم عقد البرلمان الجديد اولى جلساته وقد اعتقد حكومة زيور انها صاحبة الاغلبية فيه ، غير انها فوجئت بانتخاب « زعيم الرعاع » سعد باشا زغلول رئيسا للمجلس ، مما ادى الى حله فى نفس يوم انعقاده وكان اقصر البرلمانات فى تاريخ مصر ، فلم يزد عمره عن ثمان ساعات ! (انظر الفصل السابع)

وقد اثبت هذا الحدث انه رغم الضغوط الادارية ، فان قانون ١٩٢٣ لم يعد صالحا للقوى المعادية للوفد ، حتى بعد ان تم تخليصه من التعديلات التى كانت تقوى من كلمة « الرعاع » فى المعركة الانتخابية وشرعت الحكومة الزيورية بدعم من الملك فؤاد وبتشجيع من اللورد لويد المندوب السامى فى وضع قانون جديد للانتخابات .

وعند هذا الحد نلجأ لوثيقة سرية يروى فيها لويد القصة الكاملة لهذا القانون .. قال :

« تشكلت لوضع القانون لجنة وزارية برئاسة اسماعيل صدقى وعضوية كل من حلمى عيسى وعلى ماهر وعبد العزيز فهمى وتوفيق دوس ومحمد على ، وقد اقترحت التغييرات الاساسية الاتية :

أ ـ « رفع سن الناخبين الى ٢٥ سنة وان يكون هذا الحق للناخبين بين ٢٥ و٤٠ سنة مقصورا على من يحوز ملكية معينة او يدفع جنيهين على الاقل ضريبة سنوية او يقطن منزلا ايجاره على الأقل ٢٤ جنيها سنويا او من هو حاصل على شهادة عالية »

ب ـ « اعادة نظام الانتخاب غير المباشر »

جـ ـ « احالة مسألة الطعون فى الانتخابات الى محكمة الاستئناف بدلا من النواب انفسهم »

ويبدو ان هذا المشروع كان متطرفا الى الحد الذى جعل دار المندوب السامى ترفضه فقد كان فيما قدره المسئولون فى هذه الدار سوف يحرم مابين نصف وثلاثة اخماس الناخبين بمقتضى قانون ١٩٢٣ من حق الانتخاب ، وهوامر لن يمر بسهولة .

استجابة لتحذيرات لويد اعادت الحكومة الزيورية صياغة القانون وهى صياغة استبقت الحد الادنى من عمر الناخب (٢٥ سنة) الا انها خفضت المدة التى تنطبق فيها اشتراطات الملكية والتعليم الى خمس سنوات بحيث اصبح من حق اى مصرى التصويت بدون شروط عند سن الثلاثين كما تم ايضا تعديل شروط الملكية فقد سمح لمن تتراوح اعمارهم بين ٢٥ و٣٠ بالتصويت اذا كانوا يدفعون ضريبة قدرها جنيه واحد سنويا او ايجارا لبيت قدره ١٢ جنيها سنويا . اكثر من ذلك فقد نص على قيام كل ٢٠ ناخبا بانتخاب مندوب عنهم ، وكان العدد ٣٠ فى القانون السابق .

وقد تمخض عن هذه الاستجابة ان اقتصر عدد المستبعدين من الناخبين على ما يتراوح بين ١٠ و١٥ فى المائة فحسب ، وصدر القانون على هذا النحو ، ورغم ذلك لم تكتب له الحياة ، فقد كانت قد جرت خلال تلك الشهور مياه كثيرة تحت الجسور !

فمن ناحية كانت حكومة زيور قد وقعت اتفاقية الحدود

الغربية مع ايطاليا فى ديسمبر ١٩٢٥ والتى سلمت فيها يحغبوب ، الواحة المصرية ، للجانب الايطالى مما اثار عاصفة من الاحتجاجات ضدها زعزعت من مركزها على وجه التأكيد .

ومن ناحية اخرى كان الاحرار الدستوريون قد خرجوا من الوزارة بعد الصدام بينهم وبين بقية الوزراء حول قضية كتاب « الاسلام واصول الحكم » وهو الكتاب الذى ألفه الشيخ على عبد الرازق ، واثار عليه القصر والمحافظين ، وخرج معهم اسماعيل صدقى ، وقد تنصل الجميع من القانون الذى اصدرته الوزارة !

اخيرا فكان قد تشكل ائتلاف من الوفد والاحرار الدستوريين مارس ضغوطا على الوزارة لم تؤد فقط الى الغاء قانون الانتخاب الذى اصدرته بل اجبرها على اجراء الانتخابات على اسس القانون الذى وضعه برلمان عام ١٩٢٤ ، وكانت اول انتخابات تجرى فى مصر بنظام الاقتراع المباشر ، وهى الانتخابات التى اطاحت بحكومة زيور بعد ان اطاحت بقانونه !

المعركة الثانية جرت فى عهد صدقى (١٩٣٠ ـ ١٩٣٤) والذى استهله ليس بتغيير القانون وانما بتغيير الدستور برمته !

وقد جاء قانون الانتخاب الملحق بدستور صدقى الصادر فى ٢٢ اكتوبر عام ١٩٣٠ ، وبه كل عيوب قوانين زيور واكثر !

فهو قد اعاد نظام الانتخاب على درجتين وشبهه بالمرشح الذى يعطى ماء اشد نقاء وصفاء دون ان يغير

ينبوعه »! فجعل كل خمسين ناخبا ينتخبون مندوبا يسمى بالمندوب الخمسينى ، واشترط فى هذا المندوب الناخب ان يكون مالكا لاموال ثابتة مربوطا عليها ضريبة عقارية او ساكنا فى منزل لايقل ايجاره السنوى عن اثنى عشر جنيها او حاصلا على الشهادة الابتدائية !

وكانت حجته فى ذلك ان التغيير الذى تقرر بالاخذ بالاقتراع المباشر تم « بغير مناقشة جدية وبطريق التشريع العادى بالرغم من انه وقد جعل الانتخاب ذو الدرجتين من بنية الدستور كان لايجوز على اى حال تغيير النظام القديم بغير طريقة تعديل الدستور »

وهو قد زاد من الحد الادنى لسن الانتخاب فاصبح ٢٥ سنة ، بزيادة اربع سنوات عن السن الذى حدده قانون ١٩٢٣ ، وخمس سنوات عن السن الذى حدده برلمان عام ١٩٢٤ ، مما كان يحدد من عدد الناخبين .

وهو قد حرم « كل من يزاول احدى المهن الحرة » فى بلد غير القاهرة من حق الترشيح ، فيما تضمنته المادة ٢٧ من قانون الانتخاب والتى جاء فيها ..

« لا يجوز للاتى ذكرهم ان يرشحوا انفسهم او ان ينتخبوا نوابا :

١ ـ القضاة واعضاء النيابة الا اذا استقالوا مقدما من وظائفهم بالكتابة .

٢ ـ الذين يزاولون احدى المهن الحرة فى بلد غير القاهرة ».

وهو بذلك منع المحامين والصحفيين والاطباء والمهندسين والتجار المقيمين فى الثغور والاقاليم والذين كانوا يشكلون العمود الفقرى للوفد ، من ان يكونوا اعضاء فى البرلمان .

وكان من الطبيعى ان تقاوم القوى الوطنية قانون صدقى وتقاطع انتخاباته ، فلم يدخل تلك الانتخابات سوى الحزب الذى الفه صدقى وهو حزب الشعب ، مع بقايا الحزب الملكى الذى كان قد تألف على عهد زيور ، وهو حزب الاتحاد ، ثم الحزب الوطنى الذى كانت تربطه بالقصر علاقة خاصة منعته من ان يقاطع التجربة الصدقية باعتبارها تجربة ملكية بالاساس .

● ● ●

وينتهى عهد الملك فؤاد وتتغير استراتيجية القصر فى العهد الجديد ، ولم يكن من بين جوانب هذه الاستراتيجية تغيير الدستور او قوانين الانتخاب .

جانب من هذه الاستراتيجية تمثل فى اللجوء الى التزييف الصريح للانتخابات فيما لجأت اليه حكومة محمد محمود عام ١٩٣٨ وهى الانتخابات التى جرت فى ظل كل القوانين التى حارب الوفد من اجل اصدارها ، والتى لم يحصل الوفديون الا على عدد من المقاعد يتجاوز قليلا اصابع اليدين !

جانب اخر قام على تفتيت الوفد الذى شهد خلال تلك الحقبة اكبر انشقاقين فى تاريخه ، الهيئة السعدية عام ١٩٣٨ ، والكتلة الوفدية عام ١٩٤٣ . .

جانب ثالث نتج عن الضعف الذى ألم بالحزب الكبير بعد

توقيع زعامته على معاهدة ١٩٣٦ مما اطفأ كثيرا من وهج الحركة الوطنية التى كان يقودها .

ولم تعد مع كل ذلك ثمة حاجة للدخول فى معارك جديدة من اجل تعديل نظام الانتخاب او تغييره !

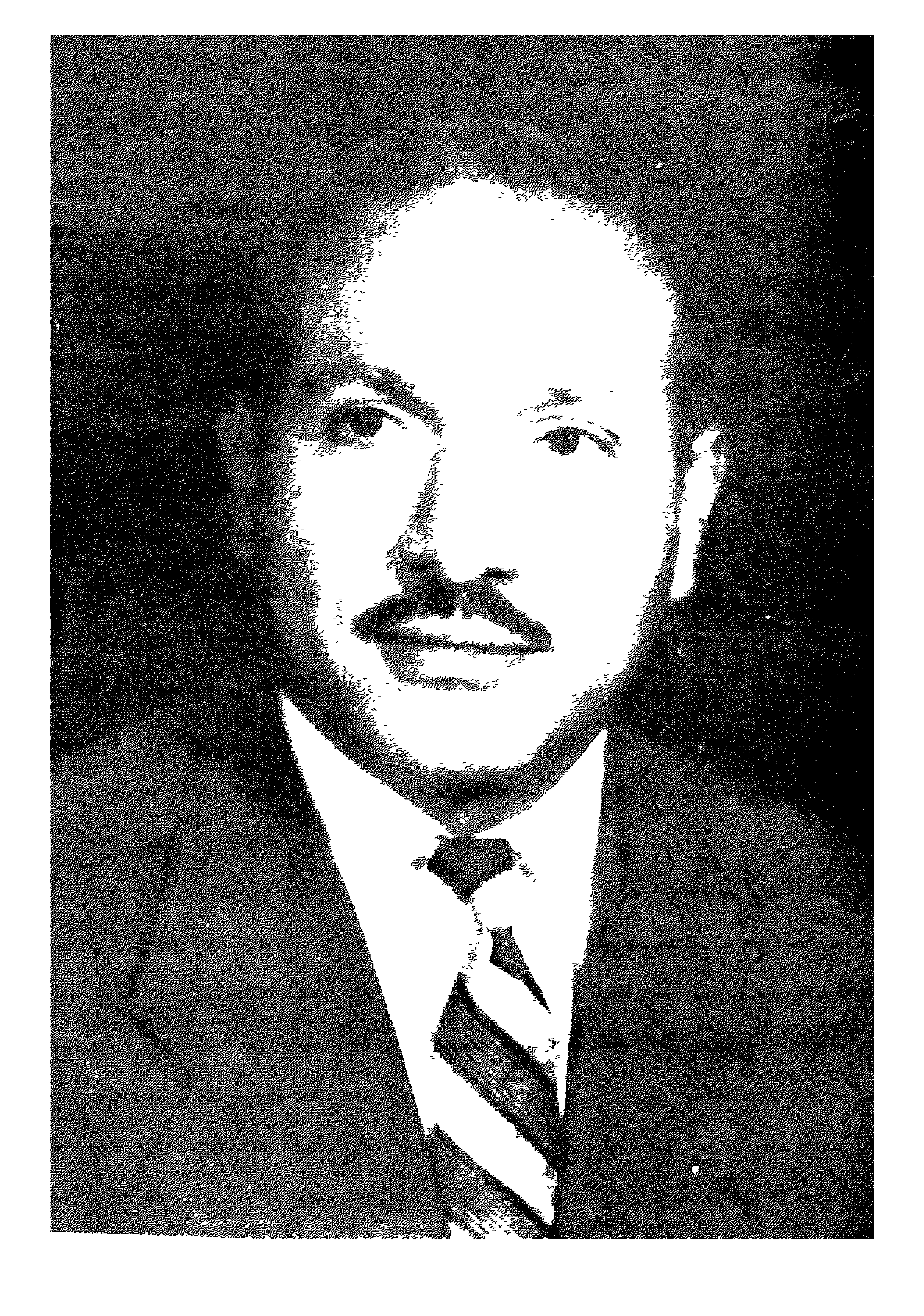
الفصل الثالث

الدخول بالقائمة !

دخول البرلمان المصرى « بالقائمة » ، ثم العدول عن هذا النظام فيما شهده العقد « الثالث عشر » من تاريخ نظام الانتخابات المصرية يمثل فصلا من رواية تستحق التسجيل ، تلكم هى رواية ثورة يوليو مع النظام الانتخابى ، بل والحياة البرلمانية برمتها ، وهى رواية من ثلاثة فصول !

الفصل الاول استغرق اغلب سنى الثورة الاربعين ، بين قيامها فى مطلع الخمسينات وحتى منتصف السبعينات ، بينما شغل الفصل الثانى السنوات الثمان التالية (١٩٧٦ - ١٩٨٤) ثم تأتى السنوات الست الاخيرة فيما يمكن ان نسميه سنوات الصراع حول « الدخول بالقائمة او بدون قائمة »!

فبالرغم مما تضمنته مبادىء الثورة الستة التى اعلنت مع سنيها الاولى من « اقامة حياة ديمقراطية سليمة » وبالرغم ايضا مما يذكره المعاصرون لتلك السنوات المبكرة من الخمسينات من ملصقات امتلأت بها الشوارع المصرية وقد حملت صورة احد الضباط وقد كتب تحتها « نحن نحمى



عبداللطيف البغدادى .

سور » ، بالرغم من هذا وذاك فقد سار « العهد الجديد »
ى نمط مخالف تماما لم يلبث أن اسفر عنه بعد وقت غير
يل رفع شعار « رغيف الخبز قبل تذكرة الانتخاب » وكان
هذا التغير اسبابه .

واذا كان لكل عصر من العصور الثلاثة التى عرفها تاريخ نظام الانتخابى فى مصر فلسفته حيال هذا النظام ، فقد جاء جال ثورة يوليو بفلسفتهم رغم انف المبادىء المعلنة والشعارات الملصقة !

هذه الفلسفة كانت ببساطة شديدة تقوم على فكرة التأكيد على « وحدة الامة » تجاه اعدائها ، وان هذه الوحدة لها اسبقية على ما عداها من الاعتبارات ، حتى ولو كانت الحياة الديمقراطية !

وبغض النظر عن كل ماقيل بعد ذلك من ان الفلسفة المذكورة كانت « حصان طروادة » الذى اخفى داخله ما اسموه « بالدكتاتورية الناصرية » فان حالة التناحر الحزبى التى كانت قد بلغت ذروتها فى السنوات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية ، وحتى قيام الثورة ، صنعت مناخا كان المصريون على استعداد معه لقبول هذه الفلسفة ، بل والترحيب بها ، خاصة من هؤلاء الناس العاديين الذين يشكلون من نسميهم بالاغلبية الصامتة ، والذين كانوا يشعرون بلا شك ان ذلك التناحر قد اخر « نيل المطالب الوطنية » فى وقت حصلت فيه شعوب قريبة وبعيدة على تلك المطالب فيما شهدته سنوات ما بعد الحرب الثانية ، خاصة بعد استقلال الهند عام ١٩٤٧ .

عموما فقد كانت هذه نقطة البداية ، وفى ظلها بقيت مصر بدون برلمان لاربع سنوات ، وهى اطول فترة يتم خلالها اغلاق ابواب هذه المؤسسة النيابية منذ ان نشأت عام ١٨٦٦ ، رغم تناقض العهود واختلاف المسميات .

صناعة البطل ..

وكان ماجرى خلال هذا الاغلاق يقود الى مزيد من اسباب ضعف هذه المؤسسة .. فقد تم ابان تلك الاعوام الاربعة « صناعة البطل »!

ويمكن ان نرصد بعض الاحداث التى ادت الى الاسراع بهذه الصناعة ، الاول منها اتصل بالنجاح فى التعامل مع القضية الوطنية بعد ان تم التوقيع على اتفاقية الجلاء فى اكتوبر عام ١٩٥٤ ، والتى كانت اول معاهدة يضع الانجليز توقيعهم عليها يقرون فيها باخراج قواتهم من البلاد التى كانت قد جاءت اليها قبل اكثر من سبعين عاما ، والثانى ما ترتب على خروج عبد الناصر منتصرا من ازمة مارس فى نفس العام وازاحة محمد نجيب ، والثالث جاء مع نجاته من محاولة اغتياله فى ميدان المنشية بالاسكندرية وسريان حالة من التعاطف العام بعد هذه النجاة ، ثم جاء الحدث الاخير والاهم متمثلا فى الصمود امام العدوان الثلاثى الذى اتم صناعة « البطل » على المستوى العربى وليس مجرد المستوى المصرى ، وفى التاريخ يتقاضى الابطال فى العادة الثمن !

وكان الثمن رصيدا لحساب السلطة التنفيذية وخصما من حساب السلطتين الأخريين . خاصة السلطة التشريعية ، فقد

اختفت قواعد اللعبة السياسية القديمة وحلت محلها قواعد جديدة .

كانت القواعد القديمة تقوم على اساس ثلاثة اطراف ، الملك والانجليز والحركة الوطنية ، وبينما تم التخلص خلال تلك السنوات الاربع من الطرفين الاولين ، فقد اختزلت القيادة الجديدة الحركة الوطنية فى ذاتها . ولعل ذلك يفسر سر التضخم الظاهر الذى بدأ منذئذ يقترن بمؤسسة الرئاسة على حساب الوزارة والبرلمان ، وكانا المؤسستين اللتين تعبر الحركة الوطنية عن وجودها فيهما .

وفى ظل هذه الظروف صدر الدستور الاول للثورة ، دستور ١٩٥٦ ، والذى اعتبر دستورا مؤقتا ، ويمكن ان نرصد انعكاس المتغيرات على النظام الانتخابى فى هذا الدستور فى اكثر من جانب .

اولا : فقد ارسى قاعدة جديدة لم تكن معروفة فى قوانين الانتخاب السابقة ، وهى قاعدة الاستفتاء ، بحكم ما حملته هذه القاعدة من حرمان الناخب من حق الاختيار ، وتركت له حق الموافقة او الموافقة !

ثانيا : اصبح « الاتحاد القومى » الذى حل محل « هيئة التحرير » مسئولا عن عملية الترشيح للبرلمان الجديد الذى تكون من مجلس واحد هو مجلس الامة ، بمعنى اخر انه لم يعد ثمة تنافس حزبى فى النظام الانتخابى الجديد ، لسبب بسيط وهو انه لم يعد هناك احزاب .

ثالثا : تم توسيع قاعدة الناخبين على نحو لم يسبق له مثيل ، فقد انخفض سن الناخب الى ١٨ سنة ، كما تقرر لاول مرة

منح المرأة حق الانتخاب ، اكثر من ذلك اصبح اداء الواجب الانتخابي اجباريا بالنسبة للذكور يتعرض من لا يؤديه لعقوبة قررها القانون !

وبينما عمد القانون الجديد الى هذا التوسع فى ادخال مصريين جدد فى الحلبة الانتخابية فقد استبعد ابطال الحلبة القدامى من خلال قانون اخر كان قد صدر فى نفس العام هو قانون « تنظيم مباشرة الحقوق السياسية » الذى حرم من ممارسة حق الانتخاب والترشيح كل من « صدرت ضدهم احكام من محاكم الثورة ومحاكم امن الدولة والخاضعين لقرارات الحراسة والتأميم ومن افسدوا الحياة السياسية قبل الثورة وافراد اسرة الملك فاروق »

وكان معنى ذلك ببساطة ادخال عناصر غير فاعلة فى الميدان الانتخابى ، اقل خبرة واكثر قبولا للنظام الجديد بحكم انه حقق مصالحها على الاقل ، واستبعاد العناصر الاكثر تمرسا والاكثر عداء فى الوقت نفسه للنظام الثورى .

اضافة الى ذلك فقد منح القانون الجديد مؤسسة الرئاسة حق تعيين نسبة من اعضاء المجلس ، وكان نظام التعيين معروفا خلال الحقبة السابقة على مستوى مجلس الشيوخ ولكن لم يكن معمولا به على مستوى مجلس النواب ، وكان انتحال هذا الحق على اية الاحوال يعكس صورة اخرى من صور تعاظم قوة المؤسسة الرئاسية .

اخيرا مما يلفت النظر فى هذا القانون انه قد اعاد التصريح « للعسكريين » بالعودة الى الميدان .. ميدان الانتخاب نعنى (!!) وهو ميدان كانت قد استبعدتهم منه كافة قوانين الانتخاب السابقة ماعدا قانون الثورة العرابية

(١٨٨٢) وهى عودة مفهومة على ضوء طبيعة الثوار الجدد ، وهى العودة التى ادت فى الوقت نفسه الى تمثيل عسكرى قوى فى البرلمان الجديد الذى كان يديره من الناحية الواقعية هؤلاء !

وخلال السنوات بين صدور الدستور المؤقت (١٩٥٦) والدستور المؤقت الثانى (١٩٦٤) كانت الامور تسير بنفس الاتجاه ، ونتيجة للتطورات السياسية التى عرفتها تلك السنوات الست !

فقد شهدت تلك السنوات الاتحاد مع سوريا ثم الانفصال ، وكان عدد من اقطاب الحركة الانفصالية من قيادات الاتحاد القومى السورى ، وهو التنظيم الذى فرضه عبد الناصر على الاقليم الشمالى بعد حل الاحزاب ثمنا لقبوله الوحدة ، وهى قد شهدت صدور القوانين الاشتراكية والتى كانت من اسباب تجميع القوى المضادة فى سوريا ، وهى قد شهدت اخيرا زيادة حجم الوجود المصرى فى اليمن بما ترتب على ذلك من تجمع مضاد لهذا الوجود شعرت القيادة المصرية معه ان الداخل مستهدف .

وكان من بين ما قرره « الميثاق الوطنى » عام ١٩٦٢ قيام الاتحاد الاشتراكى محل الاتحاد القومى وحلول قوى سياسية جديدة محل القوى السياسية القديمة ، الفلاحين والعمال والمثقفين والرأسمالية الوطنية .

وادت عملية « الفرز الاجتماعى والسياسى » التى جرت خلال تلك الفترة الى اعادة صياغة قوانين الانتخاب على نحو تقنن معه نوعية المسموح لهم بالدخول الى مجلس الامة .

فقد زادت نتيجة لهذه القوانين قاعدة الفئات المحرومة من حق الدخول ، خاصة بعد التطبيق الواسع للقوانين الاشتراكية . فقد تقرر في الوقت نفسه ان يصبح نصف اعضاء المجلس من العمال والفلاحين ناهيك عن وضع ضوابط صارمة على احتمالات ادخال اى عناصر معادية للثورة من خلال ماتقرر من ان قبول اوراق اى مرشح يتوجب ان يكون مرفقا بموافقة « الاتحاد الاشتراكى ».

وقد واجهت تلك الاجراءات انتقادات شديدة من القوى المعادية لعبد الناصر ، فقد رأوا انه لم يضعف فحسب بذلك السلطة التشريعية وانما احالها الى مجرد « اداة » للسلطة التنفيذية ، وان المقصود ليس انصاف « العمال والفلاحين » وانما احلال قوى « موافقون .. موافقون » محل القوى التى تملك القدرة على المعارضة .

وقد استثمر هؤلاء صورة الفلاح عضو مجلس الامة الذى قفز سعيدا بعد اعلان عبد الناصر عدوله عن التنحى عن منصبه بعد حرب يونيه ١٩٦٧ ، وهى الصورة التى كانت موضوع غلاف مجلة التايم الامريكية الشهيرة .. استثمروه للتأكيد على مقولتهم بالطبيعة المأسوية « للامية السياسية » لهذه الفئات الجديدة التى افردت لها القوانين الانتخابية هذا المكان المميز .

على أى الأحوال ، وبالرغم من الاتهامات والاتهامات المضادة .. بل وبالرغم من هزيمة يونيه عام ١٩٦٧ وما تمخض عنها من حالة القلق التى عبرت عنها الفئات الطلابية فى مطلع العام التالى ، والتى دعت إلى اصدار بيان ٣٠ مارس بما تضمنه من وعود بالمشاركة الشعبية بعد ازالة اثار

العدوان .. بالرغم من هذا وذاك فقد استمرت القوانين التى صدرت مع دستورى عام ١٩٥٦ و ١٩٦٤ هى التى تصوغ النظام الانتخابى فى مصر حتى رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠ .

الصراع على السلطة وانعكاساته :

الفصل الثانى يبدأ بمشهد الصراع على السلطة الذى اعقب وفاة عبد الناصر بين الرئيس الجديد انور السادات ، وبين نائب الرئيس على صبرى ومجموعة من اطلق عليهم وقتئذ مراكز القوى الذى ادى الى نتيجتين اثرتا اشد التأثير على نظام الانتخابات المصرى .

النتيجة الاولى : تمخضت عما كان لابد ان يصيب « الاتحاد الاشتراكى » من ضعف نتيجة لخصومة الرئيس الجديد له ، بحكم ان منافسيه قد تترسوا وراء تنظيمات هذا الاتحاد يوجهوا منها سهامهم له ، وكان متوقعا ان يؤدى هذا الاضعاف الى تآكل اهم الصمامات الفاعلة فى الابقاء على نظام الانتخاب القائم .

النتيجة الثانية : ان الرئيس الجديد فى سعيه لتشويه صورة خصومه بعد ان اطاح بهم اراد ان يقدم نفسه للرأى العام المصرى باعتباره نصير الديمقراطية فى مواجهة خصومه اصحاب السمعة السيئة فى هذا الميدان ، ولم يكن بالامكان الابقاء على القوانين القديمة مع طرح هذه الصورة الجديدة .

اضافة الى كل ذلك فان اختفاء "البطل" من على المسرح

كان يعنى ان ثمة تغييرا قادما فى الطريق ، وان هذا التغيير لابد وأن يصيب النظام الانتخابى المصرى ، وهو أمر لم يتأخر كثيرا ..

ففى أغسطس عام ١٩٧٢ صدر قانون لتعديل المادة الثانية من قانون "تنظيم مباشرة الحقوق السياسية" ، وهى المادة الخاصة بالفئات المحرومة من مباشرة الحقوق السياسية ، وقد قصرها تقريبا على أولئك المدانين قضائيا .

وكان معنى ذلك أن الباب الذى ظل موصدا بامتداد العشرين عاما السابقة أمام بعض القوى الاجتماعية التى عادتها الثورة ، وكانت قوى فاعلة بحكم التكوين والتاريخ .. ان هذا الباب قد تم فتحه !

من ناحية أخرى فقد أسقط الشرط الخاص بضرورة الحصول على موافقة "الاتحاد الاشتراكى" للمرشحين (لمجلس الشعب) ، بعد أن تغير اسمه ، وهو تغيير كان مستهدفا من ورائه الايماء على التوجه الديموقراطى للرئيس الجديد .. وكان اسقاط هذا القيد خطوة أخرى فى الاتجاه الجديد !

ومضى الرئيس السادات فى طريقه خاصة بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وقد اعتقد ، بحق ، ان قراره بشن هذه الحرب الناجحة ، قد وفر له قدرا من الشعبية أراد استثماره ..

من هنا جاءت الدعوة عام ١٩٧٤ الى حوار قومى "لتطوير الاتحاد الاشتراكى" تمخض عنه قيام "منابر ثلاثة" تحولت فى نوفمبر عام ١٩٧٦ الى أحزاب .

النصف الثانى من السبعينات أيضا شهد أحداثا أخرى كان لابد وأن تخلف بصمتها على "النظام الانتخابى المصرى" .

فمن ناحية عرفت تلك السنوات هذا (التغير الدرامى) فى التوجهات الاقتصادية والاجتماعية للثورة ، فسادت سياسة الانفتاح التى أتت بطوفان من أصحاب المشاريع ، الكبيرة أو الصغيرة ، الحقيقية أو غير الحقيقية ، الانتاجية أو الطفيلية .. كان لابد أن يترتب على هذا التغيير ظهور قوى جديدة ساعية الى اسقاط أى قيود تمنعهم من الوصول الى السلطة .

وربما كانت أهم هذه القوى الرأسماليين الجدد القادمين من البلاد العربية البترولية ، والتى أعادت تنظيم جماعة الاخوان المسلمين ، ربما بتشجيع خفى من السادات ، والمثقفين ، خاصة من المحامين ، والذين تركزوا على وجه الخصوص فى الوفد ، وكانت لديهم الخبرة القانونية التى تمكنهم من تحدى القوانين الانتخابية القائمة !

ومن ناحية أخرى تم توقيع (كامب ديفيد) عام ١٩٧٨ ، ثم معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية فى العام التالى ، وما تقرر بعد ذلك من تحريم العمل السياسى على أية جماعة تناهض هذه الاتفاقات !

وقد صنعت تلك الأحداث جوا صراعيا فى الفترة الممتدة بين عامى ١٩٧٦ و ١٩٨١ حين انتهى العهد الساداتى ..

فقد أدخلت أول انتخابات تجرى خارج التنظيم الواحد عناصر قوية فى مجلس عام ١٩٧٦ . وقد حملت هذه العناصر

بقوة على السادات سواء لمعارضتها لبعض مظاهر الفساد التى تفشت مع السياسة الانفتاحية أو لرفضها لكامب ديفيد .

وفى هذا المناخ أراد السادات التراجع ، فحل المجلس وأصدر قانون "حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى" ، وكان هدفه واضحا باخراج القوى التى كانت قد عادت لميدان العمل السياسى .

فقد جاء فى المادة الرابعة من هذا القانون عدم جواز مباشرة الحقوق أو الانشطة السياسية لكل من تسبب فى افساد الحياة السياسية قبل الثورة سواء "بالاشتراك فى تقلد المناصب الوزارية أو فى قيادة الأحزاب أو ادارتها" .

ويمكن توصيف هذا العمل من جانب الرئيس السادات "بالتراجع المستحيل" لأنه كان من ناحية ضد المناخ العام الذى أسهم فى صنعه ، بالاندفاع الى الغرب أو بسياسة الانفتاح ، أو لأن رائحة "المصلحة الشخصية" للرئيس فى هذه القوانين كانت قوية للغاية ، وهى رائحة بدت فى استثنائه لأحزاب بعينها من هذا الحظر ، كما بدت فى المادة الثامنة من نفس القانون التى منح نفسه من خلالها حق "العفو أو الاستثناء" لمن يرى انه يستحق ذلك .

ولعل حكم المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية هذه المادة بعد أقل من ثلاثة أسابيع من صدور القانون يؤكد على طبيعته المناقضة للتطور العام ، بيد أن الرئيس كان مصمما على السير فى طريقه مما بدا فى انتخابات عام ١٩٧٦ السيئة السمعة ، ومما حدث فى قرارات سبتمبر من العام التالى التى أنهت العهد الساداتى نهايته المأسوية المعروفة !

القائمة ومضاعفاتها :

. احداث الفصل الثالث جرت فى الثمانينات التى يمكن توصيفها بأنها عقد (التجربة والخطأ) فى تاريخ النظام الانتخابى فى مصر الحديثة .

واذا كنا نحاول القيام باصدار أحكام تاريخية على ما قبل هذا العقد فلا نظن أننا سنحاول ذلك بالنسبة لهذا العقد بحكم أن التجربة لازالت قائمة ، وان كنا نأمل ألا يستمر الخطأ !

من ثم فان كل ما نملكه بالنسبة لهذا العقد هو "محاولة للتشخيص" وليس محاولة لاصدار الحكم على تجربة لم تنته بعد ، وبينما يتسم الحكم بقدر كبير من (اليقينية) فان التشخيص يتصف بقدر غير قليل من (الاحتمالية) .

وانطلاقا من محاولة التشخيص فاننا نرى أن مؤسسة الرئاسة فى عهد مبارك سعت الى ارساء "صيغة توفيقية" فى الحياة السياسية كانت لابد أن تنعكس على النظام الانتخابى .

وتبدو هذه الصيغة التوفيقية من الابقاء على حزب للحكومة ، بل ورئاسته ، فى نفس الوقت السماح لحرية العمل الحزبى ، ولكن بقدر من الكوابح !

تبدو أيضا فى القبول باسقاط أى من القيود التى كانت مفروضة على حق أى مصرى فى الانتخاب أو الترشيح مع الابقاء على نسبة النصف من العمال والفلاحين !

ونظن أن مجموعة القوانين التى صدرت خلال هذا العقد



د . رفعت المحجوب

انما كانت تسعى الى تأكيد هذه الصيغة ، حتى وان كانت قد فشلت فى ذلك لأسباب نراها !

القانون الأول الصادر عام ١٩٨٤ بأن تجرى الانتخابات البرلمانية على أساس القائمة ، وقانون عام ١٩٨٧ الذى جاء هجينا بين نظام الانتخاب بالقائمة ونظام الانتخاب الفردى ، ثم القانون الأخير الصادر فى سبتمبر الماضى بالعودة الى نظام الانتخاب الفردى .

وعند القول أن هذه القوانين جاءت من منطلق توفيقى فاننا نعتمد فى ذلك على فقيه قانونى مصرى قديم ، هو وايت ابراهيم بك ، الذى ألف قبيل الثورة كتابا تحت عنوان "نظامنا الانتخابى كما هو وكما يجب أن يكون" تناول فيه ما أسماه "مزايا الانتخاب بالقائمة" .

خلاصة هذه المزايا التى أوردها "وايت بك" ان هذا النظام يقوى العمل الحزبى لأنه من ناحية يشترط التنظيم الحزبى ، ومن ناحية أخرى يدعم سيطرة الأحزاب على أعضائها ، ثم انه يساعد على تعدد الأحزاب من ناحية ثالثة . اضافة الى ذلك فانه يخفف من تدخل الادارة ويساعد على تشكيل مجالس متوازنة .

ونرى ان القانونى المصرى القديم كأنما كان يقرأ المستقبل فيما بدا من نظام الانتخاب بالقوائم الذى تم وضعه بعد صدور كتابه بأكثر من ثلاثين عاما ، ولكن !

اضعف من المحاولة التوفيقية سياسات قصيرة النظر لحزب الحكومة الذى استمر اقطابه يتصرفون بروح نظام

« الحزب الواحد » وظلوا معتمدين فى ذلك على دعم ادارى واضح !

اضعف منها ثانيا ذلك الشكل المعقد فى احتساب الاصوات ، سواء على مستوى الاصوات المتبقية من الاحزاب التى لم تحصل على النسبة الكافية لادخالها المجلس ، او على مستوى القسمة بين العمال والفلاحين وبين الفئات ، مما جعل المسألة اشبه بحسبة برما ومما جعل « كمبيوتر » وزارة الداخلية محل سخرية على نطاق واسع !

اضعف منها ثالثا هذا الدور النشط الذى قام به المحامون على الجانبين .. محامو الحكومة الذين تفننوا فى ادخال التعقيدات الى الحد الذى بدل المحاولة التوفيقية الى محاولة تلفيقية » ! ومحامو المعارضة الذين انبروا للقانونين طعنا امام المحكمة الدستورية وتمكنوا من اثبات عدم دستوريتهما !

اضعف منها اخيرا موقف حزبى من جانب اغلب قوى المعارضة رافض لمحاولة التوفيق ، وهو الموقف الذى تجسد فى قرار تلك الاحزاب مقاطعة الانتخابات الاخيرة .

ومازالت المعركة مستمرة والحالة تتطلب مزيدا من التشخيص !.

الفصل الرابع

تحت القبة .. مستقلون !

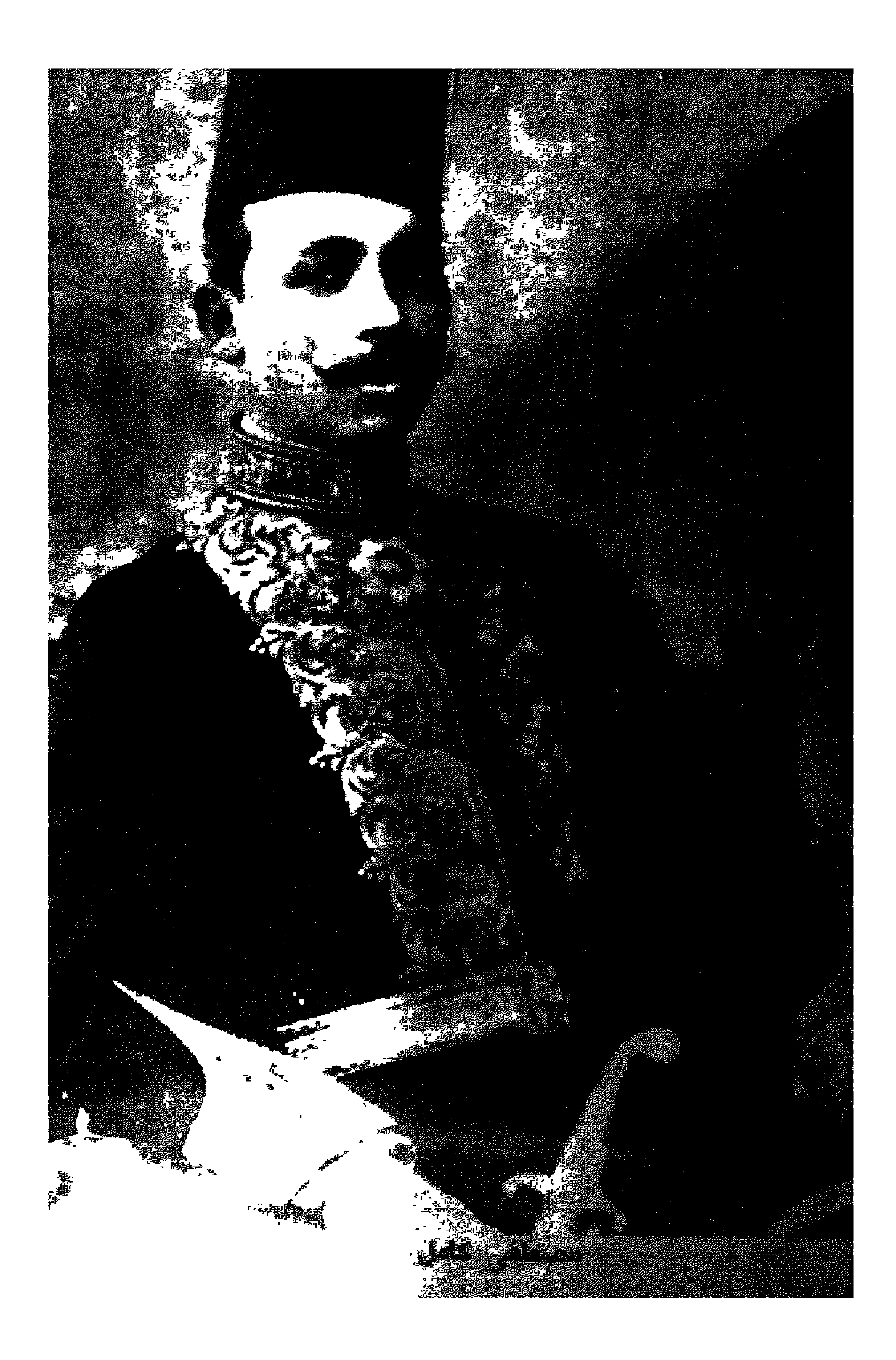
استفحال ظاهرة وجود المستقلين فى انتخابات ١٩٩٠ ، وما يستتبع هذا من « وجود بارز » لهؤلاء فى البرلمان المصرى أمر يقتضى تقليب صفحات التاريخ بحثا عن اصول الظاهرة فى محاولة لتفسيرها .. لعل وعسى !

وقبل هذا التقليب ينبغى الاعتراف بان هذه الظاهرة لا تأتى شأنها فى ذلك شأن اى ظاهرة تاريخية اخرى .. لا تأتى منقطعة الصلة عن ظواهر اخرى محيطة .

فهى لا تأتى مثلا منقطعة الصلة عن « وجود حزبى » ظاهر ومحدد بحكم ان هؤلاء مستقلون عن هذا الوجود ، وعدم تواجد الاحزاب يعنى ببساطة ان لا مجال لحديث عن مستقلين وغير مستقلين تحت القبة ، فالكل عندئذ سواء !

ثم ان هذه الظاهرة متصلة على الجانب الاخر « بحياة حزبية نشطة » بمعنى ان هناك علاقة عكسية بين النشاط الحزبى وبين استفحال الظاهرة ، سواء تم تحجيم هذا النشاط بارادة رجال الاحزاب انفسهم او بارادة اخرين !

اضافة الى ذلك فان هذه الظاهرة ابنة شرعية احيانا وغير



شرعية فى اغلب الاحوال للفهم الصحيح او الخاطىء لنوعية العلاقة التى من المفروض ان تقوم بين العمل الشعبى ، ممثلا فى الاحزاب وبين المؤسسة التشريعية ، خاصة عندما تنبثق مؤسسة تنفيذية كبرى مثل الوزارة عن هذه المؤسسة الاخيرة .

يتصل ايضا الصراع على « مقعد تحت القبة » من اولئك من غير المنتمين للاحزاب برزمة من المفاهيم الخاطئة التى شاعت فى العمل السياسى ، ورغم ما اشرنا اليه من استفحال اخير للظاهرة فان مثل هذه المفاهيم كانت سائدة ومنذ وقت طويل ، وهى كلما مر الوقت ازدادت انتشارا وازدادت سوءا كالامراض الوبائية وبدلا من محاصرتها منذ وقت مبكر فان مرور مثل هذا الوقت يأتى فى صالحها .. صالح المفاهيم المغلوطة فى البحث عن مكان تحت القبة !

ويثير الدهشة ان تمر السنون منذ أن نشأ النظام البرلمانى فى مصر عام ١٨٦٦ فيأتى المحتلون ويذهبون وتسقط عروش وتقوم جمهوريات ، وتختفى قوى اجتماعية وتحل قوى اجتماعية جديدة .. وكما يقول البعض تمر مياه كثيرة تحت الجسور مما هو مفروض ان يستتبعه قدر من التغيير .. ويأتى فعلا التغيير ، ولكن فى الاتجاه المعاكس !

★ ★ ★

ويظلم الكثيرون التاريخ البرلمانى المصرى عندما يتحدثون عن نشأته الاولى ويرون انه قد ولد ولادة مبتسرة بحكم انه لم ينبثق عن منافسة حزبية وانما تكون من « العمد والمشايخ » من اهل الريف ووجوه المدن واعيانها ، وكان هذا التكوين

اسبه بالاختيار منه بالانتخاب ، فيما ارتأوه ، وهم بهذا قارنوا بينه وبين المجالس النيابية التى كانت قائمة فى الامم البرلمانية العريقة مثل انجلترا وفرنسا وقت نشوئه ، وهو ظلم وأى ظلم !

اذ تؤكد متابعة تاريخ تلك المجالس انها عندما نشأت قبل المجلس المصرى باكثر من خمسة قرون قد نشأت من اولئك الذين احتلوا نفس مكانة الشيوخ والعمد والوجوه والاعيان بمسميات اخرى .. لوردات وبارونات وما الى ذلك من ألقاب لعصور الوسطى الاوربية ، وكان هؤلاء وبعد تطورات تصادية واجتماعية طويلة هم الذين صنعوا الاحزاب التى دافع عن مصالحهم ودخلوا من خلالها المجالس النيابية ، وشىء قريب من هذا كاد يحدث فى مصر ابان السنوات السبع السابقة على قيام الحرب العالمية الاولى (١٩٠٧ - ١٩١٤).

الجميع مستقلون

ففى خلال تلك السنوات عرفت الساحة السياسية المصرية ظهور العديد من الاحزاب ، الحزب الوطنى الذى اسسه مصطفى كامل ، حزب الأمة الذى أنشأه مجموعة الأعيان المصريين ، حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية الموالى للقصر ، وكانت نسبة كبيرة من أعضاء المجلسين النيابيين القائمين أعضاء فى تلك المجالس ، وكان متوقعا أن نشهد السيناريو البرلمانى الذى حدث من قبل فى الأمم البرلمانية العتيدة .. ولكن لم يحدث !

الأسباب عديدة التى أدت الى عدم الحدوث ، فالتاريخ لا يكرر نفسه بحكم اختلاف الظروف ..

فحتى يحدث أن تدخل الأحزاب الناشئة المجالس النيابية القائمة كان مطلوبا حد أدنى من استقلالية هذه المجالس ، وهو الأمر الذى لم توفره لها سلطات الاحتلال ، وهو أيضا ما نادى اليه الحزب الوطنى الذى طالب بمجالس نيابية حقيقية ، وليست تلك المجالس الصورية ، وهو ما رفضه الانجليز بتصميم .. اذن فوجود قوة استعمارية قد حال دون اكتمال السيناريو ، وهو مالم يحدث فى الأمم البرلمانية الأوربية .

اضافة الى ذلك فان فكرة الصراع الاجتماعى التى نشأت فى احضانها عملية التنافس الحزبى حول دخول البرلمانات كانت غائبة عند بعض أطراف العمل السياسى ، وكانت من قبيل الترف الذى لا تحتمله قوى وطنية رأت أن ذلك مما يمزق الصف الوطنى ويمكن من استمرار الوجود الاحتلالى .

الجماعة السياسية الوحيدة التى فطنت الى هذه الحقيقة كانت حزب الأمة من "الأعيان والوجهاء والمثقفين" ، فقد وجد هؤلاء انهم بعد تشكيل حزبهم يستحوذون على الأغلبية داخل الجمعية العمومية (١٩ من بين الـ ٤٦ عضوا المنتخبين) ، وإغراهم ذلك على الدخول بحزبهم الى الجمعية ، وهو مالم يسمح به النظام والذى أكدته وقائع جلسة مجلس شورى القوانين المنعقدة فى ٣١ يناير عام ١٩١٠ .

فقد حدث فى هذه الجلسة أن كان النقاش يدور حول طرد صحفى من رجال الحزب الوطنى من الجلسة ، وعندما وقف على باشا شعراوى وكيل حزب الأمة وعضو المجلس يؤيد هذا الطرد وقال أنهم لا يعتبرون المسألة حزبية مطلقا فسأله الرئيس عما يقصد "بنحن" فقال أقصد أعضاء حزب الأمة الموجودين بالمجلس ـ فقال الرئيس : لا يوجد فى المجلس

أحزاب مختلفة ـأم يعلن شعراوى بأكثر من طلبه باسمه وباسم اخوانه ترك الكلام فى هذا الموضوع ، واستمر هذا الترك لنحو عقد ونصف !

وبامتداد هذه الفترة كان وجود الأعضاء داخل المجالس شبه النيابية انما يتم بصفتهم الشخصية وليس نتيجة للبرامج أو انتماءات حزبية ، مما يمكن القول معه أن تلك المجالس قد تكونت من مجموعة من المستقلين .

★ ★ ★

حزبيون ومستقلون :

فيما هو معلوم فقد أرسى دستور عام ١٩٢٣ المبدأ الديموقراطى بعلاقة عضوية بين الأحزاب والبرلمان ، وهى علاقة تقوم على خوض الانتخابات تمثيلا لحزب بعينه ، بكل ما يستتبع ذلك من وجود حزبى فى البرلمان ، ومن وجود "أغلبية" و "أقلية" تبعا لعدد المقاعد التى ينالها كل حزب ، بل وأكثر من ذلك أن الحزب الفائز هو الذى يسند اليه "جلالة الملك" تأليف الوزارة .

ويبدو مدى التمسك بهذا المبدأ من رصد ظاهرة عرفتها الحياة السياسية خلال تلك الحقبة .. ظاهرة انشاء أحزاب فى ظروف بعينها للاستيلاء على البرلمان ، وهى سياسة اختطها قصر عابدين فى عهد الملك فؤاد على وجه الخصوص .

حدث هذا مرتين ، أولاهما عام ١٩٢٥ بانشاء "حزب الاتحاد" لدخول الانتخابات التى كان مزمعا أن تجرى فى مارس من نفس العام ، والثانية أواخر عام ١٩٣٠ عندما أسس

صدقى "حزب الشعب" ليدخل به الانتخابات التى جرت على أساس الدستور الجديد الذى ارتبط باسمه .

ويبدو من هذه الظاهرة كأنه لم يعد هناك ثمة مكان "للمستقلين" فى البرلمانات الحزبية التى تكونت خلال ذلك العهد ، وهو مالم يتحقق ، اذ تقول الاحصاءات بغير ذلك !

أول انتخابات التى ظهرت نتيجتها فى ٢٥ يناير عام ١٩٢٤ تقول أن المستقلين قد فازوا بستة مقاعد من ٢١٤ تشكل مجموع مقاعد البرلمان ، ورغم ما يبدو من محدودية هذا العدد فقد جاء هؤلاء فى المرتبة الثالثة بعد الأحرار الدستوريين الذين لم يفوزوا سوى بتسعة مقاعد !

انتخابات عام ١٩٢٦ التى جرت على ضوء تقسيم الدوائر بين الحزبين الكبيرين ، الوفد والأحرار الدستوريين ، ورغم ذلك فاز المستقلون بعشرين مقعدا .

انتخابات عام ١٩٣٠ حصل المستقلون فيها على ١٥ مقعدا ، وجاءوا بعد الوفد مباشرة ، خاصة وأن الأحرار الدستوريين فضلوا ألا يخوضوا المعركة الانتخابية بعد تجربة محمد محمود المريرة ، وهى التجربة التى عرفت بسياسة "اليد الحديدية" والتى عطل خلالها الرجل الحياة البرلمانية ، بل وأوقف العمل بالدستور ذاته !

أما الانتخابات التى جرت فى مايو عام ١٩٣١ على أساس دستور صدقى فقد حصل المستقلون فيها على ١٨ مقعدا من مجموع مقاعد مجلس النواب البالغة ١٥٠ مقعدا .

ونلاحظ هنا مرة أخرى أن الحزبين الكبيرين فى البلاد ، الوفد والأحرار الدستوريين ، قد قاطعا الانتخابات انطلاقا من

رفضهما للدستور الذى أصدره صدقى ، والذى جرت على أساسه انتخابات عام ١٩٣٠ .

انتخابات ١٩٣٦ حصل المستقلون على عشرة مقاعد وجاءوا فى الموقع الثالث بعد الوفد والأحرار ، وكان أكبر عدد من المقاعد حصل عليه المستقلون فى انتخابات عام ١٩٣٨ التى حصلوا خلالها على ٦٢ مقعدا من مجموع المقاعد البالغة ٢٦٤ مقعدا .
فى انتخابات عام ١٩٤٥ حصل المستقلون على ٢٩ مقعدا ، وفى انتخابات عام ١٩٥٠ حصلوا على ٣٠ مقعدا .

باختصار كان المستقلون موجودين فى كل البرلمانات التى تشكلت خلال الفترة التى يصطلح البعض على تسميتها بالفترة الليبرالية فى التاريخ المصرى المعاصر ، سواء فى ظل دستور عام ١٩٢٣ أو فى ظل دستور عام ١٩٣٠ وسواء فى ظل انتخابات حرة (١٩٢٤) أو انتخابات مزيفة (١٩٣٨) ، وسواء فى عهد الملك فؤاد أو فى عهد الملك فاروق !

صحيح أنه قد تراوحت نسبة وجودهم بين ٣ فى المائة وأكثر من ٢٣ فى المائة لكنهم كانوا موجودين دوما وهى ظاهرة تتطلب تفسيرا .

يتطوع المندوب السامى البريطانى فى القاهرة بتقديم جانب من هذا التفسير فى أعقاب انتخابات عام ١٩٢٤ ، اذ يسجل :

"كانت المسائل الانتخابية شخصية بالدرجة الأولى ولم تكن هناك تلك الخلافات الحزبية العميقة التى تميز الانتخابات فى الغرب وتقسم الناخبين . ولم يكن أمام هؤلاء بدائل

بالنسبة للبرامج الحزبية ، وغلب الطابع الشخصى على الخطب الانتخابية" !

اذن فغلبة الفردية وغياب البرامج كانا وراء صنع الظاهرة وفى تقديرنا انهما لازالا موجودين !

تسجل دار المندوب السامى سببا آخر لوجود المستقلين فى البرلمان المصرى عام ١٩٢٥ ، فيما ارتآه اللورد لويد من وجود عدد غير قليل من المترددين Waverers بين الانضمام للوفد والانحياز للحكومة ، وقد صنع هؤلاء أزمة شهيرة فى تاريخ البرلمان المصرى عندما تخلى بعضهم عن تردده ، أو استقلاله ، وانضم للوفد مما دفع بالحكومة الزيورية الى حل البرلمان بعد أقل من ثمان ساعات من انعقاده ! (انظر الفصل السابع)

وقد تراوح وجود المستقلين فى الانتخابات المصرية خلال تلك الحقبة تبعا لقوة زخم الحركة الوطنية ، فبينما كان يتآكل هذا الوجود بشكل ظاهر مع ارتفاع موجة المد الوطنى فيما نلاحظه من تضاؤل نسبتهم فى انتخابات عام ١٩٢٤ ، كان يتضخم على نحو ملحوظ مع انحسار هذه الحركة وانصراف المصريين الى مشاحناتهم الداخلية ، وما يستتبع ذلك من سيادة مناخ الـ "أنا" .

وفى هذا الصدد لا يمكن انكار دور المصالح الخاصة فى صناعة ظاهرة المستقلين فى الانتخابات المصرية ، وهو دور لا يمكن فصله عن الخريطة الاجتماعية الاقتصادية لمصر ، سواء قبل عام ١٩٥٢ أو بعده .

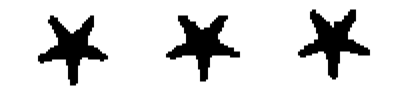
فالملكية الزراعية الكبيرة والنفوذ الأسرى وبقايا النظام

القبلى فى مناطق بعينها على الخريطة المصرية كانت أقوى كثيرا من أية تطورات سياسية عرفتها البلاد . اذ تؤكد دراسة المناطق التى جاء منها المستقلون بأنها كانت المناطق التى يتوفر فيها عنصر أو أكثر من العناصر السابقة !

وبينما تؤدى غالبية الأسباب التى دفعت بالمستقلين الى الجرى وراء مكان "تحت القبة" الى ادانة هذه الظاهرة ، فان هناك سببا واحدا على الأقل يدعو الى التعاطف معها خلال الفترة السابقة على عام ١٩٥٢ .

السبب ظاهر فى وجود فئة من المصلحين الذين رأوا أن احتفاظهم باستقلاليتهم هو السبيل الأمثل لبث دعاويهم الاصلاحية من تحت القبة ، وهى دعاوى كانت لا تحتملها برامج أو تراكيب الأحزاب القائمة ، ويقدم الداعية الاصلاحى المشهور "مريت غالى" النائب فى برلمان ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ نموذجا على ذلك ، من خلال مطالبته بتحديد الملكية الزراعية فى مارس عام ١٩٥٠ .

بيد أن ذلك يمثل استثناء عن القاعدة ، وهو الاستثناء الذى يؤكده ظاهرة تنقل المستقلين بين حزب وآخر تبعا لما قد يحققه هذا التنقل من صوالح خاصة ، وتبعا أيضا لغياب دور فعال فى حفظ التوازن بين القوى الحزبية داخل البرلمان ، وهو دور كان "المستقلون" مؤهلين للقيام به ولكن لم يفعلوا !



المستقلون بين الاختفاء والظهور

لنحو ربع قرن (١٩٥٢ ـ ١٩٧٦) توقف وجود المستقلين فى البرلمان المصرى ، الأمر الذى يعزى لغياب التواجد الحزبى تحت القبة نتيجة لسيادة نظام الحزب الواحد .

عادت الظاهرة الى الوجود فى الانتخابات التى أجريت خلال العام الأخير حين جرت أول انتخابات تنافست فيها المنابر الثلاثة ، وقد حصل المستقلون على ٤٨ مقعدا أو ما يعادل ١٤ فى المائة من جملة مقاعد مجلس الشعب .

تواجد المستقلون أيضا فى انتخابات عام ١٩٧٩ وان كانوا قد حصلوا على عدد أقل من المقاعد هذه المرة ، عشرة مقاعد فقط .

وبينما يشترك المستقلون فى هاتين المرتين فى الظاهرة السلبية التى تبدت فى انضمام أغلبيتهم لحزب الحكومة ، مصر فى المرة الأولى والوطنى الديموقراطى فى المرة الثانية ، فان جماعة منهم قد دفعت قدرا كبيرا من أسباب الحيوية فى عروق المجلس الأول على رأسها المستشار ممتاز نصار والدكتور القاضى .

ومعلوم ان هذه المجموعة من المستقلين كانت وراء السبب الذى دفع الرئيس السادات الى حل المجلس الأول من جراء ارتفاع أصواتهم المعادية لسياساته الداخلية والخارجية بهدف التخلص منهم فى انتخابات جديدة فقدت حيدة ونزاهة الانتخابات الأولى ، ولعل ذلك كان وراء انحسار وجودهم تحت القبة فى الانتخابات الثانية



د . صوفي ابو طالب

ومرة أخرى يعود غياب المستقلين من تحت القبة خلال الثمانينات نتيجة لما اتبع خلال هذه الحقبة من نظام الانتخاب بالقائمة ، وهو نظام لم يكن يسمح الا بالوجود الحزبى فى البرلمان .

ويمكن القول ان "المستقلين" ، أو بالأحرى غير المنضمين للأحزاب أو غير المشمولين برعايتها كانوا من أهم القوى التى حاربت هذا النظام ، وتمكنت من استصدار الأحكام التى ادت الى تراجع جزئى عنه عام ١٩٨٧ ثم العدول عنه تماما بعد ذلك بثلاث سنوات !

وكان من الطبيعى أن يترتب على نجاح هؤلاء ما يمكن أن نسميه "بالهجوم الكبير" من المستقلين الذى شهدته انتخابات ١٩٩٠ ، اذ تشير الاحصاءات المتوفرة ان نحو ٨٢ فى المائة من الذين خاضوا المعركة الانتخابية فى هذا العام من المستقلين !

وقد فرض هؤلاء بذلك وجودهم فى تلك المعركة على نحو غير مسبوق فى تاريخ البرلمان المصرى ، وهو الأمر الذى يتطلب تفسيرا ..

فى تقديرنا أن الأسباب القديمة لوجود الظاهرة لازالت قائمة ، فباستثناء حزب التجمع لا يمكن القول بوجود حزب فى الساحة يطرح برنامجا يدخل قلوب المصريين ، ناهيك عن عقولهم !، والفردية التى تصنع طموحات سياسية كاسحة ، بالاضافة الى أسباب أخرى مستجدة .

من هذه الأسباب مقاطعة بعض القوى السياسية الكبرى للانتخابات الوفد ، العمل ، الاخوان ، الأمر الذى دفع عددا

من المنضمين اليها لدخول المعركة الانتخابية بصفتهم مستقلين .

ينطبق الأمر أيضا على الوطنى الديموقراطى الذى لم تتسع الدوائر الانتخابية لترشيح كل الطامحين من أعضائه للحصول على مكان تحت القبة فخاضوا المعركة لحسابهم الخاص وليس تحت راياته !

ولعل أهم ما تدل عليه تلك الحقيقة هشاشة النظام الحزبى القائم ، وهو أمر يزداد تأكدا من عمليات الدخول والخروج من الأحزاب القائمة سواء قبل الانتخابات أو بعدها !

سبب جديد آخر لتضخم الظاهرة يتمثل فيما طرأ على الخريطة الاجتماعية من متغيرات ، خاصة النشوء المتعجل لطبقة الرأسمالية الجديدة بكل ما صاحب هذا النشوء من سلبيات انعكست على سمعة قطاع من أبناء هذه الطبقة ، وفى تقديرنا أن هؤلاء موجودون بقوة فى صفوف المستقلين ، يدعمهم فى ذلك قدرة كبيرة على مواجهة نفقات الحملة الانتخابية ، ورغبة عارمة فى التمتع بمزايا الحصانة البرلمانية !

وهى أسباب فى جملتها لا تدعو للتفاؤل !

الفصل الخامس

الحصانة البرلمانية
على الطريقة المصرية !

الفارق بين نشأة وتوظيف "الحصانة البرلمانية" فى الدول النيابية العريقة وبين نشأة وتوظيف هذا المبدأ القانونى الهام فى مصر هو الفارق بين "العام" و"الخاص" !

ودون الدخول فى تعقيدات الدراسات الأكاديمية ، فان هذه الفكرة تقول ببساطة أن "جرثومة التغيير المقدسة" هى أهم ما يصنع حركة التطور الانسانى ، وانه كلما نشطت هذه الجرثومة كلما أحرزت البشرية درجة أكبر من التقدم .

وتأسيسا على فهم هذه الحقيقة ، ولما كانت الأحزاب السياسية المتصارعة على دخول البرلمانات تمثل قوى اجتماعية واقتصادية ذات برامج متمايزة ، وهى البرامج التى تصنع لها فى النهاية شكلا من أشكال الوجود البرلمانى ، فى الأغلبية أو فى الأقلية ، ولما كان مطلوبا حماية أصحاب الأقلية ادراكا من الحقيقة التاريخية البسيطة بأن برنامجهم قد يصبح "برنامجا مستقبليا" وان حمايتهم عندئذ قد تكون حماية للمستقبل ، أو بالأحرى حماية للتغيير الذى يصنع هذا



على ماهر وتحية خاصة للدكتور طه حسين

التقدم ، مهما بدا فى هذا البرنامج وقت صدوره من "شذوذ عن المألوف" .

ووظيفة الحصانة البرلمانية فى هذه الحالة أن تحمى أصحاب برنامج "الأقلية" حتى يتمكنوا من التعبير عن مواقفهم داخل المجالس النيابية وأن يأخذوا فرصتهم كاملة ، ليس فقط كمبدأ من مبادىء الحرية ، وانما كاحتكام لحركة التغيير ، معها او ضدها ، وهو ما قد يكفل لهؤلاء أن يتحولوا مع الزمن ليصبحوا "أصحاب الأغلبية" أو يطويهم التاريخ فى صفحات النسيان ، فهل هذا ما حدث فى مصر !؟

لا سمح الله !

فى مصر تم الأخذ بمبدأ الحصانة البرلمانية منذ نشأة النظام النيابى عام ١٨٦٦ ، واستمر الأخذ به حتى يومنا هذا ، أى ان عمره بعمر الحياة النيابية المصرية ، قرن وربع أو يزيد .

فقد جاء فى المادة ٥٣ من اللائحة الأساسية لمجلس شورى النواب الصادرة عام ١٨٦٦ ما نصه : "فى مدة افتتاح مجلس الشورى وفى الأيام المحددة له لا تعمل دعوى على أحد من أعضائه بوجه من الوجوه الا اذا كان لا سمح الله حصل من أحدهم مادة قتل فطبعا لا يعد من أعضاء مجلس الشورى ويتعين بدله حسبما فى مادة ١٣ من اللائحة الأساسية" !

تكرر المبدأ فى المادة الرابعة من لائحة مجلس النواب الصادرة عام ١٨٨٢ ، والتى جاء فيها : "لا يجوز التعرض

للنواب بوجه ما واذا وقع من أحدهم جناية أو جنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز القبض عليه الا بأذن المجلس" .

ونصت المادة الخامسة من نفس اللائحة على أنه "لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما اذا ما وقعت من أحدهم جناية أو جنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز القبض عليه الا بأذن من المجلس" .

بعد أكثر من أربعين عاما وفى دستور عام ١٩٢٣ يتقرر مبدأن لحماية "الأقلية البرلمانية" ..

فى المادة ١٠٩ من هذا الدستور التى تقول : "لا يجوز مؤاخذة أعضاء البرلمان بما يبدون من الآراء فى المجلسين" ، والمادة التالية التى تنص على أنه "لا يجوز أثناء دور الانعقاد اتخاذ اجراءات جنائية نحو أى عضو من أعضاء البرلمان ولا القبض عليه الا بأذن المجلس التابع هو له . وذلك فيما عدا حالة التلبس بالجناية" .

نفس المبدأين تم اقرارهما فى المادتين ٩٨ و ٩٩ من آخر الدساتير المصرية ، دستور عام ١٩٧١ ..

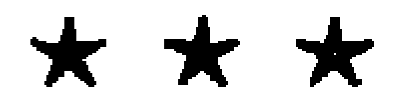
فالمادة ٩٨ تقول : "لا يؤاخذ أعضاء مجلس الشعب عما يبدونه من الأفكار والآراء فى أداء أعمالهم فى المجلس أو فى لجانه" .

غير أن المراقب يلاحظ أن المادة التالية قد تزيدت كثيرا فى اضفاء الحصانة البرلمانية على الأعضاء ، فقد جاء فيها : "لا يجوز فى حالة التلبس بالجريمة اتخاذ أية اجراءات جنائية ضد عضو مجلس الشعب الا بأذن سابق من المجلس . وفى

غير دور انعقاد المجلس يتعين أخذ اذن رئيس المجلس . ويخطر المجلس عند أول انعقاد له بما اتخذ من اجراء" .

ويبدو التزيد فى اضفاء هذه الحماية "فى حالة التلبس" ، وهو ما رفضته كل الدساتير السابقة من عام ١٨٦٦ الى عام ١٩٢٣ ، كذا فى "غير دور انعقاد المجلس" وهو مالم يقبل به دستور ١٩٢٣ .

هذا عن النصوص ولكن ماذا عن التطبيق ..



معارك ثلاث :

رغم وجود النص فلم تدع الحاجة الى تطبيقه فى ظل المجالس النيابية التى عرفتها مصر قبل الحرب العالمية الأولى لسبب بسيط ، وهو أن تلك المجالس لم تكن مجالس حزبية ، ومن ثم لم يكن هناك صراع المبادىء الذى يقتضى توفير "الحصانة البرلمانية" .

اختلف الحال مع المجالس التى أقيمت بمقتضى دستور عام ١٩٢٣ . والتى تشكلت انبثاقا عن انتخابات شاركت فيها الأحزاب القائمة ، بمعنى آخر أن تلك المجالس قد توفر لها الشكل ، ولكن ماذا عن المضمون !؟

هناك أكثر من ملاحظة حول هذا التساؤل ..

١ ـ أن الأحزاب التى شكلت تلك المجالس كانت بالأساس أحزاب "قضية وطنية" أكثر منها أحزاب برامج عقيدية ، أو أحزاب ايديولوجية ، وباستثناء دخول الأستاذ ابراهيم شكرى

آخر هذه المجالس عام ١٩٥٠ ممثلا للحزب الاشتراكى ، فان من بقي من أعضائها كانوا من ممثلى الأحزاب التقليدية أو من المستقلين .

٢ ـ كان من الطبيعى أن يدور الصراع بين تلك الأحزاب فى أحسن أحواله حول وسائل تحقيق "الاستقلال الوطنى" ، وفى أغلب ظروفه حول تحقيق انتصارات حزبية ضيقة مما أضفى على هذا الصراع طابع "التناحر الحزبى" . وكان مفروضا ، والحال هذا ، أنه ليس هناك محل لاستخدام الحصانة البرلمانية ، غير أنها استخدمت ، ولكن على الطريقة المصرية !

٣ ـ أدى وجود قوى سياسية ساعية الى الاسهام بقدر غير قليل فى الحياة السياسية المصرية ، الوجود البريطانى والقصر ، الى اتخاذ هذا الصراع منحا غير ذلك المنحى الذى اتخذته الحياة السياسية الأوربية ، ومن ثم أصبح للحصانة البرلمانية وظيفة أخرى غير تلك الوظيفة التى أنشئت من أجلها ، وهى الوظيفة التى دارت حولها أكثر من معركة تحفظها لنا مضابط مجلس النواب ..

المعركة (الأولى) تفجرت بعد اغتيال السردار السيرلى ستاك قائد الجيش المصرى فى نوفمبر عام ١٩٢٤ .

استتبع الحادثة توجيه انذار بريطانى مشهور الى حكومة سعد زغلول أفضى الى استقالتها ، فى نفس الوقت جرت حملة اعتقالات واسعة شملت من بين ما شملت خمسة من أعضاء مجلس النواب الذى لم يكن قد تم حله بعد .

كان على رأس المعتقلين شخصيتان من أبرز شخصيات

المجلس والوفد ، عبد الرحمن بك فهمى ووليم افندى مكرم عبيد مما كان لابد وأن يثير هؤلاء حق التمتع بالحصانة البرلمانية ، وقد حدث !

وهو الأمر الذى أزعج القيادة الوطنية حتى أن سعد زغلول علق فى مذكراته بقوله : "هال الناس أمر هذا الاستخفاف بدستور البلاد وقوانينها والاعتداء على الحصانة البرلمانية والحرية الشخصية" .

وأمام محكمة مصر انبرى مرقص باشا حنا ومصطفى باشا النحاس فى الدفاع عن النواب المقبوض عليهم ، وكانت فحوى مرافعة الرجلين ان هذا العمل منافى للدستور بحكم ما يتمتع به النواب من حصانة طوال فترة انعقاد الدورة ، وان اعتقال النواب باطل مادام قد تم بدون أخذ رأى المجلس .

جاء فى مرافعة النحاس باشا أن "نص الدستور صريح فى أن دور الانعقاد العادى ستة شهور ولا ينتهى الا اذا أعلن الملك فضه ، وقد ابتدأ الدور الحالى من يوم ١٢ نوفمبر فمدة الدور لم تنته ، وفضلا عن ذلك فانه لم يصدر مرسوم بالانتهاء فكل ما يتخلل هذا الدور من تأجيل واجازات لا يعنى فض الدور" .

وفند فى جانب آخر من المرافعة قول النيابة أن النواب المقبوض ضبطوا فى حالة تلبس ، وتساءل كيف تحدث جريمة اغتيال السردار يوم ١٩ نوفمبر ويقبض على النواب يومى ٢٧ و ٢٨ من نفس الشهر ، أى بعد نحو عشرة أيام من ارتكاب الجريمة ثم تدعى النيابة أنه قد تم القبض على المتهمين وهم فى حالة تلبس !

على الجانب الآخر كانت وجهة نظر النيابة أن المقبوض عليهم لا يتمتعون بالحصانة طالما أن "الغرض من الحصانة ينعدم فى فترة تأجيل المجلس" ، وأن المعارضة المقدمة من جانب المحامين قائمة على حجج شكلية ، وهى جهة النظر التى أخذت بها المحكمة التى أصدرت حكمها "بجواز اتخاذ الإجراءات التى اتخذتها النيابة العمومية بالنسبة لأعضاء البرلمان" .

وتكشف الوثائق البريطانية عن حقيقة غريبة وهى أن سلطات الاحتلال كانت تتأهب لفرض الأحكام العرفية على مصر لو كانت المحكمة وافقت على وجهة النظر القائلة بأن النواب المقبوض عليهم يتمتعون بالحصانة البرلمانية !

المعركة (الثانية) شهدتها قاعة مجلس النواب والذى خصص جلستيه يومى ٢٧ و ٣٠ ديسمبر عام ١٩٢٦ لبحث قضية الحصانة البرلمانية .

وكانت المناسبة النظر فى مكاتبة من "رئيس نيابة مصر بخصوص قضية حضرة النائب أمين همام حمادى افندى المتهم بالتحريض على قتل المرحوم محمد شرف افندى" !

وكان الموضوع الأساسى الذى بحثه المجلس فى هاتين الجلستين المطولتين ما اذا كان للنائب الذى تتخذ ضده اجراءات أو يقبض عليه قبل بدء دور الانعقاد أن يتمسك بالحصانة بمجرد افتتاح الدورة أم لا ؟ وهل للمجلس أن يتدخل فيطلب ايقاف الاجراءات والافراج عنه ؟

وبعد بحوث ضافية عن أصل الحصانة البرلمانية والمصادر التى أخذ عنها الدستور المصرى هذا المبدأ

خلصت اللجنة الفرعية التى شكلها المجلس الى قرارها وكان نصه :

"(أولا) أن النائب الذى تتخذ ضده اجراءات أو يقبض عليه قبل ابتداء الدور لا يتمتع بالحصانة اذا انعقد المجلس بل تستمر الاجراءات ويدوم القبض من غير حاجة لاستئذان المجلس للاستمرار فيها .

"(ثانيا) أنه ليس للمجلس فى هذه الحالة أن يتدخل فى الاجراءات أو فى القبض فيأمر بايقافها أو بالافراج عن النائب .

"(ثالثا) انه اذا بدأت الاجراءات ضد النائب قبل بدء دور الانعقاد من غير أن يقبض عليه ثم بدأ الدور واستدعت التحقيقات ضرورة القبض عليه فيجب فى هذه الحالة استئذان المجلس فى القبض .

"وبناء عليه يكون حضرة النائب أمين همام حمادى افندى غير متمتع بالحصانة بالنسبة للاجراءات التى اتخذت ضده قبل يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ الذى بدأ فيه دور الانعقاد الحالى ولا يملك المجلس التدخل فى هذه الاجراءات ولا فى أمر القبض الذى كان قد صدر ضده قبل ذلك" .

ووافق المجلس على قرار لجنته الفرعية .

المعركة (**الثالثة**) كانت معركة بحق ، وهى تلك التى جرت يومى ٢٠ و ٢١ أبريل عام ١٩٤٢ ، ابان احتداد مخاطر الحرب العالمية الثانية ، وبعد حادثة ٤ فبراير بأسابيع قليلة .

بطل المعركة كان "صاحب الرفعة على ماهر باشا" رئيس

الوزراء الأسبق ، وعضو مجلس الشيوخ ، وكان موضوعا وقتئذ فى القائمة السوداء للسلطات البريطانية بحكم ما كانت تراه فيه من ميول محورية وأنه وراء تغلغل مثل هذه الميول فى قصر عابدين .

وقد روى النحاس باشا ، بصفته رئيسا للوزراء تفاصيل القصة فى جلسة مجلس النواب ردا على استجواب تقدم به عبدالسلام الشاذلى باشا عضو المجلس .

قال رئيس الوزراء أنه قد طلب من على ماهر الاعتكاف فى "عزبته وأن يترك كل نشاط خارجى" ، وهو ما فعله عندما ذهب الى "القصر الأخضر" ، وبقى به ما يزيد قليلا عن شهر ، ولكن لم يحتمل أكثر من ذلك فغادره مرة الى القاهرة ، ومرة الى الاسكندرية ، مما أدى الى أن تصدر الأوامر بعدم مغادرته لهذا القصر بعد عودته اليه .

لم يطق رئيس الوزراء الأسبق ذلك مما ادى الى خروجه الى القاهرة فصدر الأمر باعتقاله ، غير أنه خرج من المنزل الذى يقيم به وقفز من السيارة التى كان يستقلها معه بعض رجال البوليس بعد أن وصلت الى السور الخارجى للبرلمان متوجها الى مجلس الشيوخ محتميا بما يتمتع به من حصانة ، واستمر رجال البوليس يحاصرون المجلس حتى خرج الرجل فاقتادوه الى سجن الأجانب .

وقد حرص النحاس باشا فى هذه المناسبة على أن يؤكد حرص الحكومة على حرمة المجلس وذلك فى البيان الذى أدلى به ، وكان مما جاء فيه :

"وبطبيعة الحال لم يتخذ أى اجراء أثناء وجود رفعته فى

المجلس ، ولكن أعدت الاحتياطات لاعتقاله عند مغادرته له وايداعه سجن الأجانب وفى أثناء ذلك قيل أن البوليس موجود داخل السور الخارجى ، ومع أن هذا السور لا يعتبر حرما للبرلمان ، لأن فيه وزارة المواصلات ووزارة الأشغال والجمعية الجغرافية فانى أصدرت الأمر بأن يقف البوليس خارج السور ، احتراما لكرامة البرلمان" .

وقد دارت فى هذه المناسبة مناقشات طويلة حول ما اذا كان من حق "الحاكم العسكرى" فى ظل الأحكام العرفية اصدار الأمر بالقبض على النواب اذا ما كانوا يشكلون خطرا على الأمن وجاء الجواب بالايجاب على ضوء السوابق لدى الدول البرلمانية العريقة ، وقد اشير فى هذه المناسبة الى قانون الدفاع الوطنى الصادر فى انجلترا عام ١٩٣٩ ، والذى أباح للسلطة التنفيذية القبض على من تستدعى مصلحة الدفاع الوطنى القبض عليهم دون أن يستثنى من ذلك أعضاء البرلمان "فلما اقتضت مصلحة الدفاع القبض على بعض الأعضاء ، قبض عليهم بمقتضى هذا القانون ، فلما رفع الأمر الى لجنة الامتيازات بمجلس العموم للفصل فيه قررت أن الحصانة البرلمانية لا تمنع السلطة التنفيذية من القبض على أعضاء البرلمان بمقتضى قانون الدفاع المذكور" .

وبعد المناقشات المطولة حول ما اذا كانت الحكومة قد انتهكت الحصانة البرلمانية أم لا ، أقر النواب أن النحاس باشا بصفته حاكما عسكريا فمن حقه اتخاذ أى اجراء "للمحافظة على النظام والأمن العام فى جميع نواحى المملكة المصرية" ماعدا تعطيل انعقاد البرلمان ، وان اعتقال "صاحب الرفعة على ماهر باشا" لا يخل بهذا الشرط !



مصطفى النحاس وحلمى باشا وزير المعارف العمومية

طغيان الأغلبية :

تشير المعارك الثلاث السابقة أن "الحصانة البرلمانية" لم تحم المستجيرين بها لسبب أو لآخر ، فمرة يكون السبب تأجيل البرلمان ، ومرة أخرى يكون السبب أن الاجراءات المتخذة تمت فى حالة عدم انعقاده ، ومرة أخيرة يكون السبب ما يتمتع به الحاكم العسكرى من صلاحيات .. غير ان الأخطر من كل هذه الأسباب كان مصادرة حق المعارضة وطغيان الأغلبية مما تكرر فى أكثر من أزمة من تلك الأزمات التى شهدتها قاعة مجلس النواب .

أزمة "الكتاب الأسود" وأزمة "الشيخ عاشور" وأزمة "أشرطة التنصت" تقدم الدليل على هذه الحقيقة التى فرضت نفسها فى كل العصور مما جعل للحصانة البرلمانية مذاقا خاصا !

الأزمة الأولى التى جرت عام ١٩٤٣ فى المعركة الشهيرة التى نشبت بين أشهر صديقين فى السياسة المصرية ، مصطفى النحاس ومكرم عبيد باشا نتيجة لما قام به الأخير من نشر "الكتاب الاسود فى العهد الأسود" ، والذى شهد فصولا متعددة كان أخطرها الفصل الذى جرى تحت قبة البرلمان .

والفصل طويل شهد تبادل السباب والتماسك بالأيدى بين أنصار الرجلين ، ولكن أهم ما يعنينا هنا أن "الحصانة البرلمانية" لم تحم مكرم ولا أنصاره من الاطاحة بهم من المجلس ، بل أن القرار الذى اتخذته الأغلبية بهذه الاطاحة تضمن عبارات قاسية مثل القول بأن المجلس "يعتبر مكرم

عبيد أسوأ مثل للنائب منذ أن قامت فى البلاد الحياة النيابية سنة ١٩٢٤" ، وذلك بعد أن كان الرجل قبل أسابيع قليلة "المجاهد الكبير" لدى شخوص هذه الأغلبية بعينها !

أزمة "الشيخ عاشور" هى تلك التى فجرها الشيخ عاشور محمد محمد نصر نائب دائرة الجمرك بالاسكندرية ، وعضو حزب الوفد الجديد ، فى مارس عام ١٩٧٨ ، عندما هتف فى احدى جلسات المجلس بسقوط أنور السادات ، وعندما لم يصدق رئيس المجلس أذنيه وسأل النائب "ماذا تقول" ؟ كرر هتافه ، ولم تنفعه مع هذه الفعلة أية حصانات .

ولم يفت اللجنة التى كلفت باسقاط عضوية الشيخ أن تشير أنها بذلك لا تخرق مادة الدستور القائلة "لا يؤاخذ أعضاء مجلس الشعب عما يبدونه من الأفكار والآراء فى أداء أعمالهم فى المجلس أو لجانه" ، فقد كان رأيها أنه "يوجد فرق شاسع بين ابداء الرأى ، وعرض الفكر والمناقشة الديموقراطية والحوار الحر السليم الذى تحميه وتقدسه أحكام الدستور وتحظر مؤاخذة أعضاء مجلس الشعب عليه اذا ما أبدوه أو مارسوه فى أداء أعمالهم فى جلسات المجلس .. وبين اطلاق القول والهتاف على عواهنه بما قد يتضمنه ذلك من اهانة وازدراء للدستور أو للمؤسسات الدستورية أو للهيئات أو الأشخاص العامة" .

الأزمة الثالثة هى أزمة "أشرطة التنصت" ، وهى الأزمة التى جرت على رءوس الأشهاد عام ١٩٨٩ بعد أن صورت وأذيعت بالتليفزيون !

والأزمة قريبة الى الحد الذى لا يتطلب استرجاع

أحداثها ، ولكن فيما رآه المشاهدون من أن أحد النواب الوفديين فى المجلس لم يحتمل مشاهد المسرحية التى كان يخرجها وزير الداخلية زكى بدر بالتشهير بعدد من زعماء المعارضة فهجم على الوزير وتشابك معه بالأيدى ، الأمر الذى كلف الرجل مقعده فى المجلس ، ولم يكن أمرا غير مسبوق !

ومن الصعب انهاء هذا الفصل القصير دون الاشارة الى حقيقة مؤداها ان التطورات الأخيرة فى مجال الحياة النيابية قد أضفت على المذاق المصرى لقضية الحصانة البرلمانية لذوعة زائدة ، الأمر الذى يمكن تبينه من حقيقتين ..

الحقيقة الأولى : ما جرى من تعيين بعض المسئولين فى السلطة التنفيذية فى مجلس الشورى الذى يتسع نطاق التعيين فيه ، ليس لهدف سوى حمايتهم من خلال الحصانة البرلمانية من أن تطولهم يد الأحكام التى صدرت فى حقهم نتيجة لعدم تنفيذهم بعض أحكام المحاكم الصادرة فى بعض مجالات اختصاصاتهم .

ومثل هذا الاجراء ، بالرغم مما قد يبرره من ناحية العمل الادارى ، الا انه من الوجهة النيابية يسىء لفكرة الحصانة أشد الاساءة ؛ فهو قد حولها من حماية المعارضة الى حماية الحكومة ، وهو أمر غريب ويقينا لم يكن ليخيل لواضعى هذا المبدأ أنه يمكن أن يستخدم على هذا النحو !

الحقيقة الثانية : التى كشفتها انتخابات عام ١٩٩٠ أن عددا من المرشحين لم يكن يسعى للفوز بمقعد مجلس الشعب "للنيابة عن الأمة" فيما هو مفروض ، وانما كان يجرى وراء

الكرسى لحمايته مما يمكن أن يصيبيه على يد العدالة فيما لو طالته نتيجة لخروجه عن طريق القانون .

ولا تشير الى ذلك الشائعات فقط ، وهى شائعات واردة فى ظل هذا الصراع العنيف الذى عرفته تلك الانتخابات ، والذى لم يكن للأسف صراعا على برامج أو مبادىء ، وانما تشير اليه وتؤكده الأموال الطائلة التى انفقها بعض المرشحين فى دوائرهم ، مما لابد وأن يثير التساؤلات عن مصدر تلك الأموال وعن السبب الذى يدفع أصحابها الى انفاقها على هذا النحو الباذخ دون أن تكون لهم سابق صلة بالعمل السياسى !

ويبقى القول أن تلك الحقائق تشى بوجود داء عضال يهدد مسيرة الحياة النيابية فى مصر ، وهو داء لا ينبغى التنبيه اليه فقط بل يتوجب التخلص منه ، وفى أقرب وقت !

الفصل السادس

البرلمان الأول ١٩٢٤

بالرغم من كل ما كتب عن برلمان الفصل التشريعي الأول ، أو برلمان الشعب ، تبقى التساؤلات محيطة بتاريخ هذا البرلمان .

يتصل بعض هذه التساؤلات بالانتخابات التي تمخض عنها تكوين هذا البرلمان ، ويتصل بعضها الآخر بالدور الذي كان على هذا البرلمان القيام به من حيث وضع التقاليد البرلمانية ، ثم هناك الجانب الآخر من تلك التساؤلات الخاص بتوصيف هذا البرلمان .. وهل هو برلمان الشعب كما أسمته الأغلبية الوفدية أم برلمان دكتاتورية الأغلبية كما رآه معارضوها ، أضف الى كل ذلك التساؤلات الخاصة عن حقيقة العلاقة بين برلمان الشعب وحكومة الشعب !

ويمكن تلمس الاجابة عن كل هذه التساؤلات وغيرها في السطور القادمة ..

الانتخابات الأولى :

نشرت "الوقائع المصرية" في ٣٠ أبريل عام ١٩٢٣



د . محمد حسين هيكل وعبدالعزيز باشا فهمى .

القانون الانتخابى الذى كان بمثابة طلقة البدء فى السباق الانتخابى الأول .

وقد احتوى القانون على ٢٨ مادة تنظم انتخاب مجلسى الشيوخ والنواب ، وكان أهم ما لوحظ فيه مؤثرا فى طبيعة المعركة التى دارت على أساسه :

(١) الانتخاب غير المباشر من خلال المندوبين الانتخابيين (انظر الفصل الثانى)

(٢) غياب أى شرط علمى بالنسبة للمرشحين فى المجلسين ، ويلاحظ المسئولون فى دار المندوب السامى البريطانى انه بينما كان يشترط فى عضو الجمعية التشريعية أن يكون على الأقل ملما بالقراءة والكتابة ، فقد اختفى هذا الشرط بالنسبة للبرلمان الجديد .

(٣) واستمرارا على نفس الخطة وتنفيذا لنفس الهدف اشترط القانون ان يكون اسم مرشح النواب مقيدا فى كشوف الانتخاب فى المديرية أو المحافظة التى يرشح نفسه فيها . وقد قصد من هذا الشرط ، على حد تعبير المندوب السامى "منع غزو المديريات بجيش من الدخلاء Carpet beggers القادمين من القاهرة والاسكندرية ، ومن يكون هؤلاء الدخلاء سوى رجال الوفد !؟

★ ★ ★

فى الشهر التالى - مايو ١٩٢٣ - بدأت اجراءات وضع القانون موضع التنفيذ من خلال اعداد جداول قيد الناخبين حين دعت وزارة الداخلية من له حق الانتخاب بالتقدم لقيد اسمه . ومرة أخرى تلاحظ دوائر دار المندوب السامى ان

الوزارة قد مدت ميعاد القيد من ١٦ الى ٢١ مايو ، وتعزو ذلك الى "ضعف اقبال الناخبين على تقييد اسمائهم اعتقادا منهم ان الغرض من القيد فرض ضريبة أو اعداد كشوف للتجنيد الاجبارى .. الخ .."

وتدليلا على أن معركة البرلمان الأول قد بدأت مع صدور القانون ان الوفد هو الذى أخذ على عاتقه حث الناس على قيد اسمائهم "من خلال حملة منظمة قام بها من على منابر الجوامع أو فى أعمدة الصحف وأهم من ذلك الدور الذى قام به الطلاب فى المقاهى وغيرها لاقناع الناخبين" . ويمكن القول ان ما حدث خلال عملية قيد الناخبين كان بمثابة جولة مبكرة للمعركة الانتخابية ، وهى جولة فاز بها رجال زغلول دون شك !

وتصدر الاحصاءات الرسمية للناخبين فى اواخر مايو ، ومن خلال قراءة لهذه الاحصاءات يتضح مايأتى :

(١) ان مجموع المقيدين من المصريين وصل الى ٢,٧٢٦,٧٦٨ من مجموع السكان البالغ ١٢,٤٦٦,١٩٢ أى بنسبة ٢١,١ فى المائة .

(٢) فى المحافظات الخمس (القاهرة ، الاسكندرية ، القنال ، السويس ، ودمياط) البالغ عدد سكانها ١,١١٥,٢١٩ تم قيد ٢٦٩,٢٣٧ بنسبة وصلت الى ٢٣,٣ فى المائة ، وقد بلغت هذه النسبة أعلاها فى محافظة القنال حيث كانت ٣٨,٣ فى المائة ، بينما وصلت الى أدناها فى محافظة دمياط بنسبة ١٩,٣ فى المائة .

(٣) وكانت النسبة أقل فى المديريات الأربع عشرة حيث

وصل عدد المقيدين الى ٢٫٤٥٧,٥٣١ من عدد السكان البالغ ١١,٢٥٩,٩٧٣ بنسبة ٢١,٨ فى المائة ، وكانت أعلى نسبة قيد فى مديريتى المنوفية وجرجا حيث بلغت ٢٣,١ فى المائة ، وكانت أقلها فى بنى سويف بنسبة ٢٠,٨ فى المائة .

هذا عن الناخبين ، أما عن الدوائر فقد بلغت ٢١٤ دائرة كان نصيب المحافظات منها عشرين والمديريات ١٩١ وبقيت ثلاث لمناطق الحدود ، وقد تمتعت القاهرة بالعدد الأكبر من الدوائر (١١) بين المحافظات ، واحتلت الغربية المكانة الأولى (٢٨) بين المديريات . وبين هؤلاء الناخبين وحول دوائر الانتخابات دارت المعركة الأولى لتكوين البرلمان !

★ ★ ★

كانت انتخابات برلمان ١٩٢٤ أول انتخابات فى تاريخ مصر تجرى على أساس حزبى ، وقد خاضتها الأحزاب الثلاثة التى كانت معروفة وقتئذ ، مما يستحق وقفة صغيرة عند كل منها باعتبارها القوى التى صنعت المعركة الانتخابية .

كان (الحزب الوطنى) اقدم هذه الاحزاب ، والحقيقة انه كان وقتئذ اقرب الى شعاث حزب منه الى حزب كبير ، صحيح انه قد حاول بعد ايام قليلة من صدور قانون الانتخاب فى ٨ مايو على وجه التحديد لم شعاثه واختيار رئيس جديد له غير ان سنوات النفى الطويل كانت قد ارهقته ، ثم ان التغيرات الثورية التى عرفتها مصر خلال تلك السنوات كانت كافية لانخراط من تبقى من انصاره فى التيار الوطنى الجديد الذى قاده الوفد .

يلى ذلك فى الترتيب الزمنى (الوفد) وقد تجمعت لديه من امكانات الفوز ما لم يتوفر لدى الحزبين الاخرين ، ابتداء من قيادة الحركة الثورية التى تفجرت عام ١٩١٩ والتى لم تكن قد بردت بعد ، ومرورا بزعامة اسطورية امكنها تجميع الشعب حولها الى الحد الذى راجت معه خلال الانتخابات المقولة بأنه « لو رشح الوفد حجرا لانتخبناه »! بالاضافة الى نظرة الجماهير لسعد باعتباره « نبى الوطنية » ووصولا الى قدرة كبيرة على التنظيم افتقدها خصومه .

يسجل احد التقارير البريطانية بعض جوانب هذه القدرة في اعقاب المعركة الانتخابية فيقول : « استحق الزغلوليون ما حصلوا عليه من نجاح بسبب دعايتهم المتفوقة وتنظيمهم الى لجان ولجان فرعية سواء فى المدن او فى الريف ، اضف الى ذلك نشاطهم فى جمع الاموال وحسن استخدامها فى الحملة الانتخابية التى بدأوها منذ شهور مضت »

على النقيض كان موقف الحزب الثالث : الاحرار الدستوريين ، وكان رجال الحزب ، عدلى وثروت فى السلطة خلال الفترة السابقة على صدور الدستور واجراء الانتخابات ، ثم انهم هم الذين وضعوا قانون الانتخابات بشكل يضعف من فرص فوز رجال الوفد ويزيد من فرصهم بالنظر لما يتمتعون به من نفوذ فى صفوف طبقة كبار الملاك ، وقد ظلوا حتى اخر وقت على يقينهم بلعب دور هام فى البرلمان الجديد ، كما كتب الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير « السياسة » اذا لم نفز باغلبية فستكون لنا اقلية محترمة نستطيع بها ان نعيد الامور الى نصابها الحق .

غير ان ما كان يراه هؤلاء شيء والتقييم الحقيقى لقدرتهم

على خوض المعركة الانتخابية كان شيئا اخر ، وقد صدر هذا التقييم عن دار المندوب السامى البريطانى ايضا ..

رأهم هذا التقييم فى جانب منه « عددا من المثقفين وكبار الملاك غير انهم لايملكون القدرة على التأثير على قطاعات الجماهير » وفى جانب اخر وصفهم بانهم « ليسوا حزبا سياسيا بقدر ما هم مجموعة من الشخصيات الكبيرة اصحاب القناعات الخاصة التى لايستطيعون التعبير عنها بسهولة » واخيرا عاب رجال السلطة البريطانية على الحزب بأنه ليس له زعيم مرموق « وهو امر اساسى فى الشرق ، وما يحدث من تغيير محمد محمود بعدلى لن يؤدى الى تحقيق الغرض منه »

رجح من كفة الوفد بشكل قاطع امران :

اولهما : تزايد حدة العداء بين القصر والاحرار الدستوريين نتيجة للسياسات التى اتبعها الاخيرون اثناء وضع الدستور من تقييد سلطة الملك مما دفع الاخير الى بذل المحاولات للتقرب الى الوفد .
ثانيهما : اطلاق سراح سعد زغلول من منفاه فى سيشل وما نتج عن وصوله الى ارض الوطن قبل عشر ايام فقط من جراء الجولة الاولى من الانتخابات ، ولاشك ان هذا الوصول بما صاحبه من احتفالات قد اشعل حماس انصار الوفد وفت فى عضد خصومه .

اما كيف سارت المعركة الانتخابية فهو مايمكن متابعته من خلال التقارير المنتظمة لدار المندوب السامى ، والتى جندت رجالها لرصد مسيرة هذه المعركة يوما بيوم .

يسرد تقرير موضوع فى ١٢ اغسطس عام ١٩٢٣ مجموعة

من الاحداث يمكن ان نتبين منها ظاهرتين اساسيتين صاحبتا المعركة ..

الظاهرة الاولى : تتمثل فى محدودية حوادث الصدام بين انصار الوفد ورجال الادارة ، وهو صدام كثيرا ما حدث فى الانتخابات التى جرت بعد ذلك .

وكانت الشكوى الوحيدة فى هذا الصدد هى الشكوى التى نشرتها جريدة « الليبرتيه » الوفدية من ان مدير الفيوم يتدخل فى الانتخابات لصالح المرشحين العدليين ، واذا كانت هذه الشكوى صحيحة فانها لا تعود على وجه اليقين الى تعليمات تلقاها المدير من الداخلية بقدر ما تعود الى مبادرة شخصية من المدير ذاته .

فيما عدا هذه الشكوى جرت الصدامات الاخرى التى عرفتها الحملة الانتخابية بين انصار المرشحين ، وهى بذلك صدامات طبيعية ادت اليها حدة هذه الحملة فى بعض الدوائر كان اظهرها الصدام الذى حدث بين مرشح الوفد ، مصطفى النحاس بك ، والمرشح الدستورى على بك المنزلاوى فى سمنود فى ٢٦ يوليو عام ١٩٢٣ .

الظاهرة الثانية : تبدت فى اشتراك الطلاب على نطاق واسع فى الحملة الانتخابية ، او ما اسماه التقرير البريطانى « بتورط طلاب المدارس العليا والثانوية بل والابتدائية فى الدعاية للمرشحين »

دعا ذلك وزارة المعارف الى اصدار منشور فى ١٩ يوليو تحذر فيه الطلاب من التعرض للعقاب نتيجة لذلك ، وقد جاء فى هذا المنشور ان اى طالب تحت السن الانتخابى سيضبط

متلبسا بأى عمل من الاعمال الانتخابية سوف يقع تحت طائلة المادة ٨٨ من قانون المدارس .

ردت اللجنة التنفيذية لطلاب القاهرة على ذلك المنشور ببيان ظهر فى الصحف يوم الثلاثاء ٣١ يوليو كان بمثابة وثيقة احتجاج على الوزارة القائمة فى اعمالها او القوانين التى اصدرتها والاهم من ذلك رفض المنشور الذى اصدرته بهدف منع الطلاب من التدخل فى الدعاية لبعض المرشحين للبرلمان .

وكان هذا الرد يعنى تصميم جماهير الطلاب على المشاركة فى المعركة الانتخابية ، وقد نبع هذا التصميم فى جانب منه من ذلك الدور الذى ظلت تلعبه هذه الجماهير فى العمل الثورى منذ ان كان تحرك طلاب مدرسة الحقوق فى ٩ مارس عام ١٩١٩ بمثابة الشرارة الاولى للثورة ، كما انه نبع فى جانب اخر من قدرة سعد زغلول على استقطاب هؤلاء ، حتى انه رشح زعيما من زعمائهم ، هو حسن ياسين ، لعضوية مجلس النواب عن دائرة بنى سويف .

★ ★ ★

جرت انتخابات الدرجة الاولى لتكوين اللجان الثلاثينية التى ستتولى انتخاب اعضاء مجلس النواب يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٩٢٣ ، وتتعدد الملاحظات حول احداث ذلك اليوم .

الملاحظة الاولى سجلها تقرير طويل لدار المندوب السامى البريطانى جاء فيها ان الوفد كان الحزب السياسى الوحيد المنظم لخوض المعركة الانتخابية وانه لا الاحرار

الدستوريين ولا رجال الحزب الوطنى قد توفرت لهم اية قدرة على التنظيم الانتخابى .

والحقيقة أن القول بقضية التنظيم وحده لا يكفى ، ذلك ان هذا القول يتجاهل عنصرا اساسيا لعب دورا فى غاية الاهمية فى معارك الوفد الانتخابية ابان تلك المرحلة ، تمثل هذا العنصر فى وجود القاعدة العريضة من الوفديين القادرة فى كثير من الاحيان على املاء رغباتها على زعامة الحزب .

يقرر الاستاذ مصطفى امين هذه الحقيقة فى شهادته التاريخية عن تلك الانتخابات بقوله : « وضع سعد قواعد بان تكون الاسبقية فى الترشيح للذين قاموا بادوار هامة فى الثورة ، بشرط ان توافق لجان الوفد فى كل دائرة انتخابية على هذا الترشيح ، بمعنى انه اذا اختار سعد مرشحا ولم توافق عليه لجنة الوفد يعدل عنه وينزل عن ارادة لجنة الوفد ».

وكان معنى ذلك ببساطة ان المرشحين الوفديين لخوض الانتخابات قد تم انتخابهم بطريقة جماهيرية ، فكان طبيعيا ان تساندهم الجماهير التى شاركت فى هذا الاختيار على عكس الحال بالنسبة للحزبين الاخرين اللذين خاضا المعركة الانتخابية بشكل علوى تماما .

يشهد بذلك الدكتور محمد حسين هيكل الناطق بلسان الاحرار الدستوريين الذى تحدث عن الحملة الانتخابية على اعتبار انها الخطب السياسية ، وعناية الخطباء بخطبهم ونشرهم فى الصحف !

ويشهد بها عن الحزب الوطنى الاستاذ عبد الرحمن الرافعى الذى يقول ان رجال الحزب قد خاضوا المعركة

الانتخابية معتمدين على « مبادئهم وماضيهم فى الجهاد » ولم يكن هذا كافيا على وجه التأكيد !

الملاحظة الثانية : تتصل بنسبة من شاركوا فى التصويت ممن لهم حق الانتخاب ، وقد بلغت هذه النسبة عموما ٥٨,٠٤ فى المائة .

وعموما زادت نسبة المشاركين فى المديريات عن نسبة المشاركين فى المدن ، فقد وصلت فى مديرية الشرقية الى ٧٠,٥ فى المائة وبلغت فى مديرية بنى سويف ٦٨ فى المائة بينما لم تصل فى مدن محافظة القنال الا الى ١٣,٢ فى المائة .

ويمكن تفسير هذه الظاهرة من جانبين يتصل اولهما بنسبة التعليم اذ يلاحظ على العموم ان المدن او المديريات التى تتمتع بقدر اكبر من المتعلمين او طبقة الافندية ، كما كانت تسمى بلغة العصر ، زاد الاقبال فيها على ممارسة حق الانتخاب ، ففى الصعيد مثلا وصلت النسبة فى بنى سويف الى مايقرب من ضعف النسبة فى اسوان (٦٨ الى ٣٨,٦٨ فى المائة) ، وفى الوجه البحرى زادت النسبة فى الدقهلية كثيرا عن النسبة فى دمياط (٦٤ الى ٥٣,١ فى المائة) وفى المدن بلغت نسبة القاهرة اكثر من ضعف نسبة مدن القنال (٢٧,٤ الى ١٣,٢ فى المائة[4]) .

ويتصل الجانب الثانى بدرجة تركز الملكية الزراعية الكبيرة اذ يلاحظ زيادة الاقبال فى المديريات التى تركزت بها مثل هذه الملكية (بنى سويف ، المنيا ، الشرقية ، الدقهلية ، القليوبية) وضعفها نسبيا فى المديريات التى لم يوجد فيها نفس القدر من التركيز (جرجا وقنا ودمياط).

ولا يبدو عدم التوازن بين القوى الحزبية من النتائج التى اعلنت فحسب بل ايضا مما لم يعلن من نتائج فلم تزد الدوائر التى تقرر الاعادة فيها عن ١٨,٢ فى المائة مما يوضح قدر الحسم فى المعركة .

اكتملت الصورة فى نهاية نفس الاسبوع (الخميس ١٧ يناير) حين جرت انتخابات الاعادة التى اتضح منها فوز الوفديين بـ ١٩٢ مقعدا اى بنسبة تصل الى ٩٠ فى المائة من مجموع المقاعد بينما فاز الاحرار الدستوريين بتسعة مقاعد بنسبة ٤,٢ فى المائة وحصل الحزب الوطنى على اربعة مقاعد بنسبة تصل الى ١,٩ فى المائة كما حصل المستقلون على ستة مقاعد ، ولم تكن قد اجريت بعد انتخابات دوائر الحدود الثلاث .

وجاءت ردود فعل متباينة حول هذه النتائج ..

كان هناك (اولا) رد فعل المتنافسين ، ولا شك انه قد اتسم بخيبة امل شديدة على جانب الاحزاب المنهزمة واتسم بفرحة طاغية على الجانب الوفدى .

بدت خيبة الامل اكثر من جانب الاحرار الدستوريين ، وهى الخيبة التى عبر عنها الدكتور هيكل فى مذكراته ، ونترك الرجل يروى قصة تلقيه النتائج وتأثيرها .

« جلست الى مكتبى وبدأت التليفونات تدق ، يالها من ليلة ! ماكان اعجبها وما كان اقساها ! لقد كنا على ثقة من نجاح اشخاص بذواتهم فى دوائرهم لما لهم فيها من عصبية ، ولم يكن يخالجنا اقل ريب فى هذا النجاح ، لكن النتائج التى بدأت تصلنا لم تلبث ان زعزعت من ثقتنا الى غير حد ، يدق التليفون

ويذكر اسم واحد من هؤلاء الموثوق بنجاحهم ، فاذا به سقط امام خصم نكرة غير معروف ، كان اسماعيل صدقى باشا ، وزير المالية السابق وعضو وفد المفاوضة مع اللورد كرزون والمشهود له بالكفاية والتفوق ، مرشحا وكان ينافسه الاستاذ محمد نجيب الغرابلى المحامي بطنطا ، ولم يكن ثمة ريب فى ان الاستاذ الغرابلى لن يفوز ، فلما اعلنت النتيجة اذا به ينجح ، واذا صدقى باشا يسقط ، هنالك علت ضجة الحاضرين بغرفتى دهشة وعجبا ، وكذلك كان الامر فى دائرة سمنود حيث رشح على بك المنزلاوى ومصطفى بك النحاس ، وكنا معتقدين ان المنزلاوى بك سيفوز باغلبية كبرى ، فانتخب مصطفى بك النحاس ، ولم ينتخب على بك المنزلاوى ، ومن جديد علت ضجة الحاضرين دهشة وعجبا ، وتكرر ذلك ثم تكرر ..»

ايضا لاحقت خيبة الامل الحزب الوطنى وان لم يكن بنفس القدر الذى اصابت به الاحرار الدستوريين ، اذ يبدو مما سجله انصاره عن الجولة الانتخابية انهم كانوا يتوقعون فوز وفدى كبير وان لم يكن ساحقا !

اما الفرحة الطاغية فقد ظهرت على الجانب الوفدى ، ويسجل الاستاذ مصطفى امين الذى كان يعيش فى بيت سعد زغلول وقتذاك رد فعل الزعيم المصرى بقوله انه « عندما رأى سعد هذه النتائج المذهلة قال : انها لثورة جديدة ! وكان سعد مبتهجا بهذه النتيجة الهائلة التى لم يتوقعها لانها اثبتت انه كان على حق فى ايمانه بهذا الشعب »

وكان هناك (ثانيا) رد فعل القصر ولا شك ان الملك فؤاد الذى كان يتوقع بدوره فوز الوفد لم تسعده كثيرا هذه

النتيجة .. فهى من ناحية قد اضعفت تماما من امكانية التوازن بين الاحزاب مما لا يسمح للملك بدور كان يتوق للقيام به ، وهو دور الحكم بين القوى السياسية المتنافسة .

ثم انها من ناحية اخرى سوف تجعل الحكومة التى تنبثق عن مثل هذا البرلمان حكومة متشددة فهى تعتمد على ما يشبه الاجماع فيه مما لن يسمح للملك بتجميع الخصوم او القيام باية مناورات ضدها داخل البرلمان .

وكان هناك (ثالثا) رد فعل البريطانى الذى بدا فى المذكرة الطويلة التى وضعتها دار المندوب السامى فى القاهرة لتقييم نتائج الانتخابات .

جاء فى هذه المذكرة تحت عنوان « بعض الملاحظات الانتخابية »:

« توضح النتائج حصول مرشحى الوفد على تسعة اعشار المقاعد ، ولم تؤد هذه النتائج الى دهشة كبيرة اذا ما وضعنا فى الاعتبار ان غالبية الناخبين جهلاء واميون ! وهذه بعض الملاحظات »

١ ـ معلمان بارزان : بمقارنة الانتخابات المصرية بالانتخابات التى تجرى فى سائر الدول فهناك معلمان تتميز بهما :

أ ـ ساد البلاد نوع من الهدوء خلال فترة التصويت ويعود هذا اساسا الى احتياطات الامن التى اتخذت سواء فى المديريات او فى المدن كما يعود بلا شك الى يقظة لجان الوفد الفرعية العديدة المنتشرة فى مناطق التصويت مما وضع خصومهم فى موقف لا يستطيعون معه اثارة الاضطراب .

وينتهى يوم ٢٧ سبتمبر عام ١٩٢٣ بانتخاب اللجان الثلاثينية وقد اجمعت سائر الاطراف ان الوفد قد اكتسح هذه الجولة بشكل فاق كل تصور .. حتى تصور الزعامة الوفدية مما كان محل شهادة من جميع الاطراف ، ممثل المندوب السامى الذى كتب فى تقريره « لقد كوفىء الوفد على تنظيمه بالحصول على الاغلبية الساحقة » ومصادر الحزب الوطنى التى قررت ان « معظم المندوبين الثلاثينيين كانوا من انصار الوفد وممن تعاهدوا على انتخاب مرشحيه للبرلمان » واخيرا رجال الوفد نفسه الذين تباهوا بان الطباخ الوفدى لعدلى يكن قد نجح واصبح مندوبا ثلاثينيا بينما سقط مخدومه رئيس الاحرار الدستوريين ، وقد انبأت هذه النتيجة بالمسار الذى كان مقدرا ان تسلكه الجولة التالية .

جاءت الاشارة الاولى لهذا المسار يوم السبت ١٧ نوفمبر ، وهو اليوم الذى تحدد لاغلاق باب الترشيح فقد تأكد فى هذا اليوم ان ٣٣ وفديا قد فازوا بعضوية مجلس النواب قبل ان تبدأ الانتخابات ، وجميع هؤلاء قد فازوا بالتزكية على رأسهم سعد زغلول نفسه الذى فاز فى دائرة السيدة زينب وستة من اعضاء اللجنة التنفيذية والبقية من كبار رجال الوفد ، ويلاحظ ان ٣١ من هؤلاء من مرشحى الوفد والاثنين الباقين ممن رشحوا انفسهم على المبادىء الوفدية .

تلا ذلك بثمانية اسابيع الاشارة الثانية عندما اجريت الانتخابات يوم السبت ١٢ يناير عام ١٩٢٤ وتأكد استمرار الفوز الوفدى ، فقد وصل عدد الفائزين من مرشحيه ، حسب التقارير البريطانية ، ١٥٧ ومن الاحرار الدستوريين سبعة ، ومن الحزب الوطنى اثنين بالاضافة الى ستة من المستقلين ، ولم يتبق للاعادة سوى ٣٩ دائرة بالاضافة الى دوائر الحدود الثلاث .

ب ـ كانت المسائل الانتخابية شخصية بالدرجة الاولى ، ولم تكن هناك تلك الخلافات الحزبية العميقة التى تميز الانتخابات فى الغرب وتقسم الناخبين ، ولم يكن امام هؤلاء بدائل بالنسبة للبرامج الحزبية وغلب الطابع الشخصى على الخطب الانتخابية .. وكما يحدث عادة فى مصر فقد غلبت الشخصية العملاقة Giant Ego على سائر الاعتبارات ، وقد اثبت سعد انه عملاق العمالقة ..

٢ ـ انتخابات غير عادية : اشارت بعض الدوائر الى شذوذ النتائج الانتخابية ، وانه ليس من الطبيعى ان يصوت الناخبون بهذا الشكل لحزب واحد ، ويسود شعور لدى تلك الدوائر ان عديدا من النواب قد انحازوا للوفد وهم ليسوا فى الحقيقة وفديين وذلك لسبب واحد وهو شعورهم بأن الوفد هو الجواد الرابح فى هذه الجولة ، وان اسهل طريق للبرلمان هو الانتماء اليه ، وانهم قد سيصوتون ضد « الزعيم المحبوب » اذا ما واتتهم الفرصة لذلك ، وسوف تتضح قيمة هذا الرأى عند انعقاد البرلمان .

٣ ـ الجماعات المتصارعة :

الزغلوليون : يستحقون ما حصلوا عليه من نجاح بسبب دعايتهم المتفوقة وتنظيمهم الى لجان ولجان فرعية سواء فى المدن او فى الريف ، اضف الى ذلك نشاطهم فى جمع الاموال وحسن استخدامها فى الحملة الانتخابية التى بدأوها منذ شهور مضت .

الاحرار الدستوريون : بالقياس بالزغلوليين اثبت العدليون عجزا كاملا ، وقد يكون السبب انهم لم يكونوا متأهبين لعودة

زغلول فى سبتمبر الماضى والتى ادت بالاضافة الى استقبال فى القصر الى انهيار جهودهم .

ويضم اتباعهم عددا من المتعلمين وكبار الملاك غير انهم لم يكونوا مؤثرين جماهيريا .

سبب اخر لضعف العدليين وهو انهم فى الحقيقة ليسوا حزبا سياسيا بقدر ما هم مجموعة من الشخصيات الكبيرة اصحاب القناعات الخاصة التى لايستطيعون التعبير عنها بسهولة اضف الى ذلك انه ليس لهم زعيم مرموق ، وهو امر اساسى فى الشرق ، وما يحدث من تغيير عدلى بمحمد محمود لن يؤدى الى تحقيق هذا الهدف .

الوطنيون : تم توجيه اسوأ ضربة لهم فقد سقط زعماؤهم الذين تقدموا للانتخابات امثال الشيخ جاويش وحافظ رمضان ولم تكن لديهم شخصية كبيرة تقودهم فى الانتخابات ، فالشيخ جاويش لم يعد له تأثير يذكر على الرأى العام ، اضف الى ذلك نقص التنظيم والدعاية والمال ، ومن المحتمل ان شعارهم القائل (لا مفاوضة الا بعد الجلاء) لم يقنع الكثيرين »

ويمكن بسهولة استقراء ما يمكن تسميته عدم رضاء بريطانى عن نتائج الانتخابات وذلك من خلال قراءة التحليل السابق .

فبالرغم مما اتسم به هذا التحليل من قدر كبير من الموضوعية لكنه فى جانب منه يعزو فوز الوفد الساحق الى الجهل والامية ، وهو فى جانب اخر يعرب عن امله فى ظهور اعداد من المنشقين عن الوفد لدى انعقاد البرلمان ، ثم انه



الشيخ عبدالعزيز جاويش مقلدا وسام الشعب .

فى جانب اخير يعزو فشل الحزب الوطنى لموقفه المتصلب من الوجود البريطانى .

وبين خيبة الامل من جانب الاحزاب غير الوفدية والغضب من جانب القصر وعدم الرضاء من جانب بريطانيا تكون مجلس النواب المصرى الاول !

★ ★ ★

اختلف الامر بالنسبة لتكوين مجلس الشيوخ عنه فيما يتصل بمجلس النواب ، وقد صدر هذا الاختلاف عن اعتبارين :

١ ـ ان انتخابات الشيوخ قد جرت بعد اكثر من ستة اسابيع من انتخابات النواب ، وقد شهد ميدان السياسة المصرية تغييرات عديدة خلال تلك الاسابيع .

٢ ـ ما نص عليه الدستور من تخويل الملك حق تعيين خمسى اعضاء الشيوخ مما خلق ميدانا للمعركة لم يكن موجود بالنسبة للمجلس الاول .

بدا تأثير الاعتبار الاول على اختيار الاعضاء المنتخبين البالغ عددهم ٧١ بنسبة ثلاثة اخماس المجلس .

فمن ناحية كان لابد ان يؤثر الفوز الساحق للوفد فى انتخابات مجلس النواب على انتخابات الشيوخ خاصة اذا ما وضع فى الحسبان طريقة الانتخابات لمجلس الشيوخ ، فقد كان على كل خمسة مندوبين ثلاثينيين ، اى نفس المندوبين الذين كفلوا للوفد فوزه الساحق ، ان يختاروا من بينهم مندوبا يقوم مع زملائه بانتخاب عضو الشيوخ عن الدائرة ، وكان من

المنطقى مع هذا النظام ان تكون نتائج انتخابات الشيوخ صورة طبق الاصل لنتائج انتخابات النواب ، وقد حدث !

من ناحية اخرى كان قد تأكد خلال تلك الاسابيع وصول الوفد الى السلطة بعد ان الف سعد زغلول اول وزارة وفدية فى ٢٨ يناير ١٩٢٤ اى قبل اجراء انتخابات الشيوخ بنحو اربعة اسابيع .

وقد ترتب على ذلك غياب الحكومة كقوة ضغط تناصر خصوم الوفد وتتعقب انصاره ، هذا من جانب ، والفت فى عضد خصوم الوفد من جانب اخر ، وكان هؤلاء يعانون من حالة احباط شديد منذ ظهور نتائج انتخابات النواب .

من ثم لم تكن هناك اية غرابة فى ان تأتى نتائج انتخابات ثلاثة اخماس اعضاء مجلس الشيوخ التى جرت فى ٢٣ فبراير عام ١٩٢٤ بنفس الاغلبية الساحقة للوفد ، وربما كانت الغرابة لو حدث العكس ، وعلى حد تعبير احد المعاصرين الذى علق على انتخابات الشيوخ قبل اجرائها بقوله : « لم تكن النتيجة خافية على احد »! وقد جاءت الاغلبية الوفدية الجديدة ، وكما تجمع سائر الكتابات ، دون اى تدخل من جانب حكومة سعد زغلول .

يأتى بعد ذلك تأثير الاعتبار الثانى الناتج عن النص الدستورى بتعيين الملك لخمسى اعضاء الشيوخ البالغ عددهم ٤٨ عضوا .

وتبدو المفارقة فى انه بينما لم تكن ثمة معركة حقيقية لاختيار اعضاء الشيوخ المنتخبين فقد جرت معركة لاختيار الاعضاء المعينين غير أن هذه المفارقة كان لها مايفسرها .

المعركة جرت بين القصر والوزارة الوفدية وكان لكل منهما اسبابه في خوضها .

من ناحية القصر توفر سببان جعلاه يتمسك بما تصور انه احد حقوقه ، السبب الاول جاء من طبيعة القصر الاوتوقراطية ، وهي طبيعة موروثة لم يتفرد بها الملك فؤاد ، وان كانت قد بدت على نحو ملحوظ على عهد هذا الملك لسبب بسيط وهو ظهور قوة شعبية تنازعه سلطاته مما ادى الى تمسكه بهذه السلطات بشكل فاضح وهو ما لم يحدث لحاكم من ابناء اسرة محمد على من قبله سوى الخديو توفيق ، السبب الثاني صدر مما كان متوقعا في انتخابات ثلاثة اخماس الشيوخ من حصول الوفد على اغلبية ساحقة رأى الملك معها ضرورة ان يتم تعيين الخمسين الباقين بشكل يسمح بقدر من التوازن في مجلس الشيوخ ، وتكفى حالة عدم التوازن القائمة في مجلس النواب !.

اختلف الموقف بالنسبة للزعامة الوفدية ، وهو موقف حكمه ايضا اكثر من اعتبار ، فمن ناحية كان السماح للملك بتعيين الشيوخ يرسي تقليدا دستوريا رفضه الوفديون وهو ان يحكم الملك بشخصه لا من خلال مجلس وزرائه ، ومن ناحية اخرى فقد كان وجود مجموعة كبيرة من الاعضاء الذين يعينهم القصر يعني توفير القدرة لهذا المجلس لتعويق اعمال الحكومة من خلال حقه في الاعتراض على القوانين التي يقرها مجلس النواب مما يضعف من قيمة الاغلبية الوفدية الكاسحة في المجلس الاخير .

ادى تمسك كل طرف بموقفه الى اتفاقهما في نهاية الامر على قبول التحكيم ، ووقع اختيارهما على البارون فان دن بوش

النائب العام لدى المحاكم المختلطة والبلجيكى الجنسية ، وجاء حكم الرجل بان « عدم مسئولية الملك يعتبر اساسا لهذا النظام الذى يقضى بان الملك لايتولى سلطته الا بواسطة وزرائه ، وهو مبدأ لا يحتمل اى استثناء من الوجهة القانونية ، بل يمتد الى جميع اعمال الملك ، فاذا استثنى عمل واحد فان هذا الاستثناء يصيب النظام فى روحه واساسه ، لذلك ارى اذن ان تعيين اعضاء مجلس الشيوخ يجب ان يكون بناء على ما يعرضه مجلس الوزراء »

وخضوعا لقرار التحكيم عرضت الوزارة اسماء المرشحين للتعيين فى المجلس حيث صدر بهم المرسوم الملكى ، ويلاحظ المندوب السامى ان القائمة لم تضم ايا من رؤساء الوزارات السابقين امثال حسين رشدى وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت ويحيى ابراهيم ، ويلاحظ ثانيا انه تم تعيين وزيرين فقط من الوزارة السابقة ، وزير المواصلات محمود شكرى باشا ووزير الاشغال العمومية احمد زكى ابو السعود ، ويلاحظ ثالثا ان المجلس لم يضم وزيرين سابقين للمالية هما اسماعيل صدقى باشا ومحب باشا كما لم يضم عددا من الوزراء السابقين ، ويلاحظ اخيرا تعيين إثنين من رجال الدين الاقباط بالاضافة الى يهودى هو يوسف بتشوتو بك بالاضافة الى ثلاثة من السوريين .

فى نفس يوم انتخابات الشيوخ وصدور مرسوم تعيين خمس المجلس صدر مرسوم ملكى اخر بتعيين احمد زيور باشا رئيسا للمجلس ، محافظ الاسكندرية الاسبق ووزير المواصلات والاشغال والاوقاف السابق .

وينتقد المعاصرون قبول سعد تعيين عدد ممن فشلوا فى

انتخابات النواب اعضاء فى المجلس ، وقد رأى هؤلاء انه « كان يجب ان لا يعين رجال رفضت الامة ان تنيبهم » وبالرغم من ذلك يمكن تلمس الاعذار للقيادة الوفدية التى حكمت فى اختيارها اعتبارات الخبرة والمكانة الاجتماعية جنبا الى جنب مع الاعتبارات الحزبية .

وتشكل بذلك المجلسان اللذان يكونان البرلمان المصرى ، وكان على هذا البرلمان ان يبدأ فى ممارسة اعماله ، وتحدد يوم ١٥ مارس ١٩٢٤ موعدا لهذا البدء ، وهو اليوم الذى يوافق ذكرى مرور عامين على اعلان الاستقلال المصرى .

وضع التقاليد البرلمانية :

كان على البرلمان الاول القيام بمهمة لم تتمكن المجالس النيابية السابقة من القيام بها ، تلك هى مهمة وضع التقاليد البرلمانية ، وقد عجزت تلك المجالس عن القيام بهذه المهمة بحكم اختلافها عن البرلمان الجديد ، فهى من ناحية لم تكن فى اغلبها نتاجا لاقتراع حر ، وهى من ناحية اخرى لم تعرف الاساس الحزبى فى التكوين ، ثم انها من ناحية اخيرة لم تتمخض عن ثورة شعبية كما حدث وتمخض البرلمان الاول عن ثورة ١٩١٩ .

ادراكا لكل هذه الجوانب تناولت الصحافة بالتفصيل قضية وضع التقاليد البرلمانية من جميع جوانبها ابتداء من خطاب العرش وانثناء الى اداب المناقشة ووصولا الى اصول الخطابة وسلوك الخطباء .

بهذا الفهم وفى هذا الجو بدأ البرلمان الاول فى انجاز مهمته التى تشعبت جوانبها ، فقد كانت هناك اولا العلاقة بين

البرلمان وبين الشارع المصرى بكل ما كان يموج به من اسباب الحركة السياسية ، وكان هناك ثانيا الضوابط التي كان على النواب الالتزام بها ، وكان هناك ثالثا تقنين العلاقة بين البرلمان باعتباره ممثلا للسلطة التشريعية والوزارة باعتبارها ممثلة للسلطة التنفيذية ، وكانت هناك اخيرا قضية العلاقة بين الاغلبية والاقلية ، او الحكومة والمعارضة ، ووضع صيغة مناسبة لهذه العلاقة .

١ ـ البرلمان الاول والشارع المصرى :

ظل مايجرى خلال السنوات الثلاث السابقة على انعقاد البرلمان الاول (مارس ١٩١٩ ـ مارس ١٩٢٢) متأثرا اشد التأثر بما يجرى فى الشارع المصرى من احداث على شكل مظاهرات او صدامات بين المتظاهرين ورجال السلطة او اغتيالات يواجهها جنود الاحتلال او المتعاونون معه .

وقد مارس هذا الشارع قوة ضغطة حتى اخر وقت فيما جرى من تأييد الطلاب للمرشحين الوفديين والذى كان من اهم اسباب حصول هؤلاء على اغلبيتهم الساحقة .

وقد تصور الطلاب ، باعتبارهم العنصر الرئيسى فى الشارع المصرى ، ان لهم دورا مع انعقاد البرلمان الاول وذلك من خلال الضغط او ما اسماه خصوم الوفد « ارهاب المعارضة » وقد بدأ ذلك منذ الاسبوع الاول لانعقاد البرلمان وحول الموضوع الاول من الموضوعات التى واجهها ، وهو موضوع خطبة العرش . . ـــ

فقد ساد اتجاه بين عدد من اعضاء المجلس للمطالبة بتعديل الخطاب فى بعض مواضعه مما كان محل رفض من

جانب سعد ، وما ان تواترت الانباء « لجيش الطلاب الوفدى » على حد تعبير المندوب السامى البريطانى حتى شمر هؤلاء عن سواعدهم وبدأوا فى شن غارتهم على البرلمان .

ونترك لمراسل « الاهرام » وصف ماحدث حول مبنى البرلمان يوم ٢٢ مارس عام ١٩٢٤ ، اى يوم السبت التالى لافتتاح البرلمان .. قال :

« لم تكن الشوارع المحيطة بدار النيابة هادئة فقد ازدحم بها جمهور كبير من الطلبة يضجون ويهتفون لخطبة العرش وللامانى القومية »

يزيد سكرتير سعد الخاص القصة تفصيلا فيقول : « اجتمع جمهور كبير من الطلبة بعد ظهر السبت ٢٢ مارس ١٩٢٤ بحديقة الازبكية وتناوبوا الخطابة فى شأن الدعوة المنشورة ضد خطاب العرش ثم ساروا فى مظاهرة الى دار البرلمان فحيوا الرئيس فى قدومه وانصرافه وتبعه فريق كبير منهم الى بيت الامة هاتفين لتأييد خطاب العرش .

وقد واجه هذا السلوك نقدا شديدا سواء فى الصحافة المصرية او من جانب سعد زغلول نفسه .

الاهرام رأت ان ما حدث عادة خطرة « يجب ان يقلع الجمهور عنها فهى لاتتفق وحرمة هذه الدار ومبدأ احترام العقيدة ، اذا كانت غاية المتظاهرين ان يخشى النواب المعارضون باسهم وبطشهم وان لا يقولوا بما يخالف معنى هتافهم فقد سلكوا سبيلا محفوفة بالاخطار ليس فى اخرها الا الندم والخسارة »

اما سعد فقد ألقى فى الطلاب الذين تبعوه كلمة حذرهم

فيها من التهويش بالمظاهرات على اعمال النواب ونادى فيهم « اتركوهم يعملون فى هدوء وسكون وصفاء »!

وكان لهذا الموقف من زعيم الوفد اثره الحاسم وهو ما اعترف به المندوب السامي نفسه حين اكد في تقرير له بعد ذلك باسبوع ان سلوك الجماهير في تعاملها مع البرلمان قد اصبح حسنا على العموم بعد خطبة سعد .

ولاشك انه قد تم بذلك ارساء الاساس الاول للتقاليد البرلمانية بكفالة الحرية لاعضاء البرلمان في التعبير عن ارائهم ومواقفهم ، ولا شك ايضا انه كان وراء السرعة في وضع هذا الاساس احساس الامان الذى كانت تتمتع به الزعامة الوفدية الناتج عن اغلبيتها الساحقة بين النواب والشيوخ .

٢ ـ ضوابط السلوك البرلماني :

استلفت نظر المراقبين الاجانب على وجه الخصوص حالة الاضطراب التي سادت جلسات مجلس النواب خاصة خلال الاسابيع الاولى من الدورة البرلمانية ، وقد صنع هذه الحالة رغبة عدد كبير من الاعضاء في التحدث في كل جلسة والميل الى الخطابة وكثرة المقاطعات .

سجل هذه الظاهرة راءول كانيفه رئيس تحرير جريدة لاريفورم الفرنسية حين لاحظ ان « من يراجع محاضر جلسات مجلس النواب يدهش لما يراه من شدة الرغبة في الكلام عند النواب ، ففى كل لحظة تستوجب الحال دعوة هؤلاء الوطنيين المتسرعين او القليلى الصبر الى مراعاة جدول اعمال الجلسة ، وقد تكفى بعض الاحيان ملاحظة من رئيس المجلس

لاقناعهم بالسكوت ولكن لابد فى احيان اخرى من تركهم يتكلمون حتى يتعبوا ويجلسوا معجبين بانفسهم !

سجل نفس الظاهرة ايضا رئيس تحرير الليبرتيه ، كما سجلها وبنفس الدرجة من النقد المندوب السامى البريطانى فى القاهرة فى تقرير له عن المجلس بعد اسبوعين من بدء انعقاده .

شاركت الصحف المصرية ، وبنفس القدر من السخرية ، فى تسجيل نفس الظاهرة وان كانت بدرجة اقل حدة من المراقبين الاجانب ، فقد كتبت احدى هذه الصحف تقول : « ترى احيانا فى مجلس النواب شخصا واحدا او اشخاصا يطلبون الكلام مرارا وتكرارا فى موضوع مطروح للبحث فلا يعطون الكلام لان الافكار اتجهت الى سواهم لانهم جميعا طلبوا الكلام فى وقت واحد ..

« ويعترض البعض على المقرر وهو يشرح مادة من المواد ولما ينته من شرحه فيكرهه على قطع كلامه وحلقات افكاره بتسرعه لانه يريد مسابقة غيره وكذلك يفعلون مع صاحب الاقتراح اذا شرح اقتراحه »

وكان لابد من تدخل الزعامة الوفدية لكبح جماح النواب المتحمسين وقد حدث هذا التدخل بالفعل على مستويين ، احدهما شخصى ناتج عن حضور سعد زغلول اغلب جلسات المجلس حيث احصى البعض مرات حضوره فوجدها قد بلغت نسبة ٧٠ فى المائة من عدد مرات انعقاد المجلس (٤٦ من ٦٩) ولاشك ان هذا الحضور كان مدعاة للالتزام بقدر معقول من الانضباط من النواب حكم ما كان يحظى به الرجل من هيبة

واحترام وكان المستوى الاخر حزبيا حيث تقرر تشكيل هيئة لمجموع النواب الوفديين تنسق ادوارهم داخل المجلس ، وكان من يخرج عن قرارات هذه الهيئة يتعرض للعقوبة الحزبية .

٣ ـ البرلمان الاول والحكومة :

يتصور الباحث غير المدقق ان علاقة حكومة الشعب ببرلمان الشعب قد سادها التفاهم والانسجام الكاملين وذلك لسببين .. واولهما : ان الحكومة وفدية والبرلمان فى اغلبيته الساحقة وفديا ، وثانيهما : ان رئيس الحكومة هو سعد زغلول بكل ما يتمتع به الرجل من شعبية حتى ان الوفديين خلال هذه الفترة ، ومنهم النواب بالطبع ، قد اطلقوا على انفسهم واطلق الاخرون عليهم تسمية السعديين او الزغلوليين ، بل اكثر من ذلك ان عددا من النواب المستقلين فى المجلس قد دخلوه « على مبادىء سعد »

غير ان التدقيق فى البحث يثبت غير ذلك ، وبغض النظر عن تلك الحفنة من النواب غير الوفديين الذين مثلوا المعارضة ، فقد شكل النواب فى مجموعهم مجلسا صعب القياد ، وخلق كثيرا من المتاعب للحكومة .

سجل هذه الحقيقة المسيو Arminjon وهو كاتب فرنسى معاصر للبرلمان الاول .. قال : « كانت غالبية النواب من عامة الشعب وكانت كل ميزتهم انهم اعضاء متحمسون فى الحزب الحاكم ، كما انهم لم يكونوا اقل اقتناعا بانهم يمثلون الامة ، لذا فقد ذهبوا الى بعيد تملأهم ثقة لاتخلو من سذاجة بأن قرارات المجلس صاحب السيادة الفعلية لابد ان تنفذ دون ان

يتمكن زعيمهم باستمرار من ايقاف اندفاعهم برغم كفائته النادرة .. وبرغم موهبته الحقة كخطيب »

ويعلم كثيرون ان سعد زغلول قد هدد بالاستقالة اكثر من مرة من رئاسة الوزارة بسبب خلافاته مع القصر ، ولكن قد لايعلم حتى القليلون ان الزعيم المصرى قد هدد بالاستقالة بسبب اختلافاته مع مجلس النواب ، ولاكثر من مرة ايضا !

كانت المرة الاولى ولما يمض على انعقاد مجلس النواب اكثر من اسبوع ، وكان الخلاف حول خطبة العرش .

فبعد القاء الخطبة فى الجلسة الافتتاحية سرى الاعتقاد بأنه جاء مبهما فيما يتصل بالقضية الوطنية والمطالب المصرية فى السودان .. وقد شاع ماهو اكثر من ذلك وهو ان هذا الابهام جاء تحت ضغط الانجليز .

انطلاقا من هذه القناعة سرى ميل كبير الى عدد من النواب بمطالبة الحكومة بتعديل الخطاب .. وقد رأت الوزارة فى اقتراحات هؤلاء فى المجلس ، وكان عديد منهم وفديين .. رأت فيها لونا من عدم الثقة بالوزارة وتقليدا لاينبغى التسليم به مما دعا الصحف المؤيدة للحكومة الى التنبية بأن مثل هذا التعديل يقضى على الوزارة بالاستقالة مما افضى به وزير الزراعة لبعض الصحف .

دعا ذلك سعد زغلول الى التوجه الى المجلس يوم السبت ٢٩ مارس ١٩٢٤ حيث القى خطبة حذر فيها اعضاءه من تقديم طلبات « القصد منها تعجيز الوزارة ، وطالبهم بالاستشعار بما عليهم من مسئولية » اذا طلبتم طلبا فعلىّ ان

انفذه ولكن يجب ان تتبصروا فى هل يمكنكم ان تسيروا فيه الى النهاية »

وكان للخطبة تأثيرها ، فهى من ناحية قد استقبلت بترحيب بالغ سواء من داخل المجلس او خارجه كذا من جانب الدوائر الاوربية ، ويمكن القول انها قد انهت الازمة ، فقد اقر المجلسان النواب والشيوخ ، خطبة العرش بما يشبه الاجماع ، وتم ذلك اجتياز هذه الازمة بين الوزارة والبرلمان .

وكانت المرة الثانية فى اوائل يوليو عام ١٩٢٤ ذلك ان مجلس النواب ، وفى غيبة الوزراء اتخذ قرارا بالغاء القانون رقم ٣٧ لعام ١٩٢٣ او مايعرف « بقانون الاجتماعات » وهو القانون الذى اصدرته الوزارة السابقة وكان يقضى بتشديد العقوبة على الذين يعقدون اجتماعات سياسية غير مصرح بها .

وبالرغم من ان القانون المذكور كان قد تعرض لهجوم شديد من جانب سعد زغلول ، غير ان رد فعل الحكومة تجاه الالغاء كان حادا .. عزا البعض هذا الرد الى تدخل الملك وعزاه البعض الاخر الى ان موقف زغلول وهو فى السلطة قد اختلف عن موقفه وهو خارجها وعزاه اخيرون الى رفض الحكومة ان يتخذ المجلس قرارا فى مثل هذا القانون الحساس فى غياب الحكومة .

ونقرأ الرواية الكاملة لرد فعل الحكومة من تقرير للمندوب السامى مؤرخ فى ١٤ يوليو ١٩٢٤ ، جاء فى جانب منه :

« عن اعتراض مجلس النواب على قانون الاجتماعات

العامة قدم القانون المعدل الى مجلس الشيوخ واثار مناقشات حامية وراء البعض ان مثل هذا القانون استبدادى ورجعى ، وقد لقى توفيق نسيم باشا عنتا كبيرا لحث المجلس على الاستمرار فى نظره ، وعلى ضد رغبة رئيس الوزراء ، فقد صمم المجلس على النظر فيه مادة مادة ، وبالرغم من تدخلات زغلول فقد تقرر الا تزيد العقوبة عن سبعة أيام حبس وجنيه غرامة ، وفى اليوم التالى احيل القانون الى مجلس النواب غير انه اجل النظر فيه الى الدورة القادمة .

« وكان موقف زغلول باشا من هذا القانون متناقضا ، فهو قد شن هجوما شديدا قبل ان يتولى الوزارة ، وقد بلغنى انه استمر معارضا له الى وقت قريب عندما غير اتجاهه تحت ضغط قوى من الملك »

وتشى هذه الحوادث الى حقيقة ان البرلمان الاول لم يكن منصاعا لحكومة الشعب كما يتصور الكثيرون !



توفيق نسيم باشا

الفصل السابع

برلمان اليوم الواحد !

حادث فريد في تاريخ البرلمان المصرى ، بل ربما فى تاريخ الحياة البرلمانية فى العالم فيما جرى يوم ٢٣ مارس عام ١٩٢٥ حين صدر فى نفس يوم انعقاد الجلسة الاولى لمجلس النواب قرار حل المجلس وانهاء الفصل التشريعى !

وقد جرى هذا الحادث فى فترة اضطرمت بالاحداث وبالعلاقات المتداخلة الى الحد الذى اختلطت فيه الخيوط .

يتصل (الخيط الاول) بالاوضاع العامة فى اعقاب سقوط البرلمان الاول فالضربة التي كالها الانجليز لوزارة الشعب كانت موجهة فى نفس الوقت للبرلمان الذى انهى فصله التشريعى الاول ولما يستكمل من سنواته الخمس سوى اقل من عشر شهور .

وكانت بداية (مشئومة) فى تاريخ برلمان دستور ١٩٢٣ وان كانت (مقصودة) فى الوقت نفسه ..

اما الشؤم فمبعثه ان ما جرى بالنسبة للبرلمان الاول اصبح قاعدة فى تاريخ البرلمان المصرى ، واصبح استكمال اى برلمان لفصله التشريعى المفترض فى حكم الاستثناء .

واما القصد فقد بدا فى رغبة اطراف اللعبة السياسية فى مصر ، وبالذات الانجليز والقصر ، فى التأكيد على حقيقة عانت منها البرلمانات المصرية على تواليها .. تلك الحقيقة هى ان « القوة فوق الحق والحكومة فوق الامة » وهى عكس المقولة التى كان يرددها سعد زغلول طول الوقت .



احمد زيور بك

الخيط الثاني يرتبط « بموقف الوفد » انطلاقا من تمثيله للحركة الوطنية وتأسيسا على انه كان القوة المتضررة من حل البرلمان الاول والمتطلعة الى الاستمرار في الحفاظ على اغلبيتها في الانتخابات الجديدة .

وكان على الحزب الكبير ان يواجه عددا من الانتكاسات بعد خروجه من السلطة ، كان منها القاء القبض على بعض من نواب الوفد دون مراعاة لحصانتهم البرلمانية (انظر الفصل الخامس) وكان منها استقالة عديدين من الهيئة الوفدية بحجة ان الوفد « غير موال للعرش » او انهم « اخذوا على سعد اشياء اثناء حكمه »

مع ذلك فقد صمم الوفد على عدم الاستسلام وقرر سعد العودة الى الحياة السياسية راغبا فى خوض المعركة مصرحا ان هدفه من الاشتراك فى الانتخابات المقبلة انما هو « انقاذ الدستور » معربا عن ثقته فى فوزه لان « هؤلاء القابضين على زمام السلطة اليوم ليس لهم فى البلاد من يذكر من الانصار »

ونستخرج من الخيط الثالث موقف احزاب الاقلية ، وكانت على توالى اهميتها الاحرار الدستوريين منافس الوفد العتيد ، الحزب الوطنى الذى رأى اغتنام الفرصة ليلعب دورا فى البرلمان الجديد لم يتمكن من القيام به على نحو ما يشتهى فى البرلمان السابق ، واخيرا حزب الاتحاد الذى تشكل فى تلك الاثناء وجاء وليدا لظروف المعركة الانتخابية الجديدة .

وتجمع التقارير على ان كلا من الاحرار الدستوريين وزعامة الحزب الوطنى قد قبلا التحالف مع القصر ووزارة زيور لخوض المعركة ضد الوفد .

يسجل المندوب السامى البريطانى فى تقرير سرى له هذا التطور بقوله : « لقيت الدعوة لتفاهم عام ضد زغلول كل إستجابة من جانب الاحرار الدستوريين ، وتم لاول مرة منذ عامين ، استقبال زعمائهم فى قصر عابدين ، فبالاضافة الى كل من عدلى باشا ورشدى باشا عقد الملك اجتماعات مع كل من ثروت وصدقى ومحمد محمود ، والتقى كذلك برئيس الحزب الوطنى حافظ باشا رمضان الذى صرح بانه هو وانصاره على استعداد للدخول فى تحالف ضد الوفد »

الاكثر اتصالا من بين احزاب الاقلية ببرلمان اليوم الواحد كان حزب الاتحاد ، وهو حزب تأسس فى كنف القصر وبتخطيط وتنظيم من رجله القوى انذاك حسن باشا نشأت .

وقد تأسس حزب الاتحاد فى ١٠ يناير عام ١٩٢٥ اى خلال الاسابيع القليلة السابقة على اجراء الانتخابات (١٢ مارس) وكان الهدف الاساسى من وراء تشكيله ان يكون « قوة ملكية » قادرة على مواجهة الوفد فى هذه الانتخابات بعد ان ثبت عجز الحزبين الكبيرين الاخرين (الاحرار الدستوريين والوطنى) عن هذه المواجهة حتى انه يمكن القول ان حزب الاتحاد كان « حزبا انتخابيا »

وكان لتأسيس هذا الحزب الملكى معنى غريب فى تاريخ البرلمان المصرى فالعادة انه تنبثق عن العمل الحزبى اشكال الحياة البرلمانية غير ان الصورة هنا قد انقلبت فأصبح السعى وراء الاغلبية فى البرلمان هو المتحكم فى انشاء الاحزاب !

الخيط الرابع متعلق بموقف اطراف السلطة .. وكانت على توالى اهميتها : دار المندوب السامى ، الملك فؤاد ، واخيرا

الوزارة التى تشكلت تحت رئاسة زيور ، وقد تلاقت مصالحها فى الانتخابات هذه المرة .

ونبدأ « بقصر الدوبارة » كان من الطبيعى ان يكون موقف اللورد اللنبى بعد صدام الشتاء العنيف مع سعد زغلول متسما بالحرص على عدم انتصار الاخير فى معركة الربيع .

ولم يخف المندوب السامى البريطانى هذا الحرص ، فقد كتب فى احدى مراسلاته السرية ..

تحمس زيور باشا للفكرة القائلة بضرورة بذل الجهود لهزيمة زغلول باشا والزغلولية على اعتبار ان تحقيق ذلك يوفر افضل وسيلة لاقامة علاقات حسنة معنا وتوفير الادارة المنظمة والجيدة التى تحتاجها البلاد .

« وانا طول الوقت على اتصال وثيق به وهو يستشيرنى فى كل خطوة يتخذها . وقد ابلغته ان مثل هذه السياسة تتفق مع رغبات حكومة جلالته وانه يستطيع الاعتماد على مساندتى القلبية »

وكان ما يملكه الجانب البريطانى فى هذا الصدد أن يقوى جبهة العداء للوفد من خلال اطلاق العنان لنزعة الملك الاوتوقراطية ، ومن خلال مساندة الوزارة القائمة ، واخيرا من خلال التنسيق بين طرفى السلطة بشكل يمنع احتمالات الصدام بينهما .

لم يختلف الامر كثيرا فى قصر عابدين ، فقد كان الملك فؤاد على استعداد ان يفعل اى شىء لمنع سعد زغلول من العودة الى السلطة بعد التجربة المريرة التى خاضها معه خلال العام السابق .

وقد قرر الملك فى هذه المرة عدم الاكتفاء بمساندة الوفد فى الانتخابات المقررة بل خوضها برجال يعلنون صراحة انهم رجال السراى .

وقد توفرت فى ذلك الحين الشخصية القادرة على تنفيذ السياسة الملكية ، فقد لعب حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكى دورا بارزا فى الاحداث التى ادت الى تشكيل برلمان اليوم الواحد ثم ادت الى حله !

واذا كان حسن نشأت ضالعا فى المؤامرات التى واجهتها وزارة زغلول قبل سقوطها فقد كان من المنطقى أن يتصدر مجموعة العاملين على عدم عودة الوفد الى السلطة .

وقد توسل القصر من خلال وكيل الديوان بوسائل عدة لمنع هذه العودة وان كان أهمها ما ونجح فيه من تشكيل حزب الاتحاد ليخوض به الانتخابات . وقد تصور نشأت باشا انه سوف يؤثر فى المجرى العام للمعركة الانتخابية من جراء هذا العمل .

ويمكن تبين هذا التصور مما صرح به صانع الحزب الحقيقى للدكتور هيكل المسئول الكبير فى الاحرار الدستوريين عندما طلب هذا الاخير من نشأت باشا تفسيرا لتأسيس الحزب .

قال وكيل الديوان « ان بالبلد حزبين لا ثالثا لهما : الوفد والاحرار الدستوريون . وقد تغلب الوفد فى الانتخابات الاولى ووصل الى قاعد الحكم ، حتى لقد ظن البعض وقتئذ ان الاحرار الدستوريين قضى عليهم قضاء حاسما ، لكنهم مالبثوا حين ثبتوا للموقعة بعد الهزيمة ، ان بدءوا يكسبون

الرأى العام . ولو انهم كسبوا المعركة الانتخابية من الوفد وتولوا هم الحكم ، لاستأثروا بالامر فيه كما استأثر به الوفد ولبقى القصر ينظر الى هذا كله وليس له من الامر شيء فتأليف هذا الحزب الجديد يراد به ان يكون حزب موازنة في البرلمان ، يستطيع القصر به ان يغلب احد الحزبين على الأخر ..»(١)

على الجانب الاخر وفى تقييم شامل للموقف يكتب اللورد اللنبى عن اثر انشاء الحزب الجديد ، على المعركة الانتخابية المنتظرة .. يقول :

« خلال الفترة القصيرة التى اعقبت تأسيس حزب الاتحاد اصبح الحزب الجديد عاملا له تأثيره فى الحياة السياسية فى البلاد خاصة لما اصبح معلوما على نطاق واسع من مساندة الملك له .. وبترتيب من نشأت باشا امكن تشكيل لجان للحزب فى كل المديريات واختيار عدد كبير من اعضائه « للترشيح فى الانتخابات وعملت الادارة الحكومية على مساندتهم بشتى الوسائل »(٢)

ومن قصر الدوبارة وقصر عابدين الى الدواوين حيث مقر مجلس الوزراء الطرف الثالث من اطراف السلطة من حيث ترتيب الاهمية وان كان الطرف الذى قدر له خوض المعركة الانتخابية مواجهة مع الوفد ، وتروى تقارير اللورد اللنبى القصة الكاملة للدور الذى كان على وزارة زيور ان تلعبه لمنع الوفد من العودة الى البرلمان .

(١) د . محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج١ ص ١٨٨

(٢) F. o. 407/200 No. 48 Op . cit

اتصل الجانب الاهم من هذه التقارير بالشخصيات التى كان مطلوبا منها القيام بالدور الاهم فى اللعبة وكانت بتوالى اهمية المنصب ، لا اهمية الدور ، رئيس الوزراء احمد زيور باشا ووزير الداخلية اسماعيل صدقى باشا .

فيما يتعلق برئيس الوزراء ، زيور باشا ، يعريه تماما تقرير المندوب السامى الذى يراه فى غاية الضعف من جانب وفى غاية الانتهازية من جانب اخر .

الضعف الذى وصل الى مرتبة الخيانة الوطنية يشير اليه اللنبى فى جانب من تقريره فيقول : « كان زيور باشا فى لقاءاته الخاصة معى يعبر عن دهشته من اننا لم ننتهز الفرصة ونقوم بضم مصر ، وعندما كان ينوء بحمل المنصب كان يعبر ، والدمعة فى عينيه ، عن اسفه اننا لم نفعلها وانه قد اجبر على تقديم تضحية شخصية كبيرة ومواجهة مخاطر هائلة ..»[٣]

اما الانتهازية فقد عبر عنها التقرير فى جانب اخر منه بقوله « تحت الاندفاع بالرغبة فى ادخال السرور على قلبى وقلب الملك اعلن زيور باشا لنا انه راغب فى ان يكون رجل جلالته ضد زغلول غير انه فى هذا خانه التقدير فى انه غير كفؤ للقيام بمثل ذلك العمل سواء من الناحية العقلية او الناحية النفسية »

وبهذا الفهم تقرر ، وبناء على النصيحة البريطانية ، اسناد منصب وزارة الداخلية ، الذى شغله زيور بالاضافة للرئاسة مع تشكيل الوزارة [٤] .. اسناده الى شخصية قادرة على ادارة المعركة الانتخابية بشكل يحقق الهدف المشترك

(٣) Ibid

لاطراف السلطة .

ولم يكن هناك من رجال الوزارة التى تألفت غداة استقالة الوزارة الزغلولية « من يستطيع القيام بمثل هذا العمل »(١٥)

وبعد تقليب الامور وقع الاختيار على صدقى باشا الذى صدر المرسوم بتعيينه فى ٩ ديسمبر « وبدا واضحا مع هذا التعيين ان حكومة زيور فى طريقها لشن هجمة على الزغلولية »(٦)

ولم يمض وقت طويل حتى كان الوزير الجديد قد هيمن تماما على الوزارة ، وكما جاء فى الوقت نفسه التقرير البريطانى « لقد وقع زيور باشا تماما اسيرا لنفوذه ولم يكن يبت فى اى امر له اهمية سياسية او ادارية قبل عرضه عليه »(٧)

وبالرغم من ان المعركة الانتخابية قد بدأت بعد نحو شهرين من تعيين صدقى غير انه يمكن القول انه قد شرع فى الاستعداد لها منذ هذا التعيين مما يشكل فصلا مثيرا فى تاريخ البرلمان المصرى .

المعركة الانتخابية :

جرت هذه المعركة على ثلاث جولات بدأت اولاها منذ تعيين صدقى (٩ ديسمبر ١٩٢٤) الى اجراء انتخابات

---

(٤) د . يونان لبيب رزق : تاريخ الوزارات المصرية ص ٢٨٢

(٥) F.o.407/200 No. 48 Op . cit

(٦) Ibid

(٧) Ibid



حافظ رمضان باشا

للمندوبين الثلاثينيين (٤ فبراير ١٩٢٥) ، وامتدت الثانية الى اجراء انتخابات اعضاء مجلس النواب (١٢ مارس) وكانت الثالثة بين انتهاء الانتخابات الاخيرة وانعقاد المجلس بعد ذلك باحد عشر يوما :

الجولة الاولى : كان فارسها بلا منازع اسماعيل صدقى الذى شرع على الفور فى اتخاذ الاجراءات المناسبة لضرب الوفد .

وليس افضل من تقرير المندوب السامى البريطانى فى متابعة ما قام به وزير الداخلية خلال هذه الجولة ، فمن ناحية لا يمكن اتهام اللورد اللنبى وهو صديق الوزارة الزيورية بالتجنى على صدقى باشا ، ومن ناحية اخرى كان هذا التقرير ضمن مراسلاته لحكومته وبالتالى كان من الطبيعى ان يتحرى فيه الصدق والدقة .

جاء فى مستهل هذا التقرير ..

« شرع صدقى باشا فى تنفيذ مهمته الصعبة والخطرة بقدر واضح من الرغبة والتصميم .. وكان اول اعماله الادارية اعادة ترتيب مديرى ووكلائها والمآمير فأحال على المعاش رشاد باشا . مدير الغربية الذى كان قد وضع نفسه رهن اشارة الحكومة الزغلولية فى تنكيلها بخصومها . كما قام بنقل مديرين اخرين ممن كانوا قد تهاونوا فى العهد الوفدى فى التمسك بسلطاتهم وتخلوا عن جانب منها للشيوخ والنواب[8] .. قام بنقلهم الى مناصب اقل اهمية . واعاد الى وكالة وزارة الداخلية على جمال الدين باشا الذى كان قد نقل من منصبه ليشغله محمود فهمى النقراشى افندى ، كما عين

---

(٨) F.O. 407/199 No. 493 Allenby to chawberlain, Dec. 19,1924 Tel No. 554

وكيلا اخر هو حلمى عيسى باشا احد خصوم الوفد وكان زغلول باشا قد فصله من مديرية الغربية »

ويعلق اللورد اللنبى على اثر هذه الاجراءات بقوله : « ساد الذعر معسكر زغلول باشا نتيجة لتعيين صدقى باشا ، ثم ان ما استتبع ذلك من الاجراءات الادارية التى اتخذها قد خلف اثرا عميقا فى البلاد .

« بدا الجانب الطيب من هذا الاثر بشكل سريع خاصة بالنسبة لموظفى الحكومة الذين كانوا مترددين بين تأييد سياسة الحكومة والاعتراض عليها . غير ان هذا لم يكن كافيا فقد تأثر اولئك الذين لم يكونوا معادين للزغلولية برد زغلول الحاسم حين اصدر بيانا ذا صبغة تهديدية وجهه للشعب المصرى والوزراء وموظفى الحكومة ناشد فيه الاولين بمساندته وحذر فيه الاخرين مما ينزلقون اليه من محاربته باعتباره ممثلا للامة وقد بذل صدقى باشا اقصى جهد للتقليل من اثر هذا البيان غير انه لم يحرز سوى نجاح محدود »[٩]

ولم يؤد بيان سعد زغلول ولا الاثار التى ترتبت عليه سوى الى « اكتساب السياسة الداخلية للملك والحكومة كل تصميم واصرار . ولم يدخر اى جهد لمواجهة النفوذ الوفدى فى شتى انحاء البلاد ، وتم توظيف الادارة الحكومية بشكل يكاد يكون تاما منذ حل البرلمان فى نهاية العام لضمان هزيمة مرشحى الوفد فى الاقتراع ، وقد تلمس هؤلاء الاسباب لمدة فترة الشهرين التى يحددها الدستور بين يوم الحل وميعاد الانتخابات الجديدة على امل ان ينجحوا من خلال هذه الوسائل فى عدم تمكين الزغلوليين من الحصول الا على اقلية

---

(٩) F.O.407/200 No. 48 O p. cit

برلمانية . وقد تقرر اذا مافشلوا فى ذلك ان يستخدم الملك حقه ويحل البرلمان مرة اخرى »[١٠]

يستطرد المندوب السامى :

« عندما ارسل لى صدقى هذا البرنامج ابلغته بانه يستطيع الاعتماد على معونتى طالما لم يكن هناك اتجاه للاتفاق مع زغلول باشا وطالما استمرت الحكومة مخلصة فى تعاونها مع حكومة جلالته على اساس تصريح فبراير ١٩٢٢[١١]

واعتمادا على هذه المعونة تصور اسماعيل صدقى انه لو اصدرت الحكومة البريطانية بيانا يفيد بان سعد زغلول لن يعود ابدا الى السلطة فى البلاد فقد يؤدى مثل هذا البيان الى انفضاض انصاره عنه وانتهاء سطوته وتأثيره فى البلاد .

غير ان تعليق اللنبى انه « من المستحيل اعطاء مثل هذا التصريح ما يتطلبه من شرعية » ويروى المندوب السامى قصة الاتصالات التى جرت بينه وبين وزير الداخلية حول هذا الموضوع .. قال : « اوضح لى صدقى باشا انه بينما يجب ان تعتمد الحكومة المصرية على نفسها تماما فى هزيمة زغلول غير انه مما يقويها كثيرا الاشارة من جانبنا فى خطبة عامة بان حكومة جلالته عازفة عن التعاون مع اى حكومة زغلولية على الا يبدو من ذلك اى شبهة تدخل فى الشئون المصرية .. وقد شاركت صدقى باشا رأيه وارسلت لكم ـ اى لوزير الخارجية البريطانية ـ بيانا بهذا المعنى » ويفيد اللنبى بان

---

(١٠) Ibid
(١١) Ibid

حكومته لم توافق على النص المقترح والقى المستر تشمبرلين بدلا من ذلك فى خطبته له فى برمنجهام فى ٣١ يناير نصا اقل من المطلوب « لم يأت بالاثر الذى توخاه صدقى »[١٢]

رغم ذلك استمر صدقى باشا فى طريقه لا يلوى على شىء حتى ان الاستاذ عبد الرحمن الرافعى مؤرخ الحزب الوطنى ، وهو من الاحزاب التى اشتركت فى الحلف الوزارى ، لم يجد مناصا من اتهام الوزارة بالخروج عن « سنن الدستور ، فان قانون الانتخابات المباشر الذى قرره البرلمان[١٣] كان يجب ان يبقى قائما ، وان تجرى الانتخابات على اساسه ، ولكن الوزارة طرحته جانبا ، وفى الوقت نفسبه لم تحترم قانون الانتخابات القديم ، اذ امرت بتجديد انتخاب المندوبين الثلاثينيين ، فى حين ان القانون القديم يجعل انتخاب هؤلاء لمدة خمس سنوات تنتهى فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ ، فلا هى احترمت قانون الانتخابات الجديد ، ولا هى نفذت القانون القديم ، بل لفقت نظاما فذا ، اخذت تسوف وتماطل فى اجراء الانتخابات »[١٤] .

والواقع ان الخيارين الدستوريين اللذين يطرحهما الرافعى لم يكونا ليتفقا مع سياسة الحكومة باسقاط الوفد ، فخيار الابقاء على المندوبين الثلاثينيين للبرلمان السابق كان يعنى استسلام الحكومة لسعد وانصاره بدون اى معركة ، وقرار القبول بنظام الاقتراع العام الذى اقره القانون الجديد كان

(١٢) Ibid
(١٣) انظر الفصل الخامس
(١٤) عبد الرحمن الرافعى : فى اعقاب الثورة المصرية جـ١ ص ٢١٠

يعنى النزول للشارع المصرى بكل ما تعلمه من هيمنة الوفد على هذا الشارع . وهى بذلك تدخل فى معركة خاسرة على عكس الحال لو تم انتخاب مندوبين جدد تمارس عليهم نفوذها وضغوطها وتستطيع من خلال هذه الممارسة ان تحقق اهدافها .

ثم انها بدأت فى ممارسة هذا النفوذ قبل انتخابات هؤلاء المندوبين وفى اثنائها . مثل على ذلك ما قامت به « فى اخر وقت من تعديل ١٠٦ دائرة من ٢١٤ دائرة للتضييق على الوفد ومنع اعضائه من ممارسة حقهم الانتخابى »[١٥]

مثل اخر فيما اشارت اليه الاهرام فى اليوم التالى لانتخابات اللجان بان « نظرة واحدة فيما يوافينا به البرق من عشرات الرسائل تحقق مع الاسف الشديد ان كثيرا من رؤساء اللجان قد ضربوا بحق الناخبين عرض الافق غير عابئين انهم بهذا الخروج يضربون بالمعاول فى حجر الزاوية من بناء الدستور »[١٦]

وبالرغم من كل هذه الممارسات اللادستورية فقد جاء رد الفعل الوفدى محدودا فيما جرى فى « بندر المحلة الكبرى » على حد بيان وزارة الداخلية من « اعتداء الجمهور بالضرب على اعضاء لجنة الانتخاب وتحطيم صناديقه وتمزيق الكشوف ولما قبض البوليس على بعض الاشخاص اعتدى الجمهور على منزل العمدة واقتحموا المركز .. وقد اصيب

---

(١٥) احمد شفيق : حوليات مصر السياسية ـ الحولية الثانية ص ١٣٣ ـ ١٣٤

(١٦) الاهرام فى ٥ فبراير ١٩٢٥

اثنان من رجال الجيش وخمسة من رجال البوليس وخفيران فاضطر رجال البوليس الى اطلاق النار فأصيب ثلاثة من الاهالى فى ارجلهم .. اما الانتخابات فى البندر فقد تأجل اجراؤها الى يوم السبت القادم »[١٧]

ويعلق اللورد اللنبى على انتخابات المندوبين بانها قد تمت فى هدوء « وقد ادعى كل من الحكومة والوفد انهم فى طريقهم الى الفوز والحقيقة انه يمكن القول انها كانت فى صالح الحكومة فقد نجح صدقى باشا فى ضمان انتخاب عدد كبير من المندوبين يمكنه الاعتماد عليهم واستبعاد عدد ممن لا يستطيع الوثوق بهم . وقد عنى انتهاء هذه المرحلة بالنسبة للطرفين تكثيف حملته حيث انها قللت من عدد الناخبين وحددت ميدان المنافسة »[١٨]»

وبهذا التقييم للمندوب السامى تنتهى الجولة الاولى غير انها لم تكن الاخيرة !

بدأت الجولة الثانية مباشرة غداة انتهاء انتخابات اللجان الثلاثينية فى ٤ فبراير عام ١٩٢٥ ، وقد تصاعدت المعركة خلال هذه الجولة على نحو فاق كثيرا درجة حرارتها خلال الجولة السابقة .

ويلاحظ ان الطرفين قد استخدما فى هذه الجولة كافة الاسلحة المتاحة بغض النظر عن شرعيتها .. المهم تحقيق الهدف وهزيمة الطرف الاخر ..

فيما يتصل بالحكومة فقد نجحت فى منع انتخاب سعد

(١٧) الاهرام ـ العدد السابق ـ نصر بيان وزارة الداخلية
(١٨) F. O. 407/200 No. 48 Op. cit

زغلول كمندوب ثلاثيني بان وضعت وزارة الداخلية الكشف الذى ادرج فيه اسمه على نحو يجمع الناخبين من ستة شوارع مختلفة ، ولم يدرج فيه من اسماء الناخبين سوى اسمه واسم البواب[١٩](!)

دعا ذلك صحف الوفد الى التعليق متسائلة عما « يسوغ للوزارة ان تفكر فى منع سعد باشا ان يكون نائبا والامر ليس امر عشرة من الموظفين بل امر ٢٢٣ مندوبا منهم ١١٩ رشحتهم لجنة الوفد فنجحوا »[٢٠]

قررت وزارة الداخلية ايضا ان يتم التصويت بالقلم الرصاص الاسود مما ارتآه الوفديون تعبيرا عن نية الحكومة على التزوير وطالبوا باستخدام « القلم الكوبيا اوالقلم الحبر منعا للتلاعب »[٢١]

فى الوقت نفسه اخذ صدقى باشا فى عقد الاجتماعات مع المديرين والمحافظين « وكانت وصيته الوحيدة والخطيرة معا هى انهم مسئولون امامه عن نجاح من يمكن ان ينجح من الوفديين وانه لن يعين الوسائل التى يجب اتخاذها للحيلولة دون هذا النجاح بل يترك لكل مدير ومحافظ ان يتخذ من هذه الوسائل ما يرى انه مؤد للغرض»[٢٢]

وبمرور الوقت كانت تتزايد حدة الاجراءات الحكومية حتى

---

(١٩) احمد شفيق : المصدر السابق ـ الحولية الثانية ص ١٤١ ـ ١٤٢

(٢٠) البلاغ فى ١٠ فبراير ١٩٢٥

(٢١) البلاغ ـ العدد السابق

(٢٢) البلاغ ـ ٢٥ فبراير ١٩٢٥

وصلت قبل الانتخابات باسبوعين ، وفي يوم ٢٥ فبراير على وجه التحديد الى حصار بيت سعد فقد وقف رجال البوليس منذ عصر ذلك اليوم على مداخل الشوارع المؤدية الى البيت ليمنعوا الناس من الوصول اليه والاتصالات بصاحبه خلال المعركة الانتخابية(٢٣)

وزادت كثافة الحملة خلال الايام الاولى من مارس فقد اجرت الداخلية تعديلا في كشوف الانتخاب يقضى بتعيين مندوبى المرشحين فى اللجان وقد رأت الصحف الوفدية ان هذا التعديل قد استهدف منع مندوبى الوفد من الدخول الى قاعات الانتخاب وتأليف اللجان من مندوبى المرشحين الاخرين(٢٤)

وبلغت الحملة الحكومية ذروتها بالمنشور الذى اصدره وزير الداخلية فى نفس اسبوع الانتخاب بمنع احتشاد الناس قرب مقار اللجان « وان تسد الطرق الموصلة لها على بعد كاف يقدره البوليس » ومنع المظاهرات والاجتماعات يوم الانتخابات ، واتخاذ الاجراءات ضد الطلاب الذين يشاركون فى الحملات الانتخابية طالما كانوا غير مقيدين فى كشوف الناخبين(٢٥) فى الوقت نفسه صدرت المراسيم الملكية بتعيين ثلاثة من رؤساء الوزارات السابقين المعادين لسعد(٢٦) فى مجلس الشيوخ بهدف تقوية مركز الحكومة فى المجلس(٢٧) وتنبيه الناخبين الى تأييد القصر للوزارة .

---

(٢٣) احمد شفيق : المصدر السابق ص ١٧٣
(٢٤) نفس المصدر ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥
(٢٥) الاهرام ٦ مارس ١٩٢٥
(٢٦) هم رشدى باشا ، عدلى باشا ، ويحيى ابراهيم باشا
(٢٧) احمد شفيق : المصدر السابق ص ٢٨٧

ولم يملك المندوب السامي سوى الاعتراف لحكومته بان الشكاوى التى تتردد عن الوسائل التى يستخدمها صدقى عادلة تماما وان كان قد التمس له الاعذار ، او كما قال « مظالما انه يسعى لهزيمة المرشحين الوفديين فمن المستحيل عليه التزام جانب الحياد »[٢٨]

بالمقابل لجأ الوفد الى وسائله التقليدية لمواجهة خطة الحكومة غير انه فى الوقت نفسه حاول استخدام وسائل غير معهودة من جانب الحزب الشعبى مما كشفت عنه تقارير المندوب السامى .

الوسائل التقليدية بدت فى العمل على تحريك الجماهير المصرية خاصة جماعات الطلاب هذه واحدة ، ثم كانت الوسيلة الثانية الخطب الملتهبة التى كان يلقيها سعد زغلول والتى قال فى احداها « ان الانتخابات الجارية الان ليست فى الحقيقة انتخابات بل هى بالتعيين اشبه لانهم يحملون الناخبين بكل وسيلة على ان يجتنبوا انتخاب من يثقون به وان يختاروا من ليس لهم فيه اقل ثقة واذا لم ينجح القهر فيهم استعملوا الغش ليصلوا الى بغيتهم »[٢٩]

وقد علقت الديلى اكسبريس البريطانية على خطب الزعيم المصرى بانه « قد يستطيع بخطبة واحدة ان يشتت شمل الاكثرية »[٣٠]

---

(٢٨) F.o. 407/200 No. 48 Op. cit
(٢٩) احمد شفيق : المصدر السابق ص ١٦٢
(٣٠) المصدر السابق ص ١٤٢

وكانت الوسيلة الثالثة بتدبير المسيرات ومجيء الوفود من الاقاليم لرفع شكاواهم الى الملك « من خرق الوزارة الحاضرة حرم الدستور والقانون واستخدامها رجال الادارة للعبث بحرية الانتخابات »[٣١]

يأتي بعد ذلك النهج غير التقليدى والسرى فى الوقت نفسه ، اذ تكشف الوثائق الانجليزية ان زعيم الوفد قد مد خلال هذه المرحلة يد التعاون الى كل خصومه .. الانجليز والقصر بهدف تحييدهم فى المعركة المنتظرة ، والاحرار الدستوريين بهدف ضمهم الى جانب الوفد ضد الحكومة ، وقد رفضت جميع الاطراف اليد الممدودة .

بالنسبة للانجليز يقول اللنبى « بذل زغلول جهودا مستميتة للاتصال بى . وقد ارسل لى مبعوثا قبل وقت قصير من حل البرلمان فى نهاية السنة ليسأل عما اذا كان حل البرلمان سيتم برغبة منى وعما اذا كنت افضل احلال وزارة من الزغلوليين المعتدلين محل وزارة زيور برئاسة محمد سعيد باشا مثلا الذى سيكون راغبا فى التوصل الى تسوية معقولة للمسائل المعلقة بين مصر وبريطانيا العظمى . وكانت اجابتى للوسيط ان حل البرلمان لا يعنينى ثم ان حكومة جلالته غير مهتمة باى مقترحات يقدمها زغلول باشا فى شأن التسوية بين البلدين .

« لم يمنعه ذلك من الاستمرار فى محاولة الاتصال بين الحين والاخر معربا عن اماله ومخاوفه من الانتخابات التى ستجرى بالاضافة الى دعوتى للتباحث فى اتفاق والى التعاون

---

(٣١) المصدر السابق ص ١٧٢

معه فى الحد من السلطة المتعاظمة للملك والحفاظ على الدستور الذى اعترف صراحة انه هدية من بريطانيا العظمى (لمصر) وقد التزمت طوال ذلك بحالة من عدم المبالاة »![٣٢]

ويروى المندوب السامى بعد ذلك محاولات سعد زغلول الاتصال بالقصر .. يقول :

« تبدو مظاهر الولاء للملك والتنصل من الدعوة للجمهورية من جانب زغلول ضرورة سياسية فى الوقت الحاضر .. وهو بالاضافة الى المديح العلنى استخدم كل وسائله الخاصة لاعادة تحسين علاقاته بالقصر ، وكان من ادواته لبلوغ هذا الهدف الامير عزيز حسن وزوجته صفية هانم التى وسطت الملكة غير انه لم ينجح فى ذلك »[٣٣]

اما الاحرار الدستوريين فيقول نفس التقرير ان زغلول قد اتصل بكل من رشدى وعدلى ومحمد محمود ودعاهم للانضمام اليه فى الحفاظ على الدستور ومعارضة الملك .. وانتهى هذا الاتصال الى لاشىء شأن الاتصالات الاخرى[٣٤]

الجولة الثالثة بدأت صباح يوم ١٢ مارس مع ادلاء الناخبين الثلاثينيين باصواتهم فى مقار اللجان الانتخابية .

ومنذ مساء هذا اليوم وحتى الساعة الحادية عشر من صباح الاثنين ٢٣ مارس دارت المعركة بين الطرفين حول مجموعة من النواب اتفقت جميع الاطراف على تسميتهم بالمترددين The Waverers

(٣٢) F. o. 407/200 No· 48 Op. cit
(٣٣) Ibid
(٣٤) Ibid

ومن خلال كتابات الجميع يمكن متابعة اهمية هذه المجموعة ودورها فى مستقبل برلمان اليوم الواحد .

لعل برقيات المندوب السامى البريطانى وبيانات وزارة الداخلية المصرية تجيب اولا على السؤال : كيف تواجدت هذه المجموعة ؟

خرجت اولى البرقيات من قصر الدوبارة الساعة الحادية عشر مساء نفس اليوم اجراء الانتخابات ، وجاء فيها ان النتائج التى ظهرت حتى هذه الساعة تشير الى نجاح ١٠٣ من خصوم زغلول منهم عدد من كبار مناوئيه(٣٥) و١٠٢ من الزغلوليين الذين خسر عدد من كبارهم(٣٦) دوائرهم كما تشير الى اعادة الانتخاب فى ٨ دوائر والى ان اثنين من الفائزين شكوك فيهم(٣٧)

فى الوقت نفسه (مساء ١٢ مارس) تصدر وزارة الداخلية بيانا جاء فيه : « نالت الحكومة الاغلبية فى الانتخابات ولذلك تقرر استمرارها فى الحكم »(٣٨)

فى اليوم التالى تتحدث برقية اخرى من برقيات المندوب السامى عن فوز ١٠٥ من خصوم الوفد و١٠١ من الوفدين

---

(٣٥) منهم ثروت وصدقى وعبد العزيز فهمى وعلى ماهر ومحمد على ومحمد محمود وتوفيق دوس وحلمى عيسى .

(٣٦) منهم مرقص حنا وحسن حسيب والغرابلى ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وفتح الله بركات .

(٣٧) F. o .407/200 No. 28 Allenby to chamberlain, March 12,1925 Tel. No. 105

(٣٨) الاهرام فى ١٣ مارس ١٩٢٥ (نص البيان)

ووجود عدد قليل جدا ممن لم يحددوا هويتهم وتمتلىء البرقية بالاستبشار ان هؤلاء سيوالون الحكومة فى المجلس بل اكثر من ذلك تنبأت بان ١٥ من الزغلوليين سوف يتحولون الى صفوف الحكومة (٣٩)

غير ان نغمة الاستبشار اخذت فى الخفوت حتى انه فى حديث جرى بعد اربعة ايام (١٧ مارس) بين اللنبى وصدقى افاد الاخير بان المجلس ينقسم الى مجموعات متمايزة : ٩٠ من خصوم زغلول المؤكدين و٩٠ من انصاره المؤكدين ونحو ٣٠ من المترددين(٤٠)

من مجموع هذه الافادات تتضح حقيقتان :

الاولى : اجماع المصادر الموالية للحكومة (المندوب السامى ووزارة الداخلية) على وجود شكل من التوازن بين الطرفين المتصارعين .

ولاشك ان مثل هذه النتيجة كانت بمثابة خيبة امل للدوائر الحكومية وهو ماعبرت عنه الديلى هيرالد الانجليزية فى اليوم التالى للانتخابات بقولها « تحولت الانتخابات الى سباق كتفا الى كتف بين السعديين وخصومهم ، ولاشك ان النتائج التى ظهرت حتى الان تدعو الى جزع الحكومة فقد استخدمت جميع مالديها من وسائل الضغط وكانت واثقة انها ستفوز

---

(٣٩) F. o . 407/200 No. 30 Allenby to chamberlair, Maarch 13, 1925 Tel. No. 108

(٤٠) F.o. 407/200 No. 33 Allenby to chamberlain, March 17, 1925 Tel No. 116

بتحطيم قوة الوفد وخلع زغلول باشا من مركز زعامة الامة »[٤١]

الثانية : ما تأكد من وجود عدد غير قليل (٣٠ كما قدرتهم الدوائر الرسمية) لم يحددوا انتماءهم لاى من الطرفين المتنازعين ويلاحظ ان تلك الدوائر قد قدرت هؤلاء فى اول الامر باثنين فقط غير انه لم تمض خمسة ايام الا وكان هذا التقدير قد تضاعف ١٥ مرة وكان معنى انضمام هذا العدد ، او القسم الاكبر منه ، لاحد الطرفين المتنازعين ، حسم المعركة لصالحه .

استتبع ذلك ان كرس كل من الوفد وخصومه كل الجهود خلال تلك الجولة لجذب هؤلاء المترددين .

الاساليب التى استخدمتها الحكومة تركزت فى جانب فى تقوية الوزارة وفى جانب اخر بالتلويح بالتهديدات الخفية والظاهرة للاعضاء المترددين .

اما تقوية الوزارة فقد تمت فى اليوم التالى مباشرة لاجراء الانتخابات حين شكل زيور وزارته الثانية (١٣ مارس) وضم اليها ثلاثة من اقطاب الاحرار الدستوريين[٤٢] وثلاثة من ابرز رجال حزب الاتحاد[٤٣]

---

(٤١) الاهرام فى ١٤ مارس ١٩٢٥

(٤٢) عبد العزيز فهمى رئيس الحزب ومحمد على بك سكرتيره وتوفيق دوس بك اهم خطبائه

(٤٣) بالاضافة الى يحيى ابراهيم رئيس الحزب الذى كان بالوزارة من قبل ضمت يوسف قطاوى باشا وموسى فؤاد باشا وعلى ماهر بك . انظر : د . يونان لبيب رزق تاريخ الوزارات المصرية ص ٢٨٥

ومثل هذا العمل من جانب الحكومة ، وفى هذا الوقت بالذات ، كان يقصد منه ان يكون بمثابة رسالة الى الاعضاء المترددين ، تقول هذه الرسالة فى جانب منها ان جميع خصوم زغلول قد ضموا صفوفهم ، فى الوزارة ، وفى البرلمان ، وتتضمن فى الجانب الاخر النية على استمرار الوزارة وبالتالى على الاعضاء المترددين ان يعلموا انهم بانضمامهم للحكومة فانما ينضمون للجانب الرابح .

واما التلويح بالتهديدات فجاء فيما افصح عنه وزير الداخلية من اشارات خفية وما كتبته صحف أحزاب الحكومة من مقالات علنية .

وزير الداخلية ، صدقى باشا ، اشار وفى اكثر من مناسبة خلال تلك الايام التى امتدت بين يوم الانتخابات ويوم انعقاد البرلمان ، انه اذا انحاز النواب للوفد فعليهم ان يتحملوا تبعة حل المجلس مرة اخرى(٤٤)

وكان من المنتظر ان يؤتى مثل هذا التهديد نتائجه بعد معركة حامية خاضها النواب وبعد نفقات باهظة تحملوها ، ومن ثم كان من الطبيعى ان يلتزموا بالحرص على عدم الوصول الى هذه النتيجة مرة اخرى ، وبهذه السرعة ، ودون جنى اى ثمار للمعركة التى دخلوها .

على الجانب الاخر كانت صحف الاحزاب الحكومية اكثر صراحة .. جريدة الاحرار الدستوريين توجه نداء للنواب المترددين تقول فيه :

---

(٤٤) F.o. 407 200 No . 48 Op ckt

« ايها النواب المترددين ان فى ترددكم هذا وهى صـ...
همتكم عن ان تنحاز الى سفينة النجاة لجريمة لاتغتفر ، ان
سعدا قد كان ربان هذه السفينة اياما طوالا فى عهد المجلس
المنحل فأوشكت السفينة ان تغرق ».

« انكم مؤمنون بوطنكم فلا ينبغى ان تلدغوا من جحر
مرتين وعليكم وحدكم ايها المترددين الهيابون يتوقف مصير
الدستور والنظام فى الداخل ومصير القضية الكبرى فى
الخارج »(٤٥)

وفى اليوم نفسه توجه جريدة الاتحاديين للنواب انفسهم
مانصه :

« على النواب من خصوم سعد ان يفهموا ان سعد باشا
لايملك لهم نفعا ولا ضرا وان فى ايديهم انقاذ البلاد مما
يتهددها من السعديين »(٤٦)

بالمقابل لجأ الوفد فى محاولة اجتذاب هذه المجموعة من
النواب الى وسيلتين ، تمثلت احداهما فى العمل على تبديدا
اثر التهديدات الحكومية والتأكيد على انها لاتملك تنفيذ
تهديدها بحل المجلس مرة اخرى لما يمثله مثل هذا الحل من
خرق سافر للدستور الذى لا يجيز حل المجلس ولنفس السبب
سوى مرة واحدة ، وكانت الوسيلة الثانية بما لجأ اليه سعد
وبعض رجاله ـ خاصة فتح الله بركات ـ من استخدام بعض
الحيل فى اقناع هؤلاء النواب بالانضمام للوفد ملوحين لكل

---

(٤٥) السياسة فى ١٧ مارس ١٩٢٥
(٤٦) الاتحاد فى ١٧ مارس ١٩٢٥

منهم بالامل بتولى احد المناصب الوزارية فى حالة فوزه بالاغلبية وتشكيله للوزارة(٤٧)

انتظر الجميع بعد كل ذلك يوم الاثنين ٢٣ مارس حيث تحدد ميعاد الجلسة الافتتاحية وقد وضع كل طرف يده على قلبه فى انتظار ما تسفر عنه انتخابات الرئاسة ، وبالتالى مايتضح عنها من هوية المجلس ، موال للحكومة ام وفدى الاغلبية .

انعقاد اليوم الواحد :

وجهت الدعوة لاعضاء البرلمان بمجلسيه ، الشيوخ والنواب ، للانعقاد على هيئة مؤتمر للاستماع الى خطبة العرش فى تمام الساعة العاشرة من صباح ٢٣ مارس على ان يكون الحضور الى مقر البرلمان قبل ذلك بنصف ساعة .

واستشعارا باهمية الجلسة بدأ الاعضاء يتوافدون من الساعة الثامنة ليحتلوا مقاعدهم وكان اخر من وصل سعد زغلول فى تمام التاسعة والنصف ، ونترك لاحد المعاصرين وصف دخول زعيم الوفد الى القاعة يقول « وصل يتقدمه الدكتور حامد محمود يتلوه فتح الله بركات باشا » فتوجهت اليه العيون فسار من الممر الجنوبى بين صفوف المقاعد الى اول مقعد امامي جلس على طرفه ورد تحيه المحيين بكلتا يديه وكان يقابل اثناء الطريق بالهتاف الشديد خارج المجلس حتى دخل المجلس »(٤٨)

(٤٧) حسن الشريف : الرجال اسرار ص ٤٤ ـ ٤٩
(٤٨) احمد شفيق : المصدر السابق ص ٣٣٨

في الوقت نفسه خرج الموكب الملكي من القصر ، وسار بين الجنود كالمعتاد ولوحظ ان الهتاف للملك وسعد باشا مع ان زيور باشا هو الذى كان يصحب فؤاد فى العربة الملكية[٤٩] .

ووصل الملك فؤاد الى قاعة المجلس « بين قصف المدافع وتحية الجنود وعزف الموسيقى » وسلم رئيس وزرائه خطبة العرش ليلقيها .

كان رأى المندوب السامى البريطانى انه لم يكن فى الخطبة شيء غير عادى وان كان قد استلفت نظره ان انصار الحكومة قد استقبلوها بتصفيق حاد ، غير ان القراءة المتأنية للخطبة تؤكد انه كان لهذا التصفيق مايبرره .

فقد جاء فى القسم الاخير منها ما نصه « ان النجاح مرهون بظهورنا بين الامم الاجنبية بالمظهر اللائق بنا وذلك بجمع كلمة البلاد وتوحيد صفوفها مما يترتب عليه انتظام احوالها وانتشار السكينة والطمأنينة في ربوعها ، ولا يكون ذلك الا بسلوك سبيل الحكمة وترك التقاطع والتنابذ والابتعاد عن الحركات السياسية العقيمة »

ولاشك ان انصار الحكومة قد فهموا ان المعنى بالاشارة الاخيرة هم زغلول وانصاره ومن ثم كان من الطبيعى ان يرحبوا بها هذا الترحيب الحار ، وكانت نقطة اولى فى الجلسة محسوبة لرجال الحكومة .

---

(٤٩) المصدر السابق ص ٣٢٧

انفض المؤتمر بعد الانتهاء من القاء خطبة العرش وخروج الملك وعقد كل من المجلسين جلسة على حدة ، وبدأ المستور ينكشف فى جلسةالنواب .

بدأت الجلسة فى الحادية عشرة وخمس دقائق ورأسها اكبر الاعضاء سنا ، احمد مظلوم باشا ، وتغيب عنها ثلاثة اعضاء فقط كان احدهم رهن الاعتقال على ذمة قضية اغتيال السردار .

واتضح منذ اول لحظة لهفة المعسكر الوفدى على سرعة اجراء انتخابات رئاسة المجلس بينما عمد انصار الحكومة الى محاولة تأجيلها لبعض الوقت تكون خلاله قد مارست مزيدا من الضغط وتبينت اكثر مواقف النواب المترددين على الطبيعة .

وقد لجأت الحكومة فى محاولة التأجيل الى شتى السبل ، فوزير الحقانية يطلب التأجيل الى حين « توزيع بيان بأسماء اعضاء المجلس على الاعضاء » وأحد انصارها يطلب التأجيل لانه « لابد ان نتعارف اولا »! ونصير اخر يتساءل « ماهو وجه الاستعجال فى ذلك ؟!»

على الجانب الاخر ضغط الوفد لحسم المعركة فى جلسة الصباح ، فقد كان فيما يبدو متأكدا من ان هذا الحسم سيكون لصالحه ، وقد ظاهر رئيس المجلس موقف الوفد مما ادى الى نزول انصار احزاب الحكومة على رغبة الرئيس والاغلبية ، وقد علق المندوب السامى على هذا بقوله « تقررت انتخابات رئاسة المجلس بعجلة ظاهرة »!

واجريت الانتخابات فى غيبة الوزراء الذين كانوا فى وداع

الملك واسفرت عن فوز ساحق لسعد زغلول زعيم الوفد الذى نال ١٢٣ صوتا .

وعندما عاد الوزراء الى الجلسة وجدوا المفاجأة امامهم ، خاصة وزير الداخلية الذى ابلغ اللنبى انه « كان لديه من الاسباب ما يجعله يعتقد بأن العناصر المشكوك فيها بالمجلس سوف تصوت الى جانب الحكومة ».

ويقول المندوب السامى فى محاولة لتفسير المفاجأة بأن الوفديين « قد خططوا بوضع اثنين من مؤيديهم على جانبى كل من الاعضاء المترددين وانهم قد مارسوا ضغطا مؤثرا ومباشرا على هؤلاء الاعضاء »

وهكذا كانت المفاجأة والجو العام الذى احاط بانتخاب سعد زغلول وانصاره فى المناصب القيادية فى المجلس ما دفع الوزراء الى الانسحاب من المجلس للتشاور فى الامر .

★ ★ ★

انقضت سبع ساعات بين رفع الجلسة الصباحية (الواحدة ظهرا) وبين ابلاغ رئيس الوزراء المجلس المرسوم بحله (الثامنة الا خمس دقائق مساء) وقد جرت خلال تلك الساعات محاولات محمومة من كل طرف .

(الوفد) على الجانب الاول سعى من ناحية الى شق صف الحكومة من خلال العرض الذى قدمه سعد زغلول للاحرار الدستوريين بضم وزيرين او ثلاثة من رجاله الى الوزارة التى تتشكل فى ظل المجلس الجديد ، كما انه حاول من ناحية

اخرى طمأنة سائر الاعضاء بحيدته فى ادارة المجلس حين قال فى كلمته بعد انتخابه « ارجو ان تشعروا بأنى سوف لا اكون فى هذا الكرسى ممثلا لحزب من الاحزاب وانما سأكون ممثلا للدستور وللوائح المجلس الداخلية »

على الجانب الثانى كانت هناك الحكومة التى اجتمعت وامامها كل تلك العروض الوفدية ، ويشير التقرير السرى الذى سجل هذا الاجتماع انه كان امام الوزراء ثلاثة خيارات :

اما (١) التعاون مع زغلول باشا على ضوء العروض التى قدمها لزعماء الاحرار الدستوريين (عدلى ومحمد محمود).

واما (٢) البقاء فى الوزارة الى حين صدور قرار بعدم الثقة نتيجة للاقلية التى يحوزونها فى المجلس .

واما (٣) الاستقالة وتقديم النصيحة للملك بحل المجلس .

وقد رفض المجتمعون الخيار الاول ، وصدر هذا الرفض فى جانب منه عن كراهيتهم لزغلول باشا ، وفى جانب اخر عن اعتقادهم ان المقترحات التى قدمها غير مخلصة وان الهدف منها تمكينه من كسب الوقت الذى يحتاجه لتحسين علاقاته بالملك واعادة العلاقات مع المندوب السامى الذى كان من الصعب عليه فى مثل هذه الحالة الاستمرار فى عدم الاعتراف به ، واذا ما تم له ذلك فسوف ينتهز اول فرصة لاسقاط الحكومة واحلال اخرى محلها تحت رئاسته

رفضوا ايضا الخيار الثانى فقد كان من الصعب على نفوسهم ان يحكموا وهم تحت رحمة زغلول باشا وانهم اذا ما

وافقوا على ذلك فسوف تتآكل مع كل يوم هيبة الحكومة اللازمة لاستمرارها .

ومن ثم لم يبق سوى الخيار الثالث الذى اخذوا به وقرروا تقديم استقالتهم وهم يعلمون ان الملك سوف يرفض هذه الاستقالة ويقدم على حل البرلمان بناء على نصيحتهم .

ونعود الى المجلس الذى كان منهمكا فى انتخاب المراقبين عندما دخله « اصحاب الدولة والمعالى رئيس الوزراء والوزراء » ونترك لمضبطة الجلسة رواية ما حدث بعد هذا الدخول .

« رئيس الوزراء : اتشرف باخبار المجلس ان الوزارة رفعت استقالتها الى حضرة صاحب الجلالة الملك فأبىٰ قبولها فأشارت على جلالته بحل المجلس فاصدر جلالته المرسوم الاتى :

نحن فؤاد الاول ملك مصر بعد الاطلاع على المادتين ٣٨ و٣٩ من الدستور وبناء على ماعرضه علينا رئيس مجلس الوزراء وموافقة رأى هذا المجلس .. رسمنا بما هو آت .

مادة اولى : يحل مجلس النواب .

مادة ثانية : المندوبون مدعوون لاجراء الانتخابات الجديدة لاعضاء مجلس النواب فى ٢٣ مايو ١٩٢٥ .

مادة ثالثة : مجلس النواب الجديد مدعو للاجتماع فى اول يونيه ١٩٢٥ .

مادة رابعة : على وزير الداخلية تنفيذ مرسومنا هذا ويعمل به ابتداء من اليوم ».

واختفى بالمرسوم الملكى اقصر برلمان فى تاريخ الحياة النيابية المصرية !

* * *

رقم الايداع : ٢٨١٠٠ / ١٩٩١
I . S . B . N
777 - 07 - 007 - 3

فهرس

الصفحة
مقدمة ٥
الفصل الاول :
التطور التاريخى لنظام الانتخابات فى مصر
(١) الفقراء يمتنعون ١٨٦٦ ـ ١٩١٣ .... ٩
الفصل الثانى :
التطور التاريخى لنظام الانتخابات فى مصر
(٢) الرعاع قادمون ١٩٢٣ ـ ١٩٥٢ .... ٢٤
الفصل الثالث :
التطور التاريخى لنظام الانتخابات فى مصر
(٣) الدخول بالقائمة ١٩٥٢ ـ ١٩٩٠ .... ٤٠
الفصل الرابع :
تحت القبة مستقلون ٥٦
الفصل الخامس :
الحصانة البرلمانية على
الطريقة المصرية ٧٠
الفصل السادس :
البرلمان الاول ١٩٢٤ .... ٨٦
الفصل السابع :
برلمان اليوم الواحد ١١٨

روايات الهلال تقدم

الرواية الفائزة بجائزة بوليتزر ١٩٨٩

دروس التنفس

تأليف

ان تيلر

ترجمة

عبدالحميد فهمى الجمال

تصدر : ١٥ ابريل سنة ١٩٩١

كتاب الهلال يقدم

البطل فى السيرة الشعبية

بقلم

د . أحمد شمس الدين الحجاجى

يصدر : ٥ ابريل سنة ١٩٩١

هذا الكتاب

تاريخ المؤسسات المصرية لم يحظ بقدر كاف من عناية المهتمين بالدراسات التاريخية الذين انصرفوا اكثر إلى تاريخ الحركة الوطنية ..

ولما كان البرلمان المصرى من أعرق هذه المؤسسات فقد نشأ منذ عام ١٨٦٦ فانه فى حاجة الى دراسات ودراسات لاستجلاء الجوانب العديدة من تاريخ هذه المؤسسة ..

وما يتضمنه هذا العدد من كتاب الهلال هو محاولة فى هذا السياق يقدمها د . يونان لبيب رزق الذى تخير بعضا من هذه الجوانب التى تشكل قصة البرلمان المصرى .

الاشتراكات

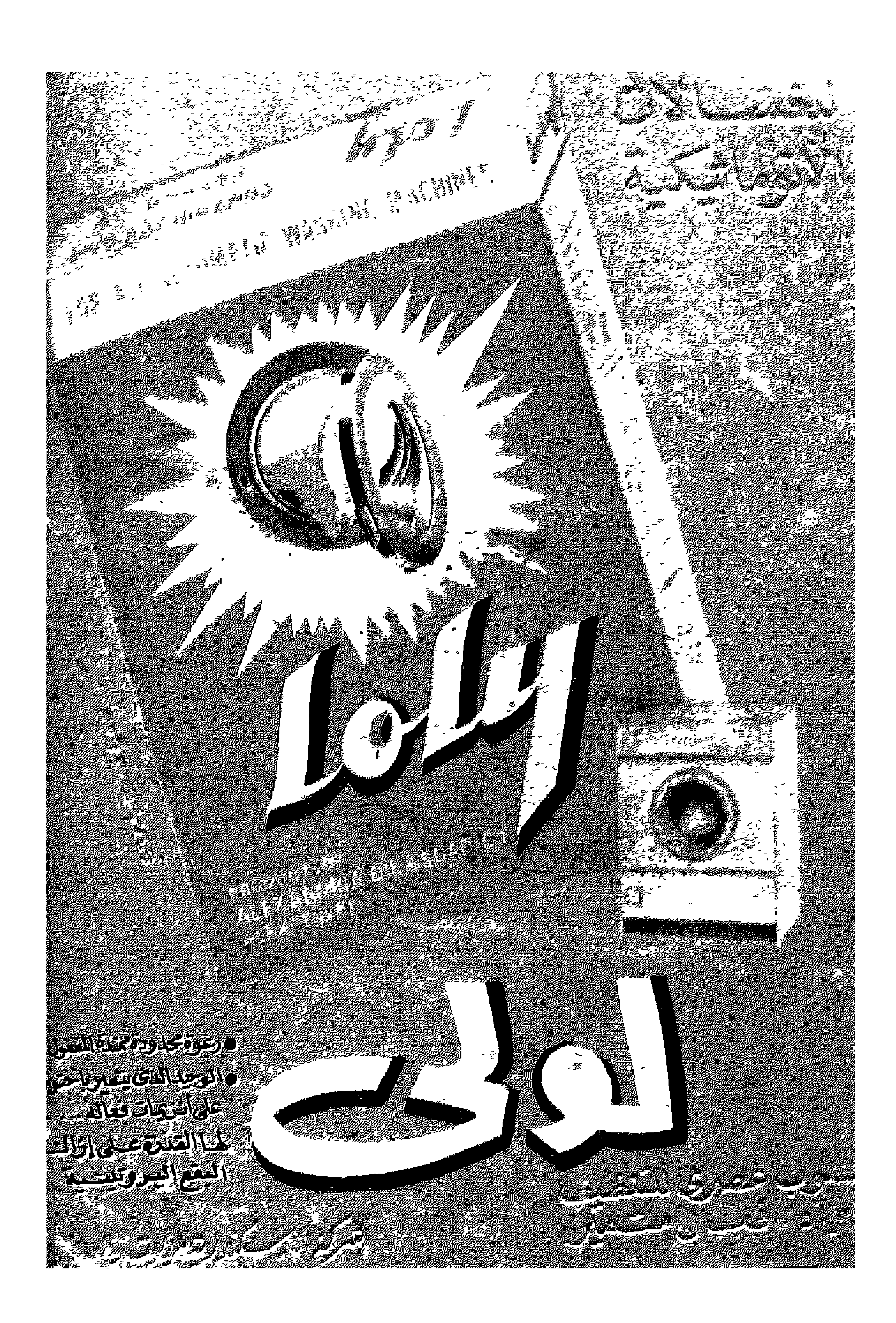
قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والإفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N


الماس
• رغوة محدودة ممتدة المفعول
• الوحيد الذى يتميز باحتـ
على أنزيمات فعالة
لها القدرة على إزالـ
البقع البروتينية

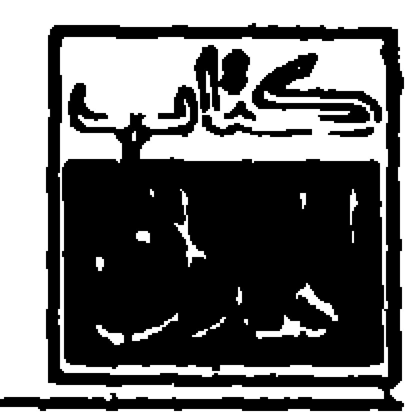
مولد البطل

في السيرة الشعبية

كتاب الهلال

د. احمد شمس الدين الحجاجى





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO . 484 AP . 1991 العدد ٤٨٤ - رمضان - ابريل ١٩٩١

اسعار البيع للعدد فئة ٢٥٠ قرش

الاردن ١٥٠٠ فلسا . الكويت ١٥٠٠ فلسا . العراق ٢ دينار . السعودية ١٠ ريال . المغرب ٢٠ درهم . البحرين ١٢٠٠ فلس . قطر ١٠ ريالات . الامارات العربية ١٠ درهم . سلطنة عمان ١ ريال . غزة والضفة والقدس ٥ر١ دولار . انجلترا ٥ر١ جك .

مولد البطل

فى السيرة الشعبية

بقلم

د . احمد شمس الدين الحجاجى

دار الهلال

الغلاف تصميم الفنان : محمد أبو طالب

إلى اخر فرسان السيرة
وقد ترجل عن فرسه :

الدكتور

النعمان عبدالمتعال القاضى



مقدمة

يتناول هذا البحث حلقة من حلقات السيرة وهى مواليد البطل كما قدمته السيرة الشعبية ..

والسيرة الشعبية نوع أدبى من أنواع الأدب العربى الذى أهمل أو أغفل حتى إنه لم يدخل ضمن الأنواع الأدبية المعروفة ، وقد اشترك فى هذا الإهمال كثير من الباحثين عربا كانوا أم غير عرب .

وقد أدى ذلك إلى التهاون فى جمع نصوصها ، فضاعت النصوص التى كانت تروى فى الأربعينات عن "عنترة" و"سيف ابن ذى يزن" و"المهلهل" .. بوفاة رواتها .

كما ضاع كثير من النصوص المختلفة لسيرة بنى هلال لوفاة رواتها ، ولم يبق إلا عدد قليل من رواة بنى هلال ، متناثرين فى أنحاء الإقليم المصرى ، وقد ترك معظمهم حرفة الرواية الشعبية للعمل فى حرف أخرى ، أو تحولوا إلى مغنين من مغنى الأفراح . وقد أدى هذا الإهمال إلى عدم التوفر على دراسة السيرة

الشعبية ، ورفضها لوناً أدبياً واحتقارها واحتقار مؤديها حتى الأربعينات من هذا القرن .

ولعل من أهم نتائج هذا الإهمال الحكم على العقلية العربية بأنها جزئية النظرة غير قادرة على رؤية الكل وقصور خيالها وعجزه .

بدأ هذا الحكم من خلال النظرة العنصرية عند "رينان" ، وانتهى إلى أن أصبح حكماً عاماً لا علاقة له حتى بالنظرة العنصرية . وقد تبنى وجهة النظر هذه "دى بور" و"جورج جيكوب" و"وجرونبوم" ، و"نيكلسون"[١] .. وقد وافق بعض الباحثين العرب على هذه النظرة ودعموها ؛ فالعقاد يرى أن العرب أمة بلا خيال ، وأحمد أمين أيضا يرى أن الجاهلى محدود الخيال ، وغنيمى هلال لا يتهم العقل العربى بشىء ، ويصب حديثه على القصة العربية فيرى أن لها مفهوماً خاصاً لم تنهض لتكون ذات رسالة إنسانية[٢] ..

وقد وقف أيضا بعض دارسى الأدب العربى من عرب وأجانب موقف المدافع ، من خلال تناولهم لفن السيرة الشعبية . فكان الحديث عنها دفاعاً عن العرب وعن فن السيرة والقصة عموما[٣] .

ولقد بدأ العرب يهتمون بدراسة أعمالهم الشعبية منذ الأربعينات من هذا القرن ، تمت معظم المحاولات داخل أروقة الجامعة أو من باحثين قريبين لأروقتها . ولقد كان الطريق شاقاً وصعباً أمام الرواد ، فلم يكن أمامهم من مثل يحتذونه سوى دراسات المستشرقين والرحالة ، وهى قليلة لا تكفى لأن تكون هادية للطريق الجديد . لقد كانت أقدم الدراسات محاولة محمد توحيد السلحدار الكشف عن أسباب تقبل الجمهور لمسرحية "الأحدب" التى قدمها "جورج أبيض" سنة ١٩١٢ م .. فربط بينها وبين مفهوم الفروسية فى القصص الشعبى[٤] . وقدمت سهير القلماوى رسالة لنيل درجة الدكتوراه عن "ألف ليلة وليلة" ،

سنة ١٩٤٢ م . وكان أول عمل يتناول السيرة الشعبية يقوم به الجيل الأول من الرواد ، هو بحث محمد فهمي عبداللطيف "أبو زيد الهلالى" سنة ١٩٤٦ م ، وفؤاد حسانين "قصصنا الشعبى" سنة ١٩٤٧ م ، وعبدالحميد يونس فى دراسته "الظاهر بيبرس" التى نال بها درجة الماجستير ، و"الهلالية" التى نال بها درجة الدكتوراه ، وكذلك شكرى محمد عياد فى دراسته "البطل فى الأدب والأساطير" التى قدمها سنة ١٩٥٩ م ، وقد درس فيها التكوين الذاتى والتكوين الموضوعى للبطل دراسة نفسية . أما الجيل الثانى من دارسى السيرة ، فقد عبد لهم الجيل الأول الطريق إلى حدٍ ما ومع ذلك فلقد كان الطريق أمامهم شاقاً وعسيرا .

قدمت نبيلة إبراهيم دراستها عن "ذات الهمة" التى نالت عليها درجة الدكتوراه . وكذلك دراستها عن "أشكال التعبير فى الأدب الشعبى" ،

وقدم محمود ذهنى "عنترة بين التاريخ والأدب الشعبى" ، وهى رسالة نال بها درجة الدكتوراه ، كما قدم مشتركا مع فاروق خورشيد "فن كتابة السيرة" ، وقدم فاروق خورشيد أيضاً "الرواية فى عصر التجميع" ثم قدم "أضواء على السيرة الشعبية" .

وقدم على زبعور "أضواء على السيرة الشعبية العربية" ، وقدم شوقى عبدالحكيم "سيرة بنى هلال" و"السيرة والملاحم الشعبية العربية" .. كما قدم محمد رجب النجار "أبو زيد الهلالى الرمز والقضية" و"البطل فى السيرة والملاحم" . وقدم صلاح الراوى "عزيزة ويونس" . وقد تتابعت محاولات عدد من الباحثين فى دراسات قدمت فى المؤتمرات العلمية والصحف والمجلات منهم "عبدالحميد حواس" و"حافظ دياب" و"أحمد ممّو" و"عبدالرحمن قيقه" .

وإذا كان الباحثون العرب يحاولون أن يؤدوا دوراً فى دراسة فن

السيرة الشعبية فإن الباحثين الغربيين لم يتوقفوا عن دراستها . فقد قدمت أنيتا بيكر "سيرة بنى هلال فى جنوب تونس" رسالة دكتوراه سنة ١٩٧٨ م ، من جامعة "إنديانا" . وقدم بيترهيث دراسة بعنوان "السيف الظمآن ، دراسة للبناء والتعبير فى سيرة عنترة" نال عنها درجة الدكتوراه من جامعة "هارفارد" سنة ١٩٨١ م . وظهرت حديثاً دراسة بردجت كونلى "الملحمة الشعبية والهوية" سنة ١٩٨٦ م(٥) .

ومازالت الدراسات تتابع فى بلدان متعددة بلغات متعددة ، من لغات أوروبا وآسيا ، وقد برز فى إيطاليا اسم جيوڤانى كانوڤا فى فهرسته للسيرة ..

والسيرة فى المصطلح ترجمة حياة . وفى التراث الشعبى ترجمة حياة فرد أو ترجمة حياة جماعة .

ترجمة حياة الفرد مثل "سيرة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومحاربته للملك الهضام" ، وكذلك سيرة "حمزة البهلوان" وسيرة "سيف بن ذى يزن" .

وقد تكون سيرة جماعة مثل "الهلالية" و"ذات الهمة" و"الظاهر بيبرس" .

وهذا البحث جزء من محاولة للتعرف على قوانين السيرة الشعبية وبنائها المعمارى ، يختص بمحاولة التعرف على القوانين المحددة لسمات مواليد البطل .

ولعل أقدم صورة منها موجودة بين أيدينا باللغة العربية هى سيرة "ابن هشام" التى تترجم للرسول عليه الصلاة والسلام .

فالسيرة الشعبية تمر بحلقات ترتبط بالفرد ارتباطاً وثيقاً يتتابع مع حلقات عمره . والمواليد إحدى هذه الحلقات . وهى مصطلح متعارف عليه بين الراوى الشعبى وبين جمهوره .

وقد أخذت هذا المصطلح من أفواه رواة السيرة وجمهورها فى فى محافظتى "قنا" و"أسوان" فى مصر العليا .

وهو لا يعنى لحظة ولادة البطل ، وإنما يعنى لحظة أكبر من هذه اللحظة إذ هو يستغرق زمناً أطول منها بكثير ، فهو تناول لعالم البطل قبل ولادته ثم تناوله وليداً وطفلاً حتى تنتهى مرحلة العبور . وهى مرحلة التعرف والاعتراف .

وقد ارتبط هذا المصطلح بسيرة بنى هلال وببطلهم أبى زيد الهلالى سلامة .

فالجزء الأول من سيرة بنى هلال هو باب مواليد أبى زيد ، وهو جزء فى غاية الصعوبة بناء وأداء لا يستطيعه إلا القادرون من الرواة ، فهو مدخل السيرة كلها . والمواليد لا ترتبط بسيرة بنى هلال فقط ، وإنما ببنية السيرة الشعبية عموما مروية ومدونة .

ولم أحاول أن أفسر النصوص تفسيراً نفسيا أو اجتماعيا ، وإنما جعلت النص هو الأساس الذى يكشف الضوء عن عالم المواليد ، فالعمل كله محاولة لإعادة قراءة نصوص السيرة فى بابها الأول ، مواليد البطل ، للوصول إلى العناصر المكونة لهذه النصوص . وإن كنت أحب أن أشير هنا إلى أن سيرة بهرام شاه وفيروز شاه وحمزة البهلوان هى تأليف وليست روايات شفوية شعبية . فليس من المعقول أن تؤلف الجماعة سيراً شعبية تعبر عن رؤية دونية لها وتمثل موقفا شعوبياً معارضا لقوميتها كما يتبدى فى بهرام شاه وفيروز شاه . وقد نشر نخلة قلفاط بهرام شاه عام ١٨٩٨ على أنها من تأليفه . أما سيرة فيروز شاه فقد نشرت عام ١٨٧٨ فى بيروت ، ثم أعاد قلفاط نشرها عام ١٨٩٨ على أنها أيضا من تأليفه . وانتحال قلفاط لهذه النصوص واضح ، فقد تكشفت أن سيرة بهرام بور ترجمة حرفية لمنظومة هفت بيكر أو التماثيل السبعة للشاعر الفارسى نظامى كتبها سنة ٥٩٣ هـ .

وأظن أن فيروز شاه لها أصل غير عربي لن أتوقف عن البحث عنه . أما حمزة البلهوان فأنا أرى أنها كتبت كرواية لترد على سيرة فيروز شاه ولترفع من شأن العرب ، ومن هنا اهتم بها الوجدان العربي كثيراً وجعل منها نصاً متداولاً أقرب إلى أن يكون شعبيا ، فاستلهم منها محمد خضر رواية ، كما استلهم منها الشاعر محمد ابراهيم أبو سنة مسرحيته "حمزة العرب" . فقد تمثلت هذه السيرة كل خصائص فن السيرة الشعبية .

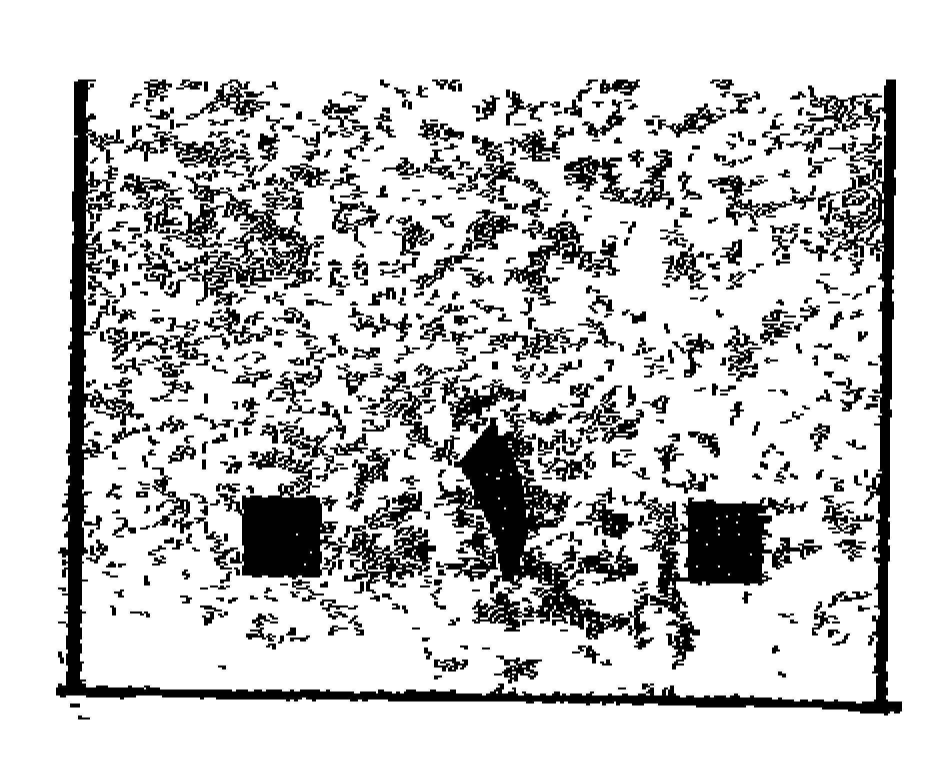
● ● ●

وقد قسمت هذا البحث إلى سبع وحدات ، هى : مصادر البحث ـ دراسة للراوى والرواية والنبوءة ، والبطل المصاحب ، والنسب ، والميلاد ، والغربة والاغتراب ، والاعتراف والتعرف .

وأريد أن أوضح هنا أن الوحدة الخاصة بمصادر البحث لا تختص بمواليد البطل فقط ، وإنما تختص بالسير الشعبية جميعاً ، فهى مدخل لدراسة الراوى ودوره فى تكوين الرواية ، وكذلك دراسة الرواية الشفوية والمدونة للسير الشعبية . وقد وضعتها مع هذا البحث لأنه يمثل جزءاً من مشروع كبير أوفر نفسي على إتمامه وأطمح أن تكون كل وحدة من هذا البحث كتاباً كاملاً ، بالإضافة إلى العناصر الأخرى المكونة للسيرة .

وأود أن أشير إلى أن هذا البحث ، بشكله الحالى ، قد خلا من رواية شاعر السيرة جابر أبو حسين ، والشاعر سيد الضوى ، وهما من شعراء الوجه القبلى ، وكذلك خلا البحث من روايتي شاعرى الوجه البحرى الشاعر فتحى سليمان والشاعر على الوهيدى . وروايات هؤلاء ستتضمن ، إن شاء الله ، أعمالى القادمة عن السيرة الشعبية .

(١٩٨٨/٣/١٢)



المصادر

الراوى والراوية

قد يكون مناسباً أن يبدأ البحث عن مواليد البطل فى السيرة الشعبية ، أو أى جزء من أجزائها بدراسة المصادر ، وإذا كان البحث معتمداً على نصوص مجموعة من أفواه الرواة فإن دراسة الراوى والرواية تصبح أساسية فى هذا المبحث .

ويمكن تقسيم الرواة الذين لهم علاقة بهذا المبحث إلى قسمين :

أ - رواة لم ألتق بهم التقاء مباشراً .

ب - رواة التقيت بهم التقاء مباشراً .

القسم الأول من الرواة الذين لم ألتق بهم التقاء مباشراً هم نساخ النصوص المطبوعة بين أيدى القارىء العربى ، وهؤلاء النساخ لم يدونوا أسماءهم فى معظم الحالات وإنما دونوا أسماء رواة آخرين ، وقد اختلط فيها لفظ التأليف بلفظ الرواية ، والعكس كذلك ..

وقد قدمت (سيرة ذات الهمة) على أنها تأليف "على بن موسى المقانبى" و"ابن بكر المازنى" و"صالح الجعفرى" و"يزيد ابن عمار المزنى" و"عبدالله بن وهب اليمانى" و"عوف بن فهد الفزارى" و"سعد بن مالك التميمى" و"أحمد الشمشاطى" و"صابر المرعشى" و"نجد بن هشام العامرى" .

ويذكر مدون (سيرة عنترة) عدداً ليس بالقليل من رواتها ، يضع على رأسهم "عبدالملك بن قريب الأصمعى" و"أبو عبيدة" و"جهينة المثنى اليمنى" و"البلخى" و"حماد" و"سيار بن قحطبة الفزارى" ، و"الكاهن الغسانى الثقفى" و"ابن خداش النبهانى" . ويذكر فى المتن :

"ذكر الرواة الحفظة عن وهب بن منبه وعن كعب الأحبار" (السيرة ص ٥) . ولقد ذكر فى صدر طبعة صبيح لسيرة "الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - ومحاربته الملك الهضام" ،

انها تأليف العلامة القصصى الشهير "أبو الحسن بن محمد البكرى" وقد هاجمها ابن كثير فى تاريخه ، وأسماها سيرة البكرى لأن واضعها يدخل فى قول النبى عليه الصلاة والسلام : "من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" ، وتتغافل مكتبة الجمهورية هذا الاسم فتصدر صفحة العنوان دونه ..

وتبدأ السيرة بعد حمد الله والصلاة على النبى وآله بذكر سلسلة من الرواة الذين تسلسلت عنهم الرواية حتى تصل إلى النبى - عليه الصلاة والسلام - غير أن السلسلة تنقطع فى منتصفها ، تذكر نسخة مطبعة صبيح السلسلة دون أن تشير إلى القطع ، فالنسخة تذكر أنها مروية عن أبى الحسن أحمد بن عبدالله ابن محمد البكرى - رضى الله عنه - قال : حدثنا يوسف بن عبدالله الجهنى ، قالا : حدثنا صاحب الحديث عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم ... (السيرة ص ٢) تضيف نسخة مكتبة الجمهورية ما يوضح انقطاع الرواية ، وانتخاب ناسخها ما سمع من مرويات ، فهو يذكر بين كلمة "الجهنى" ، وبين كلمة "صاحب الحديث هذه العبارة ... "قال حدثنا خلق كثير يروى بعضهم عن بعض فأخذنا من ذلك ما نرجوه إن شاء الله تعالى تعليقه على قدر الروايات ، قالوا حدثنا صاحب الحديث .. السيرة ص ٢ . وتتحدث سيرة الملك سيف عن راوى واحد هو "أبو المعالى" رواى سيرة "أبى الأمصار وسائق النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار" (السيرة ص ١) .

وداخل النص يتكرر قوله : "قال الراوى" دون تحديد لاسمه مما يجعل أبا المعالى مجهولاً للقارىء .

ولا تذكر سيرة المهلهل اسما لراويةٍ محدد وإنما بكلمة الناسخ "أقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه ، هذه

سيرة الكرار والبطل المغوار الذى شاع فى الأقطار وأذل بسيطة كل صنديد وجبار المهلهل بن ربيعة . (السيرة ص ٢) وفى المتن قبل أن تنتهى الصفحة تذكر كلمة "قال الراوى" .

أما سيرة بنى هلال فإنها تبدأ بداية قريبة لسيرة المهلهل :

حمداً لمن جعل سير الأولين عبرة للآخرين (أما بعد) فهذه سيرة بنى هلال التى تشتاق لقراءتها الكبار والصغار على الأجيال" (السيرة ص ٥) ،ويذكر مباشرة بعد هذه الجملة عبارة "قال الراوى" .

وفى تغريبة بنى هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة . وما جرى لهم من الحوادث والحروب المخيفة .

فهى لا تذكر اسماً لراوية من الرواة ، فعبارة البداية تكاد تكون عبارة معد النسخة للطبع . "أما بعد فلما كانت القصص والنوادر موضوعة لإفادة الناس وتسلية الخواطر لاسيما قصة بنى هلال وماجرى لهم فى سالف الأجيال من الوقائع التى تشيب الأطفال ، فقد بادرنا بطبعها من أولها إلى آخرها ، وذكرنا رحيلهم عن بلاد نجد إلى تونس الغرب" (السيرة ص ٢) . وقبل أن تنتهى المقدمة وفى نفس الصفحة يذكر "قال الراوى" .

وسيرة حمزة البهلوان لا تذكر اسماً لراوية محدد ، وفى طبعة تذكر أن راويها ابن الأثير الجزرى . وفى ذلك بعد عن الحقيقة . كما أنها لا تذكر عبارة قال الراوى التى تستخدمها عادة السير الشعبية إلا فى صفحة "٣٨" . وقبلها ذكرت كلمة قال مرة واحدة لا فى سياق حوار بين اثنين وإنما فى سياق جديد يكشف عن استتار الفاعل وهو هنا الراوى ، فتكون "قال" تعنى : قال الراوى ، فقد ذكرت فى النص فى صفحة "٢٩" فى فقرة جديدة ، "قال فلم يجبه الدربندى" . ولقد استمرت السيرة تستبدل بكلمة قال الراوى "قال" حتى صفحة "٢٥٠" وهى المرة الثانية التى يذكر فيها نفس العبارة . وبين قال الراوى الأولى والثانية ذكر كلمة "قال"

بمعنى قال الراوى ، أى باستتار الضمير المستتر العائد على الراوى اثنتين وأربعين مرة .

ولقد وقف الباحثون مواقف متعددة من نساخ النصوص الشعبية بعضها سلبى والآخر إيجابى ..
فمحسن مهدى وهو يتحدث عن نص "ألف ليلة وليلة" المتداول ، يرى أن النساخ قد عبثوا به . "ألف ليلة وليلة" : المقدمة . "ص ٢٢ ـ ٢٥" . ويسميهم عبدالله بن محمد بن خميس وضاعين ، وينال منهم ومن أعمالهم ويتهم مؤلفاتهم بأنها رخيصة ؛ "ملئوها بالكذب والدجل والتهويل والتحريف والتبديل لتقرأ فى المقاهى الشعبية والمجتمعات العامية مثل (تغريبة بنى هلال) و (أبو زيد الهلالى) و (الزير سالم) وما شابه ذلك ، وهذه كلها ليس فيها ما يبل صدى أو يغنى دارساً أو يعتمد عليه محقق على أنها ماعدا مؤلف أبى عبد الرحمن من نسيج خيال من هم بعيدون عن مجتمعنا وعن البيئة الهلالية التى نشأت فى قلب الجزيرة العربية ، والتى جاء شعرها منطبقاً مع شعر بنى هلال الحقيقى ، أما شعر هذه الكتب المصنوعة ، فبعيد كل البعد عن الحقيقة والواقع مما تبدو فيه آثار الضعف وتكلف الشعر" (روايات من تغريبة بنى هلال / المقدمة . ص ٩) .

أما الرواة الذين وقفوا منها موقفاً إيجابياً فقد عدوا الأعمال المنسوخة أعمالاً مؤلفة وليست روايات شعبية ، وقد عدها فاروق خورشيد ومحمود ذهنى فى كتابهما "فن كتابة السيرة" مؤلفاً روائياً ، وطبقا ذلك على نص سيرة عنترة .

ولقد ألح فاروق خورشيد على هذه الفكرة فى كتابه "أضواء على السيرة الشعبية" .

ويذكر محمد رجب النجار ، وهو يتناول سيرة بنى هلال من نصوص مطبوعة كلمة المؤلف المجهول :

"كم هو عبقرى هذا المؤلف المجهول الذى كان وراء سيرة بنى هلال ، هذا المؤلف الذى أدرك هذا التباين الملحمى بين أنواع الصراع الذى اشتملت عليه تلك الملحمة ، التى تحكى صراع الذات العربية بين القبلية والقومية" (أبوزيد الهلالى ـ ص ٩٠) .

هذا عن الراوى المدون للنص تدويناً يرتبط بشخصيته . أما الراوى الشعبى الأمى الذى يروى النص مباشرة على جمهوره ، فهناك نوعان منه ، نوع من الرواة لم أتصل بهم ـ ونوع آخر اتصلت به اتصالاً مباشراً .

والرواة الذين لم أتصل بهم أخذت مادتهم مدونة تدويناً علمياً دقيقاً من باحثين نشرا نصين من أفواه رواتهما يدخلان ضمن دائرة النصوص المدونة والمطبوعة ..

إذ أن المدونين حافظا ـ بأمانة ـ على نقل النص من أفواه الرواة دون تحريف أو تغيير فى لغة النص ، هذان النصان هما النص الذى جمعه "بترسن" من روايات عرب الشوا شمال نيجيريا ، من سيرة بنى هلال وهى مطبوعة سنة ١٩٣٠ م .

ورواية عبدالرحمن قيقه ، التى قام بجمعها "عن شيخ من جادو كان يأتى تونس لجمع الصدقات من إخوانه الليبيين العمال فى المناجم التونسية" (من أقاصيص بنى هلال ص ١١٣) . وقد طبع ابنه هذه الرواية بلغتها المروية مع ترجمة فصيحة للنص .

أما راوى السيرة الأمى الذى اتصلت به اتصالاً مباشراً فإن علاقة طويلة تمتد إلى الطفولة تربطنى به . فتقاليد القص فى الجنوب الأقصى لمصر كانت حية قوية إبان طفولتى ، حين كان المذياع شيئاً نادراً فى حياة الناس ، ومازالت بقاياها تحاول أن تعيش مجاورة للمذياع والتلفزيون ، ولكن ما تبقى يعيش لأن رواته

مازالوا أحياء فليس هناك جيل آخر مدرب لحمل تراث السيرة الشعبية .

● ● ●

ولقد كانت بداية علاقتي العملية بالرواة الشعبيين حين عدت إلي الأقصر عام ١٩٦٧ م للبحث فى معتقدات أهل الأقصر عن الأرواح والأشباح ، ولأحاول جمع القصص المرتبط بهذه المعتقدات ثم توقفت بعدها فترة من الزمن ، لأعود أول يوليو عام ١٩٧٨ م إلى محافظة قنا فى صعيد مصر ، وقد حصلت على منحة من مركز الدراسات الأمريكى بالقاهرة لجمع القصة الشعبية فى محافظة "قنا" ، كان البحث شاقاً عن القصة فلقد كنت أذهب إلى حفاظ التراث القصصى لأسجل لهم . تصادف أن تلاقى شهرُ شعبان مع شهر يوليو ، وأثناء النصف الأول من شعبان كان مولد أبى الحجاج ، وكانت حلقات الغناء منتشرة فى أنحاء مدينة الأقصر ، وكنت أسجل فى هذه الحلقات هذه الأغاني التى ينشدها المنشدون ، وأخذت أبحث عن الرواة الذين كنت أعشقهم فى صباى . "حمدان" شيخ العرب الهوارى الذى عشق القص فخرج على تقاليد أسرته ، يقص قصة "عنترة" و"أبى زيد الهلالى سلامة" ، يلقيها وهو يقف بعصاه الغليظة مؤدياً أدوار البطولة فى السيرة التى يحكيها ، صوته فيه قوة الرياح ورهافة النسيم ، وقوة الفارس المحارب ورقة العاشق . كان حمدان يمثل صورة الممثل القدير الذى لم أرَ له مثيلاً ، انطبعت صورته فى ذاكرتى . أخذت أبحث عنه ، وأدركت أنى أبحث عن بقايا ماض قديم ، فقد مات الرجل فى السودان وهو يعمل رئيس عمال إحدى التراحيل عن عمر يناهز التسعين عاماً ، أخذت أبحث عن عطا الله المغنى الذى امتدت شهرته طول المديرية وعرضها ، كان عطا الله يتسيد عالم الموال وهو يغنيه ، تجمع ذاكرته معظم ماوعت الذاكرة من مواه بل ، مواويل ابن عروس وغير ابن عروس ، اختلطت دون أن يعرف

مؤلفها ، وهو نفسه كثيراً ما يؤلف ساعة الأداء ، تنتقل مواويله إلى الناس ، ويدعى الكثيرون أنها لهم ، عرفت الطريق إلى قريته فركبت مواصلة إلى عاصمة المحافظة ، ومواصلة أخرى إلى قريته "المعنّى" فعلمت أنه فى قرية أبى مناع شرق ، فركبت إلى أبى مناع غرب ومنها إلى أبى مناع شرق ، أربع مواصلات لقطع مسافة لا تزيد عن مائة ميل ، لأجد نفسى فى قلب الجبل . ذهبت إلى الديوان الذى سيحيى فيه حفلة العرس ، واتفقت معه على أن ألقاه فى بيته "بالمعنى" فى موعد حدده هو ، وحاولت أن أخرج وكان مستحيلاً ، فقد أصر أهل العروس أن أبقى ، وكان لابد أن أبقى ، فالطريق أصبح خطراً فقد أخذت النيران الجائعة فى الجبل تنطلق متوجهة نحو ثأر قديم .. وبقيت لأسهر مع عطاالله ، لم يعد عطاالله ذلك الصوت الفريد الذى كنت أسمعه فى طفولتى ، كان الرجل قد كبر واقترب عمره من السبعين ولكنى لم أصب بملل ، فإذا كان صوته قد تغيرت حلاوته فإن الموال لم تتغير حلاوته ، حتى انتصف الليل ، ووقف عطا الله يغنى موالاً ، كان هذا الموال عن "عزيزة ويونس" . تحركت النشوة فى النفوس ، وتغير صوت عطا الله ، عاد شاباً كروانى الصوت . لم أسمع عطا الله بهذه الحلاوة من قبل ، وأسفت يومها أن حجارة بطارية جهاز التسجيل قد ضعفت ، ولم تكن هناك كهرباء لتشغيل الجهاز .. التقيت بعطا الله بعد ذلك ، وطلبت منه أن يغنى "عزيزة ويونس" فاستنكر أن يغنيها قبل أن ينتصف الليل ، فهو قد تعود أن يختتم بها السهرة وتعود الجمهور أن يستمع إليها آخر السهرة ، وهم حريصون على الانتظار إلى نهاية السهرة ليستمعوا إلى "عزيزة ويونس" ، ثم ينفضون ليعودوا إلى بيوتهم سعداء ..

غنى عطا الله "عزيزة ويونس" وكانت جديدة كل الجدة ، لم نشعر بها بمثل ما شعرت به فى المرة الأولى ، خلت من صفائها ومن حلاوتها ، لم يكن الشاعر هنا فى حالة نفسية مهيأ لتأدية هذا

الدور ، ولم يكن جمهوره أيضا مستجيباً له ، فهو لم يكن مستعداً أن يستمع إلي هذا الدور فى هذا الوقت بالذات ، وسقط النص هذه الليلة سقوطاً واضحاً .

وقبل الفجر فى ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٧٨ م وهى ليلة من ليالى المولد ، توقفت على صوت يسرى فى الليل ، فيه عذوبة وخشونة ، تفوح منه رائحة الأرض ، ذهبت تجاه الصوت ، وما إن رآنى المغنى ، وقد بدأت أسجل له حتى ازداد حماسه ورفع صوته :

عزيزة قالت يايونس ..
أبويا بنالى قصر وسط البحور حجرات ..
وإن كنت رتس قرارى يايونس ..
حسب من مركبك لتلطم الحجرات ..
وإن كان مش عاجبك نوم الفراش .. يايونس .
تعال نام على الحجرات ..

. كان صاحب هذا الصوت واسمه الصادق مغنياً شعبياً ، ثم فقد عقله وقد خرج منذ أيام من المستشفي ، قال لى واحد من الجمهور إنه علم أخاه الغناء وأصبح مشهوراً فى قريته الصعايدة شمال الأقصر ، وإنه بدأ ينتشر فى القرى المجاورة .

عطا الله يغنى الهلالية ، الصادق يغنى الهلالية ، توقف شاب فى سن السادسة عشرة من العمر مع حمار يجمع به العيش فى أيام المولد من البيوت وهو يغنى بالطار :

يونس خطر ع السوق ولد الهلالية ..
عيان عيان متقلبوش فيه ..
تسعة وتسعين دكتور غير التمرجية ..

حتى الشحاذة فى مجتمع الأقصر وقنا تستجدى بغناء عن الهلالية ، يغنيها الشاعر على ربابة أو طار ، وعندما أردت أن

أسجل له الهلالية ، كان التعامل معه فى غاية القسوة فقد جاءت الأسرة كلها لأدفع ثمن تسجيل ابنهم للهلالية ، وحين تحادثنا لم يكن الغلام يعرف منها إلا مقاطع شعرية تصلح للغناء وهى مواويل مربعة ومخمسة ومسبعة تتناول حالة من حالات الحب أو الشقاء فى مواجهة محنة الإنسان فى الحياة .

ذهبت لأجمع القصص الشعبى من أفواه من أعرف من الرجال ومن عجائز النسوة ، الجميع يقص عن الهلالية ، فأخذت أبحث عنها ، الكثيرون يروونها ولكن معظم الرواة يروون فصولاً منها ، فالهلالية قد تكسرت عند الكثيرين من الرواة إلى قصص .. لقد شعرت فى هذه الفترة بمشقة الطريق ، مع أن هذه المنطقة أرضى وأرض أهلى وهم كثر ولكن عالم الهلالية يحتاج إلى دربة كبيرة ، وأنا أحوج إلى معلم ليعلمنى تقاليد السيرة ، هذا المعلم لا يوجد فى المدارس ، ولا يوجد بين المثقفين ، ولقد وجدته فى منتصف شهر أغسطس أى بعد حوالى شهر من التيه فى دروب المحافظة شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، ففى إحدى سفراتى التقيت بأحد طلاب المرحلة الثانوية الذى أخبرنى أن جده يعرف الهلالية ، والتقيت بالجد ، الحاج عبد الظاهر من مشايخ العرب من قرية الكرنك القديمة ، كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، يسكن بجوار معبد الكرنك ، بلغ من العمر ثمانية وستين عاماً ، يسمونه فى القرية العمدة فهو يقوم بدور العمدة بين أهل قريته ، يصلح بينهم مستخدماً العرف فيحكم بين المتخاصمين ، وكثيراً ما يتقبلون حكمه ، تحدث عنه يحيى الطاهر عبد الله فى رواية (الطوق والإسورة) ، فقد كان كما يذكر يحيى رئيس عمال ترحيلة من التراحيل التى كانت تذهب إلى فلسطين ، ولم يكن ذلك اختراعاً ، فالرجل مكافح طوال عمره وانتهى به المطاف إلى أن يزرع أرضه التى لا تبعد عن منزله فى طريق مطار الأقصر .

امتنع الحاج عبدالظاهر فى البداية عن أن يروى سيرة بنى هلال

لأن من العار أن يحكيها حتى لا يتصور أحد أنه راو محترف ، لم يستمر فى الامتناع فقد شفع لى العلاقات الأسريةً التى تربطه بأسرتى .

قام الحاج عبدالظاهر بدور مهم فى هذه الفترة من حياتى ، فقد قام بدور المعلم لينقل لى تقاليد الرواية الشفهية ، فقد كان أحد عشاقها ، يجرى وراء رواتها وهو صغير ينتقل إليهم أينما كانوا .. وقد عاش روح بطولة بنى هلال وامتزجت روح الفارس فى دمه . فهو لا يجد متعباً إلا ويحاول أن يحل أزمته . ولا تعرض له مشكلة إلا ويكون الحكم العدل ، كان الناس يغضبون منه ثم يرضون ، فليس هنا أحسن من العدل ، إنه يريح الظالم والمظلوم .

تسيد الحاج عبدالظاهر رواية الهلالية ، وكان يختلف كثيراً مع بعض رواتها إذ أنه كثيراً ما يقوم بنقدهم ، ونقد رواياتهم ، فهو يرى أنه قادر على معرفة "الجيد من البطال منهم" أو بعبارة أخرى "الأصيل من المزيف" .. والجيد أو الأصيل هو الذى يحترم الرواية التى يرويها ويحترم جمهوره ، أما البطال أو المزيف فهو الذى لم يدرب تدريباً كافياً ، فيقف قبل أن يتم تدريبه أمام الجمهور فهو هنا يخدعهم ، ولا يقبل الحاج عبدالظاهر أن يخدع الراوى جمهوره .

ولقد تعلمت منه الكثير ، تعلمت منه اكتشاف الراوى الجيد والراوى البطال على حد تعبيره ، فقد كان يأتى إلى بيتى عدد كبير من مدعى الرواية يتصورون أن بإمكانهم أن يخدعونى بما عندهم على عادتهم من التعامل مع الباحثين الأجانب ، وهو قد فتح لى الطريق لمعرفة عظيمة .. فقص الحاج عبدالظاهر سيرة بنى هلال من بابها الأول ـ مواليد أبى زيد حتى بابها الأخير ـ الأيتام ـ لمدة شهر كامل .

لقد خرجت من عنده أحمل رواية الحاج عبدالظاهر ، وأحمل عالم الهلالية وروح الراوى ، وقدرته الكبيرة على الإبداع .

والتقيت بعبدالسلام حامد ، كان مختلفاً كثيراً عن الحاج عبدالظاهر ولكنهما يتفقان في الاعتزاز بالنفس .. عبدالسلام حامد من الأقصر كان عمره عندما التقيت به فى أخريات أغسطس ١٩٧٨ م ثمانين عاماً ، وهو صاحب مطعم صغير فى سوق الأقصر ، يقدم المأكولات الشعبية من الفول والطعمية ، يجلس أمام مطعمه وحوله حلقة من حلقات أصحابه وهم مختلفو الأعمار فيهم الفتى والشاب والكهل والشيخ العجوز .. وحدثنى عن معلميه الذين تلقى عنهم فهو قد اهتم بالسير الشعبية ، يقول إنه يروى سيرة المهلهل وعنترة وسيف ، وأخذ يقص لى عن الهلالية ، كان يسجل جزءاً ويطلب أن يوقف التسجيل ثم يأخذ فى الكلام عن عالم الهلالية في المحافظة .. جمعت عشر ساعات من الهلالية منه ولكنى استمعت إلى ساعات وساعات عن أنساب الهلالية فى المحافظة وعلاقات القبائل بها ، فالهلالية لم يموتوا ولكنهم عالم يعيش ، قبائل ممتدة فى جنوب مصر الأقصى ، وكذلك أهل الزناتى خليفة ودياب من حمر اليمن يمتدون فى المنطقة غرب النيل جنوب الأقصر حتى إسنا ، كما أن هنا قبائل تنتسب إلى محمود البياضى مربى الأيتام .

وذهبت إلى إحدى حفلات الزفاف بقرية أبى الجود شمال الأقصر ، وهناك التقيت بالنادى عثمان ، وما إن رآنى حتى أخذ يعزف بالربابة عزفاً يشد الانتباه فهو من أحسن عازفى الرباب فى مصر كلها ، وهدأت الربابة ليرتفع صوته بمسبع :

طلع خليفة يشوط على جمع العرب ولوفات ..
لقيهم أسود مقادم متعددين ولوفات ..
روح خليفة الزناتى لهنى له غموز ولا فات ..

وقضيت الليل فى الحفل لم أغادره حتى انتهى وقد تكونت علاقة صداقة قوية بينى وبين النادى عثمان ، كان النادى عثمان قد انتهى من تسجيل بعض الأشرطة لعدد من المشتغلين فى

الدراسات الشعبية ، وكان على علم ما بمعنى البحث العلمى ، وكانت هذه المعرفة سبباً كبيراً فى سهولة التعامل معه . كان النادى عثمان أحد القلائل فى الإقليم الذين مازالوا يؤدون السيرة الشعبية . وهو من مواليد عام ١٩١٦ م يسكن فى قرية "الطود قبلى" وهى شمالى الأقصر ، شرقى أرمنت ، وهو من أسرة تحترف الغناء ، وقد أتى لى بأحد أقربائه الذين هاجروا منذ زمن إلى محافظة "أسوان" فى قرية "الحجز بحرى" مركز "إدفو" - وهو عوض الله عبدالجليل ، وهو أكبر من النادى عثمان بسنتين ، يغنى السيرة وهو يحمل طاراً . وقد سجلت له سيرة بنى هلال من فصلها الأول حتى فصلها الأخير ربيع سنة ٧٩ . لقد كانت علاقتى بالنادى علاقة مثمرة إلى أبعد الحدود ، فقد تعرفت منه على عالم أداء رواة الهلالية الرحب وأساليبهم فى أدائها .

كان هؤلاء الرواة الأربعة أهم من جمعت منهم سيرة بنى هلال ، وتمثل النصوص التى جمعتها منهم والنصوص التى حصلت عليها مطبوعة مادة هذا البحث .

وتثير النصوص المطبوعة والمروية دعاوى أهمها محاولة إطلاق مصطلحات لا تنطبق على النصوص ، فمثلاً هناك إلحاح على تسمية السيرة بالملحمة أو بالرواية المؤلفة ، لذا فمن المستحسن أن نختبر هذه النصوص لنتبين إلى أى مدى تصدق هذه الدعاوى .

والملحمة مصطلح أطلق أول ما أطلق على الإلياذة والأوديسة ، ثم أطلق من بعدهما على أعمال أوروبية أخرى مثل ملحمة رولان وملحمة السيد ، وقد ظهرت ملاحم غيرها فى أرجاء مختلفة فى العالم الأوروبى . وهناك عناصر مشتركة بين الملحمة الأوروبية والسيرة الشعبية العربية ولكن بينهما أيضا اختلافاً كبيرا ، فالسيرة عالم متسع أكبر بكثير من الملحمة وهى الشكل الأول الذى نبتت منه الملحمة ، فالسيرة حين تبدأ فى التكسر تتحول إلى

ملحمة ، فهى جزء من السيرة ، السيرة هى الكل والملحمة هى الجزء ، ولو قارنا على سبيل المثال بين سيرة بنى هلال وبين كل من الإلياذة والأوديسا مجتمعتين لوجدنا أن كلاً منهما تمثل حلقة من حلقات سيرة واحدة . فالإلياذة تتوازى مع التغريبة ولا تتسع اتساعها ، فهى تقترب من الجزء الخاص بحصار تونس فى كثير من أبعاده وتلتقى معها فى كثير من عواطف المتحاربين المحاصرين ، وعواطف المتحاصرين والعالم الذى تعيشه . الحب والكره والبطولة والخيانة ، وتلتقى كثير من الشخصيات بينهما مع كثير من الفوارق أيضاً ، قصة حب عزيزة الجميلة ويونس لا تتساوى مع قصة حب هيلين الجميلة وباريس ، ولكن هناك توافقا كبيرا بينهما ، وحتى غضبة دياب لمقتل صديقه عامر الخفاجى فيعود بعد اعتزاله الحرب ليقاتل مع الهلالية ، وهى تماثل غضبة "أخيل" لمقتل صديقه بتروكليس وعودته ليحارب مع اليونان ، لينتقم لصديقه . الإلياذة كلها لا تزيد فى بنيتها عن بنية التغريبة . الوحدة الزمانية والمكانية ، لمعركة تدور لمدة أربعة عشر عاماً حول أسوار "تونس المرية" تقابل معركة تدور عشرة أعوام حول أسوار طروادة . ولاشك أن هناك فروقاً كبيرة بين العالمين .

وعند النظر إلى الأوديسا فهى لا تزيد عن الريادة رحلة أوليس فى البحر للعودة إلى وطنه . والثانية رحلة أبى زيد لاستكشاف بر تونس والعودة إلى وطنه . رجلان يغتربان ، اليونانى فى البحر والعربى فى البر .

ليس الشعر هو الفرق الوحيد بين الملاحم العربية والسيرة . فالسيرة العربية شعر .. بعض الشعراء يروون نصوصها شعراً ، وقد يتكسر الشعر بفعل اضافات الراوى المستمرة وجمله الاعتراضية التى تقتحم النص مثل رواية النادى عثمان ورواية عوض الله . وأهم فرق هو اتساع السيرة الذى يشمل فى طياته أكثر من ملحمة ، لولا أنها لم تتكسر لتصبح مستقلة الموضوع

بعيداً عن الجوانب الأخرى . فليس هناك ملحمة واحدة فيها هذا الفصل المتسع عن مواليد البطل ثم التدرج السلمى نحو المراحل المختلفة لعمره كما يوجد فى هذه السيرة . وسيرة بنى هلال تبدأ بفصل مواليد البطل وتنتهى بفصل الأيتام ، الذى يمكن أن يعد فصلاً من فصول مواليد البطل أيضا ، فمرحلة الميلاد تتكرر ثانية فى بطل الهلالية الجديد على أبو الحلقان .

لقد أخذت السيرة تتكسر ، فالرواة لا يقدمون كل فصولها ، وهم لا يعرفونها كاملة ، فكثيراً ما يكون الراوى متمرساً فى رواية السيرة إلا أن هناك فصلاً أو أكثر لا يجيده أو لا يحسن أداؤه . فالفصل الخاص بعقد شمة الذى يتحدث عن زواج سرحان بشمة بنت الحسب سيد النسب ، لا يعرفه كثير من الرواة حتى إن عوض الله المتسيد لرواية الهلالية لا يعرفه . وحين كان يرويه النادى عثمان بدا واضحاً أنه بعيد عنه . وفى الوقت نفسه عندما يروى حاجة يونس للمال فى تونس يحاول أن يبيع فرعاً من هذا العقد فيأخذه الدلال إلى عزيزة ، ويكون هذا بداية تطور جديد فى حركة السيرة إذ تتعرف عليه مَىْ خادمته التى أصبحت خادمة الأميرة عزيزة . فالعقد مهم جداً فى هذه السيرة وخاصة الجزء المرتبط بالريادة . ومع ذلك فالفصل الخاص به ينحل من السيرة ، وكذلك فصل فرس المعز بن صالح فقد انحل من السيرة ولم يعد كثير من الرواة يروونه . وعندما رواه لى عوض الله كان بعيداً عن ذاكرة النادى عثمان إلا أن جابر أبو حسين المتسيد لعالم الرواية وكذلك تلميذه سيد الضوى كانا يرويانه لجمهورهما . وهناك إشارات عن علاقة خاصة بين أبى زيد الهلالى سلامة وبين الجازية . فإنه من المتعارف عليه عند رواة السيرة أن أبا زيد الهلالى تزوج الجازية ثم طلقها وأنه لم يعش معها إلا أياماً معدودات . وهذا يفسر علاقة الحب والكره التى بين أبى زيد والجازية فقد صنعت هذه العلاقة بشكلها المعقد مواقف درامية دفعت حركة السيرة إلى النمو

المتصاعد وخلقت عناصر إثارة فى النص . هذه العلاقة والحديث عنها يوضحان أن هناك فصلاً خاصاً بها فى السيرة . ولكن هذا الفصل ضاع ولا يعرف أحد عنه شيئاً من الرواة .

السيرة تكسرت ومازالت تتكسر حتى إنه يمكن أن تتقلص لتصبح فى تطورها ملحمة لولا هذا التغير الشديد فى إيقاع المجتمع ثقافياً ، وتحول الاهتمامات نحو فنون ولدتها الثقافة الحديثة مما جعل السيرة تتوقف عند حدود من يعرفونها ليمثل تكسرها مرحلة من مراحل تطورها وهو تحولها إلى حكايات منفصلة لا ترابط بينها كما حدث لها فى كثير من المجتمعات العربية . إن علينا أن نتقبل كلمة سيرة وصفاً لهذا الفن الذى أبدعته العقلية العربية ، دون أن نسبغ عليه أسماء أخرى لا تنطبق عليه إلا فى بعض الجوانب دون غيرها . أما أن نطلق عليه مصطلح رواية بالمعنى الحديث لمصطلح الرواية فهذا صعب التقبل . وصعب الإقناع به . وهو لا يضيف شيئاً للسيرة ، ولا يمثل فخراً لأصحاب هذا التراث . فالسيرة فن نبت وتطور وارتقى قبل أن تظهر الرواية ، وهى تقف فناً قائماً بذاته من بين الأنواع الأدبية مثلها فى ذلك مثل الرواية وغيرها من الأنواع الأدبية ، فإضافة لفظ رواية لعمل له قوانينه الخاصة التى استقرت يعد إضافة صفة بعيدة عن الموصوف . فالرواية فن له عدة سمات ، وهذه السمات فى دينمية وتطور . يشترك فى تحريك هذا التطور الآداب العالمية بصلاتها الوثيقة ببعضها فضلا عن الفنون المحلية ومنها السيرة . والسيرة الشعبية العربية فن له قواعده ولا يمكن تطبيق قواعد فن مازال يتطور على فن قد اكتمل منذ أمد بعيد .

وفاروق خورشيد ومحمود ذهنى فى عملهما الرائد "فن كتابة السيرة" مطبقة على عنترة فى نصها المطبوع ، وضعاها تحت فن الرواية ، فهى فى نظرهما ليست سيرة بالمعنى الاصطلاحى الحديث كما أنها ليست أسطورة عند الأنثروبولوچيين ثم هى ليست

ملحمة بمفهومها عند اليونان ولكنها كما لاحظناها تقترب كثيراً من الرواية . فهي مرة شبيهة بالرواية الخيالية وهي في مرة ثانية قريبة من الرواية الواقعية . (ص ٤٨) .

ثم يعودان فيجعلان منها رواية لا تاريخية ولا خيالية ولا واقعية ، ويمكن تسميتها بالرواية الأم فتصبح سيرة عنترة رواية من نوع السيرة يغلب عليها الطابع التاريخي . (٥٠) . أوجه الاتفاق بين الرواية والسيرة لا تجعل من السيرة رواية بالمعنى الاصطلاحي للرواية ، إذ أن أوجه الاختلاف أيضاً كبيرة فنحن إزاء عمل من الأعمال الشفوية وليس من الأعمال المكتوبة كالرواية تقرب بينهما في شكل واحد . إلا أننا نقول إنها أعمال قصصية أو إذا قلنا روائية بمعنى أنها تروى وليس بمعنى أنها رواية حديثة .. وعلى كل فقد أنكر الباحثان أن يكون الأصمعي هو مؤلفها "في الوقت الذي تدل السيرة ومافيها من بناء فني سليم على أنها من صنع رجل متمرس في هذا الفن ، طويل الباع له تجارب متعددة سابقة وربما لاحقة في الأعمال القصصية" (ص ٦٧) .

و"عملية البحث عن مؤلف لعنترة انتهى إلى أن كاتبها شخص واحد وليس عدة أشخاص" (ص ٧٢) . وتعني كلمة الكاتب هنا المؤلف كما يتضح من سياق قولهما :

"من هذه المادة التاريخية الخصبة التي خلفها الأصمعي استقى مؤلف سيرة عنترة موضوع قصته وعناصرها وأحداثها وأسماء شخصياتها .. ثم صاغ كل ذلك في قالب روائي فيه خيال وفيه تفنن وفيه بناء قصصي سليم . وبذلك يمكننا القول بأن المادة العلمية والتاريخية في سيرة عنترة يرجع الفضل فيها أول ما يرجع إلى الأصمعي أما السيرة الروائية للسيرة فإنها دون أدنى شك ليست للأصمعي وإنما لشخص متأخر عنه زمنياً اطلع على تراث الأصمعي واستغله في صياغة روايته القصصية" . (ص ٦٩ ـ

٧٠) .. وماقاله المؤلفان هنا يرده النص نفسه الذى يذكر أن هناك أكثر من راو للنص فيغير اسم الراوى كثيراً على أساس أن راويها غير واحد . أو يذكر قال الراوى دون أن يحدده أو يذكر "قال نجد مؤلف تلك العبارات" (السيرة ص ١٢٠) أو قال الأصمعى رحمه الله .. وقد جعل منه صحابياً روى الحديث عن الرسول حتى أدرك الخلفاء الأمويين (ص ١٤) ومات أيام هارون الرشيد . بما لا يدع مجالاً للشك أن التاريخ والحقيقة التاريخية لم تكن تهم راوى النص ولم تكن هى الأساس الذى بنيت عليه السيرة .. فالراوى الشعبى يقوم بذكر هذه السلسلة من الرواة ليخلق الإيهام بحقيقة ما يقول وليوقع التأثير فى نفس مستمعيه بصحته .. فاختلاط الرواة فى النص يجعلهم مجرد أسماء . ومن هنا قوله قال وهب بن منبه وكعب الأحبار .

ولعل أصدق مافى النص مرتبط بالرواة هو قوله : قال الناقل بالرواة (ص ٨٢) ، فالأعمال الشعبية التى وصلت إلينا مخطوطة إما لنساخ كانوا أمناء فى نقل النص أو أنهم كتبوا النص بلغتهم . فالنساخ الذين نقلوا النص كما هو بلغته العامية ولم يحاولوا تغييرها وتفصيحها كثيرون ، يبرز ذلك فى النص الذى طبع بمطبعة حجر سنة ١٩٦٦ فى القاهرة عن سيرة المهلهل وهو مدون بالعامية المصرية بلغة يختلط فيها النثر بالشعر ، وكذلك ألف ليلة وليلة التى حققها محسن مهدى ، وقد أدى ذلك بمحسن مهدى إلى البحث عن النص الأم لألف ليلة وليلة واتهامه لناسخ نسخة ألف ليلة المتداولة بتشويهها والإضافة إليها ، ولكن محسن مهدى عجز عن الوصول للنسخة الأم فانتهى إلى أن كل نسخة هى نسخة أم .

وعلينا أن ندرك أن ناسخ النص ليس باحثا ،.مثل عبدالرحمن قيقة أو بترسن ، يقدم النص المجموع شفهياً للدارسين ، وإنما هو

مبدع فنان يبرز من لغة النص، أنه أجهد نفسه بالارتقاء بلغتها درجة عن العامية بمحاولة تفصيحها ، ومن هنا تمت عملية تفصيح نصوص السيرة ، وربما كان ذلك مما أدى إلى أن تطبع هذه النصوص دون غيرها مما دون بالعامية فإن الاتجاه العام فى العالم العربى يقف فى مواجهة العامية ، فهذه النصوص التى يتهم نساخها بتشويهها قد استطاعت أن تخلق رواجاً للدور الذى لعبه نساخها فى تفصيحها ، فمحاولة الإيهام الفنى بالحديث عن رواة هى محاولة تقليد لرواية العلماء عن التاريخ ، فقد استعار منهج العلماء فى توثيق الحديث لتأكيد صحته بتدوينه أسماء الرواة ، فهى تستند إيهاماً إلى تسلسل رواة كما تستند أحداث التاريخ فى تسلسلها إلى رواة ، ومن هنا اختلطت رواية العلماء برواية العامة ورواية العامة برواية العلماء ، مما يجعل بعض العلماء ينكرونها ، ولكن كثيرا ما يعجزون عن تمحيص كل ما يصل إليهم ، فدخل كثير من روايات العامة كتب تاريخ الأدب والتاريخ العام . وقد حفل كتاب جمهرة أشعار العرب بهذا اللون من الرواية ، وهو يحكى عن أشعار الجن وشياطين الشعراء (الجمهرة ص ٢١ ـ ٦٣) ، وكذلك الأغانى للأصفهانى ، كما لم يسلم كتاب من كتب التاريخ من تأثير روايات العامة ، واختلاط روايات العامة برواية العلماء جعل مهمة دارس التاريخ شاقة (انظر الأسطورة والأدب ، المدخل) وفى الوقت نفسه سهل مهمة الراوى الشعبى ومدون النص بالذات إذ إنه يتعامل مع نص مقدس كالقرآن الكريم والحديث الشريف يخشى عليه من التحويل والتبديل ، وإنما يتعامل مع نص دنيوى لا حرج من التزيد عليه والحذف منه . فهو يملكه تماماً كما يملكه الراوى الذى أسمعه نصه ، ومن هنا فهو مؤلف نص لا من حيث تركيبه من الألف إلى الياء وإنما من حيث عرضه فى السياق الذى يحب بإضافة ما يريد أن يضيف وحذف ما يريد أن يحذف . مدون النص مثله مثل الراوى الشعبى فى تعامله مع نصه فهو لا يستطيع أن يكون مقنعاً إلا إذا كان عارفاً بطبيعة عمله ، وصناعته الأدائية

وإتقانه للرواية وإدراكه لجمهوره وحاجته . ومدون النص راو فاهم لطبيعة عمله مدرك لانتقاله من الشفهى إلى المكتوب لذا فقد قام المدون بتغييرات أملتها الطبيعية الكتابية للنص .

وهناك فرق كبير بين أن تروى وأن تكتب ، إذ تتغير الحواس التى تتلقى العمل الفنى . أن تسمع تختلف تماماً عن أن ترى. اختلاف التلقى يغير كثيراً من تركيب العبارة وبنية الحدث ، فالراوى حين يروى يوقع ، فتتحول كلماته إلى شعر ، أو نثر موقع . والنثر الموقع قصير مسجوع ، فيه الكثير من الترادف والإطناب والتكرار وكثيراً ما يتجاوز المكتوب منه الإيقاع فى النثر والإطناب والتكرار . غير أن كاتب السيرة لا يتخلص تماماً من عناصر الأداء الشفوى ، فهو مدرك بوعى أن عمله المكتوب سيقرأ على جمهور .. فهو عمل سيتحول إلى رواية شفوية ، إن مدون النص لم يكن يتصور أن النص سيتحول إلى كتاب مطبوع تنقطع العلاقة فيه بين المبدع والمتلقى وإنما العلاقة قائمة بين قارىء النص ومتلقيه إذ أنه بعد أن يكتب النص يصل إلى يد قارىء يقرأه على جمهور ممن لا يحسنون القراءة والكتابة ، وهؤلاء قاعدتهم عريضة فى عالم لم تنتشر فيه القراءة والكتابة الانتشار الحديث ، فقد كانت دائرة الأميين متسعة اتساعاً كبيراً فى العصر التركى . إذن فمدون النص يكتب النص لراو آخر ، فهو يحفظ له النص بمقوماته الشفاهية التى وصلت إليه . ربما يكون مع هذا مدونا للنص وراوياً لما يدونه فيكتبه ثم يلقيه على الجمهور الأمى . وإنه من الواضح فى تدوين النص أن جميع المقومات الشفاهية للنص موجودة ، ويضاف إليها العبارات النمطية التى يخاطب بها الراوى جمهوره . ففى (ذات الهمة) على سبيل المثال تتكرر عبارة (قال الراوى ياسادة ياكرام) ، وعبارة (أنشد يقول : صلوا على طه الرسول) . وتوضح جدلية العلاقة بين الراوى وجمهوره عبارات منها (ياسامعين) و (قال الراوى المؤلف لهذا الكلام بعد الصلاة على

النبى صلى الله عليه وسلم) و (صلوا على سيد السادات) و (النبى تبسم فى وجه من يصلى عليه) .. ويمكن أن تظهر مقدرة الناسخ من الرواية فهو قد يذكر حادثة ويتركها ثم يعود ليشير إليها على عادة الكاتبين : "قال الراوى تقدم لنا فى الجزء الرابع أن (بنو هلال) بعدما قتلوا أبو بشارة العطار حاكم بلاد صهيون جدوا فى قطع الفلوات حتى أقبلوا على مدينة الشام" . (التغريبة ص ١٣٢) . فالناسخ هنا واحد وليس المؤلف بالمعنى العصرى لكلمة تأليف . فهو مدون رواية يعرفها دون أن يكون هناك شخص يمليها عليه ويحاسبه على التزام ما يملى عليه . فهو يدون من الذاكرة ويتضح ذلك من امساكه بخيوطها وانتخابه لأحداث مترابطة فيما بينها . فمدون نص سيرة المهلهل المتداولة بين أيدينا بعنوان قصة الزير سالم أبو ليلى المهلهل ومدون نص سيرة بنى هلال واحد فهو قد بدأ السيرة الهلالية من حيث انتهت . ويمكن أن نضيف أن كثيراً من مختارات الشعر الفصيح المذكورة فى ثنايا النص هى مختارات الناسخ كما أن كثيراً من تصحيحات النموذج الشعرى الذى يمثل جزءاً من السيرة قد يكون أحد أعماله .

وهناك جوانب ليس من السهل أن تكون من المرويات الشفهية ، فهى واضحة التأليف إن لم ينقل المدون عن غيره فهى لاشك من الأعمال المكتوبة كالرسائل المتبادلة بين "مهردكار" بنت الملك كسرى وحمزة البهلوان . تبدأ رسالة مهردكار الأولى بهذه الفقرة "أسيرة الحب قيدها الجمال قيوداً لا تنحل ، ورمتها أيدى الطافك بسجن من الهوى يزيد ويقود بها على الدوام لم يسبق لى أن ملت إلى غرام أو فكرت بمثل هذه الأوهام أو خطر لى أن أعلق قلبى بفتى من الفتيان أو أسلك سبل هذا الميدان ولا أعرف أن نظرة واحدة كافية أن تفعل بى ما فعلت وترمينى بالوسواس وتلقينى على سرير الضنا وتجعلنى أسلك سبيلاً ربما كان غير موافق سلوك من لا يعرف ولا يدرك مفاعيله" . (السيرة ص ٧٣) . هذه النصوص

الأدبية من رسائل تضمنتها السيرة تكشف عن تدبر وتدبير كاتب ، فهى لم تخرج عفوية وإنما صيغت صياغة متأنية حتى خرجت مسترسلة بدقة ، ليس من السهل أن تكون من المرويات الشفهية ، فهى خارجة عن دائرة الحدث مختلفة عن طريقة الرواية الشفهية .

● ● ●

والنصوص الشفهية التى يتناولها هذا البحث وهى جميعاً مرتبطة بسيرة بني هلال ، ومتغايرة عن بعضها البعض إلى حد كبير ، فهى نصوص مستقلة قد تلتقى فى بعض أحداثها ولكنها تختلف في معظم هذه الأحداث . حتى إن نص عرب الشوا ، تكاد تنقطع العلاقة بينه وبين بقية النصوص إلا من حيث استخدام بعض الأسماء كأبى زيد ودياب ، ويتغاير بعضها بتغاير المكان "فخضرة" تتحول إلى "أنده" . أما فى بقية النصوص فالخط العام للسيرة موجود وتتغير تفصيلات الأحداث فنص عبدالرحمن قيقة مختصر ومحدود . أما النصوص الأربعة للحاج عبدالظاهر وعبدالسلام حامد والنادى عثمان وعوض الله عبدالجليل فهى نصوص منفصلة تتزاحم فيها الأحداث تزاحماً كبيراً . ويجمعها الخط العام لحركة السيرة . وتتغاير كثرة من التفصيلات المرتبطة بالحدث مما يجعل كل رواية من هذه الروايات سيرة قائمة بذاتها ، فلسنا أمام بطل واحد اسمه أبوزيد الهلالى سلامة وإنما نحن أمام عدة أبطال كل منهم يسمى أبازيد الهلالى سلامة . وكل منهم بطل يشترك فى المقومات العامة للبطل ، ولكن تختلف كثير من الأحداث وكثير من التصرفات التى تساهم فى نمو السيرة بطريقة مختلفة عن الأخرى . والسؤال أيهم أبوزيد الحقيقى ؟ ليس هناك أبوزيد حقيقى ؛ أو أبوزيد غير حقيقى هناك أبوزيد لراو معين فى رواية معينة . فإنه مع اختلاف روايات السيرة بين هؤلاء الرواة فإن راوية النص الواحد لراو واحد ، فى أوقات مختلفة يخرج نصاً مخالفاً للنص الذى رواه قبل ذلك . المعالم الأساسية واحدة ، ولكن

التغييرات تتم فى تصرفات الشخصية فى مواجهة الحدث وكذلك فى لغة الحدث وكذلك فى لغة النص .

ولقد سجلت لعوض الله روايته لمواليد أبى زيد أربع مرات . الأولى فى بيتى فى ٧ مارس عام ١٩٧٨ م وبقية المرات فى احتفالات فى أماكن متعددة . واشترك فى جميع هذه الحفلات النادى عثمان . كانت الثانية منها فى جامعة القاهرة احتفالاً ببلوغ **الدكتور عبدالحميد يونس سن السبعين من عمره . (وكانت أول مرة يدخل فيها الراوى الشعبى جامعة القاهرة . وكان الدكتور عبدالحميد يونس يرى أن ذلك انتصار لفكرة الأدب الشعبى فكان ذلك اعترافاً أكاديمياً بدور الشاعر الشعبى فى إبداع نوع أدبى)** . وكانت المرة الثالثة عندما صاحبنى فى محاضرة ألقيتها فى المركز الثقافى الأمريكى . والرابعة قدمته فى المركز الثقافى الأسبانى مع مجموعة من المحاضرين لمدة أربعة أيام . بدأت يوم ١٩٨٠/٥/٢٨ م .. والمرة الخامسة والأخيرة فى ١٩٨٣/٤/٢٤ م .. فى منزلى .. وفى جميع هذه المرات كانت هناك اختلافات واضحة بين الروايات . هذا مع العلم أنه هو نفسه كان يزعم أنه يمكن التغيير فى أى جزء من أجزاء السيرة إلا الجزء الخاص بالمواليد . كان عوض الله يعتز بالمواليد ويرى أن هذا الجزء لا يغير فيه ، وكنت إذا أعدت عليه شيئاً من محفوظى يحرص على أن تكون روايتى مطابقة لما يقوله ، وكنت أتصور أن هذا يعنى أنه حافظ للنص لا يبدل ولا يغير فيه ، وهو لاشك حافظ للنص ولكنى اكتشفت أنه يغير ويبدل فيه . ففى إحدى الروايات يجعل من غانم بطلا وفى رواية أخرى يجعله يهرب من الموت ، وفى رواية ثالثة لا يذكره أبدا . وفى رواية يكرر أبيات وصوراً أو مقطوعات ثم لا يعيدها فى رواية أخرى . تطول الرواية وتقصر حسب حالة الانتشاء التى تصيبه من جمهوره ، حبه لأن يكسب الجمهور أساسى فى عملية الأداء . يتغير أداؤه ويرتفع إيقاعه وهو يقف بجوار النادى

عثمان مؤدياً تأخذه الغيرة ويزداد حماساً وتتحول ساحة الأداء بمكانها إلى مسرح له يتحرك فيه مشخصاً عالم السيرة مبهراً بأدائه كل المستمعين ، ولا يختلف النادى عثمان عنه إلا فى شىء واحد وهو هدوءه الشديد وثقته الزائدة بنفسه فهو يسمح بقدر من التجاوز فى سلوك عوض الله إزاءه حتى وهو يحاول أن يفسد عليه الأداء بعدم استخدامه الطار فى الوقت المناسب ، فقد كانا يشتركان معاً فى العزف : النادى بالربابة ، وعوض الله بالطار .

كانت خبرة النادى كبيرة بجمهوره وكانت لغته أقرب وأوضح للجمهور من لغة عوض الله ، يهز عوض الله الجمهور بهذا الكم الانفعالى الشديد الذى يصيبه فى أدائه ويهزهم النادى بالكم الهائل من مخاطبة عواطفهم بأحداث يحبونها وثقته بنفسه يغنى لهم عزيزة ويونس أو يحادثهم عن مقتل الزناتى خليفة ، وهذا الجزء من السيرة رواه لى النادى وسجلته له أكثر من عشر مرات . لا يمل من الاستماع له حين يتحدث عن الزناتى خليفة وهو فى كل مرة يضيف إليه جديداً . الإطار واحد ، ولكن الأداء مختلف وكذلك بعض التفصيلات التى تدخل فى بنية الحدث الكبير للسيرة مختلفة . وصف الأبطال مختلف ،.ولقد كانت تجربة حية أن جمعت بينهما فى محاضرة ألقيتها فى المركز الثقافى الأمريكى ، وكانت عن أداء السيرة ، وطلبت من كل منهما أن يغنى مقتل الزناتى خليفة . صورتان تتوازيان فى جمالهما وتختلفان كثيراً فى مبنيهما .

تعتمد التغيرات التى يحدثها الراوى فى النص كثيراً على الأوصاف النمطية المحفوظة عن وصف البطل وهى كثيرة ويمكن أن يضيفها لأى بطل من أبطاله ، وكذلك صوره عن وصف الجو تتكرر فى المواقف ، تطول وتقصر حسب إحساسه برغبة جمهوره الذى يشترك فى عملية الأداء اشتراكاً فعلياً ، فالنص الشفوى يعاد

تأليفه ساعة الأداء ، يتم فى عملية جدلية بين الراوى والمتلقى . إذا لم تتم عملية التفاعل فإن النص يسقط ، فكل النصوص التى فى أيدينا هى بصورة أو بأخرى تأليف تم ساعة تسجيل النص أو ساعة أدائه . تأليف لا يبدأ من فراغ وإنما من تقاليد متوارثة . فالسيرة التى تطول طولاً متسعاً ليس من السهل أن يحفظها الراوى بكاملها ، إنه يحفظ الأساس ثم يبنى عليه بناء جديداً من وصفه وحسه ، وتتم عملية تداخل لمحفوظه وما يمكن أن يتولد ساعة الأداء فهو يصيغ عالماً متكاملاً من صناعته من خلال تقاليد طويلة عاشها وترسخت فى نفسه ومن خلال تقاليد عالمه الذى يعرفه ويشترك فى معرفته جمهوره الخاص . يأخذ النص فى التوالد والبناء ليتكامل نصاً لنوع أدبى اسمه فن السيرة ، وهو هنا يقترب من أداء الملحمة الغربية التى عرفت عند أصحابها بأنها "لم تصنع بوضع مجموعة منسقة من الأعمال البطولية وجعلها حكاية مستمرة ، فالملحمة ليست إعادة خلق الأشياء القديمة ، إنها فى مجموعها خلق جديد بلغة الأشياء القديمة ، وأى شىء آخر يمكن أن تكون الملحمة ؟. فالشاعر الملحمى يملك تقاليد المحتوى وتقاليد الأسلوب ، وهذا ما يكون وراء الشعراء الآخرين أيضاً . غير أنه فى حالة شاعر الملحمة فإن هذه التقاليد تضيق إلى حد ما (The Epic. P.P. 16 - 17) . وضيق هذه التقاليد فى حالة الراوى الشعبى تأتى من أن جمهوره يدرك هذه التقاليد أكثر مما يدرك قراء شاعر من شعراء الغناء تقاليد كتابة الشعر الغنائى . فإن العارفين بها قلة إذا ما قورنوا بعدد قراء الشعر أو متلقيه . والسبب فى ذلك أن عملية الخلق عند شاعر السيرة مثلها فى ذلك مثل شاعر الملحمة الشعبى إذا ما قورن بشاعر من الشعراء المؤلفين للملاحم مثل "ملتن" فإن هدف صناعته أكثر تقيداً . كما يوضح التكرار والكم الهائل من الصفات . إنه مقيد بحقيقة أنه ينظمها للحفظ" . ("Tbid" P. 37")

واستخدام الصفات المتعارف عليها للبطل ومن يقفون معه أو

ضده من الشجعان صفة من الصفات الهامة للنص وهى التى تجعل التكرار جزءاً هاماً من بنيته .

فالنادى عثمان يروى ساعة مقتل خليفة وذهاب دياب إليه . وعندما يسمع البطل يناديه للحرب يدرك أن ساعته حانت ولكنه لا يتراجع ففى النص صفة خاصة بالزناتى والحدث نفسه وهو توجهه إلى الحرب :

خليفة سمع الطبل نقر .
وع الكتف ناقل زناته .
وجض أبوه كبير الزناته .
ولما جض ولد مهران
ولما جض ولد مهران
وخللى عينك رقوبة .
خرج ولد مهران .
وقال ياعبد جيب الركوبة .

بعد هذا الموقف يضيف لقاء الزناتى بدياب ، وهذا الوصف يتكرر كثيراً فى نص السيرة فهو يروى حالة عامة من الحالات التى عرفت بها السيرة . وهى لقاء الأبطال والتى يمكن أن يوصف بها الزناتى أو دياب أو أبوزيد أو على أبو القمصان بن أبى زيد :

جابوا كحيل وقدموا ليه .
وع الكتف ناقل زناتى .
وسرجوا وقدموا ليه .
ركب خليفة الزناتى .
ولما تقابلوا هما لتنين .
يارافع البلا ياسلام .
وتحلف وتقول سبعين .
نازلين من قرى لِّجْبالْ .

ضاق الحلق ووسع الملق .
هلف الرجال شرد وطار .
وقلبوا لها بالعبابيس .
فى نهار ياللا السلامة .
وتسمع رطن الدبابيس .
تارت هوال القيامة .
ونسوان ياما نوحت .
ياما خليفة اطوًحت .
وياما خَيل عادت روحت .
بعددها من غير سجعان .
من الصبح لما أوجب الضهر .
من الصبح لما أوجب الضهر .
ويالطيف ضقت الخلايق .
وعرق البهمه نزل نهر .
من الزهق شدوا الخلايق .
من الضهر لما أوجب العصر .
وسحبوا السيوف الهواشم .
أدى اتوصلوا بأهل بيت مصر .
وأدى ساعتك ياأم هاشم .

هذه الأبيات كلها لتصور حالة التزاحم النفسى فى معركة ضارية وضعها طبيعى فى هذا المكان ولكنه لا يختص بحدث معين من أحداث لقاء الزناتى بدياب إلا حين ذكر السرداب فهو من المعالم المهمة فى مقتل الزناتى لذا فقد عاد لتكرار جمل من النص :

ولما جو عند السرداب .
وع الكتف ناقل زناتى .

هذه الصورة أعيدت فى السيرة أكثر من مرة فى فصل الأيتام وهو المتصل بمواليد البطل ، فتتكرر صورة أبى زيد فى ميلاده مع ابنه على أبى الحلقان فحين يحارب عدو البياضى يكرر النادى جزءاً من النص السابق بنفس ألفاظه :

من الصبح لما أوجب الظهر
ويالطيف ضقت الخلايق

ويستمر ، والغريب فى كل ذلك أن المستمع يستمتع بالوصف فى كل مرة يعرض له عندما تكون اللحظة لحظة قتال . وحين لا يريد الجمهور منه أن يكرر هذه التراكيب فإنه يتوقف لأن لديه بديلاً عنها . أو يحذف جوانب منها ليدخل مباشرة فى موضوعه وفى ذهنه عالم سيرته ، وكيف يصوغه لهذا الجمهور الذى كثيراً ما يكون مدركاً لصنعته ، وكثيراً ما ينقلب أعضاؤه إلى رواة لهذه السيرة لجمهور آخر . فى لحظة أخرى ، فالسيرة أولاً وأخيراً عرض لحياة أبطال يعيشون أزمة أحياناً مع أعدائهم وأحياناً مع أحبائهم وأحياناً مع أنفسهم ، هذه الأزمة التى تخلق النص وتخلق الانطباع .. ببطولة شخصيات السيرة ، وقد أدرك الغربيون فى ملاحمهم هذا الحس ، فيرى أحد الباحثين "أن الملحمة الحقيقية ، تخلق الانطباع بالبطولة ، وأن هذا الإحساس يتم بالسيطرة على مادة واسعة وأن يدرب على التحكم فى إرادته بوعى" (**The English Epic, P.P. 10 - 11**) .

ووعى الراوى بدوره هو الذى يجعل منه مؤلفاً للنص لا يفترق فى ذلك راو عن آخر ، وفى هذا البحث لا يختلف النادى عثمان وعوض الله عن الحاج عبدالظاهر وعبدالسلام حامد . فلم يكن الحاج عبدالظاهر مختلفاً عن الرواة المحترفين ، فهو قد صنع النص بلغته وكان أقل استخداماً لعناصر التكرار اللفظية ، ولكنه كرر الحدث . كرر ما حدث لأبى زيد فى طفولته وكرره مع ابنه على

أبي القمصان . وعبدالسلام الذى كان يركب عالماً يطيله حين يشاء ويقصره حين يشاء يولد الكلام ساعة تسجيل النص بطريقة ويركبه بطريقة أخرى حين لا يكون هناك تسجيل للنص .

فالنصوص التى يتعامل معها هذا البحث نصوص شعبية لأن مادتها متواترة منقولة من جيل إلى آخر ، وهى أيضاً مؤلفة لأن رواتها صاغوها الصياغة التى تجعلها قريبة لمستمعيهم ، فجعلوا من النص الواحد عدة نصوص ، وجعلوا من البطل الواحد عدة أبطال باسم واحد ، وأبطلوا مقولة أن السيرة تاريخ لأن البطل إذا لم يثبت على حال فى الروايات التى تتحدث عنه فكيف يكون تاريخاً ، قد يكون هناك سيف فى التاريخ وقد لا يكون ، وقد يكون هناك المهلهل وقد لا يكون ، قد يكون هناك حمزة وقد لا يكون وقد يكون هناك أبو زيد وقد لا يكون ، وقد تكون هناك ذات الهمة وقد لا تكون ، وبالتأكيد هناك بيبرس ـ ولكن من المؤكد أن لا علاقة بين البطل التاريخى وبطل السيرة ـ البطل التاريخى يختص بالتاريخ ، يحقق وجوده من عدمه ، أما بطل السيرة فلا دخل له بالتاريخ وليس من حق التاريخ أن يحقق فى وجوده من عدمه لأنه موجود صنعه الفن ، وفن السيرة صنع أبطالاً ، أصبح لهم واقعهم الحقيقى فى خيال صناعهم من رواة ومتلقين ، فهذه النصوص هى الواقع الذى يتعامل معه الباحث .. وأى ارتباط بين أحداث حدثت فى التاريخ وأحداث حدثت فى السيرة . فإنما هى خلفية العمل الفنى ، الخلفية التى توحى بالوجود الحقيقى للفن ليقف فى موازاة الوجود الحقيقى للتاريخ . دون أن يحاول الفن أن يرهق نفسه بالبحث عن الصواب والخطأ فى أحداث تاريخ بطل السيرة لأنه فى نظر الراوى والمتلقى ثابت حى وموجود ، لا يبحث فى ذلك عن سند تاريخى لأنه لو تطابقت صورة بطل السيرة مع التاريخ لبطلت معجزة فن السيرة ، ولما تعددت صور البطل الواحد ، فأصبح أبوزيد في نيجيريا نيجيريا ، وفى تونس تونسيا ، وفى مصر مصريا يتحدث الناس عن

أماكن وجوده .. وفى الجزيرة العربية عربيا ، يذكر الناس أشعاراً عنه بلهجاتهم . ولا يختلف المهلهل عن أبى زيد فهو فى إحدى الروايات مولود فى الجزيرة العربية وفى أخرى مولود فى مصر .. ولعل النصوص التى تناولت مواليد البطل تكشف عن إبداع الراوى ويستحسن أن نقف مع مفتتح النص .

● ● ●

فالنص يبدأ بالفعل الماضى وسيرة سيف تذكر .. إنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان (سيرة سيف ص ١) .

وسيرة عنترة تبدأ بـ "اسمع أيها السامع ماكان من أحاديث العربان وما جرى بين يعرب وقحطان وفزارة وذبيان ، وعبس وغطفان ، وهم مضر وربيعة وأنمار وكان أكبرهم يقال له مضر .. (ص ٢) .

وتبدأ حمزة البهلوان بداية مباشرة بكان : "كانت دولة الفرس من الدول العظيمة فى قديم الأيام" (ص ٢) .

وسيرة المهلهل تذكر بعد حمد الله وصفا لعالم العرب ثم تبدأ السيرة بقول : "قال الراوى وكان ربيعة فى ذلك الزمن (ص ٢) .

وتبدأ أحداث التغريبة بعبارة : "إنه لا يخفى عن أهل المعارف والآداب بأن بلاد نجد كانت من أخصب بلاد العرب" (ص ٢) . ويبدأ عوض الله سيرة بنى هلال بفصل المواليد بجملة : "قال الهلالى رزق أمير الرجال" ، ويبدأ الحاج عبدالظاهر السيرة بفصل المواليد بعبارة "سيرة بنى هلال كانوا زمان قبائل قبائل" ، أما عبدالسلام حامد فيبدأ السيرة بفصلها الأول من نجد إلى مكة . وبعد الصلاة على النبى : "يبدأ بعبارة نرجع نقول على عرب بنى هلال عرب بيض الله تناهم نشعر نقول على رزق الهلالى" . وإذا كانت البداية هى بفعل ماض فإن حدث السيرة مستقبل ،

والمستقبل بمعنى أن كل مقدمات الحدث إنما تكشف جوانبه ، وحين نتحرك إلى المستقبل يصبح مضارعاً ، فالمستقبل يتحرك فى دائرة المضارع حركة متوفزة لا تستقر إذ أنها ساعة أن تستقر يتغير الموقف فيصبح الاستقرار ماض ، لتبدأ حركة جديدة هى حركة ما بعد الاستقرار ، حركة تتجه نحو المستقبل فى صراع ممتد مع حركة الزمن من مستقبل إلى مضارع إلى ماض ، فأداء راوى السيرة هو حركة مضارع تتجه إلى المستقبل ولا تتوقف هذه الحركة إلا حين يتوقف الراوى . ففى ساعة التوقف يصبح الحدث وحالة الأداء حالة ماضية ، ما تلبث أن تتغير الحالة عند المتلقى ، إذ إنه ساعة أن ينتهى الراوى من أدائه تتلبس المتلقى حالة خلق أو حالة معايشة للنص يتحول الحدث فيها الى حالة مضارعة ومستقبلة عنده حتى يتوقف عن التفكير فى النص أو إعادة خلقه من جديد لأى سبب من الأسباب الحياتية .. وحين التوقف يصبح النص ماضياً إلى أن يعود فى الذهن من جديد ، وهذه العودة للنص سواء أكانت مع الراوى أو مع الذات فهى حالة مضارعة متجهة نحو المستقبل ونحو تشكيل الحدث . فالمضارع هو نقطة الحركة وهو مستقبل ليتحول فى النهاية إلى الماضى . ثم ليعود الماضى مرة ثانية نحو المضارع فالمستقبل فى علاقة متجددة لا تنتهى إلا ساعة توقف النص تماماً .

وفى السيرة تتلاشى العلاقات بين الماضى والمضارع والمستقبل ، وبطل السيرة "لا يشعر بحدود فاصلة بينه وبين الماضى والحاضر فى هذا العالم ولا يكاد يميز نفسه كنقطة محدودة من الزمان والمكان" (البطل . ص ٧٥)[٦] .

فالماضى معروف والمستقبل معروف ، والمضارع هو حالة الأداء التى تعيش فى زمن لا ينتهى والحدث يتحرك فى قدر مسبق كتب فى لوح محفوظ منذ الأزل قبل ميلاد البطل .

والبطل حالة آنية مستقبلية تتحرك نحو المضارع لتحقيق الماضى أو ما كتب فى اللوح المحفوظ منذ الأزل .

فمستقبل البطل معروف قبل مولده مكتوب عليه أن يمر فى طريقه . غير أن تكوينه الجسمى والنفسي يحتم عليه السير فى هذا الطريق الذى قد يكون مجهولاً له معروفاً لغيره ، وربما يكون الغير هم أعداؤه . وقد يدفع فعل أعدائه لمنع تحقيق ما وجد له أو ما كتب عليه أن يصنعه ، فتتجه الأحداث نحو تحقيق ماهو معروف وحركة الشخصيات تجعل الحدث دينمياً متطوراً ، يدفع هذه الدينمية والتطور صراع لا ينتهى حتى تتحقق الإرادة الكونية .

وحتى إذا تعرفت الشخصية على قدرها فإنها تعيش صراعها وكأنها لا تعرف عن مستقبلها شيئا وحين يحدث المستقبل أى يتحقق القدر يكون ذلك إرادة للحياة نتيجة طبيعية للصراع فى محاولة غير مقصودة لإيقاف القدر .

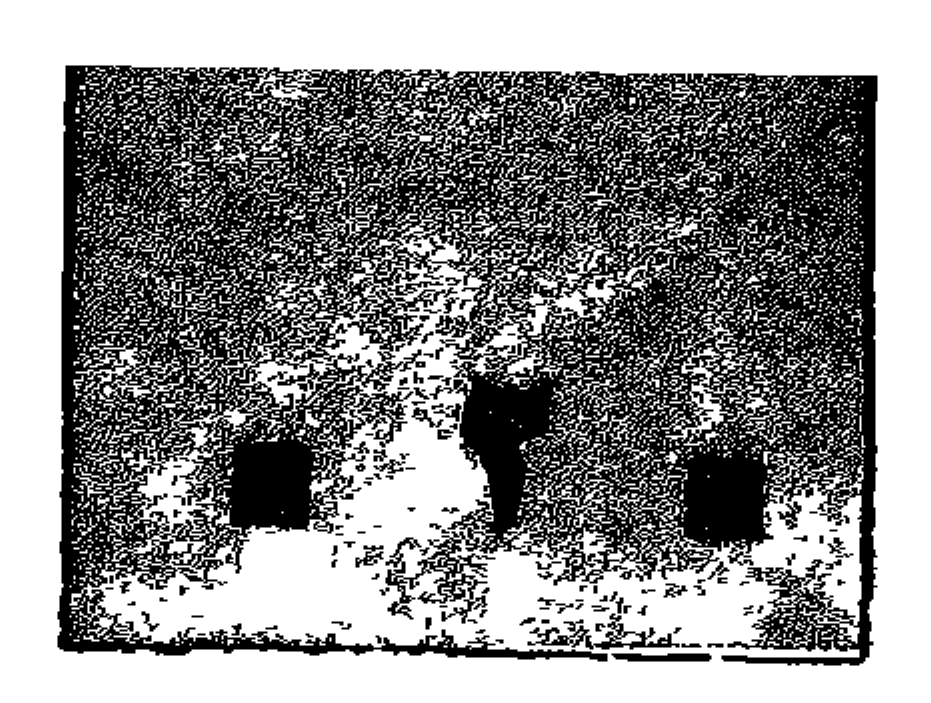
ومواليد البطل هى المقدمة الأولى للسيرة ، تبنى عليه أحداثها .. وتكشف عن الدور الذى سيلعبه البطل ، أما لماذا يتكشف دور البطل هنا . فذلك لأن جمهور السيرة مساهم فى عملية خلقها . فهو متابع لراويه ومتحكم فيه : يتابع الراوى فى أدائه للنص وفى الوقت نفسه يتصور ما يمكن أن تدور عليه أحداث النص ، وتصرف الشخصية ، والراوى يحاول أن يتفهم رغبات سامعيه وتصوراتهم .. ويتحرك مع هذه الرغبات والتصورات ليرضيهم ، وهو يعلم أن أداءه يفشل حين لا يحاول تحريك هذه الرغبات والتصورات ليرضيها أو يثيرها فى الوقت نفسه ، فإنه كلما أثارهم فإنه يثير قدرته أيضاً .. وإثارتهم تحقق لهم الرضا . كما تحقق للراوى . وحين لا يتحقق الرضا لكليهما ، الراوى والمتلقى ،

فإن عملية الأداء تفشل ويسقط النص لأن الراوى يكون قد خسر أحد معاونيه فى الخلق الفنى للسيرة وبالتالى أحد معاونيه فى الأداء ، وإذا انسحب متلق من عملية الأداء ، فإن معنى ذلك أنه خسر واحداً من معاونيه ، وكلما كثر المنسحبون من حلقة الراوى كلما عد ذلك حكما عليه وعلى أدائه بالفشل ، فأداء الرواية هنا هو عملية متكاملة يتداخل فيها المتلقى مع الراوى تداخلاً تاماً .

ومن هنا تكمن أهمية البداية بمواليد البطل فهى التى تحمل بذور تطور النص وحركته نحو المستقبل متمشيا مع منطق المتلقى .
لتكون الوحدة الأولى فى المواليد هى النبوءة .







النبوءة

او قدر البطل

قد لا يوجد بطل لسيرة من السير لم يرتبط ميلاده بالنبوءة فهى ترتبط بوجوده الفعلى ، تحدد له المصير المعد له والدور الذى سيلعبه فى حياته ، وهو دور عليه أن يلعبه ، وليس فى مقدوره أو مقدور أى إنسان ان يعوق هذه النبوءة عن التحقيق ..

وقد كان بيبرس الوحيد من بين أبطال السير الشعبية الذى لم تكن النبوءة بمصيره سابقة لميلاده ، وإنما جاءت بعد أن اختطف من أهله وبيع ، وقد جاءت النبوءة لحظة مرضه فى عبوديته لتنقذه من عذابه وتدخله مرحلة الاعتراف به بطلا ، فكانت بذلك ممثلة لميلاد جديد لابن الملك المريض ..

وتلعب النبوءة دورا كبيرا فى إخراج البطل من حيز الإنسان العادى إلى حيز الإنسان الأسطورى ، أى من الواقعى الى الأسطورى ، وفيها يدخل دائرة الكون الكبير ليصبح مرتبطا به ارتباطا وثيقا .

والنبوءة هى الإخبار بالمستقبل قبل وقوعه ، أى أنها قراءة الغيب وتعرف ما هو مكتوب فى قدر الإنسان . ولقد احتفت السير العربية الشعبية بالنبوءة التى تحدد مصير أبطالها ، وهى ليست فريدة فى ذلك ، فإن النبوءة معروفة فى الآداب العالمية الشعبية ، وقد لعبت دورا كبيرا فى بنيتها القصصية ، وفى الأدب اليونانى كانت النبوءة قاسما مشتركا فى حياة أبطال الملاحم والقصص الشعبى . ولعل من أشهر النبوءات . النبوءة الخاصة بأخيل وكعبه والنبوءة الخاصة بأوديب والتى حملها معبد دلفى إلى والد أوديب بأن ابنا سيولد له يقتله ويتزوج بأمه وحاول الأب ان يتخلص من الابن خوفا من تحقق النبوءة ، وكانت محاولته هذه هى التى أدت الى تحققها .

وكما قامت النبوءة بدور كبير فى القصص الشعبي فإنها قامت بدور مهم فى بعض القصص الدينى ، ولعل من أشهر نبوءات هذه القصص ، النبوءة الخاصة بيوسف وموسى عليهما السلام .

والنبوءة هى رسالة إلى الإنسان ، قد تكون رسالة إلى عدو البطل فيحاول أن يحتاط للأمر ويحاول أن يوقفها فتكون محاولته تحقيقا لها . وقد تكون خبرا يريح صاحبها ، ويمنحه اليقين ويزيل عنه الخوف من نفسه . وقد تكون يقينا للجماعة بدور بطلهم المقدر عليه .

وهذا المبحث يدرس الكيفية التي يتم بها التعرف على النبوءة ، إذ أن هناك عدة وسائل للتعرف عليها . منها الرؤيا أو الحلم ، والإلهام ، ورصد النجوم وقراءتها ، وقراءة الطالع بضرب تخت الرمل ، وهناك النبأ المكتوب فى الكتب القديمة التى تركها أحد الحكماء القدماء ممن ألهموا أو كانوا يرصدون النجوم أو يضربون تخت الرمل .

وترتبط النبوءة فى كثير من الأحيان بالزمان والمكان ، فليس كل وقت أو مكان صالحا للرؤية الصادقة ، كما أن الزمان مرتبط ارتباطا كبيرا بقراءة النجوم ومواعيد ظهورها وعلاقتها بالنجوم الأخرى ، ويلعب الزمان والمكان دورا مهما فى استجابة الدعوة ، فإذا دعيت الدعوة فى الأماكن المقدسة فى الزمان المقدس فإن فرصتها كبيرة فى التحقق ..

● ● ●

ولقد كتب على الأمير حمزة البهلوان أن يكون « الفارس الذى يرفع نير الفرس عن العرب ويهدم معابد النيران وتقع بينه وبين الدولة الكسروية حروب قوية يفضى بها إلى الخراب والدمار وينشر

دين الله وعبادته بين عبدة الأوثان وناكرى الحق سبحانه وتعالى »
[السيرة ص ٥] ... أما الملك سيف بن ذى يزن فقد كتب عليه أن يحقق دعوة نوح عليه السلام فى ابنه حام . ويحدد الرمال هذه النبوءة قبل أن يولد سيف :

فإن مليكا يملك الأرض كلها
يكن حميريا تبعيا ومسلما
بدعوة نوح داعيا كل أسود
لأولاد سام تابعين وخدَّما
يقاتل أبطال الجيوش بعزمه
وينقذهم من ظلمة الكفر والعما (ص ١٥)

وقد كان دور عنترة المكتوب عليه أن يذل العرب الجبابرة حتى يمهد الأرض لمحمد صلى الله عليه وسلم . وتروى القصة أنه « حدث المحدثون وأخبر المخبرون الذين نقلوا كلام العربان الأولين بما رووا من حديث عربان الجاهلية الشجعات وعبادتهم للأصنام وانعطافهم على الأزلام والأوثان وقد أضلهم وأغواهم الشيطان حتى ابتلاهم الله بالمذلة والحرمان لأنه لم يكن قصدهم من ذلك الزمان إلا أنهم يتفاضلون على بعضهم البعض وكأن كل منهم يريد أن يكون ما مثله أحد علي وجه الأرض ويقهر شجعانهم بالطول والعرض .. كانوا لا يخافون الله ولا يخشونه ولا يحترمونه (ولما) أراد الله سبحانه وتعالى هلاك أهل تجبرهم وتكبرهم أذلهم الله تعالى وقهرهم بأقل الاشياء عليه وأحقرهم لديه وكان ذلك غير عسير عليه . وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية تطبق الوادى الذكى الفؤاد الطيب الميلاد صاحب الوداد عنترة بن شداد الذى كان فى زمانه شرارة وخرجت من زناد فقمع الله به الجبابرة فى زمن الجاهلية حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد خير البرية (ﷺ) .

وكذلك تنبأ الإمام الصادق جعفر بن محمد لعبدالوهاب بن ذات الهمة بأنه سيكون ترس قبر النبى صلى الله عليه وسلم . والخليفة الهادى يسمع فى منامه من الرسول بأن عبدالوهاب : « هو من يطلب لعزتى وبه تسير فى الدنيا كلمتى ويبذل نفسه فى طاعة الله وطاعتى » [جـ ٨ مجلد ٢ ص ٢٥٧] .

وفى سيرة المهلهل يذكر التبع اليمانى الأحداث التى ستتبع موته حتى نهاية العالم ويسميها ناسخ السيرة الملحمة الكبرى للتبع حسان ، وفيها يتنبأ بقتل كليب وظهور الزير لينتقم من قاتليه

« ويأتى الزير أبو ليلى المزايل
فيصلى الحرب فى كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد
يضرب السيف فى يوم الجلاد » (ص ٢٥)

ويذكر ايضا أن ابنا لكليب يولد من بعده يثأر له ويقتل خاله :

« ويظهر لك غلام بعد موتك
يسمى الجرو قهار الأعادى
ويقتل على يده جساس خاله » (ص ٢٥) .

وقبل أن تنتهى السيرة تحدد نبوءة لمستقبل ذرية الجرو وهم بنو هلال فتلمح بشتاتهم فى الأرض العربية .

فقد دعت عليهم السيدة فاطمة الزهراء بالشتات والانحدار . وتشرف جدهم هلال بمقابلة النبى صلى الله عليه وسلم وقبله بين عينيه فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل فى وادى العب' ، ، وفى تلك الأيام كان يحارب بعض العشائر فعاونه الأمير هلال وأمده بالعسكر وقاتل معه وكانت فاطمة الزهراء رضى الله عنها راكبة فى هودجها فلما رأت الحرب زجرت جملها لتخرج عن مشاهدة القتال

فشرد بها فى البرارى والفلوات . ولما رجعت دعت على من كان السبب فى البلاء والشتات فقال لها والدها صلى الله عليه وسلم ادعى لهم بالانتصار فإنهم بنو هلال الأخيار وهم لنا من جمله الأحباب والأنصار فنفذت فيهم دعوتها على طول الدهر . (ص ١٦٠)

وأبو زيد الهلالي تحددت النبوءة فيه من كلام جده الشريف قرضة يحادث والده رزق فى رواية عوض الله عبدالجليل :

إذا جابت مولود كبر واتنشا
أبو زيد يطلع فارس يكيد العدا

وقد انجبت بعد زواجها بنتا أسمتها شيحة ثم توقفت عن الإنجاب أحد عشر عاما . تروى سيرة بنى هلال المطبوعة أنها حملت بعد ذلك وتمنت : « **أن يرزقها الله ولدا ذكرا وخرجوا مرة الى بستان فرأت غرابا أسود يطرد الغربان ويقهرهم ويفتك بهم فقالت إلهى اسألك أن ترزقنى ولدا ذكرا ولو كان أسود اللون لعله ينشأ يغلب الفرسان ويقهرهم مثل هذا الغراب** » (ص ٢٦) .

وقد أجمعت هذه الروايات على أنها توقفت تماما عن الحمل وأن ذلك كان يسبب لها ضيقا .

وفى رواية عبدالرحمن فيقة أنها تصدقت بقصعة من الكسكسى للطيور للتوسل بها إلى الله لعله يرزقها ولدا ووضعت القصعة فى البرية فكان أول طير وقع عليها غراب فدعت ربها :

« اللهم يارب يارباه ياغايت البكماء بدر السحاب ومائه أن ترزقنى بوليد صفته ها الطير وحلاه اللى يضربه بالسيف يسيل دماه » (ص ٥٧)

وتذكر رواية الحاج عبدالظاهر أن نساء الهلايل عايروها لتوقفها عن الإنجاب طيلة هذه المدة أما الرجال فقد ضايقهم ألا يكون لزعيمهم رزق ابن ذكر يحمل اسمه . فطلبوا إليه أن يطلقها غير أن رزق لم يستمع فى زوجته كلاما وأبقاها معه .

وفى يوم من الأيام ذهبت ومعها نساء بنى هلال إلى عين ماء .

وهناك وجدت طيرا أبيض وآخر أخضر ، فتمنت كل امرأة أن تأتى بغلام يشبه الطائر الذى تحب أما هى فقد توقفت حتى جاء طير أسود فاحم السواد أخذ يضرب الطيور ويسيل دماها فتمنت ابنا مثل هذا الطير ..

« هى توجهت للكريم وقالت يارب ادينى وليد اسود غطيس وكل اللى ينكشه يسيل دماه .... كان ربنا وباب القدر مفتوح قبل دعاها واقعها رزق بن نايل حبلت ... »

ولم تحدد رواية عبدالسلام حامد المدة التى مكثتها خضرة متوقفة عن الإنجاب بعد شيحة . وإنما تذكر الرواية أن رزق الهلالى كان متألما لعدم إنجابه ابنا من زوجته ، وطلبت منه زوجته أن يتزوج عليها فرفض لأنه صابر على المكتوب .

وذات يوم خرجت مع أربعين امرأة من نساء بنى هلال إلى نهر العرب وكان الطير نازلا يشرب من النهر ، كل واحدة تمنت . زوجة الملك سرحان تمنت على طير ابيض وزوجة غانم تمنت على طير احمر المسمى بدياب » .

ثم أتى طير أسود بشوكة استلم الطيور تشتيتا وهنا أخذت تدعو ربها .

وقالت يارب يا رباب ادينى طير ومحلاه

وكل من يضربه يسيل دماه .. هو السبب والحكاية
وحملت كل النساوين الاربعين كل واحدة جابت رجاله

وفى رواية عوض الله عبدالجليل تفصيل لأزمه الأب وحزنه لعدم إنجابه ابنا وحزن الزوجة حبا فى زوجها متمنية أن يكون له ابن .
فقد جاء إليها باكيا وعندما سألته عن سبب بكائه :

« قال لها يا خضرة حصل لى كلام
ما قرم فارس إلا ابنه بيلعب معاه
ما قرم إلا ابنه بيلعب معاه ع الفراش
بصيت لقيت نفسى بنيتهم بلاش
نزلت دموع خضرة تغنى طشاش
من هرج رزق اللى طراها حداه
من هرج رزق اللى طرى هذا الجواب
كان عند خضره عقل فى الراس وغاب »

وجاءتها شمة بنت الحسب سيد النسب فوجدتها متكدرة وأبلغتها خضرة بسبب حزنها .

فجمعت شمة تسعين سيدة من جميلات بنى هلال وساروا وراء خضرة وكأنهن سعاتها حتى وصلوا إلى النهر وهناك وجدوا الماء الزلال حوله طيور بينها طير أسود شديد السواد .. وهنا طلبت شمة من النسوة أن يتمنين والطائر الأسود يشتت جميع الطيور ثم يطير بمفرده وهنا أخذت خضرة تدعو متمنية من الله أن يرزقها غلام مثله يفتح تونس .

« خضرة تقول ادينى غلام اسود كيف الطير ده

لملكو تونس ووادى حماه
أملكو تونس يحدّ الحسام
من لجل يقولوا خضره جابت غلام
من الهلالى ابن نايل رزق موافى الزمام

....

....

أسألك يا مولاى بنور باهى الجمال
لأنى أجيب مولود يكيد العدا
لأنى اجيب مولود يكيد العدا
أبو زيد يزقى العوازل حنضل بكاس الردى

وعادت خضرة إلى منزلها لتلبس أحلى زينة لتلتقى برزق لتحمل وتنجب أبا زيد الهلالى ..

وتختلف قليلا رواية عرب الشوا النيجيرية فى أن هذا الطائر التى تمنته لم يكن متميزا عن غيره بالسواد وإنما كان نسرا قويا .

طلبت أنده من بزله أن تذهب إلى الماء لتغير ملابسها وكانت فى أيام الطهر فحملت كل واحدة منهن أوعيتها وذهبت إلى البحر وهناك وجدا جثة فرس وقد تجمعت الطيور حولها تأكل لحمها ثم جاء نسر وطرد الطيور ومكث يأكل بمفرده فتمنت بزله أن تأتى بغلام مثل هذا النسر .

وجاء نسر آخر طرد هذا النسر وحمل جثة الفرس ورفعها ثم حطها على الأرض ثلاث مرات .

ولما رأت ذلك تمنت أن تأتى فى طهرها بغلام مثل هذا النسر . وتصور الرواية هذه اللحظة ·

« أنده شافت قالت لبزله . يا بزله أنا أريد فى طهرى هذا ألقى ولد فحل ومنيع مثل النصر هذا أسميه أبو زيد » (Stories of Abu zeid)(النص ص ١) وبعد أن غسلت كل منهما ملابسها وذهبت إلى بيتها لتحمل كل واحدة منهن وتأتى بما تمنت. جاء لبزله دياب ولأنده أبو زيد .

فنبوءة البطل هى مدخله إلى عالم الخير والحق . ففى النبوءة يتحدد الاتجاه الذى يسير فيه مستقبل البطل لتدخله عالم القداسة فى الوقت الذى كتب على البطل أن يسير فيه .

ونبوءة الميلاد لاتتوقف عند النبوءة بالبطل الخير وإنما تتعداه لتتنبأ بالشخص المواجه للبطل anti hero

والبطل لا يواجه نوعا واحدا من الرجال وإنما يواجه نوعين من الرجال :

الأول : وهو البطل المعادى .

الثانى : وهو البطل المضاد .

والبطل المضاد يمكن أن ينقسم إلى نوع محارب ونوع لا يحارب وهو الذى يدخل دائرة شخصية المحتال . وهو هنا المحتال العدو وليس المحتال الصديق .

والبطل المعادى ليس بالضرورة متناقضا فى سلوكه مع البطل ، إذ قد يكون بطلا مثيرا للإعجاب يملك كل مقومات البطولة وله من المعجبين من جمهور المستمعين عدد لايقل عن عدد المعجبين بالبطل كشخصية الزناتي خليفة التى لا تفتأ السيرة تخلع عليه ألقاب الشجاعة والعظمة فهو بطل الغرب الذى يواجه بطل الشرق أبازيد .

فالزناتى ليس مضاداً للبطل من حيث تكوينه الخُلقى والخِلقى وإنما هو مضاد للبطل من حيث وقفة كل منهما فى مواجهة الآخر دفاعا عما يراه كل منهما حقا . فأبوزيد بطل والزناتي خليفة أيضا بطل جعلتهما الظروف أعداء مع إعجاب كل منهما بالآخر فهو ليس مضادا للبطل فى المعنى العام للبطولة وإنما فى وقفته المعادية للبطل .

ولقد عبر عن أحاسيسه بصدق تجاه أبو زيد بإحساس لا يصدر إلا من بطل عظيم . فأبوزيد يقدم عليه ومعه بني هلال وهو فى سن الثمانين بلا معين من أهل أو أصدقاء فلا أحد يسمع كلماته .

لقد كبر الزناتى وفاح الكبر من عيونه وهذا ما يسبب له الألم . فلو أنهم جاءوا له فى صغره لكان له معهم شأن آخر . وهو يعبر عن هذا الألم لابنته سعدى كما يروى النادى عثمان .

« إلا جـونى فى سن تمـانـين
بعد الكبر ما فاح من عيونى
ولاد عـمـى الـدنـييـن
أشور شورتى يخلفونى »

وحين ينظر الى أبى زيد يعجب به ويقارن بينه وبين أبى زيد فى القتال ويصور شدة أبى زيد وقوة حربته التى لا يوصف لها دواء .

أنا جعلت القليد أبو زيد مركب صغيره
تريه يابنتى سفينة أنا عمت فى جوارها
هزنى من الزرادية حسيت بروحى ضاعت وقعدت مكانها
هزنى من الزرادية شبه جده تجلع من درارى عيالها
أنا حربتى ناقره فى حجر

أما حربة الأمير أبوزيد متعتعه فى جبالها
انا حربتى وصفوا لها دوا
أما حربة أبوزيد قليلا دوا ليها
أنا حربتى بيضه زي اللبن
أما حربة القليد أبوزيد تشلع نيرانها

هذا الصدق لا يكون إلا من بطل عظيم لذا فليس من السهل أن نطلق مصطلح البطل المضاد على الزناتى خليفة وإنما البطل المعادى ، لأن العداء هو صفة الحالة التى التقى عليها الزناتى مع أبى زيد . فيصبح من الغريب أن يسمى أبو زيد بطلا وهو القادم لغزو تونس ولا يصبح الزناتى خليفة بطلا وهو الذى يدافع عن أرضه ..

فهو البطل المدافع عن أرضه تختلط فى نفسه الأحاسيس تجاه أبى زيد . فهو قادم ليسلبه أرضه ونفسه ومع ذلك فهو يحبه . يحبه فارسا شجاعا بطلا ويكرهه أيضا فهو يقف فى المعسكر المعادى . ولا يفتأ يعبر عن ذلك لأعز الناس لديه ابنته سعدى . فهو رجل لم ينجب ابنا وكان يتمنى أن يكون أبوزيد ابنه أو ابن عمه أو قريبا له فإن الزناتى يستطيع به أن يعارك الدنيا ويقسمها دون خوف .

أنا أحب أبو زيد يابتى واكرهه
كما الحرة متحبش الدنس فى عزالها
أنا أحب أبو زيد يابتى وأكرهه
كما الفاجر متكره عوالى رجالها
أنا احب أبوزيد يابتى واكرهه
كما الناقه متحبش فراق عيالها
أحب أبوزيد يكون اخويا ولّا ابن عمى ولّا من أعز قرايبى
كنت اقسم الدنيا وأعارك قبالها
محمد نصلى عليه

أما دياب فهناك روايات تجعل منه بطلا معاديا وأخرى تجعل منه بطلا مضادا لأبى زيد ، ومن هنا انقسم جمهور المستمعين إلى قسمين ، وقف قسم مع أبى زيد والقسم الآخر وقف مع دياب ...

ولقد ربط دياب بمولد أبى زيد فقد كانت أمه عند الماء مع أم أبى زيد فهو ابن الدعوة ، والدعوة المستجابة نبوءة .

وهناك روايات تقلل من شأن أبى زيد فلا يظهر بمظهر الفارس ففي حكاية من حكايات ابى زيد فى قلب الجزيرة بعنوان «عليا وأبى زيد » .. تتحدث عنه على أنه محب شريف نظيف وزعيم معروف ومع ذلك يقتل ابن اخته عزيز بن خالد الذى سانده فى رحلته وأستطاع أن يجمعه بحبيبته فقد وجده حكيما وخاف على زعامته منه [أساطير شعبية ص ١٧٧ ـ ١٩٢ـ] وهى قريبة لرواية من روايات التغربية (ص ٣٠) هذه الرواية لا يستطيع أن يلقيها راوٍ من جنوب مصر على جمهوره فأبوزيد فى الروايات مختلف تماما . فهذا الرجل ليس أبازيدهم وبالتالى ليس البطل الذى يعرفون .

أما الشخص المضاد للبطل الذى يملك القدرة على الاحتيال فتمثله شخصيات كثيرة : شخصية عقبة بن مصعب من ذات الهمه وجوان فى الظاهر بيبرس .

وكثيرا ما يقف البطل المعادى موقفا متناقضا من وقفة البطل مع العدل والحق .

البطل المضاد	البطل
جســـــاس	المهلهل

الحكيم سقرديون	سيف
ظـالـم	مظلوم
الحـــارث	ذات الهمة
عقبة	عبدالوهاب
دياب	أبو زيد
جوان	بيبرس

وتلتقى شخصية المحتال سقرديون وعقبة وجوان . ويقف سقرديون ضد سيف حتى لاتتحقق دعوة نوح عليه السلام فى أبناء حام .

أما عقبة بن مصعب فهو ممثل إبليس وداعية الكفر وقد رسمت شخصيته فى سيرة ذات الهمه مطابقة لشخصية المحتال مطابقة دقيقة . وقد تحدثت السيرة عن النبوءة فى مولده :

« قال الراوى : وكان عقبة قد نشأ فى بنى سليم نشوء العرب ، وما كان أحد يقع له على مذهب وقد ذكروا المنام الذى رأته أمه لما أن كانت حاملا به وأنها قد فسرته على الحكماء فقالوا لها يأتِى ولد شرانى يلقى الفتن بين الناس من النساء والرجال ويكون سفاكا للدماء كثير الحيل والزنا مفسدا عاصيا لرب العالمين ، فاحفظى سرك ولا تشيعيه واكتميه وإذا رزقته فاهجريه .. فعندها كتمت عالية أمر عقبة ولم يطلع على هذا الكلام أحد ولما أن ولدته لم تجد له فى قلبها حلاوة الأولاد لأنها رأت آثار العلامات عليه وظهرت فيه من الصغر لأنه ما يخطى بين يديها إلا ويفسد كل شىء حواليها إلى أن كبر ونشأ فكان يلقى الفتن والشر بين النساء فى الحي وهم لا يؤاخذوه لصغر سنه » (السيرة جـ ٨ مجلد ٢ ص ٢١١) .

وهنا يرتبط المعادى للبطل أيضا بقوى كونية ، هذه القوى يمثل جانب الدنس فيها إبليس فيصبح البطل وقد تجلى عليه الكون برؤى تكشف الخير فيه فتحيله إلى مقدس بينما يتجلى الكون على المعادي للبطل برؤى تكشف الشر فيه فتحيله إلى دنس وإذا كان البطل قد يلد أبطالا يحملون نزعة الخير فإن الشخص المعادى للبطل قد يلد أشرارا يحملون نزعة الشر . كما حدث للأبطال من سلسلة ربيعة والد كليب والمهلهل ، وكما حدث لسيف بن ذى يزن فقد حدث أن خرج من عقب عقبة هذا شرير رجيم وهو جوان الذى وقف معاديا للبطل بيبرس وقد تنبأ بظهوره قبل ميلاده بمدة طويلة الحكيم يونان الذى سطر تاريخه على صحائف من ذهب . فجوان هو الدنس الذى يعادى الخير .

ويروى عبدالحميد يونس أنه « لولا أن هذه الشخصية هى مدبرة الشر لقلنا إن هذه السيرة أحرى بها أن تكون سيرة جوان لأن حوادث القصة كلها تكاد تكون بتدبيره ووصيته » [الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي ص ٧٠] ..

ويمكن أن يقال ذلك على جساس وعلى دياب فهى شخصيات وقفت فى مواجهة الخير فى كل موقف من مواقف السيرة بقوة الشر فيها .

وكثيرا ما يعجز البطل عن مواجهة عدوه دون رفيق . فقوة الدنس مركزة قادرة والخير قد يخدع .. وقد يعجز عن مواجهتها بمفرده لذا فهو يحتاج الى رفيق يسانده ومن هنا فإنه كثيرا ما شملت النبوءة رفيق البطل المصاحب وقد أفرد الرواة له مكانا هاما فى روايتهم للسيرة ولمواليد البطل ...





البطل
البر

المصاحب

وكما كان للبطل أعداء لدودون لعبوا دورا فى بناء السيرة وفى تطوير حياة البطل منذ ميلاده ، فكذلك جعلت له دورا يكبر فيتساوى مع دور البطل وقد يصغر من حيث جوهر فعله فلا يتساوى مع بطله ، ولكن معظم رفقاء البطل كانوا أبطالا ومن هنا كان من الخير أن يسمى بالبطل المصاحب بديلا عن عبارة رفيق البطل ، لأن له دورا بطوليا فى السيرة يرتبط بالبطل الرئيسى للسيرة ويدعم وجوده . وهناك قلة من الأبطال وجدوا بلا رفقاء وإنما كان قدرهم أن يواجهوا العالم بما يحملون من عبء بمفردهم ..

فالزير كان وحيدا فى مواجهة أعدائه . والصديق الوحيد الذى كان نديما له قبل أن يبدأ رحلة الثأر هو همام أخو جساس .

فتحولت الصداقة إلى عداوة وانتهى إلى أن قتله وقتل ابنيه .

لقد كان المهلهل ذاتا بمفرده وكانت ذاتا مرة لا تملك روح السخرية ولا الدعابة .

كما كان الزناتى بطلا فردا بلا صاحب يقف معه ويسنده ساعة الشدة . كان يعيش فى عالم من الأعداء خارج أسوار تونس وداخل أسوارها . يحمل مرارته فى ذاته ، لم ير أحد أسنانه ضاحكا أو مبتسما ، لم يشك فى حياته إلا مرة لابنته فى لحظة مأساوية وقد أدرك أن عرش تونس يسقط ليسلم لبنى هلال ..

لقد كانت بطولة فرد لتحمى جماعة هشة متساقطة ، بينما كانت بطولة عدوه بطولة تقف وراء الجماعة لتحميها ، ليس للزناتى من صديق سوى سيفه وفرسه فى مواجهة واقع ولى بعيدا عنه واقتربت نهايته ومع ذلك فقد ظل يعيش بكبرياءه وعظمته بينما كان لأبطال أخرين رفقة قاموا بدور البطل المصاحب .

البطل	البطل المصاحب	
عنترة	شيبوب عبد	أخوه
ذات الهمة	مرزوق	عبد
أبو زيد	قمصان	عبد
عبد الوهاب	محمد البطال	حر
بيبرس	جمال شيحه	حر
سيف	عاقصة جنية ـ	أخته فى الرضاع

والبطل المصاحب قد يكون إنسيا وقد يكون جنيا . فقد لعبت الجنية عاقصة أخت سيف فى الرضاع دور البطل المصاحب له ..

وقد أثار وجود الجنية عاقصة اختا لسيف فى الرضاعة خيال المتلقى، فقد كان وجودها مسليا ومثيرا وقد برر الراوي هذه العلاقة :

« وكان فى ذلك الزمان وذلك العصر والأوان الأنس يصحبون الجن ، والجن يصحبون الإنس ويتحدثون معهم ولا يفزعون منهم ولا يمنعون بعضهم عن بعض ويظهرون على وجه الأرض إلى زمن ظهور سيد الملاح ورسول الملك الفتاح سيد الأنام ورسول الملك العلام الذى ظهر من بين زمزم والمقام وأبطل السحر والكهانة ببركة الشفيع فى العصاة يوم القيامة محمد « صلى الله عليه وسلم »(السيرة م . ١ . ص ٤٧)

كانت عاقصة بقوتها الكونية قادرة على إنقاذه وإنفاذ أوامره ، وهى مختلفة فى تكوينها عن شخصية الجن المعروفة لدينا فى خاتم سليمان أو القمقم فإنها شخصيات فاقدة للحس قوية قادرة كانت فى الخاتم تؤمر فتطيع وفى القمقم شخصية مرة تؤمر فتطيع ولكنها حاقدة ، أما شخصية عاقصة فهى تملك قدرة كونية كما أنها صاحبة مشاعر يمكن أن نطلق عليها مجازا مشاعر إنسانية .

أما شخصية البطل من الإنس فهى تنقسم إلى قسمين : عبد وحر !

أما العبد فهو شيبوب ومرزوق وقمصان وقد لعب وضعهم الاجتماعى دورا فى تقليل شأنهم فى السيرة فكان شيبوب تابعا لأخيه عنترة لم يرتفع ليكون بطلا . كان يفكر ويدبر ويساعد أخاه ولكنه لم يرتفع لدور محمد البطال أو دور شيحة فى السيرة .

أما مرزوق فقد لعب دور الخادم . لم يكن صاحب فكر ولا حيلة ولا قوة لقد ولد معها وربتها أمه فكان بذلك أخاها فى الرضاعة ولكنه تحول إلى عبء عليها ، ويساعد الحارث عدوها وزوجها وابن عمها فى النيل منها فقد سقاها منوما أدى إلى أن يدخل الحارث عليها .

ولم يكن حظ قمصان كبيرا مع بطله أبى زيد . لقد كان أبوه عبدا لرزق . ولقد ولد معه وصحبت أمه والدته فى رحلة غربتها لذا فقد تربى معه وولد ابنه مع الأيتام فى غربتهم ولكن حظه فى السيرة لم يكن كبيرا فلم يرتفع فيها ليكون بطلا حقيقيا . ولقد ولد قمصان فى يوم ميلاد أبى زيد ولم يخرج عن الدور الذى حدد له من أن يكون العبد المخلص لسيده حتى إنه كثيرا ما يختفى ولا يظهر له أثر فى النص . وكثيرا ما يبرز فجاءة .

كأن ينادى أبو زيد :

« ياقمصان هات لى الشحتان » أى الفرس

ولم يكن جمهور الراوى الشعبى فى حاجة إلى أن يتقبلوا تطويرا لشخصية قمصان . ولقد ذكر النادى عثمان أنه كان يغنى السيرة فى قرية « المطاعنة » جنوب الأقصر فى منتصف الطريق بين أرمنت وإسنا وكثير من أهل هذه المنطقة يرون أن لهم علاقة بالزناتى خليفة فهم زغابى . أخذ النادى عثمان يتغنى بخروج أبى القمصان لملاقاة الزناتى خليفة ومنازلته فى ميدان القتال

خليفة نادم ياقمصان
سود الليالى تعيبك
يافطيس يا شراية المال
راح فين أبوزيد سيدك
ورد عليه قمصان :
أبو زيد سيدى مالك بيه
يابو العمامة النضيفة
إن كان ع الحرب خليه
انا كفوكم يا خليفة

. وإذ بواحد من المستمعين يقترب منه وقد ظهر على وجهه الغضب وبان فى عينيه عدم الرضا وقال له :

يا أخى قبلنا أن ينازل أبوزيد الزناتى خليفة فهو ابن الشريفة خضرة وبعدها تترك عبدا ينازله .

وهنا استمر النادى عثمان فى غنائه معلنا رفض الزناتي خليفة أن ينازل العبد قمصان ويعود قمصان ليصر على ملاقاته وهو يقول : « العبد بيحارب على حس سيده »

وضعه النادى فى حجمه الذى يريده له الجمهور . من هنا امتزجت فى شخصية أبى زيد شخصيتان : شخصية البطل المقاتل وشخصية المحتال .. امتزجتا امتزاجا كاملا فكان أبو زيد بطلا داخله محتال أو محتالا داخله بطل فكان البطل :

ذات + ذات = أبوزيد .

فهو صاحب جراب الحيلة المتنكر فى أكثر من ثوب وهو يحمل معه منطقة جايل المتحكمة فى الجان وهو أيضا الإنسان البطل : ولقد عبر عن أزمته فى حديثه عن نفسه أمام الزناتى خليفة !

أنا من يوم ما خضرة جابتنى
مرضعت لبن الهمايل (لم يرضع لبنا غير لبن أمه)
ولا يوم هيه نطّطتنى
ولا بت ع الفرش نايم
من يومى ما بزرع زرع
ولا غزّ النقيلة بإيدى
ولا حيلتى إلا الشر
سوق الغفاليق عيدى

لقد عاش شيبوب مع عنترة وعاش مرزوق مع ذات الهمة وعاش قمصان مع أبى زيد ولكن الجمهور حكم عليهم ألا يتجاوزوا الدور الذى حدد لهم عبيدا ، يعيش كل منهم مع سيد هصور .

وإن كان شيبوب أكثر حياة منه فى نص سيرة عنترة فهو أخوه من أمه وصاحب العقل المدبر لحركة عنترة يوجهه للدفاع عن حقه مع قبيلته ويدبر له حين ينقاد عنترة وراء عواطفه .

أما عمر العيار ومحمد البطال وجمال شيحة فقد لعب كل منهم دورا خطيرا لا يقل عن دور البطل الأصيل للسيرة .

ولقد ولد عمر العيار فى يوم مولد الأمير حمزة ، مع ثمانمائة طفل آخر ، من أب عبد ولكنه خص بنبوءة بزرجمهر التى تجعل منه أقرب المقربين لحمزة فقد قال للأمير ابراهيم والد حمزة :

« ليكتب هذا الغلام من رفاق ابنك حمزة ويكون له ساعدا قويا عند ضيقانه ويخلصه على الدوام عند وقوعه فى الشدائد والمصاعب فخذه وربه مع ابنك واعتن به كل الاعتناء فهو عصا ابنك يتوكأ عليها فى حياته ويحتاجه فى كل أوقاته وكان وجه هذا الغلام صغيرا مستديرا . صغيرة جدا مستديرة كأنها الثقوب ويديه ورجليه صغيرة دقيقة أشبه بالخيطان

لأنه لم يكن كامل البنية فأجاب الأمير طلب الوزير ودفع الغلام الى المراضع ليكون على الدوام مع ولده وقد سماه عمر وهو عمر العيار ويكون عيار الأمير » .

وقد لعب دورا خطيرا فى حياة حمزة البهلوان كان ساعده الأيمن وصاحب الحركة السريع الواقف بجوار سيده فى كل خطوة يصاحبهم الأطفال الذين ولدوا يوم مولد الأمير .

أما محمد البطال فقد أضيف أسمه على نص سيرة ذات سيرة ذات الهمة على أنه أحد أبطالها فى إحدى طبعاتها ، فيكتب العنوان هكذا :

« سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب والأمير محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشو مدرس المحتال » .

لم يذكر أن محمداً البطال ولد مع الأمير .. وإنما ذكر أنه كتب فى ديوان المجاهدين دون أن يكون مجاهدا ، فهو لم يحضر قط حربا ولا طعنا ولا ضربا لأنه كثير الفزع والهلع زائد القذارة والكسل ، مقعد لا يقدر أن يقوم على قدميه وإن أكل يكسل أن يحرك فمه وشفتيه وإن بال بال على أذياله وإن تكلم سال رياله يفزع من الماء إذا سر ومن الثور إذا ثار ، وكلما زقزق الفار فى الدار يهرب فى ثياب أمه ويقول هذا من العار . ومن جملة كسله أنه إن كان نصفه فى الظل والنصف الآخر فى الشمس وهو نائم يكسل أن يزحف من الشمس إلى الظل .. [السيرة م ٢ ، جـ ٨ ، ص ٢٠٠] .

ولقد فقد والده الأمل من أن يصبح فارسا فوجهه إلى القاضى عقبة رأس أهل الشقاء ليتعلم منه .

فكان أن عنى به عقبة واجتهد فى تعليمه وإتقانه والاعتناء به ليل

نهار فكان كلما لقنه الفقيه عقبة شيئا يحفظه .. وما يحفظه الأولاد فى شهر يحفظه فى يوم واحد وألقى الله فى ذهنه الفهم والفطنة .

وكأن الحق أمات نفسه الحيوانية وأحيا نفسه الروحانية [ص ٣٠١] تم له ذلك على يد عقبة ليتعلم من عالمه فيكون عليما بالشر ويكون هو الشخص المختار ليواجه شرور الشيطان المتمثلة فى عقبة ..

ولقد ذهب إلى القتال فإذا به يخشى عليه وصار لا يعرف ما بين يديه من شدة الخوف والفزع ثم تمالك البطال نفسه بعد أن انقذ من سهم أصاب ثعبانا عظيما فلما رأى ذلك زال منه الخوف والحذر وتحرك فى المعركة شخصية جديدة ليصبح أحد أبطال المسلمين يمدهم بمشورته ويساعدهم .

فكان ذلك يومه الأول صاحب قوة وصاحب خيل وهنا قام الأمير عبدالوهاب وقال ياسادات العرب وذوى الرتب اشهدوا علىّ أننى خاويت أبا محمد البطال وأنه أخى فى الدنيا والآخرة بعدما تصافحا واننى أولى به من غيرى [ص ٣١٧] ولقد اصبح منذ هذه اللحظة فى السيرة مزاوجا لشخصية عبدالوهاب ومقابلا لشخصية عقبة .

يواجه الأمير القوة إذا احتاج وبالدهاء الذى تعلمه من عقبة يرد على عقبة مطاعنه وشروره ويصبح دوره فى هذه السيرة لا يقل عن دور عبدالوهاب وعقبة مجتمعين إلا أنه تظل لعبدالوهاب تلك القوة البدنية التى لم تكن تستغنى قط عن عقل البطال ودهائه .

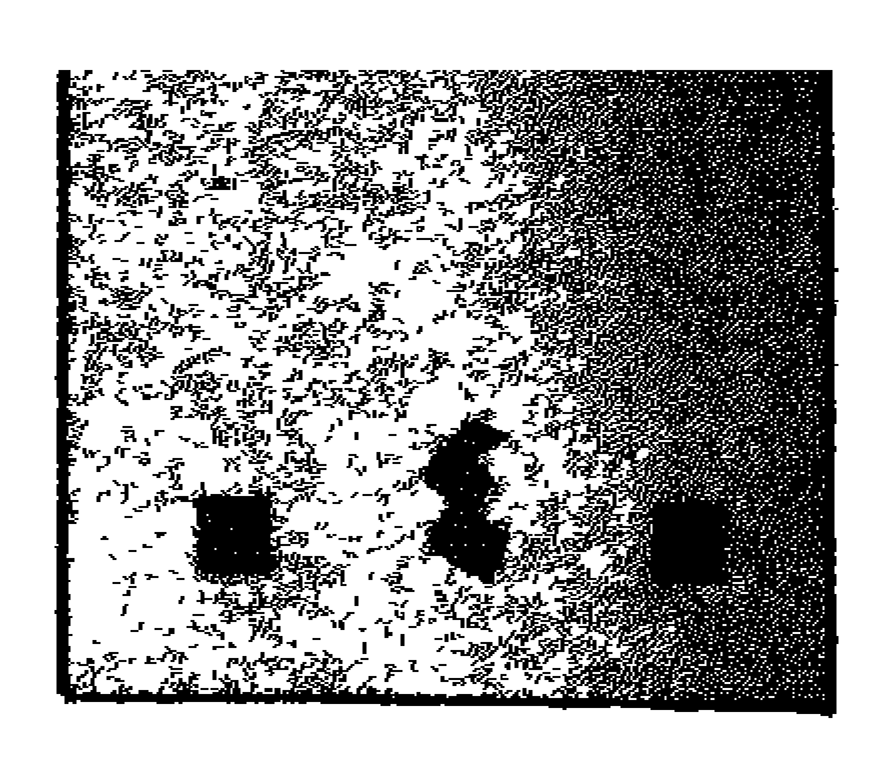
ويرث جمال شيحة فى سيرة بيبرس شخصية البطال فى سيرة ذات الهمة ويرث نفس دوره فيها فتصبح علاقة جمال ببيبرس موازية لعلاقة البطال بعبدالوهاب . وكما كان البطال واقفا لعقبة

بالمرصاد مبطلا ألاعيبه الشيطانية ، فإن جمال لعب نفس الدور مع حفيد عقبة جوان .. كان ذلك هو قدره الذى سجله إينان بن يونان على صحائف من فضة .

وهكذا فإن ثلاث شخصيات كل منها ترتد إلى الآخر وتتطور عنه ؛ عمر العيار ومحمد البطال وجمال شيحة وكل شخصية من هذه الشخصيات تعيش ببطل آخر تخدمه ولا تستغنى عنه ولا يستغنى عنها لتكتمل صورة البطولة . وإذا كان البطل حين يوجد كثيرا ما كان يصاحبه فى ميلاده رفيق فى رحلة بطولته فإن السيرة اهتمت اهتماما كبيرا بالحديث عن نسب البطل قبل مولده لتحقيق نقاء نسبه .. فالبطل الأول للسيرة لابد أن يكون كريم النسب ..







نسب

البطل

يدخل نسب البطل فى النسيج العام لبنية السيرة الشعبية فى فصلها الأول :

ولاتكاد تخلو سيرة من السير الشعبية العربية من الاهتمام بنسب البطل ، فقبل أن تتكلم عن البطل ترسم صورة لميراثه العرقى والنفسى من خلال العناصر المكونة لهذا التراث ، فالبطل لا يقود جماعته من هامشها العرقى ، وإنما يقودها وهو من صلبها ومن أعرق أعراقها .

وهذه ليست قاعدة تفردت بها السيرة الشعبية وحدها ، فأقدم نص لسير من السيرة العربية معروف لدينا هو سيرة ابن هشام التى تروى سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . ويستغرق الحديث عن نسبه (ﷺ) وآله من الصفحة الأولى حتى الصفحة الثامنة والخمسين بعد المائة (١٥٨) ، وهى الصفحة التى تتحدث فيها السيرة بالتفصيل عن مولد الرسول الكريم (ﷺ) فتروى رواية ابن اسحاق ورواية قيس بن مخرمة ، ورواية حسان بن ثابت (السيرة ص ٥٩) ، ثم فى الصفحة التالية لها نسب حليمة ونسب أبيها ، ونسب والد الرسول (ﷺ) فى الرضاع فالدم الزكى المتوارث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب ألا يدخله لبن غير زكى .

ولو تركنا سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سورة سيدنا يوسف عليه السلام لوجدنا أنها تحكى سيرة حياته .. ومع أن السورة كانت تهدف إلى توضيح العلاقة بين يوسف عليه السلام وإخوته (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) (١٢ ك ٧) إلا أن الآيات عرضت لقصة يوسف عليه السلام كاملة ، وفى الآيات الأولى تحدثت عن نسبه عليه السلام بايجاز وإحكام دون إطناب أو تفصيل ، وكشفت عن نسبه الطاهر من حديث والده إليه (وكذلك

يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم واسحق . إن ربك عليم حكيم) (١٢ ك ٦) . وبعد أن كشفت الآيات عن نسبه وميلاده الطاهرين حكت بعد ذلك الأحداث التى تقود يوسف عليه السلام نحو تحقيق الحلم ، وجميعها رسم ليوضح سيرته .

لقد اتخذت السيرة الشعبية مسارا واضحا يحدد نسب أبطالها ، فهى تارة توجز ، وتارة أخرى تسهب ، فهناك أبطال لم تتحدث السيرة الا عن آبائهم مثل الأمير حمزة البهلوان والأمير سيف والظاهر بيبرس . وقد تفصل فى الحديث عن نسب البطل كما حدث للمهلهل وعنترة وذات الهمة وأبى زيد الهلالى سلامة .

والإيجاز والإسهاب فى ذكر نسب البطل يرجعان إلى الظروف التى وضع فيها ، فإن كان البطل ابن ملك فى حاضره لا يحتاج إلى تناول نسبه بالتفصيل ، فحمزة وسيف وبيبرس أبناء ملوك .

أما إذا كان البطل قبيليا فإن السيرة تكشف عن نسبه وقد تستمر فى سرد النسب إذا خرج من صلبه أبطال تمتد بهم السيرة ..

تذكر سيرة حمزة أن والده هو الملك إبراهيم حاكم مكة . وليس هناك مكان أشرف لدى المسلمين من مكة ، ففيها بيت الله الحرام ، وهى مهبط الوحى ومهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . ولذلك لم تفض السيرة فى الحديث عن هذا النسب إذ يكفى أنه ابن أمير مكة ليكون من أشرف الناس نسبا وأعلاهم حسبا .

أما سيف بن ذى يزن فقد تحدثت السيرة عن والده كثيرا حتى قتل قبل أن يولد سيف ، فهو ابن يزن ملك اليمن وأكبر ملوك الأرض

طرا ، وليس راوى السيرة فى حاجة إلى أن يتحدث عن نسبه بأكثر من ذلك . ويذكر فى عنوان نسخة السيرة أنه من سلالة التبع حسان ، وقد ذكر فى الملحمة الكبرى للتبع حسان وهو يخاطب كليبا :

«وسيف ذو يزن سيظهر.وتصحبه السعادة فى العباد »
(قصة الزير ص ٢٥) .

وذكر القاص الشعبى أن بيبرس ابن ملك خوارزم القاف شاه جمك . وأمه الأميرة آبق . فهؤلاء الأبطال أبناء الملوك .

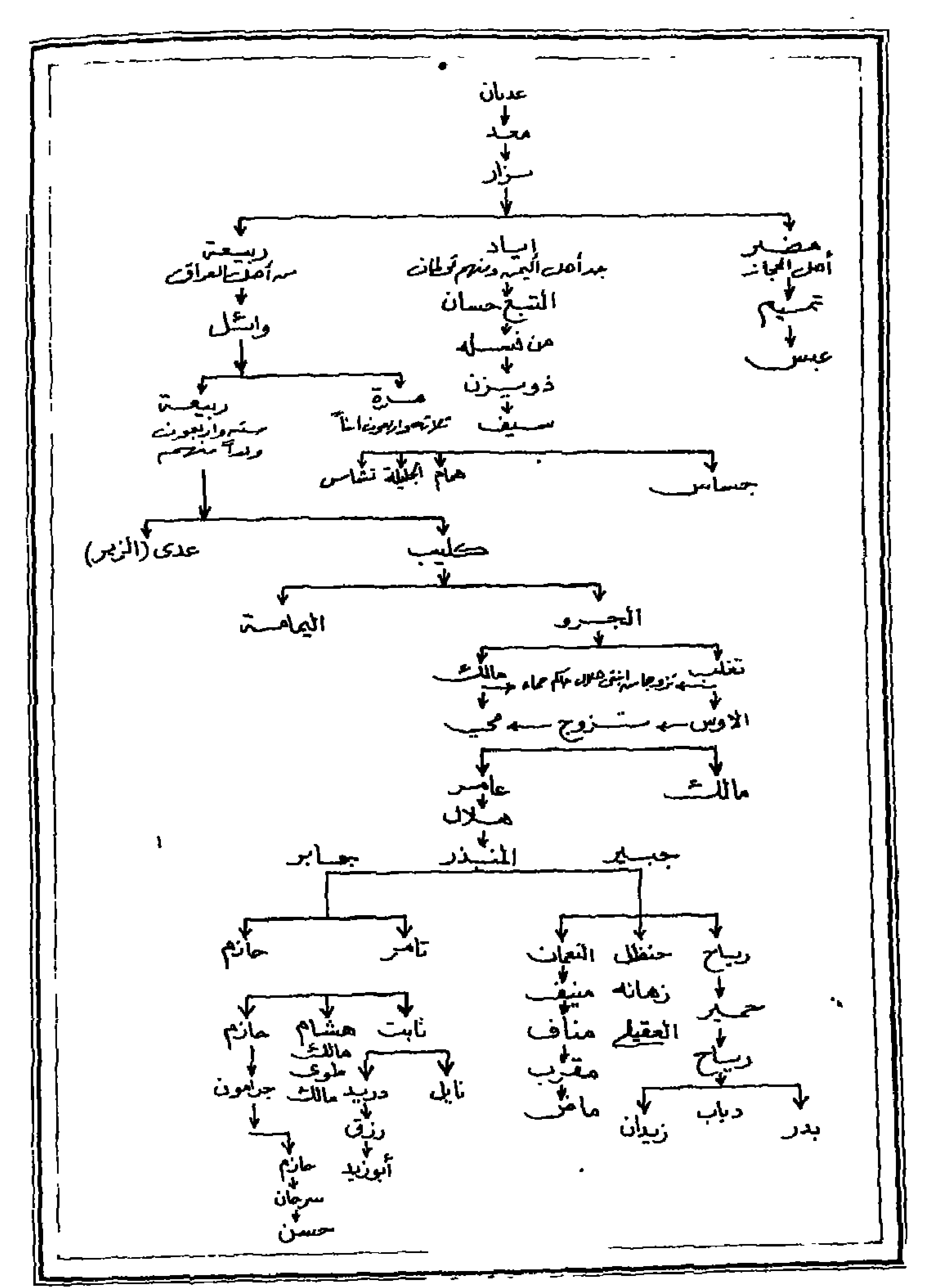
أما الأبطال من غير أبناء الملوك فإن نسبهم قد امتد ، ليؤكد نقاء دمائهم وصفاء شرفهم ، فعنترة المختلطة دماؤه بين الرجل العربى السيد وبين المرأة الحبشية المستعبدة ما كان يمكن أن يتركه الراوى دون أن يغوص فى نسب أبيه ونسب أمه ، فأبوه سيد من سيد سادات عبس . وقد بدأ حديثه عن العرب منذ جدهم الأول إبراهيم عليه السلام وانساق بعد ذلك ليتحدث عن ابنه اسماعيل عليه السلام ، وكيف تناسل العرب من أولاد قيدار حتى عدنان ثم معد فنزار ، وأنمار (ص ٥٣) وجعل من نزار والدا للعرب جميعا دون استثناء فهو أبو إياد جد العرب . كما أنه أبو ربيعة ومضر وأنمار . وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم وقد جعل نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بين عينيه ، وانتهى إلى الحديث عن نسب ملكهم وهو أحد ابناء عمومة شداد بن قراد والد عنترة ، فهو زهير بن جذيمة بن رواحة بن قطيعة بن عبس بن غفلان بن معد ابن عدنان وقد سقط اسم نزار فى هذه السلسلة ، وربما يكون ذلك خطأ مطبعيا أو إغفالا من الناسخ للاسم لذكره قبل ذلك ، فعنترة يلتقى مع الملك فى الجد الرابع وهو عبس أما والدته فهى أميرة من أميرات الأحباش سبيت فأصبحت أمة حتى سباها والده .. وأنجبت منه بشهادته وشهادة أصحابه عنترة .

وقد استغرق الحديث عن نسب ذات الهمة وتاريخ آبائها الأجزاء الستة التى يتكون منها المجلد الأول الذى ينتهى قبل أن تولد ذات الهمة ، ويبدأ الحديث عن والدها وعنها فى الجزء السابع فى المجلد الثانى .

وذات الهمة ، كما يوضح نص السيرة من بنى كلاب ، فهى ابنة أبطال مغاوير مشهورين من بنى كلاب ، فجدها الأكبر : الحارث الكلابى الذى أنجب البطل جندبة ، والأخير أنجب الصحصاح ملك العرب ، وأنجب الصحصاح مظلوما ، وأنجب مظلوم ظالما وفاطمة ، فأنجب ظالم الحارث ، وأنجبت فاطمة عبدالوهاب .

ونسب أبى زيد الهلالى سلامة يجمع عدة حلقات من حلقات النسب ، حلقة تمثل اتصال نسبه بالجد الأكبر للهلالية وهو هلال ، وحلقة أخرى تمثل اتصاله بجد هلال الأكبر الجرو بن كليب وابن أخى المهلهل ، وحلقة ثالثة تصل هذا النسب بعدنان ، الجد الأكبر للعرب .. وجزء من سلسلة النسب هذه يؤخذ من رواية سيرة الزير سالم المطبوعة . والجزء الباقى يؤخذ من سيرة بنى هلال المطبوعة .. وقد استند عليها عبدالحميد يونس فى إيراده للنسب الشعبى لبنى هلال (الهلالية ص ١٠٢ ـ ١٠٣) كما استند إليها شوقى عبدالحكيم (سيرة بنى هلال ص ٧٦) وفيما يلى محاولة لوضع خريطة توضح نسب أبى زيد وأجداده حتى عدنان :





عدنان
معد
نزار
ربيعة
إياد
مضر
تميم
عبس
وائل
التبع حسان
من نسله
ذو يزن
سيف
مرة
ربيعة
جساس
همام
الجليلة
كليب
عدى (الزير)
الجرو
اليمامة
تغلب
مالك
الاوس
عامر
مالك
هلال
جبير
المنذر
جابر
رياح
حنظل
النعمان
تامر
حازم
حمير
زهانه
منيف
العقيلي
مناف
رياح
مقرب
ماضي
بدر
دياب
زيدان
ثابت
هشام
حازم
نايل
دريد
مالك
رزق
أبوزيد
حازم
سرحان
حسن

ونسب أبى زيد فى هذه الرواية يختلف إلى حد كبير عن نسبه فى الروايات الشفهية ، فالحلقة التى تربطه بكليب لم أسمع راويا من الرواة الشعبيين الذين استمعت اليهم من رواة الوجه القبلى يتحدث عن هذه العلاقة . فهي علاقة مرتبطة ارتباطا كبيرا بمدون واحد . هو الذى دون سيرة المهلهل المتداولة فى العالم العربى دون غيرها من السير التى تناولت المهلهل . ونفس الناسخ الذى دون سيرة بنى هلال إذ تبدأ عبارتها الأولى بالعبارة التى ختمت بها سيرة المهلهل واستمرت فى الحديث عن أخبار الأمير هلال وأبنائه من بعده ، بما يوضح أنه يعتمد على رواية واحدة للسيرتين ، فهما تبدوان وكأنهما سيرة واحدة دونت فى جزئين ، الأول سيرة الآباء والثانى سيرة الأبناء ، وهى الرواية التى تلتقى مع رواة الوجه البحرى الشاعر فتحى سليمان والشاعر على الوهيدى .

ويخالف النص الشفوى النص المكتوب فى تحديد نسب أبى زيد الهلالى . فهو فى الأخيرة لا يتعدى ذكر الجد الثانى ، فهو أبو زيد بن رزق بن نايل بن جرامون من بنى هلال .

وتتفق روايات عبدالظاهر وعوض الله وعبدالسلام حامد على أن سرحان أخو رزق ، كما تتفق على أن القاضى فايد ابن عمهم فهو ابن بدير ، ومن هؤلاء الثلاثة تتكون قيادة الجماعة الهلالية ، ويخرج من أصلابهم حسن بن سرحان أمير بنى هلال وأبو زيد بن رزق الزعيم وبدير بن فايد القاضى .

ولا تشير السيرة الشفوية لعلاقة بين أسرة أبى زيد وأسرة دياب ، فدياب من الزعابى والزغابى من حمر اليمن . وتذكر الروايات الشفهية أن غانما والد دياب ترك قومه وقد طرده أحد أبناء عمومته وهو الزناتى خليفة عندما كان فى اليمن قبل أن يرحل إلى تونس ، فخرج بمن معه والتجأ إلى بنى هلال واستقبلوه بترحاب ، وأصبح حليفا لهم له حقوق الهلاليين وواجباتهم وتربى ابنه دياب

وتذكر سيرة بنى هلال المطبوعة أن ديابا تزوج بنت القاضى فايد فأنجبت له ثلاثة أبناء : بدرا وديابا ، وزيدان (السيرة : ٣٩) كما تذكر التغريبة أن الأمير حسن تزوج بأخته .. وتجمع الروايات الشفوية التى معى لاتذكر له ابنا يسمى بدرا كما يذكر الحاج عبد الظاهر أن زيدان ليس أخا دياب . وإنما ابن عمه ، فهو زغابى ، وأنه ابن أخت أبى زيد فى الرضاعة أى أن شيحة أخت أبى زيد قد أرضعته وكان يناديه بالخال وحاول أن يدافع عنه أمام دياب فى فصل السيرة الأخيرة (الأيتام) .

ونتيجة لاختلاف نسب الهلالية عن نسب دياب ، فالهلالية عرب حجازية والزغابى عرب يمنية ، فقد خشى الهلالية أن ينضم دياب إلى الزناتى خليفة فى حربهم معه ، فتركوه يرعى الإبل ثم طلبوه عندما تبين لهم أنه حانت لحظة مقتل الزناتى خليفة بعد أربع وعشرين سنة من المعركة فرفض فدفعت الجاذ بحليفه عامر الخفاجي لأن يدخل المعركة ليقاتل الزناتى خليفة وهى تعرف أنه ليس كفؤا له وأن الزناتي لاشك قاتله ... وفعلا قتله .. فلما سمع دياب بذلك عاد لينتقم من قاتلي خليفة ، عاد وقد أصبح هناك ثأر جديد بينه وبين الزناتى خليفة .

أما أم أبى زيد فهى خضرة الشريفة بنت الشريف قرضة حاكم مكة ، فقد أقامت السيرة المطبوعة علاقة نسب بين والدها الشريف قرضة بنى هلال فجعلته هلاليا ، فعندما سأل الأبشع عن حاكم مكة « قالوا له : قرضاب الشريف بن هاشم وهو من بنى هلال » (ص ٢ السيرة) وتختلف جميع الروايات الشفهية التى بين يدى فى هذا فلا تجعل علاقة نسب بين بنى هلال وبين الشريف قرضة ، فهو من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد اكتسب أبو زيد علاقته بالرسول من خلال والدته .

ولقد اختلف فى الطريقة التى تزوج بها رزق الشريفة خضرة أم أبى زيد فقد ذكرت سيرة بنى هلال المطبوعة أن قرضابا استنجد ببنى هلال ليقفوا معه ضد الأبشع ملك الروم الذى ينوى غزو مكة . فذهب بنو هلال وعلى رأسهم رزق بن نايل حتى تقابل الفريقان فأعلن الشريف قرضة جائزة لمن يقتل الأبشع الزواج من ابنته خضرة فطمع رزق فى الزواج منها فنزل لملاقاة الأبشع فقتله وهزم الروم وتشتتوا فى البرارى ورجع الأحياء منهم إلى بلادهم .

وتتفق رواية عبدالسلام حامد مع هذه الرواية وهو يبدأ السيرة بفصل يسميه من نجد إلى مكة ، وفيه يذكر أنه ذهب إلى مكة مع مئتى فارس ليصلى هناك فرض الإله . وهناك وجد الأعادى يحيطون بالمدينة يطلبون من حاكمها الشريف قرضة الجزية ، فحاربهم رزق وهزمهم ومكث ضيفا عند الشريف لعدة أيام وحين عودته أعطاه ابنته الشريفة خضرة ففرح بها كثيرا وعاد بها إلى أهله . ولا تخرج رواية عبدالرحمن قيقة كثيرا عن ذلك إلا أنها لا تجعل الحرب فى مكة نفسها وإنما تنقلها إلى الشام ؛ فقد ثار أهلها على شريف مكة ، فأرسل إلى ابى على أمير بنى هلال لينجده ، فبعث إليه برزق الهلالى ومعه ثلاثون فارسا من بنى هلال ، وزوج الشريف ابنته من الأمير رزق ..

وتختلف بقية الروايات الشفهية عن هذه الرواية فلا تذكر أن رزقا حارب فى مكة . تبدأ رواية عرب الشوا بلحظة أُمْنية أنده (خضرة) أم أبى زيد ، أى أن زواج رزق تم عن طريق الصدفة ، وليس عن طريق تدبير سابق . ورواية الحاج عبدالظاهر فى جملتها الأولى بعد التعريف بزعامة رزق بن نايل لقبيلته تتحدث عن زواجه من خضرة الشريفة .

وبدأت كذلك رواية عوض الله عبدالجليل برغبة رزق فى أن يتزوج حتى ينجب ، فحدد له الهلايل الزوجة .

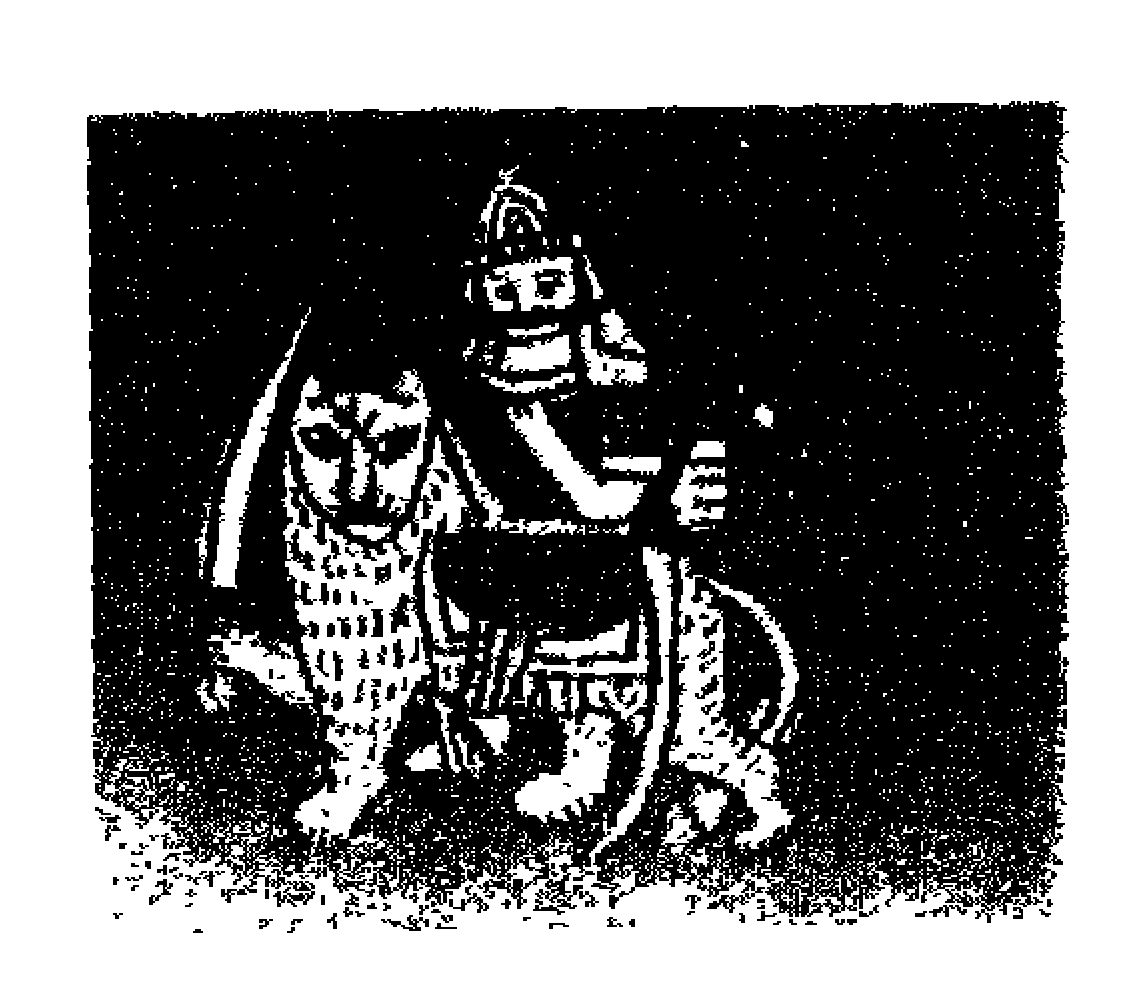
« قالوا الهلايل هم فرسان تمام
بنت الشريف قرضه من الناس التمام
نسبة نبينا المصطفى عليه السلام
بنت الشريف قرضه ملك فى حماه

وقد فصلت رواية عوض الله بهذا الزواج تفصيلا دقيقا يكشف مكانة الشريف قرضة ومدى إعزازه لابنته . وقد وقعت الرواية هذا الحديث توقيعا شعريا مثيرا ، فقد قسمت مطالبه الى قسمين : قسم يقدم للخدم والسعاة ، ثم خزنة ذهب مهرا لهذه الشريفة يماثل مهر أمها :

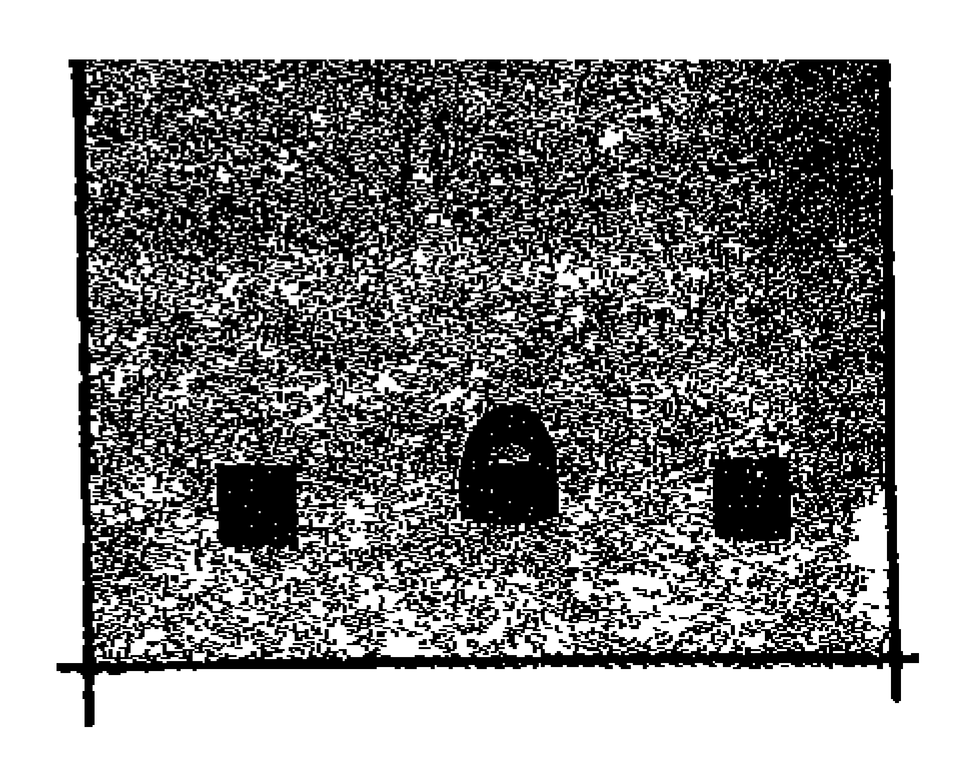
« قال الشريف قرضه أنا عاوز اربع تلوف
وخمسميت هايج وميتين كلاه
وخمسميه من خيار الخيول
وربعميه لجل شيل الحمول
دوله ودوله يا ذوات العقول
كلوا طميعه للخدم والسعاة
كلو طميعه للخدم والعبيد
فى مهر خضره اللى لقاها سعيد
وميتين حبشيه من ارض الصعيد
وميتين مملوك يجينا هناك
وميتين مملوك تاجى تسد الطلب
تخدم الامارة عالية الرتب
ومهر خضرة فى المال خزنة ذهب

لو كان بدك ياهلالى دايرع النسب
انا ليلة الدخله على العشا
فى مهر خضره اللى جات م الحشا »

وإذا كانت سلسلة نسب البطل قد كشفت عن رؤية للعالم المحيط به والعالم الذى خرج معه والعالم الذى يمكن أن يواجهه ، فإن لحظة ميلاد البطل فريدة فى الزمان ، فالكون يستقبل بطلا ويحتفى به فى عدة مظاهر غريبة توضح أنه مرتبط بقوى ما وراء الطبيعة منذ اللحظة الأولى التى يواجه فيها هذا العالم ، فساعة الميلاد جزء مهم فى بنية السيرة وفى بنية البطل ..







الميلاد

هناك كثير من النظريات التى تتحدث عن البطل وميلاده ، وجميع هذه النظريات تربطه بالأسطورة برباط وثيق ، وكثيرا ما تربطه هذه النظريات بالشمس فتعد "الميلاد الجديد للبطل هو الشمس الشابة المشرقة من السماء ، تواجه أولا بالسحب المنخفضة ولكنها فى النهاية تنتصر على جميع العقبات (The Myth of The Birth of The Hero, "P.7.") . وهناك من يعترض على هذا التفسير فيربط جميع الأساطير فى أصولها بالقمر . وفكرة ارتباط الأساطير بالقمر قد أخذت فى الشيوع (Ibid.) . ولقد ربطت جميع الشعوب الأولية والمتحضرة فى العصور القديمة والوسطى وبعض الأمم فى العصر الحديث ميلاد أبطالها بالأسطورة "فتاريخ الميلاد والحياة المبكرة لهذه الشخصيات غلفت بوجه خاص بملامح وهمية" (P.3.) . وكل ذلك لا ينطبق على شخصية البطل فى السيرة الشعبية العربية ولا على تفسير مولده عند عامة المتلقين للسيرة . وبطل السيرة الشعبية ارتبط بكثير من المعتقدات الشعبية ولكنه لم يصبح جزءا من عقيدة العامة ، هذا إذا استثنينا الأبطال الدينيين الذين يميزهم عامة الشعب عن غيرهم من الأبطال من أولياء وقديسين . وهؤلاء لا يمكن تفسير الأساطير المتعلقة بهم بالشمس أو القمر ، فقد حددت القوى الكونية المتصلة بالبطل سواء أكانت معه أو ضده ، فأصبح الخضر عليه السلام يقوم بدور من أهم الأدوار الكونية فى بعض السير ، كما استبدلت الآلهة اليونانية بقوى الجن . وتدخل السحر ليلعب دورا هاما فى أحداثها . ومع كل ذلك فلم يخرج البطل عن دائرة البشرية والتزيدات الأسطورية التى قبلها العامة ، هاجمها كثير من العقلانيين من علماء المسلمين . مما جعل علاقة البطل بالأسطورة لا تخرجه عن دائرة بشريته .

ولقد حدد لورد راجلان نمطاً للبطل يتمثل فى اثنين وعشرين عنصرا يرتبط البطل بها أو بمعظمها . وقد طبق هذا النمط على

واحد وعشرين بطلا من حضارات مختلفة ، وكان أكمل بطل انطبق عليه هذا النموذج هو أوديب وكان أقل الأبطال الذين طبق عليهم هذا النموذج قد تحقق فيه أحد عشر عنصرا . ولا يمكن تطبيق هذا النموذج كاملا على أى بطل من أبطال السيرة الشعبية العربية ، فهناك عناصر لا يقبلها المعتقد العام للإنسان العربى كأن يكون البطل من أم عذراء أو أن يعد ابنا للإله ، فهذا يخرج عن دائرة العقيدة الى الكفر كما أنه فى البناء العام كثيرا مالا تذكر وفاة البطل ، وبالتالى فالعنصر الخاص بوفاته من فوق تل غير متحقق وكذلك العنصر الخاص بوفاته . وهناك عنصر آخر يذكره راجلان وهو أن أبناءه لا يخلفونه ، وهذا متضاد مع واقع بطل السيرة الشعبية العربية ، فأبناؤه فى حالة وفاته يحلون محله وفى حالة عدم وفاته يظهرون كمن يحتلون مكانته .

وهذه الاختلافات الكثيرة بين العناصر التى ذكرها راجلان فى نموذجه وبين بطل السيرة العربية ، لا تنفى أن هناك أوجه اتفاق جديرة بالتسجيل ؛ ومن أهمها الظروف الخاصة بميلاد البطل ، فهى ظروف غير عادية ، وهذا ينطبق على جميع أبطال السير العربية دون استثناء .

. ولقد حاول شكرى عياد أن يطبق هذا النموذج على أبطال من العرب وغير العرب (أنظر ، البطل ص ١٢٠ ـ ١٢٧) .

وعلى كل فإن هناك الكثير من التفسيرات الاجتماعية والنفسية والأسطورية التى تفسر البطل وميلاده . وأرى أن البطل الشعبى فى أدب أمة من الأمم هو نتاج لواقعها الاجتماعى ومن أهم عناصره السياسة ، وواقعها الثقافى ومن أهم عناصره الدين ، فالبطل هو نتاج لهذه الخلطة ممتزجة امتزاجا تاما . وليس البطل الشعبى فى السيرة الشعبية العربية بدعا بين أبطال السير فهو تعبير عن الجماعة التى أبدعتها . ولما كانت ظروف الأمم تختلف

من أمة لأخرى فإن الخلافات بين أبطال السير فى الأمم المختلفة يرد الى هذه الظروف الأجتماعية والثقافية . كما أن التشابه بين بنية هؤلاء الأبطال يرد الى عناصر التشابه فى البنية الاجتماعية والثقافية . وهذا يفسر لنا عناصر التشابه فى بنية البطل بين الأمم المختلفة دون وجود أخذ مباشر أو غير مباشر .

وعلى كل فهذا البحث محاولة لاستقصاء لحظة ميلاد البطل فى السيرة الشعبية العربية ، فهى لحظة هامة فى حياته وحياة الجماعة التى ينتمى إليها ، فلحظة الميلاد تفصل مابين مرحلتين من مراحل حياة البطل ؛ مرحلة ماقبل ميلاده ، ومرحلة مابعد ميلاده . ومرحلة ماقبل الميلاد تتجمع كلها لتتمركز فى لحظة الميلاد لتصبح جميع أحداث السيرة قبل الميلاد (الإنارة) التى تتحرك لترسم صورة عالم البطل قبل مولده . وبعد الميلاد تأتى مرحلة جديدة يصبح فيها البطل مركز الأحداث . ويتطور الحدث العام للسيرة للأمام ، وقد أخذ شكله الطبيعى مستقرا عند ذات البطل ، ليكون صانع الفعل منمى الأحداث . وفى لحظة ميلاد البطل يتأكد تفرده فى عالمه وغالبا ما يكون هذا الميلاد غريبا على المحيطين به مصاحبا بمظاهر عجيبة .

وليس هناك سوى قلة من الأبطال لم تذكر السيرة شيئا عن ميلادهم ، وهؤلاء الأبطال هم الزير سالم والزناتى خليفة والظاهر بيبرس . وقد ظهر الزير سالم فى السيرة وهو ابن العاشرة ، واهتمت السيرة بطفولته أكثر من اهتمامها بميلاده ، وربما يرجع هذا الى أن السيرة المطبوعة هى بقية لسيرة أكبر ، أى أن السيرة التى لدينا مفتتة عن سيرة كانت أشمل منها .

وروايات السيرة الشفوية للزير سالم تهتم به منذ أن وقف ضد مؤامرات زوجة أخيه الجليلة وأهلها لمحاولة قتله . أما الزناتى خليفة فقد برز دوره منذ اللحظة التى هاجم فيها الأشراف وقتلهم

فى تونس ، لتبدأ رحلة جبر القريشى حاكم تونس السابق إلى بنى هلال ليساعدوه على الثأر من الزناتي خليفة . وهنا يبدأ دوره فى مواجهة أبى زيد الهلالى وجميع أبطال بنى هلال وحلفائهم .

ومع أن السيرة المروية التى بين أيدينا لا تهتم به قبل ذلك فهى تذكر أشياء عنه فى صلب مواجهته مع الهلالية ، تستعيد بها لحظة ميلاده الأولى بأنه ولد بضلع واحد كاللوح ، وأن جرحه يطيب على الندى . ويروى النادى عثمان عنه أنه :

أبو ضلع واحد كما اللوح
جرحه يطيب ع الندى

وهذه العبارة نفسها تدور عند عوض الله عبدالجليل وعند معظم رواة السيرة ، لكن كيف ولد وكيف كان حاله وحال أمه وإن ذكرت رواية أنها جنية غير أن هذا لا يهتم به الراوى كثيرا ، وربما كان لمولده فصل مستقل من فصول السيرة ، ولكن الروايات التى بين أيدينا لا تفرد له هذا الفصل ، هذا مع ضرورة التنبيه ألا يغيب عن ذهننا أننا نتعامل مع روايات الهلالية فى آخر مراحل تطورها .

أما الظاهر بيبرس ، فلم يظهر فى السيرة إلا مع نهاية مرحلة طفولته وبداية مرحلة المراهقة ليكون ذلك ميلاداً جديداً يبدأ بذكر الملك الصالح أيوب له .

ويمكن تقسيم الأبطال ساعة مولدهم إلى ثلاثة أقسام :

قسم يولد بين أهله "الميلاد الغريب" دون أن ينزعج أهله به وبالمظاهر المحيطة به .

والثاني تحدث ولادته ومافيها من مظاهر غريبة أو ظروف محيطة تؤدى إلى اغترابه أو غربته عن عالمه .

والثالث يولد فى الأصل غريباً بعيداً عن أهله .

يضم القسم الأول حمزة البهلوان ورجاله وكذلك الزناتي خليفة .

ولد الأمير حمزة والوزير بزرجمهر ينتظر ولادته خمسة عشر يوماً ، فقد وصل إلى مكة ليشهد ميلاد البطل فالتقى بأبيه وقال له : "امرأتك حامل قال : نعم وهي في الشهر الأخير قال إني بإلهامه تعالى أتيت لأخبرك أنها تأتي بولد ذكر كأنه القمر يرتفع مقامه ويعلو شأنه ويخرج أشجع من كل من حمل القنا ونقل الحسام وركب الجواد" (السيرة ص ٦) .

وانتظر خمسة عشر يوماً فولد حمزة وكان وليدا متميزاً بين الأطفال حتى إن والده : "تعجب من كبر جسمه وحسن طلعته وبهاء جبهته لأنه كان بديع الصورة جداً لا يوجد أجمل منه في رجال زمانه وبعد أن قبله قدمه للوزير بزرجمهر فأخذه وأمعن النظر في وجهه وجعل يسبح الله سبحانه وتعالى على مايخلق ويفعل وتأكد كل التأكيد سعادة ذاك الغلام وحسن استقباله وثبت عنده أنه هو الأسد الذي رآه سيده في حلمه" . (جـ ١ ، ص ٧) . .

وكان من الأشياء الغريبة التي صاحبت ميلاده ؛ أنه في نفس اليوم ولد ثمانمائة غلام وقد أمر بزرجمهر أن يربى كل غلام منهم على نفقة كسرى إكراما لحمزة وليكونوا أعوانه في مستقبل الأيام . ولقد تبع ولادة حمزة ولادة عمر فقد كان أبوه عبدا متزوجا من جارية سوداء وكانت حاملاً في الشهر السابع أي لم يتم حملها بعد ، فحين رأى ما يحدث للأطفال الذين يولدون مع حمزة من كرم والده ؛ لعب به الطمع فسأل زوجته أن تلد عساها تأتي بولد ذكر فيكون لهما الخير العظيم ولما تعجبت المرأة من مطلبه "أخذ ذقن الباب وضربها به على ظهرها وهي تصيح وهو يضربها ويعذبها حتى سقط الولد وإذا هو ذكر أسود" (ص ٨) . وترك زوجته مغمى عليها وذهب بالطفل إلى الأمير الذي علم بفعلته من أحد جيرانه . فغضب الأمير إبراهيم على الرجل لفعلته لكن الوزير نظر إلى الطفل وتمعن فيه وطلب أن يخلى سبيل الأب ليكتب المولود مع

رفاق حمزة ويكون أقربهم إليه .

ولاتذكر السيرة شيئا غريبا عن مولد الزناتى خليفة ، غير أن بعض الروايات تروى أن أمة كانت جنية ولاتذكر أى رواية من الروايات تفصيلا لذلك .

أما النوع الثاني من الميلاد الذى ارتبط باغتراب صاحبه وغربته غربة غير بعيدة عن الأهل هو ميلاد عنتره وعبدالوهاب وكذلك كان ميلاد سيف بن ذى يزن وأمه ذات الهمة . فلقد ولد عنترة أسود أدغم مثل الفيل أفطس المنخر واسع المناكب واسع المحاجر صنعه الملك الجليل معبس الوجه مفلفل الشعر كبير الأشداق مكدر المنافس متسع الظهر صلب الدغائم والعظام كبير الرأس (جـ ١ ، ص ٧٧) .

كان يشبه أباه فى الخلقه وكان إذا منعته الرضاع همهم وصرخ ودمدم ويزوم كما تزوم السباع وتحمر عيناه حتى تصير كأنها الجمر إذا أضرم وكل يوم يلبسونه قماطاً جديداً لأنه يقطعه ولو كان من حديد ولما أن صار له من العمر عامان بالتمام صار يدرج ويلعب بين الخيام ويمسك الأوتاد ويقلعها فتقع البيوت على أصحابها ويعافر مع الكلاب ومن أذنابها يمسكها ويخنق صغارها ويقتلها ويضرب الصبيان وإذا رأى ولداً صغيراً هبشه فى وجهه ورماه على ظهره ويبلغ منه المراد وإن كان ولدا كبيراً يعافر معه حتى يفتت منه الأكباد ولم يزل على ذلك الحال حتى خرج عن حد الرضاع" . (السيرة ص ٧٨) .

ولقد كان ميلاد ذات الهمة يمثل أزمة لوالديها فلقد كان ميلادها يمثل خيبة أمل لهما فلم يودا أن يأتيا بأنثى ، كانا يرغبان فى ولد ذكر فولدت ذات الهمة "جارية قوية السواعد والأطراف هائلة الأكتاف" . (السيرة ح ٧ مجلد ٢ ص ١١١) .

أصاب أمها الحزن الشديد وفكر والدها فى قتلها . تروى السيرة أنه :

"وقعت على أمها الخمدة والهموم والغموم ولقد فزعت من زوجها مظلوم فقال لها عسى أتخلى عن الإمارة بحسن عبارة وإن شئت قتلتها ونقول للعرب والسادات قد جاءنا ولدٌ ومات" . (السيرة)

فقد كان مظلوم على خلاف مع أخيه ظالم الذى قال له :
أعلم أن زوجتك وزوجتى حاملتين ، وأنت أمير وأنا أمير ، فاجعل الشرط بيننا ويشهد هؤلاء علينا من جابت زوجته ولداً ذكرا كان الملك له والأمارة من دون الآخر ويكون الأمر والنهى فى العرب له" . (ص ١١٠) .

ورضى مظلوم بقول ظالم فإنه إن أنجب كل منهما ولدا تصبح الإمارة مشتركة بينهما .

وكان ميلاد ابنهما أيضا غريبا يمثل أزمة شديدة لهما ، ولقد ولد أسود اللون لأم وأب أبيضين ، أخفت أمه "الوجع وتجالدت . وأعانها على الولادة صاحب الإرادة فولدت غلاماً عند السحر ولونه مثل الليل المتعكر ، أسود أغبر مفتول الذراعين أزج الحاجبين" (السيرة ح ٨ مجلد ٢ ص ٢١٥) . تسبب هذا الميلاد الغريب فى اغتراب عبدالوهاب اغترابا مرا .

وكان ميلاد أبى زيد مقارباً لمولده فهو أسود لأبوين أبيضين وإن كان من الطبيعى ألا تجعل رواية عرب الشوا السواد موضوعا فى السيرة . فإن ولادة أبى زيد تتعدد بتعدد الرواة والروايات التى تتحدث عن هذا الميلاد ، ففى إحداها يشبه مولد عنترة وفى الأخرى يشبه ولادة عبد الوهاب ، ففى رواية عرب الشوا عنه أن والده ذهب فى اليوم السابع ليراه عند أمه فأمسك الطفل بيد والده وعجز الأب عن أن يخرجها ثانية وكانت خادمته سعيدة تقتل سبعة أفيال وتطبخهم لتطعمهم للطفل حتى وصل إلى سن البلوغ .
(النص ص ٢ Stories Aabu Zeid) .

أما فى سير بنى هلال المطبوعة فقد حضر الأمراء بعد سبعة أيام من مولده لينقطوه فوجدوه أسود مثل العبيد . (السيرة ص ٢٧) . وتتشابه الروايات بعد ذلك فالحاج عبدالظاهر يروى أن من عادة السلاطين "يودواطست من دهب ينزلوا بيه المولود وسط الديوان عشان يشوفوا إيه بياركوا له .. لرزق بن نايل . ودوا الطست الدهب ده ينزلوا فيه المولود ، نزلوه وسط العرب لقيوه عبد أسود يعنى غطيس عبد" .

ولا تختلف رواية عبدالسلام حامد عن ذلك إلا بزيادة أن الذى كشف وجه الغلام كان أخا رزق السلطان حسن ، ويضيف فيقه على سواد الطفل أن "ضمايله ضمايل حر (ص ٥٨) . أى أن خلقته خلقه حر .

ورواية عوض الله عبدالجليل تصور لحظة كشف الطفل يوم السابع ، وهو اليوم الذى أجمعت السير على أنه يوم كشف القناع عن وجه الطفل . وفيه وجدوا الهلالى بلون العبيد ولكن بوجه جميل حدده بأنه أحلى من العنب والزبيب :

واندقت الأفراح فى ليلة السبوع
قربوا على البطل أبوزيد وكشفوا القلوع
لقيوا الهلالى أسمر ولا جا لباه
لقيوا الهلالى أسود بلون العبيد
لكن وجهه أحلى من العنب والزبيب"

ولقد ولد سيف وعلامة الملك على وجهه فإنه بعد أن اكتملت مدة حمل أمه قمرية "جاء الطلق بإذن خالق الخلق فولدت غلاما ذكرا كأنه البدر إذا بدر فى ليلة أربعة عشر على خده شامة كما كانت على خد أبيه لأن ملوك التبابعة تعرف بها من قديم الزمان" .

كانت هذه الشامة هى التى حددت مصير الغلام فى غربة واغتراب .

* * *

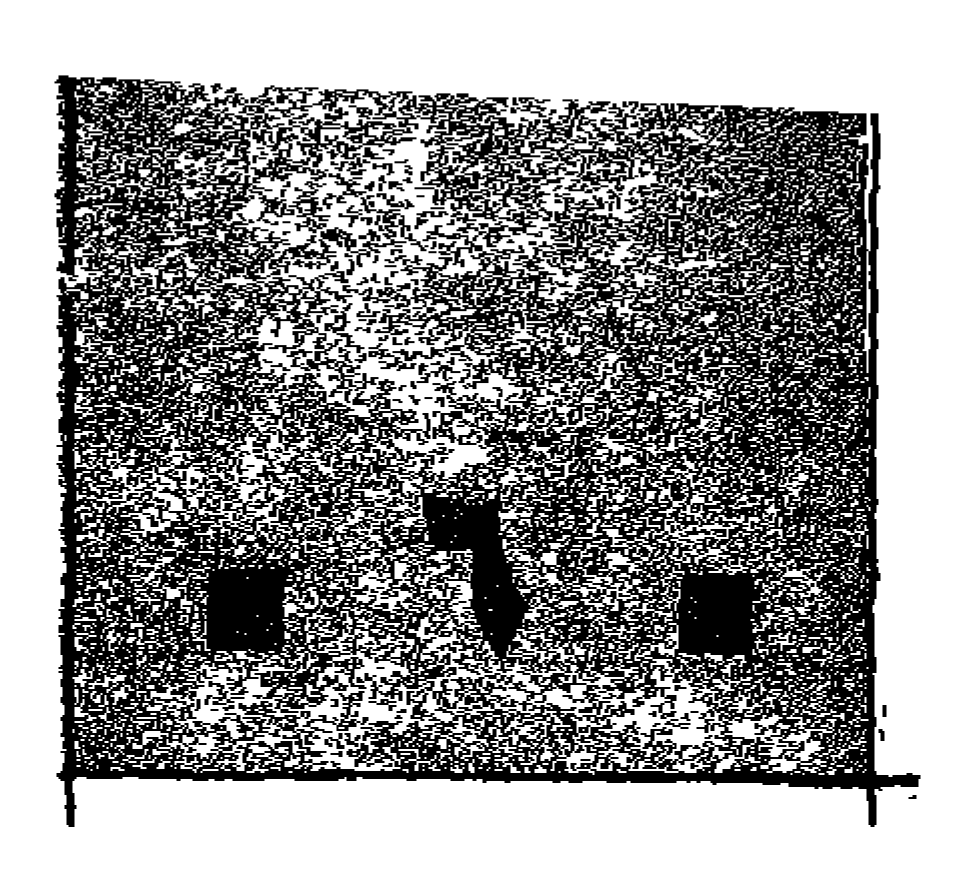
والنوع الثالث من الأبطال الذين ولدوا مغتربين الهجرس والأيتام .

فلقد ولد الهجرس يتيما غريبا بعيدا عن أهله فحين طردت الجليلة بعد مقتل كليب كانت حاملا بطفلها فسكنت عند أخيها جساس وهناك أنجبت الهجرس ، فتربى دون أن يعرف حقيقته .

أما أيتام بنى هلال فقد ولد كثير منهم فى المهجر بعيداً عن أهلهم ، إذ أن دياباً قرر أن يقتل أطفال بنى هلال ويبقر بطون الحوامل حتى لا يأتين بفرسان يحاربونه ، فكان أن هربت الجازية بالأطفال وبالحوامل من نساء قبيلتها وفى الطريق توقفت الناعسة زوجة أبى زيد فقد جاءها الطلق فتركتها الجارية فى الطريق لتسرع بإنقاذ من يسيرون معها من أطفال ونساء .

وبعد رحيلها ولدت الناعسة مخيمر دون أن تعلم الجاز التى وصلت إلى مستقرها ، وهناك ولدت النسوة مجموعة من أبطال بنى هلال . تروى بعض الروايات أن عليا أبا القمصان بن أبى زيد الهلالى وبريقع ابن حسن السلطان قد ولدا فى الغربة .

هذا الميلاد الغريب لم يأت عفوا وإنما وجه أحداث السيرة وشخصياتها توجيها فنياً ، فقد خلق صراعا امتد فى نفس البطل وولد دافعا لتحقيق البطولة . وكثيرا ما أدى هذا الميلاد إلى الحكم عليه بغربة أو اغتراب أو بهما معا .



الغربة والاغتراب

منذ اللحظة الأولى لميلاد البطل وهو يعانى داخله من فقدان التوازن بينه وبين مجتمعه ، ولعل البطلين الوحيدين اللذين لم يواجها هذه المعاناة هما حمزة البهلوان وفيروز شاه اللذين عاشا بين أحضان والديهما وأحضان مجتمعهما دون أن يعيشا صراعاً يذكر وهما يسيران نحو هدفهما . ومع ذلك فقد عاش حمزة وفيروز شاه غربة واغتراباً .

وما يقصده هذا البحث بالغربة هو البعد الجسدى للبطل عن عالمه ومجتمعه ، وقد يسمى باسم غير اسمه الحقيقى منتسباً لغير أبيه مبتعداً عن عالمه ابتعاداً كبيراً حتى أنه حين يلتقى به لا يتعرف أحدهما على الآخر ، وقد يقف كل منهما فى طرف معادٍ للآخر . وفى هذه الغربة يفقد البطل تناغمه مع العالم ومع نفسه ، فهو يعيش وجوداً زائفاً يبحث من خلاله عن وجوده الحقيقى ؛ أى عن إيقاف الغربة والعودة للأهل والوطن أى للتناغم مع الجماعة .

وما أقصده بالاغتراب هو الغربة الروحية والنفسية عن الجماعة . فقد يكون البطل بين الجماعة ولكنه ليس متسقاً معها ، فهو يقف معها فى مواجهة كما حدث لعنترة ، فالمجتمع يسلبه حقه فى الحياة ويقف ضد رغباته . ولا يمكن أن يتحقق له وجوده إلا برفض الاستلاب باسترداد حريته فى أن يكون ، ففى الغربة قهر وفى الاغتراب قهر . وهنا كانت مواجهة البطل للتصدى لكل ما يعوق وجوده واستلابه . وهى لحظة لابد من مواجهتها قبل أن يحقق عبوره وتعرف الجماعة عليه واعترافها به .

وقد تكون الغربة بعداً اختيارياً عن الجماعة بمحض إرادة البطل ، كما حدث للمهلهل ، أو أنه اغتراب يتم بإرادة الأم كما حدث للجرو بن كليب ولسيف بن ذى يزن . وقد يتم الإبعاد برغبة الأم والأب لأن المولود أنثى ، وقد يكون الإبعاد برغبة الأخ لأنه غير شقيق فقد يسلبه السلطة ويشاركه الميراث الذى ورثاه عن أبيهما

كما حدث لظالم بن الصحصاح . وقد يتسبب اللون فى غربة البطل واغترابه كما حدث لعنترة ولعبدالوهاب بن ذات الهمة ولأبى زيد والهلالى سلامة .

ورحلة غربة البطل فى طفولته تمثل مرحلة هامة من مراحل المواليد ومكوناً هاماً من أهم مكونات بطولته .

ويعد الزير أقدم أبطال السيرة الشعبية ، فقد جعلت السيرة المسماة باسمه تاريخه أسبق منهم جميعاً . نشأ الزير يتيماً بعد أن قتل التبع والده فتآمر عليه أبناء عمه ليقتلوه وهو فى العاشرة من عمره ، فقد "ضربوا تختاً من الرمل ليروا ما حل بهم ويجرى عليهم وما يصيبهم فأبان الرمل لهم أن الأمير (جساس) يقتل الأمير كليب ويظهر الزير ويأخذ ثأره ويقتل معهم كل أمير وجبار بعد وقائع تستحق الاعتبار" . (قصة الزير سالم . ص٣٤) .

فالقدر هنا قد حدد المصير الذى سيواجهه البطل ، وأهل جساس يحاولون أن يقفوا ضد القدر بقتله . وهم لم يفكروا فى الوقوف ضد القدر بمنع جساس من قتل كليب وإنما وجهوا أختهم الجليلة لتدفع أخاه كليباً ليتخلص منه ، فأرسله أول مرة ليرعى النوق والجمال . وفى المرة الثانية أرسله أخوه إلى وادى العباس وهو مكان منقطع عن الناس كثير النمور والأسود وإذا بأسد يهاجم كليبا فيخرج له الزير وهو طفل فيطعن الأسد بخنجر فيقسمه قسمين ويخرج قلبه ويأكله ، وهنا صفا قلب كليب لأخيه ولكن الزوجة أخذت توغر صدره ليقتله واستطاعت أن تقنعه أن يأخذه إلى بئر السباع ويدليه بحبل على نية أن ينشل الماء وحينئذ يقطع الحبل فيسقط فى البئر ويموت .

وهناك جفلت الخيل وهى تشرب من ماء البئر فسمعها الزير وهو فى قاعه فصرخ على الخيول صرخة ارتجت لها الوديان واضطربت

لها الفرسان وجفلت منها الخيل وتأخرت وانفصل بعضها عن بعض فندم كليب على مافعل بأخيه فأخرجه من البئر وعاد به إلى الديار .

وقال كليب محددا لزوجته رأيه فى أخيه :

تقولى اقتله وارتاح منه
فقولك جهل ماهو قول عاقل
فإنى لا أبيعه بألف مثلك
ولو مهما جرى منه فعايل (ص ٤٠)

ولكن جليله لا تيأس فتطلب من زوجها كأسين من حليب السباع لأنه يقوى الأعصاب علاجاً لمرضها حتى تأتى بولد ذكر وذهب الزير دون سيف وجاء بلبن السباع بعد قتل اللبوة وساق ابناءها أمامه . ثم وقف الزير أمام أخيه مدركاً ما تريد زوجة أخيه وهو يوجه إليه نصحاً :

فأهل العقل لا تسمع لأنثى
لأن كلامها لاشك كاذب (ص ٤٢)

ولكن الجليلة لم تتوقف عن التآمر ضده ولم يتوقف أخوه عن الاستماع إليها وكانت آخر مؤامراتها أن يطلب أخوه منه شربة من بئر السباع لتشفيه من مرضه .

أخذ الزير حماراً وذهب إلى بئر السباع وكانت السباع فى ذلك الوقت سارحة فى البرية سوى سبع واحد كان راقداً على حافة البئر فرأى الزير أن من العار أن يقتله وهو نائم فترك حماره بجوار البئر وأخذ القرب ونزل البئر فاستيقظ الأسد وأكل الحمار وحين خرج الزير من البئر لم يجد حماره ووجد الأسد فأصر على أن يحمل الأسد القرب فضربه ضربة شديدة وأوقعه على الأرض فنهض الأسدُ بعدها كالسكران فوضع القرب على ظهره وركبه وساقه إلى أخيه وأمام أخيه قتل الأسد ثأراً لحماره . وعبر كليب عن ندمه وطلب منه أن يبقى معه ولكن غربة الزير تحولت فى داخله

إلى اغتراب عن واقع أخيه فقد أصابه إحساس بالمرارة بما صنعت زوجة أخيه وتألم من تقبل أخيه لكلامها ، فعبر عن هذا الحس المغترب بأنه يريد أن ينفرد عن الناس ويكون وحده بعيداً عنهم . فاختار بمحض إرادته البعد لتكون غربة واغترابا اختياريين وقد صمم على الارتحال "لأن العزلة أفضل للرجال الأحرار" . (ص ٦٦) .

وقد برر ذلك بأن له ثأراً على السباع فقد قتلوا حماره ولابد من قتل جميع الأسود ، وذهب إلى بئر السباع ليقاتلها ويبنى من جماجمها قصراً ، ولقد طال عليه الزمان فى هذه العزلة لتبنى فى داخله القدرة على مواجهة المصير المكتوب عليه ؛ أن يقاتل فى حرب للثأر أربعين عاماً دون أن يمل أو يستسلم ، فقد بقى فى عزلته لا يربطه بالعالم غير صديقه همام بن مرة وكانا يشربان المدام ويتناشدان الأشعار ، حتى أحس كليب بريح المأساة فذهب إلى أخيه فى أول لقاء له منذ اغترابه ، وطلب منه أن يعود ليكون ملكاً على القبيلة ورفض الزير فأخبره بمخاوفه ومن توقعه للشر من جساس وأهله فضحك الزير ورفض أن يعود معه وطلب إليه أن ينظر إلى القصر الذى بناه بجماجم السباع . فإنه إذا كان قادراً أن يبنى قصراً من رءوس السباع ثأراً لحماره فإنه أيضا قادر "أن يبنى من رءوس الأعادى مدائن و"ضياعا" و"حصونا" و"قلاعا" . (ص ٥٢) . وهنا طلب من أخيه أن يذهب دون أن يخشى شيئاً ، أما هو فإن مهمته لم تنته ثأراً لحماره فمازال هناك أسدان أو ثلاثة لم تقتل بعد . وبقى الزير فى مكانه حتى علم بمقتل أخيه لتبدأ رحلة عذاب جديدة ورحلة ثأر طويلة لرجل تمكنت الغربة والاغتراب من نفسه .

عاد إلى انتمائه لقبيلته وليجعل اغترابه القديم ثأراً يعذب به قبيلة جساس وكل من يقف معهم وتدور رحى الحرب أربعين عاماً ولا يريد أن يهدأ حتى يفنى آل جساس جميعا إلى أن دبر جساس

أن يلتقى الزير فى نزال مع ابن أخيه فإن قتل أحدهما بيد الآخر فإن المنتصر يعيش عذابا لا ينتهى .

وإذا كانت غربة الزير اختيارية ، سببها إحساس بالاغتراب عن أخيه وكانت زوجة أخيه الجليلة وقومها السبب فى ذلك ، فإن هذه المرأة نفسها سببت غربة لطفل آخر هو الجرو ابن أخى الزير ، وكانت هذه الغربة سبباً فى اغترابه .

فإنها حين خرجت بعد مقتل زوجها إلى منازل أهلها كانت حاملاً فى ابنها هجرس الملقب بالجرو فربى مع أخواله وأبنائهم فهو ربيب قتلة أبيه وأعدائه وظل بينهم ينادى خاله جساسا بأبيه وينسب إلى خاله شاليش الذى قتله الزير .

ولكن خاله خاف منه عندما رآه فى سن الخامسة عشرة من عمره "وقد برع واشتهر وعلى فرسان القبيلة افتخر" . (السيرة ص ١٣٣) .

فكان يبدو كالليث والشرر طائر من عينيه ولايقدر عليه أحد ، فالخال يدرك أنه قاتل أبيه وصانع يتمه وأن بينهما ثأراً لا يعرفه الغلام . واتفق ذات يوم أن تلاعب مع عجيب بن جساس بالجريدة فطعنه الجرو بالجريدة طعنة أسقطته عن ظهر الجواد إلى الأرض "فنهض غضباناً وشتم الجرو وأهانه بالكلام وقال له أهكذا تفعل ياابن اللئام بأبناء السادات الكرام" . (ص ١٣٤) . ثم لمز عجيب الجرو فى نسبه وحين جاء عمه سلطان وقف معه وأهان الجرو وقد غضب وتألم لما حدث له وأخذته نخوة الفارس فقرر الرحيل عن هذا الوطن ليبدأ غربة جديدة يعرفها تختلف عن غربته التى لا يعرفها . فهو قد عاش غريبا دون أن يعرف واختار بعد هذه الحادثة البعد عن عالمه فخرج منه رافضاً له وقد تحقق له الاغتراب عن هذا العالم . وكان خروجه فى الليل خروج هارب تحت جنح الظلام ليس خوفاً من أحد ولكن عدم تقدير لأحد .

قطع الجرو مع أمه وعبيده وخدامه البرارى والآكام مسافة عشرة أيام ، وفى اليوم الحادى عشر التقى الجرو بشيخ كبير مع أبنائه العشرة يطلبون الصيد فى البر الأقفر فكان هذا الشيخ هو خال والده منجد بن الأمير وائل فعاش معه دون أن يعرف العلاقة الوثيقة التى تربطه به فقد كتمت أمه عنه ذلك حقداً على عمه الزير فهو يتصور أنه قاتل أبيه وقد حدد فى حديثه مع الملك منجد أزمة اليتم والغربة والحقد حتى إنه يتمنى أن يأخذ بثأره منه .

أنا اسمى اليتيم أيا مسمى
ولا أعرف أبى ولا خوالى
وإنى قد سألت أمى مراراً
فتسكت ولا ترد لى سؤالى
تقول أبوك شاليش بن مرة
قتله الزير فى يوم النزال
فاطلب من إله العرش ربى
لأخذ الثأر منه بالقتال - ص ١٣٧

وقد ساند الجرو خال والده فى حربه مع أحد ملوك العربان وانتصر عليه بفضل الجرو مما رفع مكانته وأقامه ملكاً على تلك الديار . وهنا احتاجه أخواله طامعين أن يقوم بقتل عمه الزير فعاد إليهم ليبدأ حرباً مع أمه تكون هذه الحرب بداية جديدة له .

وإذا كانت هذه الأم قد سببت لابنها غربته واغترابه ، فإن أم سيف قد تسببت أيضاً فى غربته واغترابه مع الفارق بين موقف المرأتين من الابن والهدف من تغريبه .

لقد قصدت الملكة قمرية أن تتخلص من ابنها سيف لتحرمه من ملكه ، فلقد كانت هذه المرأة دسيسة على والده حتى وهى حامل بابنه سيف وحين ولدته "ورأته على هذا الحسن والجمال أخذتها

الغيرة الشديدة وقالت في نفسها إن قعد هذا الغلام وعاش أخذ منى المملكة واحتوى على ما تحت يدى من المال والشجعان والأبطال" . (السيرة ، جـ ١ ، ص ٢٢)

وهنا أخذت تستعين بإلهها "زحل" وتدعوه أن يميت الطفل وقد امتلأ قلبها قسوة وتنكرت لأمومتها وبدأت لا تشبعه من الرضاع ولا تهتم بغدائه حتى يموت . ولكن أمر الله أراد غير ما تريد .. "فصار الغلام كل يوم فى زيادة وكمال وحسن وجمال ولم تعلم الملعونة أن الله خلاف الظنون وهو يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير الذى خلق آدم من طين وأولاده من ماء مهين" . ص ٢٦ .

ولما كمل الطفل أربعين يوماً ورآه أهل مملكته وعبروا له عن ولائهم له ازداد الحقد فى قلبها وقررت التخلص منه بأن تقتله وأخذت قطعة سلاح بيدها وقد منع الله من قلبها الفزع والخوف وأمسكت رأسه بيدها الشمال وأرادت أن تنزع الرأس عن الجسد "وإذا يدها قد يبست بأمر الله تعالى لأمر يريده الله وهو طول عمره وبقاؤه" (ص ٢٧) . وهنا دخلت الداية واتفقت معها أن ترسله مع أحد الخدم ليرميه "فى البرارى والآكام ويكون بعيدا عن الأوطان ، فإن عاش عاش لأجله ، وإن مات مات لأجله" . (ص ٢٧ ـ ٢٨)

وحين أقبل الليل بالظلام طلبتا البرارى والتلال والسهول والجبال مدة أربعة أيام وليال . وفى اليوم الخامس أقبلتا على واد فسيح ، فوجدت الأم شجرة شوك ، وقد نزع الله الشفقة منها والرأفة . فأقبلت نحو الشجرة ووضعت الطفل ، وقد نصحتها الداية أن تضع عقدا من الجوهر فى رقبته وكيسا به ألف دينار تحت رأسه وبعد أن تركته أمه وعادت إلى ديارها مرت عليه ملكة من ملوك الجان وكان معها ابنتها الوحيدة التى رزقت بها بعد مدة طويلة من التوقف عن الانجاب وأسمتها عاقصة ، وقد أخذت ابنتها وسارت

لبعض أشغالها إلى أن جاءت البرارى فجلست تحت شجرة الشوك وأرادت أن تنام هناك وإذا بها تسمع صوت ذلك "طفل الصغير ساعة الهجير فأتت إليه وحنت عليه وأرضعته من لبنها فشرب حتى اكتفى ، ثم تركته وأخذت ابنتها وذهبت إلى منازلها فى جبل القمر ومنابع النيل . وأتت إلى الموضع الذى وضع فيه المولود سينة غزالة والدة حديثا أخذ الصياد أولادها ، وحين عادت كان الصياد يترقبها فجرت منه فوجد الغلام ، فأخذه وذهب إلى بيته ليبدأ الوليد غربته بعيدا عن عالمه .

أخذ الصياد العقد والمال ، وحمل الطفل إلى الملك أفراح ، فلما رآه ألقى الله محبة الغلام فى قلبه ، وهنا يظهر سقرديون وزير الملك سيف أرعد عدو يزن الأب ، فيخاف من ترك الغلام حيا ، لأنه هو الذى سينفذ دعوة نوح فى أبناء حام وكان من رأيه "أن الصواب أنك تقتله وعلى الأرض تجندله وهذا ما عندى من الرأى السديد والأمر المفيد لأنى أخاف أيها الملك الهمام من تربية هذا الغلام فيكون على يديه إنفاذ دعوة نوح عليه السلام فيبدل من وجودنا إلى إعدام ويسقينا كئوس الحمام لأنه مستجاب الدعوة بين الأنام" . (ص ٣١)

وصادف فى تلك الساعة أن أنجبت الملكة دهشانة زوجة الملك بنتاً ذات حسن وجمال كأنها بدر التمام على خدها فال مثل الذى على خد الغلام . وجىء بالفتاة ووضعت بجوار الفتى فلما رأى الوزير سقرديون الشامتين على الخدين "لطم على رأسه ومزق جميع ملابسه وثيابه ورمى عمامته على الأرض واختبط بعضه ببعض ونتف لحيته ورمى نفسه إلى الأرض وشخر ونخر وسب الشمس والقمر وصار يخبط رأسه حتى تتعتعت أضراسه وهو يصيح بأعلى صوته ويقول يالزحل وحق زحل فى علاه والنجم وما سواه فإنى خائف من هاتين الشامتين واجتماعهما مع بعضهما"

(ص ٣٥) . ثم خير سقرديون الملك بأن يقتل سيف أو يقتل ابنته ، فرفض الملك وقرر أن يفرق بينهما فى المنازل والأوطان حتى لا يجتمعا وأفرد لسيف مراضع ودادات يخدمونه صباحا ومساء . وهنا جاءت ملكة الجن وطلبت من الحاضنة أن تعطيها الغلام ليبقى عندها وتحتضنه ثلاث سنوات فخافت الجارية وتركته لها .

أخذت ملكة الجن سيف وأرضعته مع ابنتها عاقصة لتكون غربة سيف الأولى غربة كونية فى عالم ما وراء الطبيعة ليدرب دربة غير عادية فى مواجهة عالمه وقد قضى تربيته الأولى فى عالم الجن ثلاث سنوات لتعود به الجنية إلى الملك أفراح ، أى إلى عالم الإنس بعد أن اكتسب أما وأختا من عالم ما وراء الطبيعة .

كبر الفتى حتى صار له من العمر سبع سنوات فى حجر الملك أفراح واشتاق لركوب الخيل فجاءوا له بمهر صغير فلم يعجبه ولم يرض ركوبه فأتوا له بجواد أدهم وطلب رمحاً وسيفا طويلاً ونزل الميدان يلاعب الشجعان وينكس الفرسان فاشتهر بالفروسية . علم سقرديون بوجوده فهدد الملك بحرب طويلة إن أبقى هذا الغلام عدوهم فى أرضه فأرسله إلى حصن بعيد وادعى أن الجنية أخذته .

ذهب سيف إلى منفاه : حصن عطمطم خراق الشجر ليعيش غربة جديدة ، غربة يعرفها تخلق فى ذاته اغتراباً عن العالم الذى يعيش فيه وليدرب ليكون الفارس الذى يتحمل مسئولية "ماهو مكتوب عليه" فقد أخذ عطمطم يعلمه كيف يخرق الشجر فكان يركب على ظهر جواده ويحمل على الشجرة ويطعنها بالقنطارية فيخرقها ويميل عليها فيمزقها ولهذا لقب خراق الشجر . وأخذ يعلم سيف كيف يخرق الشجر وجاء إلى شجرة مقدارها عشرة أشجار فطلب منه أن يطعنها فطعن الشجرة بكل قوته بالقنطارية فنفذت منها ،

وجاءت سور الحصن وخرجت منه إلى الفلا وهى كأنها حجر منجنيق قد وقع من حجر السور . ولما نظر عطمطم إلى صنيع سيف "أخذته الحيرة والاندهال وتعجب من هذه الأعمال فرمى تاجه من على رأسه وقلع نعليه من رجليه ولطم على رأسه حتى تقعقعت جملة أضراسه ولطم بيده على خديه حتى برز الدم من عينيه" (ص ٤١) . فقد أدرك أن فى يد هذا الغلام تحقيق دعوة نوح عليه السلام . فقال له وقد امتلأ بالغضب الشديد : "ما أدراك لعلك تكون أنت الذى على يدك إنفاذ دعوة نوح عليه السلام ، واعلم ياغلام أن هذه الأرض ماهى أرضك ولا أرض أبيك ولا جدودك من قبلك ياغلام ، بل هى أرضنا وبلادنا من قديم الأيام من مدة جدنا حام ، وأما أنت فاخرج من أرضنا يابن اللئام وفى أى وقت وجدناك أو أدركناك فيه قتلناك" (ص ٤١ ـ ٤٢) . فهو يعيش فى أرض غير مرغوب فيه فيها ، وكلما نزل مكاناً ووجه بالنبوءة فيطارده أهل هذه الأرض فسار مدة يومين يبحث لنفسه عن مستقر وهو يقطع البرارى والقفار والسهول والأوعار بالليل والنهار متألما لنفسه وما حدث له من تحول بعد العز والدلال إلى حال التشرد فى الآفاق حتى أشرف على غار فقصده فسمع صوت إنسان فتقدم نحو الصوت فوجد رجلاً أعجمياً يسمى عبد لهب شنيع المنظر يطير من عينيه الشرر وبعد أن تعارفا ذكر له الرجل أنه ينتظر فى هذا الغار منذ سنين ففيه "كنز عليه خدام من الجان وفيه سوط مطلسم وعليه الخدم فى ذلك البر والآكام ولا يستطيع أحد أن يأخذ ذلك السوط من دون الملأ إلا غلام يقال له وحش الفلا غريب يأتى من ذلك البر والخلا" (ص ٤٣) .

حصل سيف على السوط المطلسم وخرج ليجد إنسية خطفها جنى ليتزوجها فأنقذها سيف وتكشف له أنها شامة بنت الملك أفراح فأحبها وحين خطبها من أبيها فرح الأب إلا أن سقرديون خاف أن تقترن الشامتان ؛ شامة سيف مع شامة شامة ؛ ففى

اقترانهما خراب بلاد الأحباش . لذا طلب منه سقرديون رأس سعدون الزنجى مهرا لها متصوراً أن سعدون سيقتل سيفاً ولكنه عاد بسعدون الزنجى نفسه . لذا شعر بخيبة أمل فطلب المطلب المستحيل فى نظره ؛ وهو أن يأتى بكتاب تاريخ النيل ، لتبدأ رحلة البطل فى محاولة ليقضى على اغترابه وليحقق انتماءه فى العالم الذى ألقته أمه فيه منذ أن رمته فى الفلاة .

● ● ●

ولم يكن حظ ذات الهمة بخير من حظ سيف فقد ألقى بها والدها فى رحلة الغربة والاغتراب واشتركت أمها معه فهى لم تحاول أن تقف دون إبعادها ، فقد كان والد ذات الهمة يتمناها غلاماً وعندما تكشف أنها بنت وقعت عليها "الخمدة والهموم وفكر والدها فى قتلها فإن بقاءها معناه أن يسلم بإمارة العرب لابن أخيه ظالم وقد تدخلت الداية وكان رأيها أن يعطوها لبعض إمائهم وأن يهبوها شيئاً من أموالهم حتى تربيها لهم وسمعا كلامها وأعطياها لأمة تسمى سعدى لترضعها مع ابنها مرزوق وأعلنت الداية بعد ذلك أن زوجة مظلوم أنجبت ولداً ومات ودفن يوم ميلاده .

كانت الداية ترضع البنت فى النهار "وفى المساء تأتى بها لوالدتها أى أنها تغترب عن بيتها نهاراً لتعود إليه ليلاً والأب لا يقربها ولا يشتهى أن يراها إلى "أن صار لها من العمر خمس سنين فى قدر من لها عشر سنين وقد أعطيت من الذكاء والأفضال مايزيد عن الحسن والجمال فسبحان من خلقها على هذا المثال" (ح ٧ مجلد ٢ ص ١١٢) . وحين بلغت السادسة من عمرها ذهب مظلوم وأخوه مع بنى كلاب لقتال قبيلة طىء وفى غيبتهم أغارت طىء على مضاربهم وسبوا سعدى وابنها مرزوق وذات الهمة ووقعوا فى قسم أمير يقال له الحارث بن مشير وهو يظن أن ذات الهمة ابنة سعدى وسار بهم الأمير إلى أرضه لتبدأ ذات الهمة غربة جديدة قطع فيها ذلك الخيط الرفيع الذى كان يربطها بوالدتها

ووالدها لتعيش أمة فى عالمها الجديد . وأخذت ترعى الجمال والخيل .

كانت فاطمة تدرك أن هذا ليس عالمها وأنها غريبة فيه وعجزت عن التوائم مع هذا العالم ، فلم يكن لها صبر على الذل وكانت تشد البرقع على وجهها بخلاف زى الإماء فما كانت الشمس تراها فهى مازالت مرتبطة بعالمها الأول عالم مظلوم الذى ظلم وجودها كامرأة من عالم بنى كلاب ، تنتظر منهم العودة ليخلصوها من العبودية ، وطالت المدة ولم يأت بنو كلاب فكانت تخلو لنفسها وتتعلم الكر والفر والنزال والطراد وتقطع ورق الشجر والقصب وتتعلم المرافعة والممانعة" (ص ١١٥) . لم تتوقف ذات الهمة عند تدريباتها الجسدية وإنما قامت بتدريبات روحية أخرى فقد قامت لحب ربها وألقت بالدنيا وراء ظهرها وصارت تصوم نهارها ، كل ذلك وقد اكتمل لها من العمر سبع سنين .

وقد راودها فارس من فرسان طىء يقال له فريج بن قابوس الطائى ، وكان فارساً شجاعاً لا يبالى بالرجال ولا كثرة الأبطال ، فاشتكت لسيدها الذى اشتكى لملكهم ولكن الفارس لم يتوقف عن مراودتها عن نفسها وجرى خلفها فوق فرسه فى عرض البرية ، فهربت منه وهو يلاحقها حتى انتهى الأمر بأن قتلته واضطر سيدها أن يدفع دية القتيل ألف بعير وعشرين رأساً من الخيل وعشرة دروع وعشرة سيوف وعشرة رماح ولم يبق لهذا السيد ساعية ولا راعية . أيقن القوم بعد ذلك أن السيد سيقتلها ، وقد دخل عليها وهى مقيدة بالسلاسل وبيده سوط من جلد بعير مدبوغ وهو مملوء غيظا فقد أصابه الهم والفقر وهم أن يضربها فسألته أن يعطيها جواداً وسيفاً ورمحاً وأنها ستعوضه عما خسر . خرجت وقد تبعها عبدها مرزوق وسارت سبعة أيام وفى اليوم الثامن استولت على أموال ضرغام السعدى وعادت بها إلى سيدها ، وأخذت تقوم بقطع الطريق ، حتى جاءت فى طريقها أربعة آلاف ناقة من نوق والدها ؛

حمر الوبر كثيرة اللحم . موسوقة الشحم فاستولت عليها ذات الهمة لتلتقى مع أبيها وجهاً لوجه وتبدأ رحلة جديدة من رحلات حياتها .

● ● ●

وتختلف غربة مظلوم واغترابه عن بقية أبطال السير الشعبية فقد كان الأخ هو صانع غربة واغتراب البطل . فلقد مات والدهما البطل الصحصاح وهو فى ريعان شبابه ، مخلفا ابنين الأكبر ظالم والأصغر مظلوم ، وربى مظلوم عند أهل أمه فقد جلس ظالم مكان أبيه الصحصاح بعد وفاته ، وقد اجتمعت إليه العربان من كل مكان ليعزوه فى أبيه ويهنوه بما هو فيه . كان ظالم جباراً من الجبابرة تلوح علامات الشجاعة بين عينيه ظاهرة والشرر يقدح منهما وهيبته تقع فى قلب كل من ينظر إليه . جلس ظالم فى عز وشأن يحكم بين سادات القبائل والعربان وكان جباراً من الجبابرة وعندما علم أنها ستحضر ابنها إليه أنكره وأنكر أن يكون أخوه فهو لم ينجب سواه ولم يتزوج غير أمه وتوعد من يشهد بغير ذلك أن يضرب رقبته وعندما علم أن الأم ستأتى بابنها إليه غضب وطار الشرر من عينيه لأنها تطالبه بإرث أخيه وقد ورث أموالاً تعجز الجمال عن حملها وأعلن أنها إن أتت به سيهتك سترها وسيذبحه على صدرها .

وعندما بلغ الخبر بنى الوحيد خافوا وتفرقوا عن أم مظلوم فقل صبرها وخافت من ظالم واحتسبت أمرها لله .

وأخذت تربى ابنها فى اليتم بعيداً عن قومه ولا تنقطع عن البكاء ليل نهار ، وعندما كتب الخليفة لظالم بمنشور الولاية والامارة على العرب ذهب أهلها بنو الوحيد لتهنئته وقد أشار عليها مشايخ الحلة أن تذهب إليه وتهنيه لعله يحن على أخيه ويعطيه حقه فلما دخلت على ظالم بأخيه وعمره خمس سنوات ووضعته أمامه وسألته بحق النبى المنتسب ألا يقطع ما بينهما من النسب متبعاً فى ذلك السنة والإجماع والشريعة .

كان رد ظالم قاسيا عليها وعلى طفلها وسلك سلوكاً لا يليق بأمير في مثل موقعه فقد قامت عيناه في رأسه ولطم الصبي على رأسه حتى كاد يطير أسنانه . خرجت المرأة باكية من عنده وقد حدد موقفه بإعلانه رفض الاعتراف بأخيه حتى لا يقاسمه في حقه :

الا يابنة الصياح عودي بخيبة
ولا تطمعي مظلوم في مال ظالم
فهيهات أين الاعتراف بمثله
يرجي رجاء أن يكون مقاسم
(ذات الهمة ، ج ٧ مجلد ٢ ص ١٣٠)

ثم حاول ظالم أن يطلبها ليقتلها فمنعه مشايخ بني كلاب وقد رقت قلوبهم للصغير . عادت الأم إلى أهلها لتربي ابنها بعيدا عن قومه ليقضي طفولته غريبا ومغترباً ضائع الحق منكر النسب والأم تحاول أن تنشئه تنشئة طيبة إلى أن مشي فنبغ في الفعل والعقل والبلاغة والملاحة والشارة والفروسية والنجدة والبأس والقوة وهي الصفات التي يتحلى بها الأبطال فكان لا ينزل عن جواده ليلاً أو نهاراً ، ولكن ذلك لم يزل غربته فالطريق طويل للعودة إلى ديار أبيه إذ لابد من المواجهة .

● ● ●

وكما عاني مظلوم من الغربة والاغتراب ومن قبله المهلهل وهجرس وسيف ، فقد عاني أبطال ثلاثة الغربة والاغتراب بعامل مشترك جمعهم معاً : عنترة وعبدالوهاب وأبو زيد الهلالي .

كان هذا العامل المشترك هو اللون فالأبطال الثلاثة هم أغربة السير الشعبية العربية لكل واحد منهم قصة تختلف عن قصة الآخر تفسر حقيقة ألوانهم . وقد حدد اللون عقدة البطل وعقدة الأحداث ووجه اغتراب البطل عن جماعته وجعل طريقه وعراً بينها .

كان لكل واحد من هذه الأغربة (الأبطال) سبب مختلف فى سواد لونه ورحلة اغتراب مختلفة أيضاً . فلقد كان عنترة من الطبيعى أن يكون أسود اللون فأمه أميرة حبشية اختطفت وسبيت ثم وقعت فى يد الفرقة الزائفة من بنى عبس وكانوا عشرة أعضاء يمثلون أقوى فرسان عبس وكان شداد واحداً منهم وكانوا كثيراً ما يقومون بالغزو والإغارة ونهب أموال العربان .

وفى إحدى غاراتهم وقعت زبيبة وابناها جرير وشيبوب وقد راقت فى عينى شداد فأخذها بعيداً عن أنظار أصحابه وحاول أن يغشاها فرفضت لأنها كما يقول الراوى من بيت كبير فقال لها : "ويلك أنت بقيت زوجتى وأولادك عندى وأنا أكرمك طاقتى" (ص ٧٦) . وهنا استسلمت له ، وحين عاد أصحابه وحاولوا أن يفعلوا مثله رفضت الأمة رفضاً قاطعاً ، وهربت من بين أيديهم وغارت نفس الأمير شداد عليها ، وردهم عنها ، وقد ذكرت السيرة أنه : "قال لهم إنى جعلتها فى عصمتى ورضيت أن آخذها فى قسمتى فرضوا بذلك الحال ثم عادوا عنها راجعين ومما أملوه خائفين ولم ينالوا منها أربا سوى الأمير شداد" (ص ٧٦) .

كانت محاولتهم نيلها ورفضها لهم ووقوف شداد منهم هذا الموقف شهادة بأن مافى بطنها إنما هو ابن شداد . ولم ينكر شداد بنوته لابنه ، ولكنه حين كبر وأصبح ابن اربع سنوات كان قوياً يقارب أبناء العشرين ، ولما سمع به فرسان هذه الفرقة تمنى كل واحد منهم أن يكون هذا الطفل له فاختصموا شدادا بأنهم حين اقتسموا غنيمتهم كان لهذه المرأة ابنان ولم يدخل هذا الطفل فى القسمة فاختلفوا وكاد يقع بينهم ضرب الحسام .

فذهبوا إلى الملك زهير لينظر ظلامتهم . نظر الملك إلى صورة الطفل فتعجب غاية العجب منه ومن قوته وأدرك أنه سيكون أشجع الشجعان . ولم يحكم الملك زهير فى القضية وإنما وجههم إلى

القاضى بشارة ابن قطبة الفزارى الذى حكم وحين تأكد لديه أن أحداً لم ينل منها سوى شداد "فهو الذى افترسها فقال لهم : إذا كانت هذه شهادتكم على أنفسكم وهى بإرادتكم وما أرى أحداً منكم بمجدها فكيف آخذ ولد الرجل وأعطيه لكم . وإنى قد لاح لى وجه آخر وهو أن هذا الغلام أشبه الخلق بشداد وأنا قد حكمت أن يكون له من جملة الأولاد فكفوا عن الشر والعناد وارجعوا إلى طريق الصلح والرشاد" (ص ٨٠) . وقد تصالح الجميع ورضوا حكم قاضيهم ليعيش عنترة ابنا بالدم لشداد لا يعترف ببنوته اعترافا اجتماعياً وليعيش على هامش القبيلة يغترب يومياً فى رحلته راعياً لإبل سيده الذى لم يناده بأبى وإنما كان يناديه بسيدى .

كانت رحلة الرعى غربة . فالفتى ينمو مختلفاً متميزاً عن الآخرين حتى إن والده وأعمامه خافوا أن يسبب لهم مشكلات مع الأحرار ففكروا فى قتله إلا أن الأب تراجع فى اللحظة الأخيرة وقد رأى ابنه يقتل أسدا وبعد ذلك أتى شجرة يستظل بظلها وقد جعل من رأس الأسد وسادة . ولم يغير ذلك من الوضع الاجتماعى لعنتره فهو مازال عبدا .

ويذهب الأحرار للغزو ويبقى عنترة فإذا بالأعداء يأتون الدور يحاولون استرقاق فتيات القبيلة ، فيحمى الفتيات وينقذ شرف القبيلة ، وحين يقع فى الحب لا يحترم أحد قلبه لأنه مختلط الدم غير معترف به . والقبيلة لا تعترف بأن له قلبا مثل الأحرار ولا تعترف بأن قوته الجسدية لها ما يقابلها فى قلبه من حب شديد لفتاة الحى عبلة ، وكان يقابل ذلك الألم الشديد من قبيلته بالتمرد على عالمها الذى يضعه فى قاع مجتمع القبيلة ، فهو حين يعود إلى مضاربها يظل غريباً ومغترباً عنها .

تحتاج إليه القبيلة ليحميها فيعطيها الحماية ويحتاج إليها لتمنحه الحب والانتماء فترفض القبيلة عليه ذلك وتتركه يعيش بينها

غريباً ومغترباً . ويزداد ألم الإحساس بالاغتراب والقبيلة لا تحرك ساكناً لتزيل اغترابه .

تختلف أزمة عبدالوهاب عن أزمة عنترة اختلافاً كبيراً . فلقد ولد عبدالوهاب بن ذات الهمة من أبن عمها الحارث بن ظالم مختلف اللون عن أمه وأبيه . إذ جاء أسود اللون .

لقد أحب الحارث بن ظالم ابنة عمه ذات الهمة حباً قوياً وحاول جاهداً أن يتزوجها ، وفى مجلس الخليفة المنصور وفى وجود ذات الهمة عرض أمره على الخليفة فكانت ترفض وقد أخبرت الخليفة أنها لا تحب قرب الرجال وقد بغض الله إليها أخبية النساء وربات الجمال وقد أحبت القتال والتقلد بالسيوف الصقال والرماح الطوال ولا تعد نفسها من جملة النسوان .

وقد قالت صراحة للخليفة "إن سيفى حجلى والغبار كحلى والحصان أهلى فما الذى أصنع ياأمير المؤمنين بالحارث وبغيره من العالمين" (السيرة ج ٧ مجلد ٢ ص ١٧٩) . ولم يقنع قولها الخليفة ، ففى رأيه أنه ليس للمرأة إلا بعلها حتى يسترها عمن يراها ، ووجه الخليفة لها أمراً أن ترجع إلى ما يأمرها به إمامها . "فأمره فرض الله على الأمة فقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ثم قال المنصور للقاضى ابن حفضه السلمى : "أيها القاضى اعقد عقد النكاح بابنة عمه ذات الهمة فاعزم وتوكل فأجابه بالسمع والطاعة" (ص ١٨٠) . وتم العقد والأميرة ذات الهمة دموعها كوابل المطر إذا انهمل وظهر واضحاً أن المنصور قد أكرهها على عقد النكاح ، لذا لم تمكن ذات الهمة الحارث من نفسها وفى قلبه منها نار لا تنطفىء ولا يشفى ولا يستطيع أن يقترب منها فوجهه أحد أبناء بنى سليم إلى عقبه بن مصعب ليجد له حيلة ليدخل عليها فأعطاه دواء من بنج طيار إقريطش مطحون بالكبريت الأزرق ، لوطعم حبة منه

لجمل لغاب عن الوجود جميعه ، ولم يكن هناك شخص يستطيع أن يقدم لها هذا البنج سوى أخيها فى الرضاع مرزوق الذى تربى معها على ثدى واحد . وقد استطاع الحارث أن يقنعه أن يعاونه فى أن يقضى منها وطراً ، فهى زوجته على سنة الله ورسوله ، فأخذ مرزوق منه الدواء ، ولما عادت ذات الهمة من تجوالها فى البر تجرى خلف الوحش فى الهجير قدم لها مرزوق الشراب ، وقد وضع البنج فيه ، وما إن استقر الشراب فى جوفها حتى مالت على فراشها لا تعلم الليل من النهار وهنا جاء الحارث ليقضى منها وطراً كان ذلك كما يقول الراوى : "بقدرة الله لما يريده من إظهار ترس قبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأنجاب وهو الليث المهاب والأسد الوثاب والبطل المهاب الأمير عبدالوهاب" (ص ٢١٤) . ولقد بدأت رحلة "عبدالوهاب مع الغربة منذ مولده ، فإن ذلك الميلاد الغريب أدى إلى تعجب النسوة فقد وقعت على النسوة المصاحبات لها فى الولادة الخمدة فالولد أسود والأم والأب أبيضان ، وكانت ذات الهمة قوية قادرة مؤمنة واجهت الموقف بثبات وكان رأيها أن "هذا الولد صنعة الملك القادر الذى يصنع الأكابر ويرفع الأصاغر وهو الأول والآخر يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويخرج الأبيض من الأسود ويخرج الأسود من الأبيض ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد" (ج ٨ مجلد ٢ ص ٢١٦) .

وقد طلبت منها بعض النسوة أن تقطع سرة الغلام وتقتله وتخفى أمره لئلا يبقى معيرة وتفضح بين الأعداء . ورفضت ذات الهمة أن تقتل ابنها أو أن تترك أحداً من النسوة يقتلنه وودعته ذات الهمة وقد سلمته إلى حاضنة تربيه وشاع بين الناس أنها أنجبت ولداً ومات .

وقد عاش عبدالوهاب غريباً ينشأ وأمره مكتوم غير معلوم إلى أن صار له من العمر ست سنين وهو يظن أن أمه هى التى تربيه حتى طلب فرساً فلجأت الحاضنة إلى ذات الهمة التى

التقت بابنها لأول مرة فلما رأته حنت إليه وأخذت الحاضنة تحضره ليلاً وتأخذه نهاراً . ولكن الأمر افتضح فقد أخبرت جارية لها عبدا من عبيد الحارث بالغلام المخفى أمره لتبدأ رحلة طويلة من رحلات اغتراب الغلام ، إذ كان عليه أن يواجه والده الحارث وجده ظالماً وكل من وقف معهما إذ إن ابنا أسود يولد لهما يعد أمرا عجيبا حقاً .

ولقد كان موقف الغلام أبوزيد مختلفا عن عبدالوهاب . فأمه لم تكن تستطيع أن تخفيه عن الناس ، فهى زوجة غريبة لأمير من أمراء بنى هلال وتقف الروايات من سواده موقفين : روايات تفسر سواده تفسيراً مقبولاً بمنطق الجمهور الشعبى وبمنطق الدراسات العلمية الحديثة ، وروايات تفسرها تفسيراً مقبولاً للجمهور ولكنه تفسير كونى . وقد تجاوزت رواية عرب الشوا عن سواد أبى زيد ، فهو ليس موضوعاً من موضوعات السيرة وهذا متسق مع الرواة ، فأبو زيد الهلالى هناك هو فعلاً عربى ولكنه من العرب الأفارقة ، والعرب الأفارقة من منطقة جنوب الصحراء الكبرى قد اكتسبوا السواد ، ومن الصعب فصل ألوانهم عن غيرهم من الأفارقة ، وقد حدث تحول درامى من مشكلة سواد الطفل إلى مشكلة قدرة الطفل الفائقة حتى خاف منه الأب ، فهو يخشى أن يكون ابنه سعلاة من السعالى أى غولاً يأكل لحوم البشر ، فيأكله ويأكل أبناءه حين يكبر ، لذا طلب من بنى هلال أن يغادروا المكان الذى يعيشون فيه ليتركوا الغلام مع أمه وخادمته ، فالغربة هنا قد تمت للطفل دون أن يغادر مكانه ، تمت بحركة القبيلة للهجرة وترك الغلام مغترباً بلا أهل .

وتقوم سيرة بنى هلال المطبوعة بتفسير سواد لون أبى زيد

تفسيرا علميا يركز على عوامل الوراثة ، فقد كانت جدة خضرة لأمها سوداء ، كما كان جدها كذلك ، وقد أوصى الشريف قرضة رزقا أنه إذا جاءها ابن أسمر لا يظن فيها السوء :

ترى ستها سودا كان لونها
وجدها كان أسود كالعبيد (ص ٢٢)

وحين جاء أبوزيد أسود اللون بلون العبيد نسيت هذه الكلمات فى أمرها وأمره . أما الروايات الشفهية فقد قامت بتفسير سواد لون أبى زيد تفسيرا كونيا ، فقد جاء أسود اللون لأن دعوة أمه قد استجيبت . وحين أتضح لرجال القبيلة أنه أسود واجهوا الموقف بقوة ، فتذكر رواية عبدالرحمن فيقة أن الأمير رزقا لم يكن موجودا ، وأنه طلب من سلطان بنى هلال أن يطردها ويرسلها إلى أهلها .

وفى السيرة المطبوعة أن سرحان مزح معه :

يامير رزق ليس هذا خليفتك
هذا أبوه عبد أسود (السيرة ص ٢٧)

وهنا تعجل الأب فطلق زوجته وطلب أن ترحل غدوة إلى أهلها . ورواية الحاج عبدالظاهر تجعل الأب أكثر حربا على ابنه ، فهو لا يشك فى زوجته ، ولكنه مضطر إلى أن يخضع لموقف القبيلة التى ترفض أن تضم هذا الابن إليها وتحكم عليه بالحرمان من حقه فى البقاء فيها ، فقد توجه شيوخ بنى هلال نحو الطفل الماثل أمامهم ، يرون قتله إلا أن رزقا يحمى ابنه بجسده حتى لا يقتل . وفى رواية عبدالسلام حامد أن الذى أراد قتله هو أخو رزق السلطان سرحان ، غير أن القاضى بدير طلب منهم أن يرفعوا أيديهم عن الغلام ، ولقد واجهت خضره أزمة ، فلقد كرهها جميع العرايب لأنها أنجبت

فرخا من عبيد الجلايب . وفى رواية عوض الله عبدالجليل أن الأمير سرحان أظهر دهشته من هذا الغلام وهو يحدد من البداية أن قتل الطفل حلال وقد حكم ، وكان حكمه قاسيا ، ولكنه متسق مع تقاليد القبيلة :

ابن الزنا قتله وموته حلال
لا خيرة فى مولود ميجيش لباه
لا خيرة في مولود بييجى من الزنا

وأخذ سرحان يدفع رزقا ليطلق خضرة وبرغبته فى تزويجه من زغبية جميلة منعمة :

طلق خضره يارزق تنول المنى
طلقها ياهلالى فى هذا السنا
واديك زغبية عليها كلام
واديك زغبية عليها القول عجب
شواطع من فضة والمناطق دهب .

طلقها رزق الهلالى تحت هذا الضغط الاجتماعى ، فالطفل يجيء غريباً عنه وعن زوجته فى لونه ولا يجد له وسيلة ليواجه قومه به ، فكان بطلاقه من خضرة قد ترك ابنه لرحلة الغربة والاغتراب ليربى بعيداً عن قومه لتأخذ السيرة طريقها الذى تعودته حين يغترب البطل ليعيش بعيداً عن عالم يصارع الواقع بحثاً عن الانتماء .

وفى رواية ثيقة أعطيت ما أتت به من بيت أبيها من مال "ويزيدها قدو من حر ماله" (من أقاصيص بنى هلال ص ٥٨) .

وفى رواية عبدالسلام حامد أن قاضى العرب ضرب دبوسه فى العراء فكان جميع ما وصل إليه الدبوس يعطى لخضرة فأخذت خضرة ثلثى مال رزق .

أما الحاج عبدالظاهر فقد روى أن مشايخ العرب حكموا أن جميع من ولد مع خضرة الشريفة وفيهم حسن ودياب وجميع الإبل والماشية التى ولدت فى هذا اليوم تذهب معها فى رحلة غربة ابنها البطل الطفل .

وتذكر رواية عوض الله عبدالجليل أن رزقا طلب من عبده نجاح أن يرمى الدبوس ومحل سقوطه يكون حدا لما يعطى لخضرة من ماشية وأغنام فى رحلتها حتى لا يصبح ابنه معرة بين العرب .

محل ما يحط الدبوس وعينك تشوفه من بعيد
إديه لخضره ياعبد وليها جباه
ولا يصير ابنى البطل أبوزيد
وسط الفوارس (الهلايل - العرب) معيبه

وحين أراد نجاح أن يرمى الدبوس أخذه منه الخضر ورماه فسار فى الجبل يقسم مال سرجان ورزق نصفين . وخرجت خضرة مع ابنها لتذهب إلى ديار أبيها والقاضى فايد يسير معها ولكن المرأة بعد مسيرة ثلاثة أيام ترفض أن تتجه إلى منازل أبيها .

وفى رواية الحاج عبدالظاهر أن عشرة فرسان ذهبوا معها ليأخذوها إلى ديارها وأنها طلبت منهم أن يعودوا من حيث أتوا وأن يقولوا لرزق إنها ذهبت لأبيها وأن يتركوها والعيال والمال ورزقها على الكريم .

ولقد أبرزت رواية عوض الله عبدالجليل تقدير المرأة لزوجها فهى لا تستطيع أن تتجه نحو والدها حتى لا تضع زوجها فى مأزق ولا يظهر بمظهر المستهين بها :

قربت على القاضى خضره .. باست يداه
قالت له أنا مقدرش أصوب يم أبوى فى هذى السنا
إن قلتم رزق الهلالى هون فينا
ماقدرش أقول القول ولا اتكلموا

وهنا غلب الألم على المرأة فأخذت تدعو الله أن يجازى من ظلمها :

ياما الزمن حكام على ناس كتير
اللى أمر بافتراق شملنا ياأمير
يفقد من الهلايل وتطفش نساه

تبين القاضى فايد بن مناع أنهم وصلوا إلى أرض الزحلان فتركها خوفاً منه فهو من أعدى أعداء بنى هلال .

يذكر الحاج عبدالظاهر أنه بعد أن تركها الفرسان أتت إلى بلد الزحالين وسلطانها أبو الفضل الزحلان الذى رحب بها وبابنها ومن معها ، وفى هذه الأرض الغريبة ربى الطفل أبوزيد وكل من ولد معه وحكم عليه بالنفى .

وفى رواية عبدالسلام حامد أن قاطع طريق من بنى عقيل اسمه الضباع وقف فى طريقها . وجدها جميلة فأراد أن يهتك سترها ، سألت الله أن ينقذها فخلق الله لها رسولاً من تحت الأرض شتت الضباع ، وشتت رجاله ، وفى الصباح كان المال قد وصل إلى أرض ملك الزحلان ، فاتجه نحو أصحاب المال فوجدها ، فاستجارت به ، فأجارها ومكثت ليتربى أبوزيد

فى غربته عنده . أما رواية عوض الله عبدالجليل فتذكر أنه تصدى لخضرة فى الطريق قبل أن تصل إلى الأمير أبو الفضل الزحلان عطوان وعربه ، فخرجت إليهم ملثمة تبكى دون أن تفقد شجاعتها ، فأخذت تسبهم لأنهم معرة للفرسان .

جوها عرب عطوان يهزوا القنا
قال ادخلوا الصيوان مادالِّلى هنا
طلعت خضرة الشريفة ومِتْلَتِّمَه
تبكى لكن دموعها دمـا
عيب على فرسان تعر الحريم
الفعل ده ميفعلوش إلا اللئيم
اللى يكون طاهر وجسمه سليم
لم يفعل المكروه لطول المدى
لم يفعل المكروه لطول الدوام

وقد وصفت خضره عرب عطوان بأنهم أراذل حفاة وأراذل طموش ، وعندما سمع قولها زعيمهم داغر امتلأ بالغيظ وسأل رجاله أن ينهبوا أموالها ويسلبوا الأطفال وأن يتركوها فى الفلاة وحيدة تقاسى الذل والمهانة . وفى قمة الأزمة جاءها إنقاذ كونى من الإمام الخضر عليه السلام ؛ جاء فى صورة سبع ليشتت عرب عطوان وتبدأ علاقة كونية بين طفلها أبى زيد وبين الخضر عليه السلام ليدخل عالم البطولة متصلا بالعالم الغيبى .

"إلا وسبع أضرع عليه السلام
يأتى من الخلا يمشى ويسرع بالعجل بخطاه
راح ليها لقيها تبكى وجنبها ابنها
شتت نياهم بإذن واحد أحد"

بعد هذا حزم الخضر أبا زيد وباركه ليواجه غربته قويا . ثم اختفى فجأة عن الأعين . وبعدها قدم مباشرة أمير الزحلان فاستقبلها الرجل أحسن استقبال ليبدأ الطفل حياة الغربة فى كنف هذا الأمير وقد منحهما الأمان والسلام .

"ربى وليدك أبو زيد فى هنا وأمان"

وسارت طفولة أبوزيد معبرة عن البطل الطفل . وإذا كان الأمر قد استقر للطفل عند الزحلان بعيداً عن أبيه فإن الأب أيضاً عاش غربة واغتراباً فرضهما على نفسه منذ رحيل ابنه عنه . ففى رواية الحاج عبد الظاهر أن رزق بن نايل حلف يمينا ألا يقعد فى نجع هلال ، ولقد أخذ ابنته شيحة وذهب إلى الجبل الأخضر ليعيش بعيدا عن أهله وعن كل ما يربطه بهم متوحشاً هناك . وقد اختصرت رواية عوض الله عبدالجليل الموقف فى تعبيرها عن الاغتراب الإرادى للرجل بأنه حلف يمينا ليطلق فراش السلطان مع طلاقه لامرأته .

"حلف يمين واتق وباع واشترى
طلق فراش السلطنه والمره"

كبر أبوزيد ، تربيه أمه ويهتم به أبو الفضل الزحلان . ويروى الحاج عبدالظاهر أنه "رحب بيهم وأداهم منازل وأداهم كل حاجة وعمل لهم مدرسة لأولادهم وكل حاجة تمام" . وفى الكتاب نبغ أبوزيد حتى وصل من العمر سبع سنين ليكشف عن وجه الطفل البطل .

وفى رواية عبدالسلام أنه اختلف مع عريف الكتاب فقتله . وتتفق رواية عوض الله عبدالجليل فى أنه قتل العريف وتذكر الرواية أن المعلم كان مخطئا .

طلع الفقى عايب وعيبه جزاه
طلع الفقى عايب وعيبه غلب
رحلوا الكتاب أبوزيد ده اللى كتب
وانتهى الأمر به إلى قتل العريف .

ويروى عبدالسلام أنه قتل اثنين من عرفاء المكتب . وتجمع الروايات التى بين يدى أن أبا زيد الهلالى درب على الحرب مع رفقاء طفولته ؛ كان يسبقهم ويبرز من بينهم على أنه الطفل البطل ، وقد بدا من علاقته بأمه أنها ملاذه الوحيد وأنه ينمو محترماً لها مقدراً تربيتها له ، ومع أن مربيه فضل الزحلان لم يكن يقترب من مساكن خضرة وابنها إلا أن الطفل ربى معتقداً أنه أبوه وهنا جاء أحد أعداء القبيلة ليأخذ منها الجزية .

تختلف الروايات فى تحديد هذا العدو . فالسيرة المطبوعة تروى أنه ربى مع نعم ونعيم أبناء فضل الزحلان وأن عريف المكتب بعد أن أخطأ مع أبى زيد حاول أن يرضيه بتعليمه علوم الحياة وعلوم الحرب فعلمه اللغات كما علمه علم الصباغات وهى العلوم التى ساعدته على القدرة على التخفى .

سامحنى يابركات واجبر بخاطرى
لأنى ندمت على ضربك كتير
وأنا أعلمك لسان الترك والكرد
ولغة الطليان ولغة البريز
لسان فارسى واجنبى ينفعك
ولسان سريانى تصير مشير

وأعلمك علم الصباغات كلها
فتصير مثلى فاهما وخبير" (السيرة ص ٣٠)

كما علمه لعب الرمح وأبواب الحرب ليل نهار مدة خمس سنوات ، حتى تعلم جميع العلوم ، وقد جازى أبو زيد معلمه بإعطائه كل يوم ديناراً . وبعد أن اكتمل فارساً وصل كتاب أحد أعداء الملك ـ وتسميه الرواية هنا أبا الجود ـ يطلب أموالا من الزحلان . أخذ أبو زيد الرسالة ورد عليه ردا مهينا ، فغضب أبو الجود من الملك الزحلان غضبا شديداً ، وأرسل وزيره فطعنه أبوزيد فى صدره فوقع قتيلا . وحين علم أبو الجود بمقتل وزيره خرج للحرب فطعنه أبوزيد بالرمح فى صدره فطلع يلمع من ظهره . تسامعت أخبار أبى زيد لبنى هلال وقد أمحلت أرضهم فى تلك الأيام .

يروى عبدالظاهر أن العدو الذى جاء لحرب الزحلان كان اسمه جايل صاحب المنطقة السحرية التى تتحكم فى الجان وقد استولى عليها منه أبوزيد فى هذه المعركة كما قتله أيضاً .

ويروى عبدالسلام حامد أنه بعد أن قتل العريفين أرسل أهلهما إلى الملك الضباع يخبرونه بغنى الملك فضل الزحلان ويطلبان منه أن يأخذ من الملك الجزية وعشر المال ، فقتل أبوزيد الملك الضباع فجاء للثأر أخوه الملك سنان ملك القطيفين فقتله الملك فاضل ، ثم جاء الأخ الثالث وهو الملك مرهف ليثأر لأخويه فقتله أبوزيد فجاء جايل . أى أن أبازيد قتل ثلاثة ملوك قبل أن يلتقى بجايل . وطالت الحرب بينه وبين أبى زيد إلا أن أبازيد هزمه ، واستولى على منطقته بواسطة الخضر عليه السلام ثم قتله .

وتذكر رواية عوض الله عبدالجليل أن أعداء طغاة نزلوا أرض الزحلان واسم قائدهم عطوان ، وهو ابن داغر الذى تصدى لها فى رحلتها من أرض الهلالية إلى أرض الزحلان . واستولى عطوان عنوة على عشرة آلاف جمل والزحلان غائب . كان هذا المعتدى عطوان وقومه قد جاءوا بالعديد والعدد :

"نزلت على الزحلان أعادى طغاه
نزلت على الزحلان أعادى فجور
من لجل عشر المال على من يكون
عطوان وأبوه يحكم على ألف سور
ماليين قلاعهم من الحرب العسير"

وأرسل رسولاً إلى الزحلان الذى جاء بالعجل فاستدعى الغلام الذى أقسم بحياته للأمير أن يعيد المال .

"وحياة دراعى أنا
لو راح جمل منهم دراعى فداه
لكنت أموت ولا يكسبوه العدا"

ركب الأمير أبوزيد فرسه ومعه أبو القمصان وركبت معه الفرسان ليواجه عطوان . وصرخ الزحلان على عرب عطوان يهددهم بألا يفرحوا بالمال فقد أتى أبو زيد . والتقى بعطوان فضربه بحربة خرجت من قفاه وما إن قتل عطوان حتى هرب جيشه مختفياً . وتوجه سريعاً إلى فضل الزحلان الذى كان يتصوره والده .

خبلوا بحربه عودها تمر
طل الخشب غير الحديد من قفاه
طل الخشب غير الحديد من القفا
وشال دراعه من ع الجواد واكتفى

لما كتل عطوان وجيشه اختفى
راحوا لأبوه الكل وقالوا له النجى

وهنا هب داغر غاضبا فدق طبول الحرب فتقدمت الألوف إليه مستعدة للقتال بجانبه :

نبه طبول الحرب وجولوا غفاه
نبه طبول الحرب وجولوا ألوف
زرد يماني والدروع ع الكتوف .

تصف الرواية أبا زيد بأنه مازال ولدا . فالرواية تذكر حربه بحرب الولد كما تذكر أيضا أن داغراً استهتر بعلم الولد البطل :

واتمنعوا اللى شافوا حرب الولد
ع اللى رأوه محدش جاى له جلد
استهتر داغر بعلم الولد

وتدور رحى المعركة بين الرجل المدرب على القتال والطفل . وقد ظهر واضحا أن أبا زيد يحاربه وهو يعرف أنه تصدى لوالدته حين كانت فى البرارى تحمله . فضربه ثلاث ضربات فألقاه على الأرض قتيلا ، وعاد الفارس الطفل بصحبة الرجال وخلفه مائة حرة تزغرد وراءه . ولم تنته المعركة عند هذا الحد ، وإنما ذهب عرب عطوان إلى الأمير جايل الذى تصفه الرواية بأنه صاحب ألاعيب وحيل :

بلد الأمير جايل وصاحب لعب
ليه شواطح من فضه والمناطق دهب

وجميع الروايات الشفوية التى استمعت إليها ـ من محافظة قنا وأسوان ـ تجعل أبا زيد يحصل فى هذه المعركة

على المنطقة ذات القدرة الكونية بمساعدة الخضر عليه السلام ويقتل جابل ليعود الطفل الغريب إلى بنى الزحلان ليرتبط اسمه باسمهم طيلة حياته . ولكن غربة البطل لا تنتهى إلا حين يتم التعرف على عالمه .

وكانت أسباب اغتراب الأيتام عن قبيلتهم مختلفة عن أسباب اغتراب غيرهم من الأبطال ، إذ لم يكن ذلك غضبا عليهم من القبيلة وإنما كانت بإرادة قيادة الجماعة حرصا عليهم من أعدائهم .

والأيتام مصطلح يطلق على الجيل الذى ترك أهله ووطنه ـ من بنى هلال ـ وله من العمر سنتان ، وكذلك الأطفال الذين ولدوا فى هذه الغربة . ويتناول الأيتام فى فصل كامل روايات ثلاثاً : للحاج عبدالظاهر ، والنادى عثمان وعوض الله عبدالجليل . وتجمع الروايات الثلاث على أن رحلة الغربة قد بدأت حين استولى دياب على الحكم ، وفقد أبوزيد بصره حزناً على موت حسن السلطان وحكم عليه دياب أن يعمل على بير خليفة سبالا ، يملأ للنسوة دلاءهن ، وقد قرر أن يقتل الأطفال وأن يبقر بطون الحوامل حتى لا يظهر من بنى هلال فرسان يحاولون أن يثأروا لأهلهم وينازعوه السلطة . علم أبوزيد بما ينوى أن يفعله دياب فاستدعى الجاز زوجته السابقة وابنة عمه وبنت السلطان سرحان من شمة بنت الحسب سيد النسب .

وتلعب الجاز فى هذا الجزء الدور الرئيسى فى حماية الأيتام فى غربتهم . ولقد حازت هذه المرأة إعجاب الجمهور من مستمعين ودارسين حتى إن شوقى عبدالحكيم يراها فى موقع الكاهنة القمرية ، والأم لهذا التحالف القمرى (سيرة بن هلال ص ٢١) . وقد وصفت الجاز بأوصاف كثيرة ، ولكن الشىء الواضح للباحث

أن أجزاء كاملة من أحداث السيرة بنيت وفق تصرفاتها ، فهى التى اقترحت توجيه أبى زيد ليرود الغرب .

وكانت القوة التى تجمع الهلاليين فى معركة الغرب ، وتراقب معنوياتهم وترفعها حتى لا تسقط فى معركة كبيرة كهذه ، وهى التى أوحت إلى أهلها بإبعاد دياب عن المعركة حتى تحين اللحظة الحاسمة . وحين تحتاجه توحى بإخراج الخفاجى لملاقاة الزناتى خليفة . وكانت وراء كل التدابير الحاسمة فى السيرة منذ أن بدأت التغريبة . ومن هنا كان طبيعيا أن يجمع بنو هلال بأن لها حق إرث أبيها فى الملك بوصية والدها ، فيكون لها الثلث فى المشورة لا يقضى أمر دونها . ولا يفتأ يذكرها الراوى الشعبى النادى عثمان .

ست العيون الرياشى
كلامها وسط العرب جاز
كلامها مصدق وماشى

وعند التغنى بها لا تنسى الرواية أن تذكر دائما أنها أمرأة . وهى نفسها لم تنس أنوثتها ، فهى الفتاة الجميلة صاحبة المشورة :

بعتوا للجاز أربع مراسيل
قال ياعزك يخبروك
إحضرى ياست الخلاخيل
ولاد عمك عازوك .

ولكنها كانت تتخلى عن أنوثتها وتتناسى عشقها للرجل وتترك كل ما يتصل بوجودها فى سبيل القبيلة ، فقد تركت زوجها الأمير شكر الذى تحبه لتصحب بنى هلال فى رحلة التغريبة ، وكانت علاقتها بأبى زيد فريدة ، فلقد كانت المرأة المقابلة له والمساوية له فى وقت واحد . كما كانت هى المرأة الوحيدة التى لجأ إليها أبوزيد فى

محنته بعد أن فقد بصره وحكم عليه أن يكون سبالا على بئر خليفة . فاستدعاها أبوزيد ، فهى أقدر النساء وأقواهن ، إنها الوجه الآخر له . ولو تحول أبوزيد إلى امرأة لكان الجاز ولو تحولت الجاز إلى رجل لكانت أبا زيد . فبعد أن أنزل دياب غضبه على بنى هلال وقرر أن يقتل الأطفال فى الفجر وأن يبقر بطون الحوامل ، سرى الخبر إلى الجاز واستدعاها أبوزيد إليه .

تصور السيرة حكمة كل منهما ، وماتزال الرواية تصف الجاز بأم العيون الكحايل والحزن يطغى على أبى زيد ويرهقه :

ولا عقدة ان ما كان اتحلت
وعلى يد ولد الشريفه
وفاح الخبر للجاز
وأم العيون الكحايل
ولمت بنات الهلاليل
ولمت بنات دريد .. ودى مافى الهم حجاز
وبحياة طرقه لمانه
وراحت للهلالى سلامة
وراحت لرئيس نجد
يدوس الأراضى المخيفة
وعميان وصاييه الوجد
ياخساره وليد الشريفه
ياخسارة البطل أبوزيد
يكون على البير سبال
يكون سبال ع البير

ويتفق النادى عثمان وعبدالظاهر فى اسم البير بينما تسمى فى رواية عوض الله عبدالجليل "عين توزه" . وتذكر رواية النادى عثمان اللقاء الذى تم بين دياب وأبى زيد بعد أن عرف أنه قد فقد بصره ، فتنمر وأخذ يسب أبا زيد وقد تدخل والده متشفعا فيه :

دياب قال له غور من وشى ياقوار
وأحكم وأرسم بكيفى
لحسن أقوم حمقان آخذ راسك بحد سيفى
وقال غور من وشى ياقوار
أنا أبو سؤال ع الكل راضى
لحسن أقوم حمقان القحك غ الأراضى
تعالى ، قال له أيا عبد ياكير
تبقى العواقب سلامة
ومعاك غلضت الصراصير
نفخوك بقولة سلامه

انتظرت الجاز رأى أبى زيد . إنها اللحظة الحاسمة التى يتحدد فيها مصير بنى هلال ومستقبلهم . ويتغير الموقف فى السيرة ، فبعد أن كانت المشورة للجاز والفعل لأبى زيد صارت المشورة لأبى زيد والفعل للجاز ، فيطلب منها أن تذهب إلى محمود البياضى ، وتخبره أن أبا زيد يرسلهم إليه ـ كما فى رواية الحاج عبدالظاهر أيضا . وفى رواية النادى عثمان تذهب الجاز إلى أبى زيد للمشورة :

قالت له تعالى أيا بركات
دياب قايم بركات
راح يفقع كل التقيله

فيوصيها أبوزيد أن تذهب إلى محمود البياض ولا تخبره أنها من بنى هلال وإنما تخبره أنها بنت الزناتى خليفة ؛ ابن عمه .

لم يعش الأيتام كلهم مع الجاز ، ففى احدى الروايات ربى مخيمر بعيدا عنها فى الغربة ، كما ربى صبرة بعيدا . وفى رواية عوض الله أن المخاض جاء الناعسة فى الطريق فتركتها الجاز فأخذت تربى ابنها زيد فى هذه البرية . أما رواية النادى عثمان

فتجعل الجاز مربية لجميع اليتامى ، أى أنهم ربوا جميعا عند محمود البياضى . كما أجمعت الروايات على أن الجاز قامت بتربية الأبناء خير تربية وفى ذهنها أن تعيدهم إلى أرض الوطن وإلى الهلالى المنتظر عند بير خليفة .

ولا تذكر رواية عوض الله عبدالجليل شيئا عن معتد جاء إلى أرض البياضى قبل رحيل الأيتام . غير أن رواية الحاج عبدالظاهر تذكر أن عدوا للبياضى جاء يطلب الجزية واسمه جرامون ، وهو نفس اسم الجد الثانى للجاز ولأبى زيد . فهل كان ذلك من عبدالظاهر مجرد اسم لعدو أى عدو ؟ أو أنه تعود أن يرويه هكذا فى كل مرة عندما يتحدث عن الأيتام . والرواية تقص قصة جرامون مكررة نفس الأحداث التى مرت فى طفولة أبى زيد عندما التقى بالعقيليين . وتحدد الرواية أن عمر الأيتام كان بين ستة عشر عاما وسبعة عشر عاما ، أما رواية النادى فتحدده بين العاشرة والثانية عشرة ، حين جاء عدو البياضى ، وتحدد هويته بأنه يهودى ، فيخرج له على أبو القمصان وريث أبى زيد فى الشجاعة فى رواية النادى .

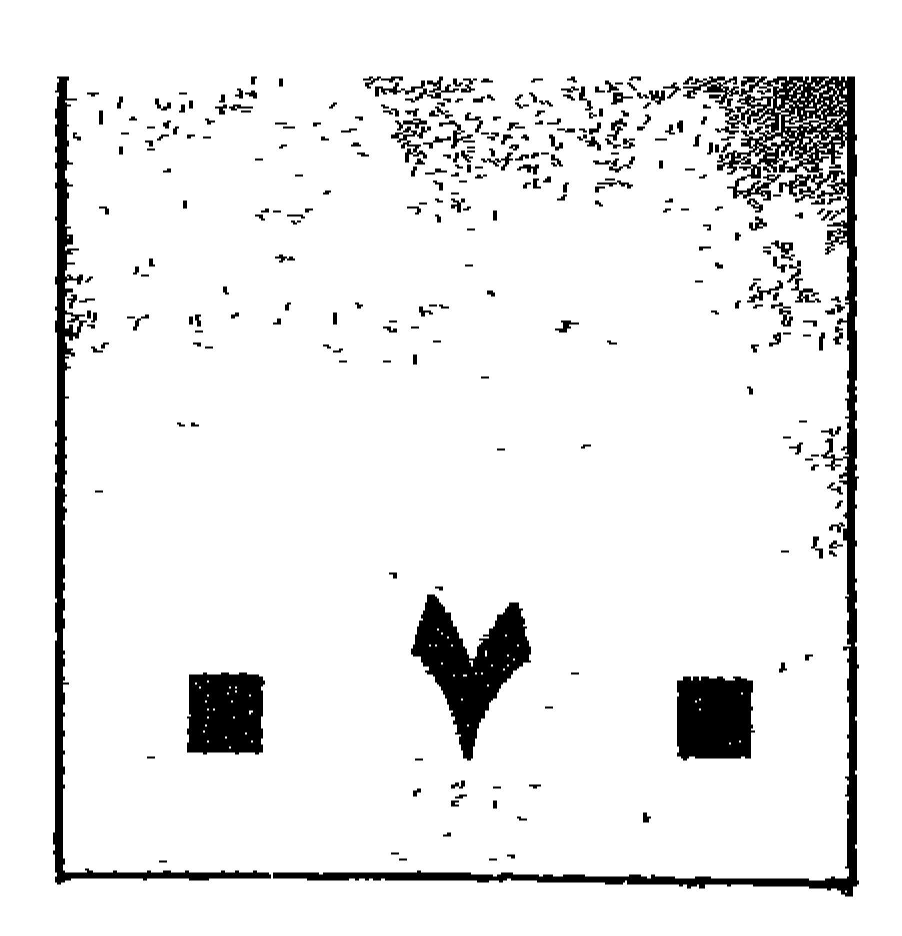
ولقد كانت لحظة حاسمة للجاز لاختبار قوة أبنائها من بنى هلال وهم يواجهون عدو محمود البياضى اليهودى ، فلقد امتلك أرض البياضى وأخذ يخرب فيها فهدم رجاله الجنان وهدموا السواقى ، وجعلوا أعاليها أسافلها . فتصدى له على ومعه أبناء بنى هلال ، ولم تكن المعركة بينهما هينة . والرواية تصورها تصويرا دقيقا يوضح شدة مجاهدة المتحاربين فقد كانا سبعين متوحشين من سباع الجبال .

تحلف وتقول سبعين
نازلين من قرى الاجبال
داق الحلق وسع الملق

هلف الرجال فروطار
قلعوا لها بالعبابيس
فى نهار بلا السلامة
تسمع رطن الدبابيس
تارت هوال القيامة
ياما نسوان نوحت
ياما خليقة اطوحت
ياما خيل روحت
بعددهامن غيز سجعان
آدى السوق إزاط واتراط
آدى اليهودى ضنينه لقاته
على سطه بمزراق
كسر أربعه من ضلوعه

سقط اليهودى ميتا . وبموته كانت نهاية المعتدين وبداية جديدة للأيتام ، لتبدأ رحلة العودة ، ومرحلة التعرف والاعتراف .





التعرف

والاعتراف

يعد التعرف هنا تتويجا للصراع الذى يعيشه الطفل البطل . ويمثل بداية الطريق لوضع اسمه فى عالم البطولة ولايتم التعرف به بطلا إلا بعد عبوره من اغترابه وغربته فهو اعتراف بعبوره ، فالبطل الذى يغترب عن قومه فى السيرة الشعبية لابد أن يعود اليهم مرة ثانية لتتم المواجهة . فالغربة يتبعها لقاء . واللقاء تتبعه مواجهة حربية ، ويكون البطل الأقدر والأقوى ساعة المواجهة ، فهو صاحب الحق المظلوم ، وهو الطريد المغترب .

وغربة البطل ضرورة ، ليدرب بعيدا عن أهله ، وليملك الدافع الذى يحركه لتحقيق ذاته بأعماله البطولية ، وهو المصقول بتجاربه . وربما لو ربى بين أهله وفى رعايتهم لكان الغلام الهش المدلل ، ولفقد الدافع المحرك لبطولته ، ذلك الدافع الذى يجعله متسيدا عليهم ، فهو فى مواجهته لقبيلته يقف موازيا لها . فقومه يواجهونه بكل رجالاتهم ويستعدون عليه حلفاءهم ، ليقف فى هذا اللقاء ، ويثبت تفوقه وتتأكد فهو هنا يكون قد حقق شعيرة العبور .

وتتعدد صور الصراع لتحقيق هذا العبور ، فقد تتباعد وقد تتقارب وفق طبيعة المواجهة وطبيعة الأزمة التى يعيشها البطل ، فأزمة أبى زيد تختلف تماما عن أزمة عبد الوهاب . وتتغاير صور هذا الصراع عند الجرو وعند جيل الأيتام ، فالجرو لايصارع قومه لظلمهم إياه وإنما لجهله بعلاقته بهم والأيتام فى اغترابهم ليس عن ظلم أهلهم ، وإنما عن ظلم أعدائهم لهم ، فهم يعودون لا ليواجهوا أهلهم ، وإنما ليواجهوا أعداءهم . وكذلك بيبرس ، لايعود الى أهله فى خوارزم وإنما يعود الى مصر ليحارب أعداء الاسلام .

أما حمزة البهلوان الأمير ابن الملك ، فهو الذى يعد الاستثناء الوحيد من بين أبطال السير الشعبية الذى لم يغترب ولم يعد محاربا لأهله . وكان دوره أن يربى بينهم ليعمق إحساسه بعروبته حتى يتعرف دوره ليثبت وجودهم ضد الفرس .

لقد كتب على حمزة البهلوان ان يرفع نير الفرس عن العرب ..

وكتب عليه أن يهدم معابد النيران . وقد عرف والده ذلك ، واهتم به . ولم يكن فى حاجة إلى مواجهته مع قومه ولا حاجة لإثبات أنه أقواهم ، فهو الأمير ابن الملك ، ولد سيدا ، وتكشفت بطولته دون منافس ولم يبق إلا أن يتعرف هو نفسه على دوره فى هذا الكون .

وقد درب الأمير حمزة على كل فنون القتال ، وبرع فيها وهزم كل من لاعبه بالسنان ، وكان يخرج ومعه قرينه عمر العيار للصيد فى البرارى ، وكعادة الأبطال اصطاد أسدا . ومثله مثل المهلهل وعنترة احتقر صنيعه ، وكره ان يباهى بقتله «هر البر» .

كان حمزة قد بلغ العاشرة عندما تعرف على دوره الكونى ليبدأ بعد ذلك الرحلة المقدرة عليه قبل ميلاده ، فقد ذهب إلى البر للصيد مع رفيقه عمر العيار . وقد حمى البر واشتد الحر ، فظمأ فطلب الماء فلم يجده ، فازداد ظمؤه ، وتحول العطش إلى لهيب نار فى جوفه ، ولم تعد له طاقة على الصبر ، فذهب عمر ليبحث له عن الماء . وسار حمزة نحو شجرة كبيرة يستظل بظلها ، وقبل أن يصل اليها لاح له فارس عن بعد ، فاتجه اليه ليطلب منه شربة ماء فوجده بلحية بيضاء كالثلج يتدفق منها النور ، وعليه من الهيبة والوقار والعظمة والجلال مالم يره فى غيره من البشر ، فسأله شربة ماء ، فطلب منه ان يقف مكانه ويتعرف على من أمامه ، وقدم له الماء . وبدا واضحا أن الرجل يحمل الماء خصيصا له ، فنظر حمزة اليه مبهوتا وسأله عمن هو ؟ ومن أين عرف أنه عطش حتى يأتى بالماء ؟ .

كشف الرجل عن نفسه ، إنه الخضر الأخضر أبو العباس عليه السلام (جـ ١ ، ص٧) وأنه يعرف ماحدث ويحدث ، وقدم له قربة الماء ليشرب ، فماؤها لذيذ جدا . وبعد ان يروى عطشه يحدثه حديثا جاء ليخبره به .

وارتاح حمزة حين أدرك أنه أمام الإمام الأعظم ، وهنا نزل حمزة عن جواده ، وتقدم بأدب جم ، فشرب من القربة ، واكتفى ورجع الى الوراء . وسأل الإمام الخضر أن يكون مساعده ومعينه وعونه عند ضيقه . وهنا قام الخضر عليه السلام بتعريفه بالدور الذى سيلعبه فى خدمة أمته ، وقد أتاه اليوم ليخبره أنه هو الرجل الذى يترفع به شأن العرب فى هذه الأيام لأن الله لايحب أن يذل هذه الأمة لمقاصد له فيها ، وسوف يعززها ويكرمها ويرفع مقامها فى الأيام المقبلة ، وأن البداية أن يكون معينا لكسرى ويرفع منه الشدة ، ثم حكى له الخضر حلم كسرى .

وبعد أن تم تعرف حمزة لدوره نصحه الخضر عليه السلام بأن يرجع إلى أبيه ويطلب منه أن يسلمه الثمانمائة غلام الذين ولدوا يوم ولادته ويجعل منهم رجاله المقربين وأن يعتنى بهم ويعلمهم بنفسه كل فنون الحرب التى تنقصهم ويجعل قيامهم وقعودهم بين يديه ، فهم قد وجدوا لمساعدته فإذا غزا قبيلة عاصية أو قاتل ملكا على غير دين الله ، فيكونون رفاقه .

وكان حمزة مطرقا حين كان الامام يتكلم . وبعد أن انتهى من كلامه رفع رأسه ، ليدنو منه ويقبل يديه ، فوجده قد غاب عن عينيه ، ولم يعد له أثر ، وضاعت رائحة البخور التى كانت تلازمه ، وكان لابد أن يبدأ الساعة فى المسير فى الطريق الذى عرفه وهو مازال طفلا امرد ، وخاصته مازالوا أطفالا مردا . (انظر السيرة من ١٤ ـ ١٦) .

وإذا كان الخضر قد قام بدور الموجه ليعرفه دوره فقد استبدل فى سيرة سيف بن ذى يزن بالشيخ جياد ، إذ كان هو القائم بتعريفه دوره . أما فى سيرة المهلهل فقد كان دور العابد هامشيا .

ويتم تعرف سيف على نفسه ودوره وهو فى غربته ، فهو منذ

طفولته يتحرك فى دائرة «القدر» . والصراع الذى يدور حوله صراع ضد القدر ، فقد بدأت المواجهة بينه وبين أهل ... الذين حكم عليه أن يحقق دعوة نوح فيهم ، فهو أداة القدر ، وأعداؤه يقفون فى مواجهة القدر ومحاولتهم التخلص منه إنما هى محاولة للوقوف ضد حركة القدر ، حتى لا تتحقق النبوءة ، وقد كانت محاولتهم الجادة للتخلص من والد سيف ثم من سيف هى التى أسهمت فى تحقيق النبوءة ، فقد كانوا الأيدى التى وجهت سيف ليساعد فى تحقيق مايخشون منه وهو تحقيق النبوءة .

لقد أرسلوا أمه لتكون دسيسة على الملك ، ومنذ هذه الساعة والنبوءة تأخذ فى التحقيق . وكان الرحم الذى يحمل ابن ذى يزن محقق النبوءة هو رحم بنت دسوها عليه . لقد كانت الوعاء الذى حمل الطفل تسعة أشهر ليخرج الى البرية لترضعه الجنية . ويتعرف عليه الملك أفراح وهناك يلتقى بسقر ديون الذى يطلب منه المطلب الصعب ليدفعه للمسير نحو تحقيق «القدر» والصراع كله هنا صراع ضد القدر وليس ضد سيف ، فسيف هذا أداة القدر .

وتأتى اللحظة التى يجب أن يتعرف فيها سيف على نفسه فإن أعداءه يعرفون من هو ؟ أما هو فيعيش طفولته دون أن يعرف حقيقته .

لقد لعب دور المعلم الكاشف له نفسه ، ودور من يعرفه حقيقته ، الشيخ جياد . قام جياد هنا بدور البديل للخضر عليه السلام . فقد ذهب سيف ليأتى بكتاب النيل وحبيبته تثنيه عن عزمه فإن بإمكانهما أن ينزلا فى أى مكان يقيمان فيه حتى تدركهما الوفاة ، ولكن سيف يرفض وقد وجه اليه كلمات تعبر عن اعتزازه بفروسيته وأخلاقه العربية ، فقد قال لها : « نحن قوم عرب ، إذا وعدنا

وفينا ، وإذا قدرنا عفونا ، وإذا قلنا : نعم لانقول : لا . وإذا قلنا : لا ، لانقول : نعم » .

(السيرة ص : ٦٨)

ولو توقف عند رأى شامة ماتم له أن يحقق قدره وماتم له أن يتعرف على حقيقته ، وقد عرفها دون أن يسعى اليها ، لقد جاءت إليه الحقيقة ، لأن معرفته توجهه نحو تحقيق قدره .

لقد خرج سيف يقطع البرارى والأكام مدة سبعين يوما بالتمام وهو لايرى فى طريقه أحدا من المخلوقات حتى أشرف على جبل عال ، وحوله روضة ونزهة للناظرين ، بها أشجار باسقة وأنهار دافقة ، وأغصان مورقة ، ومياه متدفقة ، والطير ناطق يسبح الإله الخالق ، وفى جانب ذلك الجبل من أعلاه صومعة ، فسار حتى وصل إليها ، ولما وقف بباب الصومعة سمع صوت انسان يذكر الرحمن الرحيم وهو يقول : ياحنان يامنان ، ارحم عبدك الفانى ، أنت الباقى وكل من عليها فان . فتقدم إلى باب الصومعة ، وقد تأثر بما سمع فنزلت دموعه متتابعة ، ودخل مطمئن القلب دون أن يعلم إن كان هذا انسيا أو جنيا ، وسلم عليه ، وقد وجده أسمر اللون ، طويل القامة .

وكان لابد للرجل أن يكسب ثقته حتى يخبره مايجب عليه أن يعرف ، فطلب إليه أن يريح نفسه من كرب السفر فهو يعلم أنه سائر شهرين بالتمام ، ثم أبلغه أنه المختار الذى ينفذ دعوة نوح عليه السلام . وأخذ يعرفه بالله ، ويعرف سيف أنه يعيش مع قوم يعبدون زحل ، ويدرك بفهمه أن المعبود هو الله ، ولكنه لم يجد من يعلمه شيئا عن الله حتى يتبعه وهنا يتعرف سيف من الشيخ جياد على الله وعلى الاسلام فأخبره بأن المعبود الحق إنما هو الله عز وجل الذى خلق الأرض والسماء وأجرى بقدرته البحار ، وفجر الأنهار ، وهو الله الواحد القهار . وطلب اليه أن يعتمد على عبادته

ولايركن إلى سواه ، وسأله أن يقول الشهادة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن إبراهيم خليل الله ، وأن محمدا رسول الله وهو آخر الأنبياء وخاتمهم الذى يبعث فى آخر الزمان . من نسل معد بن عدنان ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الكرام أولى الفضل والإحسان . ومد يده ووضعها فى يد الشيخ جياد ، ونطق الشهادتين .

قضى سيف مع الشيخ ليلتين ، علمه فيهما الآداب الاسلامية ، ألا يأكل إلا بعد أن يسمى بسم الله الرحمن الرحيم ، وعلمه الوضوء ، والذكر والاستغفار ، وباتا يستذكران ويستغفران حتى الصباح . وفى الليلة الثانية علمه قواعد الاسلام وعبادة الملك العلام ، حتى مضى الليل بالظلام ، وأقبل النهار .

وأخبره أنه سيقابل الكفار ، فإذا وقع فى قتال ، فعليه أن يذكر اسم الله الملك المتعال حتى ينصره ببركة اسمه على أهل الضلال . وعندما سأله عما يقول عند الضيق ، أجابه الشيخ . قل : الله أكبر ، الله أكبر ، وألا يفتر عن قوله : الله أكبر ، ليضرب فى الكفار بالحسام البتار ، ويطلب النصر من العزيز الجبار ، فإنه لاشك ناصره وحاميه ، فلا يصيبه فى الحرب دمار ، وودعه الشيخ ولم يتوقف عن تذكيره بالله .

ولقد لعبت شخصية العابد النعمان دورا مختلفا فى سيرة المهلهل ، فهو لم يقم بتعريفه بنفسه ، وبالدور الملقى على عاتقه فى هذا الوجود ، وإنما حل له ولأخيه بعض المشكلات إذ قصده كليب وهو متجه لقتل التبع حسان ، ووضح له ضرورة ان يأخذ حذره من الرصد الذى يحمى التبع ، فعلى الباب الأكبر تعلق سلسلة من النحاس الاصفر وهى مرصدة من سحر ذلك الزمان لهلاك من أراد ضررا بالتبع ، فتقع عليه بالحال ، وتذيقه الوبال . وأعطاه سيفا خشبيا ، ثم نصحه بما يصنع ليواجه التبع .

لقد استمع كليب لنصيحته ، ونفذها تنفيذا دقيقا . ونجحت الخطة ، وقتل التبع . ولم يذكر النعمان بعد ذلك إلا وهو يبلغ المهلهل بأن يتوقف عن الحرب مدة من الزمن ويخبره بقدوم سبع سنوات منحوسة عليه وأيامها عليه معكوسة ، ويحذره من أن يحارب أحدا فى هذه الأيام ، فاستجاب له .

ولايمثل صنيع العابد النعمان تعرفا لدوره ، فشخصية العابد الذى يتحدث عن المستقبل فى فترات من حياة البطل كثيرة الورود فى السير الشعبية . والنعمان لم يقم بدور المعرف للمهلهل دوره ، ذلك الدور الذى يوجه مسيرة حياته ، وانما قام بهذا الدور أخوه .

● ● ●

لقد ذهب كليب الى أخيه الزير ليعيده من منفاه الاختيارى الى القبيلة ، ويقيمه ملكا عليها ، فهو قد طعن فى السن ولا طاقة له بمعاطاة الأحكام . وقد وقع النزاع بين قبيلته وقبيلة بكر فعرف قلبه الهم ، وامتلأ بالخوف :

« بنو قيس وقعوا بحلف
وجساس نوى يركب عليا
فقم وشد عزمك يامهلهل
لأنك أنت جبار عتيا
وإلا راحت البلدان منى
وصرنا معيره عند البريا

(قصة المهلهل ص ٥١)

تعجب المهلهل أن يكون أخاه خائفا ، فهو قد بنى قصرا من السباع ثأرا لحماره :

« سباع الغاب خافت من نزالى
وتخشانى ولم تقدر عليا
فاذهب يا كليب ولاتبالى
واحكم فى القبائل بالسويا

فإن جارت بنو بكر وخانت

فلا أترك ، أخى ، منهم بقيا »

(ص : ٥٢)

بقى المهلهل مكانه ، وذهب كليب ليواجه جساساً وقد ملأت قلبه بالحقد سعاد أخت التبع حسان . وذهب جساس قاصدا كليبا ليقتله ، وأخذ يلاعبه بالجريدة ، فأصاب كليب ظهره فناداه كليب : ياابن العم . وسأله إن كان لايريد إن يلعب غير هذه الجريدة فليسرع ويضربه بها فينتهى الحال . ونزل كليب عن ظهر جواده .. ومشى نحوه - وقد تألم جساس من الضربة حتى إنه لم يعد يستطيع القيام ، وإذا بعبد العجوز سعاد يقدم ويجذبه من يديه ويرفعه ويدعوه لقتله ، فيتقدم نحو كليب والرمح فى يده ويطعنه فى ظهره فيخرج الرمح يلمع من صدره ، فيقع كليب وهو يتخبط على الأرض ويقف جساس أمام كليب وهو مضرج فى دمائه ، فيأخذه الندم ، ويعترف أنه ارتكب جرما جسيما بلا عقل ولاتمييز .

وتعد لحظة موت كليب من اللحظات المأساوية فى السيرة ، تمثل لقاء بين نبيل مترفع ، وخسيس يضرب فى الظهر . وكليب وهو مضرج بدمائه يعلن لجساس أنه ليس من أقرانه فى الميدان ، ولا فى ملتقى الفرسان ، ويسأله أن يذهب الى مساكنهم ليقرى الأيتام السلام ، ثم يطلب شربة ماء فيسقيه ، ثم يمضى . ويتقدم من كليب عبد سعاد ليجر رأسه فيطلب منه قبل أن يذبحه أن يلقيه بجوار بلاطة قرب الغدير ليكتب وصيته لأخيه سالم الزير .

كان كليب يقوم فى هذه الوصية التى كتبها بدمه بتعريف اخيه بدوره فى حياته ، ويحدد له فيها قاتله ، ويوصيه باليتامى ، ويحدد له عشر وصايا تكون دستور المهلهل فى حياته :

يقول كليب : اسمع يامهلهل
مذل الخيل ، قهار الأسود
على ما حل من جساس فيا
طعنى طعنة منها بعود
أيا سالم توصى باليتامى
صغار وبعدهم وسط المهود
واسمع ما أقلك يامهلهل
وصايا عشر افهم المقصود
فاول شرط أخوى لاتصالح
ولو أعطوك زينات النهود
وثانى شرط أخوى لاتصالح
ولو أعطوك مالا مع عقود
وثالث شرط أخوى لاتصالح
ولو أعطوك نوقا مع قعود
ورابع شرط أخوى لاتصالح
واحفظ لى زمامى مع عهود
وخامس شرط أخوى لاتصالح
وقد زادت نيرانى وقود
وسادس شرط أخوى لاتصالح
فإن صالحت لست أخى أكيد
وسابع شرط أخوى لاتصالح
واسفك دمهم فى وسط بيد
وثامن شرط أخوى لاتصالح
واحصد جمعهم مثل الحصيد
وتاسع شرط أخوى لاتصالح
فإنى اليوم فى ألم شديد

وعاشر شرط أخوى لاتصالح

وإلا قد شكوتك للمجيد

(انظر : السيرة ص ٦١)

عرف المهلهل أن أخاه قد قتل ، فاشتعل قلبه بلهيب النار واعتراه الاصفرار ، فصار يلطم على وجهه بيديه وقد عظم الأمر عليه حتى رقصت شعرات شاربيه ، ومع ذلك لم تنزل منه دمعة واحدة ، فالسيرة تعده واحدا من الجبابرة السبعة ولا تذكر بقيتهم .

لقد أخرجته هذه الحادثة من عزلته ليبدأ طريق العودة الى قبيلته ، واتجه حيث يرقد جسد أخيه ، فوجده مطروحا والدماء من جسده تقطر وتسوح ، والناس واقفة حواليه ، فألقى نفسه عليه ، وهو يبكى ، ملء عينيه ، فقد أحرق بفقد أخيه . ولما اشتد عليه الأمر أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على الصخر ، فالفتاة لاتريد أحزانا ، ولكنها تريد فعلا من عمها ، أن يتعرف طريقه ، ليس بين الأسود والتلهى بالنمر فى الفلاة ، وإنما بسماع كلمات أبيها ، فقرأها المهلهل وأقسم بالله المتعال ألا يصالح إلى الأبد مادامت روحه فى جسده .

(السيرة : ص ٥١ ـ ٦٩)

وابتدأ المهلهل بعد هذا التعرف طريقا جديدا . وإذا كان كليب قد قام بتعريف أخيه بدوره ، فلقد لعب شيبوب دورا مهما فى حياة أخيه ، وهو دور مختلف إلى حد كبير عن دور كليب ، لاختلاف وضعهما الاجتماعى ومكانة كل منهما فى القبيلة . فقد لعب الدور الرئيسى فى توجيه أخيه إلى الكيفية التى يدفع بها القبيلة إلى الإعلان عن معرفتهم لدور عنترة مدافعا عنها والاعتراف به سيدا من ساداتها وكفئا للزواج بابنة عمه (عبلة) .

● ● ●

وفى سيرة عنترة يعيش البطل اغترابه عن قومه ، مع أنه المدافع عن القبيلة ، فكان بعض أبنائها يقف ضده . فشاس ابن الملك والربيع بن زياد متحالفان ضده ، ويتآمران عليه ويرسلان له عبيدهما فيكمنان له فى الطريق ليقتلاه . وقد التقى العبيد فى طريقهم لقتله ، ببنى المصطلق الذين يطلبون رأس عنترة ، فاتفق الغرماء والتقى بهم عنترة ، وهم يتعرضون له ولابنة عمه عبلة ، فطلب من أخيه شيبوب أن يحمى ظهره بالنبال ، وخرج يقاتلهم فحمل عليهم فى ساحة القتال ، وصار يبددهم يمينا وشمالا ، وشيبوب من خلفه يحميه بالنبال ، هذا والغبار قد طلع وملأ جنبات البر والفلا والخيل تخرج من تحته خالية وأصحابها قتلى ، وسروجها تقطر بالدماء . والنساء قد أيقن بالنصر والحمى . (السيرة : ص ١١٧) . وعاش عنترة بين الرعى والقتال ، قتال أعداء القبيلة ، وقتال أعدائه من القبيلة ، لايعرف له مكانا بينها . وقد أحب أجمل فتياتها وأنكروا عليه هذا الحب ، كما أنكروا عليه نسبه من قبل .

وقد وقف منه ابوه موقفا صعبا عليه ، فقد منعه من ركوب الخيل ، وأشهد بذلك سادات العرب . وفى إحدى الليالى باح عنترة بحب عبلة وذكرها فى شعره بين الفرسان فاحتدمت معركة بينه وبين عمارة بن زياد وقد كان ينافسه فى حبها . تدخلت العبيد بينهما ، وعلا الصياح حتى وصل الى سمع عمه مالك فخرج من صمته ، وتقدم الى عنترة ولطمه على رأسه وأهانه لمطاولته أبناء السادات وجرأته على عمارة . وطلب منه أن يعود إلى رعى الجمال فلما رأى العبيد ذلك تجرءوا على عنترة وأخذوا يضربونه بالعصى والحجارة حتى أشرف على الهلاك .

وجاء الملك زهير فتوقفت المعركة ، وبعد ذهابه جاء الربيع أخو عمارة وحرص على قتال عنترة ، وأتى مالك بن الملك زهير ووقف فى

جانب عنترة ، وكانت معركة حامية . وعنترة فى كل ذلك واقف يحفظ نفسه من عداه ، لايحاول قتل أحد منهم ، وانقسم أبناء القبيلة منه الى قسمين : قسم ضده ويتزعمه شاس بن زهير والثانى معه ويتزعمه مالك بن زهير أخو شاس .

يرى شاس أنه عبد ابن زنا ، فيطلب من أبيه الإذن بقتله ، ويؤيده فى ذلك مالك والد عبلة وعم عنترة ، فهو يرى أن العبد قد طغى وتعدى أطواره ، وسأل الملك أشراف قبيلته عما يريدون من عنترة ، فطلبوا إبعاده أو قتله ، فهو عبد ابن زنا .

نظر مالك بن زهير فإذا به يعجز عن الكلام ولايدرى مايفعل ، فقد وجد مبغضى عنترة اكثر من محبيه ، وكان على الملك أن يحكم فى الأمر فهو يحب عنترة ويرفض أن يقتله ، لقد دخل بيته وأكل زاده وله عنده حرمة ، أما إبعاده فهذا متروك لشداد والده ، فاستدعى الملك شداد ، وترك له أمر الحكم على عنترة .

وقف شداد متحيرا ، فمالك أخوه ولايحب إغضابه ، وعنترة لايستحق الضرب والقتل فهو فارس من الفرسان المعدودين ، فما بقى فى نظر شداد إلا ان يعود الى رعى الإبل ، ولبس الصوف ، لباس العبيد ، ومنعه من إنشاد الشعر ومن أن يتكلم كلام الفرسان فإن صنع ذلك فإنه قاتله . واستدعى زهير عنترة ليسمع قول أبيه فأبلغه الأب بحكمه ، وكان ذلك حكما قاسيا من الأب ، فهو قد أذله أمام أبناء قبيلته ، وصغره وحقر من شأنه وفتح جراح الاغتراب فى قلبه .

استجاب عنترة لحكم والده ، وحنى رأسه للأزمة ، وهو مطحون ، فهو يكلم سيده لا والده . وكان رده ردا فيه إحساس بعمق المأساة وهو يرى والده يحوله الى عبد لكل القبيلة مهانا منهم جميعا :

« يامولاى : افعل بى ماتريد ، واحكم على حكم الموالى على

العبيد ، والعبد ماله غير مولاه ، إن أبعده أو أدناه . وأنا أشهد على نفسى أنى من الآن فصاعدا قد امتثلت أمرك ، ولا أقصر عن خدمتك ولاأفارق رعى الجمال ، وأكون على حفظ أموالك واعيا ، ولا أركب جوادا ، ولا أجرد حساما مع الأبطال ، ولا أنطق بالشعر أبدا ولو شربت كاسات الردى مع الأنذال » .

(السيرة جـ ٢ مجلد ١ ص : ١٨٧)

كانت لحظة حاسمة فى حياة عنترة ، وقد شهدها عدد كبير من الحاضرين من القبيلة ، كما علم بها الغائبون بعد ذلك . وشمت كل أعدائه والحاقدين عليه . فعاد عنترة الى غربته فى الفلاة يرعى نوق شداد وإبله ، حتى أقبلت ذات يوم قبيلة طيىء تقتحم مضارب القبيلة وتنال من فرسانها وعنترة ينظر اليهم ويسأل أخاه شيبوبا عما يفعل فينصحه أن يبتعد عن محاربتهم ، وأن يأخذ قطعة من النوق والجمال ويقصد بها قطعة من التلال حتى يرى مايكون من الفعال ، ولايزال على الجبل حتى ينظر مايقع بينهم .

كان شيبوب يريد من أخيه أن يعرف دوره بين أبناء القبيلة ويثق فى ذاته ، فبدونه لن يكون هناك نصر لها ، وتضيع القبيلة وتفقد كينونتها ويتملكها أعداؤها . وتعرف عنترة لذلك لايكفى وإنما يجب أن تعرف القبيلة كلها ذلك . ومعرفة القبيلة لاتكفى أيضا فالكثيرون يعرفون قيمة عنترة ويدركون دوره فى حمايتها . ولكن التعرف هنا يجب أن يصحبه اعتراف به ، فالاعتراف به وهو صاحب الحق المنكور هو المعنى العملى للتعرف . وشيبوب يدرك ذلك فقد كان العقل المدبر لعنترة ، وهو يعلم أنهم إليه محتاجون ويجب عليه ألا يركب جوادا حتى يلحقه أبوه بالنسب ويشهد بذلك على نفسه أن عنترة ابنه وفلذة كبده . وأوحى اليه أن يرفض المحاربة لو سأله شداد ذلك فما هو إلا من جملة العبيد والعبيد لايحاربون الأسياد ،

وليس له ان يخالف أمره ويخلع عن بدنه ثياب الخدمة ولبس الصوف فهو بين يديه عبد .

وسمع عنترة كلام شيبوب ، ورآه صوابا ، وأخذ العصا بيده وساق الإبل قدامه حتى تعلق فى ذيل الجبل ، ووقف على رأسه ، وشيبوب يقود له فرسه الأبجر .

ودارت رحى الحرب ، وثبت الكرام ، وفر اللئام ، وزاد الكرب على الفرسان ، وجرح قيس بن الملك زهير ، وأعطى بنو عبس للأعداء أكتافهم ، وأيقنوا بالهلاك ، وخرجت من البيوت الكواعب الأتراب ، وانكشف عنهن الستر والحجاب ، وأكثرن الانتحاب وشققن الأثواب ، وصحن فى الفرسان ليثبتوا ويردونهم الى الطعان ، ولكن كثيرا منهم اختار العار على ضرب الرقاب وزعق فيهم بوق الشتات والخراب .

وهنا تحرك مالك والدعبلة ، وطلب من أخيه شداد أن يستنجد بعنترة ، وحدث الصراع فى نفس شداد ، فهو قد حرمه من أبوته ، وقسا عليه هو وأخوه ، والآن يطلب منه أن يحارب للذود عن القبيلة ، وقال لأخيه إنه مابقى لهما مع عنترة سبب يدعوه للوقوف معهما .

وكان ذلك أقوى تعرف من الأب باحتياجه للابن . لقد احتاجه كثيرا ، كما تخلى عنه كثيرا ايضا ، ولكنه الآن فى قمة مراحل التعرف لهذا الاحتياج . والتفت شداد فرأى عنترة واقفا على قمة الجبل .

وتبدى التقابل بين موقفهم فى الحرب وموقف عنترة منهم فهم فى ذلك الكرب الشديد وعنترة يضحك على بنى عبس ، ينظر ما حل بهم من دمار وأخوه شيبوب قدامه يرقص بالمزمار . وهنا يهمز شداد حصانه ويقف أمام ابنه ، فتحتك العواطف وتحتدم ليتكون

الموقف المثير والنادر فى الأعمال الأدبية : الابن المهان ، فى مواجهة الأب المهين .. الحرية .. والتعرف على دوره ... والاعتراف به : ليست كل مايريد عنترة ، إنه يريد أن يحقق لنفسه وجودا متساويا بين الشرفاء من أفراد قبيلته : فقد يعلنون منحه الحرية ، والتعرف على دوره والاعتراف بنسبه ، ولكن ذلك لن يمثل شيئا إذا لم يعترف بكينونته إنسانا .. من حقه أن يتزوج بمن يحب ، عبلة ابنة مالك لقد أذل عنترة كثيرا من أبيه ومن عمه فجرؤ عليه من لايعدهم أكفاء له من بين أبناء القبيلة ، فرفضوا الاعتراف بحقه الكامل فى الوجود إنسانا .

يدور الحوار بينهما ، ويشتد وطيس المعركة بين عبس وطيىء وخيول طيىء تدخل البيوت وتقتلع الأوتاد ، وأخرجت النساء وسبيت عبلة ، فى حين ينظر إليها عنترة ووالده وعمه . وهنا توجه عمه مالك متوسلا اليه أن ينقذها ، فاشترط عليه إن هو خلصها من بلائها ومصابها أن يزوجه إياها ، فأقسم مالك من شدة ما أصابه بحق من خلق الجبال وأرساها ودحا الأرض وسواها إن خلصها من النوائب وفرج هذه الكربة عن الأهل والأقارب أن يكون لعنترة عبدا وتكون له عبلة أمة .

وحين يحدث التحول فى المواقف يتحول عنترة إلى سيد ويستذل مالك ، وبذلك يقف كل منهما عارفا بمكان الآخر . وهنا يتقدم شيبوب بالفرس الأبجر ليتوكل عنترة على الملك المعبود فيذهب ليحارب فى سبيل نفسه ، فلم تكن هذه المعركة فى سبيل القبيلة أو فى سبيل عبلة وإنما كانت فى سبيل وجوده . وانتصار عنترة ، يعنى تعرف القبيلة انه فرد يوازى قبيلة . وما إن تنتهى المعركة حتى يتم تعرف القبيلة كلها ببطلهم والاعتراف به واحدا فى قمتهم من صلب أصلابهم ، وليقف الملك زهير قائما على الأقدام ويمشى بنفسه إلى عنترة ويقبله بين عينيه ويعلن أنه

لايكون عنترة إلا كما يكون الولد وأنه أول من يخضع له من الملوك ، وليتم تعرف القبيلة على مكانته بينهم يعلن الملك بنفسه أنه ألحق بالنسب وعلى الجميع ان يتعرفوا عليه على أنه ابن عمه ، وأنه لحمه ودمه ، والمفرج عنهم وعن أموالهم . ويضعه موضع الصدارة من نفسه ومن قبيلته ، ويطلب من ساداتها أن ينادوا عنترة بمثل مايناديه به ، ويرتفع الملك زهير بعنترة فوق النسب فيذكر أنه صديقه ورفيقه كما أنه ابن عمه ومن يرجوه عند ضيقه .
(السيرة : ص ١٨٩ ـ ٢٠٠)

ولقد لعب الأخ ظالم دورا مختلفا فى حياة أخيه مظلوم بن الصحصاح الذى كان يعرف أنه مظلوم ويعرف ظالمه ، ويعرف أن قبيلتهما تخضع له ، فلا تعترف له بحقه خوفا منه ، وهو يريد من أخيه الاعتراف بحقه . والاعتراف هنا إعلان بتعرف حقيقته على الملأ أخا لظالم ، وإذا أراد أن يحقق هذا الاعتراف فليس أمامه إلا الثورة على أخيه .

واجتمع له من فرسان أبيه الصناديد من بنى الوحيد وعدتهم خمسة آلاف رجل ، وكان الصحصاح يتقوى بهم على العرب الذين فى البطاح ، وكان فيهم زهد وصلاح . وأكثرهم قد ربى فى زمان الصحصاح . وبعد أن تأهبوا ، أخذهم مظلوم ليواجه ظالما ، فلابد أن تقع المواجهة ، وقسمت هذه المواجهة بنى كلاب ، فانقسموا قسمين : الأول تعرف عليه ، والثانى تجاهل معرفته لحقيقته ، وقف مع مظلوم مشايخ الحى المعروفون الذين كانوا مع والده ، فقد رأوه أشبه الناس بأبيه .

وهنا تصادم الفريقان . ولما رأى الناس فعال مظلوم تـ . فعال أبيه ، انضم الى جانبه عدد كبير من الفرسان . وتدخل مشايخ بنـ كلاب ، ومن شهدوا زواج الصحصاح بأم مظلوم فى محاولة للصلح ، فهم لايريدون من ظالم أن يسن سنة مذمومة بين العرب ،

وحكموا كتاب الله فى قول رب العالمين إخبارا عن موسى وهارون : « واجعل لى وزيرا من أهلى ، هارون أخى ، أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى » (٢٠ طه : ٢٩) وانتهوا إلى أن يكون مظلوم وزير أخيه الأكبر ظالم .

(مجلد ٢ ، ج ٧ ص ١٠١ ـ ١٠٧)

وإذا كان مظلوم قد استطاع أن يعرف قبيلته بنفسه فى معركة ، فقد كانت رحلة العودة من الغربة رحلة قتال .

(السيرة : ١٠٤ ـ ١٠٧)

وإذا كانت غربة مظلوم قد انتهت بتعرف أخيه عليه واعترافه واعتراف القبيلة بحقه ، فإنه تسبب فى اغتراب ابنته ذات الهمة ، حتى فقدت معرفتها بحقيقتها ، وقطعت طريقا طويلا حتى تحققت لها هذه المعرفة .

● ● ●

لقد أقامت ذات الهمة عند قبيلة طيىء تقطع الطريق على العربان . وكان من بين ما استولت عليه أربعة آلاف ناقة كأنها العقبان ، وهى حمر الوبر ، كثيرة اللحم ، موسوقة شحما ، وكانت تلك النوق لأبيها مظلوم . فخرج مظلوم ليسترد ماله من أعدائه بنى طيىء .

والتقى الأب بابنته فى ساحة الحرب ، لايعرف أحدهما الآخر ، وأخذا فى الضرب والطعان والتراشق بالسهام والرماح ورآها مظلوم كلما طال قتالها ناضلت واشتدت وعظم قتالها حتى لم يبق فى أيديهما غير العقبين . وأشهرا سيفيهما ، وتضاربا بهما حتى ملأهما الغبار وطلع النهار وازورت الأبصار وحارت الأفكار . وهكذا تصور السيرة هذا الموقف ، وتطور لحظة لقاء الأب بابنته ، بأنه يشفق عليها ويرجع نفسه عنها بالمحبة والشفقة . وكان كلما هم بها لاتمتد يده نحوها وكأنها مشلولة .

أما هى فصارت تلعب به في الميدان ، كما يلعب بالعصفور ، ولم يزالا كذلك حتى الغروب وقد شعر مظلوم أنه هلك وضاق منه الصدر ، بينما رأت فيه ذات الهمة قوة وانطبقت عليه وقبضت على أطرافه ، وأقلعته من سرجه وأخذته أسيرا وجلدت به الأرض وأوثقته . ولم تكتف حتى شدته على ظهر جواد وسلمته لمرزوق ، ثم عادت لتحارب بنى الوحيد فولوا منهزمين . لقد أصبح الأب أسير ابنته . وكان أسره حدثا عند بنى طيىء ، وحدثا عند بنى كلاب . فرحت بنو طيىء بأسر عدوهم ، وفرح ظالم بالتخلص من أخيه ، ولكن الأسر لم يكن شرا على مظلوم وإنما كان خيرا ، فلقد قامت الجارية بتعريفه على ابنته ، فلقد أفرد لمظلوم بيت يقضى فيه أسره ، حتى يتم فى الغد قطع رقبته ، وكان مولاها كان يرى الانتظار حتى يحضر جميع بنى تميم مقتل مظلوم ، فإن أسره حدث من أحداث بنى طيىء الجسيمة .

نظرت جاريتها سعدى الى مايحدث لمولاها وكانت تحب أن تخبرها أنه أبوها قبل لقائها به ، ولكنها خافت من ذات الهمة ، أما الآن وهى ترى السيد مكبلا بيد ابنته ، فإنها ترى أن من واجبها أن تبلغ ذات الهمة بالحقيقة وأن تجعلها تعرف من هى :

وضعت المرأة البرقع عن وجهها ، وذهبت الى مظلوم وتحسرت لحاله فأخذت تبكى ، وعادت إلى ذات الهمة ، فسألتها عن سبب بكائها ، فلم تخف منها ، وقامت بدورها في عملية التعرف بين الأب والبنت ، وأخبرتها بأن أسيرها هو والدها ، وأنها ابنته من صلبه .

ولم تستغرب ذات الهمة ذلك ، فقد كانت تشعر نحوه بشعور غريب ، كما كانت تشعر أن همتها تسمو فى يد المراتب العالية ، وأنها ليست من نسل العبيد . وقصت عليها سعدى قصتها ، فما إن سمعت القصة حتى سجدت شكرا لله تعالى ، إذ كانت من أولاد الملوك ملوك العرب أهل الحسب والرتب ، وطلبت من سعدى أن

تخبر والدها بالحقيقة ، فرأى كيف أنه ألقى بابنته بعيدا لأنها لم تكن ولدا ، فإذا بها فارسة قادرة على هزيمة الأبطال ولو كانوا مثل مظلوم نفسه ، فسجد لله شكرا أن أخرج من ظهره هذه اللبؤة ، فله الحمد والمنة .

وهكذا تم التعرف والاعتراف في لحظة واحدة لتنتقل ذات الهمة بعد ذلك مع والدها وتبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتها .

وإذا كانت ذات الهمة قد التقت بوالدها وجها لوجه في معركة حامية ، وتم التعرف بينهما واعترف الوالد بابنته ، فإن ابنها عبدالوهاب سار طريقا شائكا واجه فيه والده وجده في معركة دون أن يتم بينهما اعتراف ، وكان الوالد نفسه في موقف المستنكر لهما ، وكان الأمر قد وصل به إلى أن لايكون الاعتراف شيئا مذكورا بالنسبة له ، فقد حدث أن عرف ، وكانت المعرفة في طريق من العذاب .

وإذا كانت ذات الهمة قد التقت بوالدها . وقامت بعد ذلك جاريتها بدور التعرف بين الأب وابنته ، فإن الأخت لعبت دورا مهما في عملية التعرف في حياة بطلين من أبطال السيرة الشعبية ، وهما هجرس وأبوزيد .

● ● ●

لعبت اليمامة بنت أخي المهلهل دورا مهما في تعريف المهلهل بأخيها الجرو . فلقد تمت المواجهة بين العم وابن أخيه في ساحة القتال . وقد تمت في الواقع بإرادة جساس ، اذ استدعى جساس الجرو من غربته عند الأمير منجد فقد علم أنه يقيم وأمه الجليلة عنده ، فأرسل له أخاه سلطانا في جماعة من الأبطال ليأتوه بأخته الجليلة وابنها الجرو . وهناك اجتمع سلطان بهما واعتذر لهما عما فرط منه وطلب اليهما الرجوع الى ديارهم ، من الغربة . والجرو

يشعر أن هذا ليس وطنه وأنه مغترب ، ولم يكن قلبه يميل الى جساس أو إلى أى أحد من بنى مرة ، وهو متحرق شوقا ليثأر ممن كان يظن أنه سبب يتمه ، أى المهلهل . وقد أشعل جساس إحساسه بالحقد على المهلهل حتى يقتله ، فالجرو فارس ولعله الوحيد الذى يمكن أن يقتل المهلهل فإن قتله فقد خلص منه ، وإن قتل المهلهل الجرو فإنه بذلك يقتله ألما .

وتقترب اللحظة الحاسمة ليتواجه الابن بعمه فى صراع مأساوى تتشابك فيه العواطف وتحتد ، وجساس يزيد النار اشتعالا فى قلب الفتى ، ويزكيها بالشعر المربع :

فلا ابنى ولانحن مثالك
أناسا حكمك فى ملك خالك
انا أبكى على المرحوم بيك
قتله الزير فى ربعك وحيك
فقم اركب يا ابن أختى
واشخت للمهلهل أى شختى
سألت الله أن تأخذ بثأرك
وتقتله بسيفك أو سنانك
مرادى تكشف عنك عارك
وتحرقه ياجريوى بنارك
(قصة الزير : ص ١٤٠)

ولاتمر اللحظة الحاسمة عابرة فى حياة المهلهل وبنات كليب السبعة ولا فى حياة جساس ، فالأحلام وقراء الرمل يوحون بالحدث ، ولكن الجميع يتناسى ليأخذ اللقاء مكانه فى أحداث السيرة .

أبلغ الجرو أمه أنه يريد حصان خاله الأضرج ، وأنه سيعطيه عوضا عنه رأس المهلهل ، فوهبه الحصان ، ووعده إن قتل المهلهل ان يكون عليهم ملكا .

وخرج الجرو يريد أن يدفع ثمن الحصان ، والتقى بعمه في ميدان القتال . مال قلب المهلهل اليه ، وتحركت جميع أعضائه نحوه بينما الجرو يضمر قتله واعدامه ليوفي جساس وعده بدفع ثمن الحصان ، ويحاول الزير هنا أن يبطل مضاربه بحسن اختياره ، ولم يكن قلبه يطاوعه على قتله ودماره . واستمر الحال على هذا المنوال حتى دقت طبول الانفصال .

عاد المهلهل إلى معسكره واجتمع ببنات أخيه وحدثهن بحديث الغلام وكيف أنه أشبه الناس بأخيه كليب في الصورة والحرب:

يمامة ، اسمعي مني كلامي
أيا ست المـلاح المحسنينا
بـرزت اليـوم للميـدان حتى
أقـاتــل آل مـــر أجمعينـا
فبارزني فتـى منهـم غـريـب
لـه عـزم كما الصخـر المتينا
كمثـل أبـاكم وجهـا وحـربـا
فـذكـرنـي ليـالـي الماضيينـا

(ص : ١٤٢)

وسأل اليمامة أن تخبره إذا ما كانت أمها حاملا ساعة خروجها إلى منازل أهلها ، فأخبرته الفتاة أنها كانت حاملا ولاتدري إن كانت قد أنجبت بنتا أم ولدا . وهكذا تكشف الأضواء الضعيفة شيئا جديدا للمهلهل ولابن أخيه ، فهو قد حارب ثأرا لأخيه ، وثأره ، فقد قتل من آل جساس الكثير ، ولكن نيرانه لم تهدأ لأن أخاه لم يخلف ابنا يرثه .

وإني ما بكيت على كليب
أخذت بثأره بالسيف مجهر

فأبكي حيث ما خلف ذكورا
بنات الكل ماله طفل يذكر
(ص : ١٤٦)

وهو الآن يشعر أنه يواجه ابن كليب . واليمامة تقوم بدور التعرف على أخيها ، وهي المرحلة الأولى في التعرف ، وهي على علم بالطريقة التي تختبر بها الجرو ، فإن كان أخاها فلابد أنه ورث عادات أبيه ، فلها ثلاث إشارات يمكن أن تتعرف بها عليه . وقد أخبرها والدها قبل موته أنها ستحتاج هذه الإشارات إذا ظهر له بنون ، فإن فعال الآباء يرثها الأبناء . حملت ثلاث تفاحات ، ضربت والدها بالأولى فاستقبلها بركابه ، واستقبل الثانية برمحه ، وخطف الثالثة باليمين . وقررت أن تنزل الميدان لتختبر الغلام بهذه الإشارات :

ثلاث إشارات لي في كليب
إشارات بعقلي راسخينا
ركب يوما بقربي مرة
وقال أيا يمامة فانظرينا
من التفاح أعطاني ثلاثة
وقال بذي الثلاثة اضربينا
فإنك سوف تحتاجي إليهم
إذا ظهرت لنا حقا بنونا
ضربته بواحدة ياعم راحت
بضرب ركابه مثل الطحينا
وثاني واحدة راحت برمحه
وثالثها خطفها باليمينا
غدا أنزل واضربه ثلاثه
كفعل أبي أيا عمي الحنونا

يكـون أخـى إذا سوى نظيـره
وإن خالف يكـون غـريب منـا
(ص : ١٤٣)

وفى اليوم التالى ركب الزير للحرب وركبت معه اليمامة وأخذت ثلاث تفاحات ، وكان الجرو قد ركب للقتال ، فصال وطلب الحرب والصدام ، فبرزت له اليمامة لتحاربه بدلا عن المهلهل فاستعظم الجرو ذلك ، وأخذت اليمامة التفاحة الأولى ولوحتها بيدها ثم ضربته بها فأخذها برجله مع الركاب فطعنها ، فضربته بالثانية فأخذها على سنان الرمح ، وضربته بالثالثة وقالت ياخالق الخلق امح الباطل واظهر الحق ، فأخذها بيده ووضعها فى جيبه فتقدمت اليه وألقت بنفسها عليه ، وقالت : أهلا وسهلا يا أخى يا ابن أمى ، فأنت والله ابن الأمير كليب دون شك ولاريب ، وقد ربيت فى دار العدا ، والحمد لله الذى عرفناك بعد طول المدى .

وهكذا لعبت الأخت اليمامة الدور ليعرف أخوها نفسه وعالمه ، وليحدث الانتقال من دار الأعداء إلى دار الأهل والأصدقاء ، وليأخذ مكانه ، قائدا للجماعة ، وليس عدوا لها .

والدور الذى لعبته اليمامة لعبته شيحة أخت أبى زيد ، وهى تقوم بدور تعريف الطفل بأبيه فقد استخدمت شيحة نفس الإشارات التى استخدمتها جدتها الكبرى اليمامة ، ففى روايتى الحاج عبد الظاهر وعبد السلام حامد كانت تحمل تفاحا ، واستبدل التفاح فى رواية عوض الله بالبرتقال .

● ● ●

لم يلتق أبو زيد مع أبيه فى رواية عرب الشوا ، فأبوه لم يطرده ، وإنما تمت العودة ، عودة الأب لابنه . لذلك لم تلعب الأخت دورا فى التعرف ، ولكنها لعبته فى رواية سيرة بنى هلال المطبوعة دون أن

تذكر هذه السيرة العلاقات الخاصة بالتفاحات الثلاث ، فهى مرتبطة بوحدة مع النص المطبوع لسيرة المهلهل ، فلم تكرر الإشارات مرة ثانية .

وقد اختلفت أيضا طريقة مواجهة أبى زيد بأبيه ، فلا تعرف دون مواجهة ، فالتعرف تم بعد المواجهة التى أسهمت الظروف الطبيعية فى خلق الأسباب التى أدت لها كما ترويها سيرة بنى هلال المطبوعة . فقد شاع ذكر أبى زيد فى القبائل حتى وصلت أخباره إلى بنى هلال الذين أصابهم القحط ، إذ أقحلت أراضيهم ، فطلب ملكهم حازم فى ذلك الوقت أن ينظروا اليهم أرضا مخصبة ، ينزلون عليها ، ولم تكن هناك أرض فى خصب أرض الزحلان ، غير أنهم يخشون ابنه أبازيد ، فتحمل رزق مسئولية أن يكفيهم شر الغلام . ومن ثم رحلوا إلى أرض الزحلان ، ونزلوا إلى أحد عيونها واسمها عين قطف الزهور فأسرع الرعيان إلى الحى ، وأخبروا مولاهم أن بنى هلال أتت ترعى فى مراعيهم .

وكان أبو زيد غائبا فى الصيد ، فصاح الزحلان فى قومه فدقوا طبول الحرب ، واتجهوا نحو بنى هلال ، وصاح فيهم الزحلان بأن يرحلوا من بلاده فبرز إليه رزق يسأله أن يتركهم فى الأرض وأن يعطوه عشر دخلها .

وما إن فرغ رزق من كلامه حتى وقع بينهما الضرب ، وانتصف النهار وقد أصاب رزق الزحلان بضربة جرحته وأصابت عنق جواده .

وحين عاد أبو زيد من الصيد ، وجده طريح الفراش فارتمى يقبله ، ويتأسف لمصابه ، وصبر حزينا حتى الصباح ، فركب جواده وطلب الميدان والتقى بضيف بنى هلال غانم الزغبى الذى أخذته الحمية فخرج ليلاقى أبا زيد . وكان أبو زيد يطلب رزقا ،

فقد كان غائبا هذا اليوم فى الصيد ، فالتحما فى الحرب والقتال ساعة وثب فيها أبو زيد على غانم وضربه بحسامة البتار فجرحه جرحا بليغا ألقاه على الأرض ، وسأله أن يقوم مسرعا ليداوى جراحه ويرسل غيره ، ونزل بعدها الأمير عمار فقطع رأسه ، ثم نزل القاضى فجرحه فاستجار به ، فعفى عنه .

ولم تزل الفرسان تنزل إلى أبى زيد ، وهو يصرعها حتى صرع عشرين فارسا ، وجرح ثلاثين ، وأسر أربعين .

وفى اليوم التالى التقى بالرجل الذى نصح والده بطلاق أمه ، سرحان بن حازم ، فطعنه بالرمح وأصاب فخذه ، ثم هجم على بنى هلال فشتت شملهم .

رجع رزق فوجد الصياح والعويل عند قومه ودخل على سرحان فوجده جريحا . ونصح سرحان رزق وأهله أن يرحلوا فى ظلام الليل .

أنا الشورى عندى ترحلوا لبلادكم
فى ظلام ليل شديد الغياهب
(سيرة بنى هلال : ص ٣٤)

ولكن رزقا رفض وأعلن أنه سيبرز له وغدا يكفيهم شره . وفى اليوم التالى التقى الأب وابنه فى حومة الوغى ، فقد خرج أبو زيد الى الميدان ، وبرز له الأمير رزق وصدمه فصمد له بركات والتحما فى قتال حتى الظهيرة ، فتعب رزق وطلب من أبى زيد أن يتوقف القتال الى ما بعد الظهيرة ، فقبل أبو زيد ونزل عن صهوة جواده .

وكانت شيحة بنت رزق أخت أبى زيد فى الهودج تراقب مايحدث ، فشاهدت والدها يرفع حربته يريد أن يغدر بأبى زيد فصرخت فى الغلام تحذره من الغدر . وهنا قفز أبو زيد على صهوة

جواده وجدد الكفاح يضرب بالسلاح إلى أن جرح رزقا فى فخذه فوقع على الأرض ، فنزل أبو زيد ليقطع رأسه . وهنا تلعب شيحة نفس دور اليمامة عند نزال المهلهل مع ابن أخيه الجرو ، فتحاول أن تهدىء الموقف ، فصرخت فى أبى زيد تسأله أن يترك رزقا عتيق سيفه ، فيتركه .

وتواجه الفتاة بتهمة أنها عشقت الغلام ، وتقف الفتاة تدافع عن التهمة ، وتدين أباها وتدين بنى هلال ، فقد نبهت الفتاة أبا زيد حين أراد والدها أن يقتله غدرا ، لأن الغدر من صفات الأنذال ولاتريد لأبيها أن يكون نذلا .

أما أنها تعشق بركات فسألت قومها أن ينظروا إلى نعيم ومنعم ابنى الزحلان فهما أبيضان وأخوهما أبو زيد أسود فسألت لماذا لم يطرد الزحلان أمهم كما طرد أبوها أمها ؟ فلو كان أخوها معهم الآن لحارب فى صفهم . رفعت الفتاة صوتها تبرىء أمها من العيب والعار .

فحاشا للخضرا من العيب والخنا
وحاشا لشيحة تتهم بالعار
نحن أصايل ياأمير وشرفا
من نسل طه صاحب الأنوار
(ص : ٣٤)

وهناك شك سرحان فى أن يكون الغلام ابن رزق ، وسألوا عبده مرزوقا أن يذهب إلى مكة ليعرف حال خضرة . وحين عاد العبد عرفت القبيلة أن خضرة لم تذهب الى والدها بالطفل . فسألوا قاضى العرب فايد عما صنع بخضرة وابنها ، فأبلغهم أنه أوصلها الى الزحلان وأنه يظن أن الذى يحاربهم هو ابن رزق .

وبذلك تتعرف القبيلة على الغلام ، وبدا واضحا أنها تريده وتريد الاعتراف به . ولكن الفتى لم يتعرف بعد على العالم الذى اغترب عنه طويلا .

نصح حازم رزقا أن ينزل الى الميدان ليواجه أبا زيد وأن يقول له إنه لايحارب ولدا لايعرف أباه ، فالزحلان ليس أباه ، وأن عليه أن يسأل أمه حتى تخبره عن حقيقة نسبه .

ترك بركات الميدان ومعه حشيشة إذا بلعها الانسان يصير كأنه ميت ساعة من الزمان ، فذهب إلى أمه وقد بلعها ولما وصل اليها وقع ميتا فولولت ومزقت ثيابها وغشى عليها وبكت ، وفى بكائها أخذت تقص قصتها مع رزق ، ثم مالت عليه لتقبله ، ففتح عينيه وأخبرها أنه حى ، فأكدت له ثانية صحة قولها .

تعرف أبوزيد على حقيقة مولده ، ولكن هذا التعرف خلق داخله أزمة ، فهو لايريد أن يتقبل العالم الذى رفضه طفلا ، إن عالمه هو الذى عاش فيه أبوه الزحلان ، وقومه الذين يعرفهم هم قوم الزحلان .

لقد كان أبوزيد - فى البداية - يحارب قوما يعتدون على الأرض ، أما الآن فهو يريد أن يحاربهم ، لأنهم اعتدوا عليه وعلى أمه ، وخرج ليقاتل وهو مصمم أن يضع رزقا بين يدى الزحلان يصنع فيه مايشاء . ورجع لبنى هلال يغير عليهم ويقتل منهم مقتلة عظيمة .

تقدم سرحان منه يخبره أنه عمه ، وأن رزقا أبوه ، ويطلب منه السماح ، فالدم لايصير ماء . ولكن أبا زيد لايغفر لهذا الرجل أنه اتهم أمه زورا وبهتانا فى شرفها ، ولذلك يجب قتله ، فحمل عليه ، فولى هاربا نحو رزق الذى سخر من هروبه .

وطلب سرحان من رزق أن يذهب إلى ابنه يصالحه لعله يعفو عنهم ، وقد تحقق أنه ابنه ، فذهب اليه ليسلم ، ولكن أبا زيد لم يغفر ، فاتجه نحوه بحقد الابن على أب ألقى به وبأمه وحيدين فى الفلاة ، ولام أباه على طردهما وتركه للزحلان يربيه ، ثم يأتون بعد ذلك ليعتدوا عليه وعلى بلاده . وظهر جليا أن أبازيد يريد قتل والده ، فحمل عليه ورزق يتوارى من ضرباته ، وهو لايستمع الى توسلاته ، ثم ضربه بالدرقة فنزلت على رأس الجواد ، وقفز رزق على الأرض ، فكتفه أبو زيد ، وسار به الى الزحلان ، وهناك اعترف رزق بخطئه . وأبو زيد لايغفر له بعد ، فإذا كانت هلال تغامزت عليه ودفعته الى تطليق خضرة فلم يكن لديه المبرر الكافى لأن يتقبل قولهم ، وهل لو قال له أحد : ارم بنفسك فى الجب ، أكان يرضى ؟ وهو أيضا يخالف بذلك كلام ربه فى تكوين خلقه ، فإذا كان الابن لايشبه أباه أيقال عنه إنه ابن زنا ؟

. فانظر إلى المخاليق كلهم
ترى صورهم دوم مختلفات
فهذا أبيض كأنه البدر فى السما
وهذا تراه يشبه الفحمات
فلو كنت عاقلا ماسمعت كلامهم
وتشمت بك الأعداء والسادات
(السيرة : ص ٣٧)

فدخلت خضرة وطلبت من أبى زيد أن يطلق سراحه من أجل كرامتها عنده . وقد أدى طلبها هذا الى أن يخجل رزق من فعلته ويعتذر على أنه فارقها بغير إرادته ، وأنه ـ منذ رحيلها وهو كالطائر المقصوص الجناح ، حرم على نفسه الزواج من بعدها :

وفارقتك حقا إرادتى
وصرت مثل طير مقصوص الجناح

وحـرمـت أتــزوج أنـا بعــدك
وذقــت العــذاب ونمــت بجـراح

ثم أعلن على الملأ وأمام الزحلان اعترافه بأن أبا زيد ابنه من صلبه . ولم يهدىء هذا الاعتراف أبا زيد ، فتعرفه أنه من قوم تخلوا عنه فى طفولته ترك فى نفسه جرحا عميقا من قومه . وحين سألوه البقاء بينهم مدة من الزمن وجه اليهم كلمة واضحة : أن يعودوا لأرضهم وبلادهم ويقاسوا بها الجوع .

يا هـلال ، عـودوا لأرضكم وبلادكم
وقاسوا بها الجوع ومـر المحايل
(السيرة : ص ٣٩)

وكان على بنى هلال أن يصنعوا شيئا ليزيلوا الجرح الدامى فى قلب أبى زيد منهم ، فقرر الأمير حازم أن يذهبوا حفاة نساء ورجالا إليه ، عله يعفو عنهم ، فذهب إليه مائة رجل ومائة فتاة ، فلما رآهم استقبلهم ورحب بهم وصافحهم ، وعفا عنهم .
(السيرة : ص ٣٢ ـ ٣٩)

أجمعت بقية الروايات الشفهية على أن أبا زيد بعد هذا التعرف لم يذهب مع بنى هلال ، وإنما بقى بين الزحالين ، فكانوا قومه ، عرف بهم ، وعرفوا به فى كل رحلة حرب يقوم بها أبوزيد .

وفى رواية عبد الرحمن قيقة لايذكر دورا لشيحة فى القيام بعملية التعرف بين أبيها وأخيها ، فاسمها لايذكر إلا بعد أن تم التعرف ، وأنها قد أطلقت الزغاريد فرحا بأخيها ، واستأذنت لتذهب مع الجازية وفتيات بنى هلال إلى أخيها أبى زيد فتعود به إلى أهله .

« وشيحة طلقت الزغاريد فرحت بخوها وطلبت المشى مع

الزازية وبنات هلال يجيبوا أبوزيد خوها لوسط أهله »
(من أقاصيص بنى هلال ص ٦٤)

تذكر رواية عبد الرحمن قيقة أن أبا زيد كان يعرف أن شيخ النجع الذى رباه ليس أباه ، فهو لم يره قط يدخل بيتهم وعندها فهمت الأم أن ابنها أصبح مدركا فقصت عليه قصتها مع بنى هلال وطردها من منازلهم . وحين التقى أبو زيد بقومه كان له من العمر عشر سنوات . وذكرت الرواية أن بنى هلال قدموا الى منازل الأمير دون مقدمات ليأخذوا الجزية من النجع الذى تقيم فيه الشريفة خضرة .

« عامتها جات سية خيل من لأولاد هلال لذاك الحى كى كل عام باس نقلوا الجزية السنوية من أهل النجع إللى فيه قايمة بنت الشريف » (ص : ٦٢) .

وقد وقف أبوزيد ضد المعتدين وشتتهم ، وتذكر الرواية أن أمير بنى هلال كان فى ذلك الوقت سرحان ، وليس حازما . وبقية الروايات الشفوية تتفق فى ذلك . ولقد أرسل حسن الهلالى رزقا فى مائة فارس اليهم ليؤدبوا هذا الحى . ووقف الأمير رزق فى مواجهة ابنه دون أن يعرفه . والرواية هنا فى التفضيلات ، فما أن تواجه الأب والابن حتى وقع التعارف بينهما . والرواية تذكر « وضد كل منهم بجبهته » (ص ٦٥٤) . أى أن الرواية هنا تتفق مع سيرة بنى هلال المطبوعة فى أن أبازيد لم يذهب معهم . ويختلف دور شيحة فى كل من الروايتين . فبينما كان دورها إيجابيا فى الرواية المطبوعة لايصبح لها دور قبل التعرف .

وفى رواية الحاج عبد الظاهر تلعب شيحة دورا أكبر مما فى الروايتين السابقتين فى عملية تعرف الابن بابيه .

كانت شيحة أول من عرف الحقيقة من بنى هلال . وتذكر الرواية

أنه بعد أن قتل أبوزيد جابل ذهبت زوجته الى بنى هلال تستنجد بهم ليأخذوا لها بالثأر منهم . وكانت سن أبى زيد فى ذلك الوقت سبع سنوات .

وكان واضحا فى الرواية أن الزحالين قوم ضعاف ليست لهم هيبة بين قبائل العرب ، حتى أن شيحة ترفض أن تكون أمها من الزحالين استصغارا لشأنهم ، وقد كان غريبا أن تهزم قبيلة الزحالين شخصا مثل جابل . وقد عرفتهم زوجة جابل بأمر العبد الذى قتل زوجها ، فدقوا طبول الحرب ، وذهبوا الى الزحالين ، ولم يكن معهم رزق الذى اعتزل بنى هلال منذ زمن . وبعد أن نصبوا خيامهم أخرجوا مناديا ينادى للحرب ، يذكر الراوى .

« كان العرب لما يروحوا بلد لبلد يطلقوا منادى يقولوا : الحرب جات لصحابه ، يعنى الحرب جات أصحابه اطلعوا » .

تسامع هذا الصياح عند الزحالين ، فذهب ابو زيد لأمه . وقد لعبت الأم - فى رواية الحاج عبد الظاهر - دورا حيويا فى المعركة بين الأب وأهله . هذا الدور كان غائبا فى السيرة المطبوعة ، وفى رواية قيقة . فلقد حددت الرواية علاقة ابى زيد بأمه . يذكر الراوى :

« كان هنا ابو زيد يعتبر أمه وأول ما أمه تصبح عليه ، يقول لها ادعى لى ، دعاكى من الرحمن » .

وكان يستشيرها قبل أن يقرر أمرا من الأمور . وحين سمع أبوزيد نداء الحرب فذهب إلى أمه وأخبرها أن قوما يسمون الهلايل ينادون للحرب ، وكأنما كانت المرأة تنتظر حضورهم وتتمناه ، فاللحظة لحظة مواجهة بالنسبة إليها ليتعرف الجميع أنها خلفت الطفل البطال (أبوزيد) وأنها من أصلابهم وأنها الشريفة صاحبة الشرف المصون .

طلبت الأم من ابنها أن يخبرها بأسماء الذين سيواجهونه فى

الحرب ، فكان المنادى إذا نادى باسم من الأسماء يطلب القتال ليعود ابو زيد لأمه فيخبرها باسمه فتحدد له ما يصنع . قسمت خضرة الهلايل الى قسمين ، قسم عاداها واتهمها ، وقسم تعاطف معها . فأما الذين عادوها فطلبت من ابنها أن يقتلهم ، وأما الذين تعاطفوا معها فكانت تطلب منه الا يقتلهم وإنما يأتى بطرف من شاشاتهم .

نفذ أبوزيد وصية أمه فى الهلايل ، وهزمهم هزيمة منكرة وأصدر فيهم حكمه « حكم عليهم لانار تضوى ولاجمل يقعى ولا كلب يعوى » . وكان فى هذا الحكم اذلال لبنى هلال ، لم تذكره سيرة من السير . فقد نزلوا على هذا الحكم مما دفعهم إلى الاحساس بالحاجة الى والده رزق بن نايل الذى أعتزل العالم بعيدا عن بنى هلال وعن كل البشر باستثناء ابنته شيحة فأرسلوا له عبده نجاح ليأتى به من منفاه الاختيارى .

ترك رزق شعره يطول وينزل على اكتافه ، كما ترك ذقنه دون أن يشذبها طيلة السنوات السبع التى ترك فيها خضرة .
وحين وصل نجاح إلى مقره بعد ثلاثة أيام من السفر كانت شيحة أول من رآه ، وكان أول شىء خطر على بالها أن والدتها عادت الى النجع . وحين رآه رزق تصور أن خضرة عادت الى النجع ثانية . ولكن نجاح أخبره أن بنى هلال فى مأزق صعب ، فقد ظهر عبد فى بنى الزحلان حكم على الهلالية بالذل والمهانة ، وأنهم يطلبون منه أن ينجد قومه .

شد رزق الرحال الى حيث بنى هلال ، فأدرك صحة ما قاله نجاح ، فلم يجد عندهم جملا يقعى ولا نارا تضوى ، ولا كلبا يعوى .

احتفل بنو هلال بعودة رجلهم وقد أخبروه بما حدث لهم .

فأخرج مناديا ينادى للحرب ، فأعلم أبو زيد أمه أن رزقا ابن نايل هو المتقدم للطعان .

كانت هذه اللحظة حاسمة بالنسبة للمرأة فلا تريد ابنها أن يقتل أباه ، فقالت وهى تدعو له :
"اوع ياولدى .. ادع لك ، ليل مع نهار ، اوع تكتله ، ولا تجرحه ، اوع تقرص عليه .. والله معاك" .

نزل أبو زيد الحرب فى مواجهة والده .. لايعرف احدهما الآخر ، والأم تريد أن تذل بنى هلال ، ولا تريد ابنها أن يعرف أنه يقاتل أباه ، إنها فقط تريد أن تطمئن الى أنه لن يقتله .

طالت المواجهة بين الطفل الفارس والأب الفارس من الصباح حتى العصر ، وبعد العصر أخذ الطفل البطل أخته شيحة أسيرة من أبيه .. يذكر الراوى أن العرب كانوا إذا ساروا للحرب خرجت النسوة خلفهم لتشجع الرجال على الصمود للحرب .

نبه أبوزيد على الزحالين ألا يدخلوا على الأسيرة ، ولم تكن تذهب اليها سوى جاريتها سعيدة ، تقدم لها الطعام والشراب ، فوجدت الفتاة حزينة ، تذكر أمها ، وتعدد بقصائد حزينة على فقدها وما حدث لها ، فتألمت لها سعيدة ، وأخبرت أمها بحالتها ، وهنا حدث التعرف بين الأم وابنتها ، فلم تستطع خضرة أن تتحمل وتصبر على عدم رؤيتها فدقت عليها الباب ، ولم تصدق الفتاة أن المرأة التى طرقت عليها الباب هى أمها ، وتصورت أن الزحالين الذين تحتقرهم يسخرون منها . وعندما إلتقت البنت بأمها كانت المفاجأة شديدة عليها فسقطا معا على الأرض مغشيا عليهما من شدة التأثر .

وطلبت خضرة من ابنها بعد ذلك ان يأخذ شيحة على هجين الى أبيها ، فهى تعلم أن أسر شيحة قد يدمر الرجل ، وعندما وصل

بهجينها قرب مكان رزق تركها ومضى ، ورزق يتعجب من هذا العبد فلا يمكن أن يكون شخص مثله إلا حرا من كرام الأحرار فهو أشجع من قابل من الفرسان .

لم يبق بعد ذلك إلا أن يتم التعرف بين الابن وأبيه ، وهنا تلعب شيحة نفس الدور الذى لعبته اليمامة جدتها الكبرى ، وكما صنعت اليمامة مع هجرس وألقت اليه بثلاث تفاحات تتكرر القصة فى رواية الحاج عبد الظاهر ، وهى كما جاءت فى روايته .

« المهم ياشيخ العرب : طلع الصبح للحرب .. ووراه شيحة تغنى وتجيب قصدان .. هنا شيحة مسكت ثلاث تفاحات .. دلوك عاوزه شيحة تورى أبوه وتوريه ده مين ؟ ابنه : مسكت ثلاث تفاحات .. راحت رامية اول تفاحة لأبو زيد .. اتلقاها بطرف السيف .. يعنى شوف اهياها ازاى .. واتلاقاها ازاى بطرف السيف .. قرص على مين ؟ .. على أبوه .. ميعرفش ابوه .. قرص فى الحرب .. تعنى زود .. قوم راحت راميه الثانية ، لقفها من الركاب يعنى بركاب رجله .. رمت التالتة لقفها بيده » .

كانت تريد أن يفهم أبوها أن أبا زيد ابنه ، كما كانت تريد من أبى زيد أن يفهم أن رزقا أبوه ، ولما لم يصلح الرمز خافت على والدها وصرخت فيهما أن يرفعا ايديهما وقالت كلاما بالرمز لأبى زيد يفهم منه أنه يحارب والده فيتعرف الابن على ابيه ، كما يتعرف الأب على ابنه ، ويسقط الاثنان ـ من شدة الدهشة والتأثر ـ على الأرض مغشيا عليهما .

استيقظ الأب والابن بعد ساعات ثلاث ليتعرف كل منهما بالآخر واجتمع الشمل بعد التعرف ، واحتفل فضل الزحلان بالقوم احتفالا كبيرا ، وكان ابو زيد يقدم لهم صينية الطعام ، ويذكر الحاج عبدالظاهر أن أبازيد "أعطى كل رجل نايبه" إلا والده "والنايب"

يعنى فى لهجة أهل الأقصر : نصيب الفرد من اللحم ، فهو سيد الطعام .

وغضب أتباع زرق بن نايل من العرب على صنيع أبى زيد إذ كيف يترك سيدهم بلا "نايب" ، وطلب منهم أبو زيد الا يغضبوا وقال لهم "هو فاتنى فى القماط ، وأنا فته فى السماط" ، فاتضح أنه مازال متألما من موقف أبيه . غير أن السيرة كما يرويها عبدالظاهر تعيده مباشرة الى أهله ليأخذ حقه منهم ، فقد أعطى أبوزيد نصيبه كاملا فى كل ما تكسب القبيلة بمقدار الربع ، وتساوى فى ذلك مع دياب وزيدان والقاضى بدير ، وهؤلاء يمثلون الجيل الذى يسير معه رحلة "العبور" .

أعطى أبوزيد نصيبه إلى الرجل الذى رباه ، فضل الزحلان وتدخل الزحالين حلقة بنى هلال القبلية فكانوا شركاءها بعد ذلك فى كل حروبها ومعاركها هزيمة وانتصار ؟.

وفى رواية عوض الله عبد الجليل ذهب عرب جايل الى سرحان يستنجدون به ، وأمر سرحان الهلايل ان يشدوا رحالهم نحو الزحالين ، والتقى سرحان مع الطفل فهزمه ، فما إن وجد نفسه فى الخلاء حتى هرب .. والتقى من بعده بالأمير فايد فجرى إليه ابوزيد يغرسه ، لم يرد قتله وإنما اقتطع قطعة من شاشة وتركه بعد ذلك حرا . وفى رواية عوض الله فى ١٩٨٧/٣/٢٨ أن غانم نزل لمقاتلة أبى زيد فقتله ، وفى روايته التى رواها لى فى ١٩٨٣/٤/٨ يذكر أنه جرحه فقط ، وتذكر رواية النادى عثمان أنه عاش حتى جيل الأيتام وأنه تشفع لأبى زيد حتى لا يقتله دياب .

وقد انتهت رواية عوض الله عبد الجليل والروايات الشفهية لعبد السلام حامد والحاج عبد الظاهر إلى أن أبا زيد هزم بنى هلال هزيمة منكرة ، وأنهم لجأوا إلى رزق بن نايل عله يعود من منفاه

الاختيارى ، فهو قد أقسم يمينا منذ أن طلق خضـرة ألا يبقى مع بنى هلال .

ذهب ناجح والد قمصان - واسمه أيضا نجاح فى نفس الرواية - إليه فى الجبل ، وعاد به إلى أهله لينقذهم من مزيمة محققة وتحاربوا ثلاثة أيام حتى أن شيحة تعجبت من الطفل البطل :

واتحاربوا بميسرة وردوا يمين
إلا نزل فى الحرب أيا سامعين
تلت أيام ع اللى جرى
وشيحة قالت يا هل ترى
والله حربه يابوى ماجرى
جـايلك ياأمير فى الوغى

وتسرع الأحداث هنا لتصل إلى عملية التعرف بين الأب وابنه وتقوم بها شيحة ، وتستبدل بالتفاحات هنا برتقالة ، ولاتشير الرواية إلى ثلاث برتقالات وإنما برتقالة واحدة تلقيها لأخيها فيقسمها نصفين وتستمر الحرب :

إلا مسكت برتقالة تشوحها فى وسيع الفلاه
مسكت البرتقاله وشوحتها
شافها الهلالى خطفها باليمين
وقسمها نصـين
وسكن الفرس منه والوحوش تراه
عمد ع الهلالى حوم فى حومة اللقا »

ولم تستمر هذه المواجهة طويلا ، فقد تعرفت شيحة على أبى زيد وقامت بدورها فى تقديم الأب لابنه والابن لأبيه ، فصرخت فى أبيها بأن الطفل البطل هو ابنه ، وحذرت الابن من الاستمرار فى الضغط على خصمه فهو أبوه ، فقد يقتله ويصبح عجيبة من

الأعاجيب ، فلما سمع أبو زيد كلمتها وقع سيفه على الأرض واقترب من أبيه وعانقه بينما خضرة تزغرد من فرحتها إذا تم التعرف بينهما دون خسائر تذكر ، فلم يكن هذا التعرف فى حاجة إلى اعتراف من الأب بابنه ، فقد كان بنو هلال جميعا قد احترموا هذا الابن ، حيث أخذ مكانته بينهم من الاحترام والتقدير لمواقفه وقدرته البطولية التى جعلت تعرفهم عليه كسبا لبنى هلال أنفسهم :

قالت له شيحة يانضيف التنا
بذاته ابنك فى وسيع الفلا
شيحة قالت له ياهلالى
أبوك لتكتله ياغربة وتصبح بلاه
لتكتله ياغربه تسكنه لحود الترى
نبقى ياسلامة فى وسيع العجاب
إلا الأمير أبوزيد وقع سيفه فوق التراب
حوم على أبوه لما أتاه
وعانقه شمال ويمين
خضرة زغردت ، قالت ياناس جانا الهنا
والهنا لينا يسير
وحياة نبينا المصطفى نضيف التنا

وكما دعاهم الهلالى للطعام فى رواية عبد السلام ورواية الحاج عبد الظاهر ، فقد دعاهم فى هذه الرواية وقدم لكل الموجودين طعاما باستثناء والده الذى تخطاه أكثر من مرة وهو يرحب بضيوفه ، تعجب منه الهلالية ، فهو يريد من ابنه أن يتصرف معه كما يتصرف الابن الصغير مع أبيه :

«فات أبوه فى وسيع السما
قال له ليه ياهلالى تفوتنى شمال ويمين
إيه اللى جرا لك يابنى وأنت منى صغير»

رد عليه أبو زيد ردا كان فيما يبدو مستعدا له ، فالكلمات توضح أنه كان يقصد أن يعترض عليه الهلالى ليذكره على الملأ بخطيئته فى تركه . والكلمات هنا قريبة لما يذكره الحاج عبد الظاهر ومايذكره عبد السلام حامد ، فالهلالى الكبير يستنكر أن يتركه الهلالى الصغير فى السماط ، ويتعجب الهلالى الصغير من أبيه لاستنكاره وهو الذى تركه صغيرا فى القماط ، فهى واحدة بواحدة :

« قال له أنت فتنى فى القماط
وانا فتك فى السماط .
عيبة وسوت عيبة يامقادم هلال
عيبه وسوت عيبه يانضيف التنا .

ويتسيد الطفل بعد هذا التعرف عالمين ، عالم الزحلان ، وعالم الهلالية ويجعل منهما عالما واحدا .

وإذا كانت الأخت شيحة قد لعبت دورا مهما فى عملية تعرف أبى زيد وابيه ، أى تعرف بطلين من أبطال السير بأنفسهما وبعالمهما فقد قامت العمة الجاز بهذا الدور خير قيام لأيتام بنى هلال ، فإن هذا التعرف كان مختلفا عنه فى بقية السير ، فهو تعرف بالذات فى مواجهة الأعداء وليس تعرفا للذات فى مواجهة الأقرباء ، كما تبدو فى كثير من السير ، إنها مواجهة مختلفة وصعبة .

ولقد حانت لحظة التعرف كما تراها الحكيمة الجاز بعد انتصار على أبى الحلقان بن أبى زيد على اليهودى ، فقد كانت الجاز تراقب المعركة ، إذ أتت اللحظة الحاسمة للثأر ، ولأن يعرف الأطفال دورهم الذى دربتهم عليه الجازية ، ولاتوضح الرواية إن كان الأطفال يعرفون حقيقتهم أم أنها كانت مجهولة لهم . تذكر رواية

النادى بلا مقدمات أن الجازية قالت لعلى ألا يخبر البياضى بأنه ابن الهلالى والطفل البطل يرفض نصيحتها ، ويوضح الحديث الذى دار بينهما أن معرفته بنفسه معرفة حديثة ، وإلا فما معنى أن يرفض أن يكتم حقيقته فى هذه اللحظة ، والصورة التى برزت بها شخصية أبى القمصان تشير إلى أنه فارس جاد يملك فروسية أبيه ولايملك تدبيره الحكيم ، وبخاصة أن التدبير الحكيم علمته له الأيام . أما فروسيته فقد نشأت معه منذ ميلاده ، وعلى فى هذا مشابه لأبيه يكرر نفس موقفه ، إلا أن تعرفه واقعه يدفعه للفخر به فيتجه هو بنفسه إلى محمود البياضى عدو العائلة القديم والصديق الجديد فهو مربيهم ومربى الأيتام .

وقد ذهب على بعد حواره مع الجاز اليه ليعرفه بحقيقته التى كانت غائبة عن الطفل ، كما كان الطفل والجاز يتصوران أنها غائبة عن البياضى كما فى رواية النادى عثمان :

« على قال لها لبطلى أيا جاز
أنا أبو شال ع القرن مايل
كلامك وسط العرب جاز
والله لقول له احنا من الهلايل
قال له اسمع كلامى ياعم محمود
أنا سيد الطقوم الظريفة
اسمع كلامى ليك بقول
أنا أبوى أبو زيد ابن الشريفة
أنا أبوى القليد بركات
أبو شال ع القرن مايل
يخش العيطة بركات
لاسمر أمير الهلايل »

لم يكن البياضى يسمع حديدا ، ولم يكن على يعرف البياضى

بشيء جديد ، فقد ذكر الرجل أنه كان يعرفهم منذ البداية وقبل أن يولد على نفسه بأنهم من عرب الهلايل :

محمود يقول :
ياولدى وحق النبى ياعلى الزين
يابو شال ع القرن مايل
يامؤصل يابوتنا زين
من يوم ماجيتم
وأنا عارفكم من عرب الهلايل
عارفكم من عرب بنى هلال
يا سيد الطقوم الظريفة
أنا عرفكم من عرب بنى هلال
أبوك اياه ابن الشريفه
إياك أنت ولد القليد أبو زيد

لقد كان البياضى كريما مع الأيتام ، رباهم وحماهم ، وحين نموا وقفوا بجواره ودافعوا له عن أرضه ، والجاز تراقب الطفل فى حربه ، وتزغرد له وتراقب الأيتام وقد نموا فتقشعر الأبدان بضرورة العودة إلى البطل أبى زيد هناك ، وهو يعمل خادما لأعدائهم يسقيهم ويسقى نوقهم ونساءهم والعودة إلى دياب وأهله من الزغابى للانتقام منهم . الجاز تفكر وتفكر وفى داخلها صراع بين أن تبدأ رحلة العودة ، أو تنتظر حتى لاتكون مغامرة غير محسوبة يضيع معها انتظارها الطويل .

توقفت قبل أن تتخذ قرارها ، وقررت أن تزوج الأيتام ولما يتجاوز أكبرهم الثانية عشرة من عمره . كانت زوجة على هى بنت حسن السلطان . ذهبت الجاز إليهم جميعا قبل دخولهم على زوجاتهم ونصحتهم بأن ينتظروا وألا يدخلوا على زوجاتهم هذه الليلة . وفى الصباح ذهبت إلى الزوجات فوجدتهن جميعا عذراوات

ماعدا زوجة على أبى الحلقان ، فقد عصاها على ، لقد تصرف كما كان يتصرف أبوه ، يعصاها ويعاندها ، وتعصاه وتعانده وتكيد له . لم تغضب الجاز كما كانت تغضب من أبيه ، فقد زغردت ، وشعرت أن الطفل البطل يعيد سيرة أبيه وأن بنى هلال قد خرج من بينهم زعيما جديدا يأخذ بالثأر من أعدائهم ، واقتنعت أن لحظة الرحيل قد حانت .

ذهبت الجاز الى البياضى تبلغه أن الغريب يطلب بلاده . كان عزيزا عليه فراقهم . وهو الأب المربى لهم ، ولكنه تركهم وهو يتغنى بحبهم :

سجرة المحبين تنشاف
ورقها أخضر يلالى
لابد الحبايب ماتنشاف
ولو طالت عليها الليالى

سار الأيتام بقيادة الجاز فى الطريق القديم الذى علمته الجاز جيدا ، فاستخرجت طبل الرجوج خوفا على أبى زيد من دياب فقد يعلم أن الجاز قد جاءت برجالها لتقاتله .

ولايختلف الإطار الذى تحدده رواية النادى كثيرا عن الإطار المحدد فى روايتى كل من عوض الله عبد الجليل والحاج عبد الظاهر . ففى رواية عوض الله تخرج الجاز بالأيتام فى طريق العودة فيلتقون بفرسان فى الطريق ، ويتصدى على أبو الحلقان للفارس ، وتدور معركة حامية الوطيس يعجز فيها الفارسان عن قتل أحدهما الآخر ، وتتعرف الجاز على الفارس المعادى ، فليس سوى زيد ابن الناعسة الذى ولدته وهما فى الطريق . لقد أصبح الآن ابن عشر سنوات . ودربته أمه على القتال . تزغرد الجاز ، فقد ازداد العدد فارسا وأى فارس . لقد خلف ابو زيد رجالا . واتجه الجميع إلى أبى زيد .

وتتفق روايتا عبد الظاهر وعوض الله فى إطار المسميات ، فقد التقى على فى طريق العودة بطفل صغير يقود جيشا ففكر فى حربه وأن يضم جيشه إليه ، وأخذا يتقاتلان ، سمى كل منهما نفسه فذكر على اسمه ، وذكر البطل المواجهة أن اسمه (مخيمر) ، ولم يكن مخيمر سوى أحد أبناء أبى زيد الذى هرب كما هرب أخوه صبره إلى الجبال ، وكون جيشا . وهناك رواية تذكر أن مخيمر قد مات قبل أن يقتل حسن السلطان .

ولقد تلاقى الأطفال الأبطال فى مواجهة ضارية ، يصف عبد الظاهر عليا بأنه بحر دميرة ، وبأن مخيمر طوفان ، أى أن البحر فى زيادته يلتقى مع الطوفان ، ولا أحد يستطيع أن ينال من الآخر ، واستمرت هذه المواجهة حتى العصر لتبدأ الراحة من الحرب .

يعود على ليحكى لعمته عن الفارس الذى يحاربه ، فحربه تتعتع الجبال . وتستمر الحرب بينهما .. وفى اليوم الثالث خرجت الجاز لتنظر إلى المحارب ، فهى قد أخذت تشك . أن يكون المحارب أخا على فلا يملك هذه المقدرة على الحرب سوى أبناء أبى زيد . ورأت الجاز الطفل البطل يواجه الطفل البطل ، فصرخت فى على أن يتوقف عن القتال ، فقد عرفت المقاتل فليس سوى أخيه على الذى تسميه "عليا أبا الحلقان" ، ثم تقوم بعملية تعريف الأخ باخيه ويأخذان فى الرحيل بعدها .

ويتجه الجميع نحو أبى زيد ، وفى الطريق يلتقون بفارس وتتكرر قصة مخيمر مع الفارس الجديد ويحارب على ومخيمر ، وتستمر الحرب يومين ، وتخرج الجاز فى اليوم الثالث فتعرف المقاتل أنه صبره ابن أبى زيد الهلالى ، ويتعارف الأخوة ويجتمع شمل الأبطال الأطفال .

ولم يبد على الجاز أنها فرحة بهم ، وقد أعلمتهم بخوفها فدياب محارب مخيف يعرف خدع الحرب ، أما الأطفال فيعتمدون على

شجاعتهم وليس على مقدرتهم العقلية فى الحرب . فتوقفت وأخذت تعلمهم فنون الحرب وخدعها ، وطرق والدهم فى الحرب ، ثم سارت فى طريقها إلى أبى زيد .

وأمرت بضرب طبل سفيان وهو طبل بنى هلال فى رواية الحاج عبد الظاهر .

يذكر أن أبا زيد سمعه .. وكان يسمع على مسيرة ثلاثة أيام . وأخبر أبوزيد ابنته ريا بأنه يسمع طبل سفيان وبأن الأيتام يعودون . وتصورت الفتاة أن والدها فقد عقله ، وفى اليوم التالى أخبرها أن الأيتام قادمون غدا ، والحزن يزداد فى قلب الفتاة وهى ترى والدها يفقد عقله . طلب منها والدها أن تفك حبل البير ، وما إن نظرت إلى البئر حتى سمعت صوت الطبل فأدركت أن والدها بعافيه .

تخلق رواية الحاج عبد الظاهرة من الطبل موقفا دراميا فى النص فدياب يستمع إليه ، وترتج المدنية ، فينظر دياب إلى زيدان ويبلغه مستهترا بأن الأيتام قادمون . ولا تذكر رواية النادى عثمان ولا رواية عوض الله عن الطبل شيئا فليس جزءا من الرواية : إذ تذكر رواية النادى أن الجاز رفضت أن يضرب الطبل حتى لايقتل دياب أبا زيد إذا عرف أن الأيتام قادمون . ويروى أن الجاز قد التقت بالأمير أبى زيد وهو يقف على البير سبالا وقد فقد بصره . فجرته بعيدا حيث يقف الأيتام ، وطلب منها أن يسلم على كل فرد منهم بمفرده ، وتبرز فراسته وهو يسلم عليهم ، إذ يذكر اسم والد كل منهم عندما يسلم عليه ، وهكذا تقوم بتعريفه بأبناء القبيلة ويتعرف الأبناء على فارسهم الكبير . فإذا ما جاء دور على أبوالقمصان . أمسك الغلام بأبيه وهو جالس ، فدفعته قوة الطفل إلى أن يقف على قدميه ، فقال للجاز إن هذا الطفل هو أبنه ، والجاز تغيظه كعادتها بأنه ليس له أطفال ولكن أبا زيد سقط مغشيا عليه من الفرحة ، ثم قام وقد عاد إليه بصره .

وتتفق رواية عوض الله مع هذه الرواية فى أن أبا زيد سلم على الأطفال الفرسان فردا فردا وهو يذكر أسماءهم واحدا واحدا حتى سلم على ابنيه على أبي الحلقان الذى يلقبه بالبطيخى وابنه الثانى زيد ، وترسم الرواية صورة هذا اللقاء :

لما اتى الأمير على
ويسمى على البطيخى
ابن عالية أم دلال
سلم عليه الهلالى
عصروا بيمين عمود هلال
يَديِّم تحت عديه
ولا واحد مدى لأخوه ليان
نده وقال يا أم محمد
ده ابن عالية أم دلال
ولما اتى الأمير زيد
تقول عون من الأعوان
وسلم على التمنى
طبق فيه عمود هلال
وطبقوا فى بعض لاتنين
الدم جرى ده من الفرسان
وخطفوا الملك زيد وجابه وراه فوق الشحتان
قال حقيقى الحية تجيب حية
وان هافت بتجيب تعبان
أنا إن خاب ظنى وكلامى
ابن الناعسة ناعسة الأجفان
وابن الزينة الناعسة بت زيد العجاج رجال

وزالت الغشاوة عن عينيه فى رواية الحاج عبد الظاهر ، فهو تعرف على جميع الاطفال فردا فردا والجاز تراقب الموقف كله .

وقد سعد أبوزيد كثيرا . فزالت الغشاوة عن عينيه واستعاد بصره . واستعاد قيادته ، ولم يبق إلا أن يعرف العدو .

ويروى عوض الله لحظة من لحظات تذكر أبى زيد لحياته وتحسره على الشباب وهو يسلم على الأيتام ، فهذه لحظة حاسمة يحتاج فيها لشبابه الذى يتمنى أن يشتريه لو يباع ، ولفرس مثل شهبة الأمير دياب ليحارب بها ، وامرأة مثل عالية فبغيرها يصبح الشباب ضياعا ، وكان يتمنى أن يكون مبصرا وشابا ليأخذ بالثأر من دياب ، وبين الفرحة والألم استعاد أبو زيد بصره :

يقول الأمير أبوزيد
فاح الكبر ، ضاع النظر
وجسمى ابتلا بوجاع
كنت أملا أنا
أصبحوا الصبايا مرد واقتناع
يامين يبشرنى ، يامين يقول لى
ليه سوق الشباب ينباع
أشترى شبابى وشباب عاليه
وشهبة الأمير دياب
شباب بلا عالية وسط الصبايا يعيش ضياع
فتح الأمير أبوزيد بذلك قدرة الرحمن
فتح وراح الغشاشة
وراح الغشاشة بإذن الكريم الذى لاينام

وتجمع الروايات بعد ذلك على أن الأيتام تعرفوا على دياب كما تعرف عليهم دياب فى حومة الوغى ، ويظل دور العمة الجاز فى الدفاع عن القبيلة والمحافظة على تقاليدها خالدا فى نصوص السيرة ، وبخاصة فى تربيتها لأبناء القبيلة الأيتام ، والقيام بدور التعرف بينهم وبين عالمهم الذى تركوه ، فهم يقفون بجوار بطلهم أبى زيد ليواجهو عدوهم دياب

ويختلف تعرف عبد الوهاب بنفسه وبعالمه كثيرا عن تعرف الأيتام وغيرهم من أبطال السير ، فتعرفه كان بواسطة قوة كونية . كانت وسيلة الإنسان لتعريفه بنفسه .

لقد تدخل العلم وَعَيْنُ الحقيقة والحلم فى التعريف بعبد الوهاب ابن ذات الهمة .. لقد عرف الحارث أن له ابنا من ذات الهمة عن طريق جارية كانت تحب أحد غلمانه ، ولم يكن على علم بأنه حى ، فقد كان عبد الوهاب مخفيا أمره عن الجميع . وقد أبلغت الجارية عشيقها أن ذات الهمة أنجبت أبنا أسود اللون من أحد العبيد وتدعى أنه ابن الحارث ، وقد أخفته عن الناس .

وائتمر الحارث مع الجارية أن تخبرهم ساعة أن يكون الغلام نائما بجوارها . وحين أقبل الليل الداجى ومضى القليل منه ، ومع إشارة الجارية للحارث وأبيه وجماعة من أكابر الحى ومن أجتمع إليهم ممن يريد هتك ستر الأميرة ومن تصفهم السيرة بأنهم شياطين اجتمعوا إليها وطلبوا منها أن تريهم ابنها . فأيقظت عبدالوهاب النائم إلى جوارها ، وقدمته إليهم وقالت : هذا ولدكم .

يلتقى الأب بأبنه والجد بحفيده فى لحظة تعرف حاسمة . الأب أبيض اللون . حسن الوجه ، والأم أجمل النساء وجها . وأصفاهن بياضا ، ساطعة لامعة ، والطفل أسود عميق السواد كأنه من أبناء النوبة . لم يشفع له أن له قلبا ، لو وضع منه وزن درهم على قلب أسود فى الدنيا لكان يرى أبيض نقيا ، وبدا التناقض بين وجه الأب ووجه عبد الوهاب ، كما بدا بين وجه الأم ووجه الأبن ، ولما رآه الناس وبدا لهم هذا التناقض ضحك الجد ظالم حتى استلقى على قفاه وامتشق الحسام ، يريد أن يقتل الأم فجرحها ، كما أراد الأب فى لحظة التعرف أن يقتل الطفل لولا أن الطفل تراجع من أمامه ، غير أنه جرح وسال الدم منه . وتحدد موقف الأب من الأبن كما تحدد موقف الأبن من الأب . ليحمل نبوءة المستقبل أو إرادة الطفل ، فقد أقسم الطفل بالله لئن كانت له حياة ليقتلنه .

تسامع الناس بالقصة ، ودخل عليهم الأمير عبد الله أمير القيسية فسئل أن يحكم فى القضية ، ووقف الأب غاضبا كيف ينسب هذا الأبن له . وأخذ يتوعد الأمير إذا لم يحكم فى صالحه فإنه سيتجه إلى أعدائه ويعتنق المسيحية .

فأحكم بيننا ياخير عدل
فقد حل المصاب بما يصيب
وإلا سرت نحو الكفر ابغى
مقالهمو ويعلوه الصليب
(السيرة م/٢/ج/٨/٢٢٢)

طورت كلمته الصراع بينه وبين ذات الهمة فقد أمتد إلى الموجودين ، وانقسم الجمع قسمين : قسم معه ، والآخر مع ذات الهمة . تعجب من وقف فى جانب الأب من أن يكون المولود أسود وأمه بيضاء تسطع وأبوه أشقر أسطع . أما من وقف فى جانب ذات الهمة فهم يعرفونها صالحة زاهدة تسجد لله وتدافع فى سبيله ، فالله يخلق الأبيض والأسود والأبقع وكان رأى ذات الهمة :

وأن كان هذا الطفل قد جاء أسود
فصنعة ربى عندها يوقف الفكر
(٢٢٤)

ورأى ظالم أن فى دعوى نسب عبد الوهاب إليه إهانة للأب وفضيحة بين الناس لاتغتفر .

أى عذر لما وقد افتضحنا
عند أهل الانساب والأقرباء
(ص ٢٢٣)

وأصبح واضحا أن الصراع بين القريتين يكاد أن يحتدم لولا تدخل الأمير عبد الله أمير بنى سليم ، وفرق بينهم الظلام ورجعت كل طائفة إلى خيامها .

ولقد تعرف الطفل على وضعه ، وأدرك أنه ابن غير مرغوب فيه لا

يتعرف عليه الأب . وتشفق عليه الأم من هذه الفتنة فهى تخشى أن تصيبه أول من تصيب ، وتتمنى لو أنها لم ترزق به وتدعو الله أن يصبره .

نضج عبد الوهاب نضج الكبار ، وكان يبكى خوفا من الله العلى القدير ، قد برزت عبقريته العقلية والجسدية ، وظهر واضحا أن عقله أكبر من عمره الزمنى بكثير ، فعبر عن تعرفه لأزمته بأن الله قد خلقه أسود اللون . وعبر عن إيمانه بالله بأن ذلك لأمر سبق فى علمه ، فلا اعتراض عليه وأنشد :

فإن أك أسودا فالقلب منى
عليه من البياض ضيا نهار
وليس اللون فى الأنساب
إذا ما كان فى فعل الفخار
وليس الفخر إلا فى صلاح
ليوم البهث فى يوم القرار
(ص ٢٢٧)

ولم يكن ذلك نهاية الأزمة بين الحارث وذات الهمة أو بين الأبن وأبيه ، وإنما كان ذلك بدايتها . ففى اليوم التالى أرسل الأمير الى ذات الهمة فذهبت إليه ، وأقسمت أن هذا الغلام هو ابن الحارث . وبدا واضحا أن الأمير يصدقها . وأراد أن يصلح بينها وبين الحارث فرفضت مؤكدة أنها لن تقبل أن تعيش معه تحت سقف واحد ، وهو يعلم أن الحارث يحبها حبا شديدا ، فهى برفضها قد أغلقت الباب أمام الحارث ليعترف بابنه . ولذلك استمرت المواجهة بين الحارث وذات الهمة حول قضية نسب الطفل إلى أبيه ، فالأم تصر على أن الطفل ابن الحارث وهو يصر أنه ليس أبنه ، فارتأى الأمير أن يحسم الصراع بتحكم (القافلة) والحكماء وعلم مكه ، فيذهبون إليهم ، فإن قالوا إن هذا ابن الحارث لزمهم وتنطفىء الفتنة . وإذا قالوا إنه ليس أبنه فإنه سيدبر تدبيرا آخر يرضى الكبير منهم والصغير ورضى الجميع بذلك .

بدأت رحلة التعرف الأولى بين عبد الوهاب وأبيه إلى العلماء وخصصت السيرة من العلماء والحكماء وأهل القافة . والقافة كما فى لسان العرب (مادة : قوف) : "جمع قائف وهو الذى يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه" فهى رحلة مع العلم الذى يعترفون به وهو علم القيافة .

ذهب الجميع ، اتباع الأمير ورجاله ومظلوم ورجاله وذات الهمة ووالدها ورجالهما يسير معهم عبد الوهاب . وفى الطريق تآمر ظالم وابنه الحارث مع رجل قاطع طريق تذكر السيرة أن العرب يسمونه شيطان الحجاز وعفريت البر والمغار . وساقا إليه النوق والجمال ، مقدم ثمن لقتل الأبن وأمه .

كانت ذات الهمة يقظة ، فظلت ساهرة تدور حول رجالها تحميهم من غدر الغادر ، وفى الغد أقتحم غاشم قومها . وإذا فارس معه أكثر من خمسمائة فارس يتقدم نحو الغاشم . يطلب منه أن يتقى الله فى دماء المسلمين ، وكان هذا الفارس هو الأميرة ذات الهمة نفسها ، فقدم لها كباشا أحد عبيده الأقوياء فطعنته بالرمح فى صدره ، فطلع السنان يلمع من ظهره ، ولما رأى غاشم ذلك منها أحبها وطلب من الحارث أن يطلقها وشهد بأنها حرة كما شهد لابنها .

أحارث طلقها فقد عظم الأمر
وما لى عنها بعدها فعلت صبر
وليس سواد الأبن مما يعيبها
وماهى إلا حرة ظاهرة الطهر
شهدت لها أنى أراها نقية
وماهى الا حرة وابنها حر
(ص ٢٣٣)

واتفق الحارث معه أنه إن ظفر بها غاشم طلقها وإن لم يظفر بها فكلاهما فى العجز سواء . ورفضت ذات الهمة عرض غاشم بالزواج

مع أن العرض كان ينفى عنها تهمة الزنا ، وحددت موقفها فهى لن تتزوج ، لأنها تتفرد بخدمة ربها وطلب الآخرة ولن تركب الخيل لفخر ولكن للجهاد فى سبيل رب العباد . فأرسل إليها هدية سنية مما كان ينهبه من مال الحجاج ، كما أرسل أليها ظالما والحارث موثقين ، ومع ذلك رفضت عرضه ثانية فغضب ولم يعد بينهما إلا القتال .

واستطاعت ذات الهمة أن تقتل هذا الفارس الصنديد ، وغنمت وقومها أمواله وأموال قومه . ومع ذلك رفض الحارث أن يعترف بابنه وأصر والده أن يدخلوا بيت الله الحرام حتى يفتضح أحدهما فى الأحكام ، والشيطان عقبة ينصح بضرورة البقاء حتى يظهر الأمر ويهتك أصحاب الفضائح .

كان الموقف صعبا على والد ذات الهمة ، فقد سأل ابنته حين وصلوا إلى مكة أن تقول له الحقيقة فهو يخاف الآن من الفضيحة ، وقد أصبح الموت عليه أهون مما يحدث له .. فتألمت ذات الهمة من موقف أبيها ، كيف يشك فيها ، ورأت أن الموت أهون عليها من شكه .

طافت ليلة بالكعبة وهى تتضرع إلى الله أن يبين الحق ويظهر حتى أصبح الصباح ، وأتوا بالقافة وعلى أكتفاهم الأبراد اليمانية وقد حضر من قدم معها ، وأتت ذات الهمة وقد التفت فى إزار ، فحدثتهم بقضيتها وحدثهم الحارث بقضيته ، اقسم شيخ القافة بالله أن يحكم اليوم بالحق ولا يستعمل إلا الصدق ، ثم إنه قال: الحمد لله المتعال عن الشبيه الذى ليس له عديل ولا شبيه . معاشر الناس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش . وهذا الولد للحارث من جهة الوجه ، وإنه دخلت عليه الأفكار لأجل سواده وتغير لونه وأضطراب كونه ، ثم اقسم بالله العظيم أن هذا الصبى

ولد الحارث لأن عينيه تشبهان عينيه . وكذلك المعاصم والشمائل والكفوف والأنامل والأطراف .

ولما سمع الحارث من القافة ذلك زعق وعبر عن شكه فى صدق الرجل وأنه مخرف . وأصبح واضحا أن قضية تعرف واعترافه بعبدالوهاب قضية عناد .

كان شيخ القافة نقى الشيبة ، فلما اسمع كلام الحارث طلب أن يبسطوا بسطا من الرمل . فأحضروها فى الحال . وطلب أن يمشى الحارث عليها ومعه عشرة من الرجال والطفل معهم وأخبرهم أنه حين يتم سيرهم على الرمال . قادر على أو يتعرف على والد الطفل من بين أقدام الرجال العشرة . ومشى الرجال والصغير معهم دون أن ينظر اليهم الشيخ ، ثم أقبل شيخ القافة ونظر الى الأقدام وحرك رأسه . وأستطاع أن يتعرف على قدم الأبن وقدم الأب من بين أقدام الرجال .

وفرحت ذات الهمة وأبوها واتباعها من هذا الانصاف إلا أن الأب والجد وأتباعهما ازدادوا غضبا ورفضوا حكم الجماعة ، وأعلن الحارث أنه متبرىء من هذا الأبن وكذلك الجد ووصف عقبة الطفل أنه لقيط مثله مثل الكلاب :

ليس عبد الوهاب منا بشىء فاسمعوا انتم القول الصواب
فقد صح عندى أنه لقيط بين الاصل مثله كالكلاب
(السيرة ص ٢٤٧)

وبرفض الرجال الثلاثة حكم علم القافة ، كان عليهم أن يتجهوا الى صاحب الكشف .

● ● ●

وكان رأى الحكماء أنهم إذا كانوا قد رفضوا حكمهم فهناك من يحكم الحكم الحق وقد ورث القضاء عن أبيه وجده وهو إمام جعفر

بن محمد الصادق فهو أهل بين النبوة ومعدن الفتوة . ويأمر بالمعروف ويكشف الكروب ويغيث الملهوف . وافق جميع أهل مكة على هذا الرأى وأجمعوا عليه فما لهذه القضية سوى هذا الإمام ورضى المتخاصمون بذلك ، وحملوا الطفل عبد الوهاب .. وكان يدرك ماحوله وهو يعيش أحزانا تعلو أحزان البشر ، ويبدو أنه كان يختزنها داخله . أما أمه فإنها صابرة لما يحدث محتسبة بالملك العلام . حتى ظهر الإمام الصادق وظهرت على الناس هيبته فصمت الناس ولم يتكلم أحد . قدم العرنوس للإمام الطاهر وصعد عليه فرمت الأميرة نفسها تحت الفرس وهى تناديه يابن المشاعر الحرام والصفا والمروة والمقام الأعلى . ابن المرتضى وابن العروة الوثقى ومن حبهم شفى على طول المدى تسأله أن يأخذ بيد مظلومة قل ناصرها وكثر حاسدها وشك فيها أبوها ، وهى تقسم له بحق البيت الحرام والركن والحجر ثم المقام مادناها سوء ولاهم قلبها بارتكاب آثام وذنوب . وقام الحارث مضادا لذات الهمة يعرض قضيته بقلب ملىء بالحقد ويهدد أنه إذا حكم لها فسيذهب الى الروم :

فإن حكمت بجور إننى رجل
أمضى الى الروم مرتدا عن النعم

أما والده فقد عزز كلام ابنه وزاد فى توضيح موقفهما بأنهما سيصبحان نصارى إن حكم بغير ما يريدان .

ولن حكمت (لنا) فنحن بأسرنا
نمضى نصارى بعد ظلم زائد

وتعرف الإمام جعفر على الطفل عبدالوهاب ، وسأل الإمام الحارث إن كان قد أتى زوجته وهى حائض فأجاب بالإيجاب . وكان رأى الإمام أن حكم الله نزل الأبض من الأسود والأسود من

الأبيض فلا يصعب على الله ولا ينفذ من قدره أن تتبدل الألوان فلا يستطيع غير الله أن يجعل الأبيض أسود فأمره بين الكاف والنون يقول للشيء كن فيكون . خلق عيسى بن مريم من غير أب . ومادام الرجل قد جامع زوجته وهى حائض فالغلام يأتى أسود اللون ، وذلك الحكم يقيسه الصادق على موقف جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد حمل اليه غلام أسود أمه وأبوه أبيضان فحكم بأنه ولدهما وذكر أنه يحكم بحكم جده ؛ فإن الرجل إذا واقع زوجته والدم أسود محتقن فى أول الحيض جاء الولد أحمر اللون ، وإن واقعها عند انتهاء الحيض وصفاء الدم جاء الولد شبيها لأبيه . فإذا كان الحارث قد واقع زوجته وهى حائض ، والمستحاضة دمها أحمر ، والحيض أسود والنطفة بيضاء ودم المرأة أغبر فالولد ولد الحارث وعليه إن شاء أن يقربه وإن شاء يبعده . وشاء الأب أن يبعد الابن فلا تعرف ولا اعتراف وهو من الغيظ يريد أن يكيد فيرفض أن يعرف وأن يعترف ، وحاول أن يفضح ذات الهمة عند الخليفة المهدى وطعن فى رأى الإمام الصادق معلنا أن شد الزنار والمقام فى بلاد الكفر خير من الذل والشنار .

ويتدخل الحكم عند الخليفة ويتدخل الحلم لينصف عبدالوهاب وليعرف الأب بحقيقة ابنه ، فقد أعيدت الحكومة مرة ثانية أمام المهدى ، وكان المهدى قد أصدر حكمه فى هذه القضية قبل وصولهم ، فقد شهد على صدق المرأة وأحقية الطفل بنسب أبيه هو محمد صلى الله عليه وسلم . فقد ذكر المهدى أن ابن عمه أتاه فى المنام وأخبره بخبر المرأة وابنها وذكر له نفس الحدث الذى ذكره الصادق ، وكان حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام مع ابن عمه عن الغلام ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يشعر بشقاء الطفل الذى تحركه الأيدى متهمة إياه بأنه لقيط ، فقد كسر قلبه ، وأصابه الشقاء فى الدنيا وأنه مظلوم متهوم بالزور والبهتان

والعدوان . وقد أمر الرسول خليفته فى الأرض أن ينصره على عدوه حين يحضر بين يديه .

كانت هذه الحكومة هى آخر أو خاتمة المواقف السلمية بين الجد والأب وبين الأم والابن ، فقد حدث انفصال لا رجعة فيه بعد ذلك ، لقد رفض الجد ظالم حكومة الصادق والمهدى ورأى أن العار قد أصابهم بإضافة هذا الابن اليهم وأن إبعاد هذا الطفل عنهم لن يغير من العار الذى أصابهم شيئا ، ومابقى له بعد موقف الخليفة منه إلا حنا ومريم والصليب ، وقد امتلأ حقدا ليس على ذات الهمة وابنها فقط وإنما على كل العرب . وقرر أن يدك بلاد الحجاز فى هذا العام دكا ويسفك دماء المسلمين سفكا .

وقد وقف الابن فى المعسكر المعادى تماماً لهذه الفكرة ووقع له الخليفة بإمارة بنى كلاب وهو مازال فى عامه السابع وجعل له ولأمه قلاع ملطية فى الثغور المجاورة للحدود بين العرب والروم . وعبدالوهاب يتسلم منصبه من الخليفة مجاهدا يجاهد أعداء العرب والمسلمين .

كانت هذه المواقف التى تجعل الأب فى جهة والابن فى جهة أخرى تصعد المواجهة بينهما ، فلم يعد الصراع صراعا حول التعرف على الابن والاعتراف به وإنما أصبح الصراع حول العقيدة ، مما قطع وشائج الدم تماما وروابط القربى . ولم يعد ممكنا أن يتم التعرف بين الابن وأبيه بأى طريقة من طرق المعرفة سواء أكانت معرفة حسية أو حدسية . ولم يبق إلا السيف ليكون حكما بينهما .

وكان واضحا من الأب أنه لا يهتم من المسيحية أو الإسلام سوى بقتل ذات الهمة وولدها . وأيا ما كانت دوافعه فإن كليهما أصبحا متقابلين فى الصراع ، وأصبح طريق اللقاء بينهما مسدودا لا يمكن فتحه ، كما لا يمكن إيقاف الصراع بين الابن المعذب

الذى رفضه الأب وبين الأب الذى أنكرته الحبيبة ثم أنكره المجتمع .

تتابعت الأحداث بعد ذلك ، فالأب فى جانب والابن فى جانب آخر . يقف الأب مع الأعداء ويقف الابن مع قومه فى ذلك الصراع الرومى العربى الطويل وقد خرج العرب لملاقاة الروم . وفى العرب مظلوم وابنته وحفيده ، وفى الروم ظالم وابنه الحارث .

وفى البداية التقى الأخ بأخيه ، التقى ظالم بمظلوم وكل الحقد يملأهما فتضاربا على الجوانب والدرق ، وطلع عليهما الغبار ساعة من النهار وحين انكشف الغبار كان ظالم قد قتل مظلوما . أراق الأخ دم أخيه وأصبح بين ذات الهمة وعمها جدار جديد هو دم أبيها . فأرادت أن تذهب لملاقاته فمنعها الابن وذهب بنفسه لملاقاة جده . وقد أعطاه الجد سببا فى أن يواجهه وأن يقتله دون أن يشعر بأسف أو ندم ، واستمرا فى الضرب والطعان والإقبال والإبعاد ، وجرى بينهما ما يشيب الشباب ساعة من النهار فضايقه الحفيد ولاصقه ثم طعنه فى صدره فوقع على الأرض قتيلا .

رأى الحارث الأب ما حدث لأبيه فالتقى بابنه وأعطى ابنه كل الأسباب لقتله ، فهو يفخر بدينه الجديد ، ولمزه بأنه ابن العبد مرزوق وبإمعانه فى إنكاره لابنه ساعة القتال ، انتزع من قلب الابن الإحساس بأبوته . وأخذ الغضب يأكل الابن من تصرف أبيه ، ولم يعد يريد منه أن يتعرف عليه أو أن يعترف به ، وإنما أصبح يريد قتله . ولم تصور السير موقف حقد بين أب وابنه مثلما صورت سيرة ذات الهمة هذا الموقف وأعطت لكل منهما الأسباب القوية التى تدعو لقتل الآخر ، فالجد أنكر الابن وتنصر وقاتل فى صفوف الأعداء ثم قتل أخاه ، والوالد أنكر الابن وتنصر وقاتل فى صفوف

الأعداء وهو يشاهد والده يقتل بيد ابنه فيتجه نحوه ليقتله فيتصدى له الابن الذى يملك دوافع عميقة لقتل الأب فى هذه المواجهة ، ودارت معركة ضارية ضاعت فيها عواطف الأبوة والبنوة وأخذا فى الطعان والضراب وجرى بينهما ما يشيب الشباب . وعندما نادى الحارث يستنجد بالمسيح أن يعينه على ابنه الذى يسميه بالبغل الأسود الذى يزعم أنه ولده ، تطرق الكلمات سمع عبدالوهاب فيرى كفر أبيه وطغيانه فيستولى عليه الغضب ، وإذا كان الأب يستعين على ابنه بالمسيح فإن الابن يستعين على والده بالله فيناجى ربه مناديا :

يامن في ملكه احتجب ، ورفع السماء بغير عمد
ورسي الجبال بغير سند ، وليست له صاحب ولا ولد
وبحق من ركع لك وسجد .
أسألك أن تجدد لعبدك الحيل والقوة والجلد .

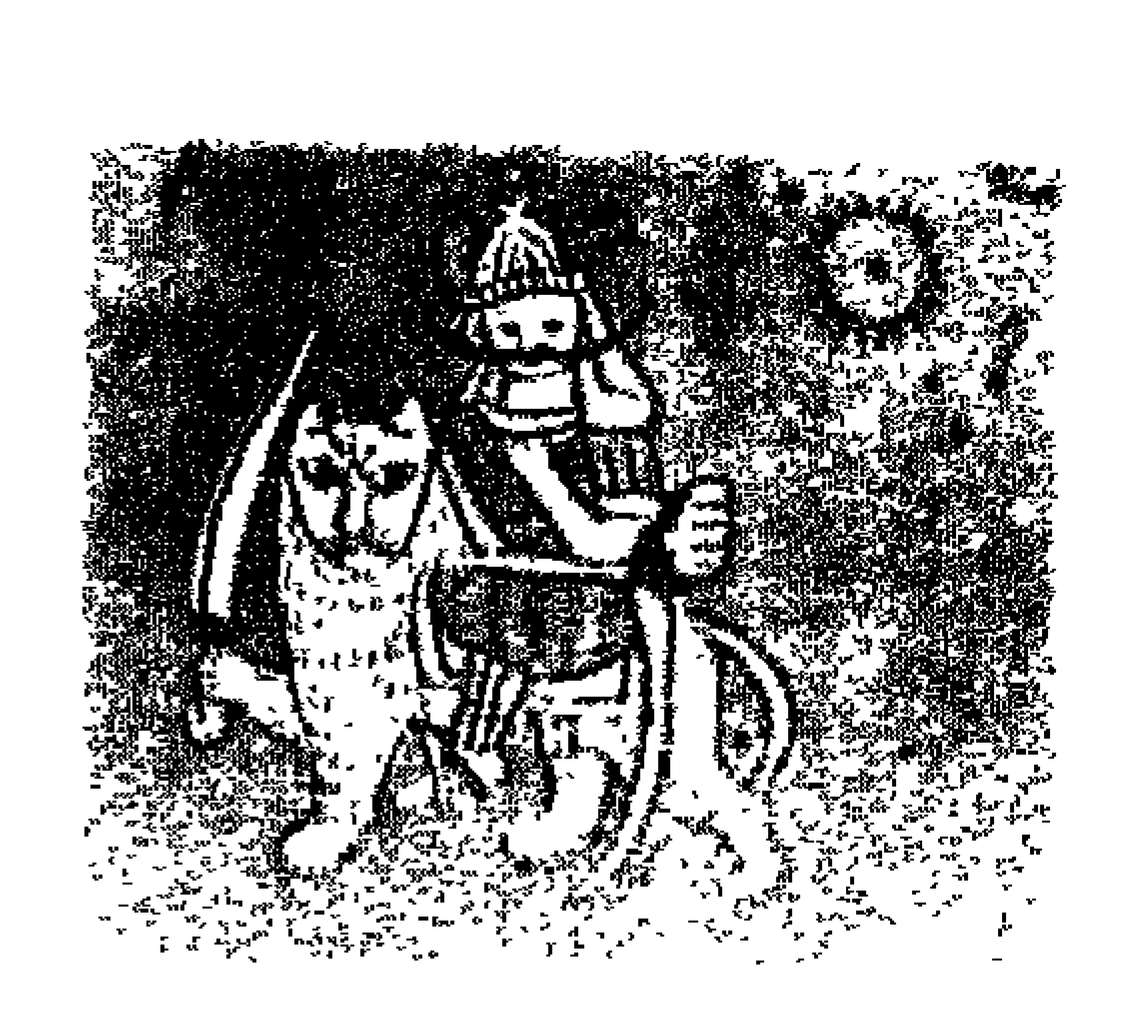
ويشتدان بعد ذلك فى الضراب ، فانطبقا على بعضهما البعض انطباق الغمام وارتفع صياحهما حتى أذهل الأنام ، ثم اختلفت بينهما طعنتان قاتلتان واصلتان صائبتان فذتان ، فأما طعنة الحارث فإنها وقعت فى خاصرة عبدالوهاب وكانت فى الجلد وأما طعنة الابن فجاءت فى صدر الأب وخرجت من ظهره . ومال قليلا . وعاد الابن من الميدان ودمه يسيل ، وقد أمسك جرحه بيده حتى التقى بوالدته . (ص ٣٢١)

اختار الراوى أن يكون شكل اللقاء الذى تم بين الجد والابن وبين الحفيد وقتالهما ليس للوصول إلى التعرف وإنما لتوقيع العقاب على الظلم الذى أوقعاه بالحفيد ، ويكون انتصار الابن عليهما اعترافا كونيا بشرعية ميلاده .

والرواية تقدم أبطالا خرجوا من صلب الصحصاح المحارب الذى قضى شبابه محاربا يقود جيوش المسلمين فى الثغور ، فلم يجعل أحدا من أبنائه يقف ضد موقف مجتمعه وضد ماعاش له دون

عقاب ، ولاتترك الرواية عقابهما لأحد من خارج الأسرة ، وإنما تجعل الحفيد القوة الباقية من الصلب القديم هى أداة العقاب ، ليصبح هذا الموقف المأساوى الكبير المثير من المواقف المتفردة فى السير الشعبية .

● ● ●



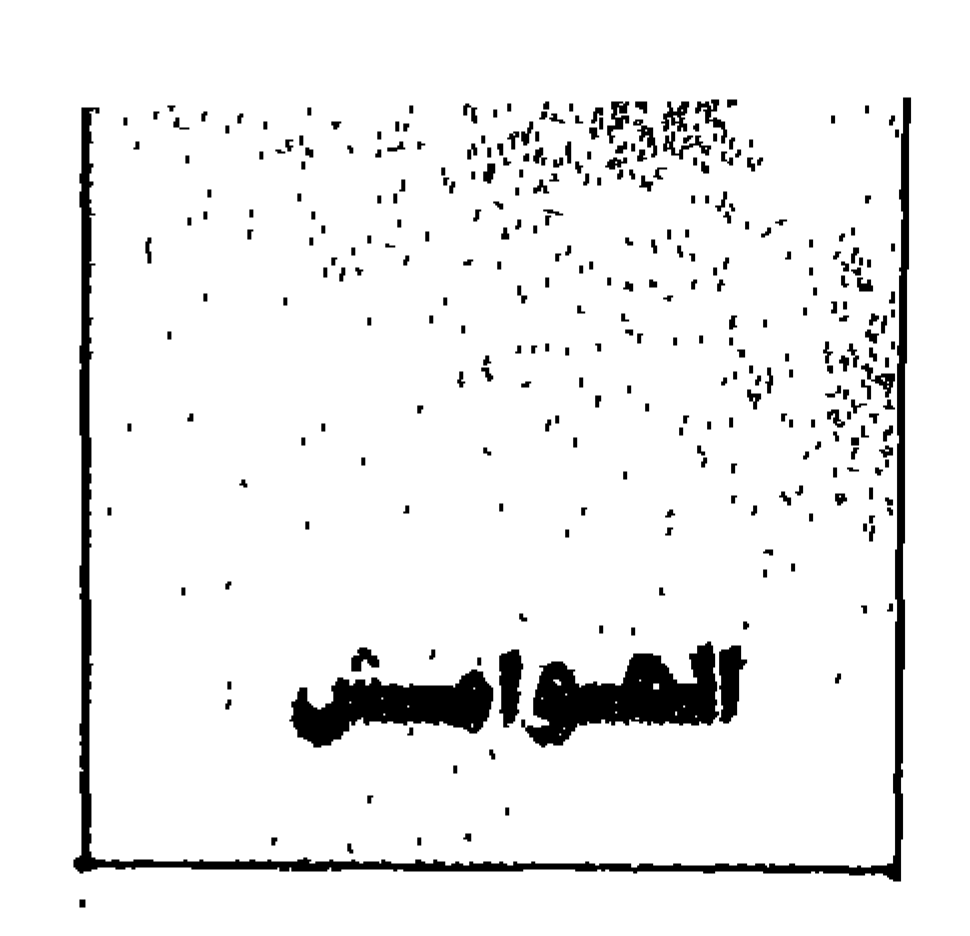


حاول البحث أن يتناول حلقة الميلاد فى السير الشعبية ووحدة موضوعها ليتكشف وحدة فى بنائها ، فهى تسير فى سبع حلقات مترابطة المصادر ، وهى عن الراوى ، والرواية ، والنبوءة ، ونسب البطل ، ومواليده ، فغربته واغترابه ، ثم الحلقة الأخيرة وهى التعرف والاعتراف .

وتوقف هذا البحث عند التعرف والاعتراف لا يعنى نهاية البحث فى هذا الاتجاه . فهناك جوانب أخرى يحاول الباحث أن يتمها ، وهى مرتبطة ارتباطا تاما مع مواليد البطل ، فالمواليد هو الفصل الأول من فصولها ، يتبعه الفصل الخاص بالعبور ، وهذا الأخير متداخل إلى حد كبير مع التعرف والاعتراف ، ثم البطل والمصير ، والرابع البطل والمرأة ، والخامس البطل امرأة ، والسادس الأسطورة وبنية الحدث فى السيرة ، والسابع لغة السيرة . وكذلك لا يمكن اغفال دور الفرس ليكون واحدا من فصولها .

وإذا كان المتبقى للباحث يمثل الجهد الأكبر مما تم فى دراسة السيرة ، فهو لا يطمع فى أن يقوم به بمفرده وإنما يتمنى أن يشاركه فى تحمل هذا العبء فريق عمل ، إذ السيرة مازالت الكنز الذى لم يكشف عن قيمته حتى الآن .

ولا يتصور الباحث أنه أغلق باب الموضوع ، فمازالت هناك جوانب كثيرة فى حاجة إلى الدارسين الجادين الذين يمكن أن يقوموا ببحثها ودراستها وهو نفسه يحاول .



(١) يرى دى بور أن "التفكير السامى يقوم على نظرات فى شئون الطبيعة متفرقة لا رابط بينها ، ويقوم بوجه خاص على النظر فى حياة الإنسان ، وفى مصيره ، وإذا عرض للعقل السامى ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة الله التى لا يعجزها شىء ، ونحن نعرف هذا الضرب من الحكمة فى العهد القديم . ويدل على تكوينه لدى العرب ماجاء فى التوراة من قصة ملكة سبأ وما يحكى عن شخصية لقمان الحكيم مما هو وارد فى المأثورات العربية" . (تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١١١)

ويرى جورج جيكوب أن الإسلام كان يقف ضد الدراما وأى شىء خلاق فى الفن العربى وهو يعزى ذلك إلى تأثير الإسلام على سكان المنطقة . (History of Theater, P. 11)

ويقلل نيكلسون من شأن القصص العربى بإنكاره أن الأدب العربى لم يبدع ملحمة شعرية كبيرة ، وكل ما أبدعه كان قصصا نثرية ، وهى تكاد تقترب من الملاحم إلا أنه من المستحسن أن تسمى قصصا تاريخية" . (Literary history of the Arabs, P. 3 e 5)

(٢) يذكر العقاد أن العرب كانوا قبائل رحلا يؤمون المدن فى مواسم تتقسمها العبادة والتجارة والخطابة "فائتمر التاريخ والإقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال" . (الفصول ، ص ١٤٠)

ويرى أحمد أمين أن خيال العربى محدود وغير متنوع "وقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته وحياة خيرا من حياته يسعى وراءها . لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد ينتقى منه معنى جديدا ، ولكنه فى دائرته الضيقة استطاع أن يرود كل مذهب" . (فجر الإسلام ص ٢٣)

أما غنيمى هلال فيذكر أن الأدب العربى "لم يكن فى قديمه للقصة شأن يذكر ، وكان لها مفهوم خاص لم ينهض بها ولم يجعلها ذات رسالة اجتماعية وإنسانية ، على أن القصة فى الأدب العربى القديم لم تكن جوهر الأدب (كالشعر والخطابة والرسائل مثلا) بل كان يتخلى عنها كبار الأدباء لغيرهم من الوعاظ وكتاب السير والوصايا" . (الأدب المقارن ص ٢١٤ ـ ٢١٥)

ويذكر فى موضع آخر من المرجع نفسه أن " الذى لا مجال لأدنى شك فيه أن القصة العربية لم ينظر إليها قبل العصر الحديث على أنها جنس أدبى له قواعده ، أو له رسالة فنية أو إنسانية" (ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦)

يقف عبدالحميد يونس ضد هذه النظرة فهو يعجب من التعميمات فى الأحكام ويذكر أنه قد "وقع كثير من الباحثين فى الأدب العربى أو المتصدين لعوامل التأثر والتأثير بين الآداب العربية والأوربية فى خطأ دفع إليه التعميم فى الحكم وقياس أثر أدبى على أثر أدبى آخر ، فزعموا أن القصة العربية مقصورة على النثر ، وهم يقصدون بذلك القول غير الملتزم لوزن خاص أو قافية خاصة ولا أعتقد أننا محتاجون

لبيان مجافاة هذا القول للصواب إلى تصحيح التعريف"
(الهلالية ص ١٣٧)

ويقف فاروق خورشيد مدافعا عن العقلية العربية بأن إبداعها حورب من بعض العرب ومن كثير من المستشرقين . ويذكر أن النظرة الشاملة إلى أدبنا العربى التى ننظر فيها إلى تراثنا الأدبى من خلال النافذة التى فتحها أصحاب اللغة والبلاغة أرضت الأعداء التقليديين للشعب العربى ، فجهد أصحاب الاستشراق فى تثبيت معالم هذه الصورة ، وجعلها بكل تفاصيلها من المسلمات التى تصطبغ بالصبغة العلمية حتى يؤمن بها أبناء هذه الأمة العربية من أنها لا تعرف عقلية التحليل والتركيب وإنما هى عقلية تجريدية تغرق نفسها فى الجزئيات ولا تقوى على تصور الكليات وهو شعب يقتصر دوره الحضارى ـ كما يذكر المستشرق جوستاف جرونباوم فى كتابه (حضارة الإسلام) ـ على حمل الحضارة اليونانية القديمة إلى الحضارة الأوربية الحديثة دون أن تحمل هذه الحضارة حتى بصمات أصابع من حملوها" ولكن هذا الحكم لا يرضى أصحاب الفن العربى اليوم لأن التسليم به تسليم بتهمة تلصق بماضيهم فتنسحب على حاضرهم وتضم مستقبلهم ، ومن هنا كان بحثهم الدائب عن كل ما يثبت هذا الحكم الخاطىء المتعسف" . (أضواء على السيرة الشعبية ص ٨ ، ٩)

ويفرد عبدالحميد إبراهيم فصلا يؤكد فيه معرفة العرب للقصة وفى مواجهة التهمة يذكر "أن القصة واكبت الأمة العربية فى سيرها التاريخى . وفى كل عصر كانت أداة فنية تعبر عن حاجات العرب وتكشف عن ظروفهم التى كانوا يمرون بها" . (قصص العشاق النثرية ص ٢٨)

ولقد قدمت بردجت كونلى فصلا ممتعا بعنوان "الدفاع عن السيرة" ناقشت فيه دعوى جرونياوم ونيكلسون أنه ليست هناك ملحمة فى الأدب العربى . (Arab Folk Epic P. P 3 - 25)

وفى كتاب "العرب وفن المسرح" للباحث ذكر التهم التى وجهت للعرب ولم يحاول أن يدحضها لأن حقيقة الإبداع العربى تدحضها بسهولة (ص ٥ ـ ٧) .

وفى كتاب Origins of Arabic Theater للباحث أيضا تعرض بتفصيل أكبر لتهمة عجز العقلية العربية وتصديق بعض الباحثين العرب لها ثم اتهام الإسلام بأنه سبب ذلك . (P.p 8 - 9)

(٤) حاول محمد توحيد السلحدار فى ثلاث مقالات فى صحيفة "المقطم" أن يكشف عن سر إعجاب الجمهور بمسرحية "الأحدب" ، ويربط بينها وبين اقترابها من قصص البطولة التى تعود عليها الجمهور ، ويدلل على ذلك بأنه قد لوحظ ليلة تمثيل الأحدب عندنا للمرة الأولى أن حركة المقاتلة الكبرى فى فاتحة الرواية قد نبهت غريزة التوقى الذاتى وأثارت الحفيظة فى سواد الجمهور فتحمس لبطله ولما أمر بيرول بطرح لجاردير فى النهر ، فطرح هو بدله ، وحمل البطل على سرير عدوه إلى حيث أراد ، صفق الجمهور طربا لهذا النصر الغير المنتظر ، وكذلك تأثر فى جميع أحوال هذا البطل غالبا كان أو مغلوبا كأن النفوس المتجمهرة توهمته رمزا للأمن والفضيلة والحق وتوهمت التمثيل حقيقة ، وذلك كله من حصول الطرب وشدة الروح العاملة للروح الخاصة" . (المقطم ع ٧١٥ فى ١٩١٢/٨/٣٠)

(٥) قدمت كاترين أنيتا بيكر رسالة دكتوراه من جامعة أنديانا ، وقد اشتهرت هذه الرسالة ـ ساعة أن أصبحت فى ميكروفيلم ـ بين الدارسين وقد أبلغت أنها نشرت Cathryn Anita Baker, The Hilali Saga . Tunisian South . Indiana University 1978 .

وكذلك قدم بيتر هيث رسالة دكتوراة عن عنترة : السيف الظمآن : Peter Heath, The Thirsty Sword Structure and Composition in Sirat, Antar ibn Shaddad, Harvard University 1981 .

(٦) لم يكن شكرى عياد يتحدث بهذه الكلمات عن بطل السيرة ، وإنما عن البطل الأسطورى ، وقد استخدمته فى الحديث عن بطل السيرة لا لأن هناك ارتباطا بينهما فقط ولكن لأن بطل السيرة فى رأيى هو بطل أسطورى فى الدرجة الأولى ، وهذا ما أقوم ببحثه فى مشروع دراسة السيرة الشعبية ويؤكده هذا البحث .

(٧) تذكر دائرة المعارف الاسلامية أن الخضر فى الأصل لقب معناه الرجل الأخضر ، ثم نسى هذا اللقب على مر الأيام . وهذا يفسر لنا الصفة الثانية وهى الخضر (تشبيها بالنبات الأخضر) التى حلت محل الأولى فى مواضع كثيرة . (ص ٣٤٧)

وما تذكره سيرة حمزة من وصفه الإمام الخضر بالاخضرار فهو "الخضر الأخضر" يوضح أن علاقة الاخضرار لم تنس ، ولا حاجة لتوضيح الرابطة بين الخضر والاخضرار . ولقد ورث الخضر فى معتقدات العامة فى الشرق الأوسط كل ما يخص معتقدات الخصب والإخصاب ، وكان له دور كبير فى معتقدات المتصوفة ولقد وقف منه السلف مواقف شتى ،

حدد ابن حجر الكثير منها فى كتابه "الإصابة" وقد تحدث عن نسبه وما ورد فى كونه نبيا وما ورد فى تعميره والسبب فى ذلك . وذكر من ذهب إلى أن الخضر مات ، والأخبار التى وردت فى أن الخضر كان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعده إلى الآن . ومن نقل عنه أنه رآه وكلمه . (الإصابة ٤٢٩/١ ـ ٤٥٢)

ويورد فى الكتاب حديثا للنبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الخضر فى البحر واليسع فى البر يجتمعان كل ليلة عند الردم الذى بناه ذو القرنين بين الناس وبين يأجوج ومأجوج ، ويحجان ويعتمران كل عام ، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى قابل" . (ص ٤٣٢) . وهذا القول يجعل الربط بين الخضر خاجة الهندى واضحا ، فقد اتخذ فى الهند سمتا خاصا بأهل الهند ومعتقداتهم (دائرة المعارف ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩)

وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى "البداية والنهاية" الآراء التى قيلت عن اسمه ، وجميعها يقرنه بالخضرة والخير ، فذكر أنه إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء تفرد به ، كما ذكر الفروة عن الخطابى وأبى الخطاب أن الفروة البيضاء تعنى الأرض . وبذلك يكون هو مسبب الخضرة للأرض ، وقيل : إن الفروة الحشيش الأبيض ، ويعنى به الهشيم اليابس وهو يحوله إلى أخضر ، وقد ذكر عن مجاهد أنه قال : إنما سمى الخضر ؛ لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . (ص ٣٢٧)

وقد محص ابن كثير الآراء التى دارت حول الخضر واتخذ موقفا عقليا منها ، وقد ذكر كثيرا من الحكايات حوله (ص ٣٢٥ ـ ٣٣٧) مما أوردها فيما بعد ابن حجر وعلق عليها بأن

"هذه الروايات والحكايات هى عمد من ذهب إلى حياته إلى اليوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جدا لا يقوم بمثلها حجة فى الدين والحكايات لا يخلو أكثرها من ضعف الإسناد" . (ص ٣٣٤)

ومع هذه الخلافات التى بين العلماء حول الخضر فإن الرواة الشعبيين لم يختلفوا حوله ، فقد ساهم فى صنع حركة الأحداث لكثير من الأبطال مما جعل دوره يدخل تحت دائرة بحث خاص يعده الباحث حول "السيرة والأسطورة" .

(٨) فى النص (لنا) . ويبدو أنها خطأ مطبعى ، فالمعنى لا يستقيم والصواب (لها) .



المصادر والمراجع

أولا . المصادر .

- الأيتام ،رواية شفوية للحاج عبدالظاهر بالكرنك في صعيد مصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٨/٨/٣٠ م .
- الأيتام ، رواية شفوية لعوض الله عبدالجليل بالحجز بحرى ، مركز إدفو ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٤/٢٥ م .
- الأيتام ، رواية شفوية للنادى عثمان ، بالطود قبلى ، مركز الأقصر جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى ، فى ١٩٧٩/٤/١٠ م .
- مقتل الزناتى خليفة ، رواية شفوية لعوض الله عبدالجليل بالحجز بحرى ، مركز إدفو ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٤/١٨ م .
- مقتل الزناتى خليفة ، رواية شفوية للنادى عثمان ، بالطود قبلى مركز الأقصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٤/١٣ م .
- مواليد أبى زيد الهلالى ، رواية شفوية لعبدالسلام حامد بالأقصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى أول سبتمبر/ ١٩٧٨ م .
- مواليد أبى زيد الهلالى ، رواية شفوية للحاج عبدالظاهر بالكرنك فى صعيد مصر ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٨/٨/٢ م .

- مواليد أبى زيد الهلالى ، رواية شفوية لعوض الله عبدالجليل ، بالحجز بحرى ، مركز إدفو ، جمعها د . أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١٩٧٩/٣/٢٧ م .
- من أقاصيص بنى هلال ، رواية شفوية عن شيخ ليبى من جادو ، جمعها عبد الرحمن قيقة ، قدم لها ونقلها إلى العربية الفصحى الطاهر قيقة ، تونس : الدار التونسية للنشر ، ط ٢ ، ١٩٨٥ م .
- قصص أبى زيد الهلالى سلامة ، جمعها بترسن من عرب الشوا فى شمال نيجيريا ، ونشرها فى كتابه : Patterson, I. R., Stories of Abu Zaid The Hilali In Shuwa Arabs, London, 1930 .
- ألف ليلة وليلة ، تحقيق محسن مهدى ، ليدن : أ . ى . بريل للنشر ، سنة ١٩٨٤ .
- تغريبة بنى هلال ، القاهرة . مطبعة محمد على صبيح . (د . ت)
- سيرة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، القاهرة ، مكتبة الجمهورية : (د . ت)
- سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبدالوهاب ، القاهرة . مكتبة عبدالحميد أحمد حنفى (د . ت) .
- سيرة بنى هلال ، بيروت : دار الكتب الشعبية ، (د . ت) .
- سيرة الظاهر بيبرس . القاهرة : عبد الحميد أحمد حنفى (د . ت)
- سيرة عنترة بن شداد . القاهرة : مكتبة الجمهورية ، (د . ت)
- سيرة الملك سيف : القاهرة : مكتبة الجمهورية . (د . ت)
- قصة الأميرة حمزة البهلوان ، القاهرة : مكتبة الجمهورية ، (د . ت)
- قصة الأميرة ذات الهمة ، القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى ، سنة ١٩٦٢ م .
- قصة الزير سالم ، أبو ليلى المهلهل ، دار الكتب العلمية ، بيروت : (د . ت)

- قصة سيرة الإمام على بن أبى طالب ، لأبى الحسن أحمد بن عبدالله صبيح ، القاهرة : ١٩٦٤ م .
- قصة فتوح اليمن الكبرى الشهير برأس الغول ، القاهرة : مكتبة الجمهورية ، (د . ت) .

ثانيا : المـراجــع :

أ ـ المراجع العربية :

- إبراهيم ، عبدالحميد : قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى ، القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٢ م .
- إبراهيم ، نبيلة : سيرة الأميرة ذات الهمة ، دراسة ، مقارنة ، القاهرة ؛ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، (د . ت) .
- أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- الجهيمان عبدالكريم : أساطير من قلب الجزيرة العربية ، الرياض : دار أشبال العرب ، ١٩٨٠ م .
- الحجاجى ، أحمد شمس الدين : الأسطورة فى الأدب العربى ، القاهرة : دار الهلال ، كتاب الهلال ع ٣٩٢ أغسطس سنة ١٩٨٣ م .
- الحجاجى ، أحمد شمس الدين : العرب وفن المسرح ، القاهرة : دار الفصحى ، ١٩٨٤ م .
- ابن حجر العسقلانى ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على : الإصابة فى تمييز الصحابة ، مطبعة السعادة ، القاهرة : ١٣٢٨ هـ .
- حسانين ، فؤاد : قصصنا الشعبى ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٤٧ م .
- خورشيد ، فاروق : أضواء على السير الشعبية ، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة المكتبة الثقافية ، يناير ١٩٦٤ م .

- خورشيد ، فاروق ومحمود ذهنى : فن كتابة السيرة الشعبية ، بيروت : منشورات أقرأ . (د . ت) .
- دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية ، القاهرة : ١٩٣٢ _ ١٩٤٩ م .
- دى بور ، ب . ح . تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة ، القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٧ .
- ذهنى ، محمود ، وفاروق خورشيد . فن كتابة السيرة : بيروت سلسلة اقرأ ، ١٩٨٠ م .
- عبدالحكيم ، شوقى : سيرة بنى هلال ، بيروت : دار التنوير ، ١٩٨٣ م .
- عبدالحكيم ، شوقى : السير والملاحم الشعبية العربية ، بيروت ، دار الحداثة ١٩٨٤ م .
- عبداللطيف ، محمد فهمى : أبو زيد الهلالى ، القاهرة ؛ دار المعارف ، ١٩٤٦ م .
- العقاد ، عباس محمود : الفصول ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٢٢ م .
- عياد ، شكرى محمد : البطل فى الأدب والأساطير ، القاهرة ، دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٧١ م .
- القرشى ، أبوزيد محمد بن أبى طالب : جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ، تحقيق على محمد البجاوى ، القاهرة ، (د . ت) .
- ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، بيروت : دار ابن كثير ، (د . ت) .
- ليريك ، أليسون : روايات من تغريبة بنى هلال وحروب آل ضيغم ، الرياض : مطابع الفرزدق التجارية ، (د . ت) .
- ابن منظور الافريقى المصرى . ابوالفضل جمال الدين محمد بن

مكرم : لسان العرب . بيروت : دار صادر ، (د . ت) .
- النجار ، محمد رجب : أبوزيد الهلالى ، الرمز والقضية ، الكويت دار القبس ، ١٩٧٦ م .
- ابن هشام ، أبو محمد عبدالملك (ت حوالى ٢١٨ هـ) ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، (د . ت) .
- هلال ، محمد غنيمى : الأدب المقارن ، القاهرة : دار نهضة مصر ، (د . ت)
- يونس ، عبد الحميد : الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى ، المكتبة الثقافية ، القاهرة : دار القلم ، (د . ت) .
- يونس ، عبدالحميد : الهلالية فى التاريخ والأدب ، القاهرة : مطبعة جامعة القاهرة ، ١٥٦ م .

ب - المراجع الأجنبية :

- Abercrombie, L., The Epic., London, Mortin Secker .
- Connelly, B., Arab Folk Epic and Identity : Berkeley : Univensity of California press .
- Al Haggagi, Ahmed Shams : The Origins of Arabic Theater, General Egyptian Book Organization, 1981 .
- Metin . A. A., History of Theater and Popular Entertainment In Turkey . Ankara : Forum, 1963 - 1964 .
- Nickilson, R. : Aliterary History of The Arabs, Cambridge, Cambridge University Press, 1962
- Raglan, lord., The Hero, New York ; New English library, 1979
- Rank, O., The Myth of The Birth of The Hero . New York, Alfred A. Knopt, Inc., 1964
Tillyard, E. M. W., The English Epic and its Back Ground, New-york : Oxford Press, 1966 .

مواليد أبى زيد الهلالى سلامة

رواية عوض الله عبد الجليل

من الحجز بحرى ـ مركز ادفو

محافظة أسوان

جمع : د . أحمد شمس الدين الحجاجى

بتاريخ : ٣٧ /٣ /١٩٧٩ م

يامسعدك ياللى تصلى على النبى
نبى عربى على أمته بيسال
ياقلبى صلى على نبينا المنتسب
اللى سرى له جبرائيل فى ليلة رجب
أبدى وافنن على ملوك العرب
بقول تعتبروا العقول الزكاه
بقول تعتبروا العقول التمام
أمة نبينا الزين عليه السلام
قال الهلالى رزق أمين الرجال
بدى أنا اتزوج يامقادم هلال
بدى أنا اتزوج يامقادم هلال
ياكش تجينى بنت واللا غلام
قالوا الهلايل هم فرسان تمام
بنت الشريف قرضه من الناس التمام
نسبة نبينا المصطفى عليه السلام
بنت الشريف قرضه ملك فى حماه
شدوا الهلايل فى وسيع الجبال
رزق الهلالى والأكابر وراه
رزق الهلالى شيخ أكابر هلال
عمد على جده وراح له المكان
كانوا أماير فى حظ أهل الزمان
رآهم صوبوا على الديوان
عرقبلهم ناقه سمينه عشا
عرقبلهم ناقه وزادهم كرم
كرمه لخضره اللى جات م الحشا
دبحلهم ناقه وزادهم كرم
عند الشريف بلغو الهنا والمراد

قال الشريف قرضه مرحبا بالعرب
إيه ماطلبتم فيه على الله كفاه
بحضرتكم ضم البعيد والقريب
قال الهلالى ابن نايل أناجيتك مريد
القرب منك ياربيع المشاه
القرب منك ياربيع الضيوف
نسبك يزودنى شرف ع الصفوف
قال الهلالى نسبك يزودنى شرف ع الصفوف
قال الشريف قرضه أنا عاوز أربع تلوف
وخمسمية هايج ومتين كلاه
وخمسمية من خيار الخيول
وربعميه لجل شيل الحمول
دوله ودوله ياذوات العقول
دوله ودوله ياذوات العقول
كلوا طميعه للخدم والسعاه
كلوا طميعه للخدم والعبيد
فى مهر خضره اللى لقاها سعيد
وميتين حبشيه من أرض الصعيد
وميتين مملوك تجينا هناك
وميتين مملوك تاجى تسد الطلب
تخدم الاماره عالية الرتب
ومهر خضره فى المال خزنة ذهب
مهر أمها واسأل كبار العرب
لو كان بدك ياهلالى دايرع النسب
أنا ليلة الدخله عليا عشاك
أنا ليلة الدخلة عليا العشا
فى مهر خضره اللى جات م الـــا

إذا جابت مولود كبر واتنشا
أبوزيد يطلع فارس يكيد العدا
يزقى العزول حنضل بكاس الردى
قال الهلالى إحنا رضينا بدا
وان قلت شى تانى على الله كفاه
وان قلت شى تانى أقول لك وجب
حضروا القاضى وعدوا الدهب
صارت حليلته من وقتها من نساه
صارت حليلته بنت قرضه الشريف
سلطان على مكه وعرضه نضيف
شدوا لها هودج ملوكى ظريف
والبهلوان نصب جه حداه
والبهلوان راخر نصب عدته
نصب وفرجهم على صنعته
كل الاماره أدوه وابوها كساه
اتقدمت العربان ولا تأخرت
قعدت معاه سنه بكرت
وضعت شيحه بإذن الإله
وضعت وجابت شيحه بإذن الإله
وضعت وجابت شيحه وزاد الهنا
تقعد مع رزق فى حظ ودندنه
من بعدها قعدت حداشر سنة
متعوقه والوعد رايد بيه الإله
متعوقه والوعد رايد بيه الكريم الجليل
قادر على حكمه خفيف وتقيل
طلب ركوبه رزق الهلالى الأمير
يلقى الأماره والقرومة السماه

يلقى الأماره بولادهم أوكبوا
بالخير والعز والهنا أطربوا
ولادهم فوق الفراش يلعبوا
زى السبوعه فى وسيع الفلاة
زى النموره فى وسيع البطاح
أبواتهم زادوا الهنا والانشراح
لما نظرهم رزق الهلالى ازدادت بيه الجراح
عاود يكب الدمع جوا حماه
عاود يكب الدمع جوا الحمى
بكى وبل الخدود والمحرمة
إلا وأتت خضره دموعها قنا
إلا وأتت خضره الشريفة تبكى جفاه
ومن كتر ما كانت تموت فى هواه
ومن كتر ما كانت هواها عجيب
تبكى وتتصعب فى يوماً يغيب
قالت له قل لى أصل البكا ليه ياحبيب
يارزق تبكى ليه البكا إيش نباه
يارزق تبكى ليه ياكتير المقام
تبكى ياهلالى وليك دمع سال
قال لها ياخضره حصل لى كلام
ما قرم فارس إلا ابنه بيلعب معاه
ما قرم إلا ابنه بيلعب معاه ع الفراش
وبصيت لقيت نفسى بنيتهم بلاش
نزلت دموع خضره تغنى طشاش
من هرج رزق اللى طراها حداه
من هرج رزق اللى طرى هذا الجواب
كان عند خضره عقل فى الراس وغاب
إلا وأتت شمه بنت الحسب تحر الثياب

بخدود يحاكوا الورد مسّه الندى
دخلت وتلقى خضره متنكده
قالت لها ياخضره "أيا بنت عمى" مالك كده
لم ضع لكم ضايع ولا حد تاه
لم ضع لكم ضايع من الوطن عام
ليه بتبكى ياخضره وليكى دمع سال
قالت لها أياشمه حصل لى كلام
مزق صميم قلبى ودمعى يسيل
مزق صميم قلبى ودوب حشاه
على كسر خاطر رزق طول السنين
راح لقى بنى هلال بولادهم جالسين
عاود يقول آه من الدهر آه
عاود يقول ياهل ترى ربنا
رايد ليه بقطع الولد كام سنه
لما سمعته زاد بكايا أنا
والبين زقانى كاس وعاود ملاه
والبين زقانى كاس وعاده كمان
على كسر خاطر رزق بطول الزمان
بوجدى ياشمه ولا أطيق جفاه
بوجدى ياشمه من رزق الهمام
بوجدى ياشمه وحالى عجب
بابكى وذليله من قلة الولد
ودمعى ياشمه منى ذهب
رزق الهلالى ولا أطيق جفاه
بوجدى ياشمه ودمعى ذليل
دمعى هطل ع الفراش منى يسيل
إذا اشتكيت للجبل لجلى يميل
إذا اشتكيت للبحر يوقف بماد

يحزن عشاني ودمعي صدود
دمعي هطل ع الفراش بل الخدود
شمه تقول ياخضره ربي كريم يعطف يجود
اللي بيترك شي بيعيش بلاه
اللي بيطلب شي من الله ينول
لأنه بيتفول بكتر القبول
قالت لها قومي بنا واتركي الحمول
بكره نروح للنهر وننظر صفاه
ياخضره نروح للنهر ياأم الدلال
نشوف لك ميه شبيه الزلال
ولمت تسعين بيضه من صباية هلال
مشوا في طول خضره شبيه السعاه
مشوا في طول خضره وآتوا النهور
لقيوا زلال سايح وحوله طيور
لكن فيهم طير أسود سواده عكور
شتت جميع الطير وشال من حداه
شتت جميع الطير وخلاه شتات
أسمر في لونه جميع الصفات
شمه تقول اطلبوا يابنات
المولي يرزق العباد بلا عين تراه
المولي يرزق العباد بحال المبتدى
ويعلم بقطر النمل ودب الندى
خضره تقول اديني غلام أسود كيف الطير ده
لملكه تونس ووادي حماه
أملكه تونس بحد الحسام
من لجل يقولوا خضره جابت غلام
من الهلالي ابن نايل رزق موافي الزمام
يامن شفيت أيوب وطاب من بلاد

يامن رفعت إدريس لأعلى سما
يامن دعاك يعقوب وفتح من العما
يامن دعاك موسى كريم ياربنا
لما أتى فرعون وجيشه معاه
لما أتى فرعون وجيشه احترق
وضع عصايته فوق البحر المحيط اتفرق
ربى كريم ماله شريك ولا ولد
هو المولى بيعتلم بجرى المياه
ربى بيعتلم بما فى الافتقار
تسخر الريح والسحب والمطار
أسألك يامولاى بنور باهى الجمال
لأنى أجيب مولود يكيد العدا
لأنى أجيب مولود يكيد العدا
أبوزيد يزقى العوازل حنضل بكاس الردى
سبحانك يامولاى تعلم بحال المبتدى
اعشق جمال المصطفى
محمد نصلى عليه
اطَّلَبَتْ كل السرارى والخدم
من اللى بسط الأرض ورفع السما
من اللى بسط الأرض ومد البطاح
من صنعته البارى إلا الكرم والسماح
بنات الهلايل اطلبوا بالرواح
خضره الشريفة كان عقلها زل تاه
راحت على فراش المملكة مطرشا
جاها الهلالى رزق من بعد العشا
لبست حرير ديباج وجلست معاه
لبست حرير من الديباج كداه لبسها
رزق الهلالى طلب الوصل من يخبا

سعدت ورب العرش أرسل لها
بالطفل اللى بان وكاد العدا
بالطفل ده اللى بان وكاد الرجال
من صيت أبوزيد شرف هلال
فرحت أيا جدعان كبار وصغار
فرحت العربان جميعاً فى ناحيته
بالطفل ده اللى بان وكاد العدا
كانوا أماره فى حظ أهل الزمان
فرحت العربان وآتت ناحيته
فرحت العربان وأتوا جموع
واندقت الأفراح فى ليلة السبوع
قربوا على البطل أبوزيد وكشفوا القلوع
لقيوا الهلالى أسمر ولا جه لباه
لقيوا الهلالى أزرق بلون العبيد
لكن وجهه أحلى من العنب والزبيب
قال الأمير سرحان أمر الله عجيب
من رحمة البارى يستر على المذنبين
أمه وابوه بيض وهو الولد جه لمين
بقت مسبه والهلايل جالسين
ياحيف خضره تهوى عبد لابس عباه
ياحيف تهوى عبد ياجى من الجلب
قالوا شريفة من خيار النسب
لمن سمع بالقول عاد قال ده الحشا
لمن سمع بالقول عاد وقال يارجال
اسمعوا الحجة منى ومعنى السؤال
ابن الزنا كتلوا وموته حلال
لا خيرة في مولود ميجيش لباه
لا خيرة في مولود ياجى من الزنا

طلق خضرة يارزق تنول المنى
طلقها ياهلالى فى هذا السنا
وديك زغبية عليها كلام
واديك زغيبة عليها القول عجب
شواطع من فضه والمناطق دهب
لمن سمع بالقول رزق الهلالى اتغلب
حلف يمين واتق بفمه تراه
حلف يمين واتق وباع واشترى
طلق فراش السلطنه والمره
لما بقينا بين الهلايل معيره
حلف الأمير رزق الهلالى بفمه وتراه
لم عدت أقبل خضره ولا عاوز عيال
يشفعوا فى رزق كبار وصغار
اشفعوا فى رزق بيهم ما ارتضاش
سفه مقادمهم ورجعوا بلاش
إلا وجات شيحه بدمع العين طشاش
يابويا تظلم أمى ليه بلا عيب تراه
يارزق تظلم أمى ليه بلا عيب حقيق
أمى شريفه ما تعرفشى مشى الطريق
اعمد على خضره بواحد رفيق
انعم على خضره بحق الاله
انعم على خضره بحق واحد أحد
هو الذى يعتلم بحال الولد
لمن سمع بالقول صابه جلد
لمن سمع بالقول حنت عضاه
رزق الهلالى نده وقال يانجاح
بينده يقول يانجاح
اسمع القول منى ورأيى صلاح

خد الدبوس وسيربيه فى وسيع البطاح
وطوحه ع المال وعينك تراه
وطوحه ع المال وخلى عزمك صديق
خلى اعتمادك على ربك كريم ومجيد
محل مايخبط الدبوس وعينك تشوفه من بعيد
اديه لخضره ياعبد ليها جباه
ولا يصير ابنى البطل أبوزيد
وسط الفوارس "الهلايل" "العرب" معيبه
خد الدبوس نجاح وراح
قطب العمايم حوم وجاه
قطب العمايم نده وقال له يانجاح
اسمع القول منى ورأيى صلاح
حديلك تلت دعوات بإذن الإله
أديلك تلت دعوات منين تسير
أخد الدبوس قطب العمايم من بعيد
طوحه على المال والعين تراه
أيا سامعين ..
أيا سامعين .. صلوا على طه
أخد مال رزق ومال سرحان قسموا سواه
اتقسم أيا سامعين .. صلوا على طه نبينا الضمين
توكل نجاح فى الجبال يسير
قال ياملك أخد مالك ومال سرحان .. قسموا سوا
بشىء عجب وحياة نبينا الزين طه المنتسب
اسمعوا ياملوك العرب ع اللى جرا لخضره الشريفه بحق الإله
يشفعوا فى رزق الهلالى بيهم مارتضاش
سفه مقادمهم "العرب" ورجعوا بلاش
قال الهلالى خساره
رزق الهلالى ولا ارتضاش

قالوا الهلايل عاوزين جيد ياخد كراه
عاوزين لنا جيد من أرض النجاد
ياخد هدوم خضره وحتى الجهاز
ومن هنا يوديها لأرض الحجاز
كرمه للشريف قرضه دخلنا حماه
كرمه لأبوها اللى رحابه وسيع
ندهوا على القاضى وكان اسمه منيع
لمن سمع بالقول جاهم مستطيع
قالوا آدي اللى الناس تصلى وراه
قالوا آدى اللى الناس تريده إمام
قالوا معاه ولا نخلفوش معنى الكلام
نشّروا فى وسيع الخيام
مسكوا لهم بره الوسع فى الفلاه
مسكوا لهم بره الوسع فى الحماد
بعيد عنديهم فرسان ولا فيه بلاد
قعدوا تلت ايام وهمن فى اجتهاد
قربت على القاضى خضره باست يداه
قالت له أنا مقدرش أصوب يم أبوى فى هذى السنة
إذا انْ قلت له رزق الهلالى هون فينا
مقدرش أقول القول ولا اتكلموا
إل كان يكرمنى على ذمته
شوف لى ياأمير جيد أنا اروح ناحيته
خلينى أربى الغلام فى جباه
ياما الزمان حكام على ناس كتير
اللى أمر بافتراق شملنا ياأمير
يفقد من الهلايل وتطفش نساه
يفقد بين العربان ويخلف عيال

يبقوا مسطه بين مقادم هلال
خبط القاضى على كتفه وقال
الأرض للزحلان وأنا أكبر عداه
الأرض للزحلان ولا أقدر أفوت
لمن تكون معاى ألف لازم تموت
عزمهم القاضى "فايدبن مناع" ورجعهم سكوت
جوها عرب عطوان يهزوا القنا
قال ادخلوا الصيوان ماده اللى هنا
طلعت خضره الشريفه ومتلتمه
تبكى لكن دموعها دما
عيب على فرسان تعر النسا
عيب على الفارس يعر الحريم
الفعل ده ما يفعلوش إلا اللئيم
اللى يكون طاهر وجسمه سليم
لم يفعل المكروه لطول المدى
لم يفعل المكروه لطول الدوام
اللى عبر حيه يسير فى أمان
أنا جعلتكم قوم أكابر تمام
تريكم عرب عطوان أرازل حفاه
تريكم عرب عطوان أرازل طموش
أندال فى حيكم ضيف ولا تكرموش
أسألك ياعالم بلغاء الوحوش
يارازق الأطيار فى وسيع الفلاه
يارازق الأطيار فى وسيع الحماد
أبوزيد يطلع فارس ويركب جواد
يطب فى إيده سليط البولاد (الخضر عليه السلام)
ويبلغ المقصود على أكبر عداه
ويبلغ المقصود بأهل الكرم

بحق أهل البيت وإمام الحرم
لمن سمع ده القول داغر انقهر
وقال لقومه اسمعوا باسماه
يقول لقومه اسمعوا يارجال
انهبوا الخيل منها وحتى الجمال
أوعوا تخلوا لخضره عيال
وسيبوها لوحدها فى وسيع الفلاه
ياما تقاسى ذل وبهدله
إلا وسبع "أضرع" عليه السلام (الخضر)
يأتى من الخلا يمشى ويسرع بالعجل بخطاه
راح ليها لقيها بتبكى وجنبها ابنها
شتت نياهم بإذن واحد أحد
رجع على خضره وقال هاتيلى الولد
عطت له الأمير أبوزيد لكن لم جيلهاشى جلد
قال لها بركات وسرى معاه
قال لها بركات وسرى معه
حتى إن اضايق فى الحرب انفعه
دلوكت أهو أبوزيد الخضر حزمه
خضره الشريفه اتلفتت لم تراه
خضره الشريفه اتلفتت ولا شافتوش
واطلعت بالعين ولا لقيتوش
إلا الأمير زحلان حقق شاف الجيوش
حقق صيوان أخضر وحوله سماه
حقق صيوان أخضر وحوله خيام
لا هم عرب شعبه ولا هم شوام
أرسل لها أربعه لأم الغلام
قالت نزيله للزحلان روحوا بشروه
جوا لها خطار سماح الوجود

راحوا للزحلان وبشروه
جوها وقال قومى دخلت فى حماه
ربى وليدك أبوزيد فى هنا وأمان
قعدوا حدا الزحلان مدة زمان
كبر البطل أبوزيد فى الحق زود عشاه
كبر أبوزيد ودوه لراجل فقى
فى الخط شاطر لكن فى الصلا متقى
إيه ما طلب فى اللوح عنده بيتلقى
سبق عليه بالسطر بأحسن جواب
كانوا حدا الزحلان ولدين شباب
من يوم راحوا الكتاب وهما سوا
إلا الأمير أبوزيد تقصد شرهم
الفقرى رعيان أبدى وقال لهم
طبوه وأنا ادى له تلاتين عصاه
طبوه وأنا اديله ده عبد وشقى
داروا عليه الكل حتى الفقى
داروا عليه الكتاب ميلتقى
طلع هارب منهم محدش رآه
طلع هارب منهم أيا سامعين
نبش ركان البيت شمال ويمين
إلا لقى دبوس ليه مده من السنين
يحكم تمانين رطل فى كمه تراه
يحكم تمانين رطل برمانته
شاله الأمير أبوزيد على راحته
جات خضره الشريفة لابوزيد البطل
خضره الشريفه باسته وحبته
وقالت تسليني ياولدى على قهر اباه
وقالت تسليني على شوق بقى

قال أنا ما أرتجع إلا إن كتلت الفقى
قالت له ياأبوزيد متبقاش شقى
هما فى الحديت والشيخ سابق أتى
هما فى الحديت والشيخ نوى يغدره
جبلوا الطعام أبوزيد قوام أطعمه
طلع الفقى عايب وعيبه جزاه
طلع الفقى عايب وعيبه غلب
رحلوا الكتاب أبوزيد ده اللى كتب
الشيخ يقول له ياعبد ياقليل الأدب
جاى يمسكوا سطوا بدبوس رماه
طلعت مِنِّيه روحه وسالت دما
إلا أخو الرعيان لف وارتمى
راحوا حدا الزحلان قالوا ياأمير
أبوزيد كتل الفقى .. قال عيل صغير
روح إلزم الكتاب وحفظك كتير
والعلم لاخر أوهبوه له الإله
بقى أبوزيد الفقى واخو الرعيان عريف
أخو الرعيان إن خش الكتاب يقول يالطيف
خايف من الأمير أبوزيد ليقطع رجاه
خايف من الأمير أبوزيد بالاتهام
صلوا على طه عليه السلام
إلا كانوا حدا الزحلان ولدات تمام
تركب ظهور الخيل وتطلع وراه
تركب ظهور الخيل وتطلع تسير
ويتواعدوا بره فى الحماد الغزير
كلهِم كبار وأبوزيد عيل صغير
تِرَكِّبُه خضره وتطلع وراه
تِرَكِّبُه خضره وتطلع تقول

الله يزيدك وتدعى له ـ بالهنا والقبول
يرمح ورا السجعان فى أيده أصول
كان له جريده .. هى جريده
لكن ضبها فى يداه
يعنى جريده أبوزيد فى ايده ضبها
يرمح ورا السجعان يلعب بها
جميع الدكر اللى يدوق طعمها
يرجع موزم لم يدوق العشا
حرب الأمير أبوزيد يكيد الحشا
كبر الأمير أبوزيد فى الحرب واتنشا
نزلت على الزحلان أعادى طغاه
نزلت على الزحلان أعادى فجور
من لجل عشر المال على من يكون
عطوان وابوه يحكم على ألف سور
ماليين قلاعهم من الحرب والقناه
ماليين قلاعهم من الحرب العسير
مرتبين جزيه على ناس كتير
نزلوا على بل الزحلان كان غزير
أخدوا عشر تلاف وبقواميه
أخذوا عشر تلاف وطلعوا الجبل
زى الجراد اللى يكون منسبل
بعتوا المرسالْ الرعيان بالعجل
راحوا حدا الزحلان وقالوا النجاه
قالوا له الجمال أخدها عطوان
اتخبط الزحلان على كفه
وقال فين الغلام اللى يبين تناه
وقال فين الغلام اللى يبيان له التنا
يحجز بقية المال بطعن القنا

قال له الأمير أبوزيد
وحياة دراعى أنـا
لو راح جمل منهم دراعى فداه
لكنت أموت ولا يكسبوه العدا
ياعبد ياقمصان شد اللى الجيده
ركب الأمير أبوزيد ونديده معاه
ركب الأمير أبوزيد وكام فارس عنيد
ركبت الفرسان وأبوزيد عنيد
استخفت بيه الشهبة
شالت وحطت لزها بالحديد
زحلان لما شافه من بعيد
كيف صقر ارتخى وانزاح منه الرماه
كيف صقر ارتخى وانزاح منه الضباب
ياما نهار كالريح نادى وطياب
زحلان ينادى وقفوا ياعباد
لم تفرحوا بالمال وابوزيد وراه
أوعوا تفرحوا بالمال ولا تكسبوه
جاكم الأمير بركات سماح الوجوه
قال الأمير عطوان ده عبد اكتلوه
ده عبد جاى أبلم وجهله رماه
ده عبد جاى أبلم رمح وانجمر
وراه أبوزيد الحرب عليه واتوعر
(خطوا) خبلوا بحربه عودها ثمر
طل الخشب غير الحديد .. من قفاه
طل الخشب غير الحديد من القفا
وشال دراعه من ع الجواد واكتفى
لما كتل عطوان جيشه اختفى
راحوا لابوه الكل وقالوا له النجى

(راحوا لابوه الكل وقاموا عزاه)
(راحوا لابوه الكل قاموا عداه)
راحوا لابوه وقالوا له البقى
بينك مابينه الناس ياطول الشقا
عطوان أخدوه فى أول الملتقى
جاله عبيد شاله محدش رآه
جاله عبيد شاله محدش نظر
واتعتع الديش من جواره اتقهر
لمن سمع ده القول داغر انقهر
نبه طبول الحرب وجاته ألوف
زرد يمانى والدروع ع الكتوف
قال قوموا بينا خل نشدوا نشوف
اللى كتل عطوان وشطط نياه
اللى كتل عطوان وحاز الطرود
عاوز أشوف إيه كنيته ؟ وإيه يكون
قالوا له نوريه ليك احنا بالعيون
ابق انت خد منه حراب بالبلا
ياكش تكون فى قدومكم مقبلا
برز أبو عطوان فى وسيع الخلا
واتمنعوا اللى شافوا حرب أبوزيد ولقاه
واتمنعوا اللى شافوا حرب الولد
ع اللى رأوه محدش جاى له جلد
استهتر داغر بعلم الولد
رمح عليه بالغول وسابه جلد
قال له تعال ياعبد ياقليل الأدب
تكتل وليدى ياقليل الحيا
تكتل وليدى ليه يافردة نصاح
انت تمن دبوس ماليكش تمن

قال ياعم داغر منا عليك السلام
الفشر للأندال مش للسماه
الفشر للأندال مش للملوك
اعمد على التار وعربك ينظروك
ولدك جانى أنا وراقد فى المنام
قال لى هات لى أبويا أتآنس من لقاه
قال لى هات لى أبوى من على حربته
قال له أنا ولدى رضيت ذمته
قال دلوكتى ندى ونى
الحرب دلوكت ندى له ميعاد
قال عاد مين يجيلك يافساد البلاد
حلقت على أمى ليه فى وسيع الفلاه
حلقت على خضره ليه وانا ولد صغير
غير نجاها ربى كريم وحليم
رمح عليه بالغول أيا سامعين
نزلوا لتنين فى حومة اللقا
اتحاربوا ميسرة وردوا يمين
(صلوا على طه أيا سامعين)
طسه تلت طسات بسيفه رماه
طسه تلت طسات بسيفه اترمى
وطلعت منه الروح وسال الدما
واسيط أبوزيد فى الحرب واتنشا
روح بميت بيضة تزغرد وراه
روح بميت بيضة تزغرد وراه
من طلعته فارس يمشى مع الرجال
إلا عرب عطوان شدوا ع الجمال
بلد الأمير جايل وباسوا يداه
(محمد نصلى عليه)

وحياة نبينا المنتسب
إلا وشدوا ملوك العرب
فرسان سجعان يهزوا القناة
فرسان سجعان ملكوها شمال ويمين
بلد الأمير جايل وباسوا يداه
بلد الأمير جايل .. وراحوا له المكان
كانوا أماره فى حظ أهل الزمان
إلا الأمير جايل لم خيله واحتجب
لم خيله وكان صاحب لعب
الشواطع من فضة والمناطق دهب
قال الأمير أبوزيد شدوا لى أنا كحيلى
أنظر جايل وأنظر صفاه
أنظر جايل من أهل الزمان
... صلوا على نبينا عليه السلام
لمن شد الأمير أبوزيد أمير الرجال
عمد على جايل أيا سامعين
حاربوا ميسرة وردوا يمين
أبوزيد جه من جايل لم لقى له معين
حرك اللوالب بقوه معاه
حرك اللوالب بقوه معه
طلع نبه على طبله
لمن نبه طلع الأمير أبوزيد
حمد إلاله ومسك الفضا
بقى يحسبن فى الأمور والقضا
إلا بقوه قطب العمايم حوم وجاه
حوم يقول وحياة نبينا الزين
قطب العمايم لابوزيد يقوم
حابس له الأعوان فى المنطقه وجاه

أبوزيد قال ياقمصان شد لى الفرس
دوس الأمير جايل دوس حماه
دوس الأمير جايل دوس حماه
دوس الأمير جايل أيا سامعين
اتحاربوا ميسرة وردوا يمين
رمح عليه بالغول أيا سامعين
طسه تلت طسات بسيفه ورماه
صلوا على نبينا طه الضمين
عرب جايل طلعوا يسيروا حدا سرحان
أبدوا يقولوا وحياة نبينا الزين طه الرسول
عند الزحلان فارس يقول
عيب جميع الفوارس أيا سامعين
حلف سرحان نطق اليمين
شدوا ياهلايل شمال ويمين
داسوا بلاد الزحلان وملكوا حماه
قاموا بلاد زحلان وملكوا المرس
إلا أبوزيد قال شدوا لى الفرس
أنا انظر الأمير اللى أتى وانظر صفاه
أنا انظر سرحان أيا سامعين
اتحاربوا ميسره وردوا يمين
همز عليه أيا سامعين
إلا سرحان حمد الإله ومسك الفضا
قال اشكى لمين ع اللى جرى
إلا آتى فايد حارب أبوزيد شمال ويمين
رمح عليه بالغول أيا سامعين
أخد قمح الشاش والشاش رماه
وملك الفضا بقى يحسبن فى الأمور والقضا
قالوا العرب ده شىء مفهْشى رجا

عاوزين نشوف الأمير غانم وننظر صفاه
عاوزين نشوف الأمير غانم
راجل فارس من أهالى زمان
شدوا المقادم وشدوا فوق الخيام
إلا أتاهم أبوزيد سبع الرجال
عمد على الميدان حوم وجاه
عمد على الميدان ونزلوا لتنين فى حومة اللقا
ظهر الجيد من نضيف التنا
إلا الأمير غانم فى الحرب ارتمى
سط الأمير أبوزيد بحربة وجاه
سط أبوزيد بحربه شمال ويمين
خطفها الهلالى أيا سامعين
همز عليهم بركات والمولى ليهم معين
سكنه ياالخوانا لحود الترى (سكن غانم أبو دياب)
سكنه فى لحود الترى
قالوا لينا فارس ياهل ترى
نستنى رزق بن نايل ملك فى حماه
(رزق بن نايل من نهار ماطلق خضره ماسك
جبل كوم)
قالوا رزق السجيع نضيف التنا
فى الحرب زايد أيا كبار الهنا
قال الأمير ناجح وحياة دراعى أنا
لا جيب رزق نايل فى وسط الفلاة
(ناجح أبو قمصان) لا جيب رزق بن نايل أيا سامعين
روح وجده فى الجبال سجين
قال له قوم بينا ياأمير ناجح أيا سامعين
خلينا نشوف اللى قوى الزحلان ياأمير العرب
إيه اللى قوى الزحلان وقوى عظاه

وحياة نبينا الزين طه المنتسب
عيب ملوك العرب حتى الديوان هردم علاه
حتى ديوان المملكة أيا سامعين
كتل كبار وياصغار شمال ويمين
رزق بن نايل بمهره لما يسير
إلا وشيحه ياأهل الهنا
ملكوا العربان فى وسيع التمن
رزق بن نايل كان نضيف التنا
داس بلاد الزحلان وداس حماه
وداس الفرس وقال يادنيا ممتعك لأنه بلاش
أبوزيد قدام ما يلف ده شاش
حلف يمين واتق بحقه تراه
حلف بيمين واتق بفمه
وقال أنا أشوف اللى دوس الأرض ده أيا سامعين
واتحاربوا بميسرة وردوا يمين
إلا نزل فى الحرب أيا سامعين
تلت ايام بلا عين تراه
تلت أيام ع اللى جرى
وشيحة قالت ياهل ترى
والله حربه يابوى ما جرى
جايبك ياأمير فى الوغى
نزل الهلالى أبوزيد من فوق التنا
لاتنين اتلاقم فى حومة اللقا
لاتنين اتلاقم شمال ويمين
وصلوا على طه الأمين أيا سامعين
ده حاربوا ميسرة وردوا يمين
إلا مسكت البرتقالة تشوحها من وسيع الفلاة
مسكت البرتقالة وشوحتها

شافها الهلالى خطفها باليمين ـ قسمها نصين ـ
وسكن الفرش منه والوحوش تراه
عمد على الهلالى حوم فى حومة اللقا
نزلوا لتنين ـ فوارس ـ فى حومة اللقا ـ وردوا يمين
اتحاربوا وحياة نبينا طه الضمين
أبوزيد ده رزق مالقى له معين
ناوى يسكن أبوه فى لحود الترى
قال الأمير رزق بن نايل ياهل ترى
ده شيء ياناس زود أساه
وحياة نبينا المصطفى
قالت له شيحه يانضيف التنا
بذاته ابنك فى وسيع الفلا
شيحه قالت له ياهلالى
أبوك لتكتله ياغربه وتصبح بلاه
لتكتله ياغربه تسكنه لحود الترى
نبقى ياسلامة فى وسيع العجاب
إلا الأمير أبوزيد وقع سيفه . فوق التراب
حوم على ابوه لما أتاه
وعانقه شمال ويمين
خضره زغردت قالت ياناس جانا الهنا
والهنا لينا يسير ـ وحياة نبينا المصطفى نضيف التنا
قال الأمير أبوزيد وحياة دراعى أنا عزمتكم عندى أيا سامعين
حاربوا السجعان شمال ويمين
عزمهم الهلالى فى ديوان زحلان
دبح من الكبشان والجمال فى وسيع الفلاة

كتاب الهلال القادم :

القلق فى حياتنا الشخصيــة والاجتمــاعيــة

تأليف

د . عبد الستار ابراهيم

يصدر : ٥ مايو سنة ١٩٩١

هذا الكتاب

يعد كتاب السيرة الشعبية ـ مولد البطل تتويجا للجهد الذى بذله الدكتور احمد شمس الدين الحجاجى فى دراسة علاقة الأدب الشفوى بالأدب المكتوب اذ قدم كتاب الأسطورة فى المسرح والأسطورة فى الأدب وصانع الاسطورة . وانتقل المؤلف بعد ذلك ليقضى شطرا من حياته فى جمع السيرة ودراستها ودراسة راويها محاولا ان يضع القانون الفنى لروايتها وبنائها فهئ النوع الفنى المتميز لأدب الفلاحين ، فالسيرة الشعبية ابداع القرية الأمية الذى طورته المدينة الكاتبة الى فن الرواية الحديث ، فالسيرة هى ام الرواية وقد عبر المؤلف عن ذلك فى روايته سيرة الشيخ نور الدين ، ويدرس هذا الكتاب الراوى لساعة ابداعه للسيرة وكذلك مدونات السير الشعبية

وانتقل من ذلك الى دراسة النبوءة الخاصة بالبطل وهى صلب الاسطورة المتصلة به ومنها لدراسة البطل المصاحب ثم درس نسب البطل وتوقف عند لحظة الميلاد وانتهى عند تعرف الجماعة على بطلها والاعتراف به ليكون قائدها وزعيمها فى رحلة الحياة .

وفى الخاتمة يعد المؤلف بتقديم بقية جوانب السيرة حتى يستكملها فى مشروع عمره .

الطبعة الثانية ٩١

دبح من الكبشان أبدى يقول
وحياة نبينا الزين طه الرسول
سمع فضل الزحلان يقول
مايفرق إلا نضيف التنا
فات أبوه فى وسيع السماه
قال له ليه ياهلالى تفوتنى شمال ويمين
إيه اللى جرى لك يابنى وانت منى صغير
قال له أنت فتنى فى القماط
وأنا فتك فى السماط
عيبة وسوت عيبة يامقادم هلال
عيبة وسوت عيبة يانضيف التنا
قال له الهلالى أبوزيد ـ
وحياة دراعى أنا لازم تجيب القاضى
وتكتب على خضره يانضيف التنا
قال الأمير رزق بن نايل والله بلغت المنى
دقوا طبول الفرح ويا الهنا
تلاتين ليلة فى وسيع الفلاه
فرحت العربان وزاد الهنا
إلا وقال الهلالى رزق وحياة دراعى أنا
لاخد مهر خضره يكون ع التمام
كرمه للحبيب محمد
الكبش نطق له وجاه
كرمه للحبيب انطق له الجمل
وحياة نبينا طه المنتسب
أحمد محمد نضيف التنا
(محمد نصلى عليه)

الفهرس

مقدمة ٧
المصادر : الراوى والراوية ١٣
النبوءة او قدر البطل ٤٧
البطل المصاحب ٦٣
نسب البطل ٧٣
الميلاد ٨٥
الغربة والاغتراب ٩٥
التعرف والاعترلف ١٣١
الخاتمة ١٨٩
الهوامش ١٩٠
المصادر والمراجع ١٩٧
الملحق : نصوص الروايات ....
الشفهية التي جمعها الباحث ٢٠٢

رقم الايداع : ٣٤٢٩ / ١٩٩١

I . S .B . N
97707 - 007t - t

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان سبعة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

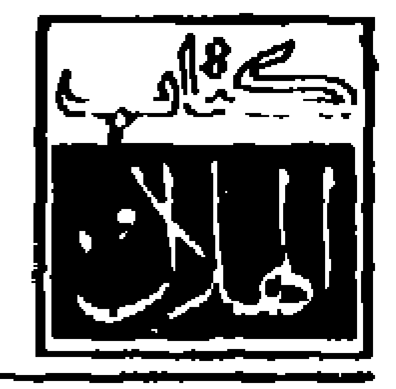
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

د. عبد الستار ابراهيم





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No . 485 MA - 1991

العدد ٤٨٥ - شوال - مايو ١٩٩١

FAX 3625469 : فاكس

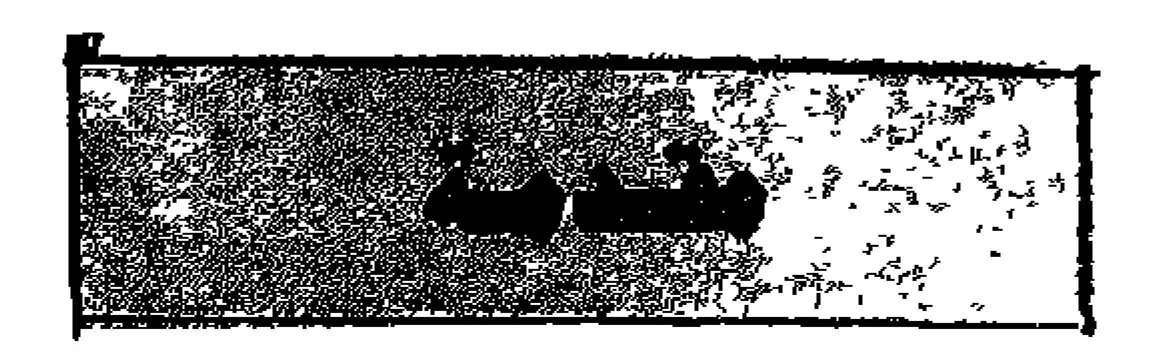
أسعار البيع للعدد فئة ٢٠٠ قرش

الأردن ٥ر١ دينار ، السعودية ١٠ ريالات ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٠ درهما ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، الامارات العربية ١٠ دراهم ، سلطنة عمان ١ ريال ، غزة ٥ر١ دولار ، لندن ٥ر١ جك

د. عبد الستار إبراهيم



الغلاف بريشة الفنان :
محمـــد أبوطالــــب



إن الانفعال بالناس والأشياء شيء مرغوب وجزء رئيسى من متطلبات الصحة والنضوج . فنحن نفرح ونسر عندما نتوقع تحقيق هدف أو رغبة ، ونخاف عندما نتعرض لخطر ما ، وندهش للأشياء الغريبة والمفاجئة ، ونحس بالندم للأخطاء التى كان بإمكاننا تصحيحها ، ونغضب عندما نجد اعتداءً على حقوقنا أو مكاسبنا ، ونحب البعض ، ونكره البعض الآخر . فهذه كلها انفعالات محمودة وسوية طالما أنها تحدث فى وقتها الملائم وفى الظروف الملائمة .

لكننا جميعا ـ ودون استثناء ـ قد تعرضنا للحظات شعرنا خلالها بالإضطراب النفسى بكل ما يتسم به من توتر شديد والوقوع تحت رحمة انفعالات قوية تعجزنا عن التفكير الملائم والتصرف الفعال ، وتوقعنا فى ضروب أخرى من المعاناة والاستثارة الزائدة . ومن مآسى الاضطراب النفسى هو تلك الاستجابات الانفعالية الحادة التى نسميها القلق .

وصف لى أحد المرضى نفسه بأنه كالساعة المعطوبة التى "أنظر إليها فأراها تشير إلى منتصف الليل ، وأنظر من حولى فأجد النهار والشمس والناس" . وكان يعنى من ذلك أن هناك

شيئا ما فى طبيعته يدفعه للرؤية المعتمة للمستقبل بينما لا يوجد من حوله أو من ظروفه ما يدفع حقا إلى ذلك .

فثمة هنا نموذج طيب للانفعال غير الملائم ، الذى يعطل امكانيات الانسان على النمو ، ويصيبه بالتوتر وعدم الاستقرار بشكل لا يترك له طاقة لمواجهة المواقف الصعبة أو التفكير فى حلها بصورة ملائمة .

ولعلى إذن لا أحتاج شخصيا إلى أن أعرف القراء بأهمية موضوع القلق . فخبرة كل قارىء بهذا الموضوع أكيدة ، وتوضح له مدى الألم والتعاسة التى ترتبط بتلك اللحظات التى يتملكه فيها القلق .

ولكنى احتاج بالطبع إلى أن أصف للقارىء هذا الانفعال الشديد الذى يسم حياته بالخوف والتوجس والقيود . واحتاج لأن أوضح له طبيعة هذا الانفعال ومصادره ، واحتاج أيضا لأن أرسم أمامه خطوطا عريضة تساعده على السيطرة عليه والعلاج منه ، ونحتاج لأن نوضح للقارىء العربى أهم ما يقدمه العلم الحديث من نظريات ومناهج علاجية لهذا الاضطراب .

وتتفق الفصول الستة التى يتضمنها هذا الكتيب فيما بينها لتحقيق هذا الغرض . فتقدم فى **الفصل الأول** مدخلا طبيا لموضوع القلق والتعرف على حالات القلق ، وأنواعه وأعراضه المتباينة . ويكشف لنا **الفصل الثانى** عن حجم هذه المشكلة وآثارها على المجتمعات البشرية .. وبتركيز خاص على العالم العربى . أما **الفصل الثالث** فيوضح لنا الشروط التى تحكم ظهور القلق وسيطرته على البعض دون البعض الأخر وذلك

تمهيدا لرسم خطوط العلاج النفسى ، الذى خصصنا له **الفصل الرابع** . وقد ركزنا فى عرضنا لموضوع العلاج على ما يسمى بالمناهج السلوكية التى اعتبرناها بمثابة الثورة المعاصرة فى العلاج النفسى . أما **الفصل الخامس** .. فقد افردناه للقلق فى حياة الطفل بسبب الاختلافات الواضحة بين الأطفال والبالغين بهذا الشأن . ويرسم **الفصل السادس** الملامح الرئيسية للصحة النفسية ، وما يتسم به الأصحاء من خصائص نفسية ومزاجية .

وبالرغم من أننى لا أزعم أن هذه الفصول تمثل حصيلة وافية للبحث فى هذا الموضوع ذى الشعب المتعددة ، فإننى أثق بفائدته العملية لفئات مختلفة ومتنوعة من ضحايا الاضطرابات النفسية وعلى رأسها القلق .. كما أثق فى فائدته لبعض الممارسين والمتخصصين فى العلاج النفسى وعلم النفس الطبى بسبب اعتماده على أحدث ما تقدمه البحوث النفسية المعاصرة فى هذا المجال : تشخيصاً وعلاجاً .

دكتور/ عبد الستار ابراهيم



الفصل الأول

التعرف على حالات القلق

- ماهو القلق ؟
- القلق كجرس انذار
- القلق كخاصية عالمية
- القلق أنواع ودرجات
- القلق العصبى

التعرف على القلق من خلال حالة :

أ - التوتر العضوى - العضلى

ب - الخوف والتوجس

جـ - التفكير الكوارثى

- والخلاصة

ما هو القلق ؟

أتيح لنا بحكم وضعنا المهنى - أن نلتقى بالكثير ممن تتملكهم المحن والأزمات . وما تكلمنا الى أحد منهم إلا ووجدنا أن القلق بين الغالبية العظمى منهم - هو مصدر المحن وعلى رأس المشكلات . ويصف هؤلاء موضوع شكواهم بأسماء متباينة منها :"انشغال البال" و"الهم" و"التوجس" و"الخوف" و"التشاؤم" و"متاعب الصحة والجسد" . وسنرى فيما بعد أن كل هذه الأسماء تمثل أوجها مختلفة لعملة واحدة هى القلق .

وإذا سألت الناس عما يجعلهم يقلقون فستجدهم يتحدثون عن مصدر القلق بصور شتى ، ويدركه كل منهم بمنظار بمختلف . فمنهم من يراه كعدو غريب وكريه عرف طريقه بطريقة ما الى نفوسنا وأجسامنا موجها اياها نحو التعاسة والمرض . ومن الناس من يتحدث عن القلق بأنه أرث ثقيل نقله لهم الأهل السابقون فيما نقلوا اليهم من صفات جسمانية ونفسية أخرى بفعل وراثة محتومة . هناك البعض الأخر ممن يحاول أن يطرح على القلق مسحة فلسفية فيراه ضريبة ندفعها لوجودنا ومعايشتنا لهذا العصر الحديث . ولهذا نجد الفيلسوف الجزائرى - الفرنسي "البيركامى" **Camus** يرى أن هذا العصر هو عصر الخوف . ويصور الشاعر أودين **Audin** هذا العصر فى قصيدة شعرية له حملت نفس الأسم

بأنه عصر القلق والمعاناة . ويبقى بعض آخر يتحدث عن القلق ويصفه كما وصفه صديق لنا هو يحيى الطاهر ـ الأديب المصرى المعروف ـ الذى عاش تجربة قصيرة رائعة فى الأدب والتأليف ـ أن القلق تجربة ضرورية تثرى الحياة . لقد كان القلق بالنسبة لهذا الصديق الأديب ـ رحمه الله ـ طريقة لإثراء حياته الفنية والأدبية ، وكان يقول إنه يبحث عن القلق ويخلقه خلقاً لتستمر تجربته فى الكتابة والتأليف . فالقلق عند البعض إن هو إلا تجربة وخبرة شخصية قد تعود عليهم بالنفع والفائدة .

فما هو القلق ؟ وماهى مصادره ؟ وأين الصواب والخطأ فى أحكام الناس عليه ؟ وهل هناك ما يساعد على الشفاء منه أو فى أحسن الأحوال ـ ما يساعد على ضبط نتائجه الهدامة على الشخص والمجتمع .

لقد صدمتنا الاختلافات الشديدة بين الناس فى الحكم على القلق . حتى علماء النفس والأطباء النفسيون لم ينجوا من هذه الخلافات فتفاوتت أحكامهم وتباينت أراؤهم عند معالجة هذا الموضوع . ومن هنا بدأ إهتمامنا بالكتابة عن هذا الموضوع إعتمادا على البحث العلمى بقدرته على المعالجة الموضوعية المتأنية ، والشمول .

القلق كجرس إنذار

القلق ـ كما يصوره علماء التحليل النفسى ـ ويتفق معهم فى ذلك علماء النفس المعاصرون ـ ماهو إلا نذير بأن هناك

شيئا سيحدث من شأنه أن يهدد أمن الكائن أو يخل بتوازنه وطمأنينته . إنه أشبه بجرس الأنذار الذى يعد لمواجهة الخطر .

ولهذا توحى الملاحظات العامة بسلوك الناس بأن القلق هو الاستجابة التى تغلب عليهم عندما يجد واحد منهم نفسه مقبلا على شىء هام أو خطير . ولهذا فمن الطبيعى أن نجد أن القلق يزداد عندما يكون الشخص ضحية لأزمة صحية أو كارثة مادية ، أو تحت تأثير أشياء تهدد أمنه أو حياته ، أو فى المواقف الاجتماعية المتأزمة . ومن العسير حقا أن نضع قائمة شاملة بالمواقف المثيرة للقلق ، إلا أن الأمثلة التالية من شأنها أن تنقل للقارىء طعم هذه المواقف :

(١) الطالب الذى يدرك أنه مقبل على إمتحان هام فى فترة وجيزة أو مفاجئة .

(٢) المريض الذى يذهب الى طبيبه فيتفرس فى وجهه ويبلغه أن هناك أشياء غير سارة أسفر عنها تحليل أشعته .

(٣) الأب الذى تصله أنباء أن ابنه قد نقل الى المستشفى إثر مشادة مع جماعة مشاغبة .

(٤) المستثمر الذى يسمع بأن البنك الذى يستثمر فيه أمواله قد أفلس .

(٥) الزوجة التى تعلم أن زوجها يوشك على الأنفصال أو الطلاق منها .

(٦) الزوج الذى يعود لمنزله فلا يجد زوجته كالعادة ، أو الزوجة التى يتأخر زوجها عن العودة للمنزل فى موعده المرتقب .

(٧) الشخص الذى يجد نفسه مهيئا لإجراء مقابلة شخصية للحصول على عمل ما ، أو مسافر لمكان غير مألوف من قبل ... الخ .

هذه أمثلة وغيرها الكثير ـ لعدد من المواقف التى من شأنها أن تستثير القلق ونجدها تشترك فيما بينها فى الخصائص التالية :

(١) إنها جميعا تتعلق بالمستقبل أو بأشياء مرتقبة .
(٢) إنها جميعا تنطوى على شىء مهدد أو مخيف .
(٣) أن التهديد فى بعضها حقيقى ، والتهديد أو الخوف فى البعض الآخر ليس شيئا حقيقيا أكيدا بل يكفى أن يراه الفرد كذلك .

ومن هنا يجيىء تعريفنا للقلق بأنه إنفعال يتسم بالخوف والتوجس من أشياء مرتقبة تنطوى على تهديد حقيقى أو مجهول . ويكون من المقبول أحيانا أن نقلق للتحفز النشط ومواجهة الخطر ، ولكن كثيرا من المواقف المثيرة للقلق لا يكون فيها الخطر حقيقيا بل متوهما ومجهول المصدر . ولهذا فإن القلق يشيع أكثر ما يشيع بين هذه الفئة من الناس التى يطلق عليها العلماء إسم (العصابيين **Neurotics**) أى هذه الفئة التعيسة من البشر التى تتوجس شرا من كل موقف ، ويعيش أفرادها لهذا فى انزعاج دائم وخوف . ولهذا نجد من القلقين من ينزعج لأشياء غير مهددة بطبيعتها بل قد تثير لدى غيرهم التقبل والأستحسان كمشهد بعض الحيوانات الأليفة ، أو السفر الى مكان جديد أو الدخول فى علاقات اجتماعية أو جنسية مرغوبة . حتى النجاح أو التفوق والحصول على شىء

كان يصعب تحقيقه قد لا يثير لدى الشخص الذى تتسم حياته بالقلق أكثر من الخوف أن تنقلب هذه الأشياء السارة فى المستقبل الى كارثة محتمة .

ونحن لهذا نقول إن الخطر الذى يستبقه القلق عادة ما يكون خطرا متوهما ومختلقا ، والخوف الذى يمتلك الناس فى حالة القلق خوف مجهول المصدر وغامض وغير عقلانى . ومن ثم يجيىء تعريف العلماء للقلق بإنه خوف من شىء مجهول المصدر ، وإنه حالة وجدانية غير سارة تتملك الشخص وتجعله يرى أخطارا غير حقيقية ذات مصدر غير معلوم للآخرين .

القلق خاصية عالمية :

يحدثنا علماء النفس عن القلق إنه جزء لا ينفصل عن الحياة البشرية ، وإنه يتطور بأنواع مختلفة وأن مصادره متنوعة ومتفاعلة . والقلق لا يعتبر انفعالا يشيع بين الناس فحسب بل إنه خاصية عامة وعالمية . فمن منا لم يمر بلحظات من الروع والأخطار عندما يشعر بالتهديد والخطر ، أو عندما يوشك أن يواجه موقفا مهددا لأمنه وطمأنينته .

وهذا فرويد الذى يعتبر من أكثر المهتمين بدراسة هذا الموضوع على مر التاريخ يكتب عن هذه الخاصية العامة للقلق ـ قائلا :

"لعلنى لا أحتاج شخصيا أن أعرفكم بموضوع القلق ، فكل منا دون إستثناء قد عانى واختبر هذا الأحساس أو على الأحرى ، هذه الحالة الوجدانية مرة أو أكثر فى حياته" .

وسنوضح فيما بعد من خلال الأمثلة التاريخية المختلفة أن القلق شعور عانى منه الأقدمون ويعانى منه المعاصرون ويصيب الناس على إختلاف ألوانهم ومذاهبهم .

لكن سؤالنا الآن اذا كان القلق عالميا كذلك ، فما الذى يجعله موضوعا هاما ومثيرا للأهتمام ؟

ـ إجابة هذا السؤال هى ببساطة لأن القلق أنواع ، ولأن شدته تتفاوت من فرد الى آخر أو من جماعة الى أخرى .

القلق أنواع ودرجات :

يتملكنا التوتر النفسى والقلق عندما نعلم أننا سنقبل على خبرة حاسمة (إمتحان ، أو لقاء شخصى ، أو قرار) . ومن خلال هذا التوتر الذى نختبره قبل حدوث المواقف نهيىء أنفسنا ونحاول أن نتسلح بما يمكن التسلح به من خبرة أو معرفة لمواجهة هذه المواقف بنجاح . وإذا أتيح لنا أن ننجح فى هذه المواقف (فنؤدى مثلا أداءً جيد فى الأمتحان ، أو أن نتغلب على خجلنا وعوامل ضعفنا فى اللقاءات الشخصية الهامة تاركين أثرا طيبا وايجابيا فى الأخرين) ، فإننا سنشعر بالعرفان والشكر لمشاعر القلق السابقة لمساهمتها فى دفعنا الايجابى نحو النجاح .

يصور هذا الموقف (أو المواقف) السابقة نموذجا طيبا لما يسمى بالقلق الدافع . وهو قلق ضرورى للنمو ، وللتطور بإمكانياتنا نحو تحقيق كثير من الغايات الأيجابية ، وهو قلق مؤقت ، وقليل الحدة ، ومنشط لإمكانيات الكائن النفسية والعضوية . بعبارة أخرى ، فإن هذا نوع صحى ومحمود من

القلق ، وينطبق عليه قول العالم النفسى الأمريكى "كاتل" بعد عرض كثير من نتائج بحوثه فى هذا الميدان :

"بعض الناس يربط دائما بين القلق والمرض . لكن القلق لا يكون دائما دليلا على المرض والعصاب . إن القلق يمكن أن يوجد وبدرجة عالية دون عصاب . بل اننى أجد من نتائج دراساتى ما يؤكد أن وجود القلق قد يكون أحيانا علامة على الصحة والنضوج" .

لكن القلق فى أحيان كثيرة قد يكون أشد حدة من المواقف التى تثيره ولهذا نجد من العلماء من يصف القلق بإنه جرس انذار ، ولكن أثره أضر وأخطر من الحريق الذى ينذر عنه . خذ على سبيل المثال نموذج الطالب الذى يتملكه القلق فى يوم الأمتحان بصورة توقفه عن إداء الأمتحان ذاته وبالهروب من الموقف كله ، أو ذلك الزوج الذى يتملكه الخوف من الضعف الجنسى عند معاشرته لزوجته بصورة قد تؤدى الى إصابته بالعنة الجنسية ، أو تلك الزوجة الصغيرة التى يتزايد خوفها من الرجال وعدم العفه لدرجة تمنعها من التوافق الجنسى السليم مع شريك حياتها ، أو تلك الأم التى تخشى على إبنائها من أخطار الحياة لدرجة توقف نموهم وتفاعلهم الأيجابى بالحياة بحب فج وحرص مبالغ ، أو هذا الطفل الذى يوقفه خوف الأنفصال من الأسرة عن الذهاب الى المدرسة بالمرض أو التمارض كل صباح . وقد عايدتنى مرة سيدة ملكها الخوف من الكلاب ثم كل الحيوانات فيما بعد لدرجة عاقتها عن أداء واجباتها الأسرية والشخصية الضرورية .

فى كل مثال من هذه الأمثلة تتمثل صورة مختلفة لما يمكن

أن نسميه بالقلق المرضى أو العصابى . وهو الذى يمثل الشكوى الرئيسية للغالبية العظمى من الناس عندما يتجهون لطلب العون النفسى ، وهو يمثل درجة مبالغ فيها من الانفعال بالأشياء لدرجة تعوق ولا تيسر الحياة البشرية ، وهو أيضا أنواع .

القلق العصابى :

كلمة عصاب (Neurosis) مصطلح جرى على استخدامه علماء النفس والأطباء النفسيون لوصف طائفة من الأمراض النفسية التى يتميز أصحابها بالأنفعال الشديد ، وعدم الأستقرار النفسى ، والتقلب الأنفعالى . وتسيطر على العصابيين عادة أعراض مرضية متنوعة منها الخوف ، والقلق ، والأحزان النفسية (الاكتئاب) ، والوساوس الفكرية .

ويمثل القلق العصابى الطائفة الرئيسية من العصاب . ويعتبر أيضا سمة رئيسية فى معظم الأضطرابات العصابية الأخرى . فنحن نجد القلق مستقلا كخاصية رئيسية فى الشخصية ، ونجده مرافقا لكثير من الأضطرابات الأنفعالية الأخرى كالخوف والوساوس والأكتئاب . والقلق العصابى هو انفعال شديد بمواقف وأشياء لا تستدعى بالضرورة الأنزعاج . والشخص فى حالات القلق العصابى يجد حياته الوجدانية ، والفكرية ، والأجتماعية نهبا لهذا الشعور بحيث قد يجد الشخص نفسه عاجزا عن الحركة الأيجابية والتفاعل العادى بالحياة .

والقلق العصابى يفتقد الخاصية الأيجابية للقلق من حيث هو قوة إعداد وتهيؤ لمواجهة أزمات الحياة وتحدياتها بل وقد يتدخل فى تشويه نفس الغاية التى يهدف اليها فيكبل بدلا من أن ييسر التعامل مع الأزمات والأخطار ، مما يزيد من تعرض الشخص للموقف المهدد . وربما صادفنا كثيرا من الحالات التى يتدخل القلق خلالها فى الموقف بصورة سيئة . فالشخص الذى يؤدى به القلق الى التلعثم المتتالى فى الموقف الأجتماعى يجد نفسه ضحية لقلقه بصورة لا يحسد عليها . ونعلم ايضا أن هناك بعض الأشخاص ممن "يتجمد" فى مواجهة الخطر بدلا من أن يستعد أو يتهيأ للاستجابات الملائمة .

ويأتى القلق العصابى بأشكال متعددة بحسب شدته وضراوته فيكون إما حالة انفعالية شديدة ، أو يتزايد لدرجة أن يستجيب الجسم بالقشعريرة والرعدة ، وتوتر عضلات الجسم . أو يتحول فى الحالات المتطرفة الى نوبة حادة من الأنزعاج والذعر **Panic** . فالذعر درجة أشد من درجات القلق .

وإذا كانت أنواع القلق العصابى تتفاوت بحسب الشدة فإنها تتفاوت أيضا من حيث استمرارها . فقد يجيىء مفاجئا وسريعا (كما فى حالات الذعر) ، أو يجيىء بطيئا وعلى فترات ممتدة . ويستمر أحيانا فترات قصيرة ، أو قد يبقى فترات طويلة الى أن يتحول الى حالة دائمة والى سمة مستقرة من سمات الشخصية . إلا أن نوبة القلق الشديد أو موجة الذعر عادة مالا تبقى أكثر من نصف ساعة فيما تبين البحوث (**Marks, 1980**) وإلا لنفق الأنسان ضحية له .

ويسمى القلق العصابى موقفيا إذا ما أثارته مواقف خاصة محددة كما فى حالات المخاوف المرضية . ويسمى قلقا تلقائيا اذا شعرنا به دون اعتبار لأى عوامل خارجية معروفة . أما إذا ثار القلق لمجرد التفكير في موقف مخيف سيحدث فهنا نسميه قلقا استباقيا لأنه يستبق الأحداث ويهدد الكائن بأشياء غير موجودة الأن ولم تحدث بعد . وهناك ما يسمى بقلق السمة **Trait Anxiety** عندما يتحول عند بعض الأشخاص الى خاصية دائمة فيسهل علينا التعرف عليهم بسبب انزعاجاتهم السريعة ، وتوجسهم الدائم وانفعالاتهم المتطرفة ، وشغفهم الشديد بالبحث عن جوانب التعاسة والشقاء .

هذه أنواع من القلق ، أردنا من عرضها ، أن نضع أمام القارئ صورة حديثة من صور التصنيف العلمى لما نسميه بالقلق العصابى . إلا أن الممارسة العملية تبين لنا أن هذه التصنيفات قد تربك أكثر مما تفيد . فالقلق ، وتحت أى إسم أو شعار هو إنفعال مسرف فى حدته ، يملك على الأنسان مشاعره وتفكيره واستجاباته العضوية فيصيبها بالأضطراب والتوتر . ولم أجد شخصيا ، من بين كل الحالات التى صادفتنى أى اختلاف فى المشاعر أو تغيرات فى السلوك عندما تتملك الأنسان حالة من حالات القلق سواء كان استباقيا أو تلقائيا أم موقفيا . وتؤيد بحوث علم النفس هذه الحقيقة . إذ هناك ما يثبت أن الأشخاص الذين تتملكهم مخاوف متباينة كالخوف الأجتماعى أو الخوف من الأماكن المرتفعة أو من الحيوانات عادة ما يعبرون عن مشاعر وانفعالات متماثلة عندما يختبرون القلق بمذاقاته المتباينة .

لهذا فإن السؤال كيف نتعرف على القلق يعتبر أهم من السؤال كيف نتعرف على أنواعه وتبايناته .

التعرف على القلق :

أقبل الىّ شاب فى الثالثة والثلاثين من العمر يعمل مهندسا بإحدى الشركات المعروفة ـ يبدو على وجهه الأسمر الشحوب والتعب ، تحيط بعينيه هالات سوداء وبعض التجعدات الخفيفة فى المناطق المحيطة بعينيه . كان من الواضح أن هذه التجعدات ليست من تأثير التقدم بالعمر بقدر ما كانت نتيجة للحالة النفسية التى تتملكه . بدأ حديثه قائلا : إننى لا أنام ، وأظل طول الليل أتقلب فى سريرى .. وعندما يأتى الصباح أجد صداعا حادا وطنينا من أثر إرهاق الليل والسهر .. وما أن يمتد اليوم قليلا حتى يتزايد التعب والإعياء لدرجة أننى قد أنام على مكتبى . واستطرد يقول إننى لا أدرى ماذا ألم بى يادكتور .. أشعر بالإختناق وضيق التنفس طوال الوقت . وقد ذهبت الى المستشفى خوفا من أن يكون فى قلبى مرض ـ إلا أن الدكتور هناك أبلغنى بإن قلبى لا بأس به وأن مشكلتى نفسية خالصة ، وإنها ستتحسن بمرور الزمن ونصحنى بأجازة .. ولكن حالتى لازالت كما هى وأخاف أن أخذ إجازة لأننى لا أعرف كيف سأقضيها ؟ ومع من ؟. كان واضحا أن الشاب يعانى من حالة قلق شديدة بدأت أثارها تشمل الجسم (شعور بالأختناق وضيق تنفس) فضلا عن الاحساس نفسه : إضطراب وخوف غير محدود المصدر ، وقد بدأ ذعره يتزايد مؤخرا . وبعد محاولة تشجيعية للبحث عن الظروف الأجتماعية التى أحاطت به حديثا تبين أنه أعزب

وأنتقل للعمل فى إحدى الدول العربية التى تم لنا لقاؤه فيها ، وانه كان قد تعرف فى إحدى زياراته لمصر بفتاة أسرع بخطوبتها واتفق معها على أن يتم الزواج خلال زيارته القادمة . ولكنه تلقى منها رسالة تفيد برغبتها فى إنهاء الخطوبة . لقد أوضح أنه استلم الرسالة في عمله وما أن عرف محتواها حتى أصبح كالتائه . وعندما انصرف من العمل ، وأوى الى مخدعه كان من الصعب عليه أن يسترخى أو ينام ، وقام في منتصف الليل وهو يعانى من دوار شديد ورغبة في القيء ، وأخذ العرق البارد يتصبب منه . كان قلبه يدق فى عنف ، ووجد صعوبة فى التنفس العميق . وأخذ جزعه يتزايد متحولا الى ارتعاشات فى الجسم والأطراف . وتذكر أنه فكر : هاأنا ذا وحيد وضائع . وتذكر أيضا مشاعره هذه الليلة كانت خليطا من الغضب والحنق ، والشعور بالامتهان ، والخوف من مواجهة الأهل والأصحاب . وأضاف وهو يسرد لنا أعراضه ومخاوفه .. لقد فكرت فى اليوم التالى أن أذهب الى المستشفى ، لكننى كنت أعلم اننى تحت رحمة نوبة من القلق الشديد الحاد . وها أنا ذا هنا وبعد أن مضى على هذا الحادث أكثر من ستة شهور وبالرغم من أننى أعرف أن تصرفى أحمق .. ولكنه أمر ليس فى استطاعتى أن أتجنبه .

ذكرنا هذه الحالة لأن الأعراض فيها تعتبر نموذجا فريدا للتغيرات التى تصيب الناس فى حالات القلق والذعر . وهى من الواضح تغيرات تمس الأركان الرئيسية الثلاثة لشخصية الأنسان أى الجانب **العضوى ـ العضلى** ، وجانب **الوجدان** أو الاحساس أو الشعور ، ثم جانب **التفكير** .

فمن الناحية العضوية العضلية تحدث فى حالة القلق تغيرات غير سارة يرى العلماء أنها نتيجة للاستثارة الشديدة التى تحدث فيما يسمى بالجهاز العصبى السمبتاوى (الأستثارى) . وهو أحد الأجهزة الرئيسية التى تنشط فى مواقف الخطر والأنفعال ، ويؤدى نشاطها الى التأثير فى الأعضاء المتصلة به ، فتجحظ العيون أو تضيق ، وتعرق الأيدى أو تبرد أطرافها ، وتتزايد دقات القلب وتتسارع ، وتنقبض الأوعية الدموية ، وتستثار بعض الغدد كالغدد الدمعية فى حالات الحزن ... الخ . ونجد فى حالات القلق أن التغيرات العضوية تمتد لتشمل : تسارع دقات القلب ، جفاف الفم ، الدوخة ، العرق الشديد ، الغصة وانحباس الصوت أحيانا ، الغثيان نتيجة لانقباض المعدة ، التنميل فى اليدين والقدمين ، صعوبات التنفس والتى تكون إما على شكل العجز عن التنفس العميق ، أو التنفس السريع والمتلاحق .. وقد يجد الشخص نفسه فى حالات القلق مشرفا على التهاوى أو الأغماء . وتحدث إيضا تغيرات عضوية عضلية لعل من أمهما تصلب عضلات الظهر والرقبة ، والتصلب على امتداد عضلات الذراعين حتى أسفل الكتفين ، وارتعاشات الأطراف والأصابع ، وزيادة اللوازم الحركية فى الوجه وبالذات فى منطقة الفم أو العينين نتيجة للتوتر العضلى الشديد فى هاتين المنطقتين . ولهذا نجد أن كثيرا من المصابين بالقلق عادة ما يشكون من توترات العضلات ، وآلام الظهر وتقلبات المعدة وما يصحب ذلك من اضطرابات الهضم .

وعادة ما يرتبط التعبير عن القلق بآلام الصدر وضيق التنفس مما يجعل الشخص يشك فى الإمراض القلبية بالرغم

من سلامة القلب . إلا أن هناك ما يبين أن الأشخاص الذين يتسم سلوكهم بالقلق المستمر والشكوى عادة ما يتعرضون فيما بعد لأمراض قلبية حقيقية ، وترتفع لديهم أيضا الحالات المرضية المرتبطة بإرتفاع ضغط الدم .

من الناحية الوجدانية يكون الأنفعال الغالب هو الخوف والتوجس . وليس من المعروف ما إذا كان الخوف هو الذى يؤدى الى التغيرات العضوية التى تحدثنا عنها توا ، أو أنه نتيجة لها . ومن رأينا أن الخوف يدفع لإثارة التغيرات العضوية التى ما إن تحدث حتى يتزايد الخوف نتيجة لإضطراب هذه الوظائف والعجز عن التحكم فيها وضبطها ضبطا ناجحا . فضيق التنفس مثلا بالرغم من أنه قد يكون نتيجة مباشرة للشعور بالقلق ، قد يزيد من حدة القلق أكثر فإكثر بسبب خوف الشخص من الموت نتيجة للعجز عن التنفس . ولهذا فإن العلاج الناجح هو الذى يركز على التعديل من الجانبين فى نفس الآن ، وهو الذى يتطلب فى أحيان كثيرة تعاونا شديدا بين الطبيب البشرى والمعالج النفسى .

والسمات الغالبة فى تفكير الشخص القلق تتخذ مظاهر منها : التوقعات السلبية للمستقبل ، فالشخص فى حالات القلق نجده يتوقع الشر ويتصيد الدلائل الواهية على وقوع الكوارث والمصائب ولهذا نجد العالم الأمريكى المعاصر "البرت اليس" يصف تفكير القلقين بأنه من النوع **الكوارثى** Catastrophic . وقد عرفت من قبل معيدا بإحدى الجامعات المصرية يحول كل شىء الى كارثة .. فكان لا يسر إذا نجح ، أما اذا فشل فى شىء ولو صغير فقد كان هذا يتعادل فى ذهنه

مع نهاية العالم . وقد سألته مرة مستغربا عن سبب شعوره بالأنزعاج والظهور بمظهر الضيق حتى عندما تكون حياته على ما يرام وناجحة فقال إننى أؤمن بأننى اذا فرحت فإن الأمور ستنقلب منقلبا سيئا . وقد عودت نفسى - هكذا كان يستمر قائلا - بأن أغالب التعبير عن مشاعر السعادة والسرور خوفا مما سيحمله المستقبل من أخبار سيئة .

وما قاله لى هذا المعيد منذ عشرين عاما لازال فى تصورى يعكس بصدق إحدى الخصائص الهامة فى التفكير العصابى . ففضلا عن توقع الشر ، نجد أيضا أفكارا ووساوس مستمرة تدور حول امكانية الضرر المادى أو البدنى أو النفسى . وهو تفكير أحمق غير عقلانى أى أنه يخلو من **التفكير المنطقي والاستنتاج السليم** ، فنحن لا نعرف أى دليل يؤكد أن الأنسان إذا تفاءل أو إذا كافئته الحياة بنجاح فى موقف فإن هذا سيعنى أن مصيبة ستحدث فى جوانب أخرى من حياته بسبب هذا السرور .. كما كان هذا المعيد يعتقد خاطئا .

ومن مظاهر الاستنتاج غير السليم فى تفكير القلقين مايسمى **بالتعميم المتعسف** . فالخوف من بعض الحيوانات اثر خبرة سيئة يمتد ليشمل كل الحيوانات التى بينها وبين الحيوان الأصلى صلة تشابه قريب أو بعيد . والطفل الذى ينشأ فى جو أسرى قائم على التخويف والأرهاب يمتد خوفه لا من الأب وحده بل ليشمل المدرسين ، والمسنين ، وكل المواقف التى تنطوى على علاقات بالسلطة . والتلميذ الذى يوقعه الحظ السيىء بين يدى أحد المدرسين ممن يكثرون من

النقد والتوبيخ المستمر سيمتد قلقه ليشمل كثيرا من المواقف الأجتماعية التى تحتاج لقدرة على حرية التعبير والأنطلاق .

وقد يمتد التعميم أحيانا لا ليشمل طائفة محددة من المنبهات المثيرة للخوف ، بل قد يتسع ليشمل كل الظروف المكانية أو الزمانية التى حدثت مصاحبة للخبرة الأصلية المثيرة للقلق . فقد عادتنا سيدة أمريكية تطور لديها خوف شديد من الكلاب ، وانتشر لديها الخوف بعد ذلك ليشمل المنطقة السكنية بكاملها ، فبدأت تخاف من السير وحيدة فى المنطقة السكنية المحيطة بها ، وبدأت أيضا تخشى الليل والظلام حتى امتنعت نهائيا عن الخروج من المنزل بعد حلول الظلام . لقد تطور خوفها لا ليشمل طائفة الكلاب والحيوانات الفرائية بل أصبح خوفا يشمل الظلام والوحدة والمنطقة السكنية .. الخ . ولهذا فقد اشتملت خطتنا العلاجية لها فضلا عن تعويدها التدريجى على مشهد الكلاب متخيلة ، ثم مصورة ، ثم التشجيع على الاحتكاك المباشر بها من خلال الشجيع والاسترخاء ، اشتملت خطتنا العلاجية لها فضلا عن ذلك على خطة لتكشف الأفكار اللامنطقية التى بنتها عن نفسها وعن العالم من خلال هذه الخبرة ثم الدحض التدريجى من جانبنا لخطأ التعميم المتعسف والاستنتاجات اللامنطقية التى بنتها المريضة عن نفسها وعن العالم تحت تأثير حالاتها الشديدة من القلق .

ولا نعنى بسرد هذه القائمة من الأعراض العضوية والتغيرات النفسية والخصائص الفكرية التى تميز القلق وترتبط به أن نقرر بأن كل هذه الأعراض تأتى متجمعة مع كل

أنواع القلق . صحيح - فيما أوضحنا من قبل إن المشاعر التى تمتلك القلقين واحدة مهما تعددت مصادر قلقهم ، إلا أن التزايد الشديد فى حدة القلق فى نوع من أنواعه عادة ما لا يكون مصحوبا بكل الأعراض الفسيولوجية وإنما بجزء منها خاصة توترات المعدة المصحوبة بمشاعر استثارة . أما القلق الشديد ونوبات الذعر فعادة ما تلتقى فيهما كل التغيرات العضوية مثل ارتفاع ضغط الدم ، وزيادة نشاطات الغدد والتوترات العضلية والرعدة ، وزيادة معدل التنفس ونشاط دقات القلب .. الخ . فضلا عن الأعراض الفكرية والوجدانية كالتعميم المتطرف ، والمبالغات الزائدة التى تؤدى الى استنتاجات "كوارثية" .. الخ .

والخلاصة :

القلق حالة وجدانية غير سارة تتسم بالخوف والتوجس وتوقع الأخطار والكوارث . وليس بالضرورة أن تكون هذه الأخطار حقيقية بل يكفى أن يراها الفرد كذلك . والقلق خبرة بشرية عامة عانى ويعانى منها كل فرد دون استثناء . وما يميز المرضى بالقلق عن الأفراد العاديين هو أن المرضى يختبرون مواقف القلق فى غالبية الوقت ، ويختبرونه بدرجات أشد من الآخرين . وبالرغم من أن بعض الناس قد يتصور دائما أن القلق علامة على المرض فإن هذا غير صحيح لأن حالات من القلق المحمود الذى يدفع الانسان للنشاط والأعداد للمستقبل ومواجهة الأخطار الفعلية . ومثل هذا النوع من القلق يختلف عن القلق العصابى أى القلق المرضى وهو قلق حاد .. متواتر

ومعطل لامكانيات الانسان عن النمو . وللتعرف على القلق العصابى يجب أن نلاحظ التغيرات أو الأعراض فى ثلاث فئات رئيسية من السلوك هى النواحى العضوية ، والنواحى الشعورية أو الوجدانية والنواحى الفكرية . ففى حالات القلق تحدث تغيرات عضوية غير سارة بعضها داخلى يرتبط بتوترات المعدة ، وضغط الدم ، وزيادة الأفرازات الهرمونية ، وبعضها خارجى (يرتبط بالتوترات العضلية ، والوجه وزيادة اللوازمَ الحركية والرعشة) . وتكون هذه التغيرات العضوية إما نتيجة أو سببا فى استثارة مشاعر وجدانية وفكرية محورها الانشغال الشديد ، والاستثارة السريعة ، والخوف ، وانتشار الأحلام المزعجة ، والأرهاق السريع ، وتوقع المصائب ، وتعميم الخبرات السيئة على مواقف لا تتسم بالضرورة بالسوء .

الفصل الثاني

مجتمعات انسانية عرفت القلق

- هل حقا نحن فى عصر القلق ؟
- القلق عبر التاريخ البشرى .
- هل وصف الأقدمون القلق واختبروه ؟
- القلق والعصاب والمخاوف المرضية عبر المجتمعات .
- القلق عبر المجتمعات العربية .
- نماذج من البحث فى مصر ، والكويت ، والسعودية وليبيا .

يحلو لكثير من الفلاسفة المعاصرين ، وشعراء هذا العصر وأدبائه أن يصفوا عصرنا هذا أنه عصر القلق . لكن الحقائق التاريخية تبين لنا أن القلق شعور قد عرفه الأقدمون كما عرفناه . كذلك أختبر الأقدمون المخاوف المرضية وعانوا منها كما نعانى نحن .

فمفهوم القلق إذن ليس جديدا من صنع علماء النفس المعاصرين . وما يرتبط بالقلق من مفاهيم كالجزع والخوف والهم والتوجس أشياء سادت أفكار الناس وسيطرت على مشاعرهم فى مختلف عصورهم الحضارية . وحاولوا ـ مثلنا ـ أن يفسروها ، وحاولوا ـ مثلنا ـ أن يجدوا طريقا لعلاجها . ويؤكد لنا علماء التاريخ ـ مثلا ـ أن الكتابات الهيروغليفية التى تركها المصريون القدامى قد أشارت الى القلق وشرحته . ويؤكدون لنا ـ مثلا ـ أن فكرة الخلود التى ملكت عقول الفراعنة ودفعتهم لبناء الأهرامات الشامخة والمعابد المهيبة قد قامت على هذا الشعور الأبدى بالقلق من الموت والخوف من الفناء .

فأبيقراط الحكيم (٤٦٠ ـ ٣٧٧ ق .م) يحدث اليونانيين القدامى عن أحد أنواع القلق حديث العارف فيصف لهم حالة رجل تملكه الخوف من الأماكن المرتفعة لدرجة أعجزته عن

السير فوق الكبارى المرتفعة ، أو حتى الوقوف على الصخور النائية فوق سطح الأرض .

وفى العصور الوسطى نجد الفيلسوف العربى علاء بن حزم القرطبى يؤكد أن القلق حقيقة أبدية ، ويعامله ـ كعلماء النفس المعاصرين ـ على أنه شرط أساسى من شروط الوجود الأنسانى . ويبدو أن العرب لمَ يكتفوا بوصف القلق وشرحه ، بل اهتموا أيضا بعلاجه كما كانت تعالج الهموم والمشكلات النفسية الأخرى بالطرق الطبية المعروفة لهم آنذاك . وقد تفوق الطبيب الفيلسوف "أبن سينا" على غيره من الأطباء فى الشرق والغرب عندما تنبه الى ما يتركه القلق والأنفعالات على الجسم ووظائفه من تغيرات .

ولفخر الدين الرازى محاولات مماثلة لتعريف القلق ووصفه وما يتركه من آثار على النفس والسلوك ضمنها فى كثير من كتبه خاصة كتابه المعروف "المباحث الشرقية فى علم الآلهيات والطبيعيات (الرازى ١٩٦٦ ، الجزءان : الأول والثانى)" . صحيح أن الرازى لم يستخدم مفهوم القلق بالضبط لكنه يحدثنا عن أحد الأنفعالات المرتبطة إرتباطا رئيسيا بالقلق وهو الخوف . ويعرف الخوف تعريفا لا يختلف عن غيره فى الكتب الحديثة . أنظر الى ما يقوله الرازى فى تعريفه للخوف :

"إنه متى ظن (الأنسان) أن أمراً مضرا **يحدث فى المستقبل** ، فإنه تتبع هذا الظن حالة تسمى خوفا"

وعندما يصف الرازى مايسمى "بضعف القلب" تشتم من حديثه شيئا مماثلا عما نعرفه عن القلق ، خاصة عندما يدرك

أن ضعف القلب "حالة بالقياس الى الأمر المخوف من جهة قلة إحتماله" ، وأن من لوازم ضعف القلب أنه "يحرك (الأنسان) الى الهرب" . وفي هذا الوصف بهذا الجانب من القلق وما يتركه من رغبة في الهروب من الموقف المخوف نرى صلة قوية بتعريف علماء النفس المعاصرين للقلق على أنه يعد الأنسان لمواجهة المخاطر بالهروب منها أو الهجوم عليها .

وفي سنة ١٦٣١ م صدر كتاب "تحليل الحداد" لبيرتون في أوروبا **Burton** وفيه تحدث عن القلق بإسهاب ووصفه كما يصفه علماء النفس المرضى المعاصرين من حيث ما يتركه من آثار على النفس والبدن فيقول :

"كثيرة الأثاره المؤلمة التي يتركها (القلق) على الأنسان بمافي ذلك الشحوب ، أو احمرار البشرة ، والرجفة والعرق ، وكثيرة آلام هؤلاء الذين يعيشون في خوف .. إنهم لا يستطيعون أبدا أن يتحرروا أو أن يشعروا بالأمان ، عزائمهم خاوية ، وآلامهم قاسية ، وحياتهم تخلو من البهجة .. ولم أجد تعاسة أعظم ولا ألما أضرى ، ولا عذابا أقسى من العذاب الذي يحتويه" .

وقد كتب "بيرتون" فضلا عن هذا الوصف الدقيق عن كثير من الحالات التي عانت من آثار هذا الأضطراب :

" فهناك من لا يستطيع أن يسير وحيدا خارج المنزل خوفا من السقوط أو الموت . وهناك من يخاف أي إنسان يلتقي به خوفا من أن يسلبه ماله أو يوقع به الأذى . وهناك من لا يجرؤ

على التجول بمفرده خوفا من أنه سيلتقى بالشيطان أو بمجنون ، أو لص . وهناك من يخشى أن يعلو بصوته فى لقاء عام ، أو إحتفال خوفا من أن يكون قوله نابيا ، أو تافها ، أو خارجا عن المألوف . وهناك من لا يجرؤ على البقاء فى حجرة موصدة دون أن يشعر بالأختناق أو الغثيان" .

كذلك يكشف لنا تاريخ الطب النفسى عن حقائق تبين لنا أن القلق لم يميز بين العظماء والصعاليك . وهناك ما يثبت أن حياة كثير من العظماء والمشاهير لم تنجُ من مشاعر القلق وضراوته . فالقيصر أغسطس "**August**" كان يجزع من الظلام ولم يكن يجرؤ على البقاء فى مكان مظلم بمفرده . وعانى كثير من افراد أسرته القياصرة من بعده من حالات كثيرة تشبه المخاوف المرضية الشديدة وتقترب من العصاب والجنون ، مثل "كاليجولا" ، و"نيرون" **Nero** ، و"كلوديوس" . وكان هذا الأخير يتلعثم ويتهته عندما يتحدث مع الأخرين أو عندما يخطب فى الرومانيين . وهناك أيضا الملك "جيمس الأول" الذى كان يجزع من رؤية السيوف إذا شهرت لدرجة أن معاصريه كان يعلقون عليه فيما بينهم مازحين "لقد أصبحَت اليزابث (زوجة الملك جيمس الأول) هى الملك ، وتحول جيمس الأول الى ملكة" .

ويسجل لنا رونالد فييف (**Fieve**) ـ وهو طبيب نفسى معاصر معروف بسبب اكتشافه لعقار الليثيام **Lithium** المعروف بتأثيره الأيجابى فى علاج حالات التقلب الأنفعالى ـ يسجل لنا أن الرئيس الأمريكى "تيودور روزفلت" كان فضلا عن إصابته بمرض الهوس والاكتئاب يعانى من حالات شديدة

من القلق فكان لا ينام إلا لماما ، ويغرق نفسه فى اتصالات هاتفية دائمة ، وكتابات تافهة مستمرة .. كان يبدو أنها محاولة منه لتجنب مشاعر القلق الحادة والأكتئاب المتأصل فيه منذ الصبا .

وبالمثل يبين تاريخ الأدباء والفنانين شيئا مشابها . فالكاتب الأيطالى "مانزونى" كان يخاف أن يغادر منزله بمفرده خوفا من الإغماء ، ولهذا كان يحمل معه زجاجة "خل" صغيرة يتنقل بها إذا ما كانت هناك ضرورة لخروجه . ومن المعروف عن الشاعر العربى "إبن الرومى" أنه كان مسرفاً فى تشاؤمه وتخوفه لدرجة أنه كان يرفض أن يخرج من داره إذا ما تلمس أى علامة من علامات التطير وكان فى ذلك مسرفا ومبالغا لدرجة المرض . ويصف لنا طه حسين أن أبا العلاء المعرى قد سجن نفسه فى منزله هروبا من الناس لدرجة أنه يصفه بأنه سجين المحبسين : العمى البصرى ، والخوف من الناس ، ويبدو لنا أن أبا العلاء المعرى كان يعانى بلغة علم النفس الحديث ـ من حالة قلق إجتماعى شبيهة بما يسمى بالخواف الإجتماعى ـ **Social Phobia** تظهر فى هذا البيت الشعرى الذى كتبه أبو العلاء وهو تحت تأثير هذا الخوف :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب
إذ عوى ، وصوت انسان فكدت أطير

ومن أدباء مصر المعاصرين المعروفين الدكتور/ يوسف إدريس الذى يوجد ما يدل على أنه يمر بحالات كثيرة من القلق وبالذات ما يسمى بقلق الأماكن المتسعة . يروى لنا إلان أموس (**Smos**) أنه إلتقى ذات مرة بالكاتب المصرى يوسف

ادريس وخرج معه فى إحدى الأمسيات لزيارة إحدى الأحياء الشعبية بمدينة القاهرة بمناسبة إحدى الأحتفالات الدينية المعروفة "وكان الطريق مزدحما ، ومكتظا بالناس الذين وفدوا الى المكان بسبب هذه المناسبة الدينية . وكانت سيارتنا تتحرك ببطء شديد خلال الزحام ، وفجأة انتابت "ادريس" نوبة حادة من نوبات الخوف من الأماكن الواسعة . وأخذ "ادريس" يصيح فى ذعر طالبا الأنصراف ، والبعد عن الزحام .. كان يرجف ويكرر طالبا إنهاء هذه الزيارة ، والبعد عن الحشد الذى كان لا يزال يتكاثف من حولنا" .

ومن الغريب أن "سيجمند فرويد" الذى يعتبر من أكثر العلماء اهتماما بوصف القلق وعلاجه ، قد عانى أيضا من أعراض القلق بما فى ذلك الخوف الشديد من السفر عندما كان فى الثلاثينات .

والخلاصة أن القلق يمكن أن نراه كما كان يراه الفيلسوف العربى "ابن حزم" على أنه حقيقة أبدية . وأنه حدث ويحدث فى مختلف الأوقات والعصور ، ويصف الناس على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم . على أن البعض قد يتساءل عن ضرورة الأهتمام بشىء شائع كهذا . بعبارة أخرى قد يسأل البعض إذا كان القلق شائعا بهذا القدر فما هو وجه الضرورة فى دراسته وما وجه الخطر فيه ؟

وأجابتنا على هذا السؤال أن انتشار القلق بين الناس لا يقلل من خطورته ولا يعنى القبول والرضا عنه إذا وجد . وسنرى فيما بعد الآثار المدمرة العميقة التى يتركها القلق على الشخصية وعلى المجتمع . وسنرى أن هذه الآثار كفيلة بأن

تجعل من القلق موضوعا هاما للدراسة ، وأن تجعل من محاولات العلماء والأطباء لاستكشاف السبل المناسبة للتخلص منه من أقدس المحاولات وأجلها .

وننتقل الآن الى الوضع المعاصر للقلق .

القلق والعصاب والمخاوف المرضية عبر المجتمعات :

تتفاوت المجتمعات الأنسانية المعاصرة فيما بينها من حيث درجة التصنيع والتمدن . وهناك زعم يشيع بين بعض علماء الأجتماع يرى أن المجتمعات الصناعية أكثر استهدافا للقلق والأضطرابات الأنفعالية من المجتمعات النامية بسبب ما يثيره التقدم الحضارى من ضغوط نفسية Stress . فهل هذا صحيح ؟ هل حقيقة أن التقدم الحضارى والمادى يكون تربة خصبة لظهور القلق ؟

إن نتائج البحوث التى أجراها العلماء الغربيون ونتائج البحوث فى الدول العربية تبين أن إجابة هذا السؤال لا تتفق مع الزعم الشائع الذى يرى أن القلق ظاهرة تختص بالمجتمعات الصناعية .

وتعتبر دراسة العالم الأنجليزى ـ الأمريكى المعروف كاتل وزملائه ، من أهم الدراسات التى أجريت لمقارنة القلق بين ستة مجتمعات انسانية تتفاوت فيما بينها من حيث مستوى التحضر والتقدم الصناعى هى : الولايات المتحدة . بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا ، وبولندا ، والهند .

لقد كان من المتوقع أن يصل مستوى القلق فى المجتمعات الأنجلو أمريكية وعلى رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا الى أعلى درجاته وذلك انطلاقا من التصور التقليدى بأن المجتمعات الغربية تتميز بالتنافس والنشاط الشديد والأيقاع السريع وبالتالى تعمل على إثارة القلق والتوتر . إلا أن النتائج سارت على عكس هذا التوقع ، وترتبت المجتمعات الستة من حيث ارتفاع مستوى القلق على النحو الآتى : بولندا ، الهند ، ايطاليا ، فرنسا ، بريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية . أى أن بولندا كانت من أكثر المجتمعات الستة إرتفاعا فى مستوى القلق ، والولايات المتحدة من أقلها . ولهذا نجد أن "كاتل" ينصح بأن ننظر للقلق والعصابية على أنهما :

(١) يتزايدان فى المجتمعات النامية ، والمجتمعات الفقيرة أكثر من المجتمعات المتقدمة بسبب الضغوط التى تخلقها ظروف التكيف لواقع إقتصادى قاسى .

(٢) إن المجتمعات التى تتجه فيها النظم الأجتماعية والسياسية نحو التسلط ، تعمل على كف تلقائية الأفراد وتحد من نموهم النفسى والفردى ، ويصحب ذلك شيوع فى المظاهر العصابية والتوتر النفسى والقلق .

(٣) يتزايد القلق في المجتمعات التى يتجه أفرادها نحو الخضوع الشديد والمجاراة ، ويتضاءل فى المجتمعات التى تشجع على المناقشة والتعبير الحر .

ونعتقد من جانبنا ـ أن هذه التفسيرات صحيحة بناءً على ما تجمع لنا من نتائج في دراسة الشخصية فى المجتمعات العربية كما سنرى فيما يلى :

القلق عبر المجتمعات العربية :

تعتبر المجتمعات العربية فى عرف أهل السياسة والاجتماع من المجتمعات النامية أى المجتمعات التى لم تبلغ بعد شأن المجتمعات الغربية من حيث التقدم المادى ـ الصناعى والتعقد الحضارى . وقد أشرنا الى أن البعض قد يظن نتيجة لهذا أن القلق والاضطراب النفسى لا يشيعا فى الدول العربية بكثرة لبساطة هذه المجتمعات من ناحية ولأنها ليست فى مستوى التعقد الحضارى العربى من ناحية أخرى . فهل هذا صحيح ؟ .

للإجابة بموضوعية عن هذا السؤال قمت شخصيا ـ خلال الزيارات المتعددة لكثير من بلدان الوطن العربى ـ بإجراء عدد من الدراسات عن شيوع القلق فى مصر ، والسعودية ، وليبيا ، والكويت . وقد أمكن لنا خلال هذه الدراسات من الإجابة على عدد متنوع من الأسئلة فى هذا الموضوع منها :

ـ هل نحن فعلا أقل قلقا وأقل تعرضا للإضطرابات النفسية المرتبطة بالقلق ؟

ـ ماهى أنواع القلق الشائعة بيننا ؟ وماهى مصادر الأضطراب فينا ؟

ـ ماهى جوانب التشابه والأختلاف بيننا وبين غيرنا من المجتمعات الأخرى فيما يتعلق بمظاهر القلق وأشكاله ؟

والى بعض نتائج هذه الدراسات فى المجتمعات العربية نوجه الأن انتباه القارىء .

فى مصر ـ مثلا ـ تبين لنا فى دراسة مقارنة أجريناها على

ثلاث مجموعات من الطلاب فى أمريكا وبريطانيا ومصر أن نسبة القلق ومستويات العصاب تزداد بين المصريين يتلوهم الأمريكيون ثم الأنجليز . بعبارة أخرى عبر أفراد العينة المصرية أكثر من أفراد العينتين الانجليزية والأمريكية عن علامات دالة على التقلب الأنفعالى ، والتطرف والأنزعاج ، فضلاً عن تزايد المشكلات المرتبطة بصعوبات فى النوم ، والمعاناة من الأرق ، وخفقان القلب ، والتنميل والآلام العضلية .. وكلها مظاهر يراها العلماء معبرة عن القلق وتميز المصابين بالعصاب .

واذا كان القلق فى الدول الغربية يأخذ شكل الصراع الداخلى والتعبير عن مشاعر الضغط ، والهروب الى العقاقير والخمور ، والعجز عن الحسم ، والتوجس فإنه يظهر بين المصريين - كما تبين دراسة أخرى أجريناها فى مصر - بصورة مختلفة : شكاوى جسمية ، آلام فى المفاصل ، وآلام فى الظهر ، وخفقان القلب ، والتعب السريع ، وتنميل ، وضيق "التنفس" . بعبارة أخرى ، فإن الشخص القلق فى مصر عادة ما سيشكو - لو اتيحت له فرصة الذهاب الى طبيب أو معالج - من الآلام والمظاهر الجسمية المرتبطة بالقلق . ويوضح لنا "راك" أن الشكاوى الجسمية تكون هى الطابع الغالب على المرضى بالأكتئاب والقلق فى المجتمعات النامية كالهند والباكستان وجنوب شرقى آسيا . ونتائج دراستنا المصرية تؤيد ذلك وتثبت أن المصرى - ربما بسبب عدم اتاحة الخدمات النفسية من جهة ، والخجل من التعبير عن الأضطراب النفسى من جهة أخرى ، سيتجنب الشكاوى ذات الطابع النفسى المرتبطة بالقلق مثل الخوف والذنب

والتوجس ، وسيكتفى بالتعبير عن الألم الجسمانى بمظاهره المختلفة ، كالصداع ، وآلام الظهر أو المعدة .

وإذا صح ما يقال إن المخاوف العصابية تنتشر بنسبة تتراوح من ٣٠ : ٣٥٪ من أفراد المجتمع فى الدول الصناعية ، فإن دراساتنا تبين أن انتشاره فى المجتمعات العربية يصل الى نفس النسبة ، أو أعلى عن ذلك بكثير فى بعض الأعراض المحددة . ويتأيد ذلك فى دراسة قمنا بها فى ليبيا عن إنتشار مظاهر القلق الأجتماعى كما يظهر فى عدم الثقة بالنفس فى مواجهة الأخرين ، أو الخوف من التعبير عن الأنفعالات والحاجات النفسية عند التعامل مع أفراد المجتمع والأسرة ، فتبين لنا أن ما يقرب من ٥٣٪ من أفراد العينة الليبية عبر عن مشكلات متعلقة بإنخفاض الثقة بالنفس ، وتأكيد الذات . وقد إزدادت هذه النسبة فى بعض المشكلات الفرعية ، والتى منها :

- الأعتذار بكثرة ٩٦٪
- المحافظة على الهدوء بحثا عن السلام ٨٥٪
- تخبئة المشاعر الحقيقية فى مواقف الضيق بدلا من التعبير عنها . ٧٥٪
- وجود صعوبة فى بدء مناقشة أو حديث مع الغرباء ٦٥٪
- وجود صعوبة فى تأنيب مساعد أو شخص أقل منزلة ٦٥٪
- تجنب الأشخاص المحبين للسيطرة والتسلط ٧٣٪
- تجنب الشكوى من الخدمة السيئة فى مطعم أو مكان عام ٥٧٪

ودرسنا فى العينة أيضا عاملاآخر تبين دراسات علماء النفس أنه شديد الصلة بالقلق وهو الخجل الإجتماعى

بمظاهره الدالة على الأنسحاب والخوف من التلقائية عند التعامل مع الناس . وبالرغم من أن شيوع الخجل فى العينة الليبية كان أقل من شيوع القلق الإجتماعى فى الدراسة السابقة ، إلا أن النتائج فى عمومها دلت على أن ما يقرب من ٤٥٪ فردا من أفراد الدراسة عبر عن مشكلات متعلقة بالخجل . وقد ازدادت هذه النسبة فى بعض المشكلات الفرعية الآتية :

- الشعور بالحرج عند تبادل الأحاديث مع الناس فى اللقاءات العامة ٦٥٪
- عدم الشعور بالراحة أو الهدوء عند الوجود وسط مجموعة كبيرة من الناس ٦٠٪
- تجنب الأنضمام لجماعة كبيرةٍ من الناس تتحادث فيما بينها ٥٤٪
- تجنب المواقف التى تستدعى اللقاء بالأخرين ٥٤٪
- إختلاق الأعذار لتجنب فرص الأحتكاك بالأخرين أو الرحلات ٥٠٪

أما فى **المملكة العربية السعودية** فإن النتائج التى توصلت اليها بالتعاون مع الزميل الدكتور/عبدالله النافع فقد اعتمدت على دراسة (٣٨٠) طالبا جامعيا بجامعة الملك سعود بالرياض . كان هدفنا من هذه الدراسة أن نحدد أنواع المخاوف وحالات القلق والاكتئاب الشائعة بين طلاب هذه الجامعة ، والى أى مدى يرتبط ظهور هذه الأضطرابات بالتغيرات الأجتماعية الشديدة التى يمر بها المجتمع السعودى . وتعطى النتائج صورة مماثلة لدراستنا المصرية والليبية : **فمن ناحية** الأضطرابات الدالة على القلق

والعصابية عبر ٥٣٪ من أفراد العينة السعودية عن العجز عن التركيز جيدا فى موضوع واحد ، وذكر ٥٣٪ منهم أنهم يعانون من الخجل ، و ٤٦٪ قالوا إن من الصعب عليهم المحافظة على الأنتباه في موضوع واحد دون التجول الفكرى والسرحان ، و ٤٣٪ عانوا من الرعشة والأنتفاض عندما يستثيرهم أحد ، بينما عبر ٣٥٪ عن مخاوف مرضية مرتبطة بالحيوانات ، و ٣٣٪ عن مشكلات ومخاوف متعلقة بالدراسة والمستقبل .

أما من ناحية الأكتئاب وهو من أحد الأعراض التى تصاحب فى أحيان كثيرة حالات القلق فلم تختلف نتائج دراستنا للطلاب السعوديين عن نتائج الدراسات السعودية للمرضى السعوديين التى تبين أن حالات الأكتئاب تفوق مثيلاتها فى الغرب . أما بين الطلاب فقد عبرت نسبة مرتفعة منهم عن لوم النفس عندما تسوء الأمور (٦٤٪) ، وأنهم يشعرون بالعجز (٥٣٪) ، وأن شهيتهم للطعام ضعيفة (٤٩٪) ، وأن المجتمع لا يبالى بهم (٤٥٪) ، وأن حياتهم لا تثير إهتمامهم (٤٣٪) ، وأنهم يعانون من صعوبات متعلقة بالنوم (٣٨٪) ، وأنهم فقدوا شعورهم ببهجة الحياة وملذاتها (٣٣٪) .

وفى **الكويت** درس الباحثون مدى شيوع القلق ، وعدم الأستقرار الأنفعالى (غالى ، ١٩٧٥ م) . وتبين هذه الدراسات أيضا أن حظ الكويتيين لا يقل عن حظ غيرهم من أفراد المجتمع العربى من حيث شيوع المظاهر الدالة على القلق والتوتر النفسى . فقد إزداد شيوع العصاب بينهم أكثر من الأنجليز .

وتكشف المقارنة بين الذكور والإناث فى المجتمعات العربية عن نتائج أخرى تثير الأهتمام وتستدعى ضرورة تنبهنا لمصادر الخطر . ففى كل الدراسات التى قمنا بها تبين دائما أن الإناث أكثر تعرضا للقلق والتوتر النفسى من الذكور . كما أنهن أكثر ميلا لتطرف الأنفعالات والتقلب الوجدانى والأكتئاب من زملائهن من الذكور العرب . هذا الأرتفاع الملحوظ فى مستويات القلق بين الإناث العرب بالمقارنة بالذكور العرب وجدناه فى دراساتنا المصرية والليبية ، ووجده غالى فى العينات الكويتية ، ووجده أهلاوات (Ahlawatt) فى الأردنيات ، فى مقارنة الأطفال الأردنيين الذكور بالإناث . ونتائجنا العربية فى هذا الصدد لا تختلف عن كثير من الدراسات العالمية الأخرى التى بينت أن الأناث دائما يرتفعن عن الذكور فى مستويات التوتر النفسى والقلق ، ربما نتيجة للتوتر البيئى والضغط الأجتماعى الشديد على المرأة بسبب الأدوار المختلفة ومتطلبات التوافق لواقع إجتماعى يتعارض مع التلقائية والتعبير عن المشاعر بحرية .

والخلاصة أن النتائج تبين فى عمومها أن القلق والتوترات النفسية ترتفع فى المجتمعات العربية أو تتعادل ـ فى أحسن الأحوال ـ مع درجة شيوعها فى المجتمعات الصناعية . وتثبت أن هناك أنماطا من القلق تنتشر أكثر من الأنماط الأخرى فى المجتمعات العربية . فالقلق فى مصر ـ يظهر فى شكل شكاوى جسمية وعضوية ، والسمة الغالبة فى التعبير عن القلق فى ليبيا هى الخوف الاجتماعى والخجل ، أما فى الكويت فنجد إرتفاعا عاما فى مستوى العصابية . وتدل النتائج أيضا على أن المرأة العربية تعانى أكثر من الرجل

العربى من هذه الأضطرابات ، ولو أن هذا لا يقلل من خطورة معاناة الرجل العربى من الضغوط النفسية بالمقارنة بغيره من الذكور فى المجتمعات الحضارية الصناعية .

إن مجتمعاتنا العربية تعيش فيما يبدو فى فترة حادة من فترات الشد بين تيارات متعارضة يدفع بعضها للمحافظة والتقبل لما هو سائد من القيم والأتجاهات ، ويدفع بعضها الأخر للتطلع نحو النماذج الحضارية الغربية بتركيزها الشديد على الأستهلاك المادى والثروة . ومن شأن هذا الشد أن يستثير تطلعات متضاربة تثير فيما تثير كثيرا من جوانب القلق وعدم الأستقرار فى شخصيات أفراد هذا المجتمع .

ويمكن أيضا القول إن العلاقات الأجتماعية فى البلدان العربية تدفع للخضوع الشديد .. والمجاراة على المستويات الإجتماعية المختلفة بدءا من الأسرة بتشجيعها على التقبل الأعمى لسلطة الأبوين ، والمدرسة بتشجيعها للسلطة المدرسية ، والعمل بتشجيعه على الخضوع للنظام الهرمى الذى يجلس على قمته مدير العمل أو الرئيس ، وانتهاءً بالنظم الأجتماعية العامة التى تأخذ غالبا وضعا معارضا لحرية التعبير والتلقائية . ومن شأن هذه الضغوط وهذا التسلط أن يستثير كثيرا من جوانب الصراع النفسى والقلق .

ومهما كان السبب ، فإن من الضرورى مواجهة الأضطرابات النفسية وما تشيعه من نتائج سلبية بين الأفراد والنظم الأجتماعية فى داخل هذا الوطن . فمن هذه النتائج يجب أن نقلق ، ومن هذه النتائج يجب أن ننطلق بجدية نحو الأصلاح والتوجيه التربوى والصحى . وقلقنا من هذه النتائج مثال جيد للقلق المحمود الذى يدفع لمواجهة الخطر والتحفز الذكى لما تطرحه الحياة من مشكلات .



القلق وراثة وصناعة

- التهيـؤ والاستعـداد الـوراثـى للقلـق .
- صناعـة القلـق : الشـروط البيئيـة والتعلـم الاجتماعـى
- الأزمـات الاجتماعيـة والصـدمـات الانفعاليـة

في أحد المشاهد المعروفة يخاطب "ماكبث" نفسه فى مسرحية "شكسبير" التى تحمل نفس الأسم قائلا :

"لماذا أنا مستسلم لهذا الإيحاء ذى الصورة المروعة التى تنْصب منى شعر الرأس ، وتجعل من قلبى الساكن يدق أضلعى دقا على غير ما أعدته الطبيعة لذلك ؟" .

نعم !! إن طبيعة شخصية ماكبث الجريئة الغادرة والمغامرة لم تعده للخوف والقلق . ولكن الهزة الانفعالية والصدمة ـ التى تلت تآمره على مصرع دنكان "Dancan" ـ كانت من العنف بحيث لم تحتملها حتى هذه الشخصية التى "أعدتها الطبيعة لغير ذلك" .

ويعرف العلماء اليوم أن الخبرات الصدمية والضغوط النفسية والأجتماعية تشكل واحدة من المصادر الثلاثة الرئيسية الكفيلة بإثارة القلق ، وتطور مخاوفنا الرئيسية فى الحياة .

ونعرف اليوم أيضا أن الهزة الأنفعالية قد تكون من العنف لدرجة تجعلها وحدها كفيلة بإكتساب بعض مخاوفنا الرئيسية .

لكن القلق حتى يتحول الى طبيعة دائمة فى الشخصية

يحدث عادة بسبب التقاء عناصر ثلاثة يحسن التعرف عليها قبل التقدم لمعالجة القلق أو الشفاء منه :

(١) الاستعداد الطبيعى والتهيؤ الوراثى للإصابة .
(٢) التعلم الأجتماعى .
(٣) الصدمات ، أو الهزات الانفعالية التى تمر بالشخص .

وتبين هذه العوامل الثلاثة أنه لا يمكن الحكم على السلوك العصابى بأنه نتاج كامل للظروف الأجتماعية والبيئية الأسرية ، كما أنه لا يمكن أن يكون بكامله نتاجا كاملا للشخصية والأستعدادات الموروثة . فلاشك أن الأنسان يشكل طبيعته من خلال ما يمر به من مواقف وظروف إجتماعية ، كما أنه يشكل رؤيته لهذه الظروف من خلال طبيعته وشخصيته . وجميعنا يعرف ويلاحظ أن كثيرا من الأشخاص قد يمرون بمواقف عصيبة واحدة لكن استجاباتهم المباشرة أو الدائمة تتباين وتختلف بإختلاف ادراكهم لهذه المواقف العصيبة . فبعضهم ينفعل ويغضب ، وبعضهم قد يهرب من هذه المواقف ومن كل المواقف المماثلة ، وبعضهم قد يطور مرضا جسميا كلما لاح فى الأفق ما يدل على وجود ظروف سيئة ، وبعضهم قد يتخذ من هذه المواقف عظة وعبرة متنقلا بشخصيته الى درجة عالية من التكامل والتوافق . وأتاحت لى الظروف أن أشاهد عن قرب وأن أسمع من يقول لى أن هناك من تعرض لكثير من الأزمات الحادة ليخرج منها أكثر إصرارا على تحقيق ذاته والإندفاع فى القضايا الهامة لمجتمعه ، وهناك من خرج من هذه الخبرة لاعنا نفسه ، وناقما على مجتمعه ومتخذا من السلبية والإنزواء أسلوبا لحياته . فالخبرة الواحدة تترك نتائج متعددة بحسب الأشخاص الذين

يتعرضون عليها وبما طبعوا عليه من حساسية أو برود ، وهدوء أو صخب ، أو عقلانية فى التفكير أو حماقة .

فالتعلم والأتعاظ من الخبرات الأجتماعية المبكرة والراهنة يرتبط إذن ارتباطا وثيقا بالأستعدادات الشخصية . ونتفق من جانبنا مع كثير من الباحثين والمعالجين النفسيين من أمثال "اليس" Ellis ، و"فرويد" Freus ، و"ماسلو" Maslow ، و"أيزنك" Eysenck أن العصابى شخص مهيأ للأستجابة العصابية أكثر من أن يكون مهيئا للاستجابة العاقلة والمتزنة بصدد ما يواجهه من خبرات . وأنا لا أعنى هنا أن الشخص يرث بصورة آلية الأعراض النوعية لاضطرابه العصابى مثل الخوف من الظلام ، أو التبول اللا إرادى ، أو الخوف من السلطة ، أو التشاؤم ، والنزوع الأحمق الى الكمال والصواب الدائم ، لا أعنى أن الأنسان يرث هذه الجوانب النوعية من القلق ، وأنهم ولدوا بها ، ولكننا نعنى أن الأنسان يولد باستعدادات انفعالية ، وحساسية زائدة واستثارة ، تتحول الى عصاب إذا ما تضافرت الأساليب الخاطئة من التعلم معها . فالطفل الذى يولد باستعداد وراثى للاستثارة والرهافة ، سيسهل عليه أن يتبنى القلق والخوف من السلطة كنمط دائم فى شخصيته إذا ما كان الأب من النوع الذى يعاقب ، ويقسو ويشتد فى فرض طرقه فى التعلم والتأديب . وقد لا يصبح بالضرورة عصابيا وقلقا إن كانت أساليب تنشئته وطرق تعامل والديه تتسم بالدفء ، والتقبل ، والمنطقية .

التهيؤ والأستعداد الوراثى فى حالات القلق :

وللعالم الأنجليزى أيزنك نظرية جيدة ومشوقة بهذا

الصدد ، وتوضح بالفعل أن القلق نتاج للتفاعل بين الأستعدادات الوراثية وما ينقش عليها فيما بعد من خبرات وتعلم . يرى أيزنك أن القلق يعبر عن مزيج من الأنطواء والتوتر . (نظرا للتطابق الشديد بين الأنطواء وزيادة النشاط الاستثارى "السمبتاوى" فى الجهاز العصبى المركزى ، فإننا سنستخدم المفهومين بالتبادل ولهذا فعندما نستخدم كلمة انطواء فإننا نعنى الإشارة الى الأستعداد الوراثى فى زيادة النشاط الأستثارى . ومن ثم فالأنطواء كما سنستخدمه هنا سيكون مفهوم نظرى نقصد منه الأشارة الى الخصائص المرتبطة بزيادة نشاط الجهاز العصبى المركزى والتوتر) بعبارة أخرى ، إن تطور القلق فى الشخصية لابد أن يكون مصحوبا أو مسبوقا بوجود درجة مرتفعة من الأنطواء . وقد بين أيزنك بأدلة متنوعة أن الأنطواء فى تصوره مفهوم يجمع بين خصائص وسمات شخصية من أهمها : حب التأمل ، والميل الى الوحدة ، والحذر ، والمسالمة ، والهدوء ، وعلاقات الأنطوائى بالناس محدود ولكنها تميل الى العمق .. صداقاته غير واسعة وليست منتشرة ولكنها ضيقة وعميقة ، ويميل الى السلبية والتأمل والرهافة فى الطبع ، والتخطيط البعيد للمستقبل .

ومن الطريف أن أيزنك يثبت أن الأنطواء موروث ، وقد بين من خلال دراساته في وظائف الأعضاء أن الأنطوائيين يرثون جهازا عصبيا مستقلا ذا درجة مرتفعة من الاستثارة . وإذا عرفنا أن الجهاز العصبى المستقبل هو الذى يتولى القيام بتوجيه الوظائف المرتبطة بالهضم والتنفس ودقات القلب وإفرازات الغدد ، وإذا عرفنا أن بعض الأجهزة العصبية لدى

بعض الافراد تكون من النوع السريع الاستثارة ، لكان من السهل علينا أن نستنتج مع أيزنك أن الأنطوائيين هم من هذا النوع الذى يرث جهازا عصبيا شديد الاستثارة . وهذه القابلية للاستثارة الشديدة فى الجهاز العصبى هى التى توجه الشخص الى الأستجابة الأنفعالية الحادة فى مواقف الخطر أو الغضب ، ومن مظاهر الاستثارة الشديدة فى الجهاز العصبى الزيادة فى نشاط الغدد العرقية ، والزيادة فى دقات القلب ، وانقباض الأوعية الدموية ، وزيادة نشاط بعض الغدد الأخرى كالغدد الدمعية فى حالة الحزن ، أو الغدتين "الأدرينالية" و"البنكرياس" اللتين تفرزان نتيجة لتلك الاستثارة كميات إضافية من هرموناتهما مما يؤدى الى ارتفاع نسبة السكر فى الدم ، وبالتالى تتكون طاقة سريعة تهيىء الجسم للحركة والعمل السريع . وتستثار أيضا الرئتان فيكون التنفس سريعا ومتلاحقا ، وتنقبض نتيجة للإستثارة العصبية الزائدة الأوعية الدموية فيرتفع ضغط الدم فيها .

وإذا كانت نظرية أيزنك صحيحة ، فإننا نتوقع أن تكون الوظائف الفسيولوجية بالأنطوائيين هى من هذا النوع الذى سبق ذكره . وقد بينت الدراسات العلمية التى أجراها أيزنك ومؤيدوه فى مناطق مختلفة من العالم أن كلامه صحيح . فقد تبين أن الأنطوائيين عادة ما تكون دقات قلبهم أسرع من العاديين ، وهم أيضا أكثر استجابة بأغماض عيونهم كفعل منعكس عندما تتعرض العين لجسم غريب ، وتزداد فى إيديهم كميات العرق أكثر من غيرهم .. وتدل هذه النتائج على صحة فرضية أيزنك بأن الأنطواء ماهو إلا تعبير سلوكى عن النشاط العضبى الأستثارى .

ولا يجب أن نفهم من ذلك أن كل زيادة فى النشاطات الأستثارية ستحول الشخص الى إنسان عصابى أو قلق . فالسمات والخصائص السابقة التى تميز الأنطوائيين ليست بالضرورة خصائص مرضية ومعتلة . فلا عيب أن يكون الشخص شديد الحساسية ، ومسالما ، وحذرا ، وميالا للهدوء وضبط النفس والتأمل والوحدة والاستبطان . لا عيب على الأطلاق فى ذلك ، بل على العكس يوجد فى العالم أناس كثيرون ممن بنوا شهرتهم ونجاحهم على أساس هذه الخصائص . فقد كان الفيلسوف الفرنسى "كانت" من هذا النوع ، وكان "جبران خليل جبران" من النوع المتأمل والميال للوحدة ، وأبو العلاء المعرى كان أيضا من هذا النوع . وإذا سمحت لنفسى ببعض التأمل والأستنتاج فإننى أضم لهذه الطائفة ، قائمة طويلة من العلماء والشعراء والساسة في الشرق والغرب من المتشيعين لخصائص الانطوائية من أمثال ـ نجيب محفوظ ، ويوسف إدريس ، وإبن الرومي والمعرى ، وشوقى و"بودلير" و"كيتس" .

هذه أمثلة تبين بوضوح أنه لا يمكن التعميم بوصف واحد على من يتسمون بتشابه في استعداداتهم الوراثية ، فليست كل زيادة فى النشاطات الإستثارية ستتحول الى قلق وعصاب . لأن هناك فئات ونماذج متنوعة من الأنطوائيين ممن يرثون أيضا جهازا عصبيا إستثاريا نشطا لكنهم يتسمون بصفات أبعد ما تكون عن المرض وأكثر ما يكونوا قدرة على الهدوء وضبط النفس والإحساس بالمسئولية .

ولا نعنى أيضا أن كل إنطوائى سيتحول الى شخص عصابى تتميز حياته بالقلق والمخاوف المنتشرة والصراع ،

لأن هذه الترجمة العصابية للإنطواء تحتاج لشروط بيئية وتعلم إجتماعى كما سنرى فيما يلى .

صناعة القلق : الشروط البيئية والتعلم الأجتماعى :

أن الأتجاه السائد الأن في تفسير الأتجاهات المختلفة التى ستتخذها الشخصية الأنطوائية يعتمد على ما يحكم الشخص الأنطوائى فى مراحل التطور المختلفة من الطفولة الى الشباب من شروط بيئية وتعلم إجتماعى . فإذا وضع الأباء متطلبات صارمة على الطفل المنطوى ، واتجهوا معه الى الصرامة والضبط الشديد والعقاب ، فإن من الأرجح أن تتجه الشخصية الى القلق والعصاب . وبنفس المنطق قد تتكون للمنطوى شخصية متزنة إذا ما تميزت علاقته بالأسرة بالدفء والتقبل .

فالأنطوائى قد يترجم للواقع انطوائه بلغات مختلفة بحسب ما تمر به شخصيته من خبرات إجتماعية وبيئية . والقلق هو الإضطراب الأنفعالى الذى تتشيع له الشخصية عندما **تتفاعل** ظروفها **الوراثية** مع **بيئة مضطربة** .

الى هنا ولم نذكر ماهى بالضبط الخبرات الاجتماعية وأنواع التعلم المضطربة التى من شأنها أن تتحول بالأنطواء الى المرض النفسى والقلق . هنا أيضا استطاعت البحوث أن تبين بالضبط هذه العوامل البيئية والتى نوجزها فيمايلى :

(١) أن يتعرض الطفل الانطوائى فى المراحل المبكرة من العمر لأخطار وصدمات مبكرة مثل الصدمات التى تحدث بشكل طارىء أو تؤدى لإصابة بدنية . وتعتقد "بروفى" أن

الفترة مابين سنتين وثلاث سنوات من حياة الطفل هى من أكثر المراحل إستجابة بالقلق والخوف عند مواجهة الأخطار المرتبطة بالصدمات والإصابات البدنية بما فى ذلك لدغة غير متوقعة من حشرة ، أو كسر فى العظام أو جرح عميق يؤدى الى نزيف فى أحد أعضاء جسم الطفل . ومن المعتقد فيما ترى "بورفى" أن المخاوف التى تصيب الأطفال من الموت ، والألم ترتبط بهذه الصدمات وتحدث فى تلك المراحل المبكرة من العمر . ولهذا فهى تنصح أن لا نأخذ مخاوف الاطفال المبكرة مأخذ الهزل أو السخرية منها ، بل من الأفضل أن نشجعهم ونطمئنهم حتى تنتهى هذه الصدمات بأقل أضرار نفسية ممكنة .

(٢) شخصية الأبوين : لقد كان لجهود الباحثين الفضل فى إثبات أن شخصية الطفل تتأثر تأثرا مباشرا بشخصية الأباء وبالآثار الناتجة عند تعاملهما معه . ويفضل العلماء النظر الى شخصية الأباء من حيث أساليب التفاعل مع الأطفال وفق بعدين أو عاملين رئيسيين :

العامل الأول : يمتد من الحب الى الغلظة : فبعض الأباء يعامل الأطفال بحب ، وتقبل ، ودفء . والبعض الأخر يميل الى الخشونة والتهديد والسيطرة وفرض القواعد والغلظة . على أن الغالبية العظمى من الناس تحتل مواقع متوسطة بين الحب والعداء : يتجهون لاظهار الحب أحيانا والى الغلظة أحيانا أخرى .

العامل الثانى : يمتد من التساهل الى التقييد : بعض الأباء أميل الى التساهل والمسايسة وبعضهم أميل الى تقييد

نشاطات الطفل والتسلط ، والغالبية العظمى تحتل موقفا وسطا بين التساهل والتقييد .

وإذا جمعنا بين هذين البعدين لكان من السهل علينا فيما يوضح الشكل رقم (١) أن نحدد أربعة أنواع رئيسية من الشخصية لكل نوع منها أسلوبها الخاص فى التعامل مع الطفل وتنشئته بالشكل الآتى :

(١) الآباء الذين يجمعون الحب بالتساهل (أو التسامح) وغالبا ما يكون الأطفال المولودون لأباء من هذا النوع من أكثر الأطفال إتزانا وصحة . وتبين البحوث أن الأطفال الذين ينشأون فى جو أسرى لأباء يتميزون بالحب والتساهل عادة ما تظهر لديهم فيما بعد خصائص ايجابية كالقيادة والأنبساط والثقة بالنفس والإبداع والميل للإستقلال مبكرا .

(٢) الآباء الذين يجمعون بين الحب والضبط وغالبا ما يتجه الأطفال الذين ينشأون فى هذا الجو إلى المجاراة وتقبل المعايير الاجتماعية ، والتوافق ولو أنهم عادة ما يكونوا أميل للإعتماد والتبعية .

(٣) أساليب التنشئة التى تتميز بالتساهل والعداوة .. وفى مثل هذا المناخ تتجه الشخصية فيما بعد إلى الجنوح الاجتماعي والميول الاجرامية .

(٤) أما النمط الرابع فهو النمط الذى يرتبط بظهور القلق ، والكف ومشاعر الذنب والنقص .. وضيق الخبرة .. بعبارة أخرى فإن هذا النمط من التربية التى تجمع بين التقييد والعداوة هو الذى يوجه الشخصية نحو السلوك العصابى بما فيه القلق .

من السهل إذن أن نستنتج بأن الطريقة المثلى لتجنب إصابة الأطفال بالقلق والخوف هى أن نتجنب معاملتهم بصورة عدائية وأن نشجعهم على الانطلاق والحرية فى التعبير عن النفس والانفعالات . وإذا كنت تريد لطفلك أن يكون مبدعا وقياديا ومستقلا بذاته فعليك أن تعامله بمزيج من الحب والتسامح ، لكن عليك أن تتوقع أن ينضج طفلك اجتماعيا بشكل مبكر وأن يستقل بنفسه ويبتعد عن الأسرة فى فترات مبكرة . أما إن كان طريق الابداع والقيادة والاستقلال الذاتى لا يهمك وتريد بدلا من ذلك أن ترى إبنا وديعا متعاونا ومعتمدا عليك وعلى الأسرة فإن الحب مع التقييد يعتبر أسلوبا ملائما لتحقيق هذا الغرض . ومن المؤكد أننا لا نحب أن نرى أولادنا بين فئات المجرمين والجانحين والساخطين ، ولهذا فمن الأفضل أن نتحاشى الأساليب العدوانية الممتزجة بالتساهل والتجاهل والرفض (أى التسامح مع العدوان) تماما . كما يفضل أن نتحاشى الأساليب العدوانية المتسمة بالتقييد بسبب ما تخلقه من قلق وعصاب ، وعدم استقرار ، ووساوس .

الأزمات الاجتماعية والخبرات الصدمية :

درس العلماء ما تتركه الأزمات الإجتماعية والصراعات المختلفة التى يمر بها الفرد من آثار على الشخصية وتطور الجوانب المرضية فيها بصور متعددة منها :

(١) تعريض الأشخاص فى مواقف تجريبية مضبوطة لعدد من الظروف الضاغطة والتوترات ثم ملاحظة ما يعتريهم من حالات قلق أو توتر قبل التعرض لهذه الشروط وبعدها .

(٢) دراسة الأفراد فى ظل شروط طبيعية توصف بالتوتر الشديد والصراع والإثارة وذلك كدراسة القلق فى ظل الحروب والغارات ، أو تحت ظروف شخصية أخرى كالطلاق ، والهجرة والتعرض للإغتيال أو القتل .

(٣) دراسة القلق فى جماعات يسهل وصفها أنها تعيش فى أزمة أو صراع أو ضغط وذلك كالمراهقة ، والحالات العصبية التى تتجه للعلاج النفسى ، والنساء بالمقارنة بالذكور ، والفقر .. الخ .

وتكشف هذه الدراسات عن نتائج متنوعة ومتضاربة لكنها استطاعت أن تكشف عن أن هذه الأزمات تتباين فيما بينها فيما تتركه من آثار نوعية على القلق .

فمن ناحية علاقة القلق بالجنس تبين غالبية الدراسات التى أجريت فى مناطق مختلفة من العالم ، إن القلق يرتفع عموما بين النساء بالمقارنة بالذكور ويزداد إرتفاع النساء عن الذكور فى مستوى القلق فى المجتمعات العربية وأوروبا الشرقية بالمقارنة بأمريكا . ومن غير المعروف ما اذا كانت هذه الزيادة فى المجتمعات غير الأمريكية ترجع الي زيادة الضغوط والقمع بين النساء أكثر من الذكور ، أم أن الذكور فى هذه المجتمعات يكتمون تعبيرهم عن القلق والمخاوف أكثر من النساء بسبب الاستهجان الأجتماعى وعدم تقبل الظهور بمظهر القلق والخوف بين الذكور .

ويبين المرشد الطبى النفسى الأمريكى أن المقارنة بين الذكور والإناث تكشف عن نتائج محددة فيما يتعلق بانتشار المخاوف المرضية والقلق . فبين النساء تزداد نسبة المخاوف

المرضية خاصة حالات الخوف المرضى من الأماكن الفسيحة والخارج **Agoraphobia** ، والخوف المرتبط ببعض الحيوانات (كالكلاب والوطاوط ، والحشرات ، والفئران) ، والأماكن المغلقة والمرتفعات . كذلك ترتفع النسوة عن الذكور بالنسبة لحالات القلق العصابى ونوبات الجزع المؤقتة أو المزمنة . أما القلق العام الذى يتميز بالتوترات العضلية وبزيادة النشاط الاستثارى فى الجهاز العصبى (مثل زيادة العرق وزيادة **نبضات القلق** ، والصداع ، **وجفاف القلق** ، وضيق التنفس ... الخ) والتوجس شرا ، فلم يوجد ما يدل على إرتفاع جنس دون أخر إذ يتوزع هذا النوع من القلق بين الجنسين بالتساوى . ويتساوى الجنسان أيضا بالنسبة لقلق الوسواس والأعصبة القهرية التى تتخذ إما شكل (١) سيطرة أفكار محددة مكررة يصعب تجنبها أو الهروب منها ، كوساوس العنف (مثال : السيدة التى يتملكها وسواس إيذاء طفلها أو خنقه) ، ووساوس التلوث (مثال الشخص الذى يتملكه الخوف الشديد من الإصابة بالمرض) وسواس الخوف والتشكك (الشخص الذى يتملكه ووسواس التفكير الدائم خشية أن يكون قد نسى غلق صنبور المياه ، أو انبوبة البوتاجاز) .

(ب) القيام بأفعال قهرية مكررة ، كغسل اليد ، أو عد الأشياء التافهة أو اللمس ، أو المراجعة الدائمة لأشياء سبق فعلها .

وتبين إحصائيات العلاج النفسى أن نسبة النساء اللاتى يطلبن العلاج النفسى من حالات القلق والمخاوف المرضية تصل الى ضعف نسبة الذكور .

ويمكن النظر فى هذه النتائج من خلال التفسيرين الآتيين :

(١) إنتشار القلق والمخاوف بين النساء قد يرجع الى شدة ميل النساء لطلب عون الآخرين عند الشعور بالضغوط والأحباط أكثر من ميل الذكور الى ذلك ، بعبارة أخرى فإن التنشئة الإجتماعية لا تشجع الرجل على التعبير عن الخوف والقلق . فالرجل ينشأ منذ البداية فى ظل شروط إجتماعية تجعله يستهجن التعبير عن الخوف والقلق أكثر من المرأة . وتكون المرأة وفق هذا التفسير أكثر قدرة على الأعتراف بما يصيبها من مخاوف وجوانب قلق . مما يجعلها تبدو أكثر قلقا من الرجل . بينما يظهر الرجل مقاومة أكثر فى تعبيره عن انفعالاته وجوانب قلقه مما يجعله يبدو أقل قلقا مما هو عليه فى الواقع .

(٢) التفسير الثانى يرى أن الضغوط الإجتماعية على المرأة أكثر من الرجل فهى تقوم بعدد كبير من الأدوار الأجتماعية التى تتطلب منها التكيف لحاجات الآخرين أكثر من الرجل فهى أم ، وزوجة ، وإمرأة ، واذا كانت تعمل فهى أيضا تقوم بدور العاملة التى تحتاج للتوفيق بين حاجات الأسرة وحاجات العمل . وكثير من هذه الأدوار التى تقوم بها المرأة تتعارض فى متطلباتها . فالعمل بالنسبة للمرأة يتداخل فى دورها أحيانا كزوجة ، وأم من المطلوب منها القيام بمتطلبات خاصة تحكمها احتياجات الأشخاص الآخرين الداخلين فى هذه الأدوار . وتثير هذه

المتطلبات المتعارضة كثيرا من جوانب الصراع والتوتر النفسى وما يصحب ذلك من قلق وعدم استقرار . فضلا عن هذا فإن المرأة تمر بتغيرات بيولوجية أكثر من التغيرات البيولوجية التى يمر بها الرجل ، وذلك كالعادة الشهرية أو انقطاعها .

وبالرغم من أن التفسيرين السابقين قد يصلحا معا لفهم الأسباب الكامنة وراء زيادة ميل النساء الى القلق ، فإن هناك نتائج تجريبية وعلمية تثبت صحة الأفتراض أو التفسير الثانى الذى يرى أز الزيادة فى مستوى القلق والتوتر النفسى لدى المرأة زيادة حقيقية ولا ترجع إلى زيادة ميلها للتعبير عن مشاعرها بما يظهرها أكثر قلقا مما هى عليه بالفعل . فهناك ما يثبت أن القلق الممتزج بالاكتئاب يزداد بين النساء فى الأسبوع أو العشرة أيام السابقة على ظهور العادة الشهرية ويطلق علماء الطب النفسى على مثل هذا النوع من القلق إسم توتر العادة الشهرية (Premenstrual Stress (PMS . وهو يبدأ فى التلاشى التدريجى إثر بداية الدورة الشهرية ، أو بتوقفها حيث تبدأ الشخصية فى العودة تدريجيا لحالتها السابقة . ويرتبط هذا القلق والتوتر المؤقت بزيادة نشاط الغدد الدرقية وما يصحبه من احتجاز السوائل (يعتبر احتجاز السوائل فى الجسم من العوامل الرئيسية المسببة لعدم الإحساس بالراحة ، وتورم بعض مناطق الجسم كالثدى . ولهذا ينصح الأطباء بضرورة علاج هذه المشكلات والتغيرات الكيميائية فى الجسم بأعطاء الأدوية المدرة للبول ، أو العلاج الهرمونى للتقليل من الأختلالات التى تصيب افرازات الغدد فى هذه الفترة السابقة لظهور العادة) .

وإذا كان ظهور العادة مصحوبا بالمشكلات النفسية المعبرة عن امتزاج القلق والاكتئاب ، فإن انقطاع العادة الشهرية فيما تبينه دراسات علماء النفس يكون أيضا مصحوبا بالقلق وعدم الاستقرار ، والتغيرات المزاجية السريعة . ولأن المشكلات الانفعالية بما فيها القلق والتوتر النفسى تزداد فى هذه الفترات المصحوبة بتغييرات بيولوجية ، جنح بعض الأطباء النفسيين الى تفسير قلق المرأة أنه ذو مصدر عضوى . والحقيقة أنه لا يوجد ما يدل على ذلك . فقد يكون القلق والمشكلات الأنفعالية المصاحبة لإنقطاع العادة الشهرية ذات مصدر إجتماعى – نفسى . فلأن أنقطاع العادة يأتى فى أعمار متأخرة قد تعتقد المرأة والمحيطين بها بأنها دخلت فى سن اليأس والشيخوخة . ولهذا فقد تكون المشاعر السلبية التى تزداد عند المرأة فى هذه الفترة والأعتقادات الخاطئة أنها قد فقدت جاذبيتها الجنسية وأهميتها للأسرة والمجتمع ، (بسبب توقف قدرتها على الأنجاب) من الأشياء التى تلمست طريقها إليها بفعل التصورات الاجتماعية والأراء التى تسمعها من الآخرين . وتحتاج المرأة لهذا فى هذه الفترة – الى الدعم الأنفعالى الشديد وربما الى المعونة الطبية والنفسية المهنية المتخصصة لإعانتها على تصحيح كثير من الأخطار والمعتقدات المضللة .

من هذه الأمثلة والدراسات ، يسهل علينا القول أن الأزمات البيولوجية والصراعات الأجتماعية تتزايد بين النساء أكثر من الذكور . ولهذا يكون من المنطقى أن نتصور أن يكون ذلك مصحوبا بإرتفاع فى مستويات القلق ، والتقلب الأنفعالى

والتوترات النفسية بين النساء أكثر من الذكور في مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية على حد سواء..

وتضيف **علاقة العمر بالقلق** تأييدا أخر على أن الأزمات النفسية تكون عادة مجالا خصبا للمشكلات الانفعالية بما فيها القلق . فقد درس العلماء علاقة العمر بالقلق .. هل يشيع القلق بين الأطفال أكثر من البالغين ، وبين البالغين هل يتزايد القلق بين الراشدين أم بين المراهقين ؟ وهل صحيح أن زيادة العمر تصحبها الحكمة وبالتالى الخلو من القلق والتوتر ؟

الحقيقة أن نتائج البحوث التي درست العلاقة بين العمر والقلق بينت أن العمر وحده ليس عاملا حاسما فى القلق .. لكن التغيرات التى تصاحب العمر والأزمات التي تزداد فى مراحل عمرية (كالمراهقة مثلا) دون المراحل الأخرى هى التى تلعب المسئولية الأولى في نوعية هذه العلاقة واتجاهها . ففى دراسة لمجموعة من العصابيين ممن كانوا يتلقون علاجا نفسيا تبين أن مستويات القلق والعصاب ترتفع فى المراهقة ثم تتجه للإنخفاض فى مراحل الرشد والشباب ، ثم تبدأ في الأرتفاع مرة أخرى فى السنوات المتقدمة من العمر وفى فترات الشيخوخة .

أما أن القلق يكون نتيجة مباشرة **للضغوط الإجتماعية** فقد تأيد ذلك فى دراسة أجريت على (٣٤٦) طفلا لبنانيا تتراوح أعمارهم من (٩) الى (١٣) سنة من مستويات تعليمية ومناطق لبنانية مختلفة فقد بينت هذه الدراسة نتائج منها أن :

(١) القلق يزداد بدرجة ملحوظة بين الأطفال إثر

مشاهدتهم للمعارك والغارات الحربية الدائرة . ولو أن القلق يتلاشى تدريجيا بعد ذلك .

(٢) القلق يزداد بين الأطفال فى جمعيات الأيتام أكثر من انتشاره بين الأطفال الذين يعيشون مع أسر عادية .

(٣) يرتفع التعبير عن القلق وألتوتر بين الأطفال الإناث أكثر من الأطفال الذكور .

ولا تختلف النتائج السابقة التى أجريت فى مجتمع عربى عن مثيلاتها من نتائج الدراسات الأنجلو أمريكية . فالبحوث الأنجليزية المبكرة التى أجريت لدراسة آثار الحرب على الأطفال الانجليز خلال الحرب العالمية الثانية بينت أن القلق يتزايد بدرجة ملحوظة لدى الأطفال خلال الغارات الحربية . أما ارتفاع مستوى القلق بين الأطفال اليتامى فلا يحتاج الى التعليق إذ من الواضح أن الضغوط الإجتماعية والتهديد من الأشياء التى تزداد بين أطفال المؤسسات أكثر من الأطفال الذين يتعلمون فى مدارس عادية وبين أسر عادية . أما إرتفاع الأطفال الإناث فى القلق عن الأطفال الذكور اللبنانيين فيتفق مع نتائج كثير من الدراسات العالمية التى بينت أن الأناث دائما ما يرتفعون عن الذكور فى مستويات التوتر النفسى والقلق . تبينت فى أمريكا وفى المكسيك وبين الزنوج وفى مصر . نخلص من هذا أن القلق يتزايد كلما إزداد التوتر البيئى والضغط الإجتماعى وأنه يعبر عن نفس العلاقات فى الدول العربية التى يعبر عنها فى المجتمعات الأنجلو أمريكية .

شكل رقم (١) أنماط التنشئة وصلتها
بأنماط الشخصية بما فيها القلق

الحب

« النمط الأول » (الحب مع التسامح)

القيادة ، الانبساط
المبادرة ، الثقة بالنفس
الابداع ، الميول
الاستقلالية الداخلية
من الضبط

« النمط الثاني » الحب مع التقييد والضبط

المجاراة ـ التقبل الاجتماعي
التوافق الجيد ـ التعاون
الاعتماد
الاعتماد على المصادر الخارجية
من الضبط

« النمط الثالث » التسامح مع العداوة

المعاندة
الجنوح
الميول الاجرامية
العداوة الموجهة للخارج

« النمط الرابع » التقييد مع العداوة

الكف ـ ضيق الخبرات
القلق ـ العصاب
العداوة الذاتية
مشاعر الذنب والنقص

العداوة والغلظة

الشكل السابق يوضح أن أساليب التنشئة الوالدية يمكن تقسيمها الى أربعة أنماط بحسب الجمع بين بعدين رئيسيين هما الحب فى مقابل العداوة والتساهل فى مقابل التقييد . ويتضح :

(١) أن نمو القلق والخصائص العصابية فى الشخصية تنتشر بين أطفال النمط الرابع الذى ينشأ فى جو أسرى يتسم بالتقييد (الضبط الشديد) مع العداوة .

(٢) أما الأطفال الذين يولدون لآباء يجمعون بين الحب والتقيد فعادة ما يكونوا من النوع الأعتمادى والميال الى مجاراة التقاليد وهم أيضا يتوافقون لأبائهم توافقا جيدا ويوصفون بالتوافق وطيب المعشر . على أن إعتماد أشخاص هذه الفئة على الخارج واهتمامهم بالتقبل الأجتماعى والمرغوبية ، وخوفهم الشديد من الرفض يسمهم بالتبعية ، وقلة المبادرة ، والمجاراة ، والتقليد .

(٣) وتزداد الميول الأجرامية فى الشخصية ، ويزداد الجنوح ، والعدوان ، والمعاندة ، والسخط الأجتماعى إذا نشأ الشخص فى جو يتسم **بالتساهل والعدوان** . ويبدو أن العداء والرفض الذى يتسم به آباء هذه الفئة يرسم أمام الطفل نموذجا يتبناه فى حياته ويقوم أيضا على الرفض وايقاع الأذى . ويرى البعض أن التساهل إذا كان مقرونا بالعداوة قد يراه الطفل أقرب الى الرفض منه الى السماحة والتشجيع على حرية التعبير . فالتساهل قد نراه علامة على السماحة إذا اقترن بالحب ، لكننا ندركه رفضا وتجاها إذا اقترن بالعداوة والغلظة .

(٤) النمط الرابع من الأطفال هو الذى ينشأ فى جو أسرى يتسم بالعداء والتضييق . فى مثل هذا الجو ينتشر العقاب والضبط الشديد ، وقمع امكانيات الطفل والتحقير من مواهبه بعدم تشجيعه على النشاط والتلقائية في هذا الجو ينشأ الطفل وهو على غير يقين بكفاءته مما يؤثر فى ثقته بنفسه ورضاه عن عمله وذاته . ولهذا تبين دراسة الأشخاص المصابين بالأمراض النفسية والقلق أنهم قد ولدوا لأباء يتميزون بالضبط والتخويف من الحياة والمجتمع وحرية التعبير والتليقائية . ولهذا يسهل على الطفل فى هذا الجو أن يكتسب المخاوف المرضية التى تعتبر من السمات الأساسية فى القلق والعصاب .

والخلاصة :

إن تضافر العوامل الوراثية وظروف التنشئة الوالدية والتعلم الأجتماعى تهيىء الشخصية للإنهيار السريع عند حدوث أزمات أو ضغوط . فالأزمات البيئية تعجل بظهور الأضطرابات . وهناك بالفعل ما يدل على أن العصابيين هم من أكثر الأشخاص عرضة للقلق والمخاوف عندما كانوا يوضعون مع غيرهم فى مواقف تجريبية محملة بالضغط . وتتزايد بينهم أيضا نوبات القلق والأنزعاج فى المواقف الطبيعية التى تتصف بالتوتر الشديد والصراع كالطلاق ، والهجرة ، والعزلة ، والأمتحانات . وفى ظل الحروب والأزمات النفسية تبين أيضا أنهم أسرع من غيرهم للإصابة بنوبات الفزع والمخاوف المؤقتة والدائمة .

وهكذا فإن القلق لا يعتبر نتاجا كاملا للظروف الإجتماعية والضغوط ، كما أنه لا يمكن أن يكون بكامله نتاجاً للطبيعة الشخصية والجبلة . فالإنسان يشكل طبيعته من خلال ما يمر به من مواقف وضغوط ، كما أنه يشكل رؤيته لهذه الضغوط من خلال طبيعته وشخصيته .

محاور العلاج

- هل التخلص من القلق تماما أمر مرغوب .
- نماذج من العلاجات النفسية للقلق :
  - العلاج الطبى والعقاقير .
  - التحليل النفسى .
  - المنهج السلوكى .
- المناهج السلوكية : الثورة المعاصرة فى العلاج النفسى .
- محاور أربعة فى علاج القلق والتخلص من الأزمات :

  أ ـ المحور الموقفى : مواجهة مواقف القلق .

  ب ـ المحور الانفعالى : الاسترخاء .

  جـ ـ محور التفكير : تعديل المعتقدات الذهنية الخاطئة .

  د ـ تدريب النفس على حرية التعبير وتوكيد الذات .
- قاسم مشترك .

لعل من الضرورى أن ننبه بادىء ذى بدء الى أن العلاج الذى يهدف للتخلص تماما من القلق أمر غير مرغوب فيه . فقد أشرنا الى أشكال من القلق المحمود الذى يدفع للنمو الشخصى والإجتماعى وللتطور بالشخصية نحو كثير من الغايات الايجابية . وقد أوضح "كاتل" أن هذا النوع من القلق يدفع للصحة والنضوج . وأوضح جرايست وزملاؤه فى تقرير حديث عن القلق وعلاجه إن الاستعدادات التى تقوم بها عند مواجهة بعض التحديات أو المواقف الجديدة تعتبر دليلا على فائدة القلق وآثاره الايجابية على الشخصية . ففى مثل هذه المواقف تؤدى ثورة القلق الى الاستعداد الجيد والتخطيط والتدريب المسبق ، ومن ثم التقليل من المخاطر التى قد تحيط بالكائن عندما يواجه تحديات لا يحسب حسابها .

العلاج يصبح ضرورياً فقط عندما يزداد القلق لدرجة تعوق الشخص عن التفاعل السليم وعن أدائه لوظائفه العقلية والأجتماعية بشكل فعال . وفى هذه الحالات من الضرورى أن لا يتم التخطيط للعلاج أو وصف منهج علاجى محدد دون تشخيص وتقييم دقيق ، لأن القلق أنواع ، وأنواعه تتفاوت من تلك التى يمكن التخلص منها بقليل من التوجيه والتشجيع الى تلك التى تحتاج الى خطط علاجية تجمع بين أشكال مختلفة من العلاج النفسى والطبى والسلوكى .

هذا ولا يجب أن يترك اختيار المنهج الملائم لعلاج حالة من القلق للإجتهاد الشخصى والعشوائية ، فالعلاج الملائم يجب أن يتم اختياره وفقا لما تثبته البحوث السابقة من فاعلية فى علاج حالات مماثلة ، وعلى كفاءة تطبيقه ، وتكاليفه وموافقة المريض عليه وتوافر المعالجين القادرين على إستخدامه .

ويعتبر **العلاج الطبى** بإستخدام العقاقير المهدئة من أقدم أشكال العلاج وأكثرها انتشارا على الأطلاق . أن إستخدام العقاقير المهدئة قد يصلح بالفعل لعلاج بعض حالات القلق والتخلص من بعض أعراضه الشديدة ، إلا أن الثابت بين الأطباء المعاصرين أن الأثار العلاجية للعقاقير محدودة بالفترة التى يتعاطى المريض خلالها الدواء ، فضلا عما تتركه من آثار جانبية سيئة خلال تعاطيها كالإدمان أو الميل إلى الأفراط . ومن الثابت أيضا أن حالات القلق قد تتزايد عند التوقف عن التعاطى بسبب ما يسمى بأعراض الأنقطاع عن استخدام العقاقير وهى أعراض قد تتزايد حدتها وآثارها لدرجة قد يتحول خلالها القلق الى نوبات من الأنزعاج والذعر . على أن من الشائع الأن أن استخدام العقاقير الطبية المضادة للقلق يمكن أن يتم بسلام تحت شروط معينة من أهمها : أن تستخدم لفترات قصيرة ، وعند مواجهة المواقف التى يثبت التحليل التمهيدى أنها مرتبطة بإثارة القلق ، وأن تستخدم مصاحبة للعلاجات النفسية والسلوكية الأخرى .

ومن أهم أنواع العلاج النفسى وأكثرها ارتباطا بعلاج الأمراض العصابية والنفسية ما يسمى **بالتحليل النفسى**

الذى راده الطبيب النمساوى المشهور سيجمند فرويد . وبالرغم من أن التعرض لتفاصيل هذا المنهج أمر يصعب إختصاره فى إطار هدفنا هنا ، إلا أن الشائع عموما أن هدف التحليل النفسى هدف طموح وبعيد المدى فهو يهدف الى التخلص من أعراض القلق بمعالجتها بطرق غير مباشرة من خلال الكشف عن الأسباب النفسية الكامنة وراءها . ويتم الكشف عن هذه العوامل بمناهج تحليلية محددة ، ومن المعتقد بين المحللين النفسيين أن الكشف عن العوامل الكامنة وراء القلق من شأنها أن تؤدى الى علاج أعراضه بسبب الاستبصار الذى يصل اليه المريض . وبالرغم من أن الدعوة للتحليل النفسى قد بدأت منذ أكثر من خمسين عاما ، إلا أنه لا يزال لهذه النظرية متشيعوها ممن يؤمنون إيمانا عميقا بأن الصراعات النفسية الكامنة هى المسئولة أساسا عن إثارة القلق ، وأن العلاج النفسى بمنهج التحليل النفسى هو المنهج الرئيسى لعلاج القلق بسبب ما يوليه من إهتمام لهذه العوامل النفسية والصراعات الداخلية . على أن أخطر ما يواجه هذه المسلمة ـ التى يقوم عليها التحليل النفسى ـ هو قلة ما تلقاه من تأييد بين العلماء المعاصرين والبحث العلمى الراهن . فلا يوجد هناك ما يثبت أن الاستبصار بالصراعات النفسية وحده يستطيع أن يؤدى الى التغلب والتخلص من أعراض القلق الأخرى ، وهناك دلائل مضادة للمسلمة التحليلية تثبت أن علاج أعراض القلق بالطرق السلوكية المباشرة من شأنها أن تؤدى الى التخفف والتخلص من القلق بصورة حاسمة وفى فترة قصيرة نسبيا .

المناهج السلوكية : الثورة المعاصرة فى العلاج النفسى :

وتعتبر **المناهج السلوكية** بمثابة الثورة المعاصرة التى قدمها علم النفس خلال السنوات العشرين الماضية فى العلاج النفسى . صحيح أن العلاجات السلوكية تقوم على أسس نظرية بعضها قديم ـ قدم فرويد نفسه ـ إلا أن إعتماد هذه المناهج على الموضوعية فى البحث ، والتجديد فى المبادىء النظرية ، واحترام قواعد البحث العلمى المنهجى جعل من مناهجها التى طوعتها لعلاج القلق تتسم بكل المقاييس بالفاعلية والنجاح فى علاج الكثير من الأعراض والآلام النفسية المرتبطة بالقلق التى كان يستحيل ـ فى تصورنا ـ التخلص منها إذا ما تأخر ظهور هذه المناهج على المسرح العلمى والعالمى .

محاور أربعة فى علاج القلق والتخلص من الأزمات

ـ علاجات متعددة الأوجه :

وهدفنا هنا هو أن نعرض للقارىء العربى منهجنا الرئيسى فى العلاج النفسى للقلق . وهو منهج تطورت خطوطه العريضة من خلال سنوات من البحث والممارسة فيما يسمى بالعلاج

السلوكى الذى نعتبره بمثابة الثورة المعاصرة التى قدمها علم النفس خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياة العلاج النفسى وتطوره . وسنحاول هنا أن نعرض للجوانب الرئيسية التى يجب أن يتجه لها العلاج النفسى بصورة تمكن القارئ العام من ممارستها إذا ما استطاع أن يبذل الجهد فى مزيد من القراءات الملائمة ، أو الاستشارات النفسية الموجهة .

منهجنا فى العلاج النفسى للقلق يتماثل من حيث تنوع أبعاده مع نفس نظرتنا للقلق ذاته . فالقلق يرتكز ـ كما أشرنا على محاور أربعة : فهناك **أولا** : **الموقف** الذى يثيره (إمتحان ، لقاء هام ، مواجهة اجتماعية حاسمة ، مستقبل يتسم بالغموض والتهديد .. الخ) وهناك **ثانيا** : التغيرات الانفعالية غير السارة التى تصحبه والتى تأخذ أحيانا شكل تغيرات عضوية خارجية أو داخلية أشبه بالتغيرات التى تصيبنا فى حالات الخوف كتسارع دقات القلب ، والغثيان ، وانقباض المعدة ، وصعوبات التنفس ، وتوتر عضلات الوجه ، تصلب عضلات الظهر ، وإزدياد "اللازمات" الحركية فى الوجه أو اليدين .. الخ . وهناك **ثالثا** : الجوانب الذهنية والفكرية أى مجموعة الأفكار والحجج والمعتقدات التى يخاطب الشخص بها نفسه خلال اختباره للمواقف التى يمر بها الشخص . وتتسم معتقدات الشخص فى حالات القلق بالمبالغة ، وإدراك مخاطر لا أساس لها مما أدى الى جمهور المعالجين النفسيين بوصف فكر الشخص فى حالات القلق بالامنطقية وبالاعقلانية . وهناك **رابعا** : المظهر أو السلوك الإجتماعى الذى يصف الشخص القلق فى تفاعلاته اليومية كالخجل ، والانزواء ، والتردد ، وتجنب الآخرين .

لأن هذه المحاور تتفق فيما بينها فى إبراز القلق وتعميقه ، وتطويره فى الشخصية حتى يتحول الى سمة دائمة فيها ، فإن المواجهة للتوتر النفسى والعلاج الفعال للقلق يجب فى تصورنا أن تجسد هذه الرؤية المتنوعة فتتجه جهودنا نحو مواجهة كل جانب من هذه الجوانب الأربعة معا أو على حدة . وفى بعض الحالات الفردية من القلق تسيطر أحد هذه الأبعاد الأربعة أكثر من الأخرى .. فقد تكون مثلا بعض **المواقف** الخارجية شديدة التهديد والامتهان .. بصورة تؤدى تلقائيا الى إثارة الأضطرابات فى المناطق الأخرى,من الشخصية : **الأنفعالية والذهنية والأجتماعية** .. فى مثل هذه الحالات يجب بالطبع توجيه جهدا أكبر لعلاج الجانب المضطرب قبل الجوانب الأخرى . فالعلاج الطبى بالعقاقير مثلا يكتسب أهمية خاصة عندما تكون مصادر الأضطراب مرتبطة بزيادة النشاطات الاستثارية الانفعالية فى الجهاز العصبى . ومن ثم يكون البدء بالعقاقير المهدئة لنشاط الجهاز العصبى ضرورة ، حتى تتاح لنا فرصة الأنتباه للجوانب الأخرى من الشخصية بما فيها تدريب الشخص على السلوك الاجتماعى المرن والفعال ، وتعويده تدريجيا على ضبط انفعالاته وقدراته على تحمل الصعاب .

خلاصة القول إذن أنه إذا كان القلق يعبر عن نفسه بلغات أربع متعددة ، فإن من المنطقى أن يكون العلاج النفسى الفعال هو ذلك الذى يستطيع أن يخاطب هذه الجوانب الأربعة بالتعديل والتغيير . وما سنعرضه من وسائل فنية لعلاج هذه الجوانب يمثل مجموعة من المناهج الحديثة التى تتسم بالفاعلية والنجاح وتمثل فى مجموعها منهجا أثيرا لدينا فى

علاج الكثير من حالات القلق والتوتر النفسى . وهو منهج يمكن وصفه بأنه علاج متعدد الأبعاد والمحاور لأن بنيته الاساسية هى علاج الأضطرابات النفسية فى جوانبها الاجتماعية ، والانفعالية ، والسلوكية ومصادر التهديد الخارجية مجتمعة .

لغة الصحة : المواجهة والتجرؤ وليس الأنسحاب والهروب :

من المعروف أن نسبة كبيرة من الناس تسير مع القول الشائع "ما يأتيك منه الريح سده واستريح" ، وجريا مع هذا القول يستجيب الناس للقلق بمحاولات انسحابية وهروبية وذلك بتجنب المواقف التى يدركونها على أنها مصدر للقلق والإنزعاج . ويرتكب الناس بهذا السوك "التجنبى" الهروبى خطأ كبيرا من حيث لغة الصحة النفسية . فهناك ما يشير الى أن الهروب من المشكلات يبعد الشخص عن البحث النشط للحلول الايجابية والفعالة ، وهناك أيضا ما يشير الى أن تجنب المواقف التى تثير القلق .. يضيق تدريجيا من فرص الشخص فى النمو ، ويؤدى فى النهاية الى نتيجة معاكسة من حيث زيادة الأضطراب الانفعالى والتوتر . بعبارة أخرى فإن حل المشكلات بالهروب منها بدلا من مواجهتها لا يكون علاجا إلا فى المواقف التى يصعب تكرار تعرض الشخص لها وهى نادرة للغاية . ولهذا يعتبر ما يسمى بطريقة "التعويد" Habituation التى ولجت حديثا ميدان العلاج النفسى السلوكى من أنجح الفنيات والأساليب العلاجية للقلق . ويستخدم هذا الأسلوب لتشجيع العصابى على مواجهة

مواقف القلق الى أن تتحيد مشاعره نحو هذه المواقف وتتناقص استجاباته الإنفعالية المتطرفة نحوها .

ويتم أسلوب التعويد بإستخدام المنهج التدريجي . ويتم العلاج التدريجي من خلال تعريض الشخص تدريجيا ، وخطوة بخطوة للمواقف التى ندركها على أنها مثيرة للقلق والخوف . ومن رأى "جوزيف ولبى" Wolpe ـ الطبيب النفسى المعروف ـ أن التعرض التدريجي للمواقف المثيرة للقلق ـ إذا ما استخدم مع أساليب أخرى كالإسترخاء العضلى ـ من شأنه أن يؤدى الى تبدد القلق واختفاء الكثير من مخاوفنا اللامنطقية من مواقف الحياة المختلفة . وقد أثبت "لازاروس" ـ الذى ساهم مع "ولبى" فى كتاباته المبكرة ثم انشق عليه فيما بعد ـ أن التعرض التدريجي وحده كفيل بأن يؤدى الى نتائج علاجية ناجحة . وقد أمكننا حديثا أن نستخدم هذا الأسلوب بنجاح مع محاضر شاب بإحدى الجامعات العربية ـ إثر عودته من الخارج ـ للتغلب على القلق الشديد الذى كان ينتابه قبل الدخول لمحاضراته . وقد اعتمدت خطتنا فى ذلك على تعريفه بقواعد هذا المنهج وبوضع قائمة متدرجة بالمواقف المثيرة لقلقه بدءا بأقلها إثارة للتهديد (اسبوع قبل الدخول للمحاضرة) حتى أشدها إرتباطا بالقلق (الدخول للقاعة وتحية الطلاب وبدء الحديث عن موضوع المحاضرة) . لقد أمكننا بتدريبه على اداء كل موقف بثقة الى التقليل من توتراته الهائجة وتحييد انفعالاته نحو هذه المواقف خطوة خطوة . وجاء بعد ذلك تدريبه المستمر على الأستعداد للمحاضرات وللمواقف الإجتماعية المماثلة بما فى ذلك النقاط التى ستعرض وحتى الأسئلة أو

التعليقات المرحة التى سيملأ بها الثغرات بين النقاط العريضة للمحاضرة ، وجاء بعد ٤ جلسات ليعبر عن مدى سروره لأول مرة فى حياته ـ على الدخول للمحاضرة والاستئناس بطلابها وتكوين علاقات إجتماعية سهلة معهم .

وعادة ما يستخدم أسلوب آخر مصاحبا للتعرض التدريجى وهو الاسترخاء العضلى* . فمن المعروف أن القلق عادة ما يكون مصحوبا بتوترات عضلية . ومن المعروف أن كل الناس تقريبا تستجيب للقلق بزيادة فى الأنشطة العضلية فتتوتر العضلات الخارجية كالوجه ، والجبهة ، والرقبة والمفاصل . كذلك تتوتر حتى عضلات الأعضاء الداخلية كالمعدة . وقد يكون هذا التوتر مؤقتا ومشروطا بالمواقف الباعثة على القلق ، ولكنه قد يتحول إلى خاصية دائمة فى الشخصية . وتعتبر الحركات اللاإرادية فى اليدين والذراعين واللوازم القهرية فى الفم والعينين ، والابتسامات غير الملائمة .. وقضم الأظافر ، وشد شعر الحاجب أو الرأس كلها من العلامات الدالة على التوتر بهدف التخفف من الانفعال والقلق . ولهذا تزداد الشكاوى فى حالات القلق من الصداع وآلام الظهر ، وسوء الهضم بسبب ارتباط هذه الشكاوى بالتوتر العضلى والاستثارة العضوية الزائدة .

وبإبتكار أسلوب الإسترخاء التدريجى لعضلات الجسم عضوا فعضوا ، أمكن التخفف من التوترات النفسية والقلق . ولهذا نجد أن مجرد الاسترخاء العادى بالرقاد على أريكة ،

---

* يقصد بالاسترخاء المحافظة على عضلات الجسم فى وضع سلبى وبالتقليل العمدى من النشاط فى اعضاء الجسم .

والجلوس فى مكان هادىء مريح قد يؤدى إلى آثار وتغيرات انفعالية ملطفة .

أما عن كيفية اجراء الاسترخاء ، فإنه يتطلب ضرورة أن يبدأ تدريب عضلات الجسم عضوا فعضوا .. إلى أن يشمل الاسترخاء الجسم كله . وبالطبع يجب أن يشمل التدريب على الاسترخاء ، إرخاء تلك العضلات المرتبطة بالتوتر والتى من أهمها اليدين والرسغ والجبهة ، والوجه ، ومنطقة الفم والرقبة والكتفين ومنطقة البطن والمعدة .

وللتأكد من نجاح التدريب على الاسترخاء وللإحساس بفائدته يستحسن أن يتم تدريب كل عضو على الاسترخاء من خلال الإثارة العضوية للتوتر فيه .. أى من خلال عملية شد ـ استرخاء لكل عضو . والهدف من ذلك هو إطلاع الشخص المصاب بالقلق على المشاعر التى تصاحب كل عنصر من الشد والاسترخاء . ومن الأفضل أن تكون أفكار الشخص كلها مركزة فى الجسم بتشجيع المريض بين الحين والأخر على التركيز فى جسمه فقط ، وأن لا يتجول بأفكاره بعيدا عن موقف الاسترخاء .

ولكى يتحقق أكبر قدر ممكن من النجاح يستحسن أن يكون الاسترخاء مصحوبا بتخيلات هادئة .

وبالرغم من أن التدريبات الأولى على الاسترخاء تحتاج لبعض الوقت أى من ٢٠ دقيقة إلى ٤٥ دقيقة حتى يكون بإمكان الشخص اتقان الاسترخاء ، فإن النجاح التدريجى والتدريب المكثف عليه ينتهى بالشخص إلى الدخول فى استرخاء عميق بمجرد ترديد كلمة "أنا الآن مسترخى" .

وفضلا عما للاسترخاء من آثار انفعالية مهدئة بشكل عام ، فإنه يستخدم كمصاحب لأسلوب العلاج التدريجى السابق ، وذلك باثارة الاسترخاء في كل موقف من المواقف التى تعبر عن درجة معينة من القلق أو التوتر .. ويستخدم أسلوب الاسترخاء أيضا للتغيير المتعمد من الاعتقادات الخاطئة التى يتبناها المريض وتكون أحيانا سببا رئيسيا من أسباب إثارة القلق ، بحيث يمكن للشخص أن يفكر بصورة عقلانية هادئة . كذلك أمكن استخدام منهج الاسترخاء بنجاح فى علاج حالات الضعف الجنسى ، والقذف السريع من خلال إرخاء النصف الأسفل من الجسم فى الدقائق السابقة على الاتصال الجنسى .

ويفضل ستامفل Stampfle أن يكون التعرض لمصادر التوتر بطريقة كلية وبإطلاق الأنفعالات وتفجيرها ومرتبطا بكل الثورات الانفعالية المصاحبة لها ويستخدم بهذا الصدد أسلوبا معروفا يطلق عليه الغمر الإنفعالى Flooding أو التفجير العلاجى Implosive . وبالرغم من أن منهجه يبدو للوهلة الأولى مخالفا لقواعد التعرض التدريجى ، فإنه يقوم على نفس البديهة التى تحبذ المواجهة بدلا من التجنب . وتتلخص هذه الطريقة فى تشجيع المريض على تخيل الموقف المهدد فى أقصى صوره الممكنة ولأطول فترة . ويثبت "ستامفل" أن التعرض المباشر لمواقف القلق لفترات طويلة بإعمال الخيال والتصور الذهنى الحى ـ من شأنه أن يؤدى الى التخفف تدريجيا من القلق المصاحب لهذه المواقف الى أن يتلاشى تماما . إلا أن أيزنك ـ من بريطانيا ـ يثبت أن التعرض للمواقف المهددة فى كليتها تؤدى بالفعل الى

التخفف من القلق إذا استمر هذا التعرض لفترات طويلة ، لكنه قد يؤدى الى نتائج عكسية إذا تم لفترات قصيرة ومفاجئة . ولهذا ـ وتأكيدا لنظرية أيزنك ـ نجد أن العصابيين (الذين تتسم حياتهم بالقلق الدائم) غالبا ما يتجنبون اللقاءات العارضة المفاجئة بسبب ما تثيره لديهم من توترات عنيفة ، ولكنهم يقدرون على مواجهة هذه المواقف إذا ما أتيحت لهم فرصة كافية من الأستعداد والتهيؤ .

وكلا الطريقتان ـ التدريجية والكلية ـ تهدفان ـ على أية حال الى التغلب على مصادر التوترات الخارجية بالتقليل من القلق والصراعات المصاحبة لهـا . إلا أن التعرض التدريجى ـ فيما تبين خبرتنا الأكلينكية ـ يصبح ذا فاعلية أكثر عندما تكون مصادر القلق معروفة وعندما تكون الأستجابة لها حادة وتصل لما يسمى بالفزع . فى مثل هذه المواقف تصعب المواجهة بالغمر الانفعالى ، ونجد أن المرضى أنفسهم يقاومون ذلك المنهج إلا اذا كان بالإمكان استخدام بعض المهدئات الطبية كتمهيد للدخول فى العلاج . على أن فوائد العلاج بالغمر تكون ملموسة خاصة فى الحالات التى يتحول فيها القلق الى طقوس وأفعال قهرية أى ما يسمى بلغة علماء النفس المرضى حالات عصاب الوسواس القهرى (اللوازم الحركية والرعشات اللا إرادية ، النظافة المبالغ فيها .. الخ) . ولهذا نستخدم هذا المنهج فى علاج حالات التهتهه ، الرعشات اللا إرادية ، فى اليدين أو مناطق الوجه ، قضم الأظافر ، طقطقة الأصابع .. الخ . فى مثل هذه الحالات وعندما تفشل محاولات الضبط المعمدة ، يجب تشجيع الشخص على إثارة هذه الجوانب من السلوك بدلا من محاولة

تجنبها وأن يطلب منه أن يستمر فى ممارستها إراديا لفترات متكررة يوميا .. مثلا عشر مرات أو أكثر فى اليوم لمدة ١٥ دقيقة . لقد تمكنا بإستخدام هذا الأسلوب من مساعدة أحد المرضى على التخلص من ارتعاشات غير إرادية محيطة بمنطقة العين اليمنى خاصة فى مواقف التوتر الأجتماعى . لقد طلبنا منه أن يمارس عمدا هذه الأرتعاشات فى منزله لمدة عشر مرات يوميا تستغرق كل منها ١٥ دقيقة يقوم خلالها بإثارة هذه الأرتعاشات بأكبر قدر ممكن . وقد كانت دهشته بالغة عندما لاحظ وجود تناقص ملحوظ بعد يومين فقط من العلاج ، الى أن اختفت هذه الحركات القهرية تماما بنهاية الأسبوع الثانى .

عندما يكون القلق تعبيرا عن تطرف الأنفعالات :

وعندما يكون القلق هو التعبير المباشر عن الانفعال الشديد ، والتوتر العضلى ووراثة جهاز عصبى سريع الاستثارة (المحور الأنفعالى) ، فإن العلاج الطبى بإستخدام العقاقير المهدئة يعتبر من أكثر أشكال العلاج وأكثرها إنتشارا على الأطلاق . فمن شأن بعض الأدوية المهدئة أن تساعد بالفعل على تهدئة ثورة الانفعالات الداخلية . لكن العلاج بالعقاقير ليس علاجا نفسيا ، ومن المعروف أن هناك آثار جانبية سيئة كالإدمان ، أو الأفراط يمكن أن تتطور لدى المريض خاصة إذا لم يكن تحت إشراف طبى مباشر ، فضلا عن هذا فإنه من المعروف أن حالات القلق قد تعود حالما يتوقف الشخص عن التعاطى . ولهذا فإننا نجد ـ من جانبنا أن بالأمكان مواجهة الجانب الأنفعالى

من القلق بمناهج سلوكية من أبرزها مايسمى بمنهج الأسترخاء . "ولا أود أن أدخل فى تفاصيل هذا المنهج وطريقة استخدامه وكيفية تطبيقه فقد عرضنا لها فى كتابين مبكرين ننصح القارىء بالرجوع لهما . (١) **العلاج النفسى الحديث** ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت - (٢) **علم النفس الأكلينيكى** . دار المريخ بالرياض" . لكننا نؤكد هنا أن الأسترخاء العضلى بطريقة منظمة عضلة فعضلة قد أصبح الأن منهجا أثيرا للتغلب على التوترات العضلية المصاحبة للقلق . إن هناك الكثير من الأعراض البدنية المصاحبة للقلق أصبح الأن ممكنا علاجها بهذا المنهج بما فيها الصداع ، وآلام الظهر وخفقان القلب ، وارتفاع ضغط الدم ، وآلام الساقين والذراعين وغيرها من الشكاوى الدالة على التوتر العضلى والنشاط العضوى المفرط . لهذا نجد أحيانا أن مجرد الأسترخاء العادى بالرقاد على أريكة أو الجلوس فى مكان مريح هادىء قليل الأضاءة والضجيج من شأنه أن يؤدى الى تغيرات انفعالية ملطفة .

وفضلا عما للإسترخاء من آثار انفعالية مهدئة بشكل عام فإنه يستخدم بمصاحبة العلاج التدريجى للتغلب على ما تسببه المواقف الخارجية من توترات وصراع . وهناك ما يؤكد فاعلية هذا المنهج فى علاج حالات القلق الجنسى كالقذف السريع ، وضعف الأنتصاب عند الذكور وذلك بإرخاء الأجزاء السفلى من الجسم والساقين فى الدقائق الأولى السابقة على الأتصال الجنسى .

وللمعتقدات الخاطئة دورها :

لكن التوترات النفسية والقلق لا يمكن عزلهما عن الطريقة

التى يفكر بها الشخص وعما يحمله عن نفسه وعن المواقف التى يتفاعل معها من أراء ومعتقدات . ولهذا نجد أن "اليس" و"بيك" الأمريكيان يشيران بوضوح الى أن القلق العصابى يعتبر نتيجة مباشرة للطريقة التى يفكر بها الشخص فى نفسه وفى الخارج وليس بالضرورة لخصائص خارجية مهددة . لقد أطلقنا على هذا الجانب من القلق : **المحور الذهني** وهو محور يحظى بإهتمامنا خاصة عندما يكون الشخص من النوع الذى يتميز تفكيره بالمبالغة ، وتوقع الخطر والأنهيار والكوارث . ولعلاج هذا الجانب يتجه الأهتمام الى تشجيع الشخص على التفكير بواقعية فى الموقف وفى نفسه وفى امكانياته . ويقترح "مايكبناوم" Meichenbaum من كندا أن من أنجح الوسائل للتغلب على التفكير الأنهزامى للشخص فى حالات القلق هى أن ننبهه الى الأفكار والأراء التى يرددها بينه وبين نفسه (المونولوجات) عندما يواجه موقفا يتسم بالتهديد . إن من رأى هذا العالم أن القلق الذى ينتابنا من المواقف المختلفة يعتبر نتيجة مباشرة لما نقوله لأنفسنا وما نقنع به ذواتنا من أخطار وكوارث . ولهذا فهو يقترح منهجا يقوم على تعديل محتوى ما يقوله الشخص لنفسه فى المواقف التى يراها مهددة لنفسه وأمنه وفق ثلاث قواعد رئيسية :

(١) أن تقنع نفسك بأن الخوف والهلع الذى يمتلك مشاعرك عند التفكير فيما قد يحدث من إشياء سيئة أسوأ بكثير من الأشياء التى ستحدث فعلا . قل لنفسك بأنك لن تحول الموقف الى أسوأ مما هو عليه بالفعل بتفكيرك وتهويلاتك .

(٢) إقناع النفس بشتى الوسائل الممكنة أن الموقف الذى يثير مخاوفك الأن سينتهى حتما .

(٣) القاعدة الثالثة هى أن تقل لنفسك إن التخلص من كل المشاعر المكدرة ، والتوترات المرتبطة بالقلق تماما أمر صعب . إذ لابد أن نقبل بعض جوانب التوتر مؤقتا .

وثمة طرق أخرى لمواجهة أخطاء التفكير وتعديل الأتجاهات الأنهزامية نحو النفس بين القلقين . **فالحوار المنطقى العاقل** مع النفس ، ودحض الأفكار الخاطئة التى تثير المخاوف والاكتئاب ، وتحصيل معلومات دقيقة عن المواقف التى نعتقد أنها مهددة ، وتجنبت التفسير السلبى للمشاعر التى يحملها الأخرون عنك ، وتعويد النفس على التفكير فى نقاط القوة عند التصدى لحل المشكلات الأجتماعية والعاطفية .. كل ذلك ينطوى دون شك على إمكانيات هائلة فى تعديل الأضطراب النفسى والقلق .

تدريب النفس على الحرية والتلقائية الأجتماعية :

أما من حيث الجانب الأجتماعى ، فمن المعروف أن السلوك الإجتماعى للشخص القلق يتسم بخصائص تتذبذب بين أقطاب متعارضة كالإنصياع الشديد ، والعدوان ، الخجل والإندفاع ، التحدى أو تجنب المشاكل والهروب منها . وقد بينا فى إحدى كتبنا المبكرة عن العلاج السلوكى أن هذه الجوانب بالرغم من التناقض الظاهر بينا يمكن فهمها فى ضوء ما يتسم به السلوك العصابى للقلق من قيود انفعالية تكبل تلقائيته وحريته فى الأستجابة للمواقف المتعارضة .

ونجد فى الوقت الحالى - أدلة قوية تثبت أن تدريب الشخص على التعبير عن مشاعره بحرية من خلال التصرفات السلوكية والإجتماعية الملائمة من شأنه أن يؤدى الى تضاؤل القلق بشكل ملحوظ . ويحظى هذا الجانب بإهتمام كثير من المعالجين ، ويمثل أحد الفصول الهامة فى كتب العلاج السلوكى الحديثة . ويدرس تحت عناوين مختلفة منها تأكيد الذات ، أو تدريب القدرة التوكيدية ، أو التدريب على الحرية الأنفعالية . ويقوم هذا المنهج على بديهة علمية قوامها أن تدريب النفس على التعرض للمواقف الإجتماعية المثيرة للخوف والأنفعال والقلق وأنت تعرف مسبقاً ما الذى ستقوله فيها ، وكيف تتصرف خلالها ، وإدراكك لحقوقك والتزاماتك إزاء هذه المواقف ، من شأنه أن يجعلك أكثر هدوءا وقدرة على التحكم فى إنفعالاتك عند مواجهتك إياها بالظهور بالمظهر الملائم .

فضلا عن هذا ، إن كثيرا من العلاقات الإجتماعية تتطلب اتصالا إيجابيا نشطا بالأخرين ، ولهذا فإن العلاقات الإجتماعية السليمة تحتوى على مزيج من الأنفعالات المتنوعة بما فيها الغضب أحيانا ، تبادل مشاعر الحب والود أحيانا أخرى ، اللوم ، الأعجاب ، الضيق . ومن المعروف أن قدرة الشخص القلق على تبادل المشاعر تقل فى المواقف الإجتماعية نتيجة لما يؤدى اليه القلق من قيود وعجز . ولهذا نجد أن الشخص فى مواقف القلق يقمع رغبته فى التعبير عن مشاعره الحقيقية ، ويكتم معارضته أو قبوله أو يرغم نفسه على قبول أشياء لا يحبها ، أو يهرب من أشياء يحبها .. ومن ثم تجيىء أهمية تدريب الشخص على التعبير عن الأنفعالات

بجوانبها الإيجابية (الحب والأعجاب مثلا) والسلبية (الغضب والعدوان والرفض) . إن حرية التعبير عن الأنفعالات والقلق لا يجتمعان معا . ويتعارض التعبير بحرية عن الإنفعالات بما يتسم به من تلقائية ، مع القلق والعصاب بما فيهما من قيود .

ويتم تدريب القدرة على حرية التعبير الإنفعالى بأساليب أخرى متنوعة منها مثلا التدريب على تنطيق المشاعر أى تحويل أى شعور أو التعبير عن أى انفعال بكلمات صريحة منطوقة . وينصح المعالجون أيضا بأن يتشجع الشخص على إحداث استجابات بدنية ملائمة للإنفعال ، فإستخدام الأشارات والحركة الرشيقة ، وتشكيل ملامح الوجه بطريقة ملائمة ، والأحتكاك البصرى المناسب من شأنها جميعا أن تتضافر لإحداث الثقة بالنفس فى مواقف التفاعل الإجتماعى بما يخفف من آثار القلق والإضطراب .

ويثبت "باندورا" من جامعة ستانفورد أن كثيرا من إستجاباتنا المرضية والسوية تكتسب بفعل مشاهدة الأخرين والتأثر بهم أى القدوة . ولهذا فإن من الممكن تدريب القدرة على التوكيدية واكتساب المهارة الإجتماعية الضرورية للنجاح من خلال ملاحظة الأخرين أو الأقتداء بهؤلاء الذين تتوافر فيهم هذه القدرات بشكل واضح . ولهذا فإن من الثابت أن القلق يختفى فى بعض المواقف الإجتماعية المهددة (مقابلة شخصية للعمل مثلا) عندما نسمح للشخص أن يشاهد أشخاصا يؤدون هذا الموقف بنجاح فى أفلام أعدت خصيصا لهذا الغرض . ومن ثمة قد نستخدم ما يسمى بإسلوب تمثيل الدور قبل حدوث الموقف (لعب الأدوار) كطريقة من

العلاج . فإذا تأتى للشخص أن يقوم بتخيل المواقف المهددة ، ثم أن يمثل بنفسه ـ أو أمام معالجة ـ الموقف كما يوده أن يحدث ، مرات ومرات حتى يتقنه ، فإنه سيكتسب كثيرا من القدرات التى ستمكنه من مغالبة القلق عند المواجهة الفعلية للمواقف المهدد . ويلقى بعض الأشخاص صعوبة فى تمثيل الأدوار الدالة على الثقة بالنفس ، وإعطاء الأوامر ، والتعبير عن الذات والمشاعر بوضوح لكنها تستحق ما يبذله المريض فيها من جهد ، بسبب نتائجها الإيجابية على الشخصية والسلوك الإجتماعى الماهر .

قاسم مشترك :

إن الأساليب التى عرضناها حتى الأن تتضافر جميعها فى مبدأ عام وهو أن مغالبة القلق تأتى بالتعرض وليس بتجنب المواقف والأفكار المثيرة للقلق حتى نعتاد عليها . ولهذا فان من بين كل تيارات العلاج النفسى منذ قرون نجد أن من انجحها هى تلك التى تخطط للتعرض وتشجع على مواجهة مواقف القلق . إن مخاوفنا ومصادر القلق لدينا ستختفى ما أن نواجهها بتصميم . وكل هذه الطرق التى أشرنا اليها سابقا ماهى إلا طرق لمواجهة القلق والتعرض له فى الجوانب الأربعة التى سبق الإشارة اليها . ولهذا فإننا نضع بعض التوجيهات :

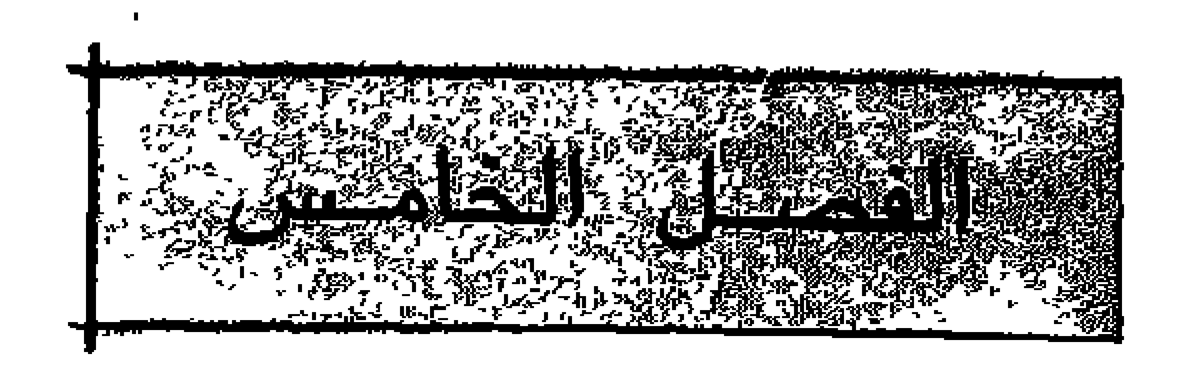
ـ التعرض لمواقف القلق مطلب ضرورى للصحة . وسواء تم هذا التعرض من خلال تخيل هذه المواقف ، أو من خلال الدخول فيها بشكل فعلى ، فإن النتيجة واحدة .

إلا أن من الأفضل أن يتم تعرضنا بطريقة تخيل هذه المواقف ثم أن ننتقل بعد ذلك للمواقف الفعلية المرتبطة بإثارة القلق .

- كلما كان التعرض للمواقف الإنفعالية مبكرا ولفترات طويلة كلما كان تأثيره أنجح ، فمن الأفضل مواجهة الخطر منذ البداية والأستمرار فى مواجهته حتى يتلاشى دائما .

- إن القلق الذى يحدث خلال العلاج فى المواقف التدريجية أو مواقف التفجير الإنفعالى لا يؤدى عادة الى نتائج أو مضاعفات . ولازال بعض الأطباء والمعالجون حتى الأن يترددون فى السماح لمرضاهم بالدخول فى مواقف تثير القلق خوفا من الإصابة بمشكلات انفعالية . لكن هذا غير صحيح ولا يوجد ما يدل على حدوث هذه المضاعفات . بل يوجد ما يدل على أن نوبات الفزع التى تتم فى المواقف الفعلية من خلال التعرض للخطر فى موقف العلاج تكون أقل من السابق . وهناك ما يدل على أن إثارة القلق بشكل مقصود فى مواقف التدريب والعلاج النفسى لا يؤدى إلا الى تقليد باهت لنوبات الفزع الحقيقية التى تصيبنا فى هذه المواقف الفعلية . حتى وإن حدث القلق بشكل مقصود فإنه عادة مايتم فى مثل هذه المواقف فى ظل شروط آمنة .. وفى جو من الاسترخاء من شأنه أن يبعث على الطمأنينة التى يتعارض ظهورها مع القلق .





القلق فى حياة أطفالنا*

- الطفل العصابى .
- فئات من الاضطراب النفسى لدى الأطفال .
- أسر تصنع القلق وتطور العصاب .
- قائمة بالأخطاء التى تمارسها الأسر الصانعة للقلق .
- عندما يتحول القلق إلى اضطراب دائم : العلاج السلوكى .
- أساليب من علاج القلق بين الأطفال :
  - المواجهة التدريجية .
  - تأكيد ثقة الطفل بالنفس والبيئة .
  - الاقتداء بالنماذج الصحية .
  - تشجيع وتنمية المهارات الاجتماعية .

---

* كلمة أطفال هنا لاتقتصر على فئة زمنية محددة وتمتد لتشمل الأطفال منذ الولادة حتى بداية المراهقة .

الطفل* العصابى :

يجب بادىء ذى بدء أن نتحاشى التسرع والعجلة فى وصف طفل معين بالقلق والأضطراب النفسى . فمن الأيسر الحكم على الراشد بالاضطراب وعدم النضوج بسبب تصرفاته "الطفلية" ، ولكن ما لا نقبله بين الراشدين من صفات "طفلية" غير ناضجة ، هى عين ما نتوقعه بين الأطفال . لذلك وجب التريث والحذر الشديد عند التعامل مع مشكلات الطفل لأنها قد تكون شيئا مقبولا ومناسبا لعمره وما يتطلبه فى هذه المرحلة من تغيرات فكرية ، وانفعالية ، واجتماعية . إن التغيرات التى نلاحظها ـ على سبيل المثال ـ بين الأطفال وهم يشرفون على المراهقة بما فيها من التصرفات الانفعالية ، والميل للجدل ، والأكثار من الميل للوحدة والخصوصية فى داخل المنزل ، أمر لا ينم عن شذوذ أو اضطراب بمقدار ما يعبر عن نضوج مرحلى يتناسب مع نمو الذاتية وتبلور الميل للاستقلال فى هذه المرحلة من العمر . ويجب أن نقبل ـ بنفس المنطق ـ ما يصدر عن أطفالنا فى المراحل المبكرة من العمر وحتى السنة الخامسة من تصرفات تتسم بالحركة السريعة والتشتت وحتى بعض جوانب التدمير والتخريب على أنها تطور طبيعى لامكانيات الطفل واصراره على اكتشاف البيئة وحب الاستطلاع ، وليس

علامة على العدوان والحركة المرضية ، والمشاكسة أو القلق المرضى والعصاب .

فضلا عن هذا ، فإن غالبية مشكلات الطفل لا تنتج عن الأضطراب بمقدار ما تصدر عن عدم الخبرة ، والسذاجة ، والجهل . ومن ثمة وجب أن لا ننسى عند تعاملنا مع الطفل أن تصرفاته التى تثير قلقنا عليه تصدر من كائن لم تتح له - كما أتيح لمن هم أكبر سنا - فرص التعلم والممارسة والتفاعل بجوانب متنوعة من الحياة الاجتماعية . وسنرى فيما بعد ، أن أجزاءا كبيرة من مناهج العلاج النفسى بين الأطفال يجب أن تركز على إعطاء المعلومات الدقيقة والمفصلة عن كيفية السلوك السليم وما تتطلبه العلاقات الناضجة من شروط .

خاصية ثالثة ، تتطلبها الحاسة الذكية عند التعامل مع سلوك الطفل ، وهى أنه لا يمكن الحكم على سلوك الطفل بمعزل عن سلوك المحيطين به . فمن المعروف أن الغالبية العظمى عن اضطرابات الأطفال تعتبر تعبيرا مباشرا عن اضطرابات البالغين أنفسهم . ولهذا فمن المعروف أن المشكلات بين الأطفال تتزايد مع تزايد الصراع الأسرى ، والإهمال وقدوم الطفل من أبوين مشغولين بمشكلاتهما الشخصية لدرجة تعوق قدرتهما على إحسان التربية .

هل معنى هذا أنه لا يوجد طفل مضطرب ؟

- بالطبع يوجد أطفال مرضى ، فالإضطراب بين الأطفال من الحقائق التى يثبتها البحث العلمى ، بل إن من المعروف الآن أن الأضطرابات النفسية بين الأطفال تتزايد تزايدا مخيفا .

وهناك دراسة حديثة ، تثبت أن هناك ما يقرب من ٣٧٪ من الأطفال فى المدارس الأمريكية عبروا بوضوح عن مشاعر مرتبطة بالحزن وجوانب من السلوك ترتبط بالإكتئاب والقلق . وهناك دراسة أخرى حديثة ، أشارت الى أن نسبة ١١٪ من الأطفال فى الولايات المتحدة (من ٦ إلى ٨ مليون طفل) تعانى من اضطرابات نفسية تحتاج للعلاج . ومن المؤكد أن النسبة ستزيد عن ذلك إذا ما ضممنا لهذه الفئة نسبة الأطفال التى تعانى من الأضطراب الذى لم يشتد لدرجة تثير الحاجة للعلاج . أما فى مجتمعاتنا العربية ، فإنه لا يوجد للأسف ما يمكننا من تقدير نسبة انتشار الأضطرابات النفسية بين أطفالنا بكل دقة ، إلا أننا نعتقد أن النسبة لا تختلف عن ذلك إن لم تكن أكثر نتيجة لاختفاء الخدمات النفسية المنظمة للأطفال فى البلاد العربية .

والأن وقبل الدخول فى العوامل المرتبطة بالأضطراب النفسى بين الأطفال كيف يمكن أن نستدل على وجود طفل مضطرب انفعاليا أو عصابى ؟

كثيرون كتبوا عن الأضطراب الأنفعالى بين الأطفال ، وكثيرة ـ لهذا ـ الخلافات بين هذه الأراء فيما يتعلق بتحديد الصفات الدالة على الأضطراب الأنفعالى . وفى رأينا أن الأضطراب الأنفعالى والعصاب بين الأطفال يمثل فئة رئيسية من أربع فئات أخرى من الأضطراب النفسى العام بين الأطفال . فهناك **أولا** هذه الفئة من الأطفال التى يتجه الأضطراب لديها الى الأنحرافات السلوكية الموجهة ضد الآخرين أو ممتلكاتهم وتأخذ شكل **العدوان** ، وايقاع الأذى

بالآخرين أو بممتلكاتهم ، والأندفاع ، وعدم التعاون ، وإثارة الغيظ . صحيح أن العدوان بين الأطفال [illegible]ن شيئا طبيعيا ، بل ويجب أن نشجع عليه الطفل أحيانا لكى نتيح له فرصة التعامل مع الضغوط الخارجية ، إلا أنه يؤدى فى أحيان كثيرة الى الهروب من المسئولية وتجنب المنافسة السليمة . ولهذا يجب الأنتباه لهذا الجانب عندما يكون العدوان غير ملائم للموقف ، وعندما يكون صادرا كنتيجة مباشرة للعجز عن تحمل الضغوط والمسئولية .

وهناك **فئة ثانية** من الأطفال المضطربين ممن يأخذ لديهم الأضطراب مظهر **الأنحراف الأجتماعى** كالكذب ، والأدعاء ، والسرقة ، والولاء لجماعات جانحة تشجعهم على الجريمة ، والأدمان وغيرها من الأنحرافات الأجتماعية والجنسية .

ويتبلور الأضطراب عند أشخاص الفئة **الثالثة** فى شكل ما يسمى بالأفتقار للمهارات التكيفية . وأشخاص هذه الفئة يتميزون بشكل عام **بعدم النضوج** والعجز عن إكتساب المهارات الأجتماعية والتكيفية المناسبة لأعمارهم . ولهذا ينتشر بينهم الشرود ، وتنتشر بينهم أحلام اليقظة ، والسلبية والتقاعس ، وعدم تحمل المسئولية والعزوف عن النشاط الموجه والإيجابى .

وهناك **أخيرا** الطفل **العصابى** وهو الطفل المثقل بالهموم والقلق . وتبين الدراسات أن أشخاص هذه الفئة تنتشر بينهم المخاوف المرضية من أشياء خارجية كالظلام ، أو الحيوانات ، أو الوحدة ، وتشيع بينهم أعراض أخرى كعدم الثقة بالنفس ، والإحساس بالضآلة ، والأنسحاب والخجل

الشديد . صداقاتهمً قليلة ، وحساسيتهم مفرطة وتسود بينهم أيضا علامات الأكتئاب والتعاسة وعدم الرضا عن النفس بشكل عام .

هذه هى فيما يبدو أهم الأمراض الشائعة بين الأطفال ، ويلاحظ أن تقسيمها لفئات لا يعنى أنها مستقلة تماما عن بعضها البعض الأخر . فهذه الفئات تتداخل فيما بينها مما يجعل هذا التقسيم ضرورة تثيرها متطلبات التبسيط العلمى من أجل الدراسة ، واستنباط العلاقات التشخيصية واقتراحات العلاج .

ونظرا أن لكل فئة من هذه الفئات متطلباتها واحتياجاتها الخاصة من حيث الرعاية النفسية والعلاج النفسى ، فإن تركيزنا فى هذا السياق سيكون على أشخاص الفئات الرابعة أى الطفل العصابى الذى تتسم حياته بالقلق ، والتعاسة وعدم الثقة بالنفس .. الخ .

وعادة ما يتطور العصاب بين الأطفال ـ مثل البالغين ـ نتيجة لإلتقاء عدد من العوامل من أهمها :

- وجود حساسية مفرطة تجعل الطفل مستهدفا للخوف السريع والانفعال الشديد وغالبا ما تنم هذه الحساسية عن استعدادت وراثية .
- التعرض لصدمات مبكرة أو خبرات سيئة كالمرض ، أو الأعتداء الجسمى أو الجنسى أو وفاة أحد الوالدين ، ومن المعروف أن الأنتقال لبيئة جديدة والبعد عن

الأصدقاء القدامى يشكل عاملا صدميا لا ينبغى تجاهله بين الأطفال .

- عوامل خاصة بالتعلم الأجتماعى أى أساليب التنشئة الوالدية للطفل . فمن المعروف أن العصاب الطفلى يرتبط بوجود والدين يكثران من النقد ، أو الحماية المفرطة ، ويقللان من أهمية إمكانيات الطفل وانطلاقه .

- وهناك أيضا الفشل الأسرى فى امداد الطفل بالرعاية اللازمة فى الوقت الملائم . فمن المعروف أن الطفل الذى يتعرض للفشل المتكرر ولا يجد من يشد أزره أو يعينه على مواجهة الأحباط ، وتعلم خبرات جديدة تساعده على النجاح عادة ما يتطور الى القلق والأنسحاب والأكتئاب والهروب .

أسر تصنع القلق وتنتج القلق : قائمة بالأخطاء السلوكية وبدائلها فى الأسر العصابية :

أيا ما كانت مصادر السلوك العصابى بين الأطفال ، فإن هناك من الحقائق ما يؤكد أن الأستعدادات الوراثية والحساسية الشديدة التى يولد بها الطفل لا تتحول بالضرورة الى قلق وعصاب دون وجود عوامل مباشرة تفجر هذه الحساسية وتوجهها هذا الوجه السلبى . بعبارة أخرى ، إن الطفل لا يتحول للقلق كنتيجة مباشرة لما يرث ، بل كنتيجة مباشرة لعلاقات اجتماعية تفتقر للصحة والسلامة ويكون من شأنها أن توجه وتصوغ الوراثة فى شكل عصابى . وما يسجله لنا العلماء بهذا الصدد يؤلف قائمة هامة لنقاط

الضعف فى العلاقة الأسرية بالطفل ، قد يكون من المفيد تسجيلها هنا . وقد يكن من المفيد أيضا أن يتجول الأباء فيها نقطة بنقطة للإطلاع على ما قد يمارسونه منها على نحو مقصود أو غيره مقصود :

قائمة بالأخطاء السلوكية التى تمارسها الأسر الصانعة للقلق .. والبدائل

أساليب صانعة للقلق	البديـــل
١ ـ مقارنة الطفل دائما بالأخرين ، خاصة إخوته وزملائه .	ـ ركز على ما يملك الطفل من امكانيات وبقدرته الشخصية على تنمية نفسه ومواهبه .
٢ ـ تذكير الطفل الدائم بأخطائه ونقاط ضعفه ، وجوانب النقص فيه .	ـ ركز على ما أنجز الطفل ، وعلى ما أحرز من تغير ، وشجعه على الأستمرار فى انجازاته .
٣ ـ إستخدام مشاعر الذنب عند عقابه .. "إنك تجرح مشاعرنا" ، "إنك أنانى" ، "إن الله سيعاقبك على أفعالك" .	ـ إعرف ما الذى أدى الى المشكلة وركز على ايجاد الحل الملائم "إنك لم تفعل ذلك لتجرح مشاعرنا ولكنك تريد أن تحصل على اهتمامنا" ، "ليس من عادتك الأنانية" .

٤ ـ التحقير منه ومن إمكانياته ومن قدرته على حل مشكـلاتـه : "هـذا رأى طفل" ، "لا تتدخـل فى مناقشة الكبار .. الخ .	ـ اعطه بعض الوقت لسماع رأيه ، وناقشه دائما بموضوعية واحترام .
٥ ـ تضييق فرص الطفل فى النمو المستقل "حياتك من غيرنا صعبة" ، "لولانا لما وصلتم لذلك" ، "سرقتكم الحياة عنا ونسيتونا" .	ـ لا تركز على التبعية ، شجع على الاستقلال واتخاذ بعض المجازفات . إحترم عـلاقـاتهم الأجتمـاعيـة بأصدقـائهم ولا تشعرهم بالذنب منك .
٦ ـ أن ترسل أمامهم بتصرفاتـك وسلوكـك عند مواجهة الأزمات نموذجـا لشخصيـة عصابيـة قلقة مثلا : استخدام الحبـوب المهدئة ، الشكاوى العضوية الدائمة ، التعبير بحزن لما لم تحققه فى حياتك .	ـ عند مواجهة الأزمات استخدم اسلوبا سليما قائما على مـواجهـة المشكلـة والتفكير فى حلولها والعمل بنشاط لمواجهة أسباب القلق للتخلص منها .. بذلك ترسم أمـامهم نموذجـا صحيـا مختلفا .
٧ ـ التدخل المستمر وعدم احترام خصـوصية الطفل من خلال مراقبة كل كبيرة أو صغيرة يقوم بها .	ـ راقب عن بعد ما يحدث للطفـل .. تـدخـل عنـد الضرورة .. لا تجعل الطفل خائفا حتى وهو بمفرده من أنك ستقتحم عليه خلوته .

٨ ـ التركيز على الكمال المطلق ، على أنه "يجب أن يكون أذكى من الجميع ، "وأشطر" أو "أقوى" ، أو "أنبه" من الكل .	ـ ركز على ضرورة أن يكون مقتنعا فى داخله بإمكانياته وعلى مقدار ما يحصل عليه الطفل من رضا أو إشباع بالنشاطات التى يقوم بها .
٩ ـ التركيز القصدى المتعمد على القلق وإثارة الأنشغال "هل تعرف كم تبقى على الأمتحان" .	ـ لا تركز على إثارة القلق ، ركز على إثارة الدافع للعمل وعلى الأنجاز وعلى النشاط .
١٠ ـ الشكوى الدائمة من الحياة أمام الطفل والتذمر .	ـ تعويد النفس على البحث النشط عن الحلول الأيجابية للمشكلات .
١١ ـ القبول بالأعذار ، خاصة ونحن نعلم أنها مجرد حجج يختلقها الطفل ليهرب من المسئولية .	ـ شجع على المواجهة ، وساعد الطفل على أن يحل المشكلة بدلا من أن يهرب منها .
١٢ ـ الأكثار من الحديث عن المستقبل "ذاكر عشان تبقى دكتور كبير ، أو مهندس ، أو غنى" .. الخ" .	ـ ركز على المتعة التى يجنيها الطفل من الشىء ذاته وعلى الأهداف القريبة مثل الشعور بالراحة ، والأستمتاع ، والأحترام الذى يخلقه النجاح .

١٣ ـ الدفع المستمر للمنافسة ، وللتعامل مع الأخرين على أنهم مجرد نماذج يمكن اتباعها أو هزيمتها .	ـ ركز على العلاقات الايجابية الدافئة على أنها الهدف ، ركز على المشاركة وشجع الطفل على العمل مع الآخرين .
١٤ ـ الحث الدائم على العجلة ، والسرعة والدقة والضغط المستمر فى هذا الإتجاه .	ـ أعط للطفل فرصة لإنهاء العمل ، وساعده على أن يخطط جدوله ووقته جيداً .. الأستعجال الدائم يربك ويثير القلق .
١٥ ـ إثارة أهداف غير واقعية : ستكون دائما الأول" ، "ستكون شهر وأحسن طبيب" .	ـ إثارة أهداف واقعية قصيرة المدى "أعتقد أنك لو خصصت ١٥ دقيقة يوميا لمذاكرة الحساب ، سيرتفع تقديرك عما هو عليه" ، غير الهدف عند الضرورة .
١٦ ـ التخويف المستمر من العالم ومن الخارج : "لا تتحدث مع الكبار" ، "لا تلعب لأنك ستعدى بالمرض" ، "لا تنزل المياه لأنك لا تعرف السباحة" .	ـ التشجع على المجازفات المحسوبة .. علمه السباحة بدلا من تخويفه من الماء ، إجعله يحيط نفسه بالملبس الملائم فى الأوقات الباردة .. الخ .
١٧ ـ إظهار الضجر عندما يتصرف الطفل بما يناسب عمره والاصرار على	ـ زود نفسك ببعض الثقافة الملائمة بما يناسب العمر ، واجعل الطفل يسعد

أن يكون أنضج أو أكبر من سنه .	بالتصرفات الملائمة لسنه ، أو حجمه مع أطفال من نفس العمر .
١٨ ـ العقاب المستمر عند الخطأ .	ـ إذا كان لابد من العقاب ، وضح السبب فيه ، وبين أيضا الطريقة الصحيحة للتصرف أو الفعل في المستقبل .
١٩ ـ العزوف عن الحوار والمناقشة في أمور حياتهم ، واهتماماتهم ، ومخاوفهم ، والتركيز على النقد ، والقفز لإعطاء النصائح الشكلية .	ـ خصص دائما بعض الوقت لمناقشتهم فى مخاوفهم دون سخرية منها ، إجعلهم يصلوا للحلول بأنفسهم حتى ولو كنت تعرفها ، شجعهم على التعبير عن الرأى والمشاعر أمامك .
٢٠ ـ التردد فى إتخاذ القرارات أو التأجيل الدائم والحاحاتهم .	ـ لا تخشى من إتخاذ القرارات وتجنب التأجيل الدائم ، أرفض بوضوح وهدوء المتطلبات غير الواقعية ، ونفذ ما تعد به إذا كان ممكنا .

توضح القائمة السابقة بعض الأساليب العصابية التى تنتهجها بعض الأسر فى التعامل مع الأطفال .. ويلاحظ عليها جميعا بعض الخواص المشتركة فهى تجعل الطفل مثقلا بالمشكلات ومحملا بالأعباء النفسية والأجتماعية فى فترات

مبكرة من العمر . والطفل فى ظل هذه الأساليب من الطبيعى أن يتحول الى كائن خائف ، لا يثق فى امكانياته ، ويدفع نفسه للتحدى بأكثر ما تساعده به طاقاته ، مكتئب ، ضعيف وعرضه للمرض الجسمى والنفسى معا . وربما يكون من أسوأ ما يظهر على أطفال هذا النوع من الأسر هو الأنتهاء الى عكس ما تتوقعه لهم أسرهم تماما . فمن المعروف أن كثيرا من الأسر تنتهج هذا المنهج من واقع أفكار خاطئة عن تربية الطفل فتتصور أن أثر القلق والدفع الشديد للعمل والمنافسة سيؤدى الى النجاح والتفوق . ولكن ما يحدث نتيجة لهذا هو هروب الطفل من جوانب التحدى خوفا من أن لا يكون عند حسن "الظن" أو "خوفا من أن لا يبلغ الكمال المنشود من الأسرة" فيزداد هروبه وتجنبه للتحديات والمنافسة الصحية . من الناحية البدنية ، ينمو الطفل القلق مصحوبا فى حياته بكثير من الأعراض البدنية التى تبين أنها تصف القلق وتشرحه كالصداع ، والتعب السريع ، واضطرابات المعدة ، وأفراط الحساسية ، فضلا عن بعض الأضطرابات المرتبطة بالتنفس كالربو مثلا .

ويلاحظ أحد العلماء أن التربية الأسرية التى تتصف بالخصائص السابقة أو بعضها تخلق مايسمى "**بطفل النمط أ**" ، وهو طفل يتميز بخصائص مبكرة يبقى بعضها معه العمر كله . من هذه الخصائص - الأهتمامات المحدودة والفقيرة ، الملل السريع ، والنفور الشديد من الأخرين خاصة الغرباء ، الأضطراب الشديد عند المرور بتغييرات غير متوقعة ، التحفظ وفقدان الصبر . وطفل النمط أ - طفل يعجب بالسلطة وبالنماذج التسلطية ولهذا فهو يعمل جيدا إذا كان الهدف هو

إرضاء المحيطين به من الكبار أو الأقوياء ، ولكن يصبح فاتر الحماس ، متقاعسا عندما لا يخضع للرقابة ، تزداد بينهم ميول التعصب ، وضيق الأفق . هذا النمط من الواضح أنه يفتقر للسعادة ، ويصعب عليه تقبل نفسه أو تقبل العالم . إنه كما وصفه أحد علماء النفس طفل يصعب عليه أن يسبح فى الحياة ويستمتع بها دون شعور دائم أنه فى سباق مستمر لا توجد فيه خطوط نهاية .

ويمكن النظر للبدائل السلوكية التى طرحناها على أنها خطة وقائية لحماية الأطفال من القلق ، ولكن ماذا لو أن الطفل قد أصيب بالفعل بالقلق الفعلى والعصاب ؟

هنا يجب الحديث عما يسمى بالعلاج النفسى ـ وهو يجب أن يأخذ عدة محاور يكمل بعضها البعض وتهدف فيما بينها الى مواجهة القلق بأعراضه السلوكية ، والأنفعالية ، والمعرفية مجتمعة فى توضيح هذه الخطوط العلاجية العامة :

(١) عندما يتخذ القلق عند الطفل مظهر الخوف المتطرف من بعض الحيوانات أو الظلام أو الضجيج ، يجب **أولا** : القيام بكل الجهود الممكنة لابعاده عن هذه الأشياء . لنتجنب بالنسبة للأطفال تعريضهم المفاجىء لمصادر القلق ، بما فى ذلك البرامج التليفزيونية أو القصص التى تعطيهم احساساً بأن مخاوفهم حقيقية . **ثانيا** : يجب أن تبدأ خطة التعويد على مصادر الخطر والقلق تدريجيا تدريجيا مع إستخدام كثير من التشجيع . .

(٢) بالنسبة للأطفال الذين يسهل إنزعاجهم وتأثيرهم.

بالآخرين يجب إبعادهم عن البالغين أو الأطفال الكبار الذين يميلون لتخويفهم وزيادة مصادر القلق لديهم . إما إذا كان أقارب الأطفال من أمثال العمات أو الخالات أو الجيران من النوع الذى يحشى الطفل بأفكار الخوف ، والشياطين ، فإن من الأفضل أن تكون زيارات الطفل لهم فى صحبة أبويه حتى لا يصبح أسيرا تماما لمخاوفهم الحمقاء .

(٣) ويتطلب الطفل السليم أبوين قادرين على تدريب أنفسهم على قمع مخاوفهما الشخصية وعدم إظهارها أمام الطفل .. لأن من شأن هذا أن يخلق بفعل القدوة والميل للتأثر بالوالدين طفلا انفعاليا هراعيا شديد القلق .

(٤) وضح للطفل من خلال الأحاديث المنطقية والمناقشات العلمية أن مخاوفه الخارجية لا مبرر لها وشجعه على الحديث عنها . صحيح أن الحجج المنطقية لا تنفع عندما يكون الطفل مشمولا بقلقه ومخاوفه .. ولكنها تساعد فى المدى الطويل على رسم خطوط العلاج .

(٥) لا تلم الطفل على مخاوفه ولا تسخر منها .. شجعه بدلا من ذلك على تنمية ثقته وقدراته على التعامل مع البيئة حتى يكتسب الثقة والكفاءة فى حل مشكلاته .

(٦) الإحساس بالفكاهة وخلق روح مرحة ضاحكة ـ يساعد الطفل على مغالبة مخاوفه . واجه مع الطفل مصادر خوفه وبين له ضاحكا هذا هو ما كان يخيفنا . لكن الفكاهة يجب أن تكون من النوع الجيد الذى يشجع

الطفل على التخفيف من الهموم ، وليست من النوع الساخر المتهكم عليه .

(٧) من الممكن أحيانا (وليس دائما) أن تخلق نوعا من القرب والمتعة بين الطفل وبين مصادر خوفه .. مثلا ـ إذا كان يخشى القطط أو بعض الحيوانات .. قربه تدريجيا منها مع التشجيع والعناق الى أن يتمكن من تكوين علاقة جديدة وهادئة بمصادر الخوف .

(٨) استبدل المشاعر الأنفعالية السلبية التى تثيرها بعض الأشياء بمشاعر انفعالية ايجابية . إذا كان الظلام يثير الخوف (انفعال سلبى) إجعله مصدرا للإطمئنان والهدوء .. خذ الطفل مثلا فى حجرة وأنت تحمله أو تعانقه أو تحادثه وأطفىء الأضواء وأشعلها بشكل مرح .. طول تدريجيا فترات الأطفاء حتى يتمكن الطفل خلال أسبوع من أن يبقى معك فى حجرة مظلمة دون خوف . شجع الطفل على أن يمارس هذه اللعبة بمفرده .. حتى يتمكن بعد فترة من أن يجلس فى حجرة مظلمة يبادلك الأحاديث وأنت فى حجرة أخرى ـ وهكذا حتى يتمكن الطفل فى النهاية من البقاء فى الظلام بمفرده . طبق نفس هذه الفكرة مع الموضوعات الأخرى المثيرة لقلق الطفل كالحيوانات .. استخدم صور هذه الموضوعات أحيانا ، أو نماذج كاريكاتيرية لها إذا كان الخوف شاملا لدرجة تعوق الطفل عن تقبله .. من المهم أن تستبدل المخاوف بأستجابات الأطمئنان .

(٩) منْ المهم كبالغ أن تسلح نفسك بالهدوء عند تعاملك مع مخاوف الطفل ، فليست كل مخاوف الطفل غير حقيقية أو حمقاء .. فبعض المخاوف حقيقية ويجب أن نسلح أطفالنا على مواجهتها . علمه مثلا كيف يهرب في مواقف الخطر ، وكيف يستعين بالبوليس إذا دعت الضرورة ، كيف يستغيث بالناس . علمهم كيف يستغيثوا وكيف يستخدموا قدراتهم فى تقدير مواقف الخطر . أحيانا ما تكون مخاوف الطفل مبررة وعلامة على ذكائه ووعيه وتقديره للخطر وحماية النفس . لا ننسى أن الخوف والقلق انفعالان لهما جوانبهما الأيجابية من حيث حماية الكائن من خطر متوقع .

(١٠) إستخدم نفسك كقدوة جيدة . لا تنسى أن كثيرا من المخاوف تكتسب بفعل قوانين القدوة والمحاكاة . ونوضح بعض نظريات العلاج الأسرى الحديثة أن هناك دائما إرتباط قوى بين مخاوف الأباء ومخاوف الأبناء ، ولهذا فيجب أن تواجه مخاوفك الشخصية وأن تتغلب عليها .

عندما يتحول القلق الى إضطراب دائم : العلاج السلوكى :

اللجوء للعلاج النفسى إذا فشلت كل الوسائل أو اذا كان واضحا أن الأضطراب قد تطور الى مرحلة سيئة أمر ضرورى ، وتعتمد وسائل العلاج السلوكي - وهى من أحدث

النماذج فى الوقت الحاضر على وضع خطة تساعد الطفل على مواجهة القلق ومصادره وإعداد الطفل وتسليحه انفعاليا على الصمود وغالبا ما يلجأ المعالجون السلوكيون الى استخدام عدد من المبادىء والأساليب الرئيسية التى ثبتت فاعليتها منها مثلا :

(١) محاولة "مارى كوفر جونز" Jones ـ منذ ما يزيد عن خمسين سنه ـ لازالة المخاوف المرضية الشديدة عند طفل إسمه بيتر ، وذلك بتعريضه تدريجيا للموضوعات التى تثير خوفه فى الوقت الذى يلتهم فيه الطفل طعاما محببا . لقد أمكن ببساطة إزالة القلق بتشجيع ظهور استجابة تتعارض معه كتقديم طعام محبب ، أو عناق الطفل مع بث الطمأنينة عند التعرض للموضوعات التى تثير القلق .

ويطلق العلماء والمعالجون الأن على هذا الأسلوب إسم العلاج بطريق **الكف المتبادل** أو الكف بالنقيض الذى تدور فكرته الرئيسية حول استثارة استجابة معارضة للقلق عند ظهور الموضوعات المثيرة له الى أن يبدأ القلق فى التناقص ثم الأختفاء التدريجى .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه هنا هو ماهى هذه الأستجابات المعارضة للقلق ، والتى إذا أمكن إحداثها عند وجود الموضوعات المخيفة يمكن ايقاف القلق وكفه ؟ الحقيقة أنه لا يوجد اتفاق محدد على عدد هذه الأستجابات أو نوعها ، ولكننا نذكر على سبيل المثال : الطعام والحلوى ، التشجيع

اللفظى ، عناق الطفل وبث الطمأنينة فى نفسه ، تغيير إنتباهه ، مناقشته منطقيا فى مخاوفه ، تعريضه تدريجيا للمواقف التى يخشاها . بعبارة أخرى ، فإن أى سلوك نستخدمه مع الطفل ويكون من شأنه أن يقلل من قلقه يمكن أن يستخدم أو يوصف بأنه سلوك معارض ومقلل للقلق .

وينصح المعالجون بإستخدام **التخيل** خاصة إن كان مصدر القلق عنيفا وحادا ولا يصلح معه التعرض المباشر التدريجى له . ويتم ذلك بأن تحدد الجوانب الرئيسية والمواقف التى تثير قلق الطفل ومخاوفه . حدد من بين هذه المواقف أكثرها وأشدها إثارة لمخاوفه . ضع هذا الموقف المثير للقلق فى قائمة متدرجة ، يقسم هذا الموقف الى مواقف أصغر متدرجة بحيث نضع أقلها إثارة للخوف فى أعلى القائمة بينما توضح المنبهات الشديدة فى أسفل القائمة . إذا كان خوف الطفل نابعا من الكلاب مثلا فقد يكون سماع نباح الكلاب عن بعد بعيد أقل إثارة للخوف من مشاهدة كلب تصادف أنه يسير أو يجرى فى الوقت الذى يلعب فيه الطفل . ولهذا فإننا نعتبر الموقف الأول أقل من الموقف الثانى من حيث إثارة الخوف . شجع الطفل بعد ذلك وهو فى حالة من الهدوء والاسترخاء أن يتصور نفسه فى أقل المواقف إثارة لقلقه . شجعه على أن يجعل تخيله حيا كأنه حقيقة . أطلب منه أن يشعر بنفس علامات القلق التى يشعر بها اذا كان الأمر حقيقة . إجعله ينتبه الى دقات قلبه ومشاعره حتى ينتهى الى أن يتخيل الموقف دون قلق .. إنتقل لموقف أشد وأشد الى أن تصل الى أعلاها ارتباطا بالقلق . شجع الطفل

خلال ذلك على الأنتباه لاحساساته الداخلية وأن يعيش ذهنيا فى الموقف المتخيل ، وأن يراه كما لو كان يحياه بالفعل . وعادة ما ينجح التخيل بهذه الطريقة فى العلاج . إلا أن هناك بعض الملاحظات التى بينت أن التعرض **لمواقف واقعية** أفضل من التعرض له بطريقة التخيل والتصور . لهذا فإن الضرورة تتطلب أحيانا تعريض الطفل لمواقف واقعية بعد الأنتهاء من عملية التخيل بالرغم أحيانا من بعض الصعوبات العملية التى قد تظهر نتيجة للخروج بالطفل من داخل العيادة أو المنزل الى الواقع الحي بتنوعاته المختلفة ، التى قد لا يكون قد تم الاعداد لها إعدادا جيدا . وتدل بحوث عديدة الى أن اسلوب التعرض التدريجى لمواقف القلق سواء بطريقة التخيل أو طريقة التعرض الفعلى لها فى مواقف حية تؤدى الى تغييرات ايجابية أكيدة خاصة اذا كان القلق معروف المصدر ، وعندما يظهر القلق فى شكل مخاوف مرضية شديدة (فوبيا) . ولهذا هناك مئات البحوث والتقارير التى تدل على نجاحه فى التخلص من حالات الخوف الشديد من الحيوانات والظلام ، والخوف من السفر ، والسيارات المتحركة ، كذلك الخوف من المدارس ، وزيارة الأطباء ، والتعامل مع المدرسين والغرباء .

أما فى الحالات التى يكون فيها **القلق عاما غير محدد بجانب بعينه** متشكلا فى مشاعر نفسية بالنقص والعجز عن التعبير عن النفس ، والأحساس بعدم الكفاءة ، فإننا نبذل من ناحيتنا جهدا كبيرا مع الطفل لتدريب قدرته على **تأكيد ثقته بنفسه** . لقد علمتنا خبرة التعامل مع هذا النوع من الأطفال

أن نسبة كبيرة منهم تخضع نتيجة لأساليب تربوية خاطئة ـ لظروف حادة يضطرون خلالها لقمع تعبيراتهم الأنفعالية ، ومشاعرهم نحو الأشخاص أو المواقف التى يواجهونها ، فيتحول الطفل تدريجيا الى شخصية مكفوفة ومنسحبة ومقيدة ، وحبيسا لانفعالات وعادات لا تترك إلا نطاقا ضيقا لنمو صحته النفسية وسعادته الخاصة . ولهذا فإننا نشجع الطفل ، (ونشجع الأباء على أن يشجعوا الطفل) على ضرورة أن يعبر عن مشاعره بصدق وأمانة . وتشمل **حرية التعبير** عن المشاعر والافصاح عن كل المشاعر الأيجابية (الحب) والسلبية (كالغضب) بما يلائم الموقف . إن إفراط الحياة الحديثة فى ضرورة أن يقمع الطفل بشدة كثيرا من المشاعر والأشياء التى يحبها "لأنها لا تليق ، أو لأنها لا وقت لها .. الخ" تؤدى الى زيادة النزعات العصابية التى تصعب ازالتها بمرور الزمن . ويجب هنا القيام بتمارين محددة تهدف الى اعادة ثقة الطفل بنفسه وبأحكامه وبذاتيته . ومن ثم تبدأ مشاعر القلق تتضاءل وتتضاءل معها مشاعر الاكتئاب . وتزداد فرص الطفل على إقامة علاقات اجتماعية ناجحة . وقد طور المعالجون النفسيون عددا من الاساليب التى تبين أنها تؤدى عمدا الى تنمية قدرة الطفل على **توكيد** ذاته وثقته بنفسه منها : تشجيع الطفل على التعبير المتعمد عن انفعالاته ومشاعره بكلمات صريحة ومنطوقة . فالطفل الذى تتاح له الفرصة أمام معالجه أو والديه أن يعبر عن مشاعر متعارضة وأن يغير من انفعالاته بتغيير الموقف ، وأن يشجع على الانتقال من التعبير عن الاعجاب الى الغضب ، ومن الحب الى السخط ، ومن الفرح الى الحزن سيكون قادرا على تأكيد

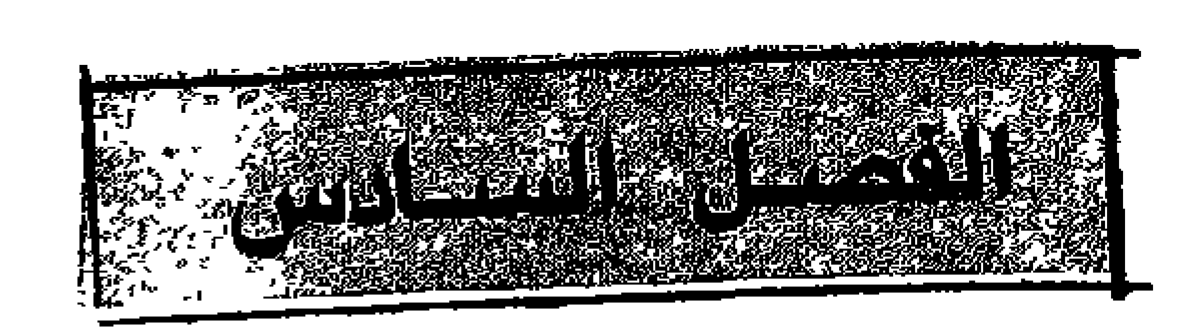
انفعالاته مستقبلا والتكيف السريع للمواقف بما تتطلبه من مشاعر مختلفة وسيكون أقل قلقا من طفل إعتاد على أن يواجه مواقف الحياة على تنوعها بشعور واحدا هو الخوف والقلق .

ويتم تدريب القدرة على تأكيد الذات من خلال **الاقتداء** بنماذج تتسم بهذه الخاصية . لقد أثبت الدكتور / "باندورا" من جامعة ستانفورد ـ أن كثيرا من المشكلات والأضطرابات الأنفعالية كالعدوان والقلق والخوف تكتسب بفعل تأثير الأخرين .. فالوالدان الخائفان اللذان تمزق حياتهما مشاعر الأحباط والفشل يرسمان أمام الطفل نماذج مريضة من السلوك يكتسبها تدريجيا فيتحول الطفل نفسه الى كائن محبط تعوزه الثقة بالنفس . ولكن العلاج النفسى الذى يهدف الى زيادة القدرات التوكيدية وتدريب الطفل على الحرية فى التعبير والمشاعر يستخدم هذا الأسلوب لتنمية أشياء ايجابية . فالقدوة سلاح ذو حدين يمكن استخدامه استخداما سيئا كما يمكن استخدامه استخدامات علاجية هدفها رسم طريق الصحة النفسية وتأكيد النفس . ولهذا نجد المعالجين النفسيين يشجعون الأباء على قمع مخاوفهم أمام الطفل ، وأن يدربوهم أنفسهم لكى ينمى هؤلاء الأباء قدراتهم الشخصية على الثقة بالنفس حتى يتمكنوا من الظهور أمام الطفل بالمظهر الملائم للشخص الواثق من نفسه ، من حيث الصوت الواضح النبرات ، والمجازفات المحسوبة ، ومواجهة الأحباطات بدلا من الهروب منها ، والتفكير فى حل المشكلات بدلا من الأنفعال . ومن المعتقد أن من أسباب زيادة مظاهر

الخضوع وعدم الثقة بالنفس بين الفتيات أكثر من الذكور إنما يرجع الى احتذائهن بأمهات هن أساسا أميل لعدم الثقة بالنفس ، والهروب من تأكيد الذات . فزيادة الضغوط الأجتماعية على المرأة تدفعها لأن تقلل من مظاهر القوة وتأكيد النفس في سلوكها عند تعاملها مع الذكور . ولهذا فإن تدريبات تأكيد الذات تكون أكثر ما تكون طلبا بين الأناث اللآتى يفتقرن للثقة بالنفس .

ويساعد لعب الأدوار Role Playing على تشجيع المهارات الأجتماعية للطفل وعلى زيادة قدراته وثقته . فالطفل الذى يطلب منه المعالج ويشجع فيه القيام بأدوار مختلفة عند التعامل مع مواقف مختلفة يكون أكثر قدرة وثقة بالنفس وأقدر على مقاومة قلقه عند التعامل الفعلى مع هذه المواقف . ويحتاج ذلك الى أن يكون المعالج نفسه (أو الوالدين) أنفسهم من النوع المتقبل والدافيء للشخصية ، وأن يكونوا من المدربين شخصيا على إبراز الأستجابات الدالة على الثقة بالنفس . وتزداد قدرة الطفل على تبنى هذه الأساليب الناضجة عندما نطلب من الطفل تخيلها وإعادتها أمام المعالج عددا من المرات . أطلب من الطفل مثلا أن يحتك بصره بك ، وأن يتحدث بنبرات هادئة (ليست منخفضة وليست عالية) وأن يبتسم وهو يتخيل أنه يرحب بأحد زملائه أو يطلب منه خدمة معينة ، أو أطلب منه على العكس أن يتخيل أنه يطلب من أحد زملائه أن يتوقف عن مضايقته من خلال الأحتكاك البصرى المباشر والنبرة الهادئة القاطعة ودون أن يبتسم .. إن الأكثار من لعب الأدوار بصورة واثقة وفى مواقف مختلفة

ستمد الطفل برصيد هائل من المعلومات النفسية الملائمة عندما يواجه المواقف التى يتطلب حلها قدرة على الثقة بالنفس وتأكيد الذات . ومثل هذا الطفل سيكون من الصعب عليه أن يلجأ الى الهروب وتحاشى المواقف التى تثير خوفه ومن ثم سيكون أكثر قدرة على مقاومة القلق وأن ينطلق بإمكانياتة إلى آفاق انفعالية أكثر نضوجا مما كانت عليه من قبل .



ملامح الصحة والوفاق النفسى

- تقبل ما لا يمكن تغييره .
- مقدرة على التواصل الجيد والفاعلية الاجتماعية .
- خلق معايير بالنجاح والفشل .
- التحرر من سيطرة الانفعال الواحد .
- اللياقة البدنية .

يكون القلق محمودا إذا كان معتدلا لأنه يحملنا على التخطيط السليم ، ويبعث على النشاط . ويعرض الانسان نفسه لكثير من المخاطر عندما يواجه تحديات الحياة بسلبية وخمول . والقلق في درجاته الحقيقية يعد الانسان للمواجهة ، ويبعث على الحيوية ، فيكون أكثر قدرة على حساب عوامل الخطر فى المواقف المختلفة .

لكن القلق الذى يقيد الشخصية بأوهام الفشل والخوف اللامنطقى ، يمثل سلوكا تدميريا ، ويساهم فى خلق شروط تدعو للهزيمة الذاتية والاضطراب . وهذا قلق مرضى يحتاج دون شك للعلاج والضبط . وقد وضحت الفصول السابقة ملامح هذا القلق وخصائصه العصابية ومحاور علاجه وضبطه بين الراشدين والأطفال .

على أن خطط العلاج النفسى والسلوكى والطبى التى بسطناها فى الصفحات السابقة لا تخلو من عيب واضح . فبنظرة فاحصة نجد أن كل أساليب العلاج النفسى والطبى للقلق تبدأ من مسلمة مرضية وبعبارة أخرى ، نجدها جميعا تبدأ وتعتمد فى كل ما تبتكر من وسائل علاجية على تصور واضح لما هو سلبى أو مرضى . وتكتسب قيمتها من خلال ما ترسمه من خطط للتغلب على المخاوف ، والجوانب السلبية

التى تدفع بالغالب لحضور المريض للمعالج وطلبه للعلاج النفسي منها . لكنها لا ترسم خيوط الصحة ، ولا تحدد الملامح العامة لما تسميه سواء أو نضوج أو استقرار نفسى أو غير ذلك من الفاظ تدل على التحرر من القلق والجوانب الممرضة للشخصية .

ونحن ـ حتى هذه اللحظة ـ لم نحدد ملامح الشخصية المتحررة من المرض النفسى ، وما تتسم به من جوانب الصحة والإتزان . ولهذا فإننا نعتبر وصف السلوك الصحى ، وتحديد الملامح الإيجابية فيه ، نهاية طيبة لهذا الموضوع .

إن تحديد الملامح الرئيسية للصحة ، والسمات التى تتميز بها الشخصية التى استطاعت أن تتحرر من قيود القلق والإختلال ، أمر ممكن . ووضع هذه الملامح فى شكل مقترحات عملية ، يساعد على تحقيق عدد من الوظائف التى تحفظ للفرد تكامله ، واقتناعاته بماهو عليه من فاعلية . فمن ناحية ، ترسم هذه الملامح ـ إذا ما قمنا بتحديدها عمليا ـ ترسم أمام الأفراد العاديين أهدافاً واضحة المعالم للشخصية الخالية من القلق والهموم . إنها تبين لهم أن مثل هذا النمط الصحى ليس وهما ، لأن بالإمكان الاتفاق على جوانب السلوك والتفكير التى تصف الأشخاص الذين تحرروا من الأثار التدميرية التى تشرح القلق وترتبط به . فضلاً عن هذا ، فبدون وجود تصور للصحة لا يمكن فى تصورنا القيام بعلاج نفسى فعال . وقد لا ينجح الناس حتى عباقرة العلاج النفسى منهم فى توجيه السلوك نحو المطالب المرغوبة للصحة النفسية . هذا فضلا ، عما قد تثيره هذه القائمة التى سنضعها عن ملامح الصحة من رغبة للبحث وتشجيع

للباحثين الشبان فى مجالات الطب النفسى وعلم النفس على توجيه بعض جوانب نشاطهم للبحث عن متطلبات الصحة بدلا - أو إضافة - للتركيز على بحث الجوانب المرضية من الشخصية . بعبارة موجزة ، فإن توقفنا عند مرحلة التخلص من المرض أو التخفف من أعراض القلق وحدها - ودون وجود تصور واضح للسواء - لا يمثل إلا صورة جزئية من صور التكامل والفاعلية فى توظيف السلوك توظيفاً صحياً . وبدون وضع تصور ملائم للسلوك الصحى ، يكون الحديث عن العلاج النفسى مبتوراً ومليئاً بالثغرات . ومحاولتنا هنا هى محاولة لسد بعض هذه الثغرات بوصف السلوك الصحى . وفيمايلى وصف موجز لما يتسم به هذه السلوك .

تقبل مالا يمكن تغييره

من ملامح الصحة ومتطلبات التحرر من القلق تقبل ما لا يمكن تغييره . وثمة عدد كبير من الحتميات أو الثوابت الاجتماعية والطبيعية تتطلب الصحة قبولها لأن مناقشتها ، وتحديها وإظهار الإنزعاج الدائم منها لا ينتهى إلى أى تعديل أو تغيير فيها . ومايلى ، يكشف لنا عن أمثلة لمتطلبات الصحة فيما يتعلق بهذا الجانب :

تقبل ماحدث فى السابق أو الحياة الماضية :

فما حدث فى الماضى من أحداث قمنا بها أو قام الأخرون بها نحونا شىء لا يمكن تغييره الأن . صحيح أننا يمكن أن نتعلم من الخبرة ومن التمعن فى الأحداث الماضية للإستفادة

منها فى توجيه حياتنا بفاعلية أكثر ، إلا أن هذا هوَ الجانب الوحيد الذى تبدو الأحداث الماضية من خلاله ذات فائدة . فيما عدا ذلك فإن الانزعاج الدائم من أحداث الماضى ، وما تمتلىء به ذاكرة المرضى من ذكريات مؤلمة ، وإدانة الأباء أو الأسرة ، أو الظروف الاجتماعية والاقتصادية القاهرة هى أشياء لا يمكن التحكم فيها أو تغييرها الأن . ولهذا فمن ملامح الصحة ، والوفاق النفسى تقبل الماضى سواء تغلق ذلك بأخطاء قمنا نحن بها شخصيا أو أخطاء إرتكبها الأخرون نحونا عن قصد أو عن غفلة .

أراء الناس فينا :

صحيح أننا جميعا نحب أن يحمل الأخرون عنا انطباعات طيبة ، وأن نحظى منهم على الحب والاحترام ، لكن أراء الناس فينا بشكل عام تمثل شيئا ليس فى مقدروبنا التحكم فيها . أراء الناس فينا ـ مهما كانت مؤلمة ـ شىء خاص بهم . وهم فى النهاية احرار فى اعتناق ما يريدون من آراء فينا أو فى غيرنا سواءًا أردنا أم لم نرد . وإذا كان يجب أن نعامل الناس كما نحب أن نعامل به ـ كما يعلمنا **طه حسين** فى جنة الشوك ـ فإن الوفاق النفسى يتطلب أن نكون على وعى واضح بأن تصرفات الأخرين وأرائهم فينا لا تحكمنا لأننا لا نستطيع دائما أن نحكمها إن جزءًا كبيرا من القيود الإجتماعية ، وأدانة الذات التى تكتنف حياة المرضى بالقلق ـ فيما تعلمنا خبرتنا فى التعامل معهم ـ تتصدرها مخاوف من هذا النوع . ونعتبر ـ من جانبنا ـ أن علاج حالات القلق يتسم عند نجاحه بأن يبدأ المريض فى التجاهل التدريجى لأراء الناس فيه ، أو

أن يتوقف عن التخمين الدائم لما يشعر به الآخرون نحوه أو كيف يفكرون فيه ، أو يحسون حياله .

لنقبل خصائصنا الجسمية والنفسية :

إن ما ترثه من خصائص جسمانية أو نفسية شيء لا يمكن التحكم فيه ، ومن ملامح الصحة أن ننمى قدرتنا على تقبل - بل وعلى حب ما أنت عليه من مظهر ، أو حجم ، أو لون .

وتبين لنا ملاحظة المرضى أنهم يبدأون بعد نجاحهم فى العلاج النفسى فى تجنب الشكوى الدائمة من الخصائص البدنية التى كانت مصدرا لإنزعاجهم وتعليقاتهم . فتقل شكاواهم عن اللون (أسمر أو أبيض) وشكل الشعر ، أو حجم بعض الأعضاء ، أو انتمائه (أو انتمائها) لجنس دون الجنس الآخر .

ويمتد هذا النوع من التقبل إلى تقبل الخصائص النفسية والمزاجية الموروثة . وذلك مثل ما يحتله الشخص من موقع على بعض الخصائص العقلية **كالذكاء** أو الوجدانية **كالإنطواء** . وتبين ملاحظة المرضى المصابين بالقلق انتشار الشكوى بينهم لهذه الخصائص النفسية كما تتمثل فى الإدانة الذاتية لما هم عليه من عيوب انطوائية أو غباء . ويبدأ تقبلهم التدريجي لهذه الخصائص بمحاولة توظيف امكانياتهم في هذه الخصائص توظيفا فعالا كلما بدأ الواحد منهم فى التطور الصحى والشفاء والوفاق مع النفس .

الحتميات الطبيعية والبيئية - الجغرافية :

ظروف الطقس ، والحرارة ، وتحول الفصول كلها أشياء لا

يمكن التحكم فيها بالمجهود الشخصي . صحيح أننا من حقنا أن نعبر عن حبنا لبيئة نظيفة غير ملوثة ، أو لفصل من فصول السنة ، ومن حقنا أن نعبر عن كراهيتنا للوحل والمطر المتسخ والشوارع القذرة ، لكننا نمارس خطأ كبيرا إن سمحنا لهذه الأشياء أن تكون مصدر إنزعاج وشكوى دائمة . ونثقل حياتنا بالجمود عندما نسمح لتغيرات الطقس أن تكبل حركتنا ، وتقيدنا عن الحركة والنشاط .

ومن الحتميات الطبيعية التى تتطلب الصحة قبولها ما نحن عليه من تطور عضوى أو مرحلة عمرية معينة . فأنت لا تستطيع أن تغير من عمرك . صحيح أنه بإمكاننا بذل بعض الجهد للاستمتاع بالحياة ، أو التغيير فى الملبس أو المأكل أو الإتجاه ، لكن المرحلة العمرية التى نحن فيها حقيقة يجب تقبلها . ونعرف عن المرضى شكاياهم الدائمة من العمر أو كبر السن (أو صغره) ، ويحيلهم هذا أكثر استهدافاً لإستمرار مخاوفهم ، وهمومهم .

وهناك أيضا اللوائح الحكومية والقواعد الإدارية . صحيح أنها قد تكون غير ملائمة شخصيا فالضرائب ، والجمارك المرتفعة ، وقوانين المرور ، وإشارات منع التدخين ، وضرورة الالتزام بأوقات الانصراف والحضور للعمل أو الدراسة ، والعلاقة بالسلطة والرؤساء كلها أشياء لا يمكن أن تكون بحال موضع رضانا جميعا . لكن الصحة ومتطلبات الوفاق النفسى تعرف أن السخط الدائم ، والتحايل ، والهلع الشديد منها تستثير القلق والإضطراب . وليس معنى القبول بهذه الأشياء التوقف عن الدفاع عن

الحقوق إذا اهدرت ، وعدَم رد العدوان إذا كان فى تطبيق هذه القواعد ظلم أو تحيز . فمن المعروف أن الدفاع عن الحقوق المشروعة يعتبر سمة رئيسية من سمات الصحة . ومن المهم أن يعرف الشخص ويمارس الوسائل الفعالة لذلك ، كالشكوى ، أو استخدام السبل القانونية أو السياسية المتاحة للعمل على تغيير بعض اللوائح السيئة أو للتقليل من مضارها علينا . أما الدخول فى صراع دائم مع هذه القواعد ، ومع القوى التى تدافع عنها أو يحميها كرجال الشرطة أو المرور أو السكرتارية ، أو الموظفون الصغار .. وغيرهم لا يمكن أن يكون أسلوبا من الأساليب المرغوبة لمن يتسِمون بالصحة والنضوج .

ومن الأشياء التى تتطلب الصحة القبول بها **الكوارث والتغيرات** المفاجئة التى لا نحكمها . فوفاة الأقارب ، والإصابة بعاهة ، ووجود طفل متخلف أو مريض ، لا يجب أن تمنعنا من محاولة البحث الإيجابى النشط عن أساليب تخفف أو تعالج هذه المصائب إن كان ذلك ممكنا . أما الانهيار الكامل إزاء هذه الأحداث والوقوف بالشخصية عند مرحلة الانشغال وإثارة القلق عمدا فهى طريقة تبين لنا ملاحظة السلوك الصحى أنها تزيد من التوترات النفسية ، وتؤدى إلى تفاقم المشكلات ، وتقلل من مستوى الكفاءة عند التفكير فى التغلب على ما تثيره هذه الكوارث والتغيرات من مشكلات .

وواضح أن الشخصية السوية بالرغم من ضيقها بالطاعة والامتثال يجب أن تتحلى بقدر من المنطق السديد يمكنها من تقبل ما لا يمكن تغييره بمافى ذلك أحداث الماضى ، وثوابت

الحياة الطبيعية ، وما نتصف به من خصائص جسمانية أو نفسية ثبتتها فينا عوامل لا قدرة لنا عليها .

● القدرة على التواصل الجيد والفاعلية الاجتماعية

ولا نعنى بالفاعلية الإجتماعية ما يفهمه البعض خطأً على إنها إغراق فى علاقات اجتماعية دائمة ، والتهريج ، وإطلاق النكات ، والإغراق فى المجاملات الاجتماعية . إن القدرة على التواصل الجيد والفاعلية فى المواقف الاجتماعية قد تختلط بمفهوم الانبساط ، وحب الاختلاط ، وعدم تحمل الوحدة ولو لفترات قصيرة . فكثير "من الأشخاص الذين يبدون للناظر على أنهم اجتماعيون وذوو صداقات متعددة ، ومقدرة على الانتقال من موقف إلى موقف إجتماعى أخر هم فى الحقيقة قد يكونوا أبعد ما يكونوا عن الصحة والوفاق النفسى . ويحذرنا بعض علماء العلاج النفسى والصحة النفسية من اختلاط مفاهيم مثل "إجتماعى" أو "انبساطى" أو "خفيف الظل" بمفاهيم كالصحة النفسية والسواء والنضوج الإجتماعى . إن الانسان ـ فيما يبين لنا هؤلاء العلماء قد يكون مقيدا وهو فى قمة النشاط الإجتماعى ، ومن الشائع أن تجد أن كثيرا من الأشخاص يثيرون حولهم الضجيج لكنهم من الناحية النفسية أبعد ما يكونوا عن التكامل والوفاق .

وتتسم الفاعلية الإجتماعية بالمهارة فى تكوين علاقات شخصية واجتماعية فعالة ، تتسم بالدفء والتبادل ومرونة الإنتقال بين الأخذ والعطاء . ولهذا تتميز صلات الشخص غير القلق بأنها لا تؤدى إلى ايقاع الغبن بأى طرف من الأطراف

الداخلة فى عملية التفاعل . أى أن هذه العلاقات تكون مقبولة من الشخص نفسه ، وفى نفس الوقت تكون غير مرفوضة أو مستهجنة من الآخرين . وسنتخير فيمايلى بعض النماذج الرئيسية لهذه الخاصية :

الفاعلية فى أداء الأدوار الإجتماعية :

تمثل مواقف العمل والأسرة والأصدقاء وزملاء المهنة جانباً إجتماعياً مهما من حياة أى إنسان . ومن الملامح الصحية للشخصية عند التفاعل بهذه المواقف ما يسمى بالفاعلية فى أداء الدور الإجتماعى الملائم لكل موقف . ولكل موقف من هذه المواقف متطلباته الخاصة حتى ينجح الشخص فيه . فالرجل فى داخل الأسرة يحتاج للقيام بدوره بنجاح وفاعلية لكى يحافظ على استقرار الأسرة اقتصاديا وإجتماعيا ونفسيا . والشخص فى الموقف الواحد يتنقل بين عدد من الأدوار . فرب الأسرة الناجح يكون أبا لأبنائه ويقوم بدور الزوج بالنسبة لزوجته ، وهو كذلك قد يقوم بدور الإبن لوالديه إن كانوا من الأحياء . ويسهل ـ فى أحيان كثيراً ـ الانتقال بين هذه الأدوار بمرونة .. خاصة إن كان الشخص نفسه على درجة عالية من النضوج وسلامة الحس . لكن الأمر يتطلب مرونة أكبر ودرجة عالية من النضوج إذا كان على الشخص أن يتفاعل بمواقف إجتماعية متعارضة فى متطلباتها . فالتوفيق بين مطالب عمل يمتلىء بالضغوط والصراع ومطالب الأسرة والأصدقاء جميعا معاً تحتاج لمهارة ولدرجة أعلى من الصحة النفسية . بعبارة أخرى ، فإن الانسان ـ السوى هو انسان قادر على التوفيق بين متطلبات المواقف الإجتماعية المختلفة وهذا ما يطلق عليه علماء النفس

اسم المرونة فى أداء الأدوار أو **المرونة الإجتماعية** .

ومن المشهود عن الأشخاص الذين تثقلهم الأمراض النفسية أنهم :

١ ـ جامدون يكرهون التغير والتطور ، والإستجابة للمواقف الإجتماعية بما يلائمها .

٢ ـ يفتقدون للمهارة فى أداء الأدوار التى تلائم كل موقف .

٣ ـ أنهم قد يدخلون أنفسهم عمْدا فى مواقف تحتاج لأدوار تتعارض مع الأدوار التى تتطلبها المواقف الإجتماعية السوية . ولهذا تزداد مظاهر التصلب والقلق بين الرجال والنساء الذين يحافظون على علاقات أسرية أو جنسية تتسم بالثنائية . والطبيب الذى يعمل بالتجارة ، والرجل الذى يتخذ من إمرأة أخرى عشيقة ، والتلميذ الذى تستهلكه المجاملات وغيرهم تمثل حالات للفشل فى التمييز بين متطلبات الأدوار السوية .

٤ ـ الركون لدور واحد أو أدوار محدودة فى الحياة شراءاً للسلام وبحثا عن التبسيط الشديد للحياة الاجتماعية . فالشخص الذى تستغرقه الحياة الأسرية تماما بشكل يعجزه عن التطور المهنى أو العلمى بنفسه ، يعرض نفسه للقلق أكثر من ذلك الذى يوازن بين المواقف المختلفة ليمنح كل منها بعض الوقت . ولعل أسوأ مافى هذا الجانب أنه يفقدنا

الاتصال الجيد بالأخرين فى المواقف المختلفة التى تحتاج لتنمية شخصية أو إجتماعية ، ويشعرنا بالعزلة المؤلمة التى تعتبر تربة خصبة للقلق والمخاوف الإجتماعية .

وكلنا يمكن أن يكون عرضة للجمود الذى يخلقه العجز وعدم المهارة فى أداء الأدوار الإجتماعية خاصة إذا سمحنا للمواقف الإجتماعية أن تسيطر علينا وتدفعنا إلى الإهمال فى تنمية الشخصية ، وتطويرها نحو أداء أدوار إجتماعية أخرى .

إن نسبة كبيرة من رواد العيادات النفسية قد فقدوا أو يفتقدون إلى جزء كبير من المهارة فى أداء الأدوار الإجتماعية . ولهذا تتطلب الصحة أن تولى بعض الجهد لتكوين المهارة فى أداء الدور أو الأدوار الإجتماعية بانسجام .

التحرر من الخبرات الإجتماعية المؤلمة التى تتعلق بالماضى :

يعرف كل ممارس للعلاج النفسى أن هناك قدرا كبيرا من السخط على الماضى والأحداث الإجتماعية السابقة تنتشر بين حالات القلق . فلوم الماضى ، ولوم الآباء على أساليبهم المتعسفة فى التربية ، والتجارب الإجتماعية السيئة فى مجالات الأسرة أو المهنة غالبا ما تثار من المرضى فى جلسات العلاج النفسى لتفسير الجوانب المرضية من الشخصية . صحيح أن نمو القلق ، وتطوره يكون دائما مسبوقاً بأساليب تربوية متسلطة . وصحيح أننا معشر علماء

النفس نولى جهدا كبيرا لدراسة هذه الأساليب وآثارها على الشخصية ، ونمو الأمراض النفسية والإجتماعية . وصحيح أن نتائج البحوث النفسية تبين أن هناك ما يشبه الصلة العلية بين نمو القلق المرضى وبعض الأساليب الوالدية أو البيئية المتعسفة فى تربية الأطفال وترشيد الصغار ، لكن ما يكشفه البحث العلمي فى هذا المجال يختلف عن الممارسة العملية ، ويختلف عما تتطلبه الصحة . إن الصحة تحتاج ـ كما نبين لمرضانا فى جلسات العلاج النفسى ـ إلى :

١ ـ التحرر من سلطان الماضى والعلاقات الإجتماعية التى تمت على نحو خاطىء .

٢ ـ إن ماتم فى الماضى مجرد أحداث ، لكن تفسيرنا لها هو الذى يضفى عليها طابع الخطورة والخوف .

٣ ـ أن الماضى شىء لا يمكن لى إحضاره الأن لكى أغير منه أو أبدل فيه ، فالماضى واحداثه أشياء تمت ووقفت عند اللحظات التى حدثت فيها . أما ما يمكن تغييره الأن هو أنت ، وأفكارك ، وما تضفيه من قيم سلبية على هذا الماضى .

ونعرف أن إختيارا حقيقيا للصحة والتكامل قد بدأ يتبلور عندما يتوقف المرضى عن تلك الدفاعية الهجومية على الماضى والسخط على الأسرة . فعندما يبدأ الانفعال الشديد بأحداث الماضى يتخافت ، نعرف عندئذ أن لغة صحية جديدة قد بدأت فى التكوين ، من سماتها الرئيسية العبور بالشخصية إلى

الفعل النشط والتطور بإمكانيات فكرية ووجدانية غير مقيدة بأحداث الماضى . ولهذا تتزايد الفرص أمام الفرد على فاعلية أكثر لسلوكهم الاجتماعى .

الفاعلية الهادئة :

هل :

- تتضايق عندما تعجز عن نقل وجهة نظرك للآخرين بكل دقة ؟
- تعلن أى نجاح أو إنجاز تقوم به حتى قبل أن يكتمل ؟
- تحرج بسهولة بسبب ما يبدر من الآخرين من سلوك غير مهذب ، أو لغة غير لائقة ؟
- تجد صعوبة واضحة فى الإبتعاد عن المواقف أو الناس الذين تصدر منهم تصرفات ضارة كالتدخين فى وجهك ؟
- تعيد وتزيد من وجهة نظرك حتى تكون متأكدا من نقلها ، ثم تلوم نفسك بعد ذلك ؟
- تقضى وقتا طويلا فى تحليل مشاعرك أو تصرفاتك أو علاقتك بالأقارب والزملاء ؟

إذا انطبقت عليك أى عبارة من العبارات السابقة فإنك تفتقر لأحد جوانب الصحة والفاعلية الإجتماعية . إن الشخص الذى يقضى وقته يوضح نفسه ، ويعلن عن إنجازاته ونجاحاته ، وتشده اللحظة الإجتماعية ليثبت من خلال سلوكه وكلماته أنه مهم ، وناجح ، ومنتج ، ويملك مالا يملك الآخرون شخص يفتقد لما نسميه **بالفاعلية الهادئة** التى تمثل ـ فى تصورنا ـ ركنا رئيسيا من أركان الثقة بالنفس .

ويعنى مفهوم الفاعلية الهادئة بكل بساطة أن لا يكون

الشخص ملزما بتقديم تقرير عن نفسه وإنجازاته كلما أتيحت له الفرصة فى الإحتكاك والتفاعل . وكلما أمكن للشخص أن يحرر نفسه من الإعلان الصاخب عن إنجازاته ومواهبه كلما أتيحت له مكاسب صحية أكثر ، منها على سبيل المثال :

١ ـ تحرير نفسه من التبعية والاحتياج الشديد للآخرين . فهو غير مضطر للإعلان القهرى عن النفس .

٢ ـ تنمية القدرة على التذوق الشخصى الخاص لطعم ما يحقق من إنجازات .

إن الانسان الذى لا يتذوق شخصيا متعة إنجازاته الخاصة وما يمنحه عمله الخاص له من رضا ونشوة ، يضفى على الأخرين أهمية أكبر منه هو شخصيا . وبذلك يضيق من فرص سعادته الشخصية ، ويجعلها مرهونة بلحظات محدودة هى اللحظات التى يكون بامكانه الإعلان عن نفسه لاصطياد اعجاب الأخرين .

٣ ـ التقليل من الصراعات الإجتماعية ، والعداء الخارجى بسبب اللغة المتفاخرة ، والصاخبة ، وبسبب ما قد تثيره اعلاناته عن تفوقه على الآخرين وتجاوزهم من كراهية ، أو حسد أو غيظ بينهم .

إن الصخب طريقة غير فعالة فى أثبات الكفاءة . والشخص الذى يختار هذا الطريق قد يبدو ـ فى الظاهر ـ متحررا من القلق والقيود إلا أن الآخرين يعرفون عنه افتقاره للإستقرار النفسى والثقة ، وعدم إحساسه بالطمأنينة والأمان .

ويعرف الأصحاء أن الفاعلية الهادئة تحررهم من القلق فى

المواقف الإجتماعية ، ولهذا نجدهم يميلون إلى :

١ ـ تجنب الإعلان عن الإنجازات والمكاسب ، والمفاخرة بالعمل . وقد شدتنى شخصيا هذه الخاصية فى كاتبنا المعروف **نجيب محفوظ** . ففى كل المرات التى أتيح لى الاستماع إليه أو الحضور إلى جلساته المنتظمة فى مقهى "ريش" فى الماضى لم أصادف منه بالمرة حديثا عن عمل من أعماله نشر أو لم ينشر . لقد كان نموذجا للفاعلية الهادئة فى أوضح صورها .

٢ ـ يحرصون على الخصوصية ، ولا يجدون فيها أو فى الانعزال عن الأخرين قيمة مرضية . **والانعزال** لا يعنى **العزلة** . فالإنعزال أمر قصدى واختيار شخصى يقوم الشخص من خلاله بإبعاد نفسه مؤقتا عن الأخرين ، أو الأماكن الصاخبة لكى يرضى احتياجاته الخاصة ومتطلبات التكامل كالإبداع أو التأمل أو أى إنجاز شخصى أو عملى آخر . أما **العزلة** فهى شعور ينتاب الشخص عندما يشعر بأنه وحيد ومرفوض أو غير مقبول من الآخرين . وقد يشعر الشخص بالعزلة حتى وهو فى قمة الاحتكاك بالأخرين . والعزلة شعور ممرض تمثل خاصية رئيسية من الخواص التى تصف حالات القلق الإجتماعى . أما الانعزال فهو فعل إرادى وملمح رئيسى من ملامح الفاعلية الهادئة .

● اقتناعات خاصة بالنجاح أو الفشل

يتطلب النضوج تحررا من النظرة الدائمة لمن حولنا للتأكد

من أن مشاعرنا نحو الأشياء أو نحو النفس والآخرين حقيقية فيما تثير من أعجاب أو سخط . ويتطلب ذلك :

تجنب المقارنة الدائمة بالأخرين :

فمن الخصائص الدالة على الصحة تنمية الاقتناع والثقة بالنفس بصورة تمكننا من تجنب المقارنة بالأخرين ، وبالتالى تتيح لنا فرصة تطوير حياتنا ومثلنا العليا وفق معايير شخصية .

إن من مآسى الحياة فى جماعة ، هى أنها تعلمنا وتفرض علينا مبكرا أن ننظر إلى المعايير الخارجية لكى نقارن أنفسنا على أساسها ونحكم وفقها على قيمة ما نملك أو ننجز . كيف نعرف أننا أذكياء ؟ بالمقارنة بالأولاد الأخرين . كيف نعرف أننا أصحاء ؟ أو سعداء ؟ ناجحون ؟ أو جذابون ؟ لنراجع الأخرين ، وننظر فيمن حولنا لنراقب أقوالهم وأفعالهم وتعليقاتهم على ما نلبس أو نأكل أو ننجز أو نعبر من أفكار وأراء .

والمقارنة بالأخرين تكون أحيانا مطلبا صحيا . فمن خلال هذه المقارنات نجد وسيلة سهلة ويجد المجتمع طريقاً مضمونا للتقييم والحكم على أفراده . ونحن بفعل هذه الحاجة نقيِّمُ أنفسنا ، ونندفع ـ عندما تكون المقارنة بالأخرين ذات متضمنات إيجابية ـ إلى التجويد فى العمل ، أو التغيير من بعض أنماط سلوكنا ، ونحسن من انتاجنا أو عملنا حتى يرقى للمعايير الإجتماعية السائدة ، ومقاييس التفوق الخارجى . إن هذه المقارنات تعلمنا دون شك ذلك الإحترام الذى نوليه

بجوانب التفوق ومقاييس النجاح كما تصوغها معايير خارجية عنه.

ويجنح بعض الآباء والرؤساء الى استخدام أسلوب المقارنة بالأخرين كوسيلة من وسائل الضبط ، وطريقة لفرض بعض القواعد أو بعض الرغبات الشخصية على الأخرين . إفحص كمثال - أو أمثلة - على ذلك العبارات الأتية التى تمتلىء بها حياتنا الإجتماعية فى مواقف الأسرة والعمل :

" أصحابك لا يغادرون بيوتهم فى هذه الأيام الصعبة"

"إن الآخرين لا يكثرون من الشكوى مثلك"

"لماذا لا تكن كبقية إخوتك"

"أن أى شخص فى محلك يتمنى ربع ما تملك فلماذا لا تقنع مثلهم ؟"

"أه لو كنت مثل ....."

فهذه جميعا عبارات تحمل فى طياتها مقارنة بالأخرين ، وتهدف إلى ضبط السلوك والتحكم فى إثارة مشاعر أو تصرفات مرغوبة . وقد رأينا من قبل (عند الحديث عن قلق الأطفال) ، أن الأسر التى تتسم بهذا الأسلوب تخلق فى أطفالها مشاعر القلق مبكرا فى حياة أفراد الأسرة .

ولعل أسوأ ما ينقله هذا الأسلوب أنه يعلمنا التبعية الكاملة لمحكات أو معايير خارجية لم نساهم فى صنعها . ويحرمنا الإعتماد الكامل على أحكام الآخرين وتعليقاتهم من الإستفادة بنوع آخر من المعايير الضرورية للصحة والتطور ، وهى معاييرك الخاصة واقتناعاتك الشخصية ، ورضائك الذاتى عما تفعل أو لا تفعل . أو متى تفعله أو لا تفعله . ويعرف الأسوياء

من الناس أنه لا حاجة لهم بالنظر الدائم لمن حولهم لاختبار حقيقة مشاعرهم . فالرضا عن النفس ، وتقديرها ، والقبول أو عدم القبول بما نحن عليه من ذكاء ، أو نجاح ، أو جاذبية ، أو ثروة كلها يمكن أن تستند على معايير شخصية بحتة . ويحذرنا أحد علماء النفس من الوقوع الدائم فى عمليات مقارنة بالأخرين ويرى أن المقارنة الدائمة بالآخرين فخ تقع فيه الشخصية ، وتتحول من خلاله إلى ضحية لأحكام الناس ومعاييرهم فى أكثر خصائصنا وسماتنا الفريدة . ويعرف الأصحاء أن الأخرين يلجأون دائما لهذا الأسلوب كطريقة من طرائق التحكم فيمن حولهم ودفعهم للطاعة والانصياع . ولهذا ، فإن من أحد ملامح الصحة هو تجنب المقارنة بالأخرين ، بالانطلاق من معايير شخصية لتقييم ما نحن عليه من خصائص أو صفات . إننا بعبارة أخرى ، لا نحتاج لإذن أو تصريح من الخارج لكى يمنحنا الرضا أو الإعجاب بما ننجز أو نحس .

النزعة الاستقلالية :

وتكوين معاييرك الخاصة يتطلب قدرا عاليا من الإستقلال فى الرأى والسلوك . والاستقلال لا يعنى الوقوع فى فخ المخالفة والمعارضة من أجل المعارضة . إن القيام بدور عسكرى الشرطة للدفاع عن أى رأى طالما أنه مخالف للرأى الذى نسمعه ، دور ممقوت ، ويقلل من تأثيرنا فى الأخرين ، ويثير النفور . والمخالفة والعناد ـ ولو أنهما قد يبدوان لصاحبها علامة على الاستقلال ـ توقع الشخص فى كثير من المنازعات التى لا تخدم رغبة الشخص فى تطوره الناضج بشخصيته .

والنزعة الاستقلالية مع ذلك تتضمن تحررا من الأخطاء الشائعة ، وقدرا أكبر على امتحان ما يأتينا من أراء أو تصرفات بصورة موضوعية .

ولهذا نجد الميالين إلى الاستقلال أكثر من غيرهم قدرة على مقاومة الشائع وعدم الوقوع فى فخ كثير من الأمراض النفسية والاجتماعية . فهم أكثر حرية على مقاومة التعصب الإجتماعى أو الفكرى ، كما أنهم أكثر قدرة على تقبل الأفكار الجديدة . وتنميتها . وفوق هذا وذاك ، نجدهم أكثر فاعلية فى ابتكار أساليبهم الخاصة فى تنمية امكانياتهم الذهنية والإجتماعية .

إن النزعة الاستقلالية خاصية يجب التشجيع عليها بسبب ما تمنحنا إياه من قدرات تختلف فى جوهرها عما نسميه بالقلق ، والوقوع فى المرض النفسى .

● التحرر من سيطرة الانفعال الواحد

- هل تستطيع أن تعبر عن حبك واستلطافك لبعض الأشياء والأشخاص فى الوقت المناسب ؟
- إذا جرح أحد مشاعرك ، فهل تتجنب إيذاء مشاعره ؟
- إذا وضعتك الظروف مع شخص غريب عنك ، فهل تجد صعوبة فى بدء الحديث ؟
- إذا طلب منك طلبا غير معقول فهل ترفض ذلك ببساطة ؟
- هل تحتج إذا منعك أحد من ممارسة أحد حقوقك ؟

- هل تجد صعوبة فى مدح أو تفريط الآخرين ؟
- إذا ارتكب شخص أقل منك منزلة أو تحت إشرافك خطأً معيناً فهل تجد صعوبة فى تأنيبه ؟
- هل تكثر من الإعتذار والتأسف ؟
- إذا طلب منك في مطعم أو تاكسى أن تدفع أكثر مما تعتقد أنه مطلوب فهل تدفع صاغرا ، ودون استفسار أواحتجاج ؟
- إذا حدث شيء غير متوقع ، فهل من السهل عليك أن تبدى دهشتك ؟
- هل بمقدورك أن تصد شخصا أو مجموعة من الأشخاص إذا ما شعرت أن نكاتهم سخيفة أو تجرح مشاعرك ؟ .

تمثل كل عبارة من العبارات السابقة ، موقفاً إجتماعيا قد تعود علينا مواجهته بالقلق والضيق إذا ما فشلنا فيه ، أما إذا استطعنا أن نواجهه بنجاح ، فإننا نشعر بالرضا والانتشاء . ولكى تتم مواجهة هذه المواقف بفاعلية أو نجاح ، فإننا نحتاج إلى تشكيل انفعالاتنا بطرق مختلفة ومتنوعة . فبعضها يتطلب التعبير عن الرفض ، أو الاستلطاف ، وبعضها يتطلب الاحتجاج والعدوان ، ومواقف أخرى تتطلب المدح أو التأنيب ، أو الدهشة .

ومن مآسى القلق أنه يكبلنا بشعور واحد هو الخوف . ومن شأن الخوف أن يشل غيره من الانفعالات الإيجابية التى تلائم الموقف . إننا بسبب القلق والخوف نعجز عن التعبير عن

مشاعرنا فى الاحتجاج على موقف سخيف ، أو نكتم معارضتنا عند الاختلاف فى رأى يُبْدى ، أو نرغم أنفسنا على تقبل جماعة مملة . وبسبب القلق نعجز حتى عن التعبير عن استمتاعنا بالأشخاص والأشياء الجميلة ، أو إظهار إعجابنا أو دهشتنا بصورة واضحة .

ولهذا تتطلب الصحة قدرة على التحرر من سيطرة الانفعال الواحد ، وتدريب النفس على التعبير عن المشاعر بحرية فيما عدا التعبير عن القلق . والتعبير عن المشاعر المختلفة فى الوقت الملائم يمتد ليشمل الرفض ، والود ، والغضب ، والإعجاب ، والحب والعدوان ، والتحمس والإحتجاج . بعبارة أخرى فإن السواء يتطلب الألفة بالتعبير عن كل المشاعر فى وقتها الملائم . والمريض النفسى الذى يثقل القلق حياته يعجز عن التعبير الحر المنطلق عن الذات سواءً كان ذلك فى المواقف التى تحتاج منه لصد عدوان معين أو إظهار التأييد والحب لشخص أو موقف معين .

التلون الانفعالى :

هذه الخاصية التى أطلقنا عليه فى موقع آخر اسم الحرية الانفعالية خاصية تدل على التكامل والصحة والتحرر من قيود الانفعال الواحد . وتتطلب القدرة على الحرية الانفعالية درجة عالية من **التلون الانفعالى** . ومفهوم التلون الانفعالى مفهوم ابتكره الكاتب الحالى ليشير به إلى إحدى الخصائص الإيجابية التى تتواتر فى السلوك بعد النجاح فى العلاج النفسى . فيبدأ المريض بالتنوع فى مشاعره واستجاباته نحو البيئة فيرفض بعض المواقف ، ويقبل بعض المواقف ...

الاخرى ، ويطالب بحقوقه ، ويستحسن هذا ، ويتجاهل ذاك .. وهكذا .

وقد يتوهم البعض خطأً أن التلون الانفعالى لون من ألوان النفاق أو التلاعب بمن هم حولنا . لكننى لا أظن أن القارىء الذى استوعب الشرح السابق لهذا المفهوم يعجز عن التمييز بين هاتين الخاصيتين . فالمنافقة والخداع والتحكم فى الآخرين تعبر عن تصرفات تتعارض مع الحرية الانفعالية ، وتشير فى حقيقة الأمر الى التقيد الانفعالى نتيجة للخوف من التعبير عن المشاعر الحقيقية نحو بعض الأخطاء السلوكية التى ترتكب فى حقنا أو حق الأخرين . ومثل هذه التصرفات تتعارض مع التصرفات الدالة على التلون الانفعالى والتى تتسم بحرية واضحة فى اختيار الشعور الملائم فى الموقف . وإذا كانت المنافقة والتلاعب بالأخرين تزيد من قلق الشخص بسبب ما تضعه من قيود على مشاعره الحقيقية ، فإن التلون الانفعالى غالبا ما يعود على الشخص بانخفاض فى مستوى القلق ، ومقدرة أكثر على التكيف الاجتماعى الفعال ، واحترام الذات وذلك بسبب ما يثيره هذا1 التلون من حرية فى التعبير .

الدفاع عن الحقوق والمكاسب الشخصية :

وتجد نسبة كبيرة من الناس نفسها عرضة للقلق لأنها تشعر بالعجز عن ابداء الرأى فى مشكلة ما ، أو التعبير عن الاحتجاج فى المواقف التى يشعر فيها بأن حقوقه قد اخترقت ، أو حجبت عنه بعض المكاسب ، أو أن أحدا حاول عامدا أن يشوه من صورته وإنجازاته . وعادة ما يبرر الناس ذلك بأنهم لا يريدون خسار الناس ، وأنهم يحرصون على حب

الناس . وإذا كان ذلك آمر مقبول نسبيا عند التعامل مع الرؤساء والمديرين ، ومواقع السلطة فإنه يصبح غير مقبول تماما عند التفاعل بالزملاء والأنداد والأفراد العارضين فى حياتنا . ولهذا نجد أن الانسحاب الإجتماعى خاصية تنتشر بين الأشخاص المصابين بالقلق . ومن المعروف أن الانسحاب من التفاعل بسبب ما يثيره هذا التفاعل من قلق لا يخفف من مشاعر القلق ولا يقلل منها .

ولهذا تتطلب الصحة قدرة على الدفاع عن الحقوق الشخصية ، والمعارضة . ومن اللياقة النفسية فى هذا الصدد أن نشكل سلوكنا على حسب متطلبات الموقف . وإذا كان النجاح يخلق النجاح ، فإن نجاح الشخص فى التعبير الصادق الأمين فى الموقف ستزيد من ثقته بنفسه ، وقدراته على ضبط مخاوفه وقلقه .

وتمثل العلاقة بالسلطة أى الرؤساء والمشرفين مشكلة شائكة من حيث الدفاع عن الحقوق والإحتجاج عند إختراق حقوق الأخرين . إننا لا نعنى أن كل سلطة سيئة ، أو أن كل المشرفين والرؤساء يخرقون الحقوق ويجحفون بمرؤسيهم . لكن هناك بالطبع من يمارس السلطة على نحو سيء ، وهناك دون شك من يجحف فى تطبيق القوانين ويسخرها للمصلحة الشخصية ويطوع القواعد بشكل يوقع الظلم والإجحاف بالبعض دون البعض الأخر .

وعندئذ تتطلب الصحة معرفة ببعض الأساليب التى تمكن الشخص من الدفاع عن حقوقه . إن الاحتجاج المباشر وإثارة الصراع ، والرفض الواضح ، واقحام الذات فى معارك

مباشرة مع السلطة .. قد لا تكون الأساليب الملائمة فى مثل هذه المواقف . لكن تحرير النفس من القلق والخوف ستمكن الشخص دون شك من القيام بأساليب أخرى تحقق له هدوئه ، وتمكنه من المحافظة على حقوقه وكرامته ومكاسبه دون إخلال بالنظام الإجتماعى الذى يحدد العلاقة بالسلطة ، والعمل . وقد استطاع علماء النفس أن يبتكروا الكثير من هذه الأساليب التى تلائم هذه المواقف ، ولكننا نجد أن الدخول فيها لا يتلائم مع هذا السياق .

التحرر من العدوان وإثارة المعارك والصراع من أجل الصراع :

إذا كان من الصحة والنضوج التعبير عن الرفض ، والمعارضة والصمود فى وجه الصراعات التى قد تصدر بين الحين والأخر ، فإن هذا لا يعنى الاتسام بالإندفاع والعدوان وإثارة المعارك ، والصراع من أجل الصراع ، إن إثارة المعارك لا تعتبر دائما طريقة ملائمة للتكيف ، فهى تشتت الانتباه ، وتثير صراعات جديدة . وتتطلب الصحة ، قدرا كبيرا من معالجة التوترات الإجتماعية بتجنب الاندفاع والاستثارة السريعة ، والتهجم والإصرار على الانتقام . هذا دون إغفال لحقوقهم الشخصية وحقوق غيرهم الداخلين معهم كأطراف . صحيح أن بعض المواقف تتطلب قدرا معيناً من العدوان لكن اتخاذ العدوان وتغليبه يفقده كثيرا من خصائصه الإيجابية ويوقع الشخصية تحت سيطرة الانفعال الواحد .

ولهذا يولى علماء العلاج النفسى جزءا كبيرا من مجهوداتهم العلاجية إلى تدريب المرضى على العدوان

والدفاع عن حقوقهم الشخصية ، ويدربونهم أيضا وبنفس الجهد على التعبير عن إظهار الود ، والتعاون ، وإبداء الإعجاب ، أو مدح سلوك طيب ، أو تأييد رأى جيد . وتدلنا ملاحظاتنا أن كثيرا من الأشخاص قد يسهل عليهم التدرب على إظهار العدوان والغضب ، لكنهم يجدون صعوبة واضحة فى التعبير عن مشاعر الإعجاب والحب وتدعيم الأخرين .

التحرر من الشعور بالندم والتأنيب الدائم للنفس :

المحاكمات المستمرة للنفس واللوم الذاتى الذى لا يكاد ينقطع لأن الشخص تصرف بطريقة ما وكان يجب أن يتصرف بطريقة أخرى ، أو كاد يجب أن لا يبدر منه هذا السلوك أو ذاك ، تجعل الشخص مثقلا بالهموم والقلق .

ويزداد ميل البعض للإحساس بالذنب بصورة مبالغ فيها أكثر من البعض الأخر .. ويبدو أن من أسباب التى تقوى من هذا الإحساس عند البعض ترتبط بأساليب التنشئة الوالدية . فالخبرات الماضية ، وأساليب الوالدين فى تنشئة الطفل قد تتسم بالرغبة فى السيطرة على سلوك الطفل من خلال إشعاره بالذنب وإظهاره مخطأً فى حق الأخرين أو الأبوين .

وعادة ما تنتشر بين الأباء والأمهات الذين يستخدمون أسلوب الإحساس بالذنب كثيرا من العبارات التى تثير هذا الإحساس عمدا فى نفس الطفل للتحكم فى الأخطاء السلوكية التى قد تصدر منه . من هذه العبارات .

"حرام عليك"
"لقد ضحينا من أجلك"
"

إننا أكبر منك سناً"
"إذا استمررت فى ذلك فلن يحبك أحد"
.... الخ .

وقد تنجح هذه الأساليب بالفعل فى ضبط سلوك الطفل ، لكنها تنجح فى ذلك بتمن باهظ يدفعه الطفل نفسه . فهو يتعلم من هذه الأساليب مبكرا عدم تقبل النفس والوقوع تحت رحمة الشعور الدائم بالقلق ، وافتقاد السلام مع النفس .

وإذا كانت الصحة النفسية تتطلب ضبط مشاعر الندم الدائمة ، فإن ذلك لا يعنى الدعوة إلى إضعاف الضمير والحس الخلقى ، كما لا يعنى أن نبلد إحساسنا بآلام الأخرين ومعاناتهم . إن الأمر على عكس هذا تماما لأن البحوث تبين لنا أن الأصحاء يجدون لديهم طاقة أكبر على الإرتباط والدفاع عن بعض القضايا الضميرية والحس الخلقى . وتبين أنهم أكثر قدرة على التحرر من قضايا التعصب العنصرى والطبقى ، كذلك نجدهم أكثر إحساسا بالغبن الإجتماعى الذى يقع عليهم أو على الأخرين بسبب الجنس أو الدين أو القومية أو الانتماء لأقلية اجتماعية معينة . وهذه جوانب من السلوك لا يجد الأشخاص الذين تعتصرهم مشاعر الذنب والندم وقتا أو طاقة للدفاع عنها .

ومن الصحة أن يعترف الانسان بأخطائه حتى يتجنب تكرارها . لكن الصحة أيضا تتطلب أن لا تتفاقم هذه المشاعر لدرجة تعوق الشخص عن اكتشاف جوانب المتعة المشروعة فى حياته .

ومن مزايا التحرر من الندم الدائم ، أنه يجعل الشخص أكثر قدرة على معايشة اللحظة الراهنة بكل متطلباتها . إن الشخص السوى يعرف جيدا أن اللحظة الحاضرة هى الشىء الوحيد الذى بإمكاننا التحكم فيه . ولهذا فإن متعته بالحاضر تكون أكبر من أن تطبع بأحسيس الندم على الماضى . إن الصحة تتطلب بعبارة أخرى الاتعاظ بالماضى لكن دون أن نغفل عما يحمل حاضرنا من لحظات إيجابية وقواعد خاصة به .

● اللياقة البدنية

المظهر والملبس النظيف :

إتقان الهندام ، والعناية بالملبس والمظهر النظيف ، والسير النشط الذى ليس بهرولة أو تراخى ، وتجنب الحركات الدالة على التعب والعناء والملل جميعها أشياء يجب تشجيعها . صحيح أنها لا ترتبط إرتباطا مباشرا بالصحة النفسية أو الوفاق النفسى ، إلا أنها تساهم فى رفع الروح المعنوية للشخص . فهى من ناحية تمنح الشخص إحساسا بالنشاط والحيوية ، كما أنها ذات تأثير إيحائى قوى فى الأخرين بسبب ما تثيره إنطباعات جيدة تكون انعكاساتها على إحترام الشخص لنفسه وتقييمه لها واضحا .

الإهتمام بالتمارين الرياضية :

ومن علامات الصحة الاهتمام بالتمارين الرياضية . ولا يعنى بذلك الانتماء إلى نادى ، أو التعصب المقيت لجماعات رياضية معنية ، أو الولع الشديد بالقوة وبناء العضلات ، لكن

التمرينات الرياضية الخفيفة كالتمشى ، والسباحة من الأشياء التى تساعد على التنظيم الفسيولوجى لأعضاء الجسم ، كما أنها تزيد من حيوية الذهن ، وتساهم بشكل عام فى رفع اللياقة البدنية للشخص . وبالرغم من أن النشاط الرياضى يحتاج للإعتدال والمثابرة ، فإن من الأفضل أن يتحول إلى أسلوب حياة . فإذا بدا أن من الصعب أقتطاع جزء من وقت الشخص لذلك ، أو أن المكان لا يسمح فإن القيام بذلك فى أى وقت من أوقات النهار أو الليل أو فى أى مكان للحظات قصيرة قد يفى ولو جزئيا بأغراض التنظيم الفسيولوجى . إذا كان عملك مثلا يتطلب الاعتكاف على مكتب . فحاول أن تقوم بين فترة وأخرى بعمل بعض التمارين السويدية لدقيقتين أو ثلاث . إذا كان عملك يتطلب الانتقال من مكان إلى أخر ، حاول أن تبقى سيارتك أو التاكسى على مسافة بعيدة نسبيا من المكان .. حتى تكون أمامك فرصة أكبر للسير ، لا بأس أن تقوم خلال مشاهدتك للبرامج التليفزيونية بهذه التمارين الخفيفة أثناء مشاهدتك إياها . بعبارة أخرى ، إذا حاولت أن تجعل من هذا الهدف أسلوبا لحياتك ، فإنك بالطبع ستستطيع أن تلتقط كثيرا من الأوقات التى قد تبدو لك غير ملائمة وأن توظفها لهذا الغرض . إن كثيرا من الأمراض التى يطلق عليها علماء النفس إسم الأمراض السيكوسومائية أى الأمراض النفسجسمية وهى الأمراض العضوية التى يكون منشؤها نفسيا كارتفاع ضغط الدم ، والآلام العضلية ، وأمراض التنفس تكون نتيجة مباشرة لأسلوب حياة خاطىء . وينصح الأطباء أن يكون علاجها مزيجا من العلاج العضوى والنفسى والمثابرة على

التدريبات الرياضية .

الغذاء المتوازن :

تعرف البديهة الصحية قيمة الغذاء المتوازن والبعد عن النهم والإسراف فى الأطعمة الدسمة التى تفقد الجسم كثيرا من حيويته . لكن الغذاء المتوازن لا يعنى الحرمان من الأطعمة أو تجويع النفس بهدف المحافظة على الصحة والنحافة . صحيح أن لكل شخص ظروفه الصحية التى تستتبع أن يكون حذرا فى تناول بعض الأطعمة دون البعض الأخر ، لكن اللياقة البدنية تحتاج إلى أن يهتم الشخص بهذا الجانب وأن يفحص غذائه على اساس علمى حتى ولو احتاج منه ذلك إلى استشارة الإختصاصيين فى هذا المجال . وتتزايد أهمية هذا الجانب إذا كان الشخص يعانى من بعض الإختلالات العضوية الشديدة الإرتباط بالوظائف النفسية كارتفاع الضغط ، أو السكر ، وأمراض التنفس . وبالرغم من عدم وجود أدلة علمية قاطعة على العلاقة المباشرة بين الغذاء (كالفيتامينات مثلا) والأمراض النفسية ، إلا أن اللياقة البدنية التى يكون الغذاء والطعام من إحدى مقوماتها الرئيسية تكون لها تأثيرات سلوكية ، بسبب التأثير الايحائى الإجتماعى للصحة الجسمية ، وبسبب ما تمنحه لنا الصحة الجسمية من طاقة ومقدرة أكثر على بذل الجهد ، والمثابرة على النشاطات التى تتعارض مع القلق وأمراض النفس .

الراحة والاسترخاء :

الاسترخاء العضلى فن له قواعده العلمية التى يسهل على أى شخص تعلمها . وقد أصبح الآن أسلوب له تماربنه

الخاصة التى يمكن اتقانها بقليل من الجهد . وفضلا عما للإسترخاء من آثار عامة منشطة للجسم والبدن بعد إكماله ، فإنه يلعب دورا معارضا للقلق . فالقلق والإسترخاء لا يجتمعان . فمن أحد الملامح الرئيسية للقلق التوتر البدنى والعضوى الشديد ، لكن الاسترخاء هو اختفاء للتوتر ، ويتطلب المحافظة على أعضاء الجسم فى وضع سلبى غير نشط للحظات قد تطول أو تقصر .

وتحتاج الصحة إلى ممارسة الاسترخاء عمدا مرتان أو ثلاث مرات يومياً لفترة تتراوح من ٨ دقائق إلى ١٥ دقيقة فى كل مرة . ويمكن أن يكون الاسترخاء عاما لكل الجسم . ويحتاج الاسترخاء العام من هذا النوع إلى مكان خاص ، وأن يستلقى الشخص على أريكة أو سرير وأن يبتعد عن المشتتات . ولكن يمكن أن يكون الاسترخاء موجها لبعض العضلات أو الأعضاء الخاصة كالجبهة فى حالة الصداع ، والأعضاء السفلى من الجسم عند الممارسة الجنسية ، والظهر عند القيام بنشاطات تتطلب الجلوس كقيادة السيارة أو العمل المكتبى .. إلخ . وهذا النوع الأخير من الإسترخاء ليس له وقت معين أو مكان معين إذ يمكن للشخص أن يمارسه فى أى وقت يقوم فيه بالنشاط المرتبط بالتوتر والقلق .

معالجة المشكلات الصحية :

وتحتاج المحافظة على اللياقة البدنية إهتماما بعلاج المشكلات البدنية والأمراض التى قد تصيب الشخص . ويخطىء الشخص إذا استمع للأخرين عندما يقولون له أن مرضه ليس جسميا ، ولكنه موهوم . وتبين ملاحظاتنا لبعض

المرضى أن كثيرا من شكاواهم الجسمية تكون حقيقة ، ولو أن بعضها يكون نابعاً من المبالغة أو ضيق الاهتمامات . ولهذا فإن الزيارة المنظمة للطبيب والقيام بالتحليلات الضرورية ، والاستمرار فى العلاج حتى نهايته .. ستؤدى إلى التعجيل بالشفاء ، وتقلل من المفاجآت المرضية الخطرة .

وإذا كان الاهتمام بالعلاج الطبى للمرض شيئا يجب التشجيع عليه ، فإن الاهتمام بعلاج المرض لا يعنى الإهتمام بوجود المرض ذاته . فالإنزعاج الشديد بالرغم من التزام الشخص بمتطلبات العلاج شىء يزيد من هموم الشخص والأسرة ويخلق جوا نفسيا كئيبا . ولهذا فإن معالجة المشكلات الصحية تتضمن بالإضافة إلى علاجها إلى أن لا نشجع التطرف الشديد فى الاهتمام بوجود المرض نفسه فيتحول الشخص إلى شكاء شديد الإنزعاج والهلع . إن الهلع والشكاوى الكثيرة والمخاوف من الإصابة من الأمراض حتى قبل حدوثها تعبر عن القلق وتساعد على استمراره ، ولا تقل خطورة عما يتركه إهمال الصحة والسخرية من أوامر الأطباء والاستخفاف بالعلاج .

ومن ملامح الصحة ـ بهذا الشأن ـ أن لا يتعامل الشخص مع الأمراض البسيطة التى تصيبه كالزكام ، والبرد ، والآلام العضلية كالصداع إلى كارثة تشل النشاط ، وتكبل قوانا الحيوية .

وباختصار فإن العلاج الملائم والدواء المناسب ، والوقاية المبكرة ، وتدريب الجسم مبكراً على المقاومة ، وتجنب الأماكن أو الأشخاص الذين يمكن أن تنتقل منهم العدوى

بسهولة .. كلها أشياء تعرف البديهة العامة آهميتها وضرورتها . لكن الاستسلام للمرض والعجز ، وفرض قيود شديدة على تحرك الشخص وممارسة نشاطاته بسبب الأمراض الخفيفة قد يتحول إلى خاصية دائمة فى الشخصية لا تخدم تطورها نحو الصحة بأى حال .



- أحمد محمد عبدالخالق (١٩٨٧) . **قلق الموت** . عالم المعرفة ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب .

- دافيد شيهان (١٩٨٨) . **مرض القلق** . عالم المعرفة ، ترجمة عزت شعلان ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون الآداب .

- عبدالستار ابراهيم (١٩٨٧) . **علم النفس الاكلنيكى : مناهج التشخيص والعلاج النفسى** . السعودية ، الرياض : دار المريخ .

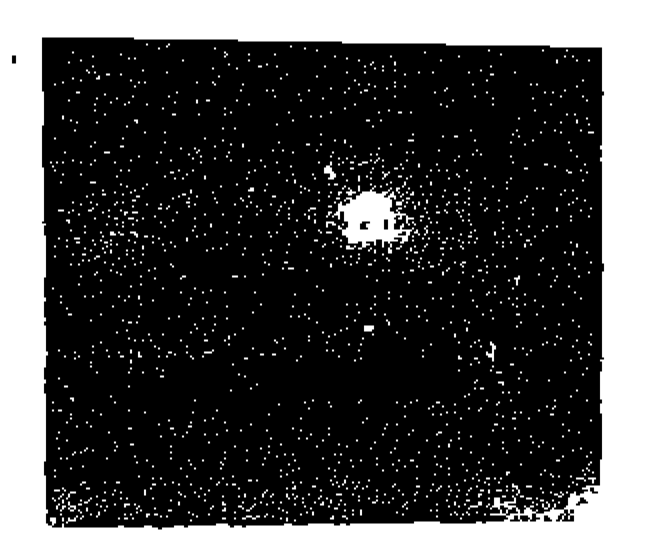
- عبدالستار ابراهيم (١٩٧٩) . **العلاج النفسى الحديث : قوة الانسان** . عالم المعرفة ، الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب .

— Beck, A.T £ Emery, G (1985) . Anxiety Disorders and phobias . New York : Basic Books (U . S . A) .

— Eyenck, H. J. (1978) You and Neurosis . Glasgow : Fontana / Collins (England) .

— Goodwni, D.W. (1986) . Anxiety . New York : Ballantine (U . S . A) .

— Greist, J .; Jefferson, J. ; £ Marks, I. (1986) . Anxiety and its Treatment . New York : Warner Books (u . S . A) .



صفحة

مقدمة ٥

الفصل الأول ....

التعرف على القلق ٩

الفصل الثانى ....

مجتمعات انسانية عرفت القلق ٢٩

الفصل الثالث ....

القلق وراثة وصناعة ٤٥

الفصل الرابع ....

محاور العلاج ٦٧

الفصل الخامس ....

القلق فى حياة أطفالنا ٨٩

الفصل السادس ....

ملامح الصحة .. والوفاق النفسى ١١٣

١٩٩١ / ٤٠٨٨

I.S.BN

977-07-0077-0

كتاب الهلال القادم :

أوبرا
تريستان وايزولدا

تاليف

ريتشارد ڤاجنر

ترجمة وتقديم :

بدر توفيق

يصدر : ٥ يونيه ١٩٩١

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور عبدالستار إبراهيم الذى أثرى المكتبة العربية والغربية بكثير من المؤلفات والبحوث فى علم النفس .. لقد عمل فى مجالات علم النفس الواسعة بجوانبها الأكاديمية والتطبيقية .. مارس العلاج النفسى فى العالم العربى والولايات المتحدة ما يربو عن عشرين عاما .. وقد عمل بكثير من الجامعات الكبرى فى العالم بما فيها جامعة القاهرة وجامعة ميشيجان .. ولم يفقد اهتمامه بالقضايا النفسية فى العالم العربى بالرغم من انتقاله إلى العمل والاقامة بالولايات المتحدة منذ أوائل السبعينات .. وهو الآن يعمل أستاذا لعلم النفس الطبى بكلية الطب جامعة الملك فيصل بالسعودية .

يقدم المؤلف فى هذا الكتاب خمسة فصول رئيسية تمثل حصيلة خبرته الطويلة فى العلاج النفسى والبحث العلمى فى موضوع القلق .. ومع أن هذا الكتاب ليس كتابا فلسفيا .. ولا نظريا خالصا فى موضوع القلق .. فانه يستفيد دون شك من النظريات المعاصرة وجوانب التقدم الحديثة فى دراسة هذا الموضوع ليقدم من خلالها رؤيته الخاصة ونهجه فى العلاج النفسى للقلق بين البالغين والأطفال .. ولهذا يثق المؤلف بفائدة هذا العمل لضحايا هذا الاضطراب ، وللممارسين فى مجالات الطب النفسى وعلم النفس جميعهم سواء بسواء .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

